

لذلك لا يُديم الله سبحانه غنى أحدٍ أبد الدهر ، بل جعل الدنيا دُولاً<sup>(١)</sup> بين الناس .

إذن : فلو عرف هذا الملاك الكافر من قوم نوح - عليه السلام - معنى كلمة الفضل<sup>(٢)</sup> لما قالوها ؛ لأن الفضل هو الزائد عن المطلوب للكائن ، فى المحسوسات أو المعانى والفضل يقتضى وجود فاضل ومفضل .

ولينظر كل طاغية فى حياته ليرى ما الفاضل فيها ؟

إنه بعض من المال أو الجاه ، وكل من يخدم هذا الطاغية هم أصحاب الفضل ؛ لأن سيادة الطاغية مبنية على عطائهم .

فهم أصحاب الفضل ، ما دام الفضل هو الأمر الزائد عن الضرورى .

إذن : فحقيقة ارتباط العالم بعضه ببعض ، هو ارتباط الحاجة لا ارتباط السيطرة ، ولذلك حين نرى ميطراً يطفى ، فنحن نقول له : تعقل الأمر ؛ لأنك ما سيطرت إلا بأناس من الأراذل ، فإظهار قوته تكون بمن يجيدون تصويب السلاح ، أو بمن تدربوا على إيذاء البشر ، فهو يبنى سيادته ببعض الأراذل ، كوسائل لتحقيق سيطرته .

وقول الكافرين من ملا نوح - عليه السلام - :

﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ۖ .. ﴾ (٢٧)

[هود]

يكشف أنهم قد فهموا الفضل على أنه الغنى ، والجاه والمناصب ، وهم قد أخطأوا الفهم .

(١) الدولة : اسم للشئ الذى يتداول ، والدولة : الفعل والانتقال من حال إلى حال . [ بتصرف من لسان العرب - مادة : دول ]

(٢) فالفضل بمفهوم الكفرة يخالف الفضل فى مفهوم المؤمن : فالفضل عند الكافر هو المال والسلطان ، وفى مفهوم المؤمن هو الاصطفاء والعطاءات والهيئات الإلهية التى يصطفى الله سبحانه بها الرسل والأنبياء والمخلصين من عباده .

وَيُنْهِى الْحَقَّ سُبْحَانَهُ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ :

﴿ .. بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ (٢٧)

[هود]

والظن<sup>(١)</sup> هو الراجح، والمرجوح هو الوهم؛ وهذا يثبت أن في الإنسان فطرة تستيقظ في النفس كومضات، فالمتكبر يمضي في كبره إلى أن تأتي له ومضة من فطرته، فيعرف أن الحق حق، وأن الباطل باطل.

وحين جاءت هذه الومضة في نفوس هذا الملائ الكافر، قالوا :

﴿ .. بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ (٢٧)

[هود]

ولم يقولوا : « نعتقد أنكم كاذبون ».

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَدَيْنِ مِّن رَّبِّي وَءَالِئِي رَحْمَةٍ  
مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنسَ لَهَا كِرهُونَ ﴾ (٢٨)

وقول نوح عليه السلام : ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أى : أخبرونى إن كنت على بينة موهوبة من الله تعالى ونور وبصيرة وفطرة بالهداية ، وآتانى الحق سبحانه : ﴿ رَحْمَةً ﴾ أى : رسالة ، بينما خفيت هذه المسألة عنكم ، فهل أجبركم على

(١) الظن : ما يحصل في النفس عن أماره ، فهو شك راجح ، وفعله من أفعال الرجحان . والظن : مصدر ، والظن : اسم لهذا الخاطر الذى يحصل في النفس . قال تعالى : ﴿ .. إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ الظَّنُّ لَا يَصِفِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [النجم] وجمعه : ظنون . وقال تعالى : ﴿ .. وَتَقُولُونَ بِآلِهِ الظَّنُّونَا ﴾ [الأحزاب] الظنوننا باللف في الوصل ، وفي الوقف ، ويغير ألف قراءة . [القاموس القويم] .

(٢) البينة : الحجة الواضحة الموضحة للحق . والبينة : الظاهرة الواضحة التى لا شك فيها ، أو هى مبينة للحق مقيدة له ، مظهرة لأمره . قال تعالى : ﴿ كَمْ أَتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ .. ﴾ [البقرة] . [القاموس القويم] يتصرف .

ذلك ؟ لا ؛ لأن الإيمان لا بد أن يأتي طواعية بعد إقناع ملموس ، وانفعال مأنوس ، واختيار ييقين<sup>(١)</sup> .

وحين ننظر في قوله :

﴿ .. أَنْزَلْنَاهُمْ مَكُومًا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ (٢٨)

[هود]

نجد الهمزة الاستفهامية ثم الفعل «نزل» ثم كاف المخاطبة ، وهنا نكون أمام استفهام ، وفعل ، وفاعل مضموم في الفعل ، ومفعول أول هو كاف المخاطبة ، ومفعول ثان هو الرحمة .

إذن : فلا إلزام من الرسول لقومه بأن يؤمنوا ؛ لأن الإيمان يحتاج إلى قلوب<sup>(٢)</sup> ، لا قوالب ، وإكراه القوالب لا يزرع الإيمان في القلوب .

والحق سبحانه يريد من خلقه قلوباً تخشع ، لا قوالب تخضع ، ولو شاء سبحانه لأرغمهم وأخضعهم<sup>(٣)</sup> كما أخضع الكون كله له ، فهو سبحانه القائل :

﴿ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ .. ﴾ (٢٧)

[النازعات]

فالحق سبحانه وتعالى أخضع السماء والشمس والقمر<sup>(٤)</sup> ، وكل الكون ، وهو سبحانه يقول لنا :

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ سَتَرْنَاهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ نَبَيِّنَ لَهُمُ اللَّهُ الْحَقَّ .. ﴾ (٢٧) [فصلت]

(٢) القلوب لها حكومة خاصة ، يقول الحق : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (٢٨) [محمد]

ويقول : ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ .. ﴾ (٢٩) [الأنفال] فإيمان القلوب إيمان العابدين ، وإيمان

القوالب إيمان الكافرين والمترائين والمنافقين ، وهناك فرق بين قبول اليقين ومعتقد المكرهين .

(٣) ورب العزة سبحانه يقول : ﴿ وَقَوْا شَاءَ رَبُّكَ لَا مَنَ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمْعًا فَقَاتِ تَكْفُرُ النَّاسُ حَتَّىٰ يَكُونُوا

مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣٠) [يونس] ، ويقول أيضاً : ﴿ .. وَقَوْا شَاءَ اللَّهُ لَجْمَعُهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْبَاطِلِينَ

﴾ (٣١) [الأنعام]

(٤) يقول الحق : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ

﴾ (٧٧) [الرحمن] ويقول الحق : ﴿ تَبَٰرَكَ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا بِحِسَابِهِ

وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَبْيِٰحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (١١١) [الإسراء]

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ..﴾ (٥٧) [غافر]  
والكون كله يخضع لمشيئة الله سبحانه وتعالى .  
وقد خلق الحق سبحانه الملائكة وهم جنس أعلى من البشر ، وقال  
سبحانه عنهم :

﴿ .. لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٦) [التحريم]  
إذن : فالحق سبحانه وتعالى لو أراد قوالب لأخضع الخلق كلهم  
 لعبادته ، ولكنه سبحانه وتعالى يريد قلوباً تخشع ؛ ولذلك يقول تبارك وتعالى :  
﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ <sup>(١)</sup> نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) إِنْ نَشَأْ نُنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنْ  
السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) [الشعراء]  
وهكذا نعلم أن الحق سبحانه مُنْزَعٌ عن رغبة إخضاع القوالب البشرية ،  
بل شاء سبحانه أن يجعل الإنسان مختاراً ؛ ولذلك لا يُكْرِهُ الله سبحانه  
أحداً على الإيمان .

والدين لا يكون بالإكراه ، بل بالطوعية والرضا .

والحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ <sup>(٢)</sup> .. ﴾ (٢٥٦) [البقرة]  
وهكذا يطلب الحق سبحانه من الخلق أن يعرضوا أمر الإيمان على  
العقل ، فالعقل بالإدراك يفعل متعجباً لإبداع المبدع ، وعند الإعجاب يتزع  
إلى اختياره بيقين المؤمن .

(١) باخع نفسه ، بخعاً وبخوعاً : قتلها ممّاً وغيظاً وحزناً . وقال تعالى : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ  
لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (١٧) [الكهف] .  
(٢) الغي : الضلال والانهماك في الجهل .



يقول الحق :

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠)﴾  
[آل عمران]

والإكراه إنما يكون على أمر غير مُتَّبِعٍ ، أما الدِّينُ فامر يتَّبِعُ فيه الرشد ؛ لأن المنهج حين يطلب منك ألا تسرق غيرك ، فهو يضمن لك ألا يسرقك الغير ، وحين يأمرك ألا تنظر إلى محارم غيرك ، فهو يحمي محارمك ، وحين يأمرك ألا تغتاب أحداً ، وألا تحقد على أحد ، ففي هذا كله راحة للإنسان .

إذن : فما يطلبه المنهج هو كل أمر مريح للإنسان ، وأنت إن نظرت في مطلوبات المنهج فلن تجد لها مطلوبة منك وحدك ، ولكن مطلوبة من الناس لك أيضاً . وهو تبادل مراد من الله لإعمار الكون أخذاً وعطاء .

ولذلك لا يحتاج مثل هذا الرشد إلى إكراه عليه ، بل تجد فيه البيئة واضحة فاصلة بينه وبين الغي .

والآفة أن بعضاً من الناس يستخدمون هذه الآية في غير موضعها ، فحين تطلب من مسلم أن يصلّي تجده يقول لك :

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ (٢٥٦)﴾ [البقرة]

ولك أن تقول له : لا إكراه في الحمل على الدين والإيمان به ، لكنك إذا آمنت بالدين فإياك أن تكسره ، بتعطيل منهجه أو الإعراض عنه .

ولذلك يشدد الحق سبحانه عقوبة الخروج من الدين ؛ لأن الحق سبحانه لم يكره أحداً على الدخول في الدين ، بل للإنسان أن يفكر ويتدبر ؛ لأنه إن دخل في الدين وارتكب ذنباً فسيلقى عقاب الذنب ؛ لأنه دخل برغبته واختاره بيقينه ، فالمخالفة لها عقابها .

إذن : فالدخول إلى الإيمان لا إكراه فيه ، ولكن الخروج من الدين يقتضى إقامة الحد على المرتد<sup>(١)</sup> ومعاقبة العاصي على عصيانه .

وعندما يعلم الجميع هذا الأمر فهم يعلمون أن الحق سبحانه وتعالى قد جعل الصعوبة في الدخول إلى الدين عن طريق تصعيب آثار الخروج منه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك على لسان نوح عليه السلام :

﴿ وَيَقُولُ لَا اسْتَفْهِمُوا عَلَيْهِ مَا لَآ إِنَّا أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَلَكِيفَ أَرْكَزُ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴾<sup>(٢)</sup>

ومثل هذا القول بمعناه جاء مع كل رسول ، ففي مواضع أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا .. ﴾<sup>(٣)</sup> [الأنعام]

لأن العوض في التبادل قد لا يكون مالا ، بل قد يكون تمراً ، أو شعيراً أو قطناً أو غير ذلك ، والأجر - كما نعلم - هو أعم من أن يكون مالا أو غير مال ؛ لذلك يقول الحق سبحانه هنا :

(١) حد المرتد في شريعة الإسلام هو القتل ، فقد روى البخارى في صحيحه (٢٦٧/١٢ - فتح) عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « من بدل دينه فاقتلوه » ، وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، وقتل نفس بغير نفس » أخرجه مسلم في صحيحه (١٦٧٦) .

ولكن يجب أن يشبه إلى أنه لا يحكم بارتداد أحد إلا بعد صدور ما يدل على كفره دلالة قطعية لا تحتمل التأويل ، حتى تُنسب إلى الإمام مالك أنه قال : « من صدر عنه ما يحتمل الكفر من تسعة وتسعين وجهاً ويحتفل بالإيمان من وجه ، حُمل أمره على الإيمان » . ولا يطبق حد الردة إلا بعد الاستتابة لمدة ثلاثة أيام .

(٢) أى : لا أسألكم على تبليغ الرسالة والدعاء إلى الله والإيمان به مالا أو غيره .

(٣) إن - هنا - نافية ، بمعنى : « ما » أو « ليس » أى : ما أجرى إلا على الله .

﴿ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ .. ﴾ (٢٩) [هود]

وهكذا نجد أن الحق سبحانه قد أغلَى الأمر .

وقول الرسول :

﴿ إِنْ أَجْرِيَ <sup>(١)</sup> إِلَّا عَلَى اللَّهِ .. ﴾ (٢٩) [هود]

هو قول يدل على أن الأمر الذي جاء به الرسول هو أمر نافع ؛ لأن الأجرة لا تستحق إلا مقابل المنفعة .

ونحن نعلم أن مبادلة الشيء بعينه أو ما يساويه ؛ تُسمَّى شراء ، أما أن يأخذ الإنسان المنفعة من العين ، وتظل العين ملكاً لصاحبها ، فمن يأخذ هذه المنفعة يدفع عنها إيجاراً ، فكأن نوحاً عليه السلام يقول : لقد كنت أستحق أجراً لأننى أقدم لكم منفعة ، لكننى لن آخذ منكم شيئاً ، لا زُهداً فى الأجر ، ولكنى أطمع فى الأجر بمن هو أفضل منكم وأعظم وأكبر .

ولأن هذا الملاً الكافر قد وصف من اتبع نوحاً بأنهم أراذل <sup>(٢)</sup> ؛ لذلك يأتى الرد من نوح عليه السلام :

﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴾ (٢٩) [هود]

ويوضح هذا الرد أن نوحاً عليه السلام لا يمكن أن يطرد إنساناً من حظيرة الإيمان لأنه فقير ، فاليقين الإيماني لا علاقة له بالثروة أو الجاه أو الفقر والحاجة .

(١) أجره يؤجره إيجاراً : أجر من فلان الدار وغيرها : اكترها منه ، وأجره يؤجره مؤاجرة استأجره .  
اتخذ أجيراً والإجارة : الأجر على العمل : عقد عليك نفع مقصود من العين بعوض ، والأجرة عوض العمل والانتفاع ، والأجر الذى يكفى العامل المعيش والأجر الحقيقى القوة الشرائية للنقد الذى يحصل عليه العامل والأجرة : الأجر . والأجير من يعمل بأجر وأعظم الأجر عطاء الله المعجم الوجيز بتصرف .

(٢) والأراذل جمع رذل ، وقيل : الواحد أرذل والجمع أراذل ، وقد غلبت عليه الاسمية وإن كان وصفاً ( التبيان فى إعراب القرآن )

وَلَا يُخْلِي رَسُولٌ مَكَانًا مِنْ أَتْبَاعِهِ الْفُقَرَاءَ لِيَأْتِيَ الْأَغْنِيَاءَ ، بَلِ الْكُلُّ  
سَوَاسِيَةٌ أَمَامَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ <sup>(١)</sup> يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ  
مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ  
الظَّالِمِينَ <sup>(٢)</sup> ﴾ [الأنعام]

وقد جعل الحق سبحانه هؤلاء الذين يطلق عليهم كلمة «أراذل» فتنة ،  
فمن تكبر بسبب فقر وضعف أتباع الرسل ، فليغرق في كبره .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا <sup>(٣)</sup> بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِنْ <sup>(٤)</sup> اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا  
أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ <sup>(٥)</sup> ﴾ [الأنعام]

وأيضا يأمر الحق سبحانه رسوله بأن يضع عينه على هؤلاء الضعاف ،  
وَأَلَّا يَنْصَرِفَ عَنْهُمْ أَوْ عَنْ أَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ ، فيقول الحق سبحانه :

(١) أى : نهراً وولياً . والمراد أنهم دائمو الدعاء لله رب العالمين .

(٢) نزلت هذه الآية فى بضعة نفر من فقراء وضعفاء المسلمين منهم : ابن مسعود وصهيب وعمار والمقداد  
وبلال . فقد قالت قريش لرسول الله ﷺ : إنا لا نرضى أن نكون أتباعاً لهؤلاء فاطرهم ، لدخل قلب  
رسول الله ﷺ من ذلك ما شاء الله أن يدخل ، فأنزل الله تعالى الآية . أخرجه النيسابورى فى أسباب  
النزول (ص ١٢٤) .

(٣) فتنا : اختبرنا . والفتنة : الاختبار بالنار ، واستميرت لكل اختبار شديد . وقال تعالى : ﴿ مَا أُنْفِمْ عَلَيْهِ  
بِفَاتِنٍ <sup>(١٦٦)</sup> ﴾ [الصافات] .

(٤) من عليه : أنعم عليه وأحسن إليه . وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ  
.. <sup>(١٦٧)</sup> ﴾ [آل عمران] [القاموس الفويم] .

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ  
وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ.. (٢٨)﴾ [الكهف]

جاء هذا القول حتى لا ينشأ فساد أو عداوة بين المؤمنين برسول الله ﷺ ، ولا يقال : «فلان مُقَرَّبٌ منه» ؛ ولذلك كان ﷺ إذا جلس ؛ يوزع نظره على كل جلسائه ، حتى يظن كل جالس أن نظره لا يتحول عنه .

وفي هذه الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنها عنها يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان سيدنا نوح - عليه السلام - وصفاً لهؤلاء الضعاف الذين آمنوا :

﴿إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ.. (٢٩)﴾ [هود]

وفي هذا بيان أن نوحاً - عليه السلام - لن يطرد هؤلاء الضعاف المؤمنين ، فلو طردهم وهم الذين سيلقون الله تعالى ، أيسمح نوح عليه السلام أن يقال عنه أمام الحق - تبارك وتعالى - إنه قد طرد قوماً آمنوا برسائله ؟ طبعاً لا .

ونحن نعلم أن الحق سبحانه يحاسب رسله ، والمرسل إليهم ، فهو سبحانه القائل :

﴿فَلَنَسْتَلْنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلْنَ الْمُرْسَلِينَ (٦)﴾ [الأعراف]

(١) عدت عنه : تجاوزته وأهملت النظر إليه واستحسنيت غيره ، كناية عن الإعراض وعدم الاهتمام . قال تعالى : ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ.. (٢٨)﴾ [الكهف] أى : لا تركهم ولا تهملهم . [القاموس القويم] .  
(٢) قوله تعالى : ﴿فَلَنَسْتَلْنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلْنَ الْمُرْسَلِينَ (٦)﴾ [الأعراف] كقوله : ﴿وَيَوْمَ يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين (٦٥)﴾ [القصص] وكقوله : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فيقول ماذا أجبتم فألوأ لا علم قاك إنك أنت علام الغيوب (٦٥)﴾ [المائدة] فيسأل الله عن الاستجابة للرسل ، ويسأل الرسل عن البلاغ . ومن النص القرآني نأخذ حديث رسول الله ﷺ «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» [ابن كثير بتصرف ص ٢٠٦ ، ج ٢]

إذن : فنوح - عليه السلام - يعلم أنه مسئول أمام ربه ، ولكن هذا الملائكة الكافر من قومه يجهلون ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه في نهاية هذه الآية الكريمة على لسان نوح عليه السلام :

﴿ .. وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ (٢٩)

[هود]

أى : أنهم لا يفهمون مهمة نوح عليه السلام ، وأنه مسئول أمام ربه .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَيَقَوْمٍ مِّنْ يَّنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طُرِدْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣٠)

وهنا يوضح نوح عليه السلام أنه لا يقدر على مواجهة الله إن طرد هؤلاء الضعاف ؛ لأن أحداً لن ينصر نوحاً على الله - عز وجل - لحظة الحساب ، فهناك يوم لا ملك فيه لأحد إلا الله ، ولا أحد يشفع إلا بإذنه سبحانه ، ولا أحد بقادر على أن ينصر أحداً على الله تعالى ؛ لأنه القاهر فوق كل خلقه .

والنصر - كما نعلم - يكون بالغلبة ، أما الشفاعة فهي بالخضوع ، والحق سبحانه لا يأذن لأحد أن يشفع فى طرد مؤمن من حظيرة الإيمان .

وفى هذا القول تذكير من نوح عليه السلام لقومه ؛ ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ .. أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣٠)

[هود]

أى : يجب ألا تأخذكم الغفلة ، وتُنسيكم ما يجب أن تتذكروه .

وكما جاء الحق سبحانه بالتذكُّر ، وهو الأمر الذى بدوامه يبعد الإنسان الغفلة ، جاء الحق سبحانه أيضاً بالتفكير ، وهو التأمل لاستنباط شيء جديد عن طريق إعمال العقل بالتفكير ، الذى يجعل الإنسان فى تأمل يقوده إلى تقديس وتنزيه الخالق ، وبهذا يصل الإنسان إلى الحقائق التى تكشف له معالم الطريق .



وجاء الحق - سبحانه - أيضاً بالتدبير ، أى : ألا يأخذ الإنسان الأمور بظواهرها ، أو أن ينخدع بتلك الظواهر<sup>(١)</sup> ، بل لا بد من البحث فى حقائق الأشياء .

لذلك يقول الحق جلّ وعلاً :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ <sup>(٢)</sup> الْقُرْآنَ .. (٨٧) ﴾ [النساء]

أى : أفلا يبحثون عن الكنوز الموجودة فى المعطيات الخلفية للقرآن .

والتدبير هو الذى يكشف المعانى الخفية خلف ظواهر الآيات ، والناس يتفاضلون فى تعرضهم لأسرار كتاب الله حين ينظرون خلف ظواهر المعانى .

ولذلك لمجد عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول : « تَوَرَّوا الْقُرْآنَ »<sup>(٣)</sup> أى : قَلَّبُوا معانى الآيات لتجدوا ما فيها من كنوز ، ولا تأخذوا الآيات بظواهرها ، فعجائب القرآن لا تنقضى .

ويقول الحق سبحانه وتعالى مواصلاً ما جاء على لسان سيدنا نوح :

(١) وقد قال عز وجل : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٥٠) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٥١) ﴾ [الروم] وقد كان هذا تعقيباً منه سبحانه لقصة الروم وأنهم سيستصرون على الفرس فى بضع سنين ، وقد استغرب الناس يومئذ ذلك ، بسبب اهتمامهم بظواهر الحياة الدنيا دون النظر إلى عواقب الأمور وسير الأمم من قبل وأقدار الله فى تصريف شئون خلقه .

(٢) تدبر : تأمل فى أديار الأمور وعواقبها ونهاياتها ، أو تأمل ليعرف حقائق الأمور . وقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (٢٤) [محمد] أى : هل هجروا وعموا فلا يتأملون معانى القرآن ويصرون ما فيه من حكم بالغة فيؤمنون به . وبين همزة الاستفهام وفاء العطف فعل محذوف دائماً والمعنى : أصجزوا فلا يتدبرون . [القاموس المقيم] .

(٣) ذكره ابن منظور فى اللسان (مادة : ت و ر) ، قال : « وفى حديث عبد الله : أثيروا القرآن فإن فيه خبر الأولين والآخرين ، وفى رواية : علم الأولين والآخرين . قال شمر : تنوير القرآن قراءته ومناقشة العلماء به فى تفسيره ومعانيه . وقيل : لينقر عنه ويفكر فى معانيه وتفسيره وقراءته » .

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ<sup>(١)</sup>  
وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ  
لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ  
الظَّالِمِينَ﴾ (٣١)

وهكذا يَسُدُّ نوح - عليه السلام - على هذا الملا الكافر كل أسباب  
إعراضهم عن الإيمان ، فإن ظنوا أن الإيمان يتطلب ثراءً ، فنوح لا يملك  
خزائن الله ، وهو لا يملك أكثر من هذا الملا ، وإن طلبوا أن يكشف لهم  
الغيب ، فالغيب علمه عند الله تعالى وحده .

ولم يدَّعِ نوح أنه من جنس آخر غير البشر ، إنما هو بشر مثلهم ،  
لا يملك ما يجبرهم به على الطاعة ، ثراءً ، أو جاهاً ، أو علم غيب .

ولن يطرد نوح عليه السلام مَنْ آمَنَ مِنَ الضَّعَافِ الَّذِينَ تَزْدَرِيهِمْ  
وتحتقرهم وتتهكّم عليهم عيون هذا الملا الكافر ؛ لأن نوحاً يخشى سؤال  
الله - عَزَّ وَجَلَّ - له إن سَدَّ في وجوه الضعاف أبواب الإيمان .

ولا بد من وقفة هنا عند قول الحق سبحانه :

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي  
مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ..﴾ (٣١) [هود]

(١) هاب الشيء غيباً وغيباً وغيباً وغيباً بعد فهو غائب ، والجمع غيب وغِيَاب . والغيب كل ما  
غاب عنك ، وجمعه غيوب وفي التنزيل ﴿... غَلَامُ الْفُقُبِ﴾ (١٤١) [المائدة] وقوله تعالى : ﴿وَعِدَّةُ  
مُنَاقِبِ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ  
وَلَا دُحْبُ وَلَا بُيُوتٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٥٩) [الأنعام]

(٢) تزدري : تحتقر . والازدراء : الاحتقار والانتقاص والغيب . [لسان العرب]

ونلاحظ هنا أن الخطاب قد حُوِّلَ إلى الغيبة<sup>(١)</sup> ، فلم يخاطب نوح عليه السلام الضعاف ويقول لهم : إن الله سيمنع عنكم الخير ، ذلك لأن الله سبحانه وعالي هو العليم بما في نفوسهم ، ولو قال نوح لهم مثل هذا القول لكان من الضائين .

اللام في كلمة ﴿لِلَّذِينَ﴾ تعنى الحديث عن الضعاف ، لا حديثاً إلى الضعاف .

ومجىء «اللام» بمعنى «عن» له نظائر<sup>(٢)</sup> ، مثل قول الحق سبحانه : ﴿.. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [سبأ] وهم هنا لا يقولون للحق ، ولكنهم يقولون عن الحق ، وهكذا جاءت «اللام» بمعنى «عن»<sup>(٣)</sup> .

وهكذا أوضح نوح - عليه السلام - أنه لو طرد من يقال عنهم «أراذل» ، لكان معنى ذلك أنه يعلم النوايا ، ونوح - عليه السلام - يعلم يقيناً أن الله هو الأعلم بما في النفوس ؛ لذلك لا يضع نوح نفسه في موضع الظلم لا لنفسه ولا لغيره .

(١) وهذا يعرف في أساليب البلاغة بالالتفات ، وهو نقل الكلام من أسلوب إلى آخر ، أى : من المتكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى آخر منها ، بعد التعبير بالأول . (انظر الإتقان فى علوم القرآن - للسيوطي) (٢/٢٥٣) .

(٢) من أمثلة اللام بمعنى «عن» أيضاً ، قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحزاب] أى : عنهم وفى حقهم ، لا أنهم يخاطبوا به المؤمنين ، وإلا ل قيل : «ما سبقتمونا» .

(٣) اللام : حرف يجر الظاهر والمضمر ، ويؤدى عدة معان منها : انتهاء الغاية ، والصلك ، وشبه الملتك ، والدلالة على التمليك ، والدلالة على شبه التمليك ، والدلالة على النسب ، والتعدي المجردة ، والتعليل ، والتوكيد للمحض ، والتقوية ، والدلالة على القسم والتعجب معاً ، والدلالة على التسبب بغير قسم ، والدلالة على العاقبة المنتظرة ، والدلالة على التبليغ ، والدلالة على التبيين ، وأن تكون بمعنى «بعد» ، وأن تكون بمعنى «فيل» ، وأن تكون بمعنى «من اليبانية» ، وأن تكون للمجاوزة (بمعنى : عن) ، وأن تكون لتوكيد النفي ، وأن تكون بمعنى «مع» ، وأن تكون بمعنى «عند» . . . انظر تفصيل ذلك فى [النحو الوالى : (٢/٤٧٢ - ٤٨١)] .

يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : (١١)

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَلَنَا فَأُنَا  
بِمَا تَعِدُّنَا إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴾ (٢٢)

والجدال هو قول كلام يقابل كلاماً آخر ، والقصد عند كل طرف متكلم أن يزحزح الطرف الآخر عن مذهبه بحجة أو بشبهة ، بهدف إسقاط المذهب .

إذن : فالجدال هو مناقشة طرفين ، يتقاسمان الكلام بهدف أن يقنع أحدهما الآخر بأن ينصرف عن مذهبه هو إلى مذهب القائل .

وكلمة «الجدال» مأخوذة من «الجدل» أى : القتل ، وقتل الحبل إنما يأتي من أخذ شعرات من الكتان أو الحرير أو أى مادة مثل هذا أو ذاك ، ثم ضم شعرتين إلى بعضهما ، ثم القيام بلف كل شعرتين أخريين ، وهكذا حتى يتم اكتمال الحبل .

ويقال للرجل القوى : «مفتول العضلات» ، أى : أن عضلاته ليست رخوة أو ضعيفة ، بل مفتولة ، أى : متداخلة ومشدودة .

وحين تنظر إلى الجهاز العضلى فأنت تدهش لقدرة الحق سبحانه وتعالى الذى خلق كل عضلة بشكل وأسلوب معين ، يتيح لها أن تتأزر وتتعاون مع غيرها من العضلات لأداء الحركات المطلوبة منها .

فحين يرفع الإنسان رأسه فهو يحتاج لحركة أكثر من عضلة ، وحين تعمل اليد فهي تحرك أكثر من عضلة ، ولو تعطلت حركة عضلة واحدة ، لامتنعت الحركة المقابلة لها .

(١) جادل : خاصم بالحق والباطل . واستعمل فى الباطل فى قوله تعالى : ﴿ هَا أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ﴾ [النساء] واستعمل فى الحق فى قوله تعالى : ﴿ وَجَادَلْتُمْ بِآيَاتِي هِيَ أَحْسَنُ ۖ ﴾ [٢٧٥] ﴿ [النحل] ، وقد نهى الله سبحانه حجاج بيته الحرام عن الجدال بكل أنواعه صيانة لعلاقة المحبة بينهم ، قال تعالى : ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۚ ﴾ [البقرة] . [القاموس القويم] .

وهم قد قالوا لنوح عليه السلام :

﴿ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا .. ﴾ (٣٢)

[هود]

ونحن نعلم أن نوحاً عليه السلام عاش ألف عام إلا خمسين عاماً ،  
ومعنى ذلك أن جداله معهم أخذ وقتاً طويلاً .

والجدال يختلف عن المراء<sup>(١)</sup> ، لأن الجدال إنما يكون لحق ، والمراء  
يكون بعد ظهور الحق .

الجدال - إذن - مطلوب ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. ﴾ (١٢٥)

[النحل]

وكذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي<sup>(٢)</sup> تَجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ .. ﴾ (١)

[المجادلة]

إذن : فالجدال مطلوب لنصل إلى الحق ، شرط أن يكون جدلاً حسناً ،  
لا احتكاك فيه ولا إيذاء<sup>(٣)</sup> .

(١) المراء : المماراة والجدال . وأصل المراء في اللغة أن يستخرج الرجل من مناظره كلاماً ومعاني الخصومة  
وغيرها

من : مريت الشاة إذا حلبتها واستخرجت لبنها . [انظر اللسان] والمراء والمماراة يحمل معاني الشك  
والريبة في الأمر مما يستدعي جدالاً أكثر وأعمق وأطول ، وهذا منهي عنه .

(٢) هي امرأة يقال لها خولة بنت ثعلبة ، اشتكت زوجها إلى رسول الله ﷺ قائلة : يا رسول الله ، أكل  
مالي ، وأنتى شبابي ونشرت له بطني ، حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني ، اللهم إني  
أشكو إليك . قالت عائشة رضي الله عنها : فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ  
الَّتِي تَجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ .. ﴾ (١) [المجادلة] وزوجها هو : أوس بن الصامت . انظر  
تفسير ابن كثير (٣١٨/٤) وأسباب النزول للواحدي (ص ٢٣١) .

(٣) يقول تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْظِعَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. ﴾ (١٢٥) [النحل]  
أي : من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال ، فليكن بالوجه الحسن يرفق ولين وحسن خطاب ، كقوله  
تعالى : ﴿ وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ .. ﴾ (٥٨) [العنكبوت] انظر :  
ابن كثير (٥٩١/٢) .

وهناك فارق بين احتكاك الآراء ، وتحكك الآراء ، فالتحكك كالتلحُّك ، وهو الرغبة في عدم الوصول إلى الحق ، لكن الاحتكاك هو الذي يوصل إلى الحق ، مثلما نحك الزناد بقطعة من حديد فتولد الشرر لنرى الحق ، أما التحكُّك<sup>(١)</sup> فهو يوارى ويطمس الحقيقة .

والمرء هو الجدال بعد أن يظهر الحق ، وهو مأخوذ من مَرَى<sup>(٢)</sup> الضرع ، فحين يقومون بإنزال اللبن من ضرع الناقة أو البقرة ، فالضرع يكون ملآن ، وينزل منه اللبن بشدة وقوة ، وبعد أن ينتهي حلب الضرع ، يظل من يحلبها ممسكاً بحلمات الناقة أو الجاموسة ، ويستحلب ما بقي من اللبن ، ويُقال لهذا الجزء الأخير « المري » .

ولذلك أخذوا من هذه العملية كلمة « المرء » ، وهو ما بعد ظهور الحق .

وهناك بجانب الجدال والمرء ، والاحتكاك ، والتحكُّك ، الحجاج والمراد بالحجاج هو إظهار حجة الخصم على الخصم .

وبعد أن مكثوا من جدال نوح - عليه السلام - طلبوا أن ينزل بهم العذاب الذي أنذرهم به ، وقد استبطأوا مجيء هذا العذاب ؛ لأن نوحاً عليه السلام عاش بينهم ألف سنة إلا خمسين ، وقالوا :

﴿ فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٣٢)

[هود]

وكانهم - بهذا القول - قد أخرجوا نوحاً مخرج من بيده أن يأتي بالعذاب ، أو يمنع العذاب ، وهذه مسألة لا يملكها نوح ، بل هي ملك لله سبحانه وتعالى .

(١) التحكك: التحرش والتعرض . وإنه ليتحكك بك ، أي: يتعرض لشرك . [اللسان - مادة: حكك] .

(٢) المري: مسح ضرع الناقة لتدر اللبن . والمري: الناقة تدر على من يمسح ضرعها . وقيل: هي الناقة الكثيرة اللبن . [اللسان: مادة - مري] .

وجاء في المصباح المنير: ماريته أماريه ممارسة ومرء: جادلته . وتقدم القول إذا أريد بالجدال الحق أو الباطل . ويقال: ماريته إذا طعنت في قوله تزييفاً للقول وتصغيراً للقالل ، ولا يكون ( المرء ) إلا اعتراضاً بخلاف الجدال فإنه يكون ابتداءً واعتراضاً ، وامترى في أمر: شك فيه . بصرف ص ٥٧٠



ولذلك يُنبههم نوح عليه السلام :

﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِدَالٍ شَاءَ وَمَا أَنَا بِمُغِيرٍ ﴾ (٢٢)

لأن الحق سبحانه هو الذى يقدر للعذاب أو اناً ، ويقدر لكل تعذيب ميلاداً ، ولا يعجل الله بعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد .

وهم لن يعجزوا الله تعالى ولن يفلتوا منه ؛ لأنه لا توجد قوة فى الكون يمكن أن تمنع مشيئة الله تعالى ، أو أن تتأبى <sup>(١)</sup> عليه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك على لسان نوح عليه السلام :

﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِيَّ <sup>(٢)</sup> إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ

اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢٤)

والمعنى هنا : إن كان الله سبحانه يريد أن يغويكم فلن تنتفعوا بالنصيحة إن أردت أن أنصحكم ؛ لأن الآية بها تعدد الشرطين .

ومثال ذلك من حياتنا : حين يطرد ناظر المدرسة طالباً ، عقاباً له على خطأ معين ، فالطالب قد يستعطف الناظر ، فيقول الناظر : « إن جئتني غداً أقبل اعتذارك إن كان معك والدك » .

(١) تنأى : تتمنع وترفض الانصياع والطاعة . ورب العزة سبحانه يقول : ﴿ إِنْ كُلُّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

إِلَّا أَتَى الرَّحْمَنَ عَذَاباً ﴾ (١٧) [مريم] .

(٢) نصح له ونصحه نصيحاً ونصيحة : تحرّى ما يصلح له وأراد له الخير والنفع ودلّه عليه . ونصح له الود : أخلصه . ونصح لله : أطاعه وأخلص لدينه . ونصح للرسول : صدقه وأخلص له ولم يخالف أمره سرّاً ولا علناً . ومن النصح بمعنى الإرشاد والدلالة على الخير ، يقول تعالى : ﴿ .. وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُجِبُونَ النَّاصِحِينَ ﴾ (٣٨) [الأعراف] ، ويقول : ﴿ .. وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ (٦٨) [الأعراف] . [القاموس القويم] .

(٣) أغواه : أضله وأوقعه فى الغي والضلال . قال تعالى : ﴿ فَاغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ (٤٧) [الصفافات] .

وقول الناظر : «إن كان معك والدك» هو شرط متأخر ، ولكنه كان يجب أن يتقدم .

وفى الآية الكريمة - التى نحن بصدددها - جاء الشرط الأول متأخراً ، ولكن هل يغوى الله سبحانه عباده ؟

لا ، إنه سبحانه يهديهم ، والغواية هى الضلال <sup>(١)</sup> والبعد عن الطريق المستقيم .  
والحق سبحانه يقول عن محمد ﷺ :

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى <sup>(٢)</sup> ﴾ [النجم]

وقال سبحانه عن آدم عليه السلام حين أكل من الشجرة :

﴿ .. وَغَشَى آدَمُ رَبَّهُ فَقَوَّى <sup>(٣)</sup> ﴾ [طه]

ونحن يجب ألا نقع فى الآفة التى يخطئ البعض بها ، حين يستقبلون ألفاظ العقائد على أساس ما اشتهر به اللفظ من معنى ؛ فالألفاظ لها معان متعددة .

لذلك لا بد أن نعرض كل معانى اللفظ لناخذ اللفظ المناسب للسياق .

ومثال ذلك هو قول الحق سبحانه :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ

يَلْقَوْنَ عَذَابًا <sup>(٤)</sup> ﴾ [مريم]

(١) ضلَّ : غابت عنه الحجة وعدل عن الحق . والضلال : النسيان والضياع . وضلَّ الشيء : خفى وغاب فهو يأتى لازماً كما فى المثال السابق .

ويأتى متعدياً مثل : ضلَّ المسافر الطريق ، وقد نفى الله عن رسوله الضلال والغبية ، وإييت له أنه هو الناطق منه وبه وله ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى <sup>(٢)</sup> إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى <sup>(٣)</sup> ﴾ [النجم] القاموس القويم مع تفسير البرهان باختصار .

(٢) غوى يغوى غيياً ، وغوى يغوى غواية : اتهمك فى الجهل ، وهو ضد الرشد . وغوى بمعنى خاب وضلَّ ؛ لأنه اتهمك فى الجهل .

(٣) الفى : سمى به واد فى جهنم وتُسر بذلك قوله : ﴿ .. فسوف يلقون عذاباً <sup>(٤)</sup> ﴾ [مريم] أى : جزاء الفى ، أو يدخلون وادى الفى فى جهنم [القاموس القويم] .

وقوله سبحانه هنا : ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾

أى : سوف يلقون عذاباً ، لأنَّ غِيَّهم كان سبباً فى تعذيبهم ، فسمى العذاب باسم مُسَبِّبه .

ومثل قول الحق سبحانه :

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا...﴾ (٤٠) [الشورى]

والحق سبحانه لا يُسِيء لعباده ، ولكنهم هم الذين يُسيئون لأنفسهم ، فسمى ما يلقاهاهم من العذاب سيئة<sup>(١)</sup> .

وكذلك «الغى» يرد بمعنى «الإغواء» ، ويرد بمعنى الأثر الذى يترتب عن الغى من العذاب .

وقد عرض الحق سبحانه وتعالى فى كتابه صوراً متعددة للإغواء ، فأدم عليه السلام حين تَنَكَّبَ<sup>(٢)</sup> عن الطريق ، وأكل من الشجرة المحرَّمة رغم تحذير الحق سبحانه له ألا يقربها ، قال الحق سبحانه وتعالى فى هذا الموقف :

﴿.. وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ (١٢١) [طه]

وقد فعل آدم عليه السلام ذلك بحكم طبيعته البشرية ، فأراد الله تعالى أن يعلمه أنه إذا خالف المنهج فى «افعل» و«لا تفعل» ستظهر عورته وتبدو له سوءاته<sup>(٣)</sup> .

(١) وهذا يعرف بالمشاكلة ، وهو ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته ، ومثاله قوله تعالى : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا...﴾ (٤٠) [الشورى] ، لأن الجزاء حق لا يوصف بأنه سيئة . ومثله قوله تعالى : ﴿وَمَكْرُوا مَكْرَ اللَّهِ...﴾ (٥٥) [آل عمران] فإطلاق المكر فى جانب البارى تعالى إنما هو لمشاكلة ما معه . انظر : الإتيان فى علوم القرآن (٢٨١ / ٣) .

(٢) نكب عن الشيء وعن الطريق : عدل . وَتَنَكَّبَ فَلَانُ عَنَّا : مَالَ عَنَّا . وَتَنَكَّبَهُ : نَجَّبَهُ . [ انظر : لسان العرب ] . ويقول تعالى : ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصَّراطِ لَأَكْبُونَ﴾ (٧٩) [المؤمنون] . أى : ماثلون متحرفون عنه .

(٣) السوءات : جميع سوءة : وهى كل ما يتبع إظهاره ويخفى ستره ، قال تعالى : ﴿لَقَدْ لَغَا اللَّهُ فِرَانًا يَنْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُزَيِّرَهُ كَيْفَ يَرَايَ سُوءَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ الْقَرَابِ لَأُزَايِرَ سُوءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٣١) [المائدة] .

وهكذا أخذ آدم عليه السلام التجربة ليكون مُستَعِدّاً لاستقبال المنهج والوَحْيِ .

وقد ذكر لنا الحق سبحانه كلمات الشيطان بقوله :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٢٩) [الحجر]

ولكن هل أغوى الله - سبحانه - الشيطان ؟

إن الحق سبحانه لا يُغْوِي ، ولكنه يترك الخيار للمكلف إن شاء أطاع ، وإن شاء عَصَى .

ولو أنه سبحانه وتعالى جعلنا مؤمنين لما كان لنا اختيار<sup>(١)</sup> ، فإن أطاع الإنسان نال عطاء الله ، وإن ضلَّ ، فقد جعل الله له الاختيار ، ووجهه لغير المراد مع صلاحيته للمراد .

إذن : فالاختيار ليس مقصوراً على الإغواء بل فيه الهداية أيضاً ، والإنسان قادر على أن يهتدى ، وقادر على أن يضلَّ<sup>(٢)</sup> .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآتَيْنَا فِي الْأَرْضِ كُلَّهَا جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْفِرُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس] . ويقول سبحانه : ﴿ لَا أَكْرَاهُ فِي الدِّينِ قَدْ فُتِنَ الْإِنْسَانُ إِنَّهُ الْبَقِرَةُ ﴾ [البقرة] . فإن الإنسان مخير في البدائل ، أما القضايا التي لا يستطيع تبديلها فهي خصوصية الخالق ، ويفهم من كلام فضيلة الشيخ أن إبليس من الجن لإثبات حق الاختيار له .

(٢) قال تعالى من الإنسان : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (٣) [الإنسان] ، فإله قد جعل الإنسان مُهَيَّأً لأن يسلك أحد السبيلين : سبيل الهدى ، وسبيل الضلال ، ثم دلَّه سبحانه على الطريق الصواب المستقيم ، وترك له حرية الاختيار ، فإما شاكرًا لنعمة الدلالة إلى الخير ، فيكون مؤمنًا . وإما كافرًا بها فيكون كافرًا .

(١)  
﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ مَفْعَلٌ لِّجَرَامِي  
وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْحِرُونَ﴾ (٢٥)

جاء هذا القول فى صُلب قصة نوح - عليه السلام - وقد يكون بما أوحى به الله سبحانه لنوح عليه السلام ، أو يكون المراد به أنهم قالوا لرسول الله ﷺ مثل هذا الكلام .

والافتراء - كما نعلم - هو الكذب المتعمد الذى يناقض واقعاً .

وانظروا إلى كل ما جاء بالمنهج ليلتزم به الفرد ، ستجدون أنه مُلزم للجميع ، وستكون الفائدة التى تعود عليك بالتزام الجميع - بما فيهم أنت - فائدة كبيرة ، فإن قال لك المنهج : لا تسرق ؛ فهذا أمان لك من أن يسرقك الناس .

ولذلك فساعة تسمع للمنهج ، لا تنظر إلى المأخوذ منك ، بل التفت إلى المأخوذ لك .

وعلى ذلك لا يمكن أن يكون المنهج افتراء .

ونحن نعلم أن المنهج يؤسس فى المجتمعات مقاييس عادلة للاستقامة ، وحين يُشرع الحق سبحانه تشريعاً ، قد يبدو لك أنه يُحد من حريتك ، ولكنه فى الواقع يُحقق لك منافع متعددة ، ويحميك من أن يعتدى الآخرون عليك .

(١) افترى القول : اختلقه واخترعه . وقوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ ..﴾ (٢٥) [هود] أى : يقولون : اخترع القرآن واختلقه من عند نفسه . وقال تعالى : ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ..﴾ (١٧) [هود] أى : مكذوبات - كما تدعون . [القاموس القويم] .

وكان الردُّ على الاتهام بالافتراء يتمثل في أمرين : إما أن يفتروا مثله ، أو أن يتحمَّل هو وزرُّ إجرام الافتراء .

وإن لم يكن قد افتراه ، فعليهم يقع وزرُّ إجرامهم <sup>(١)</sup> باتِّهامه أنه قد افترى .

وأسلوب الآية الكريمة يحذف عنهم البراءة في الشطر الأول منها ، ولو جاء بالقول دون احتباك ، لقال سبحانه : قل إن افتريته فعلى إجرامي وأنتم برءاء منه ، وإن لم أفتر فعليكم إجرامكم وأنا برىء .

وجاء الحذف من شقِّ المقابل من شقِّ آخر ، وهذا ما يسمَّى في اللغة «الاحتباك» <sup>(٢)</sup> .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ . . (٢٤٩) ﴾ [البقرة]

والفئة القليلة تكون قلَّسُها في الأفراد والعَتَاد وكلُّ لوازم الحرب ، والفئة الكثيرة ، تظهر كثرتها في العُدَّة والعَدَد وكلُّ لوازم الحرب ، والفئة القليلة إنما تَغْلِب بإذن الله تعالى .

وهكذا يوضِّح الحق سبحانه أن الأسباب تقضى بغلبة الفئة الكثيرة ، لكن مشيئته سبحانه تغلب الأسباب وتصل إلى ما شاءه الله تعالى .

(١) أثم اللُغوب فيما افتروه .

(٢) الاحتباك : من أساليب البلاغة العربية ، وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني ، ومن الثاني أن يحذف نظيره في الأول كقوله تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاء . . (٣٦) ﴾ [النمل] . والتقدير : تدخل غير بيضاء ، وأخرجها تخرج بيضاء ، فحذف من الأول «غير بيضاء» ومن الثاني «وأخرجها» . وقال الزركشي : هو أن يجتمع في الكلام متقابلان ، فيحذف من كل واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه ، كقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَقُولُوا افْعُرْهُ قُلْ إِنْ افْعُرَيْتُهُ فعلى إجرامي وأنا برىء مما فَعَرُمُون ﴾ [هود] . والتقدير : إن افْعُرَيْتُهُ فعلى إجرامي وأنتم برءاء منه ، وعليكم إجرامكم وأنا برىء مما فَعَرُمُون [الإتقان في علوم القرآن : ٣ / ١٨٢ ، ١٨٣] .



ولذلك يقول الحق سبحانه في آية أخرى :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فَنَيْنِ الْتَفَتَا فَنَةً تَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ۖ ۝ (١٣) ﴾ [آل عمران]

وحذف سبحانه صفة الإيمان عن الفتة الأولى ، كما حذف عن الفتة الثانية صفة أنها تقاتل في سبيل الطاغوت <sup>(١)</sup> والشيطان ، وهذا يسمى «الاحتباك» .

وهذه في الآية التي نحن بصدد خواتمها قال الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنْ أَقْرَبْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ۝ (٢٥) ﴾ [هود]

ولكن الحق سبحانه وتعالى شاء أن يبين لنا قول رسول الله محمد ﷺ حين خاطب قومه ، فقال سبحانه :

﴿ ۝ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرِمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝ (٢٥) ﴾ [سبا]

فلم يقل : « عَمَّا تُجْرِمُونَ » . فلم يقابل إبداءهم القولى والمادى له بإبداء قولى .

وكذلك ذكر الحق سبحانه ما جاء عنى لسان محمد ﷺ :

﴿ ۝ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ (٢٦) ﴾ [سبا]

وهذا ارتقاء فى الجدل يناسب رحمة رسول الله ﷺ التى أنزلها الله على العالم كله .

(١) الطاغوت : مصدر يدل على المبالغة ، ويسمى به الشيطان ، المسم ، وكل ما عبد من دونه ، وكل ما يفرى بالشر والداعى للضلال والفتنة .

وبعد ألف عام إلا خمسين من جدال نوح عليه السلام لقومه ، قال له الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَوْحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٣٦)

ومجىء «إلا» هنا ليس للاستثناء ، ولكنها اسم بمعنى «غير» أى : لن يؤمن من قومك غير الذى آمن .

ولهذا نظير فى قمة العقائد حين قال الحق سبحانه :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. ﴾ (٢٢) [الأنبياء]

و«إلا» هنا أيضاً بمعنى «غير» ، ولو كانت «إلا» بمعنى الاستثناء لعنى ذلك أن الله سبحانه - معاذ الله - سيكون ضمن آلهة آخرين ، لذلك لا يصلح هنا أن تكون «إلا» للاستثناء ، بل هى بمعنى «غير» ، وتفيد معنى الوحداية لله عز وجل وتفرده بالألوهية .

والآية التى نتناولها بخواطرننا تؤكد أنه لا يوجد غير من آمن بنوح - عليه السلام - من قومه ، سوف يؤمن ؛ فقد ختم الله المسألة .

وهذا يعطينا تبريراً لاجترأ نوح - عليه السلام - على الدعاء على الذين لم يؤمنوا من قومه بقوله :

(١) من ابن عباس : كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم . وعن كعب الأحبار : كانوا اثنين وسبعين نفساً . وقيل : كانوا عشرة ، وقيل : إنما كان نوح وبنوه الثلاثة سام وحام ويافت ، وكنايته الأربع ، نساء هؤلاء الثلاثة وامرأة هام . انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٥) .

(٢) ابتأس الرجل : اكتأب وحزن . ولا تبتئس : لا تحزن . يقال : ابتأس الرجل إذا بلغه شيء يكرهه . والابتأس : الحزن فى استكانة . [ لسان العرب - مادة : بأس ]

## سُورَةُ هُودٍ

٦٤٥٩

﴿ .. رَبِّ لَا تَذَرْنَا <sup>(١)</sup> عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا <sup>(٢)</sup> إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلْدُوا إِلَّا فَاغْرًا كَفَّارًا <sup>(٣)</sup> ﴾

[نوح]

وكان تبرير ذلك أنه عليه السلام قد دعاهم إلى الإيمان زماناً طويلاً فلم يستجيبوا ، وأوحى له الله تعالى أنهم لن يؤمنوا . وقال له سبحانه :

﴿ .. فَلَا تَبْتَشْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ <sup>(٤)</sup> ﴾

[هود]

والابتئاس هو الحزن المحيط ، وهم قد كفروا وليس بعد الكفر ذنب .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا <sup>(٥)</sup> وَوَحْيِنَا وَلَا تَخَافِ فِي الَّذِينَ

ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُفْرَقُونَ <sup>(٦)</sup> ﴾

(١) يذره : يتركه ويدهه . وهذا الفعل لم يستعمل منه في القرآن الكريم إلا المضارع والأمر ، فمن المضارع قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَرْسُكْ وَقَوْمَهُ لِيَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ .. <sup>(١٧)</sup> ﴾ [الأعراف] وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَا تَفِرُوا الْهَيْكَمُ .. <sup>(٢٣)</sup> ﴾ [نوح] أى : لا تتركن آلهتكم . ومن الأمر قوله تعالى : ﴿ ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا <sup>(٢٦)</sup> ﴾ [المدثر] أى : اتركني أنتقم منه وأعاقبه على جرائمه ضد الدين والقرآن ، وهو أسلوب تهديد ووعد . [القاموس القويم] .

(٢) الديَّار : من يسكن الدار ، أو من يتحرك فيها ويدور فيها بحرية ، ويقال : ما بالدار ديَّار ، أى : ما فيها أحد . وقوله تعالى على لسان نوح عليه السلام : ﴿ .. رَبِّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا <sup>(١١)</sup> ﴾ [نوح] . أى : لا تترك أحداً منهم حياً . [القاموس القويم] بصرف .

(٣) الصنع : معناه الإحداث والإنشاء ، ويكون بقصد وإرادة وتدبير ، ولذلك لا يقال : صنع الخير - كمد وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدًا سَاجِرًا .. <sup>(٤٦)</sup> ﴾ [طه] أى : أن الذي صنعه وأحدثوه كيد وسحر . وقال تعالى في قصة موسى عليه السلام : ﴿ .. وَاصْنَعْ عَلَيَّ غَنِيًّا <sup>(٢٦)</sup> ﴾ [طه] أى : تُرَبِّسْ محروساً بعنيتي . وقوله تعالى : ﴿ وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا .. <sup>(٧٧)</sup> ﴾ [هود] أى : تحت عنايتنا ورعايتنا . [القاموس القويم] بصرف .

(٤) الفلك : السفينة للمذكر وللثلاث ، وللواحد والجمع . يقول الحق : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرًا لَهُ .. <sup>(١١)</sup> ﴾ [النحل] والفلك : المنار تسبح فيه النجوم السماوية ، يقول الحق : ﴿ .. كُلُّ فِي فُلْكَ يَشْحُونُ <sup>(١٢)</sup> ﴾ [الأنبياء] [القاموس القويم - باختصار]

وهكذا علم نوح بمسألة الإغراق من خلال الوحي له بصنع السفينة .  
ومعنى «اصنع» أى : اعمل الصنعة ، وهناك فرق بين الصنعة والحرفة ،  
فالصنعة أن تُوجدَ معدوماً ، كصانع الأكواب ، أو صانع الأحذية ،  
أو صانع النَّجَفَ ، أو صانع الكراسى ، أما الذى يقوم على صيانة الصنعة  
فهو الحرفى .

وهناك عملية أخرى للاستنباطات مثل مهنة الزارع الذى يحث الأرض  
ويذر فيها الحَبَّ ويرويهها ليستنبط منها النباتات ، ويسمى صاحب هذه  
المهنة «زارع» أو «فلاح» ، لأن اقتيات الحياة المباشر يأتى من الزراعة .

أما الصانع فيأتى بشيء من متطلبات الحياة ، فى تطويرها ويوجد آلة  
أو يصنع جهازاً لم يكن موجوداً ، والحرفى هو الذى يصون تلك الآلة ، أما  
التاجر فهو الذى يقوم بعملية تجمع كل ذلك ، ويكون هو الوسيلة بين منتج  
الشئ والمستهلك ، فالتاجر يكون لعرض الأشياء بغية البيع والشراء .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا لنوح عليه السلام :

﴿وَأَصْنَعِ الْفُلَ﴾ .. (٢٧)

[هود]

أى : أوجد شيئاً من عدم ، إلا أن هذا الشئ سيصنع من شئ آخر  
موجود ، لأن نوحاً عليه السلام قد زرع من قبل شجرة وعاشت معه كل  
هذه المدة الطويلة ، وتضخمت فى الجذع والفروع .

وبدأ نوح عليه السلام فى عملية شق الشجرة ليصنع منها السفينة التى بلغ  
طولها - كما قيل <sup>(١)</sup> - ثلاثمائة ذراع <sup>(٢)</sup> وبلغ عرضها خمسين ذراعاً ، وبلغ

(١) ذكره قتادة . وفيها أقوال أخرى . واجتمع الراى على أن ارتفاعها فى السماء كان ثلاثين ذراعاً ، ثلاث  
طبقات ، كل طبقة عشرة أذرع ، فالسفلى للدواب والوحوش ، والوسطى للإنس ، والعليا للطيور .  
وكان بابها فى عرضها ، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها . انظر تفسير ابن كثير (٤٤٤ / ٢) .

(٢) الذراع : مقياس للأطوال يقدر بـ ٧٥ ستيماً أو أقل . والفراع من الإنسان : من المرفق إلى أطراف  
الأصابع .

ارتفاعها ثلاثين ذراعاً ومكوّنة من ثلاثة أدوار لتسع المؤمنين ، وزوجين من كل نوع من حيوانات الأرض ودوابّها وهوامها وسباعها ووحوشها .

ونحن قد علمنا أن الشجرة التي زرعها نوح عليه السلام قد تضخّمت جداً لطول المدّة التي قضاها نوح في دعوته لقومه ؛ ونعلم أيضاً أن جذع الشجرة ينمو دائرياً بمقدار دائرة كل عام . وحين تقطع جذع الشجرة نجد أن قطر الجذع مكوّن من دوائر ، وكل دائرة تمثّل عاماً من عمرها .

وهكذا بلغ حجم الشجرة ما يساعد نوحاً عليه السلام على أن يصنع السفينة .

وقد علّمه الحق سبحانه بالوحي وإلهام الخواطر كيف يصنع السفينة ، ألم يُلهم الله سبحانه نبيّه داود عليه السلام في مسألة الحديد ؟ وقال لنا سبحانه أنه - جلّ وعلا - قد أمر الجبال أن تُؤَوِّبَ " معه ، وكذلك الطير ، فالان له الحديد " دون نار :

﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَنَا لَهُ الْحَدِيدُ ۝١١﴾ أَنْ اِعْمَلْ

سَابِغَاتٍ .. ۝١١﴾ [سبأ]

هكذا أخبرنا الحق سبحانه أن الحديد صار ليّناً دون نار - بإذنه سبحانه - ليصنع منه داود دروعاً كبيرة مستوفية للظهر والصدر ، لتحمي معاطب " الإنسان .

(١) تؤوب : تبيّح معه وترجع التبيّح . قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٢٧) : «التأويب في اللغة هو الترجيع فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه بأصواتها» .

(٢) قال الحسن البصري وقتادة والأعمش وغيرهم : كان داود لا يحتاج أن يدخله ناراً ولا يضربه بمطرقة ، بل كان يقتله بيده مثل الخيوط . ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٢٧) .

(٣) المعاطب : المهالك . واحدها معطب . والمعطب : الهلاك يكون في الناس وغيرهم . عطب (بكسر الطاء) عطباً وأعطبه : أهلكه . [اللسان : مادة (ع ط ب)] والمراد : الأماكن التي إذا طعن فيها المقاتل قد تؤدي إلى هلاكه .

وقد أوحى الحق سبحانه لداود عليه السلام أن يصنع تلك الدروع بطريقة عجيبة ، بأن يجعلها سابغات <sup>(١)</sup> .

والسابغة هي المسرودة ، مثل الحصير ، حيث يُوضع العُود بجانب العود ، ويربط الأعواد كلها بطريقة تسهل من قَرْد الحصير أو لَفِّه .

وفي نفس الآية يبيّن لنا الحق سبحانه كيفية الوحي لداود عليه السلام بتلك الصناعة الدقيقة ، فيقول سبحانه :

﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ <sup>(٢)</sup>...﴾ (١١)

أى : أنك يا داود حين تنسج <sup>(٣)</sup> الحديد اللين - بإذن الله تعالى - لتجعلهُ دروعاً عليك أن تصنع تلك الدروع بتقدير دقيق كى لا تكون الدرع ضيقة على صدر المقاتل فتضيق حركته ، وتقلل من قدرته على التنفس ، فيلهث بسرعة ، ولا يستطيع مواصلة القتال .

وكذلك يجب ألا تكون الدرع واسعة على صدر المقاتل ؛ حتى لا تساعد سعة الدرع سيف الخصم ، فيضرب الدرع نفسه صدر المقاتل ، وتكون قوة الدرع مضافة إلى قوة سيف الخصم ، ولكن حين تكون الدرع قادرة على الإحاطة بالجسم دون أن يُكبّل الحركة ، فهذه هي الدرع المناسبة للقتال .

(١) الدرع السابغة : الواسعة التى تطول إلى الأرض فتغطى الكعبين . [اللسان - مادة : سبغ] .  
(٢) السرد : نسج حلقات الدرع وإحكام صنعها . وسرد الأديم والجلد يسرده سرداً : خرزته وثقبه بالمخرز فى تتابع واتساق ؛ ولهذا سمي نسج الدروع سرداً ؛ لما فيه من دقة وتتابع واتساق . وقدر فى السرد : أى : أحكم العمل فى سرد الدروع ، أى : فى أثناء نسجها . أى : أحكم السرد ، وأتقن النسج . [القاموس القويم] .

(٣) النسج : ضم الشيء إلى الشيء . ونسج الشيء ينسجه نسجاً فتنسج ، ونسجت الريح التراب : منسجت بعضها إلى بعض . والريح تنسج الماء : إذا ضربت ممتنه فانتسجت له طرائق كالحبك . ونسجت الريح الورق الهشيم : جمعت بعضه إلى بعض . ومن معانى النسج : حياكة الثوب . وربما سمي الدراع (صانع الدروع) نساجاً . [اللسان : مادة (ن س ج) بصرف] .



وقد أقرن داود عليه السلام صناعة تلك الدُّرُوع بتلك الهندسة الدقيقة التي أوحى الحق سبحانه بها إليه ، فقد صنعها بأمر الحق الأعلى سبحانه حين قال له : ﴿ وَقَدَّرَ .. (١١) ﴾ وكلمة قدر تعطى معنى التقدير والإتقان .

فعلى الذين يصنعون الأشياء عليهم أن يعلموا أن القرآن الكريم لحظة يوجّه إلى الإتقان فى الأداء والعمل ، فإنه يعلمنا طريقة التقدير والإتقان فى العمل والإبداع فيه ، لتتخذ من هذا التوجيه نبزاً<sup>(١)</sup> نسير عليه ؛ ليكون العمل صالحاً ، وأنت ترى من يتقن صنعته وهو يقول : «الله» ، وكأن هذا القول اعتراف الفطرة الأولى بقدرة الحق سبحانه على أن يَهَبَ الإنسان طاقة الإتقان والإبداع .

ويقول الحق سبحانه أيضاً فى تعليمه لداود عليه السلام :

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ<sup>(٢)</sup> .. (٨٠) ﴾ [الأنبياء]

وهكذا يلقي الله تعالى الخاطر فى قلب الرسول أو النبي أن «افعل كذا» ؛ فيفعل .

وحين ننظر إلى حضارة مصر القديمة ، نجد كل علومها وفنونها فى التحنيط والألوان والنحت ، كانت من اختصاص الكهنة الذين يُمَثِّلُون السلطة الدينية ، ولم يكتب هؤلاء الكهنة أسرار تلك العلوم ، فلم يستطع أحد من المعاصرين أن يتعرف عليها .

وهكذا نجد أن كل أمر فى أصوله ؛ مصدره السماء .

وفى قصة نوح عليه السلام نجد الحق سبحانه يقول :

(١) النبراس : المصباح ، أو الشيء المنير . [المعجم الوسيط] بتصرف .

(٢) اللبوس : ما يلبس . والمراد بها هنا : الدروع التى تلبس فى الحرب . [القاموس القويم] .

﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِطِ بِنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾ (٣٧)

ومعنى «بأعيننا» هو بحفظنا وبرعايتنا. وكلمة «بأعيننا» تفيد شمول الحفظ وكمال الرعاية .

ألم يقل الحق سبحانه في مسألة تخصُّ رسول الله محمد ﷺ ؟

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ .. (٤٨) [الطور]

وكذلك قال سبحانه في قصة سيدنا موسى عليه السلام:

﴿وَلِتَصْغَعِ عَلَيَّ عَيْنِي﴾ (٣٩) [طه]

وأنقذ الحق سبحانه موسى عليه السلام من الفرعون الذي كان يقتل أطفال بني إسرائيل ، وألقى الله تعالى المحبة لموسى في قلب زوجة الفرعون ، وقال سبحانه:

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ .. (٣٩) [طه]

لأن موسى عليه السلام حين كان طفلاً رضيعاً قد ألقى في اليم<sup>(١)</sup> ،

(١) الفُلك: السفينة. ولقطة الفلك تقع للمذكر والمؤنث والمفرد والجمع. قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنِ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْهُونِ﴾ (١١٣) [الشعراء] جعله مفرداً مذكراً. وقال تعالى: ﴿وَنَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ لَهُ﴾ .. (٥٦) [النحل] جعل الفلك جمعاً ووصفه بقوله: «مواجر» أي: السفن.

(٢) أي: اصبر على أذاهم، ولا تيأسهم، فإنك بما رأينا وتحت كلامتنا، والله يعضمك من الناس. تفسير ابن كثير (٢٤٥/٤).

(٣) اليم: مجتمع الماء الكثير، سواء أكان ماء حلياً أو مالحاً، وقد ورد هذان المعنيان في القرآن: - قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ﴾ (٢٨) أن أقلبه في التابوت لألذهبه في اليم فلقيه اليم بالساحل .. (٢٩) [طه] فهو هنا الماء العذب. والمقصود نيل مصر.

- وقال تعالى: ﴿فَأَنفَقْنَا مِنْهُمْ غَيْرَ أَكْثَرٍ﴾ (٢٣٦) [الأعراف] فهو هنا الماء المالح والمقصود خليج السويس امتداد البحر الأحمر.

والتقطه رجال الفرعون ، لكن زوجة الفرعون قالت لزوجها طالبة لموسى الحياة :

﴿ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ <sup>(١)</sup> .. (٦٤) ﴾ [القصاص]

ونحن نجد أن عدو موسى وقومه ، يلتقط موسى ليعيش في كتفه ورعايته ، وكان الله سبحانه يقول لهم : سأجعلكم تُربونَ مَنْ يتولى قهركم .  
وقول الحق سبحانه :

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا .. (٦٥) ﴾ [هود]

أى : إنك إن توقفت لأية عقبة ، فسوف نُلهمك بما تُواجه به تلك العقبة .

وحين صنع نوح عليه السلام الفُلْكَ احتاج لألواح خشبية ، ولا بد أن تتمامسك تلك الألواح ، ولم تكن المسامير قد اخترعت بعدُ ، فأوحى له الله تعالى أن يربط الألواح بالحبال للمجدولة ، وقد فعل هذا أحد مكتشفى أمريكا فى العصر الحديث ، حين صنع سفينة من نبات البردي وربطها بالحبال للمجدولة القوية .

وقال الحق سبحانه فى طريقة صنع سفينة نوح عليه السلام :

﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ <sup>(٢)</sup> (٦٦) ﴾ [القمر]

(١) قرة عين لى ولك : أى : بعث سرورى ولك : [المقاموس القويم].  
(٢) دسر الدسار فى الشيء : دفعه فيه بقوة . والدسار : السمار أو حبل من ليف تُشدُّ به ألواح السفينة وجميعه (دُسُر) .

قال تعالى : ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (٦٦) ﴾ [القمر] . كناية عن موصوف هو السفينة . وقال مجاهد : الدسر أضلاع السفينة . وقال مكرمة والحسن : هو صدرها الذى يضرب به الموج . وقال الضحاك : الدسر طرفاها وأصلها . ذكره ابن كثير فى التفسير (٢٦٤ / ٤) .

أى : أن نوحاً عليه السلام قد أحضر ألواحاً من الخشب وربطها بحبال مجدولة ، وأحكم الرُّبْط بقدر مقتدر بما لا يسمح بتسرب الماء إلى داخل السفينة .

مثلاً تصنع البراميل الخشبية فى عصرنا ، حيث يصنعها الصانع من قطع خشبية مستطيلة ، ويرتبها ثم يُحكم ربطها بإطار قوى ، وحين يوضع فيها أى سائل ، فالخشب يتشرب من هذا السائل ويتمدد ليسد المسام ، فلا ينضج السائل من البرميل ؛ لأن الخشب هو المادة الوحيدة التى تتمدد بالبرودة على العكس من كل المواد التى تتمدد بالحرارة .

ولذلك نجد النجار الحاذق <sup>(١)</sup> فى صنعته هو من يصنع الأثاث أو الأبواب أو الشبائيك فى الفصول الرتيبة <sup>(٢)</sup> ؛ لأنه إن صنعها فى الصيف ، سجد الخشب وهو منكمش ، فإذا ما جاء الشتاء تمدد ذلك الخشب وسبب عدم إحكام إغلاق الأبواب والنوافذ ، وكذلك إن صنعها فى الشتاء والخشب متمدد سيأتى الصيف وتنكمش الأبواب ، وتكون لها متاعبها ، فلا يسهل ضبط إغلاق الأبواب أو ضبط أى صندوق أو شباك بإحكام .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُفْرَقُونَ ﴾ <sup>(٣)</sup> [هود]

أى : لا تحدثنى فى أمر المظفرة لمن ظلموا أنفسهم بالكفر ، وهم من ارتكبوا الظلم العظيم ، وهو الكفر فى القصة العقدية ، وهى الإيمان بالله تعالى واحداً أحداً لا شريك له ؛ لذلك استحقوا العقاب ، وهو الإغراق .

(١) الحاذق : الماهر فى عمله حلق الشئ . : ماهر فيه . (انظر اللسان) .

(٢) الرتيبة : الثابتة التى لا توصف ببرد أو حر .

(٣) الفرق هو أن يضر الماء الشخص حتى يموت ، يقول الحق : ﴿ حتى إذا أدركه الفرق .. ﴾ <sup>(٤)</sup> [يونس] أن تمكن منه ، وغرق كفر فلهو غرق وغارق وغرق . وجمع الأخير غرقى ، واسم المفعول منه مغرق ،

لأن تعالى : ﴿ .. فكان من المفترقين ﴾ <sup>(٥)</sup> [هود] (القاموس القويم ص ٥١ ج ٢) .

وهكذا علمَ نوح عليه السلام أنَّ صُنْعَ السفينة مرتبط ببلون العقاب الذي سيقع على مَنْ كَفَرُوا برسالته ، فهو وَمَنْ آمَنُوا معه سوف ينجون ، أما مَنْ كَفَرَ فليسوف يغرق .

وبَيَّنَّ الحق سبحانه وتعالى ذلك حين يقول :

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ (٣٨)

وكان السادة والكبراء من ملا نوح يمرون عليه وهو يصنع السفينة يسخرون منه ، بما يعنى : ها هو بعد أن ادعى النبوة يتحوّل إلى بُحَّار ، ثم يتساءلون : كيف تصل هذه السفينة من «الموصل» إلى البحر ؟

ولم يكونوا قد علموا ما علمه نوح عليه السلام من أن الماء هو الذى سوف يأتى ليحمل السفينة .

ونحن نلاحظ فى قول الحق سبحانه :

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ .. ﴾ (٣٨) [هود]

تنفيذ الأمر الذى صدر من الله سبحانه وتعالى إلى نوح عليه السلام حين قال سبحانه :

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ (٣٧) [هود]

(١) مَلَأَ : جماعه منهم .

(٢) سَخِرَ مِنْهُ مِنْهُ مِنْ بَابِ فَرَحٍ سَخِرَا وَسَخِرَا وَسَخِرَا وَسَخِرَا : هزى به . قال تعالى : ﴿ .. قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ (٣٨) [هود] (القاموس القويم)

ثم يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ (٣٩)

ونلاحظ في قول الحق سبحانه : ﴿ فَسَوْفَ ﴾ ﴿ تَعْلَمُونَ ﴾ أن الفعل الذي يعلمه نوح عليه السلام وهو أمر الإغراق سيحدث مستقبلاً ؛ لأن أي حدث - كما نعلم - له أكثر من صورة ، فإن جاء الكلام عن الحدث بعد وقوعه ؛ كان الفعل ماضياً ، وإن جاء الكلام وقت وقوع الحدث كان الفعل مضارعاً .

وإن جاء الكلام عن حدث لم يأت زمنه فالأمر يقتضى أن نسبق الكلام عن الحدث بحرف «السين» كأن نقول : «سيعلمون» وهذا عن الاستقبال القريب ، أما عن الاستقبال البعيد فتأتى كلمة «سوف» .

ونحن نعلم أن نوحاً عليه السلام قضى العديد من السنين وهو يصنع السفينة <sup>(١)</sup> ؛ ولذلك جاء بـ «سوف» لتدل على أوسع مدى زمنى .

وما الذى سوف يعلمونه ؟ إنه العذاب ، أياتى لنوح ومن معه أم يأتى للذين كفروا من ملا نوح ؟

لذلك يقول الحق سبحانه على لسان نوح عليه السلام :

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ .. ﴾ (٣٩) [هود]

(١) خزي يخزي : هان واقتضع وخجل . وأخزاه فلان ويخزيه : أهانه وفضحه . قال تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مِنْ لَدُنْهِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ .. ﴾ [آل عمران] .

(٢) يحل : يترل عليهم . وقال تعالى : ﴿ .. وَلَا تَطْفُوا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ [طه] [القاموس القويم] .

(٣) قال زيد بن أسلم : مكث نوح عليه السلام مائة سنة يفرس الشجر ويقطعها ويبسها ، ومائة سنة يعملها . ذكره القرطبي في تفسيره (٣٣٤٩/٤) .

وفى هذا القول ما يؤكد أن نوحاً عليه السلام يعلم أن العذاب سوف يأتيهم ؛ لأنهم كفروا وسَخروا وقالوا:

﴿ .. فَأَتَيْنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٣٧)

[هود]

وقول الحق سبحانه:

﴿ .. وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّهِمٌ ﴾ (٣٩)

[هود]

نجد فيه كلمة ﴿يَجْعَلُ﴾ وهى ضدُّ الرحيل ، وتفيد النزول من أعلى إلى مكان الإقامة ، فَحَلَّ بِالْمَكَانِ ، أى: نزل ليقيم به ، والضدُّ هو الرحيل أو الترحال .

وقول الحق سبحانه: ﴿مُهِمٌ﴾ يعنى أن العذاب الذى سيحلُّ بهم عذاب دائم<sup>(١)</sup> .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ<sup>(٢)</sup> إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَاءٌ آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ<sup>(٣)</sup> ﴾

(١) جاء فى تفسير الآية عند القرطبى (٤ / ٢٣٥١) ما يفيد أن هنا نوعين من العذاب:

- الأول: ﴿عَذَابٌ يَخْزِيهِ﴾ وهو فى الدنيا .

- الثانى: ﴿عَذَابٌ مُّهِمٌ﴾ وهو عذاب الآخرة .

(٢) التنور: مكان تفجر الماء . والكانون الذى يخبز فيه . قال تعالى: ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ ..﴾ (٥٤) [هود] أى:

تفجرت الأرض بماء كثير ، أو تفجرت بماء يشبه فوران النار فى التنور . والتنور: مجتمع ماء الوادى . وكل ذلك يدل على كثرة الماء ، وعلى قوة اندفاعه . [القاموس القويم] .

(٣) أَهْلٌ مَنْ باب فَرَحٍ وضرب ونصر أهلاً وأهولاً: تزوج ، وأهل المكان ضمير بأهله . والأهل الأقارب

والعشيرة والزوجة ، وأهل الدار أصحابها ، وأهل النبى أتباعه ، وأهل الكتاب هم أصحاب الديانات

السمائية ، قال تعالى: ﴿ .. يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ

وَأَضَلُّوا نَجْوَاهُمْ وَمَضُوا مِنْ سَبِيلِ الْبَيْتِ ﴾ (٣٧) [المائدة] [القاموس القويم باختصار] .

وكلمة ﴿حَتَّى﴾ تدل على الغاية وكلمة ﴿أَمْرُنَا﴾ تدل على الطوفان ، ثم الأمر من الحق سبحانه بأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ وَكَانُوا قَلَّةً قَلِيلَةً .

إذن : ففي قصة نوح عليه السلام أكثر من مرحلة ، أمر من الله تعالى بقوله :

﴿وَأَصْنَعِ الْفُلَ .. (٣٧)﴾ [هود]

وعمل من نوح عليه السلام بأن يصنع ، وقد استغرق هذا الفعل وقتاً طويلاً من نوح عليه السلام إلى أن جاء أمر الطوفان الذي يدل عليه قول الحق سبحانه :

﴿وَفَارَ التَّوْرُ .. (٤٠)﴾ [هود]

ومعنى كلمة ﴿فَارَ﴾ أى : أن الماء قد وصل إلى درجة الغليان .

فالماء يحتوى على هواء بدليل أن السمك يتنفس من الماء ، وحين تغلى الماء نرى فقائيع الهواء وهى تخرج من الماء ، ثم يشغل الماء إلى أن تشتد سخونة الغليان ، فيفور الماء متوراً خارج إناء الغليان .

و«التور» هو المكان الذى تتم فيه عملية الخبز ، وخروج الماء من التور هو علامة مميزة يعلمها نوح عليه السلام ليحمل من يريد نجاتهم ، من المؤمنين ، ومن متاع الدنيا كله .

وكانت العلامة هى خروج الماء من غير مَظَانِّهِ وهو التور .

واختلف العلماء<sup>(١)</sup> فى تفسير كلمة «التور» فمنهم من قال : إن التور هو

(١) ذكر القرطبي فى تفسيره هذه الاختلافات على سبعة أقوال ، فلتراجع هناك (١/ ٣٣٥٢ ، ٣٣٥١) ، ثم قال : «قال النحاس : هذه الأقوال ليست بمتناقضة» وهى لمجتمع فى أن ذلك كان علامة أهد ينصرف . أما ابن كثير فقد رجح قول ابن عباس أن التور هو وجه الأرض ، أى : صارت الأرض عيوناً تفور حتى فار الماء من التناير التى هى مكان النار ، صارت تفور ماء . قال ابن كثير : «هذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف» وذكر باقى الأقوال ولكنه وصفها بالغرابة . [تفسير ابن كثير ٢/ ٤٤٥] .



المكان الذى كان آدم عليه السلام يخبز فيه ، أو هو المكان الذى كانت تعمل فيه  
حواء ، أو هو بيت نوح ، أو هو بيت سيدة عجوز .

وكل تلك التفسيرات لا تفيد ولا تضر ، المهم أن فوران التنور كان علامة بين  
نوح عليه السلام وربه ، وأنه إذا ما فار التنور فعلى نوح أن يحمل من كل  
زوجين اثنين .

وقول الحق سبحانه :

﴿ اَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .. ﴾ (٤٠) [هود]

تعنى : أن يحمل من كل الكائنات ، وتدل على ذلك كلمة ﴿ كُلِّ ﴾  
المنونة - وتفيد التعميم - أى : احمِلْ فى السفينة من كل شيء ، تطلبه حياة  
الناجين من جميع أصناف النباتات والحيوانات ، حتى الخنزير كان ضمن ما  
حمله نوح عليه السلام .

والذين يقولون إن تحريم الخنزير جاء ؛ لأن نوحاً عليه السلام لم يحمله  
معه ، لم يفتنوا إلى أهمية الخنزير كحيوان يأكل القاذورات وينظف الأرض  
منها ؛ لأن كل كائن له مهمة ، وليست مهمة الكائنات فقط أن يأكلها الإنسان .

وكلمة :

﴿ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .. ﴾ (٤٠) [هود]

تدل على أن كلمة «زَوْج»<sup>(١)</sup> هى مفرد ؛ بدليل قول الحق سبحانه :

(١) الزوج : كل واحد مع آخر من جنسه مع اختلاف المهمة لأن فى اختلاف المهمة تكامل الغاية ، يطلق  
على الذكر والأنثى ؛ فالرجل زوج لامرأة ، والمرأة زوج لرجل . والزوج فى الحساب خلاف الفرد ، وهو  
كل ما ينقسم قسمين متساويين .

والزوج : الشكل أو الصنف يكون له نظير أو نقيض كالرطب واليابس والذكر والأنثى . قال تعالى .  
﴿ قُلْنَا اَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .. ﴾ [هود] (٤٠) أى : احمِلْ فى السفينة ذكراً وأنثى من كل نوع .  
وقال تعالى : ﴿ وَاخْرَجْنَا مِنْ شَجَلِهِ أَزْوَاجَ ﴾ [ص] (٥٥) أى : أصناف متزاوجة ذكورة وأنوثة ، أو متناقضة  
كل شيء وضده . [القاموس القويم] . بتصرف

[النساء]

﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا.. (١)﴾

إذن : كلمة «زَوْج» تعنى مفرد معه مثله ، كزوج من الأحذية مثلاً .  
أقول ذلك حتى لا نأخذ كلمة «الزوج» على أنها اثنان ، ولذلك نجد الحق سبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الصَّانِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِ اثْنَيْنِ قُلُ الذَّكَرَيْنِ حَرُمٌ أُمِ  
الْأُنثَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ ثُبُوتِي بِعَلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣)  
وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ.. (١٤٤)﴾ [الأنعام]

وحين نجمع العدد سنجد ثمانية ، ولو كانت كلمة «زوج» تطلق على  
الاثنين لصار العدد سنجد ثمانية ، تلك الآية الكريمة ستة عشر .

ويوضح القرآن الكريم أن كلمة «زوج» مفرد فى قول الحق سبحانه :

﴿أَلَمْ يَكُنْ نُطْقَةً (١) مِّنْ مَّيْمَرٍ يَمْنَى (٢) ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً (٣) فَخَلَقَ فَسَوَّى (٤)  
(٢٨) لَجَعَلْ مِنْهُ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٢٩)﴾ [القيامة]

إذن : فالذكر زوج ، والأنثى زوج أيضاً .

وواصل نوح عليه السلام تنفيذ أمر الحق سبحانه :

- 
- (١) نطف الماء : سال وقطر . والنطفة : الماء الصافى ، وتطلق فى القرآن على ماء الرجل أو المرأة ، الذى  
يُخلق منه الولد . وقال تعالى : ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٤٢)﴾ [النحل] .
- (٢) منى يمنى : يُصب فى الرحم . [كلمات القرآن للشيخ حسين مخلوف] .
- (٣) علقه : الدم الجامد الغليظ الذى يعلّق بما يمسّه . وجمعها : علق . قال تعالى : ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ نُّرَابٍ ثُمَّ  
مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ.. (٤٥)﴾ [الحج] ، وقال تعالى : ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا  
مُضْغَةً عِظَامًا فَكَسَرْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤١)﴾ [الزمر] .
- تعالى : ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (١٢)﴾ [المعلق] . [القاموس القويم] .
- (٤) سَوَّى - فَعَلَّه وكَمَلَه ونَفَخَ فيه الروح . [كلمات القرآن للشيخ حسين مخلوف] .

## سُورَةُ هُودٍ

٦٤٧٣

﴿.. اَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٤٠) ﴿

[هود]

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يستبقى الحياة بنجاة كل ما محتاجه الحياة بالسفينة ، ويقال : إنهم عاشوا في تلك السفينة عامين<sup>(١)</sup> .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٤١) ﴿

هذه هي المرحلة الأخيرة في قصة السفينة ، وبدأت القصة بأمر من الله سبحانه لنوح عليه السلام أن اصنع الفلك ، ثم تمهيد من نوح لقومه ، ثم ظل يصنع الفلك حتى جاءت إشارة البدء بعلامة :

﴿وَقَارَ الثُّورُ ..﴾ (٤٢) ﴿

[هود]

وحملَ نوح عليه السلام في الفلك - بأمر من الله تعالى - من كل شيء زوجين اثنين ، وأهله ومَنْ آمَنَ معه .

وقال نوح عليه السلام لمن آمَنَ :

﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ..﴾ (٤٣) ﴿

[هود]

(١) قال عكرمة : ركب نوح عليه السلام في الفلك لعشر خلون من رجب ، واستوت على الجودي لعشر خلون من المحرم . فذلك ستة أشهر . وذكر الطبري عن ابن إسحاق ما يقتضي أنه أقام على الماء نحو السنة . قاله القرطبي في تفسيره (٣٣٥٤ / ٤) وذكر ابن كثير في تفسيره (٤٤٧ / ٢) عن ابن عباس أنهم مكثوا في السفينة مائة وخمسين يوماً ، أى : حوالى خمسة أشهر . قاله أعلم .

(٢) للجري (بفتح الراء وتُسمَل نحو الكسرة) : مصدر ميمي بمعنى الجرى . قال تعالى : ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ..﴾ (٤١) ﴿ [هود] أى : جَرَّيْهَا وإرسالها ببركة اسم الله وبعنايته ورعايته . [القاموس المقيّم] .

وهذا القول منسوب لنوح عليه السلام ؛ لأنه أضاف :

﴿ .. إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٤١)

[هود]

والركوب يقتضى أن يكون الراكب على المركوب ، ومستعلٍ عليه .

والاستعلاء يقتضى أن يكون الشيء المُستعلَى عليه فى خدمة المُستعلَى ، فكأن تسخير الله سبحانه للسفينة إنما جاء لِيُخدم المُستعلَى .

ولكن الله تعالى يقول هنا :

﴿ ارْكَبُوا فِيهَا .. ﴾ (٤١)

[هود]

ولم يقل : « اركبوا عليها » .

قال الحق سبحانه وتعالى ذلك ؛ ليعطينا لقطة عن طريقة صنع السفينة ، فقد صنعها "نوح عليه السلام بوحي من الله تعالى على أفضل نظام فى البواخر ، ولم يصنعها بطريقة بدائية ، فهم - إذن - لم يركبوها على سطحها ، بل تم بناؤها بما يتيح لهم السكن فيها ، خصوصاً وأن تلك السفينة تحمل وحوشاً وهواماً وحيوانات بجانب البشر ، لذلك كان لا بد من بنائها على هيئة طبقات وأدوار .

وقول الحق سبحانه :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. ﴾ (٤١)

[هود]

يُبين لنا أنها قد صُنعت لَتُنَجى من الفرق ؛ لذلك لا بد أن تسير بالراكبين فيها إلى مكان لا يصله الماء ، ولا بد أن يكون هذا المكان عالياً ؛ لِيُتيح

(١) الصنع : معناه الإحداث والإنشاء ، ويكون بقصد وإرادة وتبليغ ، ويطلق على الحرفة صناعة ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ .. ﴾ (٦٩) [طه] وقال تعالى : ﴿ .. إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (٦٩) [فاطر] ، وتأتى عقب التربة والتعليم بحراستى وعنايتى كما فى قوله تعالى : ﴿ .. وَلَيَصْنَعُ عَلَى عَيْنِي ﴾ (٦٩) [طه] وتطلق على الأبنية العالية والقصور المتينة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَتَقْبَلُونَ مَصْنَعِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٦٩) [الشعراء] [القاموس القويم بتصرف] .

الرُّسُوْءُ ، كما أتاح الفيضان عملية الجريان .

وهكذا كان جريانها باسم الله ، ورُسُوْها بإذنه سبحانه .

وقول نوح عليه السلام :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. ﴾ (٤١)

يعلمنا أن جريانها إنما يتم بمشيئة الله تعالى وأنهم يركبون فيها ، لا لمكانتهم الشخصية ، ولكن لإيمانهم بالله تعالى .

ومثال ذلك من حياتنا - ولله المثل الأعلى - : نجد القاضى يقول مفتتحاً الحكم : « باسم الدستور والقانون » أى : أنه لا يحكم بذاته كقاضٍ ، لكنه يحكم باسم الدستور والقانون .

ونوح عليه السلام يقول :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. ﴾ (٤١)

لأن السفينة لله أمر ، ولرسوله صناعة .

ولذلك يقال : « كل شيء لا يبدأ باسم الله فهو أبتر »<sup>(١)</sup> .

لأنك حين تُقبل على فعل شيء ، فالأفعال أو الأحداث تحتاج إلى طاقات متعددة ، فإن كان الفعل عضلياً ، فهو يحتاج لقوة ، وإن كان الفعل عقلياً فهو يحتاج لفكر وروية وأناة ، وإن كان فعلاً فيه مواجهة لأهل الجاه فهو يحتاج إلى شجاعة ، وإن كان من أجل تصفية نفوس فهو يحتاج إلى الحلم .

إذن : فاحتياجات الأحداث كثيرة ومختلفة ، ومن أجل أن تحصل على القوة فقد تقول : « باسم القوى القادر » ولكى تحصل على علم ؛ تقول : « باسم العليم » ، وتريد الغنى ؛ فتقول : « باسم الغنى » وحين تحتاج إلى الحلم تقول : « باسم الحليم » ، وعندما تحتاج إلى الشجاعة ؛ تقول : « باسم القهار » .

(١) أبتر : أى مقطوع البركة ، لا خير فيه .

وقد يحتاج الفعل الواحد لأشياء كثيرة ، والذي يُغنى عن كل ذلك أن تنادى ربك وتبهرّك باسم واجد الوجود وهو الله سبحانه وتعالى ، ففيه تنطوى كل صفات الكمال والجلال .

وليك أن تهيبّ أو تستحى ، بل ادخل على كل أمر باسم الله ، حتى لو كنت عاصياً ؛ لأن الحق سبحانه رحمن رحيم .

وقول الحق سبحانه على لسان نوح عليه السلام :

﴿ .. إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٤١)

[هود]

إنما يقصد أن هؤلاء المؤمنين برسالة نوح كانوا من البشر ، ولم يطبقوا - كغالبية البشر - كل التكاليف ؛ لأنهم ليسوا ملائكة .

لذلك قَدَّرَ الحق سبحانه وتعالى إيمانهم وعفا عن بعض الذنوب التي ارتكبوها ولم يؤاخذهم بها .

هذه هي الميزة في قول : «بسم الله الرحمن الرحيم» .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك يَصِفُ السفينة وركابها :

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَقْرِبٍ يَتْبِقُ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٤٢)

(١) الجرى : السير السريع ، جرى الماء يجرى : سار ، وجرت السفينة : سارت وأسرعت ، قال تعالى : ﴿ لَهَا عِثَانٌ تَجْرِيانِ ﴾ (٤٢) [الرحمن] وقال تعالى : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ .. ﴾ (٤٢) [هود] وهي سفينة نوح عليه السلام . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارَةِ ﴾ (٤٢) [الحاقة] أي : في السفينة الممهدة . وجمع الجارية : الجوارى . وقال تعالى : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَقْرِبٍ يَتْبِقُ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٤٢) [الشورى] وحذفت الياء تخفيفاً من الجوارى في رسم المصحف . وقوله تعالى : ﴿ فَالْجَارِيَاتُ يُسْرْنَ ﴾ (٤٢) [الدَّارِيَاتُ] قيل : هي السفن . وقيل : هي الرياح . وقيل : هي النجوم والكواكب . وقال تعالى : ﴿ وَالْفَلَكَ أَلْبَى تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ .. ﴾ (٤٢) [البقرة] [القاموس القويم] .

## سُورَةُ هُودٍ

٦٤٧٧

وجرت بهم السفينة ، لا بين موج هائج فحسب ، ولكن كان الموج كالجبال ، وهذا يدل على أنها مُسيرة بقوة عالية لا تؤثر فيها الأمواج ، ثم يجيء الحديث عن عاطفة الأبوة حين ينادى نوح ابنه :

﴿ .. وَتَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ <sup>(١)</sup> يَا بَنِيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ <sup>(٢)</sup> ﴾ [هود]

ورفض الابن مطلب أبيه معتمداً على أن الجبل يحميه

وفي هذا يقول الحق سبحانه مبيناً مُراد الابن في مُخالفة مُراد أبيه

﴿ قَالَ سَتَأْوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُفْرَقِينَ <sup>(٣)</sup> ﴾

هكذا ظن ابن نوح أنه سينجو إن آوى <sup>(١)</sup> إلى جبل ، لعل ارتفاع الجبل يعصمه من الغرق ، لكن نوحاً عليه السلام يعلم أن لا نجاة لكافر ، بل النجاة فقط هي لمن رحمه الله بالإيمان .

وهكذا فرق الموج بين نوح وابنه ؛ وغرق الابن .

(١) المعزل : اسم مكان . قال تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ .. ﴾ [هود] أى : في موضع عزل نفسه فيه جانباً ، ولم ينضم إلى ركاب السفينة مع أبيه نوح عليه السلام . [القاموس القويم] .

(٢) يعصمني : يمنعني ويحميني من الماء فلا أغرق . والمعصمة : المنع والحفظ .

(٣) حال بينهما يحول حولاً : حجز وفصل . قال تعالى : ﴿ .. وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُفْرَقِينَ <sup>(٣)</sup> ﴾ [هود] أى : حجز الموج وفصل بين نوح عليه السلام ، وابنه ؛ فكان من المفترقين . [القاموس القويم] بتصرف .

(٤) آوى : لجأ إلى جبل ولاذ به ؛ طلباً للحماية من الماء الغزير . وآوى إلى المكان ، وآوى إليه بأوى أوتياً : نزله والتجأ إليه . قال تعالى : ﴿ إِذْ أَوْىُّ الْفِتْيَةَ إِلَى الْكَهْفِ .. ﴾ [الكهف] أى : نزله والتجأوا إليه . [القاموس القويم] .

وأراد الحق سبحانه أن ينهي الكلام عن نوح عليه السلام ، فجاء بلفظة استواء السفينة على الجودي .

ويقال : إن جبل الجودي يوجد في الموصل ويقال : إنه ناحية الكوفة ، وإن كان هذا القول مجرد علم لا ينفع ، والجهل به لا يضر .  
ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ<sup>(١)</sup> وَنَسَمَاءَ<sup>(٢)</sup> أَقْلِي<sup>(٣)</sup> وَغِيضَ الْمَاءِ<sup>(٤)</sup> وَقُضِيَ الْأَمْرُ<sup>(٥)</sup> وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ<sup>(٦)</sup> وَقِيلَ بَعْدَ الْقُورِ الظَّالِمِينَ<sup>(٧)</sup> ۝١١﴾

والبلع هو مرور الشيء من الحلق ليسقط في الجوف ، وساعة أن يأتي في القرآن أمر من الله تعالى مثل :

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ .. ۝١١ ﴾ [هود]

فافهم أن القائل هو من تنصاع له الأرض .

ولم يقل الله سبحانه : « قال الله يا أرض ابْلَعِي مَاءَكِ » ؛ لأن هناك أصلاً متعيناً وإن لم يقله ، والحق سبحانه يريد أن ينمى فينا غريزة وفطنة الإيمان ؛ لأن أحداً غير الله تعالى ليس بقادر على أن يأمر الأرض بأن تبلع الماء .

(١) أَقْلِي : أمسكى ( امتنعي ) عن إنزال المطر . [كلمات القرآن] . والإفلاق عن الأمر : الكف عنه .

وأقلع عن الشيء : كف عنه . وأقلعت السماء : كثت عن المطر . [القاموس القويم] .

(٢) غِيضُ الْمَاءِ : نقص وذهب في الأرض [كلمات القرآن] .

وغاوض الماء يغيض غيضاً : ذهب وابتلعته الأرض [القاموس القويم] .

(٣) استوت على الجودي : استقرت على جبل يقرب الموصل . [كلمات القرآن] .

وقيل : إن ذلك كان يوم هاشوراء ، فصامه نوح ومن كان معه من الوحش والخلق شكراً لله عز وجل .

[مختصر تفسير الطبري] .

(٤) بَعْدَ : أي : هلاكاً وسحقاً . [كلمات القرآن] .



ويكون أمره سبحانه للسماء: ﴿وَيَا سَمَاءُ أَقْلِي﴾ أى: أن توقف المطر.  
وهكذا ينهى الحق سبحانه الطوفان الذى أغرق الدنيا بأن أوقف المصب،  
وأعطى الأمر للمصرف أن يسحب الماء.

ونحن نلاحظ عند سقوط المطر أن شبكة الصرف الصحى تطفح إن كان  
هناك ما يسد تصريف الماء ؛ لأن أرض المدن حالياً صارت من الأسفلت الذى  
لا يمتص المياه ؛ ولذلك نجد الجهات المختصة تجدد طاقاتها لإصلاح مواسير  
الصرف الصحى لتمتص مياه المطر حتى لا تتعطل حركة الحياة .

وأقول هنا: إن حُسن استخدام الماء من حُسن الإيمان ؛ لأننى ألاحظ أن الناس  
حين يتوضأون فهم يفتحون صنبير الماء بما يزيد كثيراً عن حاجتهم للوضوء  
الشرعى ، فيجب ألا نرتكب إثم ترك الماء النقى ليضيع دون جدوى<sup>(١)</sup> .

وعلى الناس أن يدّخروا الماء ، ولا يُسيئوا استغلاله ؛ لأن الماء حين يتوفر  
فهو يُحىي الموات ، ونحن نحتاج الماء لاستزراع الصحارى ، ونحتاج لتخفيف  
العبء على شبكات الصرف الصحى .

باختصار ؛ نحن نحتاج إلى حُسن استقبال نِعَمِ الله تعالى وحُسن التصرف  
فيها ؛ لننعم بها ، ونسعد بخيرها .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَيَا سَمَاءُ أَقْلِي .. (٤٤)﴾

[هود]

أى: اتركى المطر .. ومن ذلك أخذنا كلمة «قلع» الذى يوضع فوق السفن  
الشرعية الصغيرة ، وهو الشراع .

(١) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ مر بسعد وهو يتوضأ . فقال : ما هذا السرف ؟ فقال :  
أفنى الوضوء [إسراف ؟] قال : نعم وإن كنت على نهر جارء أخرجه أحمد فى مستدركه (٢/٢٢١)  
وابن ماجه فى سننه (٤٢٥) قال البوصيرى فى الزوائد : «إسناده ضعيف» لضعف حى بن عبد الله وابن  
لهيعة .

ويُقال: «أقلعت المركب» أى: تركت السكون الذى كانت عليه وهى واقفة على الشاطئ.

ويقول الحق سبحانه:

[هود] ﴿وَغِيضَ الْمَاءِ .. (١٤)﴾

وبناها الحق سبحانه هنا للمجهول ؛ لنعلم أن الله تعالى هو الذى أمر الماء بأن يغيض.

ومادة «غاض» تُستعمل لازمة ، وتُستعمل متعدية<sup>(١)</sup>.

ثم يقول سبحانه:

[هود] ﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى .. (١٥)﴾

أى: استقرت السفينة على جبل الجودى.

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله:

[هود] ﴿.. وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٦)﴾

وهو بعدٌ نهائى إلى يوم القيامة.

وتتحرك عاطفة الأبوة فى نوح عليه السلام، ويظهرها قول الحق سبحانه:

﴿وَفَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ

الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ (١٧)﴾

(١) تستعمل «غاض» لازمة ، وهى أن تكفى بفاعلها فلا تحتاج لمفعول به ، وذلك مثل : غاض الماء . أى: نقص . وقد تستعمل متعدية أى: تتعدى فاعلها إلى المفعول به . فتقول : أغاض الله مائه (البشر) أو: غاضه وغِيضه .

(٢) أحكم: اسم تفضيل يفيد المبالغة فى الصفة . أى: أنه سبحانه وتعالى هو أفضل الحاكمين . وأحكم الأمر: أتقنه . قال تعالى: ﴿ثُمَّ يُحْكَمُ اللَّهُ أَمْرَهُ .. (٥٦)﴾ [الحج] أى: يبينها ويجعلها متقنة متقنة محكمة . [القاموس القويم].

وعاطفة الأبوة عاطفة محمودة ، والحق سبحانه يشحن بها قلب الأب على قدر حاجة البنوة ، ولو لم تكن تلك العاطفة موجودة ، لما تحمل أى أب أو أى أم متاعب تربية الأبناء .

وحتى نعلم أن الأنبياء لا بنوة لهم إلا بنوة الاتباع نجد المثل فى إبراهيم خليل الرحمن عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، حين قال فيه الحق سبحانه :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ <sup>(١)</sup> ۖ ۝١٢٤ ﴾ [البقرة]

أى : أن أداء إبراهيم عليه السلام للتكاليف كان على وجه التمام ، مثلما أراد أن يرفع القواعد من البيت ، فرفعها فوق قامته بالاحتيال ، فأحضر حجراً ووقف عليه ليعلو جدار الكعبة .

وقال له الله تعالى :

﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ ۝١٢٥ ﴾ [البقرة]

لأنك مأمون على منهج الله وقادر على أن تنقذه بدقة ، فقال إبراهيم عليه السلام :

﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ۖ ۝١٢٦ ﴾ [البقرة]

فقال الحق سبحانه :

(١) ابتلى : اختبر وامتنحن . بكلمات : بأوامر ونواه . فأتمهن : أدامن لله تعالى على الكمال . [كلمات القرآن] .

وقد اختلف فى تعيين الكلمات التى اختبر الله بها إبراهيم عليه السلام . قال ابن عباس : ابتلاه الله بالناسك وعنه أيضاً : ابتلاه بالطهارة : خمس فى الرأس وخمس فى الجسد ، فى الرأس : قص الشارب ، والمضمضة ، والامتنشق ، والسواك ، وفرق الرأس . وفى الجسد : تقليم الأظفار .

﴿ .. لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ (١٧٤)

[البقرة]

من هذا نعلم أن النبوة ليس لها نبوة ، بل النبوة لها أتباع .  
ويتضح ذلك أيضاً في قول إبراهيم عليه السلام بعد أن استقر في ذهنه  
قول الحق سبحانه :

﴿ .. لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ (١٧٤)

[البقرة]

قال إبراهيم لربه سبحانه طلباً للرزق لمكة وأهلها :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ  
آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .. ﴾ (١٧٥)

[البقرة]

هكذا طلب إبراهيم عليه السلام الرزق للمؤمنين ، لكن الحق سبحانه  
بيّن له أنه نقل المسألة إلى غير مكانها ؛ فالرزق عطاء ربوبية للمؤمن  
والكافر ، لكن تكليفات الألوهية هي للمؤمن فقط ؛ لذلك قال الحق  
سبحانه :

﴿ وَمَنْ كَفَرَ .. ﴾ (١٧٦)

[البقرة]

أى : أن الرزق يشمل المؤمن والكافر ، عطاء من الربوبية .

ونريد أن نقول إن عاطفة الأبوة والأمومة إنما تتناسب مع حاجة الابن  
تناسباً عكسياً ، فإن كان الابن قوياً فعاطفة الأبوة والأمومة تقل .

ومثال ذلك : أننا نجد شقيقين أحدهما غنى قائم بأمر الأبوين ويتكفل  
بهما ، بينما الابن الآخر فقير لا يقدر على رعاية الأبوين .

(١) للمهد : الزمان والوصية والموت والثلثة والأمان . قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ .. ﴾ (١٧٧) [البقرة] .

وعهد إليه بالأمر بعهد عهداً : أوصاه به وجعله في ذمته وضمنته . قال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا  
بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ .. ﴾ (١٨٠) [يس] . [القاموس القويم] .

وسنلاحظ أن قلب الأب والأم يكون مع الفقير ، لا مع الغنى ، فعاطفة الأبوة والأمومة تكون مع الضعيف والمريض والغائب ، وكلما كان الابن في حاجة ؛ كانت العاطفة معه .

وفي نداء نوح عليه السلام لربه سبحانه نلاحظ أن نوحاً كان يملك البرّ طلباً لنجاة الابن ؛ لأن الحق سبحانه أمره بأن يحمل في السفينة من كل زوجين اثنين وكذلك أهله ، فأراد نوح عليه السلام أن يطلب النجاة لابنه لأنه من أهله ، فقال :

﴿ .. رَبِّ إِنِّي ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾  
[هود]

إذن : فنوح عليه السلام يملك حق الدعاء ؛ لأنه يطلب تحقق وعد الله تعالى بأن يحمل أهله معه للنجاة .

وحين يقول نوح : ﴿ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ هو إقرار بأن الله سبحانه لا يخطئ ؛ لأن الابن قد غرق ، بل لا بد أن ذلك الغرق كان لحكمة .  
ويقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ يَبْنَوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتْلَنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾<sup>(١)</sup>

(١) ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ .. ﴾<sup>(١٦)</sup> : أى : ليس من أهل ولايتك ودينك ، ولا ممن وعدتك أن تنجيه معك .  
﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. ﴾<sup>(١٧)</sup> : قيل : معناه ، أن سؤالك لى ما تسأله فى ابنك المخالف لك عمل غير صالح .  
﴿ .. إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾<sup>(١٨)</sup> : فى مسألتك لى من ذلك . [مختصر تفسير الطبرى] .

ووعظه بعظه وعظاً وعظة : نصحه بالطاعة وبالعمل الصالح ، وأرشده إلى الخير . والموعظة : ما يوعظه به من قول أو فعل . قال تعالى : ﴿ .. وَمَوْعِظَةُ الْمَقْلَبِينَ ﴾<sup>(١٩)</sup> [البقرة] . [القاموس القويم] .

ويريد الحق سبحانه هنا أن يلفت نبيه نوحاً إلى أن أهلية الأنبياء ليست أهلية الدم واللحم ، ولكنها أهلية المنهج والاتباع ، وإذا قاس نوح - عليه السلام - ابنه على هذا القانون ، فلن يجده ابناً له .

ألم يقل نبينا ﷺ عن سلمان الفارسي : «سلمان من آل البيت»<sup>(١)</sup> .

إذن : فالبنوة بالنسبة للأنبياء هي بنوة اتباع ، لا بنوة نسب .

وانظر إلى دقة الأداء في قول الله تعالى :

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ .. ﴾ (٤٦)

[هود]

ثم يأتي سبحانه بالعلة والحشية لذلك بقوله :

﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. ﴾ (٤٦)

[هود]

فكان البنوة هنا عمل ، وليست ذاتاً ، فالذات منكورة هنا ، والمذكور هو العمل ، فعمل ابن نوح جعله غير صالح أن يكون ابناً لنوح .

وهكذا نجد أن المحكوم عليه في البنوة للأنبياء ليس الدم ، وليس الشحم ، وليس اللحم ، إنما هو الاتباع بدليل أن الحق سبحانه وصف ابن نوح بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ ولو كان عملاً صالحاً لكان ابنه .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ .. فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ

الْجَاهِلِينَ ﴾ (٤٦)

[هود]

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٥٩٨/٣) من حديث عمرو بن عوف المزني . قال الذهبي والمجلوني :  
سنده ضعيف .

والحق سبحانه يطلب من نوح هنا أن يفكر جيداً قبل أن يسأل ، فلا غبار على الأنبياء حين يريهم ربهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١٧)

وهنا يدعو نوح عليه السلام ربه سبحانه وتعالى أن يغفر له ما قاله ، وهو هنا يقر بأنه لما أحب أن يسأل نجاة ابنه لم يستطع أن يكتفم سؤاله ، ولكن الحق سبحانه وتعالى وحده هو القادر على أن يمنع من قلبه مثل هذا السؤال ، وهذه قمة التسليم لله تعالى .

وقول نوح عليه السلام :

﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ .. ﴾ (١٧) [هود]

يوضح لنا أن الإنسان لا يعوذ من شيء بشيء إلا إن كانت قوته لا تقدر على أن تمتنع عنه .

ولذلك يستعيز نوح عليه السلام من أن يسأل ما ليس له به علم ، ويرجو مغفرة الله سبحانه وتعالى ورحمته حتى لا يكون من الخاسرين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) عاذ يعوذ عوذاً : لاذ ولجأ . وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) ﴾ [الناس] ، أي : الجأ إليه ، والوذه به ، وأحمى بحمايته [القاموس الموفى] .

﴿قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ  
أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا  
عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤٨)

وقول الحق سبحانه :

﴿اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا ..﴾ (٤٨) [هود]

يدل على أن نوحاً عليه السلام قد تلقى الأمر بالنزول من السفينة ليباشر  
مهمته الإيمانية في أرض فيها مقومات الحياة ، مما حمل في تلك السفينة من  
كل زوجين اثنين ، ومن معه من المؤمنين الذين أنجاهم الله تعالى ، وأغرق  
مَنْ قالوا عليهم إنهم أراذل <sup>(١)</sup>.

وقول الحق سبحانه :

﴿أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ ..﴾ (٤٨) [هود]

تضمن أهل <sup>(٢)</sup> نوح عليه السلام وَمَنْ آمَنَ بِهِ ، وكذلك أم الوحوش  
والطيور والحيوانات والدواب.

(١) البركة : زيادة الخير والنماء والسعادة . قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ  
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف] [القاموس القويم ١/ ٦٥].

(٢) يمسهم العذاب : يصيبهم ويؤذيهم . وقال تعالى : ﴿.. وَإِذَا مَسَّهُ الْفُتْرُ كَانَ هَؤُلَاءَ﴾ [الإسراء] وقال  
تعالى : ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَيُمْسِكُمْ النَّارُ ..﴾ [هود] . [القاموس القويم].

(٣) الأراذل : جمع أراذل : وهو الدون من الناس ، وقيل : هو الدون في منظره وحالاته . وقيل : هو الرديء  
من كل شيء . وهم قد اعتبروهم أراذل لأنهم نسبوهم إلى مهنتهم كالحياكة والحجامة . قاله الزجاج .  
[انظر : لسان العرب - مادة : رذل].

(٤) وقد استثنى الله عز وجل منهم امرأة نوح التي قال عنها رب العزة : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ  
نُوحَ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا خَالِفَتَاهُمَا فَلَمَّ غِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ  
مَعَ الدَّاهِلِينَ﴾ [التحريم] وخيانتها لنوح كانت في الإيمان . قال ابن عباس : ما زلت امرأة نوح ، إنما  
كانت خيانتها أنها كانت تخبر أنه مجنون ، وكانت تطلع على سره فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة  
من قوم نوح . [انظر : تفسير ابن كثير ٤/ ٣٩٣].



## سُورَةُ هُودٍ

٦٤٨٧

أى: أنها إشارة إلى الأمة الأساسية ، وهى أمة الإنسان وإلى الأمم الخادمة للإنسان ، وهكذا توفرت مقومات الحياة للمؤمنين ، ويتفرغ نوح وقومه إلى المهمة الإيمانية فى الأرض .

وقول الحق سبحانه:

[هود] ﴿ اَعْطِ<sup>(١)</sup> بِسْلاَمٍ مِّنَّا .. (٤٨) ﴾

والقصود بالسّلام هو الأمن والاطمئنان ، فلم يَعدْ هناك من الكافرين ما ينغص على نوح - عليه السلام - أمره ، ولن يجد من يكدر عليه بالقول:

[هود] ﴿ جَادَلْتَنَا فَآكْثَرْتَ جِدَالَنَا .. (٣٢) ﴾

ولن يجد من يتهمة بالافتراء .

ومن بقى مع نوح هم كلهم من المؤمنين ، وهم قد شهدوا أن نجاتهم من الغرق قد تمت بفضل المنهج الذى بلغهم به نوح عن الله تعالى .

وقول الحق سبحانه :

[هود] ﴿ وَبَرَكَاتٍ .. (٤٨) ﴾

يعنى أن الحق سبحانه يبارك فى القليل ليجمعه كثيراً .

ويقال: «إن هذا الشيء مبارك» كالطعام الذى يأتى به الإنسان ليكفى اثنين ، ولكنه فوجئ بخمسة من الضيوف ، فيكفى هذا الطعام الجميع .

إذن: فالشيء المبارك هو القليل الذى يؤدى ما يؤدّيه الكثير ، مع مظنة أنه لا يفى .

(١) هَبَطَ يَهْبِطُ هَبْطًا ، من باب ضرب : نزل من علو إلى سفل ، أو اتحد من علو ، وفى لغة قليلة هبط يهبط من باب تعد هبرطاً ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْهَا لَمَّا يَشِقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْعَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَّا يَغْطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ .. (٧٦) ﴾ [البقرة] كما ذكّ الجبل حينما تجلى الله عليه (القاموس القويم بتصرف)

وكان يجب أن تأتي هنا كلمة ﴿وَبَرَكَاتٍ﴾ لأن ما يحمله نوح - عليه السلام - من كل زوجين اثنين إنما يحتاج إلى بركات الحق سبحانه وتعالى ليتكاثر ويكفى.

وقول الحق سبحانه:

﴿.. وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأَمَّا سَمِعَتْهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِثْلُ عَذَابٍ ۚ أَلِيمٍ ۝١٨﴾ [هود]

هذا القول يناسب الطبيعة الإنسانية ، فقد كان المؤمنون مع نوح - عليه السلام - هم الصفوة ، وبمضى الزمن طرأت الغفلة على بعض منهم ، ويأتي جيل من بعدهم فلا يجد الأسوة أو القدوة ، ثم تحيط بالأجيال التالية مؤثرات تفصلهم تماماً عن المنهج.

وفي هذا يقول الرسول ﷺ: «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر الوكت<sup>(١)</sup> ، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها كآثر المجل<sup>(٢)</sup> ، كجمر دحرجته على رجلك فنقط ، فتراه متبرأ<sup>(٣)</sup> ، وليس فيه شيء ، ثم أخذ حصي فدحرجه على رجله ، فيصبح الناس يتبايعون ، لا يكاد أحد يؤدي الأمانة ، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، حتى يقال للرجل: ما أجده! ما أظرفه! أما أعقله! وما في قلبه

(١) الوكت: الأثر اليسير . قاله الهروي . وقال غيره: هو سواد يسير . وقيل: هو لون يحدث مخالف للون الذي كان قبله . [شرح النووي لصحيح مسلم - ٥٢٨/٢].

(٢) للمجل: أن يكون بين الجلد واللحم ماء . والمجلة: قشرة رقيقة يجتمع فيها ماء من أثر العمل . مجلت اليد: نفطت من العمل فمكنت وصلبت وثخن جلدها وتعجرت وظهر فيها ما يشبه البشر من العمل بالأشياء الصلبة الخشنة . [لسان العرب - مادة: مجل].

(٣) متبرأ: مرتفعاً . وكل ما رفعته فقد تبرته . وانتبر الجرح: ارتفع وورم . [لسان العرب - مادة: تبر] قال النووي في شرحه لمسلم (٥٢٨/٢): «عنه المنبر لارتفاعه وارتفاع الخطيب عليه».

مثقال حبة من خردل<sup>(١)</sup> من إيمان<sup>(٢)</sup>.

وهكذا نظراً الغفلة على أصحاب المنهج ، ويقول ﷺ : «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأیما قلب أشربها<sup>(٣)</sup> نكتت<sup>(٤)</sup> فيه نكتة سوداء ، وأیما قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير على قلبين ، على أبيض مثل الصفا لا تضربه فتنة مادامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباداً<sup>(٥)</sup> كالكوز مَجْخِيأً<sup>(٦)</sup> لا يعرف معروفًا ، ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه<sup>(٧)</sup>» .

وأعوذ بالله تعالى من طرود فتنة الغفلة على القلوب .

والحق سبحانه يتحدث في هذه الآية عن الذين بقوا مع نوح عليه السلام وهم صفوة من المؤمنين ، لكن منهم من استطاع عليه الغفلة ، وسيمتحنهم الله سبحانه وتعالى أيضاً بمتاع الدنيا ، ولن يضمن عليهم ، ولكن سيُلحقهم العذاب .

(١) الخردل : نوع من أنواع الحبوب التوابل . يضرب مثلاً في الصخر ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَلْكُم مِّثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان] .  
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٠٨٦) ومسلم في صحيحه (١٤٣) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه .

(٣) أي : خالط قلبه حب الفتن . وكأنه أسقاها . ومنه قوله تعالى عن اليهود : ﴿ وَأَشْرَبُوا بِقُلُوبِهِمُ الْمُجَاجِلَ بِكُفْرِهِمْ .. ﴾ [البقرة] أي : خالط قلوبهم حب عبادة العجل من دون الله . [وراجع : لسان العرب - مادة : شرب] .

(٤) النكت : أن تضرب في الأرض بقضيب فيؤثر فيها . أي : أن الفتنة تترك أثراً في القلب . [راجع : مختار القاموس - مادة : نكت] .

(٥) مرباداً : أسود عليه غبرة . والمقصود من حيث المعنى لا الصورة . ذكره ابن منظور في لسان العرب . والشريد : التلون . يقال : لما رأيته تَرِيدَ لونه . أي : تراه أحمر مرة ، ومرة أخضر ، ومرة أصفر . [اللسان] .

(٦) الكوز المجخي : أي : المائل الذي يكتب وبهبة ما فيه . فالمجخي هنا هو المائل عن الاستقامة والاعتدال ، فشب القلب الذي لا يمي غيراً بالكوز المائل الذي لا يثبت فيه شيء . لأن الكوز إذا مال انصب ما فيه . [اللسان - مادة : جخي] .

(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٦/٥ ، ٤١٥) ، ومسلم في صحيحه (١٠٤١) من حديث حذيفة بن اليمان .

فإذا ما جاء جيل على الغافلين فهو يخضع لمؤثرين اثنين :

المؤثر الأول : غفلته هو .

المؤثر الثاني : أسوة الغافلين من السابقين عليه .

ونحن نعلم أن من ذرية نوح عليه السلام «قوم عاد» الذين أرسل الحق سبحانه إليهم هوداً عليه السلام ، وكذلك «قوم ثمود» الذين أرسل إليهم أخاهم صالحاً عليه السلام ، وقوم لوط ، وهؤلاء جميعاً رأيت<sup>(١)</sup> الغفلة على قلوبهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ  
وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

وكلمة «تلك» إشارة وخطاب ، والمخاطب هو رسول الله ﷺ ، و«التاء» إشارة إلى السفينة وما تبعها من أنباء الغيب ، ولم يكن رسول الله ﷺ معاصراً لها ولا يعلمها هو ، ولا يعلمها أحد من قومه .

وأنت يا رسول الله لم يُعلم عنك أنك جلست إلى معلّم<sup>(٢)</sup> ، ولم يذكر عنك أنك قرأت في كتاب ، ولذلك يأتي في القرآن :

(١) وإن الشيء ريتاً : صدى ، مأخوذ من الصدا يعلو السيف فيذهب بريقه ، ويستعار للفشاة تغطي على القلب بسبب الذنوب ، وإن الصدا عليه : غلب عليه وغطاه كله . قال تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين] أي : غطت فشاة الذنوب على قلوبهم . [القاموس القويم] .  
(٢) حاول مشركو قريش أن يطمئنا في أن القرآن وحى من عند الله ، فقال عنهم سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [النحل] فاتهموه بالتعلم من غلام نصراني أعجمي ، وكان يباعاً يبيع عند الصفا . يقول ابن كثير في تفسيره (٥٨٦/٢) : «وما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء ، وذلك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية ، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه» .

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْقَرْنِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ<sup>(١)</sup>﴾ [القصص]

وجاء:

﴿.. وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ<sup>(٢)</sup> أَيُّهُمْ يَكْفُلُ<sup>(٣)</sup> مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ<sup>(٤)</sup>﴾ [آل عمران]

إذن: فما دمت يا محمد لم تقرأ ولم تتعلم عن معلم فمن علمك ؟  
إنما علمك الله سبحانه .

وكان الله سبحانه وتعالى علّم رسوله ﷺ قصة نوح عليه السلام وأراد بها إلقاء الأسوة وإلقاء العبرة لرسول الله ﷺ حتى يثق بأن كل رسول إنما يصنع حركته الإيمانية المنهجية بعين من الله ، وأنه سبحانه لن يسلمه إلى خصومه ولا أعدائه .

ولذلك يأتي القول الكريم: ﴿فاصبر﴾ ؛ لأنك قد عرفت الآن نتيجة صبر نوح عليه السلام الذي استمر ألف سنة إلا خمسين ، ويأتي بعدها قوله سبحانه:

(١) ﴿وَمَا كُنْتَ﴾ : خطاب من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿بِجَانِبِ الْقَرْنِيِّ﴾ : أى : بجانب الجبل أو الوادى أو المكان القريب من موسى حين المناجاة . ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ<sup>(١)</sup>﴾ [القصص] : أى : أوحينا إلى موسى - عليه السلام - الأمر بالرسالة إلى فرعون وقومه . [تفسير الجلالين ، ومختصر تفسير الطبرى] بتصريف .

(٢) الأقسام - هنا - جمع فلم بمعنى السهم أو خشبة تشبیهه ، يكتب عليه رمز يدل على مقدار يعطى لمن يخرج باسمه ، وكانوا يستعملونه فى القمار - وقد نهى الإسلام عن ذلك - وكانوا يستعملونه أيضاً فى القرعة . ومن استعماله فى القرعة قوله سبحانه: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ<sup>(٢)</sup>﴾ [آل عمران] فالأقسام هنا : سهام الاقتراع ، وقد أجريت القرعة فصار سهم زكريا - عليه السلام - فكفل مريم . [القاموس القويم] .

(٣) كفل يكفل كفلاً وكفالة : قام بالتربية والرعاية لمن يكفله . وقوله سبحانه: ﴿يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ : أى : يرعاها ويربها . وقال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا<sup>(٣)</sup>﴾ [آل عمران] أى : جعله كافلاً لها . [القاموس القويم] .

[هود]

﴿ .. إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٤٩)

\* \* \*

تأتى بعد ذلك قصة قوم عاد بعد قصة نوح ، ونحن نعلم أن الحق سبحانه وتعالى لا يُرسل رسولا إلا إذا عمَّ الفساد .

إذن : فقد حصلت الغفلة من بعد نوح ، وانضمت لها أسوة الأبناء بالآباء فانطمس المنهج ، وعزَّ على الموجودين أن يقيموه .

والله سبحانه وتعالى لا يبعث برسلا جدد إلا إذا لم يوجد في الأمة من يرفع كلمة الله ، لأننا نعلم أن المناعة الإيمانية في النفس الإنسانية قد تكون مناعة ذاتية ، بمعنى أن الإنسان قد تُحدثه نفسه بالانحراف عن منهج الله ، لكن النفس اللوامة تردعه وترده إلى الإيمان .

أما إذا تصلبت ذاته ، ولم توجد لديه نفس لوامة ، فالمناعة الذاتية تختفى ، ولكن قد يقوم المجتمع المحيط بلمومه .

ولكن إذا اختفت المناعة الذاتية ، والمناعة من المجتمع فلا بد أن يبعث رب العزة سبحانه برسول جديد ، وبيئة جديدة ، وبرهان جديد .

هكذا حدث من بعد نوح عليه السلام .

ولذلك باتى قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ

مَالَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَنُفِّرُ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ (٥٠)

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٢٤) : « هؤلاء هم عاد الأولى الذين ذكرهم الله ، وهم أولاد عاد بن إرم ، كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف ، وهي جبال الرمل » وقد قال القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣٦٩) : « قيل : هم عادان : عاد الأولى ، وعاد الأخرى ، فهؤلاء هم الأولى ، وأما الأخرى فهو شداد ولقمان المذكوران في قوله تعالى : ﴿ إرم ذات العماد ﴾ [الفجر] » .

(٢) ﴿ .. إِنَّ أُنُفَّاكُ الْأُمُفْتَرُونَ ﴾ [هود] كلمة (إن) هنا نافية بمعنى (ما) النافية . أى : ما أنتم إلا مفترون .

يفتح الحق سبحانه الآية بتحنيهم وموانستهم بالمرسل إليهم ، فيُخبرهم أنه أخوهم ، ولا يمكن للأخ أن يريد لهم العنت ، بل هو ناصح ، مأمون عليهم ، وعلى ما يبلغهم به .

وحين يقول لهم :

﴿ يَا قَوْمِ .. ﴾ (٥٠)

[هود]

فهذا للإيناس أيضاً .

ثم يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده ؛ لأنهم اتخذوا غير الله إلهاً ، وهذا قمة الافتراء .

والله سبحانه لم يقل :

﴿ .. إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ (٥١)

[هود]

إلا لأن الفساد قد طمَّ<sup>(١)</sup> .

ويقول سبحانه بعد ذلك ما جاء على لسان هود :

﴿ يَنْقُورِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٥١)

(١) يقال للشئ الذي يكثر حتى يملو : قد طمَّ . ويقال : طمَّ الماء إذا كثر . طمَّ : قَمَر ، ولذلك قيل ليوم القيامة : ﴿ إِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ﴾ (٥١) [النازعات] . [راجع : لسان العرب ، والقاموس القويم] .

(٢) كلمة (إن) في هذه الآية الكريمة ، نافية بمعنى (ما) النافية ؛ أي : ما أجرى إلا على الذي فطرني ، أو ليس أجرى إلا على الذي فطرني ، وهو الله سبحانه وتعالى . أجر فلان فلاناً - من بابي ضَرَبَ ونَصَرَ - أجراً : أثابه على عمل ، أو صار أجيراً له وبالوجهين فسَّر قوله تعالى : ﴿ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَاجٍ .. ﴾ (٢٧) [القصاص] وسمي المهر أجراً مجازاً - قال تعالى : ﴿ فَأَتَوْهُمْ أُجُورَهُمْ .. ﴾ (٥١) [الطلاق] أي مهورهم - وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ أَجْرُهُ عَذَابُهُ .. ﴾ (١١٤) [البقرة] أي ثوابه (القاموس القويم بتصرف)

(٣) فطر الله الخلق : خلقهم وبدأهم ؛ فهو فاطر . قال تعالى : ﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴾ (٥١) [الأنعام] أي : خالقهما . وقوله سبحانه : ﴿ فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. ﴾ (٥١) [الإسراء] أي : خلقكم أول مرة في الدنيا . [القاموس القويم]

وكان هوداً عليه السلام يقول لهم : ما الذى يشقُّ عليكم فيما أمركم به وأدعوكم إليه ، إننى أقدمُ لكم هذا البلاغ من الله تعالى ، ولا أسألكم عليه أجراً ، فليس من المعقول أن أنقلكم بما ألقتم ، ثم آخذ منكم مالا مقابل ذلك ، ولا يمكن أن أجمع عليكم مشقة ترك ما تعودتُم عليه وكذلك أجر تلك الدعوة.

وما دُمْتُ لن آخذ منكم أجراً ، إذن : فلا مشقة أكلّفكم بها ، كما أننى فى غنى عن ذلك الأجر ؛ لأن أجرى على من أرسلنى .

﴿ .. إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي <sup>(١)</sup> أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) ﴾ [هود]

أى : أن أجرى على مَنْ خَلَقْنى مُعَدّاً لهذه الرسالة ؛ لأن الفطرة تعنى التكوين الأساسى للإنسان .

والحق سبحانه قد أعدَّ هوداً عليه السلام ليكون رسولاً ، ونحن نعلم - أيضاً أن الأجر يكون عادة مقابلاً للمنفعة .

وسبق أن ضربنا المثل بمن يشتري بيتاً ، فهو يدفع ثمن البيت لصاحبه ، وتُسمى هذه العملية بيعاً وشراءً .

أما إذا استأجر الإنسان بيتاً فهو يدفع إيجاراً مقابل انتفاعه بالسكن فيه .

وقول هود عليه السلام :

﴿ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا .. (٥١) ﴾ [هود]

يفيد أنه كان من الواجب أن يدفعوا أجراً كبيراً مقابل منفعتهم بما يدعوههم إليه ؛ لأن الأجر الذى تدفعونه فى المستأجرات العامة لكم إنما يكون مقابلاً لمنافع موقوتة ، لكن ما يقدمه لهم هود عليه السلام هو منفعة غير موقوتة !

(١) فطر الله الخلق ، كنصر : خلقهم وبندهم ، فهو فاطر ، قال تعالى : ﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٦٠) ﴾ [الأنعام] خالقها - وفطر الشيء شقه فطراً والجمع فطور ، والاسم الفطرة قال تعالى : ﴿ فَطَرْتُ اللَّهَ الْبَرِّي فَطَرْتُ النَّاسَ عَلَيْهَا .. (٦٠) ﴾ [الروم] [القاموس القويم باختصار]



## سُورَةُ هُودٍ

٦٤٩٥

ولذلك ترك هود عليه السلام الأجر لمن يقدر عليه ، وهو الله سبحانه وتعالى . فهو القادر على كل شيء .

وقد أوضحنا من قبل أن كل مواكب الرسل جاءت بهذه العبارة <sup>(١)</sup> :

﴿ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا .. (٥١) ﴾ [هود]

إلا إبراهيم وموسى عليهما السلام : فسيدينا إبراهيم لم يقلها بسبب أبيه ، وسيدينا موسى لم يقلها <sup>(٢)</sup> : لأن فرعون قال له :

﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا .. (١٨) ﴾ [الشعراء]

إذن : كان يجب على قوم هود أن يعقلوا الفائدة الجسمة ، وهي المنهج الرسالي الذي جاء به هود عليه السلام .

ثم يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان هود عليه السلام مخاطباً قومه :

﴿ وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا

مُجْرِمِينَ (٥٢) ﴾

(١) قالها نوح عليه السلام : (سورة يونس، آية ٧٢) ، (سورة هود ، آية ٢٩) ، (الشعراء ، آية ١٠٩) .

وقالها هود عليه السلام : (هود : ٥١) ، (الشعراء : ١٢٧) . وقالها صالح عليه السلام لقومه ثمود :

(الشعراء : ١٤٥) وقالها لوط عليه السلام : (الشعراء : ١٦٤) . وقالها شعيب (الشعراء : ١٨٠) .

(٢) وذلك أن فرعون من على موسى عليه السلام بهذا عند طلبه خروج بني إسرائيل معه ، فقال فرعون : ﴿ .. أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عَمَرِكَ ثِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَكَ الْبِيَ فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ

(٣٦) ﴾ (الشعراء) فلا يتأتى لموسى بعد هذا أن يقول ما قاله إخوانه من الرسل .

(٣) مذراراً : صيغة مبالغة ، أي : كثير هزير متتابع . وقال الله سبحانه : ﴿ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِطْرًا غُرَارًا ..

(٤٧) ﴾ (الأنعام) أي تدر عليهم مطراً هزيراً . ( القاموس القويم ) . وقد وردت كلمة (مذراراً) في

القرآن الكريم ثلاث مرات ، في الآية السادسة من سورة الأنعام ، وفي الآية الثانية والخمسين من سورة هود ، وفي الآية الحادية عشرة من سورة نوح .

وهكذا نعلم أن الاستغفار هو إقرار بالتقصير وارتكاب الذنوب ، فنقول :  
يا رب اغفر لنا .

وساعة تطلب المغفرة من الله تعالى ، فهذا إعلان منك بالإيمان ، واعتراف  
بأن تكليف الحق لك هو تكليف حق .

وما دام الإنسان قد طلب من الله تعالى أن يغفر له الذي فات من ذنوب ،  
فعليه ألا يرتكب ذنباً جديدة ، وبعد التوبة على العبد أن يحرص على تجنب  
المعاصي .

وعلى الإنسان أن يتذكر أن ما به من نعمة فمن الله ، وأن الكائنات المسخرة  
هي مسخرة بأمر الله تعالى ؛ فلا تنسبك رتبة " الحياة عن مسيئها الواهب لكل  
النعم .

والحق سبحانه وتعالى حين يرسل رسولاً ، فأول ما ينزل به الرسول إلى  
الامة هو أن يصحح العقيدة في قمتها ، ويدعوهم إلى الإيمان بآله واحد  
يتلقون عنه العمل « ولا تفعل » .

وهنا يكون الكلام من هود عليه السلام إلى قومه « قوم عاد » ، والدعوة إلى  
الإيمان بآله واحد وعبادته ، والأخذ بمنهج لا يمكن أن يقتصر على الطقوس  
فقط من الشهادة بوحداية الله تعالى ، والصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج .  
ولكن عبادة الله تعالى هي أن تؤدي الشعائر والعبادات ، وتتقن كل عمل في  
ضوء منهج الله ، فلا تعزل الدين عن حركة الحياة .

والذين يخافون من دخول الإسلام في حركة الحياة ، يريدون منا أن نقصر  
الدين على الطقوس ، ونقول لهم : إن الإسلام حينما دخل في حركة الحياة  
غزا الدنيا كلها ، وحارب حضارتين عريقتين ؛ حضارة الفرس في الشرق ،  
وحضارة الرومان في الغرب .

(١) رتبة الحياة : أي : سيرها على نظام واحد ، لا يتخلف ، فيبدو لك أنه يسير بنفسه وبناته وتنسى مسيره  
ومسيه . قال في اللسان ( مادة : رتب ) : « الراتب : الثابت الدائم ، والرتب : الشيء المقيم الثابت » .

## سُورَةُ هُودٍ

٦٤٩٧

وهؤلاء كانوا أمماً لها حضارات قديمة وقوية ، وثقافات وقوانين ، ومع ذلك جاء قوم من البدو الأميين ؛ يقود عقيدتهم رجلٌ أميٌّ<sup>(١)</sup> أرسله الله سبحانه وتعالى ؛ فيطيح بكل هؤلاء ؛ نظماً وثقافات وارتقاءات بمستوى الحياة إلى مستوى طموح العقول .

يريد هؤلاء - إذن - أن يقوقعوا الإسلام في الأركان الخمسة فقط ؛ ليعزلوه عن حركة الحياة .

ونقول لهم : لا ، لا يمكنكم أن تقصروا العبادات على الأركان الخمسة فقط ؛ لأن العبادة معناها أن يوجد عابد لمعبود حق ، وأن يطيع العابد أوامر المعبود ؛ وتتمثل أوامر المعبود في «افعل» و «لا تفعل» ؛ وما لم يرد فيه «افعل» و «لا تفعل» ؛ فهو مباح ؛ إن شئت فعلته وإن شئت لم تفعله ؛ ويفعله أو عدم فعله لا يفسد الكون .

إذن : فالعبادة هي كل أمر صادر من الله تعالى ؛ فلا تعزلوها في الطقوس ؛ لأن رسول الله ﷺ أبلغنا ؛ وأوضح لنا أن أركان الإسلام الخمس هي التي بنى عليها الإسلام ؛ وليست هي كل الإسلام<sup>(٢)</sup> .

إذن : فالإسلام بناء يقوم على أركان ؛ لذلك لا يمكن أن نحصر الإسلام في أركانه فقط ؛ فالإسلام هو كل حركة في الحياة ، ولا بد أن

(١) هو رسول الله محمد ﷺ ، وأمية رسول الله ﷺ أمر أكد عليه رب العزة في القرآن ، فقال : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُونًا عِنْدَهُمْ فِي الْوُحُوْدِ وَالْإِنْجِيلِ ۚ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] .

الأمي نسبة إلى الأم ، كأنه باق على حاله التي وكدها عليها مغطوراً بقطرة الله بالتلقى عنه إلهاماً ووحياً ، فما نطق عن هوى ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم] وهذا الوصف من خصوصيات النبي ، وهي تشریف له ، لأنه إذا كان أمياً وأنزل الله عليه الكتاب المعجز ، فلا شك أنه من عند الله والامية دليل على أن علمه من الله مباشرة ، وليس من البشر ، ولو لم يكن أمياً لقليل أنه قرأ ونقل عن غيره . من أقوال الشيخ الشعراوي م - س

(٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : «بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان» أخرجه البخاري في صحيحه (٨) ومسلم في صحيحه (١٦) .

تنتظم حركات البشر تبعاً لمنهج الله ، لتنتظم الحياة كما انتظم الكون من حولنا .  
فالعبادة تستوعب كل حركة في الحياة ، وقد فهم البعض خطأ أن العباد :  
تنحصر في باب العبادات في تقسيم الفقهاء ، وأغفلوا أن باب المعاملات هو  
من العبادة أيضاً ، واستقامة الناس في المعاملات تؤدي إلى انتظام حياة الناس .  
وفي الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ .. ﴾ (٥٧) [هود]

والاستغفار <sup>(١)</sup> لا يكون إلا عن ذنوب سبقت ؛ وإذا كان هذا هو أول ما قاله  
هود عليه السلام لقومه ؛ إذن : فالاستغفار هنا عن الذنوب التي ارتكبوها  
مخالفة لمنهج الرسول الذي جاء من قبله ، أو هي الذنوب التي ارتكبوها  
بالفطرة .

ثم يدعوهم بقوله : ﴿ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ .. ﴾ (٥٨) [هود]  
والتوبة تقتضي العزم على ألا تُنشأ ذنوباً جديدة .

ثم يقول الحق سبحانه في نفس الآية :  
﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ .. ﴾ (٥٩) [هود]  
ولقائل أن يقول : وما صلة الاستغفار بهذه المسألة الكونية ؟

ونقول : إن للكون مالكا لكل ما فيه ؛ جماده ونباته وحيوانه ؛ وهو سبحانه  
قادر ، ولا يقدر كائن أن يعصى له أمراً ؛ وهو القادر أن يخرج الأشياء عن  
طبيعتها ؛ فإذا جاءت غيمة وتحسب أنها ممطرة ؛ قد يأمرها الحق سبحانه  
فلا تمطر .

(١) غفر الذنب بغيره - كضرب - غفرا وغفرانا ومغفرة . شتره وعفاهه ولم يعاقب فاعله ، قال تعالى :  
﴿ نَفِّرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ .. ﴾ (٦٥) [البقرة] والغافر : اسم فاعل وغفور وغفار : صفتان للمبالغة وكلها من  
أسماء الله الحسنى ، وغفران مصدر ، والمغفرة مصدر ميمي ، واستغفر طلب الغفران لنفسه ، قال  
تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ الرُّسُولُ .. ﴾ (٦٦) [النساء] طلب من الله أن يغفر لهم . ( القاموس القويم  
بإختصار )

مثلاً قال سبحانه في موضع آخر من كتابه الكريم :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ<sup>(١)</sup> عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمְطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ<sup>(٢)</sup> رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ<sup>(٣)</sup> ﴾ [الأحقاف]

إذن : فلا تأخذ الأسباب على أنها رتابة ؛ وإنما ربُّ الأسباب يملكها ؛ فإن شاء فعل ما يشاء .

وإذا ما عبدتَ الله تعالى العبادة التي تنتظم بها كل حركة في الحياة ؛ فأنت تُقبل على عمارة الأرض ؛ وتوفر لنفسك القُوَّةَ<sup>(٤)</sup> باستنباطه من الأسباب التي طمرها<sup>(٥)</sup> الله سبحانه وتعالى في الأرض .

والقوت - كما نعلم - من جنس الأرض ؛ لذلك لا بد أن نزرع الأرض ؛ ونُمدِّ البذور جذورها الضارعة المسبَّحة الساجدة لله تعالى ؛ فيُمطر الحقُّ سبحانه السماء ؛ فتأخذ البذور حاجتها من الماء المتسرب إليها عبر الأرض ؛ ونأخذ نحن أيضاً حاجتنا من هذا الماء .

(١) أى : لما رأوا العذاب مستقبلهم اعتقدوا أنه عارض مطر ففرحوا واستبشروا به ، وقد كانوا محملين محتاجين إلى المطر . (تفسير ابن كثير ٤ / ١٦٠) .

(٢) وذلك أنهم قالوا الرسول هم هود عليه السلام : ﴿ .. فَأَتَيْنَا بِمَا نَعِدُّنَا إِنَّ نُحُوتَ مِنَ الضَّالِّينَ<sup>(٢٢)</sup> ﴾ [الأحقاف] .

(٣) القوت : الطعام يحفظ على البدن حياته ، وجمعه «أقوات» . قال تعالى : ﴿ وَقَدْ رَفِعْنَا الْقُرْآنَ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. ﴾ [الفصلت] أى : أقوات جميع سكان الأرض من إنسان وحيوان وكل شيء حتى إلى آخر الدهر . وأقوات النبات أو الحيوان : أمدُّ بقوته الذي يحفظ حياته . وأقوات عليه : حفظه وحفظ بقاءه . قال تعالى : ﴿ .. وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْبِلًا<sup>(٥٥)</sup> ﴾ [النساء] أى : غالباً مقتدراً ، أو حافظاً وأقياً حياته . [القاموس القويم] يتصرف .

(٤) طمرها : دفنها وأودعها وخبأها في باطن الأرض . والمطمورة : حفرة تحت الأرض أو مكان تحت الأرض قد هيء خفياً يطمر فيه الطعام والمال . أى : يخبأ . [لسان العرب - مادة : طمر] .

والسمااء هي كل ما علاك فأظلك<sup>(١)</sup> ؛ أما السمااء العليا فهذا موضوع آخر ، وكل الأشياء دونها .

وانظروا قول الحق سبحانه :

﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ ﴾ (١٥) [الحج]

أى : من كان يظن أن الله تعالى لن ينصر رسوله فليأت بحبل أو أى شىء ويربطه فيما علاه ويعلق نفسه فيه ؛ ولسوف يموت ، وغيظه لن يرحل عنه .

﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا .. ﴾ (٥٢) [هود]

والمدرار : هو الذى يُدرُّ بتتابع لا ضرر فيه ؛ لأن المطر قد يهطل بطغيان ضاراً ، كما فتح الله سبحانه أبواب السماء بماء منهمر .

إذن : المدرار هو المطر الذى يتوالى توالياً مصلحاً لا مُفسداً .

ولذلك كان ﷺ يقول حين ينزل المطر : « اللهم حوالينا ولا علينا »<sup>(٢)</sup> .

ومتى أرسل المطر مدراراً متتابعاً مصلحاً ؛ فالأرض تخضر ؛ وتعمر الدنيا ؛ ونزداد قوة إلى قوتنا .

(١) قال الزجاج : السمااء فى اللغة : يقال لكل ما ارتفع وعلا : قد سما يسمو . وكل سقف فهو سمااء .

والسمااء : كل ما علاك فأظلك ، ومنه قيل لسقف البيت سمااء . [اللسان : مادة سمو] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٩٧) ، والبخارى فى صحيحه (٩٣٣) ، فعن أنس بن مالك قال :

أصابنا الناس ستة على عهد النبي ﷺ فبينما النبي ﷺ يخطب فى يوم الجمعة قام أعرابى فقال : يا رسول

الله ملك المال وجاع العيال ، فادع الله لنا . فرفع يديه - وما نرى فى السماء قزعة - فوالذى نفسى بيده

ما وضمها حتى ثار السحاب أمثال الجبال ، ثم لم ينزل من منبره حتى رأيت المطر يتحادر على

لحيته ﷺ ، فمطرنا يومنا ذلك ، ومن الغد وبعد الغد ، والذى بلىه حتى الجمعة الأخرى ، وقام ذلك

الأعرابى فقال : يا رسول الله تهدم البناء ، وغرق المال ، فادع الله لنا ، فرفع يديه فقال : « اللهم حوالينا

ولا علينا » .

أما مَنْ يتولَّى <sup>(١)</sup> ؛ فهو يُجرم في حق نفسه ؛ لأن إجرام العبد إنما يعود على نفسه ؛ فلا تظن أن إجرام أي عبد بالمعصية يؤدي غيره <sup>(٢)</sup> .

والحق سبحانه يقول :

﴿ .. وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٤٤)

[يونس ٢]

ويأتى الحق سبحانه من بعد ذلك بالرد الذى قاله قوم عاد :

﴿ قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي  
الْهَيْئَةِ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥٢)

وهم هنا ينكرون أن هوذا قد أتاهم بيّنة أو معجزة .

والبيّنة - كما نعلم - هى الأمانة الدالة على صدق الرسول .

وصحيح أن هوذا هنا لم يذكر معجزته ؛ وتناسوا أن جوهر أى معجزة هو التحدى ؛ فمعجزة نوح عليه السلام هى الطوفان ، ومعجزة إبراهيم عليه السلام أن النار صارت برداً <sup>(١)</sup> وسلاماً عليه حين ألقوه فيها .

ونحن نلاحظ أن المعجزة العامة لكل رسول يمثلها قول نوح عليه السلام :

(١) يتولّى : يُعرض . والتولّى : الإعراض والإدبار . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٨٧) [آل عمران] .

(٢) والحق سبحانه يقول : ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبْهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١١٦) [النساء] والإثم : الذنب ، وهاجسته إنما تعود على نفسه .

(٣) بيّنة : أى : دليل وبرهان وحجة واضحة لا شك فيها . وقال تعالى : ﴿ تَمَّ أَتْيَاهُمْ مِنْ آيَةِ بَيِّنَةٍ .. ﴾ (٧١) [البقرة] وقال تعالى : ﴿ .. حَقٌّ تَأْتِيهِمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ (٦) [البيّنة] . [الفاموس القويم] بتصرف .

(٤) البرد : ضد الحر . قال بعض العلماء : جعل الله فى النار برداً يرفع حرها ، وحرّاً يرفع بردها ، فصارت سلاماً عليه . قال أبو العالية : ولو لم يقل «برداً وسلاماً» لكان بردها أشد عليه من حرها ، ولو لم يقل «على إبراهيم» لكان بردها باقياً على الأبد . انظر تفسير القرطبي (٦/٤٤٨٢) .

﴿ .. يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبْرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي <sup>(١)</sup> وَتَذَكِّرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً <sup>(٢)</sup> ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ <sup>(٣)</sup> ﴾ [يونس]

أى : إن كنتم أهلاً للتحدى ، فهذا أنا ذا أمامكم أحارب الفساد ، وأنتم أهل سيطرة وقوة وجبروت وطغيان .

وأحكموا كيدكم ؛ لكنكم لن تستطيعوا قتل المنهج الرباني ؛ لأن أحداً لن يستطيع إطفاء نور الله في يد رسول من رسله ؛ أو أن يخلصوا الدنيا منه بقتله .. ما حدث هذا أبداً .

إذن : فالبيئة <sup>(٤)</sup> التي جاء بها هود عليه السلام أنه وقف أمامهم ودعاهم إلى ترك الكفر ؛ وهو تحدى القادرين عليه ؛ لأنهم أهل طغيان ؛ وأهل بطش ؛ ومع ذلك لم يقدرُوا عليه ؛ مثلما لم يقدر كفار قريش على رسولنا ﷺ .

ونحن نعلم أن رسول الله ﷺ قد جاء ومعه المعجزة الجامعة الشاملة وهي القرآن الكريم ؛ وسيظل القرآن معجزة إلى أن تقوم الساعة .

ونعلم أن غالبية الرسل - عليهم جميعاً السلام - قد جاءوا بمعجزات حسية كونية ؛ انتهى أمدها بوقوعها ، ولولا أن القرآن يخبرنا بها ما صدّقناها ، مثلها مثل عود الثقاب يشتعل مرة ثم ينطفئ .

(١) مقامى (بضم الميم) : أى : إقامتى بينكم . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا .. ﴾ [الأحزاب] أى : لا إقامة لكم . راجع تفسير ابن كثير .

(٢) الغمة : التباس الأمر وعدم وضوحه . وقال تعالى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ .. ﴾ [البقرة] .

[القاموس القويم] .

(٣) أبان الشيء بين بياناً أى : ظهر واتضح ، فهو بين ، وهى بيئة أى ظاهر وظاهرة ، ويستعمل البين والبيئة بمعنى المظهر والمظهرة والموضح والموضحة ، وبالمعنيين يفسر قوله تعالى : ﴿ كَمْ أَتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ .. ﴾ [البقرة] أى واضحة لا شك فيها ، والبيئة الحجة والبرهان يقول الحق : ﴿ .. حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ [البقرة] أى : البينة [وتبين الأمر : واضح وظاهر] . (القاموس القويم)



## سُورَةُ هُودٍ

٦٥٠٢

فمَثَلًا شَفَى عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَام - الْأَكْمَهَ<sup>(١)</sup> وَالْأَبْرَصَ<sup>(٢)</sup> - بِإِذْنِ رَبِّهِ - فَمَنْ رَأَاهُ آمَنَ بِهِ ، وَمَنْ لَمْ يَرَهُ قَدْ لَا يُؤْمِنُ ، وَكَذَلِكَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَام - ضَرَبَ الْبَحْرَ بِالْعَصَا فَانْفَلَقَ أَمَامَهُ ؛ وَمَنْ رَأَاهُ آمَنَ بِهِ ، وَانْتَهَتْ تِلْكَ الْمَعْجَزَاتُ ؛ لَكِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ بَاقٍ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ .

وَيَسْتَطِيعُ أَى وَاحِدٍ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ ﷺ قَبْلَ قِيَامِ السَّاعَةِ أَنْ يَقُولَ : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَمَعْجَزَتُهُ الْقُرْآنُ ؛ لِأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ جَاءَ رَسُولًا عَامًّا ؛ وَلَا رَسُولَ مِنْ بَعْدِهِ ؛ لِذَلِكَ كَانَ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مَعْجَزَتُهُ مِنَ الْجَنَسِ الْبَاقِي ؛ وَمَعَ ذَلِكَ قَالُوا لَهُ :

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا<sup>(٣)</sup> ﴾ (١٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا<sup>(٤)</sup> ﴾ (١١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَّمْتَ عَلَيْنَا كِثْفًا<sup>(٥)</sup> أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا<sup>(٦)</sup> ﴾ (١٢) [الإسراء]

وَكُلُّ مَا طَلَبُوهُ مَسَائِلَ حَسِيَّةٍ ؛ لِذَلِكَ يَأْتِي الرَّد :

﴿ أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ<sup>(٧)</sup> .. ﴾ (١٣) [العنكبوت]

(١) كَمِهْ بِكَمِهْ كَمَاهَا ، فَهُوَ أَكْمَهْ : وَكَذَلِكَ أَمْصَى ، أَوْ فَقَدَ بَصَرَهُ فَهُوَ أَكْمَهْ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأَمْصَى الْعَوْنَى بِإِذْنِ اللَّهِ .. ﴾ (١٤) [ آل عمران ] . [ القاموس القويم ] .

(٢) الْأَبْرَصُ : هُوَ مَنْ أَصَابَهُ دَاءُ الْبَرَصِ ، وَهُوَ مَرَضٌ جُلْدِي يُحْدِثُ بَقْعًا بَيَاضًا فِي الْجُلْدِ تَشْوِهُهُ ، وَهُوَ مِنْ أَعْرَاضِ مَرَضِ الْجُدَامِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي .. ﴾ (١٥) [ المائدة ] . [ القاموس القويم ] .

(٣) نَبْعُ الْمَاءِ : خَرَجَ مِنَ الْعَيْنِ . وَالْيَنْبُوعُ : الْعَيْنُ يُخْرِجُ مِنْهَا الْمَاءَ غَزِيرًا سَهْلًا . وَالْجَمْعُ : يَنْبِيعٌ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَسَلِّكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (١٦) [ الزمر ] . [ القاموس القويم ] .

(٤) كِثْفًا : قِطْعًا . وَالْكَسْفَةُ : الْقِطْعَةُ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا .. ﴾ (١٧) [ الطور ] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنْ نُنْخِشْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ .. ﴾ (١٨) [ سبأ ] [ القاموس القويم ] .

(٥) الْقَبِيلُ : الْجَمَاعَةُ أَوْ الْعَشِيرَةُ أَوْ الْأَعْوَانُ الْمُنَاصِرُونَ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ .. أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴾ (١٩) [ الإسراء ] مَعَكُمْ لِيُؤْيِدُوكُمْ . [ القاموس القويم ] .

ومع ذلك كذبوا.

وأضاف قوم عاد :

﴿ .. وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [هود]

هم - إذن - قد خدعوا أنفسهم بتسميتهم لتلك الأصنام «آلهة» ؛ لأن الإله هو مَنْ يُنزل منهجاً يحدد من خلاله كيف يُعبَد ؛ ولم تَقُل الأصنام لهم شيئاً ؛ ولم تُبلغهم منهجاً.

إذن : فالقياس المنطقي يُلغى تصور تلك الأصنام كآلهة ؛ فلماذا عبدوها ؟

لقد عبدوها ؛ لأن الفطرة تنادى كل إنسان بأن تكون له قوة مألوه لها ؛ والقوة المألوه لها إن كان لها أوامر تحدُّ من شهوات النفس ، فهذه الأوامر قد تكون صعبة على النفس ، أما إن كانت تلك الآلهة بلا أوامر أو نواهي فهذه آلهة مريحة لمن يخدع نفسه بها ، ويعبدها مظنة أنها تنفع أو تضر .

وهذه هي حُجَّة كل ادِّعاء نبوة أو ادِّعاء مَهْدِيَّة <sup>(١)</sup> في هذا العصر ، فيبدِّعي النبي الكاذب النبوة ، ويدعو للاختلاط مع النساء ، وشرب الخمر ، وارتكاب الموبقات <sup>(٢)</sup> ، ويسمِّي ذلك ديناً.

وتجد مثل هذه الدِّعَاوَى في البهائية <sup>(٣)</sup> والقاديانية <sup>(٤)</sup> ؛ وغيرها من

المعتقدات الزائفة .

(١) المفصود هؤلاء الذين يدَّعون أنهم المهدي المنتظر الذي جاء ذكره في أحاديث رواها البخاري في صحيحه ، أنه يأتي في آخر الزمان ، ويكون معاصراً لنزول عيسى بن مريم .

(٢) الموبقات : المهلكات . أوبقه : أهلكه . وقال تعالى : ﴿ .. وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الكهف] أي : جعلنا ترواحلهم في الدنيا موبقاً ، أي : مهلكاً لهم في الآخرة . [لسان العرب - مادة : وق] .

(٣) البهائية : طائفة ذات عقائد فاسدة ، تنسب لـ «الميرزا حسين علي المازندراني» ترمي بطهران ، ولد عام ١٢٢٣ هـ ، أفكاره خليط من البوذية والمزدكية واليهودية والإسلام والمسيحية . انظر : حقيقة البائية والبهائية - د . محسن عبد الحميد ١٩٨٥ م .

(٤) القاديانية : تُنسب لمرزا غلام أحمد من قاديان بلاهور من إقليم البنجاب بين باكستان والهند ، ولد ١٢٥٢ هـ ، وأدعى النبوة . (القاديانية ، نشأتها وتطورها ، د . حسن عيسى - دار القلم / الكويت

١٩٨١ م) .

وقولهم :

﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ .. ﴾ (٥٣)

[هود]

يعنى : وما نحن بتاركى آلهتنا بسبب قولك .

وقولهم : ﴿ .. وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥٣)

[هود]

أى : وما نحن لك بمصدقين ، لأن (آمن) تأتى بمعانى متعددة <sup>(١)</sup> .

فإن عديتها بنفسها مثل قول الحق سبحانه :

﴿ .. وَأَمَنَّهُمْ مِنْ خَوْفِ ﴾ (٤)

[قريش]

وإن عديتها بحرف «الباء» مثل قول الحق سبحانه :

﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ .. ﴾ (٦٤)

[البقرة]

فالمعنى يتعلق باعتقاد الألوهية .

وإن عديتها بحرف «اللام» ؛ مثل قول الحق سبحانه :

(١) آمن يامن : اطمأن ولم يخف . وأمن منه : سلم . وأمن على كذا : اطمأن إليه ووثق به . كقوله تعالى : ﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ .. ﴾ (٥١) [يوسف] .

وأمن : اسم فاعل . قال تعالى : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا .. ﴾ (٢٠) [إبراهيم] . أى : يامن من يحل به . وآمنه من خوف : جعله آمناً غير خائف . ومعانى المادة كلها ترجع إلى الثقة والاطمئنان . قال تعالى : ﴿ .. وَأَمَنَّهُمْ مِنْ خَوْفِ ﴾ (٤) [قريش] أى : جعلهم آمنين لا يخافون ؛ لأنهم جيران الحرم الأمن فى البلد الأمن .

والمؤمن : من أسماه الله الحسنى ، أى : واهب الأمن وباعث الطمأنينة فى قلوب المؤمنين ؛ فلا خوف لمن يلجأ إليه سبحانه . قال تعالى : ﴿ الْمُؤْمِنُ الْمُؤْمِنِينَ .. ﴾ (٢٢) [الحشر] .

وأمن له : أذعن وخطع عن ثقة وحب وتقدير . قال تعالى : ﴿ قَامَنَ لَهُ لُوطُ .. ﴾ (١١) [العنكبوت] . وأمن به : صدق به ووثق به من اقتناع . قال تعالى : ﴿ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ ﴾ (٣٥) [يس] . والإيمان : الإذعان والتصديق . قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ لَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا .. ﴾ (١٥٥) [الأنعام] . [القاموس القويم] بتصرف .

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ.. (٨٢)﴾ [يونس]

تكون بمعنى التصديق .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا أَعْرَضَكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءِ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤)﴾

و«إن» التي تفتتح بها الآية الكريمة أداة شرطية ، وأداة «إن» الشرطية يأتي بعدها جملة شرط ، وجواب شرط ، فإن لم تكن كذلك فهي تكون بمعنى النفي ؛ مثل قول الحق سبحانه :

﴿إِن أَمْنَاهُتُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ.. (٧)﴾ [المجادلة]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ (٥٤)﴾ [هود]

أي : «ما نقول إلا اعتراك» .

وهكذا نعلم أن كلمة «إن» هنا جاءت بمعنى النفي .

و«إلا» هي أداة استثناء، وقبلها فعل هو «نقول»، وإذا وجدت أداة استثناء، ولم يذكر المستثنى منه صراحة، فاعلم أنه واحد من ثلاثة : إما أن يكون مصدر الفعل، وإما أن يكون ظرف الفعل، وإما أن يكون حال الفعل (١) .

(١) هراء هروء : ألم به أو ضربه وأصابه . قال تعالى : ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ.. (٥٤)﴾ [هود] أي : أصابك . قال الفراء : كانوا كذبوه - يعني : هوداً عليه السلام - ثم جعلوه مختلطاً ، وادعوا أن آلهتهم هي التي خبلته ليعب إياها ، قال الفراء : معناه : ما نقول إلا منك بعض أصنامنا بجنون لسبك إياها . [لسان العرب ، والقاموس القويم] .

(٢) يسمى النحاة هذا النوع من أساليب الاستثناء «الاستثناء المفرغ» وهو ما حذف منه المستثنى منه ، والكلام غير موجب (أي : منفي) مثل : ما تكلم إلا واحد . ويقول تعالى : ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ظَنًّا.. (٣٧)﴾ [الجنات] أي : ما نظن إلا ظناً عظيمًا . انظر تفصيل ذلك في النحو الوافي [٣١٧/٢ - ٣٣٧] .

## سُورَةُ هُودٍ

٦٥٠٧

وعلى ذلك فمعنى الآية الكريمة :

وما نقول لك إلا أن آلهتنا أصابتك بسوء ؛ لأنك سَفَّهْتَهُمْ وَأَبْطَلْتَ  
الْوَهْيَتَهُمْ ، وجئتَ بآله جديد من عندك ، فأصابتك الآلهة بسوء - يراد به  
الجنون - فأخذتَ تَخْلُطُ في الكلام الذي ليس له معنى .

ويردُّ عليهم هود عليه السلام بما جاء في نفس الآية :

﴿ .. قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا <sup>(١)</sup> إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ <sup>(٢)</sup> ﴾ [هود]

وهو يُشْهَدُ الله الذي يثق أنه أرسله ، ويحمي ذاته ، ويحمي عقله ؛ لأن  
عقل الرسول هو الذي يدير كيفية أداء البلاغ عن الله .

والحق سبحانه وتعالى لا يمكن أن يرسل رسولا ولا يحميه .

وقد قال الكافرون عن سيدنا رسول الله محمد ﷺ أنه مجنون ؛ فأنزل  
الحق سبحانه وتعالى قوله الكريم :

﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ <sup>(١)</sup> وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ <sup>(٢)</sup> ﴾  
وَأَنْتَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ <sup>(٣)</sup> [الفلم]

ونحن نعلم أن المجنون لا خُلُقَ له ، وفي هذا بيان أن رسول الله ﷺ  
في قمة العقل ؛ لأنه في قمة الخُلُقِ الطيب .

وهنا يُشْهَدُ هود عليه السلام قومه ويطالبهم أن يرجعوا إلى الفطرة  
السليمة ، ويحكموا : أهو مجنون أم لا ، ويشهدهم أيضاً أنه برىء من  
تلك الآلهة التي يُشْرِكُونَ بعبادتها من دون الله تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان هود عليه السلام :

(١) طلبه للشهادة هنا ليس لأنهم أهل للشهادة ، ولكن المعنى : واشهدكم نهاية للتقرير ، أى : لتعرفوا أنني  
برىء من عبادة الأصنام التي تعبدونها . انظر تفسير القرطبي (٤/ ٣٣٧٠) .

(٢) غير ممنون : أى : غير مقطوع ، بل هو دائم ، ويحتمل أنه غير مكثَّر بالْمَنْ والتفريع والفخريه . والمعنيان  
لا يتعارضان [القاموس القويم ٢/ ٢٤٠] .

## ﴿مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ﴾<sup>(١)</sup>

وقوله : ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أى : من دون الله ، فهم قد عبدوا أصناماً من دون الله سبحانه ، ومطلب هود عليه السلام منهم أن يكيدوا له جميعاً ، وهم كثرة طاغية ، وهو فرد واحد ؛ وإن كادت الكثرة المتجبرة لواحد ، فمن المتوقع أن يغلّبوه ، وهو - عليه السلام - هنا يتحداهم ويطلب منهم أن يعملوا كل مكرهم وكيدهم ، وأن يقتلوه لو استطاعوا ، وهذه قمة التحدى .

والتحدى هنا معجزة ؛ لأنه ساعة يتحداهم فهو يعلم أن الله سبحانه وتعالى ينصره ، وهو - عليه السلام - متأكد من قوله :

﴿أَشْهَدُ اللَّهَ .. (٥٤)﴾ [هود]

الذى قاله فى الآية السابقة ، ولا يمكن أن يرمى مثل هذا التحدى جزافاً ؛ لأن الإنسان لا يجازف بحياته فى كلمة .

وهو لم يقل : ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ﴾ (٥٥) إلا إذا كان قد أوى إلى ركن شديد ، وإنه ينطق بالكلمة عن إيمان بأن الحق سبحانه سيهبه قدرة على نفاذ الكلمة .

وهو قد أشهد الله تعالى ، والله سبحانه هو أول من شهد لنفسه ؛ يقول الحق سبحانه :

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .. (١٨)﴾ [آل عمران]

(١) كان فلاناً مكيداً كيداً : خدعه ومكر به واحتال لإلحاق الضرر به ، والكيد من الله تعالى هو إبطال كيد الكافرين ، ومعاقبتهم على ما دبروه من كيد ، قال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦)﴾ [الطارق] ، والكيد مصدر ويطلق على العمل أو الوسيلة التى يتذرع بها الكائد بقول الحق : ﴿فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوَا صَلَافًا .. (٣٦)﴾ [طه] (القاموس القويم بتصرف)

## سُورَةُ هُودٍ

٦٥٠٩

وكذلك شهدت الملائكة وأولو العلم<sup>(١)</sup>، والله سبحانه وتعالى حين شهد نفسه فإنما يطمئننا أنه إذا ألقى أمراً علم أنه مُنفَّذ لا محالة .

وقد أشهد هود عليه السلام ربه سبحانه، وهو واثق من حمايته له وما كان الحق سبحانه ليرسل رسولا ليمكِّن منه قوماً يُزيحوه من حركة الرسالة .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان هود عليه السلام :

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ وَرَبِّيَ وَإِنَّكَ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ  
ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٦٥ ﴾

(١) يقول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط .. ﴾ (١٨) ﴿ آل عمران ﴾ .

(٢) الدابة : اسم فاعل ، وغلب على غير العاقل ، ويستوى فيه المذكر والمؤنث وقد يشمل العاقل وغيره ، كقوله تعالى : ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ .. ﴾ (١٦) ﴿ البقرة ﴾ تشمل الإنسان وغيره . وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِنَّكُمْ .. ﴾ (٢٥) ﴿ العنكبوت ﴾ الدابة هنا كل حيوان ما عدا الإنسان بدليل كلمة ﴿ وَإِنَّكُمْ ﴾ فالعطف يقتضي المغايرة . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّعَمَى الضُّعَمَى الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٦) ﴿ الأنفال ﴾ تشمل الحيوان والإنسان الكافر .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ .. ﴾ (٢٩) ﴿ الشورى ﴾ والدابة هنا تشمل الكائنات الحية في الأرض والسماء ، وفيها دليل على أن في السماء كائنات حية وعاقلة .  
[القاموس القويم] بتصرف .

(٣) الناصية : ما يبرز من الشعر في مقدم الرأس فوق الجبهة ، ويسمى مكانه أيضاً « ناصية » . وأخذ بनावية فلان : لبس عليه وسيطر عليه متمكناً منه .

وقوله تعالى : ﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا .. ﴾ (٦٥) ﴿ هود ﴾ أى : مسيطر عليها مالك أمرها متصرف فيها . وقوله تعالى : ﴿ .. فَتُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأُقْدَامِ ﴾ (٤٥) ﴿ الرحمن ﴾ أى : يُجَرُّ المجرمون من نواصيهم وأقدامهم ، فتربط ناصية للجرم مع قدميه ، ويؤخذ فيلقى في النار عاجزاً مهاناً . وقوله تعالى : ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِلَةٍ ﴾ (١٤) ﴿ العلق ﴾ مجاز مرسل علاقته الجزئية ، أى : صاحبها كاذب خاطيء .  
[القاموس القويم] .

(٤) الصراط : لغة في السراط ، وبهما قرىء - بالصاد ، والسين - وهو السيل والطريق للخير والشر . فمن الخير قوله تعالى : ﴿ هَذَا الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ﴾ (٢١) ﴿ الفاتحة ﴾ وقوله تعالى : ﴿ .. إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٥٢) ﴿ هود ﴾ . ومن الشر والهلاك ، قوله تعالى : ﴿ .. فَاهْبُتْهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ (١٢) ﴿ الصافات ﴾ والتعبير بقوله تعالى : ﴿ فَاهْبُتْهُمْ ﴾ على سبيل التهكم والسخرية . [القاموس القويم] .

يعلن لهم هود عليه السلام حقيقة أنه يتوكل على الله تعالى الذي لا يعلوهم فقط ، ولا يرزقهم وحدهم ، بل هو الآخذ بناصية كل دابة تدب في الأرض ولها حرية وحركة ، والناصية هي مقدم الرأس ، وبها خصلة من الشعر .

وحين تريد إهانة واحد فأنت تمسكه من خصلة الشعر هذه وتشده منها .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِمَاهُمْ <sup>(١)</sup> فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأُقْدَامِ (٤١) ﴾ [الرحمن]

وفي آية أخرى يقول الله سبحانه :

﴿ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا <sup>(٢)</sup> بِالنَّاصِيَةِ (٤٥) ﴾ [العلق]

إذن : فكيف لم يجرؤ قوم عاد على أن يسلطوا مجموعة ثعابين ، وأعداداً من الكلاب المتوحشة - مثلاً - على سيدنا هود عليه السلام .

لم يستطيعوا ذلك ، وقد أعلن لهم سبب عجزهم عن الإضرار به حين قال لهم :

﴿ .. مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) ﴾ [هود]

ونحن نلاحظ أنه عليه السلام قال في صدر <sup>(٣)</sup> الآية :

﴿ رَبِّي وَرَبِّكُمْ .. (٥٦) ﴾ ، وفي عجز <sup>(٤)</sup> الآية قال : ﴿ .. إِنَّ رَبِّي (٥٦) ﴾ ، والسبب في قوله : ﴿ رَبِّي وَرَبِّكُمْ .. (٥٦) ﴾ أنهم كانوا قادحين <sup>(٥)</sup> في مسألة ربوبية الحق سبحانه .

(١) السيماء والسيما والسبمة : العلامة ، وسوم الشيء : أعلمه يسومه أي : بعلامة . [القاموس القويم] .

(٢) سفح ناصيته : قبض عليها فاجتذبتها . أي : لنجذبته من ناصيته إذلالاً له ، وذلك كناية عن الإذلال والقهر والإهانة . [القاموس القويم ٣١٦/١] .

(٣) الصدر : مقدم كل شيء وأوله . والمراد : بداية الآية الكريمة .

(٤) عجز كل شيء : مؤخره . والمراد : نهاية الآية الكريمة .

(٥) القدح في الشيء : العيب فيه وانتقاصه . [راجع اللسان - مادة : قدح] .



لذلك قال عليه السلام في مجال السيطرة: ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ أما في عجز الآية فقال:

﴿.. إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾ [هود]

أى: أن الإله الواحد سبحانه له مطلق العدالة ، ولم يأت هنا بشيء يخص أربابهم ؛ لأنه هنا يتحدث عن مطلق عدالة الحق سبحانه .

والحق سبحانه وتعالى على صراط مستقيم في منتهى قدرته ، وقهره وسيطرته ، ولا شيء يُقَلَّتْ منه ، ومع كل قدرة الله تعالى اللامتناهية فهو لا يستعمل قهره في الظلم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ (٥٧)﴾

الفعل «تولَّوْا» أصله : «تتولَّوْا» ، وفي اللغة : إذا ابتدأ فعل بتاءين يُقتصر على تاء واحدة .

وهكذا يكون المعنى :

إن تتولَّوْا فقد أبلغتكم المنهج الذي أرسلت به إليكم ، ولا عذر لكم عندي ؛ لأن الحق سبحانه لا يعذب قوماً وهم غافلون ؛ لذلك أرسلني إليكم .

(١) ولي من الشيء : انصرف عنه ، أو أعرض عنه . وقال تعالى : ﴿.. وَلَوْ عَلَى أَهْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٤)﴾ [الإسراء] أى : أعرضوا . وقال تعالى : ﴿فَإِنْ أَسْقَمُوا فَقَدِ احْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَهَذَا عَلَيْنَا الْإِلَاحُ (١٦)﴾ [آل عمران] . [القاموس القويم] .

(٢) حفيظ : من أسماء الله الحسنى . والحفيظ : الحافظ الأمين الذي يحفظ عباده ويحميهم . قال تعالى : ﴿.. وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ (٥٧)﴾ [سبا] [القاموس القويم - بتصرف] .

أو أن الخطاب من الله سبحانه ليهود عليه السلام ليبين له : فإن تولّوا فقل لهم : ﴿ أَبَلَعْتُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ .. ﴾ (٥٧) [هود]

والاستخلاف أن يوجد قوم خلفاء<sup>(١)</sup> لقوم ، إما أن يكونوا عادلين ؛ فلا يقفوا من المناهج ولا من الرسالات مثلما وقف قوم عاد .

وإما أن يكونوا غير عادلين ، مثل من قال فيهم الحق سبحانه : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ .. ﴾ (٥٩) [مريم]

والحق سبحانه قد وعد المؤمنين وعداً طيباً :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ .. ﴾ (٥٥) [النور]

إذن : فالاستخلاف إما أن يكون الخلف فيه صاحب عمل صالح ، أو أن يبدد المنهج فلا يتبعه ، بل يتبع الشهوات .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ هَأنَا نُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِنُفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَتَخَلَّ وَمن يَتَخَلَّ فَإِنَّمَا يَتَخَلَّ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ (٣٨) [محمد]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا .. ﴾ (٥٧) [هود]

(١) خلفه يخلفه من باب نصر : جاء بعده فصار مكانه . والخلف القرن من الناس أى الجيل بعد الجيل . والخلف الولد قال تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ .. ﴾ (٥٩) [مريم] والخليفة من يخلف غيره وجمعها خلفاء وخلائف ، يقول الحق : ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعدِ قَوْمِ نُوحٍ .. ﴾ (٦٩) [الأعراف] وقال : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (٢٩) [فاطر] [القاموس القويم ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ ج ١]

لأن المنهج الذي نزل على الخلق ، أنزله الحق سبحانه وتعالى لصالح العباد ، وهو سبحانه خَلَقَ أولاً بكل صفات الكمال فيه ، ولن يزيده العباد وصفاً من الأوصاف ، ولن يسلبه أحد وصفاً من الأوصاف<sup>(١)</sup> .

ولذلك نقول للمتمردين على عبوديتهم لله كفراً ، وللمتمردين على المنهج بالمعصية :

أنتم أَلَفْتُمُ التَّمْرَدَ ؛ إما التمرّد في القمّة وهو الكفر بالله ، وإما التمرّد على أحكام الله بمخالفتها ، فلماذا لا يتمرد أحدكم على المرض ، ويقول : « لن أمرض » ؟ ولماذا لا يتمرد أحدكم على الموت ويرفض أن يموت ؟

إذن : فما دُمْتَ قد عرفت التمرّد فيما لك فيه اختيار ، فهل تستطيع التمرّد على أحكام الله القهرية فيك ؟

إنك لن تستطيع ؛ لأنك مأخوذ بناصيتك . والحق سبحانه إن شاء أن يوقف القلب ، فلن تستطيع أن تأمر قلبك بعدم بالتوقف .

لذلك قال هود عليه السلام :

﴿ .. وَلَا تَعْبُرُونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴾ (٥٧)

[هود]

فالله سبحانه رقيب ؛ لأنه قيوم قائم على كل أمور كونه .

وبعض الفلاسفة قالوا : إن الله قد خلق الكون ، وخلق النواميس<sup>(٢)</sup> والقوانين ، ثم تركها تقوم بعملها .

(١) يقول رب العزة في الحديث القدسي : « يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني . ولن تبلغوا نقصي فتقصوني . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً » أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٧٧) ، وأحمد في مسنده (١٥٨/٥) وابن ماجه في مسنده (٤٢٥٧) من حديث أبي ذر رضى الله عنه .

(٢) النواميس : القوانين الإلهية التي يخضع لها الكون .

ولهؤلاء نقول : لا ؛ فأنتم أقررتم بصفات الخالق القادر ، فأين صفات القيومية لله القائم على كل نفس بما كسبت ، وهو سبحانه القائل لعبيده عن نفسه :

﴿ لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ <sup>(١)</sup> وَلَا نَوْمٌ <sup>(٢)</sup> ۚ ﴾ (٢٥٥)

[البقرة]

وهو سبحانه حين يقول هذا إنما يطمئن العباد ؛ ليناموا ويرتاحوا ؛ لأنه سبحانه مُنَزَّهٌ عن الغفلة أو النوم ، بل هو سبحانه قيوم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ <sup>(٣)</sup> ۖ ﴾ (٥٨)

وساعة تسمع ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ فأنت تعرف أن هناك أمراً وأمرأً مُطَاعاً ، وبمجرد صدور الأمر من الأمر سبحانه يكون التنفيذ ؛ لأنه يأمر مَنْ له قدرة على التنفيذ .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ <sup>(١)</sup> وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ <sup>(٢)</sup> ۖ ﴾ (٢)

[الانشقاق]

إذن : فهي بمجرد السمع تَفْعُذُ أمر الحق سبحانه .

(١) السنة : النعاس وهو أول النوم . والنعاس ما كان من العين ، فإذا صار في القلب صار نوماً . وقد فرّق الفضل الضبي بينهما فقال : السنة من الرأس ، والنعاس في العين ، والنوم في القلب . [راجع تفسير القرطبي ١/٢١٩٦] .

(٢) عذاب غليظ : أي : كبير كثير شديد صعب . [القاموس القويم] .

(٣) حق له ( بالبناء للمجهول ) : أثبت له . قال تعالى : ﴿ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ <sup>(٢)</sup> ۖ ﴾ [الانشقاق] أي : كان حقاً ثابتاً عليها أن تخضع لأمر الله . [القاموس القويم] .

وحين شاء الحق سبحانه أن يُنَجِّي موسى عليه السلام من الذبح الذي أمر به فرعون ؛ أوحى الله سبحانه لأم موسى قائلاً :

﴿ .. فَإِذَا خِفْتُ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ <sup>(١)</sup> وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ <sup>(٢)</sup> ﴾ [القصر]

وكيف تفعل أم ذلك؟

إن كل أم إنما تحرص على ابنها ؛ والذبح لموسى أمر مظنون ، والإلقاء في البحر موت محقق <sup>(٣)</sup> ، لكن أم موسى استقبلت الوحي ؛ ولم تتردد ؛ مما يدل على أنها لم تُناقش الأمر بمقاييس البشر ، بل بتنفيذ إلهام وارد إليها من الله سبحانه ؛ إلهام لا ينازعه شك أو شيطان .

وبعد ذلك يأمر الله سبحانه البحر :

﴿ فَلْيَلْقِهْ يَمِّ السَّاحِلِ <sup>(٤)</sup> .. <sup>(٥)</sup> ﴾ [طه]

وقد استقبل البحر الأمر الإلهي ؛ لأنه أمر من قادر على الإنفاذ ، كما قام بتنفيذ الضد .

### في قصة نوح عليه السلام قال الحق سبحانه :

(١) اليم : البحر أو النهر العذب . وقد ورد للمعنيين في القرآن ، فقال تعالى : ﴿ فَافْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ .. <sup>(١٣٧)</sup> ﴾

[الأعراف] ، وهو خليج السويس وماؤه ملح ، وهو امتداد البحر الأحمر .

وقال تعالى لموسى : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ <sup>(٢٥)</sup> أَنْ أَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ فَأَلْقَاهُ فِي الْيَمِّ فَلْيَلْقِهْ يَمِّ السَّاحِلِ <sup>(٢٦)</sup> .. <sup>(٢٧)</sup> ﴾ [طه]

قاليم هنا هو نهر النيل العذب . [القاموس القويم] .

(٢) أم موسى عاشت في خوف مظنون مصحوب بقلق ، فقد يحدث وقد لا يحدث ، كما عاشت في

خوف محقق وهو إلقاء ابنها في البحر ، فالبحر يعني الفرق .. ولكن جانب الإلهام جعلها تستقبل

الخوف المحقق بالإيمان التقي ، فالبحر استقبله ، ولوج بداعيه ، والشاطئ يقبله ، والعدو يريه ، وعين

الله ترعاه .

(٣) الساحل : شاطئ النهر ؛ لأن الموج يأكل منه وينحته ويسحته . قال تعالى : ﴿ فَلْيَلْقِهْ يَمِّ السَّاحِلِ .. <sup>(٢٦)</sup> ﴾ [طه] أي : بشاطئ النهر . [القاموس القويم] .

(٤) (٥) [طه] أي : بشاطئ النهر . [القاموس القويم] .

[هود]

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التُّورُ ۖ ۝٤٧ ﴾

وحدث الطوفان ؛ ليغرق الكافرين .

وهنا يقول الحق سبحانه :

[هود]

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ۖ ۝٥٨ ﴾

يعنى : مجيء الأمر بالعذاب للمخالفين لدعوة هود عليه السلام ، وقد تحقق هذا العذاب بطريقة خاصة ودقيقة ؛ تتناسب فى دقتها مع عظمة الأمر بها سبحانه وتعالى .

فحين تأتى رِيحٌ صَرْصَرٌ <sup>(١)</sup> أو صَيْحَةٌ طاغيةٌ ، فهذا العذاب من خارجهم ، وما دام العذاب من الخارج ، ويقوة من قوى الطبيعة الصادرة بتوجيه الله ؛ فقد يعمُّ المكذِّبين لسيدنا هود ، ومعهم المصدقون به وبرسالته ، فكيف يتأتَّى أن تذهب الصيحة إلى آذان المكذِّبين فقط ، وتخرق تلك الآذان ؛ وتترك آذان المؤمنين ؟

إنها قدرة التقدير لا قوة التدمير .

إن مُوجَّه الصيحة قد حدَّد لها مَنْ تُصيب ومن تترك ، وهى صيحة موجَّهة ، مثلها مثل حجارة سجِّل <sup>(٢)</sup> التى رمنها طير أبابيل <sup>(٣)</sup> على أبرهة الحبشى وجنوده ؛ مع نجاة جنود قريش بنفس الحجارة ؛ ولم تكن إصابة بالطاعون كما ادَّعى بعض من المتفلسفين .

(١) الصَّرُّ : البرد الشديد . قال تعالى : ﴿ كَمِثْلٍ رِيحٍ فِيهَا صَرْ ۖ ۝١٧ ﴾ [آل عمران] . وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا عَادَ فَأَتَوْكُوا بَرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۖ ۝٢٤ ﴾ [الحاقة] [القاموس القويم] .

(٢) السَّجِّل : الطين المتحجر . قال تعالى : ﴿ .. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مُّضَوْدٍ ۖ ۝٨٥ ﴾ [هود] وقال تعالى : ﴿ لَنَرِمَنَّهُمْ بِحِجَارَةٍ مِّنْ سِجِّيلٍ ۖ ۝٢٤ ﴾ [الفيل] [القاموس القويم] .

(٣) أبابيل : جماعات متفرقة لا واحد لها من لفظها ، وهى نفيد الكثرة . قال تعالى : ﴿ وَأَوْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرَ أَبَابِيلَ ۖ ۝٨٥ ﴾ [الفيل] [القاموس القويم] .

وهذه من أسرار عظمة الحق سبحانه فهو يأخذ بشيء واحد ؛ ولكنه يُنجي  
المؤمن ؛ ويعذب الكافر ؛ فلا يوجد ناموس يحكم الكون بدون قدرة  
مسيطرة عليه .

يقول المتنبي <sup>(١)</sup> :

تُسَوِّدُ الشَّمْسُ مَنَّا بِيضَ أَوْجُهِهَا      وَمَا تُسَوِّدُ بِيضَ الْعَيْنِ وَاللِّمَمِ  
وَكَانَ حَالُهُمَا فِي الْحُكْمِ وَاحِدَةً      لَوْ احْتَكَمْنَا مِنَ الدُّنْيَا إِلَى حَكَمِ <sup>(٢)</sup>

وهكذا يضرب المتنبي المثل بأن جلوس الواحد منا في الشمس ؛ يجعل  
بشرة الأبيض تميل إلى السمرة ولا تسود بياض الشعر ، لكنك إن تركت  
شيئاً أسود في الشمس فترة لوجدته يميل إلى الأبيض ؛ ويحدث ذلك رغم  
أن الفاعل واحد ؛ لكن القابل مختلف .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا .. (٥٨)﴾

[هود]

فلا تقل كيف نجوا من العذاب الجامع والعذاب العام ؛ لأن هذه هي الرحمة .  
والرحمة - كما نعلم - هي ألا يمس الداء الإنسان من أول الأمر ؛ أما  
الشفاء فهو يعالج الداء .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. (٨٢)﴾

[الإسراء]

(١) هو : أبو الطيب أحمد بن الحسين ، شاعر حكيم ، ولد بالكوفة في محلة تسمى «كندة» عام ٣٠٣ هـ ،  
نشأ بالشام ، ادعى النبوة في بادية السماوة (بين الكوفة والشام) ، ولذلك سمي بالمتنبي ، ثم رجع عن  
دعواه بعد أسره ، توفي عام ٣٥٤ هـ عن ٥٢ عاماً . (الأعلام لخير الدين الزركلي) .  
(٢) المتنبي رغم أنه أديب له قدرة على إدارة المعاني ، فقد تعرض لحقيقة علمية يؤخذ منها الأسرار الخفية ،  
التي تجعل العقل مختاراً بتوحيد لقدرة الله سبحانه .

ونحن نلاحظ هنا أن الحق سبحانه يذكر في نفس الآية الكريمة نجاتين :

**النجاة الأولى :** من العذاب الجامع ؛ الريح الصرصر ؛ من الصيحة ؛ من الطاغية ، يقول سبحانه :

﴿ .. نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٢٨ ﴾ [هود]

**والنجاة الثانية :** هى نجاة من عذاب الآخرة الغليظ ، فعذاب الدنيا رغم قسوته ، إلا أنه موقوت بعمر الدنيا .

أما عذاب الآخرة فهو عذاب بلا نهاية ، ووصفه الحق سبحانه بالغلظة .  
وغلظ الشيء يعطى له القوة والمتانة ، وهو عذاب غليظ على قدر ما يستوعب الحكم .

ولذلك حينما يُمْلِكُ الحقُّ سبحانه رجلاً بُضِعَ<sup>(١)</sup> امرأة بعقد الزواج ، ويصف ذلك بالميثاق الغليظ ، والنفعية هنا متصلة بالعفة والعرض ، ولم يُمْلِكِ الرجل النفعية المطلقة من المرأة<sup>(٢)</sup> التى يتزوجها ؛ فالزواج يُمكن من عورة زوجته بعقد الزواج .

يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَأَخَذْنَا مِنْكُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا ۝٣١ ﴾ [النساء]

وكانت نجاة هود عليه السلام والمؤمنين معه من العذاب الأول مقدمة للنجاة من العذاب الغليظ .

(١) البضع : النكاح والجماع ، والمباذعة : للمجاعة ومباشرة الرجل للمرأة . [لسان العرب - مادة : بضع] .

(٢) فللمرأة - مثلاً - ذمة مالية خاصة بها ، ليس من حق زوجها الاستيلاء على مالها ، أو التدخل فى كيفية استثماره إلا بعد موافقتها بإرادتها الحرة .

(٣) ميثاقاً غليظاً : أى : عظيماً كبير الشأن ، هو ميثاق الزواج . [القاموس القويم] .



ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا  
أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (٥٩)

و«تلك» إشارة إلى المكان الذى عاش فيه قوم عاد ؛ لأن الإشارة هنا  
لمؤنث ، ولنتذكر أن المتكلم هنا هو الله سبحانه وتعالى .

وهكذا فصل بين «عاد» المكان ، و«عاد» المكين ، وهم قوم عاد ؛ لذلك قال  
سبحانه : ﴿جَعَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ .. (٥٩)﴾ فهم قد ذهبوا وبقيت آثارهم .

و«عاد» إما أن تطلق على المكان والمحل ، وإما أن تطلق على الذوات  
التي عاشت فى المكان ، فإذا أشار سبحانه بـ «تلك» فهي إشارة إلى  
الديار ، والديار لم تحدد بآيات الله ؛ ولذلك جاء بعدها بقوله تعالى :

﴿جَعَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ .. (٥٩)﴾ [هود]

والجحد هو النكران مع قوة الحجة والبرهان .

والآيات - كما نعلم - جمع آية ، وهى الأمور العجيبة الملفتة للنظر  
التفاتاً يوحى بإيمان بما تنص عليه .

(١) جحد الحق يجعله جحوداً : أنكره ، وهو يعلمه . وجحد النعمة : أنكرها ولم يشكرها . وجحد الآية :  
كفر بها . قال تعالى : ﴿.. وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٣٣) [الأنعام] . [القاموس القويم] .

(٢) جاءت (رسله) هنا بصيغة الجمع ، لا المفرد . قال القرطبي فى تفسيره (٤/ ٣٣٧٣) : «يعنى هوداً  
وحده ، لأنه لم يرسل إليهم من الرسل سواه ، ونظيره قوله تعالى : ﴿مَسَّهَا الرُّسُلُ كُلُّهَا مِنَ الْعَذَابَاتِ  
.. (٥٩)﴾ [المؤمنون] . يعنى : النبى ﷺ ، لأنه لم يكن فى عصره رسول سواه ، وإنما جمع هذا لأن من  
كذب رسولاً واحداً فقد كفر بجميع الرسل . وقيل : عصوا هوداً والرسول قبله ، وكانوا يحثوا لو أرسل  
إليهم ألف رسول لجحدوا الكل» .

(٣) الجبار : اكبر . والعنيد : الطافى الذى لا يقبل الحق ولا يدعنه له . [تفسير القرطبي ٤/ ٣٣٧٣] .

ومن الآيات ما يدل على قمة العقيدة ، وهو الإيمان بواجب الوجود ؛ بالله  
الرب الخالق الحكيم القادر سبحانه وتعالى ، مثل آيات الليل والنهار والشمس  
والقمر ، ورؤية الأرض خاشعة إلى آخر تلك الآيات التي في القمة .

وكذلك هناك آيات أخرى تأتي مصدقة لمن يخبر أنه جاء رسولا من عند  
الله تعالى ، وهي المعجزات .

وآيات أخرى فيها الأحكام التي يريد بها الله سبحانه بمنهج لضمان صحة  
حركة الحياة في خلقه .

وقوم عاد جحدوا بكل هذه الآيات ؛ جحدوا الإيمان ، وجحدوا  
تصديق الرسول بالمعجزة ، وأهملوا وتركوا منهج الله جحدوا بإعراض<sup>(١)</sup> .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَصَوْا رُسُلَهُ ۖ (٥٩) ﴾

[هود]

وهود عليه السلام هو الذي أرسله الحق سبحانه إلى قوم عاد ، فهل هو  
المعنى بالعصيان هنا ؟

نقول : لا ؛ لأن الله عز وجل قال :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ<sup>(٢)</sup> النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ  
رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ۖ (٨١) ﴾

[آل عمران]

إذن : فكل أمة من الأمم عندها بلاغ من رسولها بأن تصدق أخبار كل  
رسول يُرسل .

ولذلك قال الحق سبحانه :

(١) الجحد لا يتأتى إلا عند إغلاق القلب وشروء الفكر وخسوف النفس .  
(٢) الميثاق والموتق : العهد المؤكد . قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِثَاقَهُ الَّذِي وَتَقْتُمْ بِهِ ۖ (٦) ﴾  
[المائدة] أي : عهد الذي عهدكم عليه وألزمكم الوفاء به . [القاموس القويم ٢ / ٣١٩] .

## سُورَةُ هُودٍ

٦٥٢١

﴿ كُلُّ آمَنٍ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْكَه وَكُتِبَهِ وَرُسُلُهُ لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ

(البقرة)

... (٢٨٥) ﴿

فهم قد انقسموا إلى قسمين : لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ .. وَعَصُوا رُسُلَهُ وَاتَّبِعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ <sup>(١)</sup> (٥٦) ﴿

[هود]

أى : أن هناك مُتَّبِعاً ، ومُتَّبِعاً .

والمقصود بالجبار العنيد هم قوم المجتمع ، سادة الطغيان والصنف الثانى هم من اتبعوا الجبابرة .

ومن رحمته سبحانه أنه حين يتكلم عن الفرق الضالة ، فهو يتكلم أيضاً عن الفرق المضلة ، فهناك ضالٌ فى ذاته ، وهناك مُضِلٌ لغيره .

والمضل لغيره عليه وزران <sup>(٢)</sup> : وزر ضلاله فى ذاته ، ووزر إضلال غيره <sup>(٣)</sup> .

أما الذين اتَّبَعُوا فلهم بعض العذر : لأنهم اتَّبَعُوا بالجهروت والقهر ، لا بالإقناع والبينة .

(١) العنيد : صيغة مبالغة . قال تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٦) ﴾ [إبراهيم] القاموس

القرين ص ٢٩٠ ج ٢

(٢) الوزر : الحمل الثقيل والذنب ، وجزاء الذنب وعقوبته ، والهم والكرب . قال تعالى : ﴿ ... فَكُلَّ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (٥٦) ﴾ [طه] أى : حملاً ثقيلاً هو ذنبه أو جزاء ذنبه . وقوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَةً مِنْكَ وَرَوْحٌ ﴾ [الشرح] أى : همك الذى أتعبك وهو هم البحث عن الدين الحق ، فلما جاءت الرسالة زالت هموم نفسه وبدأ يعمل للإسلام فى نشاط وهمة لا يعمل إلا هم أمته ، أو يكون الوزر هو الذنب الذى كلف تراه ذنباً لشدة حبه لله وخوفه إياه ، وقد وضعه عنه وغفره لك . قال تعالى : ﴿ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ .. (٥٦) ﴾ [الفتح] فالرسول ﷺ يرى الهفوات الصغيرة تنوباً كبيرة فوضعها الله عنه بالمغفرة . [ القاموس القرين ٢/ ٢٢٣ ] .

(٣) قال تعالى عن الذين يضلون غيرهم : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَمِثْلِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ أَوْذَرَ الَّذِينَ يَحْمِلُونَهُمْ بِثَوْبٍ حُمْرٍ أَوْ سَاءَ مَا يَحْمِلُونَ (٥٦) ﴾ [النحل] . وقال تعالى عن الكافرين : ﴿ وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتُمْ مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٥٦) ﴾ [العنكبوت] والاتقال هى الذنوب ، ويحملون أقال من أضلّوهم فانهضهم فى ضلالهم [راجع : القاموس القرين ، مادة اقل] .

وانظر إلى القرآن الكريم حين يعالج هذه القضية ، فيتحدث عن الفئة التي ضلت في ذاتها ويقول :

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّ <sup>(١)</sup> وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (٧٨)

[البقرة]

ويتحدث الحق سبحانه بعد ذلك عن الفئة المضلة فيقول :

﴿ قَوْلِ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا .. ﴾ (٧٩)

[البقرة]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ (٦٠)

والزمان بالنسبة للخلق ثلاثة أقسام : حياتهم زمن أول ، ومن لحظة الموت إلى أن تقوم الساعة زمن ثان وهو زمن البرزخ <sup>(٢)</sup> ، وساعة يعثون هي الزمن الثالث .

(١) الأمانى : جمع أمنية ، وهي ما يرغب الإنسان فيه من الخير ، فعلمهم من الكتاب ليس أمانى كاذبة في دخول الجنة دون أن يصدقها عملهم ، ولذلك قال تعالى : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ .. ﴾ [النساء] . [القاموس القويم ٢/ ٢٤١] بزيادة يقتضيهما المقام .

(٢) اللعنة : اسم مرة ، وتستعمل بمعنى المصدر ، قال تعالى : ﴿ .. أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [هود] [أى : سخطه وغضبه وطرده مُصَّابٌ عَلَى الظَّالِمِينَ . [القاموس القويم] .

(٣) البرزخ : الحاجز بين الشيئين . قال تعالى : ﴿ مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ لِقَاءَ إِيْنَهُمَا يَرْجُحُ لَا يَتَغَيَّانِ ﴾ (٢٢) [الرحمن] [أى : بين البحرين حاجز من الأرض يحجز كلا منهما في مجراه فلا يبغي ولا يطفى على الآخر . وقال تعالى : ﴿ .. وَمَنْ ذَالَهُمْ يَرْجُحُ إِلَى يَوْمٍ يَحْشُرُونَ ﴾ [المؤمنون] [أى : حاجز يحجزهم عن الرجوع إلى الدنيا حتى يوم القيامة وتسمى فترة القبور فترة البرزخ . من مات فقد دخل البرزخ إلى يوم القيامة [ القاموس القويم] .

والحياة الأولى فيها العمل ، وحياة البرزخ فيها عرض الجزاء <sup>(١)</sup> ، مجرد العرض ، والحياة الثالثة هي الآخرة إما إلى الجنة وإما إلى النار .

يقول الحق سبحانه :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْواتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢٨) [البقرة]

هذه هي الأزمنة الثلاثة - حياة ، وبرزخ ، وبعث - وكل وقت منها له ظرف .  
ويعبر القرآن عن هذا ، فيقول عن عذاب آل فرعون منذ أن أغرقهم الله سبحانه في البحر :

﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا <sup>(٢)</sup> وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (٤٦) [غافر]

وفي هذا دليل على عرض الجزاء في البرزخ مصداقاً لقول رسول الله ﷺ «القبر إما روضة من رياض الجنة ، وإما حفرة من حفر النار» <sup>(٣)</sup>

إذن : فهنا زمانان : زمن عرضهم على النار غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وزمن دخولهم النار .

(١) قال تعالى عن عذاب آل فرعون : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (٤٦) [غافر] فهذا عرض للجزاء عليهم ، وهو في حد ذاته عذاب .

(٢) الغدو : الدخول في الغداة ، أو السير أول النهار . قال تعالى : ﴿ غَدُوًّا شَرُّهُ <sup>(٤٦)</sup> ﴾ [سبا] أي : مدة سير الرياح في وقت الغداة تقطعها القوافل في شهر .

ويقابل الغدو بالعشي وبالآصال ، قال تعالى : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا <sup>(٤٦)</sup> ﴾ [غافر] وقال تعالى : ﴿ .. يَسْجُ لَهَا بِالْفَلُوِّ وَالْأَصَالِ ﴾ (٤٦) [النور] . [القاموس القويم] .

(٣) أخرجه الترمذي والطبراني في الكبير عن أبي سعيد ، والطبراني في الكبير عن أبي هريرة وسندهما ضعيف . وانظر مجمع الزوائد (٤٦/٣) ومسند الفردوس للديلمى (٢٣١/٣) .

وهذا يثبت عذاب البرزخ ؛ لأن الإنسان الكافر يرى فيه موقعه من النار<sup>(١)</sup> ، ويرى نصيبه من العذاب ، ثم تقوم الساعة ليأخذ نصيبه من العذاب .  
وبالنسبة لقوم عاد ، أذاقهم الله سبحانه العذاب في الدنيا ، ثم يدخلهم النار يوم القيامة .

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية :

﴿ .. أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود]

وكلمة «ألا»<sup>(٢)</sup> هي أداة تنبيه - كما قلنا من قبل - تنبه السامع إلى أهمية ما يليق به المتكلم حتى لا يجابه السامع بالكلام وهو غافل ، ولأن المتكلم هو الذي يفقد زمام الكلام ، فيجب ألا يستقبله السامع غافلاً ، فتأتي كلمة «ألا» كجرس ينبه إلى ما بعدها من كلام .

والكلام عن قوم عاد الذين نالوا عذاباً في الدنيا بالريح العقيم<sup>(٣)</sup> ، ثم أتبعوا لعنة في البرزخ ، وسوف يُستقبلون يوم القيامة باللعنات ؛ فهذه لعنات ثلاث .

وجاء الحق سبحانه وتعالى ببعيثة هذه اللعنات مخافة أن يرق قلب السامع من كثرة ما يقع عليهم من لعن ، فبيّن بكلمة «ألا» أى : تنبهوا إلى أن قوم عاد كفروا ربهم .

(١) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالفداء والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة» أخرجه البخاري في صحيحه (١٣٧٩) ومسلم في صحيحه (٢٨٦٦) .

(٢) ألا : أداة استفتاح وهي مركبة من همزة الاستفهام ومن لا النافية ، وتكون للتنبيه فتدل على تحقق ما بعدها وتقريره كقوله : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّافِهَاءُ .. ﴾ [البقرة] وتكون للعرض والتحضيض والحث ، كقوله تعالى : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .. ﴾ [النور] [القاموس القويم ٢٧/١] .

(٣) ذلك كان عذاب قوم عاد ، كما قال تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَوْفَيْنَا بِهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ [الذاريات] والريح العقيم هي التي لا خير فيها - بل هي تهلك وتدمر . وذلك وصف على المجاز بالاختصار [القاموس القويم ص ٣١ ج ٢] .

وللجريمة زمن ، وللعقوبة عليها زمن ، وكفرهم بربهم حدث في الدنيا ، وهو كفر في القمة ؛ لذلك نالوا عقاباً في الدنيا .

والخطر كل الخطر أن يتأخر زمن العقوبة عن زمن الجريمة ، فلا تأخذكم بهم الرحمة الحمقاء ، لأن كفرهم هو الكفر بالقمة العقدية ؛ لذلك تواصل لعنهم في البرزخ ، ثم تأتي لهم لعنة الآخرة .

وهم لم يكفروا بنعمة ربهم ، بل كفروا بربهم .

والحق سبحانه لم يطلب من أحد عبادته قبل سن التكليف ، وقدم لهم كما يقدم لكل الخلق نعمه التي لا تعد ولا تحصى ؛ ولذلك فهم يستحقون اللعنات وهي الجزاء العادل .

وقد أوضح لهم هود عليه السلام :

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا <sup>(١)</sup> إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ <sup>(٥٦)</sup> ﴾

[هود]

أي : أن الحق سبحانه عادل .

وأنت حين تسمع جريمتهم ؛ تنفعل وتطلب أقصى العقاب لهم ؛ ولذلك يأتي قول الحق سبحانه :

﴿ .. أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ <sup>(٦٠)</sup> ﴾

[هود]

فأنت لا تكتفى بلعنتهم الأولى ، بل تلعنهم مرة أخرى .

ولسائل أن يقول : ولماذا يقول الحق سبحانه هنا :

﴿ .. أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ <sup>(٦٠)</sup> ﴾

[هود]

(١) الناصية : ما يبرز من الشعر في مقدم الرأس فوق الجبهة ، ويسمى مكانه أيضاً ناصية - وأخذ بناصية فلان : قبض عليه وسيطر عليه متمكناً منه ، قال تعالى : ﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا .. <sup>(٥٦)</sup> ﴾ [هود] مسيطر عليها ومالك أمرها متصرف فيها . [ القاموس المقوم بتصرف ص ٢٧٠ ح ٢ ] .

ونقول : لقد قال الحق سبحانه وتعالى فى موضع آخر من القرآن :

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ [النجم]

وهذا يوضح لنا أن «عاداً» كانت اثنتين : عاداً الأولى ، وهم قوم عاشوا وضلّوا فاهلكهم الله ، وهناك عاد الثانية <sup>(١)</sup> .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾

(١) وهذا يتوافق مع ما قاله القرطبي فى تفسيره (٤/ ٣٣٦٩) أنهما عادان ، عاد الأولى ، وعاد الأخرى ، فهؤلاء - أى : قوم هود - هم الأولى ، وأما الأخرى فهى أقوام عاشت فى جزيرة العرب . وهم المذكورون فى قوله تعالى : ﴿إِرم ذات العماد﴾ [الفجر] ، ويقول (٣/ ٢٧٥٢) : «كان بين هود ونوح فيما ذكر المفسرون سبعة آباء . وكانت عاد فيما روى ثلاث عشرة قبيلة ، ينزلون رمال عالج ، وكانوا أهل بسانين وزروع وعمارة ، وكانت فيما روى بنو احنى حضرموت إلى اليمن ، وكانوا يعبدون الأصنام ، ولحق هود - حين أهلك قومه - بمن آمن معه بمكة ، فلم يزلوا بها حتى ماتوا» .

(٢) ثمود : قبيلة من العرب الأول . ويقال : إنهم من بقية عاد وهم قوم صالح . [راجع : لسان العرب - مادة ثمد] .

(٣) أنشأ الشيء : أوجده وأحدثه وخلق . وأنشأ الله السحاب : كونه وأظهره فى السماء . قال تعالى : ﴿... وَبَنَى السَّحَابَ الْفُقَالَ﴾ [الرعد] أى : يكون السحب الممثلة بالماء . وأنشأكم من الأرض : خلقكم منها . [القاموس القويم] بتصرف .

(٤) عمر فلان الدار : بناها ، وعمر القوم المكان : سكنوه ، فهو معمور . وعمرت الدار بأهلها : فهم عامرة . قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنِ آمَنَ بِاللَّهِ...﴾ [التوبة] أى : يقيم فيها الصلاة ويجلس فيها للعلم ويمكث للاعتكاف ، ويبنيها ويحافظ عليها ؛ فكل ذلك من عمارتها .

وقوله تعالى : ﴿أَجَعَلْتُمْ مِثْقَالَ الْحَبِّ مِثْقَالَ الْأَنْثَرِ﴾ [التوبة] أى : أن عمارة المسجد بغير إيمان لا وزن لها ، فالإيمان هو أساس لقبول الأعمال . واستعمره فى المكان : جعله يعمره . قال تعالى : ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا...﴾ [هود] . [القاموس القويم ٢/ ٣٥] .



ونحن نلاحظ أن الحق سبحانه يبين لنا هنا أنه أرسل إلى ثمود واحداً منهم هو صالح عليه السلام.

وجاء الحق سبحانه بلفظ «أَخَاهُمْ» لبيان العلاقة التي بين صالح - عليه السلام - وقومه ، فهو قد نشأ بينهم ، وعرفوه وخبروه ، فإذا ما جاءهم بدعوة - وقد لمسوا صدقه - فلا بد أن يؤمنوا بما جاء به من منهج.

وناداهم صالح عليه السلام : «يَا قَوْمِ» ، وهي من القيام ، يعنى : يا من تقومون للأمور . والذي يقوم على الأمر عادة هم الرجال ؛ لأن أمر النساء مستور - دائماً - فى طى الرجال ، فليس كل حكم من أحكام الدين يأتى فيه ذكر المرأة ، بل نجد كثيراً من الأحكام تنزل للرجال ، والنساء مضويات على السر فى ظل الرجال ، والرجل يشقى ويكدح ، والمرأة تدير حياة السُّكنى وتربية الأولاد.

ونحن نجد من النساء ومن الرجال من يتراضون عند الزواج على ألا تخرج المرأة للعمل.

إن للمرأة حق العمل إن احتاجت ولم تجد من يعولها ، ولكن إن وجدت من يقوم عليها ، فلماذا لا تلتفت إلى عمل لا يقل أهمية عن عمل الرجال ، وهو رعاية الأسرة ؟

وكذلك نجد من يقوم باسم الحرية بالهجوم على الحجاب ، ونقول لمن يفعل ذلك : إذا كنت لم تتقّد التهتك فى الملابس ، ووَصَفْتَهُ بأنه «حرية» ، فلماذا تتدخل فى أمر الحجاب ، ولا تعتبره «حرية» أيضاً.

ونعود إلى الآية الكريمة التي نحن بصددها ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ...﴾ (٦١) والعبادة تقتضي تلقى أوامر الإله المعبود بـ «افعل» و «لا تفعل»<sup>(١)</sup> في كل حركة من حركات الحياة.

فكان أول شيء طلبه صالح من قومه ثمود ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وأمر عبادة الله وحده مطلوب من كل أحد ، ولا يسع أحداً مخالفته.

﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ... ﴾ (٦١) [هود]

تقرير واقع لا يستطيعون تغييره ، فليس لكم إله آخر غير الله ، مهما حاولتم ادعاء آلهة أخرى.

ويقول الحق سبحانه :

﴿ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا... ﴾ (٦١) [هود]

والإنشاء هو الإيجاد ابتداء من غير واسطة شيء ، ويقال : أنشأ ، أى : أوجد وجوداً ابتداءً من غير الاستعانة بشيء آخر .

لذلك لا نقول لمن اخترع : إنه «أنشأ» لأنه استعان بأشياء كثيرة ليصل إلى اختراعه ؛ فقد يكون مستعيناً بمادة أخذها من الجبال ، وبخبرة تجارب صنعها من سبقوه ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الذى ينشئ من عدم .

والوجود من العدم قسمان : قسم أوجدته باستعانة بوجود ، وقسم أوجدته من عدم محض ، وهذا الأخير هو الإنشاء ولا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى .

(١) إن مدار التكليف في حياة الناس لا يخرج عن الأمر والنهي ، فمن الأمر نأخذ الفرض والسنة والمنحجب والمندوب والتطوع والواجب والحلال ، وكل ما يرضى الله لسعادة البشرية . والنهي : يكون من المحرم والمكروه . وحركة الحياة منوطة بالفعل كأمير ، ولا تفعل كنهى ، وفي النهي عند الاستجابة معادة ، وعند المخالفة شقاء .

والحق سبحانه جلّت مشيئته في الإنشاء ، فهو ينشئ الإنسان من  
التقاء الزوج والزوجة ، وإن أرجعت هذا الإنشاء إلى البداية الأولى في  
آدم عليه السلام ، فستجد أن الحق سبحانه وتعالى قد خلقه من نفس مادة  
الأرض ، والأرض مخلوق من مخلوقات الله .

فمنى الزوج وبويضة الزوجة يتكونان من خلاصة الدم ، الذي هو خلاصة  
الأغذية وهي تأتي من الأرض ، فسواء رمزت لآدم بإنشائه من الأرض ،  
أو أبقيتها في ذريته ، فكل شيء مَرَدُّه إلى الأرض .

وقول الحق سبحانه :

﴿ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ ﴾<sup>(١)</sup> فيها .. (٦١)

[هود]

نجد فيه كلمة «استعمركم» وساعة ترى الألف والسين والتاء فاعلم أنها  
لطلب<sup>(٢)</sup> ، وهكذا يكون معنى كلمة «استعمر» هو طلب التعمير .

ومن الخطأ الشائع تسمية البلاد التي تحتل ببلاداً أخرى : «دول  
الاستعمار» .

أقول : إن ذلك خطأ ، لأنهم لو كانوا دول استعمار ، فهذا يعني أنهم  
يرغبون في عمارة الأرض ، ولكنهم في حقيقة الأمر كانوا يخربون في  
الأرض ؛ ولذلك كان يجب أن تسمى «دول الاستخراب» .

(١) استعمركم فيها : أذن لكم في عمارتها واستخراج ثمركم منها وجعلكم عمارها . [راجع اللسان : مادة  
عمر] .

(٢) قال القاضي أبو بكر بن العربي : تأتي كلمة استعمل في لسان العرب على معان :  
- منها : استعمل ، بمعنى طلب الفعل كقوله : استعملته أي : طلبت منه حملاتاً .  
- وبمعنى : اعتقد ، كقولهم : استعملت هذا الأمر ، أي : اعتقدته سهلاً ، أو وجدته سهلاً . واستعملته  
أي : اعتقدته عظيماً ووجدته .

- وبمعنى : أحب ، كقولهم : استعملته أي : أحبته جيداً .  
- ومنها بمعنى : فعل ، كقوله : قر في المكان واستقر . نقله القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣٧٥) .

﴿اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أى: طلب منكم عمارتها ، وهذا يتطلب أمرين اثنين: أن يبقى الناس الأمر الصالح على صلاحه ، أو يزيده صلاحاً.

وكما ضربت المثل من قبل بتحسين وسائل وصول المياه إلى المنازل بعد اكتشاف نظرية الأوانى المستطرفة<sup>(١)</sup> ، فقد كان الناس يشربون الماء من الترع ، ثم تم اختراع كيفية تكرير المياه ، ثم جاءت نظرية الأوانى المستطرفة ، فاستغلها الناس فى بناء خزانات عالية ، وتوصيل الماء بواسطة مواسير تدخل لكل بيت .

وهكذا تصل المياه النقية لكل منزل، وهكذا يزداد فى الأمر الصالح صلاحاً.

وأيضاً إن استصلحنا الأرض البور ، فنحن نزيد الأرض رقعة صالحة لإنتاج الغذاء لمقابلة الزيادة فى عدد السكان .

وما دام عدد السكان فى زيادة فلا بد من زيادة رقعة الأرض بالاستصلاح ؛ لأن الأزمة التى نعانى منها الآن ، هى نتيجة للغفلة التى مرت علينا ، فزاد التكاثر عن الاستصلاح ، وكان الواجب يقتضى أن نزيد من الاستصلاح بما يتناسب مع الزيادة فى السكان .

وهكذا نفهم معنى استعمار الأرض ،

ومن عظمة الحق سبحانه وتعالى أنه تجلّى على الخلق بصفات من صفاته ، فالقوى يعين الضعيف ، والحق سبحانه له مطلق القوة ، ويَهَبُ الخلق من حكمته حكمة ، ومن قبضه قبضاً ، ومن بسطه بسطاً ، ومن غناه غنى ؛ ولكن الصفات الحسنى كلها ذاتية فيه وموهوبة منه لنا .

(١) الأوانى المستطرفة: عدة أنابيب مختلفة الأحجام والأشكال، متصل بعضها ببعض بأنبوبة أفقية، فإذا وضع سائل فى إحدى هذه الأنابيب ارتفع سطح السائل إلى مستوى أعلى واحد . [المعجم الوسيط].

والدليل على ذلك أن القوى فينا يصير إلى ضعف ، والغنى منا قد يصيبه الفقر ؛ حتى لا نفهم أن هذه الصفات ذاتية فينا ، وأن الحق سبحانه وتعالى قد أعطانا من صفاته قدرة لفعل .

ومن أعطاه الله تعالى قدرة ليفعل ؛ عليه أن يلاحظ أنه انتفع بفعل من سبقه ، فإن أكل اليوم تمراً - على سبيل المثال - فعليه أن يتذكر أن الذي زرع له النخلة "هو من سبقه" ، فليزرع من يأكل البلح الآن نخلة لتفيده بعد سبع سنين - وهو الزمن اللازم لتطرح النخلة بلحاً- وليستفيد بها من يأتي من بعده .

ويقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان صالح عليه السلام لقومه «ثمود» في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ .. فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ (٦٦) [هود]

فإن استغفر الإنسان ، فالحق سبحانه قريب من كل عبد يستغفر عن ذنوب لا تمثل حقوقاً للناس ، والله سبحانه وتعالى يجيب لطالب المغفرة (٦٧) .

فماذا كان الرد من قوم ثمود ؟

يقول الحق عز وجل ما جاء على ألسنتهم :

(١) النخل شجر الرطب والتمر والبلح ، واحده نخلة . وجمع النخلة نخيل قال تعالى : ﴿ وَهَزَيْنَا إِلَيْكَ بِجَذَعِ النَّخْلَةِ نَسَافُطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَبِيًّا ﴾ (٦٨) [مريم] وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ (٦٩) [الأنعام] وقال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ لَكُم مِّنْ جَنَّةٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ .. ﴾ (٧٠) [البقرة] .

(٢) عن أنس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله : «يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي ، يا بن آدم لو أبتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرباها مغفرة» . أخرجه الترمذي في سننه (٣٥٤٠) وقال : «حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه» وقد أخرجه أحمد في مسنده (١٥٤ / ٥) والدارمي في سننه (٣٢٢ / ٢) من حديث أبي ذر الغفاري .

﴿ قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ  
تُعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾<sup>(١)</sup>

كانوا ينظرون إلى صالح - عليه السلام - بتقدير ورجاء قبل أن يدعواهم  
لعبادة الله تعالى وحده ، ولا إله غيره .

والمرجوه هو الإنسان المؤمل فيه الخير ، ذكاء ، وطموحاً ، وأمانة ، وأية  
خصلة من الخصال التي تبشر بأن له مستقبلاً حسناً .

ولكن ما إن دعاهم صالح - عليه السلام - إلى عبادة الله سبحانه وتعالى  
أعلنوا أنه - بتلك الدعوة - إنما يفسد رجاءهم فيه وما كانوا يأملونه فيه .

وقد أوضح لهم صالح - عليه السلام - ما أوضحه الرسل من قبله ومن  
بعده ، أن اتخاذ الأصنام أو الأشجار أو الشمس آلهة تُعبد هو أمر  
خاطيء ؛ لأن العبادة تقتضي أوامر ونواهي ينزل بها منهج ؛ يتبعه من  
يعبدون ، وتلك الكائنات المعبودة لا منهج لها ، ولا عبادة دون منهج .

وأضاف قوم ثمود :

﴿ .. وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾<sup>(٢)</sup> [هود]

(١) الرجاء : الأمل المتوقع قريباً . وقوله تعالى : ﴿ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا .. ﴾<sup>(١)</sup> [هود] أي : كنا  
نرجو أن تكون فينا سبباً . [مختصر تفسير الطبري] و [القاموس القويم] .

قيل : كان صالح يصيب آلهتهم ويشنؤها ، وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم ، فلما دعاهم إلى الله قالوا  
انقطع رجلاؤنا منك . انظر القرطبي (٤ / ٣٣٧٧) .

(٢) أوله : أوصله إلى الشك وأدخل الشك في نفسه ، واسم الفاعل : مرِب . وقوله تعالى : ﴿ .. وَإِنَّهُمْ لَفِي  
شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾<sup>(١)</sup> [هود] على سبيل التوكيد ، أي : في شك موصل إلى شك . وكذلك قوله تعالى  
على لسان قوم ثمود : ﴿ .. وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾<sup>(٢)</sup> [هود] . ولرب الرجل فهو  
مرِيب : صار موضع ريبة وشك لا يطمئن إليه الناس . قال تعالى : ﴿ مَتَاعٌ لِلْغَيْرِ يُعْتَدُ مُرِيبٍ ﴾<sup>(٣)</sup> [ق] .  
[القاموس القويم] .

والشك هو استواء الطرفين: التقى والإثبات.

إذن: فهم ليسوا على يقين أن عبادتهم لما عبد آباؤهم هي عبادة صادقة ، ودعوة صالح عليه السلام لهم جعلتهم يترددون في أمر تلك العبادة ؛ وهذا يظهر أن خصال الخير في صالح عليه السلام جعلتهم يترددون في أمر عبادتهم <sup>(١)</sup>.

ويقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان صالح عليه السلام لثمود:

﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَدَيْكُمْ مِنْ رَبِّي وَءَاتَيْتُكُمْ مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ١٦٣ ﴾

(١) وأيضاً فإنهم في شك من دعوة صالح عليه السلام إلى عبادة إله واحد، فخطابهم هنا موجه لصالح (عما تدعوننا) أي: يا صالح. كانت ثمود بعد عاد، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام، وأرسل إليهما أنصرهم صالح يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فسألوا صالحاً أن يأتيهم بآية واقترحوا عليه أن يخرج لهم من صخرة صماء صهباً بأنفسهم، وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر يقال لها الكتابة فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة عسراء مخض، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم ليؤمنن به وليتبعنه، فقام إلى صلاته ودعا الله عز وجل فتحركت الصخرة وانشقت عن ناقة يتحرك جنيها بين جنيها وكانت الناقة تشرب من البئر يوماً وتتركه لهم يوماً وكانوا يشربون من حلبها ويملأون ما يشامون من أوعيتهم، ولكن تسعة نفر اتفقوا على قتلها، فعقروها، فنزل بهم عقاب الله بعد ثلاثة أيام. [تفسير ابن كثير ٢/ ٢٢٧ - ٢٢٩] باختصار شديد.

(٢) أرايتم: أي: أخبروني. [كلمات القرآن].

(٣) بينة: يقين وبرهان وبصيرة. [كلمات القرآن للشيخ حسين محمد مخلوف]. وهي الحجة الواضحة الموضحة للحق التي تجعل الحق ظاهراً للعيان.

(٤) رحمة: أي: نبوة. [تفسير الجلالين]. وقد سبق قول نوح عليه السلام: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَدَيْكُمْ مِنْ رَبِّي وَءَاتَيْتُكُمْ مِنْهُ رَحْمَةً مِنْ رَبِّي ٢٥ ﴾ [هود] قال القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣٤٣): «أي: نبوة ورسالة. عن ابن عباس، وهي رحمة على الخلق. وقيل: الهداية إلى الله بالبراهين. وقيل: الإيمان والإسلام».

(٥) خسره: جملة يخسر، وخسره تخسيرا: أبعد عن الخير، وأهلكه. وقوله تعالى: ﴿ .. فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ١٦٣ ﴾ [هود] أي: غير إبعاد عن الخير، أو غير إهلاك بعذاب الله [القاموس القويم] وجاء في تفسير الجلالين: (غير تخسيرا) أي: غير تضليل. وجاء في مختصر تفسير الطبري ﴿ .. فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ١٦٣ ﴾ يقول: ما تزدادون أنتم إلا خساراً، يخسركم حظركم من رحمة الله عز وجل.

وكان صالحاً قد ارتضاهم حكماً فقال: أخبروني إذا كنت أنا على بينة من ربي ويقين بأنه أرسلني وأيدني ، وأنا إن خدعت الناس جميعاً فلن أخدع نفسي ، فهل أترك ما أكرمني به ربي وأنزل إليّ منهجاً أدعوكم إليه ؟ هل أترك ذلك وأستمع لكلامكم ؟ هل أترك يقيني بأنه أرسلني بهذه الرسالة ﴿ وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً ۖ ۝٦٣ ﴾ وهي النبوة ؟

﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ۖ ۝٦٣ ﴾ [هود]

وساعة يستفهم إنسان عن شيء في مثل هذا الموقف فهو لا يستفهم إلا عن شيء يثق أن الإجابة ستكون بما يرضيه .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان صالح عليه السلام:

﴿ .. فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ۝٦٤ ﴾ [هود]

ونحن نعلم أن الخسارة ضد المكسب ، ومعنى الخسارة أن يقل رأس المال . فهل التخصير واقع منه عليهم أم واقع منهم عليه ؟

إن ثراء الأسلوب القرآني هنا يوضح لنا هذه المعاني كلها ، فإن أطاعهم صالح - عليه السلام - وعصى ربه ، فهو قد أزداد في خسارته ، أو أنه ينسبهم إلى الخسران أكثر ، لأنهم غير مهدين ، ويريدون له أن يضل ويتبع ما يعبدون من دون الله تعالى .

إذن: فالتخصير إما أن يكون واقعاً عليهم من صالح - عليه السلام - وإما أن يكون واقعاً منهم على صالح .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك على لسان صالح عليه السلام:



وَيَنْقُورِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا  
تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ  
عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾

وكان قوم صالح قد طلبوا آية ، فقالوا له : إن كنت نبياً فأخرج لنا ناقة  
من تلك الصخرة ، وأشاروا إلى صخرة<sup>(١)</sup> ما ، وهم قوم كانوا نابغين في  
نحت بيوتهم في الجبال . ومن يزُرُ المنطقة الواقعة بين الشام والمدينة ، يمكنه  
أن يشاهد مدائن صالح ، وهي منحوتة في الجبال .

وقد قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴾<sup>(٦٤)</sup> [الشعراء]

- (١) الناقة : أنثى الجمل ، ونسبت ناقة صالح لله ، لأنها ناقة فقراء الله تسفيهم لبنها ، أو لأنها منذورة لله وإن  
الله حاميتها وراعيها ، أو لأنها ناقة رسول الله ، ونسبت لله تشريفاً لها . [القاموس القويم] .
- (٢) آية : معجزة دالة على صدق نبوة صالح عليه السلام . [كلمات القرآن] .
- (٣) ذروها : دعوها أو اتركوها . وهذا الفعل لم يستعمل منه إلا المضارع والأمر ، فمن المضارع قوله تعالى :  
﴿ أَنْذَرُ مَرْسًى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ .. ﴾<sup>(٦٢)</sup> [الأعراف] وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَا تَنْزِلُنَا الْهَيْكُمُ .. ﴾<sup>(٦٣)</sup>  
[نوح] أي : لا تتركنا الهَيْكُم . ومن الأمر قوله تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾<sup>(٦٤)</sup> [الدثر]  
أي : اتركني أنتقم منه وأعاقبه على جرأته ضد الدين والقرآن ، وهو أسلوب تهديد ووعيد . وقوله  
تعالى : ﴿ .. فَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾<sup>(٥٥)</sup> [التوبة] أي : اتركننا . [القاموس القويم] بتصرف .
- وجاء في مختصر تفسير الطبري : ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ .. ﴾<sup>(٦٤)</sup> [هود] أي : اتركوها تأكل من  
أرض الله ، ليس عليكم رزقها ولا مؤنتها .
- (٤) ﴿ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ .. ﴾<sup>(٦٤)</sup> أي : لا تقتلوا ولا تنالوها بعقر . [مختصر تفسير الطبري] .
- (٥) قال القرطبي في تفسيره (٣٣٧٨ / ٤) : قيل : أخرجها من صخرة صماء منفردة في ناحية الحجر يقال  
لها : الكائنة .
- (٦) قرة : أشرف ويطر فهو قرة ، وفرة فراحة وفروحة : حلق ومهر ونشط وخف فهو قارة . وقرى بهما قوله  
تعالى : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴾<sup>(٦٤)</sup> [الشعراء] أي : حاذقين نشطين ، وقرى (فارهين)  
أي : بطرين أشيرين . [القاموس القويم] .

هم - إذن - قد حددوا الآية ، وهي خروج ناقة من صخرة أشاروا إليها ، فخرجت الناقة وهي حامل .

وبعد أن وجدت الناقة على وفق ما طلبوها لم يطبقوا أن يعلنوا التصديق ، وقد قال لهم صالح عليه السلام :

﴿ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ .. ﴾ (٦٤)

[هود]

وساعة تسمع شيئاً مضافاً إلى الله تعالى ، فاعلم أن له عظمة بعظمة المضاف إليه .

مثلما نقول : «بيت الله» ، وهذا القول إن أطلق فالمقصود به الكعبة المشرفة ، وإن حددنا موقعاً وقلنا عنه : «بيت الله» فنحن نبنى عليه مسجداً ، وتكون أرضه قد حُكِرَتْ لتكون مُصَلًى ، ولا يُزاوَك فيها أى عمل آخر .

هكذا تكون الكعبة هي بيت الله باختيار الله تعالى ، وتكون هناك مساجد أخرى هي بيوت لله باختيار خلق الله .

ولذلك فبيت الله - باختيار الله - هو قبلة لبيوت الله باختيار خلق الله .

إذن : فإن أضيف شيء لله تعالى ، فهو يأخذ عظمة الحق سبحانه وتعالى ، وقد قال لهم صالح : ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ .. ﴾ (٦٤) وهي ليست ناقة زيد أو ناقة عمرو .

ولم يلتفت قوم صالح إلى ما قاله صالح عليه السلام ، ولم يلحظوا أن الشيء المنسوب لله تعالى له عظمة من المضاف إليه .

ومثال ذلك : ابن أبي لهب<sup>(١)</sup> ، وكان قد تزوج ابنة لرسول الله ﷺ وحين اشتد عناد أبي لهب للرسول ﷺ ، قال أبو لهب لابنته : طلق بنت

(١) قيل في اسمه ثلاثة أقوال : لهب ، عتبة ، عتيبة . ذكرها البيهقي في دلائل النبوة (٢/٣٣٨) وقال أيضاً : كانت أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ تحت عتيبة بن أبي لهب ، وكانت رقية تحت أخيه عتبة بن أبي لهب .

محمد ، فطلقها ، وفعل فعلاً يدل على الازدراء <sup>(١)</sup> ، فدعا عليه رسول الله ﷺ وقال : «أما إني أسأل الله أن يسلط عليه كلبه <sup>(٢)</sup>» .

فقال أبو لهب : إني لأتوجس شراً من دعوة محمد .

ثم سافر ابن أبي لهب مع بعض قومه في رحلة ، وكانوا إذا ناموا طلب أبو لهب مكاناً في وسط رحال الركب كله خوفاً على ابنه من دعوة رسول الله ﷺ ، وإذا بأسد يقفز من الرحال ويأكل الولد ، فهنا نسب رسول الله ﷺ الأمر إلى الله فقال : «أكلك كلب من كلاب الله» فكان كلب الله أسداً .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يوضح لهم صالح عليه السلام : هذه الناقة هي الآية التي طلبتموها وقد جاءت من الصخر .

وكان يقدر أن يأتي لهم بالجنس الأرقى من الجماد ، وهو النبات ، ولكن الحق سبحانه استجاب للآية التي طلبوها وهي من جنس الحيوان .

ونحن نعلم أن الكائنات الأرضية إما أن تكون جماداً ، وإما أن يأخذ الجماد صفة النمو فيصير نباتاً ، وإما أن يأخذ صفة الحس والحركة فيصير حيواناً ، وإما أن يأخذ صفة الحس والحركة والفكر فيصير إنساناً .

(١) وذلك أنه لما أنزل الله عز وجل (تبت يدا أبي لهب) قال أبو لهب لابنه عتية وعتبة : رأسى ورؤوسكما حرام إن لم تطلقا ابنتي محمد ، وسأل النبي ﷺ عتبة طلاق رقية ، وسأته رقية ذلك وقالت له أم كلثوم بنت حرب بن أمية - وهي حمالة الحطب : طلقها يا بني فإنها قد صبت فطلقها . وطلق عتية أم كلثوم ، وجاء النبي ﷺ حين فارق أم كلثوم فقال : كفرت بدينك ، وفارقت ابتك ، لا تحبني ولا أحبك ، ثم تسلط على رسول الله ﷺ فشق قميصه ، فقال ﷺ : «أما إني أسأل الله أن يسلط عليه كلبه» . دلالة النبوة للبيهقي (٢/ ٣٣٨، ٣٣٩) ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٩) وعزاه الطبراني مرسلاً وقال : فيه زهير بن العلاء وهو ضعيف ، وقد أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/ ٥٣٩) من حديث أبي هريرة وصححه . وحسنه ابن حجر في الفتح (٤/ ٣٩) .

(٢) الكلب : كل سبع عقور ، ومنه الأسد . قال ابن سيده : غلب الكلب على هذا النوع النابح . وقد يكون التكلب وانما على الفهد وسباع الطير . وفي التنزيل العزيز : ﴿ وما علمتم من الجوارح مكلبين ﴾ [المائدة] ، فقد دخل في هذا : الفهد ، والبازي ، والصقر ، والشاهين ، وجميع أنواع الجوارح [انظر : اللسان مادة : كلب] وانظر فتح الباري (٤/ ٣٩) .

وكان من الممكن أن يأتي لهم صالح عليه السلام بشجرة من الصخر ، وهذا أمر فيه إعجاز أيضاً ، ولكن الحق سبحانه أرسل الآية كما طلبوها ؛ ناقة من جنس الحيوان ، وحامل في الوقت نفسه .

وطالبهم صالح عليه السلام أن يحافظوا عليها ؛ لأنها معجزة ، عليهم ألا يتعرضوا لها . وقال لهم :

﴿ .. فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ (٦٤) [هود]

وهكذا وعظهم ، وطلب منهم أن يتركوها تأكل في أرض الله ، وإن مسّوها "بسوء" ولم يأخذهم عذاب ، فمن آمن به لا بد أن يكفر .

إذن : فلا بد أن يأتي العذاب القريب إن هم مسّوها .

وهم قد مسّوها بالفعل ، وهو ما تبينه الآية الكريمة التالية :

﴿ فَمَقَرُّوهَا فَقَالَ لَمُتُّوهُنَّ فِي دَارِكُمْ ﴾

ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ (٦٥)

(١) المس : الجنون على تخيل أن الجن مسّه كقوله تعالى : ﴿ كما يقول الذي يتخبطه الشيطان من المس .. ﴾ (٢٢٥) [البقرة] أى : المصروع الذى لا يعي مسه وماسه عاسة أو مساساً مس كل منها الآخر مفاعلة من الجنائين وتمام الزوجان تلاقت بشراتهما ومن جلد كل منهما جلد الآخر ، ومسّه من باب فرح مسّاً أجرى يده عليه من غير حائل ومسّه النار أصابته ومسّه المرض : أصابه على إعجاز ، وقوله تعالى : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ (٧٣) [الواقعة] أى : لا يمسه بالمصحف إلا الطاهرون من الحدث الأكبر . [القاموس القويم بتصرف ص ٢٢٦ ح ٢] .

(٢) المقر : أصل كل شيء ، وعقرته : أصبت عقره ، كقوله تعالى : ﴿ فَمَقَرُّوهَا .. ﴾ (٦٤) [هود] أى : أصابوها إصابة قاتلة ، أى : نحروها . [القاموس القويم] .

(٣) تمتع واستمتع بمعنى واحد . ومتع بالشيء : انتفع به . والمتاع : مصبر يسمى به الشيء المنتفع به ، والمتاع كل ما ينتفع به من طعام وأثاث وأداة وسال . وقال تعالى : ﴿ ذَرُوهُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْرَبُوا وَيَنسَوْنَ أَلَمَهُمْ فَأَنسَوْنَ ﴾ (٢٧) [الحجر] وقال تعالى : ﴿ .. وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَغْرَى لَهُمْ ﴾ (٥٤) [محمد] . [القاموس القويم] بتصرف .

(٤) وعد غير مكذوب : أى : وعد صادق واقع لا محالة ؛ وهو من قبيل تأكيد الشيء بنفى نقيضه .

وجلسوا في منازلهم ثلاثة أيام<sup>(١)</sup> ثم جاءهم العذاب .

ولقائل أن يقول : ولم الإمهال بثلاثة أيام ؟

ونقول : إن العذاب إذا جاء فالألم الحسى ينقطع من المعذب ، ويشاء الله تعالى أن يعيشوا في ذلك الألم طوال تلك المدة حتى يتألموا حسياً ، وكل يوم يمر عليهم تزداد آلامهم من قرب الوعيد الذى قال فيه الله تعالى :

﴿...وَعَدُّ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥)﴾ [هود]

الحق سبحانه هو الذى يعدُّ ، وهو القادر على إنفاذ الوعد ، ولا تقوم قوة أمامه ؛ لذلك فهو وعد صادق غير مكذوب .

على عكس الإنسان منا حين يعدُّ بشيء ، فمن الممكن أن يأتى وقت تنفيذ الوعد ولا يستطيع .

لذلك يقول لنا الحق سبحانه :

﴿وَلَا تَقُولَنَّ بَشَيْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٦٦) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ .. (٦٧)﴾

[الكهف]

لأنك إن قلت : «أفعل ذلك غداً» ، وتعد إنساناً بلقائه لكذا وكذا ؛ فقل : «إن شاء الله» ؛ لأن الله تعالى لا يمنع ترتيب أمور لزمن يأتى ، وإنما يجب أن يردف من يرتب الأمور «بمشيئة القوى القادر» حتى إذا لم ينجز ما وعد به ؛ يكون قد خرج عن الكذب ، لأن الله تعالى لم يشأ ، لأن الإنسان إذا وعد ، فهو لا يعتمد على إرادته ، ولكن مشيئة الله تعالى تعلو كل شيء .

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (٣٣٧٩/٤) أن عقربها كان يوم الأربعاء ، فقاموا يوم الخميس والجمعة والسبت . وأتاهم العذاب يوم الأحد . وإنما قاموا ثلاثة أيام ، لأن الفصل رُحاً ثلاثاً ، فاصفرت ألوانهم في اليوم الأول ، ثم احمرت في الثانى ، ثم اسودت في الثالث . وهلكوا في الرابع . وانظر تفسير ابن كثير (٢٢٩/٢) .

والفعل - كما نعلم - يقتضى فاعلاً ، ومفعولاً ، وزمناً ، وسبباً دافعاً ، وقدرة تمكّن الإنسان من الفعل ، فهل يملك أحدٌ شيئاً من كل هذا ؟

إن الإنسان لا يملك نفسه أن يعيش إلى الغد ، ولا يملك من بعده أن يوجد غداً حتى يلقاه ، ولا يملك أن يظل السبب سبباً للقاء ؛ فربما انتهى السبب ، ولا يملك حين تجتمع الأسباب كلها أن توجد له قدرة وقوة على إنفاذ السبب .

إذن : فإذا قال : « أفعل ذلك غداً مع فلان » ؛ يكون قد جازف وتكلم فى شيء لا يملك عنصراً واحداً من عناصره ، فقل : « إن شاء الله » ، أى : أنك تستعين بمشيئة من يملك كل هذه العناصر .

ويعطى الحق سبحانه فى كل لقطة إيمانية من اللقطات ، قدرته على خلقه فهو سبحانه القائل :

﴿ فَعَقَرُوهَا <sup>(١)</sup> فَقَالَ تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) ﴾ [هود]

وقوله : ﴿ فِي دَارِكُمْ ﴾ لأن من هؤلاء الذين كفروا قوماً فى مكان يختلف عن مكان آخر يوجد به أيضاً قوم كفرون ، ومنهم المسافر ، ومنهم العائد من سفر ، فتبعضهم العذاب حيثما كانوا ، فلم ينزل على مكان واحد ، إنما نزل على المكين منهم فى أى مكان .

(١) المعقر : أصل كل شيء . وعقرته - من باب نصر : أصبهم عقره كقوله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ .. (٧٧) ﴾ [الأعراف] أصابوها إصابة قاتلة ، أى : نحروها . وعقرت المرأة : أصيبت بالمعقم ، فهي لا تلد فهي عاقرة . قال تعالى : ﴿ وَكَانَتْ أُمَّرَأَتِي عَاقِراً .. (٥) ﴾ [مريم] .

ولم يَنْجُ من هذه المسألة إلا واحد اسمه «أبو رغال»<sup>(١)</sup>، وكان يحج إلى بيت الله ، فلم يتبعه عذابه في بيت الله ؛ لأن الله سبحانه طلب منا نحن عباده أن نؤمن من دخل بيته ، فهو سبحانه وتعالى أولى بأن يؤمن من دخل البيت الحرام<sup>(٢)</sup> ، وظل الحجر الذي سيُضرب به ، أو الصيحة التي كان عليها أن تأخذه ، ظلت إلى أن خرج من الحرم فوقعت عليه .. وعمَّ العذابُ الكافرين من قوم صالح ، وتبع من في الديار إلا هذا الرجل ، وما إن خرج من البيت الحرام حتى وقع عليه العذاب<sup>(٣)</sup> .

ولذلك كان قاتل الأب أو الإنسان الذي عليه دم نتيجة أنه ارتكب جريمة قتل ، إذا ما دخل البيت الحرام فهو يؤمن إلى أن يخرج ، وكانوا يُضيقون عليه ، فلا يطعمه أحد ، ولا يسقيه أحد ليضطر إلى الخروج ، فيتم القصاص منه بعد خروجه من البيت الحرام ، ولتظل حرمة البيت الحرام مُصانة .

ونحن نعلم أن الحق سبحانه أراد من تحريم القتال في البيت الحرام ، صيانة وتكريماً للكرامة الإنسانية .

(١) عن جابر بن عبد الله قال : لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال : « لا تسألوا الآيات فقد سألتها قوم صالح فكانت - يعني : الناقة - ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج ، فاعتروا عن أمر ربهم فعقروها وكانت تشرب ماعهم يوماً ويشربون لبنها يوماً فعقروها فأخذتهم صيحة أممدها بها من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله ، فقالوا : من هو يا رسول الله ؟ قال : أبو رغال . فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه » أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٦/٣) والحاكم في مستدركه (٥٦٧، ٣٢٠/٢) وصححه إسناده . قال الهيثمي (٥٠/٧) : رجال أحمد رجال الصحيح ، قلت : هم أيضاً رجال إسناده الأول .

(٢) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ نَبِيٍّ وَضِعَ لِنَفْسٍ لِلَّذِي بَنَى مَارْكَأَ وَهَدَى لِقَاعَيْنِ (٤٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .. (٤٧) ﴾ [آل عمران] أي : يكون آمناً مطمئناً لا يخاف على نفسه أو ماله ، ولذلك قال تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَرَمِهِمْ .. (٤٨) ﴾ [العنكبوت] .

(٣) ذكر ابن كثير في تفسيره (٢٢٩/٢) أن جارية كانت مقعدة واسمها كلبية ابنة السلق ويقال لها : النريمعة . وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه السلام ، فلما رأت ما رأت من العذاب أطلعت رجلاها ، فقامت تسمى كاسرع من شيء ، فأتت حياً من الأحياء فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها ثم استشفقتهم من الماء فلما شربت ماتت .

ونحن نعلم أيضاً أن كل حدث من الأحداث يقتضى زماناً ، ويقتضى مكاناً .  
 وكان العرب دائمى الغارات على بعضهم البعض ، فأراد الحق سبحانه  
 أن يوجد مكان يحرم فيه القتال ؛ فخصَّ البيت الحرام بذلك ، وأراد  
 سبحانه أن يوجد زمان يحرم فيه القتال ؛ فكانت الأشهر الحرم ؛ لأن  
 الحرب قد تكون سجالاً<sup>(١)</sup> بين الناس وتوقف فيهم الحمية والألفة<sup>(٢)</sup> والعزة .  
 وكل واحد منهم يحب فى ذاته أن يتهى من الحرب ، ولكنه لا يحب أن  
 يجبن أمام الناس ، فأراد الحق سبحانه أن يجعل لهم شيئاً يتوارون فيه من  
 الزمان ومن المكان ، فحرم القتال فى الأشهر الحرم .  
 وما إن تأتى الأشهر الحرم حتى يعلن المقاتل من هؤلاء : لولا الأشهر  
 الحرم لكنت قد أنزلت بخصمى الهزيمة الساحقة ، وهو يقول ذلك ليدارى  
 كبريائه ؛ لأنه فى أعماقه يتمنى انتهاء الحرب .  
 وكذلك حين يدخل مقاتل إلى البيت الحرام ، هنا يقول مَنْ كان يحاربه :  
 لو لم يدخل الحرم ؛ لأذقته عذاب الهزيمة .  
 وبمضى الزمان وبالمكث فى المكان ينعم الناس بالأمن والسلام ، وربما  
 عشقوه فانتهاوا من الحرب .  
 ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَجَّيْنَا صُلْحَ الَّذِينَ ءَامَنُوا  
 مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيٍ يُومِذُونَ رَبُّكَ  
 هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾

(١) الحرب بينهم سجال : أى : نصرتها بينهم متداولة ، مرة لهم ، وأخرى عليهم . [المعجم الوسيط]  
 بتصرف .  
 (٢) الألفة : العزة والحمية والكرامة . [المعجم الوسيط] بتصرف .



## سُورَةُ هُودٍ

٦٥٤٣

فحين شاء الحق أن يُنزل العذاب بشمود ، بعد مُضى المدة التى أنذروا بنزول العذاب بعدها ، نجى الحق صالحاً عليه السلام والذين آمنوا برسالته من الهلاك ، فحفظتهم رحمة الله ؛ لأنهم آمنوا بما نزل على صالح من منهج ، ولم يُعانِ المؤمنون برسالة صالح ما عانى منه قوم ثمود من الذل والفضيحة .  
هذا الذل وتلك الفضيحة التى حاقت "بشمود" .

ويذيل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ .. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) ﴾ [هود]

هذا خطاب لمحمد ﷺ تسليية وتسرية عنه وتقوية لعزمه ، فالحق سبحانه مقتدر يأخذ كل كافر ، ولا يغلبه أحد ولا يعجزه شيء ، وفى هذا إنذار لمن كفروا برسالة رسول الله ﷺ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمِينَ (٦٧) ﴾

ويسمى الحق سبحانه هنا العذاب الذى نزل على ثمود «الصيحة» وسمّاه فى موضع آخر «الطاغية» :

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَمْلَكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) ﴾ [الحاقة]

وسمّاه فى موضع آخر «صاعقة» فقال سبحانه :

(١) حاق به الشيء أو العذاب يحيق حيقاً : نزل به وأصابه وأحاط به . قال تعالى : ﴿ وَلَا يَحِقُّ الْمُكْرَ السَّيِّئُ إِلَّا بِالْعَدْلِ .. (١٦) ﴾ [فاطر] .

(٢) جثم جثوماً : لزم مكانه لاصقاً بالأرض . قال تعالى : ﴿ .. فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمِينَ (٦٧) ﴾ [هود] .  
كتابة عن موتهم بحالتهم ، فهم هامدون لاصقون بالأرض . [القاموس القويم] .

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ (١٣)

[فصلت]

وفي سورة الأعراف سمّاه «الرجفة» ، وكل من الصاعقة والصيحة والرجفة <sup>(١)</sup> تؤدي معنى الحدث الذي يَدْهَمُ <sup>(٢)</sup> ، ولا يمكن الفكاك منه .

ولقائل أن يقول : لماذا لم يقل الحق سبحانه هنا : «وأخذت الذين ظلموا الصيحة ؟» لماذا اختفت تاء التانيث من الفعل ، وقال سبحانه :

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ .. ﴾ (٦٧) ؟ [هود]

ونقول : إن الذي يتكلم هنا هو رب العباد سبحانه ، ولا يصح أن نفهم الصيحة على أنها جاءت لتعبر عن صيحة واحدة ، فتاء التانيث تعبر عن الصيحة لمرة واحدة ، أما إذا تكررت وصارت صياحاً كثيراً تأخذهم كل صيحة من الصياح .

وهنا نلمح أن الصيحة فيها ضعف الأنوثة ، أما الصياح ففيه عزيمة وقوة الرجولة ، فأراد الحق سبحانه أن يجمع الأمرين ، فقال : «أخذ» ولم يقل : «أخذت» .

ثم قال سبحانه :

﴿ .. فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ ﴾ (٦٧) [هود]

أي : مُلقون على رُكَبِهِمْ وعلى جباههم بلا حركة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) رجف يرجف رجفاً ورجفاناً : تحرك واضطرب بشدة . قال تعالى : ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ..﴾ (١١٤) [الزمل] والرجفة : اسم مرة من الرجف . قال تعالى : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ..﴾ (٧٥) [الأعراف] [القاموس القويم] .

(٢) دَهَمَ أمر دهماً : فجأه وفشبه . ودعاه الفوم : جاءوه مجتمعين مرة واحدة . وأدهمه : ساءه وأرغمه . والدَّهَمُ : العدد الكثير . وجيش دَهَمَ : كثير . [المعجم الوسيط] .

﴿كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا<sup>(١)</sup> إِلَّا إِنْ شَعُودًا كَفَرُوا وَارْتَبَهُمُ الْآبَعْدُ

لِشُعُودَ ﴿٦٨﴾

ومادة «غنى»<sup>(١)</sup> .. «غنى» ، أو «غناء» كلها متساوية ؛ لأن الغناء هو الوجود ؛ وجود شيء يُغْنِي عن شيء ، فالغنى هو وجود مال يغنيك عن غيرك ، والغناء هو ما نسمعه من المُغَنِّين ، والأغنية التي يعجب الإنسان من كلماتها ولحنها ، فهو يقيم معها إقامة تطرد ما سواها عما سمع من الكلام على كثرة ما سمع أو قرأ ، والغناء هو للإقامة .

والحق سبحانه يقول :

﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا<sup>(٢)</sup> كَانَ لَمْ تَغْنِ<sup>(٣)</sup> بِالْأَمْسِ .. ﴿٦٨﴾﴾

[يونس]

أى : كأنها لم توجد من قبل .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا .. ﴿٦٨﴾﴾

[هود]

(١) غنى القوم فى ديارهم : طال مقامهم فيها . قال تعالى : ﴿فَاصْبِرُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ<sup>(١)</sup> كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا .. ﴿٦٨﴾﴾ [هود] . [القاموس القويم] .

(٢) غنى يغنى غناء وغنى : كثر ماله ، فهو غان وغنى . والغنى : من أسماء الله الحسنى . قال تعالى : ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ .. ﴿١٣٢﴾﴾ [الأنعام] . [القاموس القويم] .

(٣) حصد الزرع بحصده حصداً وحصاداً : قطعه عند نضجه . ويستعمل الحصد مجازاً بمعنى الإهلاك والإبادة . قال تعالى : ﴿.. حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ<sup>(١)</sup>﴾ [الأنبياء] أى : جعلناهم كالزرع للحصود ، أى : أهلكناهم . وقال تعالى : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَى نَقَصْنَا عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ<sup>(٢)</sup>﴾ [هود] . أى : منها باق ، ومنها هالك . [القاموس القويم] .

(٤) غنيت الدار بأهلها : عمرت بهم ، قال تعالى : ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَانَ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ .. ﴿٦٨﴾﴾ [يونس] أى : كأنها لم تعمر . [القاموس القويم ٦١ / ٢] .

أى: لم يقيموا فيها ، لأنها صارت حصيداً.

ثم يقول الحق سبحانه فى نفس الآية: ﴿ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ .. (٦٨) ﴾ ، وهذه هى حيثية العذاب الذى نزل بهم .

وعادة ما تتعدى كلمة «كفر» بالباء ، ويقال: كفروا بربهم ، ولكن الحق سبحانه يقول هنا:

﴿ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ .. (٦٨) ﴾ [هود]

والفارق كبير بين المعنيين ، فمعنى «كفروا ربهم» أى: ستروا وجوده ، فلا وجود له ، ولكن معنى «كفروا بربهم» هو اعتراف بالله الموجود ، لكنهم لم يؤمنوا به .

وقول الحق سبحانه: «كفروا ربهم» يرد على الملاحدة الذين لا يقرون بوجود الله ، لأن ذنب إنكار وجود الله ليس بعده ذنب ، ولا يوجد ما هو أكبر منه فى الذنوب .

لذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ .. أَلَا بَعْدَ لَثَمُودَ (٦٨) ﴾ [هود]

أى: أنهم يستحقون ما وقع عليهم من إهلاك وطرده من رحمة الله ، ولن يعطف عليهم أحد لضخامة ذنبهم .

ويأتى الحق سبحانه فى الآية التالية بقصة جديدة من قصص الأنبياء ، وهى جزء من قصة أبى الأنبياء إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، يقول سبحانه:

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِىِّ<sup>(١)</sup> قَالُوا  
سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لِيَتْ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ خَنِيذٍ<sup>(٢)</sup>﴾

وكلمة «رسل» جمع «رسول» ، والرسول هو المرسل من جهة إلى جهة ، وأى إنسان تبعته إلى جهة ما ؛ اسمه رسول ، ولكن المعنى الشرعى للرسول : أن يكون مُرسلاً من الله .

ويقول الحق سبحانه :

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي<sup>(٣)</sup> مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ .. (٧٥)﴾ [الحج]

واصطفاه الملائكة كرسول لتيسير التلقى عن الخالق سبحانه ؛ لأن القوة التى تتلقى عن الخالق سبحانه وتعالى لا بد أن تكون قوة عالية ، والإنسان منا لا يقدر على أن يتلقى مباشرة عن الحق سبحانه .

لذلك يأتى لنا الله جلَّ علاه بالرسول ، فيصطفى من الملائكة المخصوصين القادرين على التلقى ليتزلوا على المصطفى من البشر القادر على حمل الرسالة .

(١) البشْرِى والبشارة : ما يعطى للبشر بالخبر السار . والبشْر : مصدر بمعنى البشارة والبشْرِى ، ويطلق كل منها على الخبر السار . وبشْره : أخبره بما يسره . قال تعالى : ﴿ قَالَ ابْشِرْ تَمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمِ الْبَشِيرُونَ (٥٤)﴾ [الحجر] .

(٢) ليث : أقام واستقر . وما ليث أن فعل كذا : ما قعد وما توانى ، أى : أسرع إلى فعله بغير أى توان . وقوله تعالى : ﴿ .. فَمَا لِيَتْ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ خَنِيذٍ (٦٦)﴾ [هود] أى : أسرع فأتى به ، وهو دليل العناية والحفاوة بالضيف . [القاموس القويم] .

(٣) حنذ اللحم يحنذه حنذاً : شواه على الحجارة ، فهو حنيد أى : مشوى . قال تعالى : ﴿ .. فَمَا لِيَتْ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ خَنِيذٍ (٦٦)﴾ [هود] ، ولحمه يكون أطيب من المسلووق والمطبوخ فى الماء . [القاموس القويم] .

(٤) اصطفاه : اختاره وأثره وفضله . قال تعالى : ﴿ .. يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى سَاءِ الْوَالَعِينَ (١٦)﴾ [آل عمران] أى : اختارك وفضلتك . وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ .. (٧٥)﴾ [الحج] أى : يختار الأفضل منهم لرسالاته . [القاموس القويم] بتصرف .

وهكذا نعلم أن الملائكة ليست كلها قادرة على التلقى من الله تعالى ،  
ولا كل البشر بقادرين على التلقى عن الله أو عن الملائكة .

وهذه الحلقات في الإبلاغ أرادها الحق سبحانه ، لتؤهل للضعيف أن  
يأخذ من الأقوى ؛ والبشر يلجأون إلى ذلك في حياتهم .

وسبق أن ضربت المثل ، بأننا أثناء الليل نطفىء نور المنزل ، لكننا نترك  
ضوءاً خافتاً يوضح لنا ملامح البيت ، فإن قمنا ليلاً من النوم ؛ لا نصطدم  
بمناجاة البيت ، فيتحطم ما نصطدم به إن كان أضعف منا ، أو نُصاب نحن إن  
اصطدمنا بما هو أقوى منا .

والنور الضعيف يتيح لنا أن نرى مكان مفتاح الضوء القوى .

وكذلك يفعل الله سبحانه وتعالى ، فيأتي بمصطفى من الملائكة ، يتلقى  
عن الحق سبحانه ويبلغ الملك من هؤلاء الرسول المصطفى من البشر .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا <sup>(١)</sup> أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ <sup>(٢)</sup> أَوْ يُرْسِلَ  
رَسُولًا <sup>(٣)</sup> فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ .. (٥١) ﴾ [الشورى]

وهنا يقول الحق سبحانه :

(١) الوحي : يطلق على الأمر الموحى به من إطلاق المصدر على المفعول به .

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ .. (٥٠) ﴾ [الأنبياء] أى : بالقرآن الذى أوحاه الله إلى . ويطلق  
الوحي على الملك الذى أرسله الله إلى الرسول ليبلغه ما أمر الله به ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ  
يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا .. (٥١) ﴾ [الشورى] أى : إلهاماً من الله ، وفدفاً وإلقاءً في قلب الرسول في سرعة  
وخطاء . [القاموس القويم ٢ / ٣٢٥] .

(٢) ﴿ أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ .. (٥١) ﴾ [الشورى] أى : فاصل بين الألوهية والبشرية ، وبطريقة لا يعلمها إلا الله  
تعالى . [القاموس القويم ٢ / ٣٢٥] .

(٣) ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا .. (٥١) ﴾ [الشورى] مثل جبريل عليه السلام ، فيوحى إلى الرسول بإذن من الله  
ما أمر الله به [القاموس القويم ٢ / ٣٢٥] .

[مود]

والبشرى هي الأخبار بشيء يسرُّ قبل أوان وقوعه ، وهي عكس الإنذار

وقبل أن يوضح الرسل لإبراهيم - عليه السلام - البشارة التي جاءوا من

﴿يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَنَا غَيْرَ يُؤْتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾<sup>(١)</sup>

[النور]

ولذلك يأتي الحق سبحانه هنا بما قالته الملائكة من قبل إبلاغ البشرى :

[هو]

وجاء سبحانه برّد إبراهيم عليه السلام:

[مؤد]

ونحن نلاحظ أن السلام جاء على أكتفهم بالنصب ، والرد بالسلام جاء

بالرفع ، وقولهم: ﴿سَلَامًا﴾ دل على فعل يوضح التجدد ، والرد جاء

بِكَلِمَةِ ﴿سَلَامٍ﴾ بِالرَّفْعِ؛ لِيَدُلَّ عَلَى الثَّبَاتِ وَالْإِصْرَارِ.

والحق سبحانه هو القاتل :

[النساء]

هكذا استقبل إبراهيم عليه السلام رسل الحق سبحانه.

ثم يقول الحق سبحانه :

(١) استأنس : ذهب توجّسه ، واستأنس به وإليه ، والهزرة والنمين والناء للطلب في الغالب . فقولهُ

أو حتى تستشعروا الأمن وتعلموه [القاموس القويم ١/ ٣٧].

[هود]

﴿ .. فَمَا لَبِثَ <sup>(٦٦)</sup> أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾

والعجل هو ولد البقر .

وهناك آيات كثيرة في القرآن تعرضت لقصة إبراهيم عليه السلام في أكثر من موضع من مواضع القرآن ، لا بقصد التكرار ، ولكن لأن كل لقطة في أى موضع هي لقطة مقصودة لها دلائلها وأسرارها ، فإذا جُمِعَت اللقطات فسوف تكتمل لك قصة إبراهيم عليه السلام في شمول متكامل .

وعلى سبيل المثال : يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ نُبَرِّئُ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴾ (٧٥) [الأنعام]

وفي موضع آخر يتعرض الحق سبحانه للتربية اليقينية التي أرادها لإبراهيم ، فيقول سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَنَّ <sup>(٧٦)</sup> عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ <sup>(٧٧)</sup> قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا <sup>(٧٧)</sup> قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ <sup>(٧٩)</sup> السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا <sup>(٨٠)</sup> وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٧٩) [الأنعام]

(٦) ما لبث أن جاء : أى : أسرع بإعداد الطعام وإحضاره لضيفه ، وهذا فيه دلالة قوية على الجود والكرم الذي اتصف به إبراهيم عليه السلام . [القاموس القويم] . ينصرف .

(٢) جَنَّ الشيء ، بجنه جناً : ستره ، ويتضمن الفعل معنى كلمة «أظلم» لأن الظلام يستر كل شيء . وجَنَّ الليل : أظلم . [القاموس القويم] .

(٣) أفَلَ : غاب وغرب تحت الأفق [كلمات القرآن] .

(٤) بازعاً : طالعاً من الأفق مشر الضوء . [كلمات القرآن] .

(٥) فطر الشيء : شقه . وفطر الله الخلق : خلقهم وبداهم فهو فاطر أى ابتداء خلق السموات والأرض . [القاموس القويم ٨٤ / ٢] .

(٦) حنيفاً : مائلاً من الباطل ، مستقيماً على الحق . [لسان العرب] .



إن هذه الآيات تبين وظيفة الحواس إدراكاً ، ووظيفة الوجدان انفعالاً ، ووظيفة الاختيار توحيداً وإذعاناً بيقين .

ثم يقول الحق سبحانه في موضع آخر على لسان إبراهيم عليه السلام مخاطب عمه باحترام لمكانته التي تساوى منزلة الأب .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) ﴾ [مريم]

فهذه الآية تبين رفق الداعي مع جمال العرض .

فأصرَّ العمُّ على الشرك ، فقال إبراهيم عليه السلام :

﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي .. (٤٧) ﴾ [مريم]

وبعد ذلك يثراً منه لإصراره على الكفر .

ثم هناك لقطة من يُحاجج إبراهيم في ربه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ<sup>(١)</sup> إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

وكانت تلك سفسطة<sup>(٢)</sup> في القول ناتجة عن عجز في التعبير ، فليس

(١) حاجه : نازعه الحاجة ، فهي مفاعلة من الجانبين ، أى : قدم كل منهما حجته ؛ ليقلب بها الآخر . قال تعالى : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ .. (٥٠) ﴾ [الأنعام] [القاموس القويم ١/ ١٤٣] .

(٢) السفسطة : المغالطة والتضليل بفرض إتمام الخصم وإسكاته . [المعجم الوسيط] بتصرف .

إصدار حكم بالقتل على إنسان ، ثم العفو عنه ، هو إحياء وإماتة ، فأخذه إبراهيم عليه السلام إلى منطقة لا يجرؤ عليها أحد ، وقال :

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ۚ ۝٧٥٨ ﴾

[البقرة]

وهذه الآية تبين منطق الحق أمام زيف الباطل ، ثم يأتى فى موضع آخر من القرآن ليعين المقارنة بين فكرة الكفر ، وفكرة الإيمان ، فيقول سبحانه :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ۖ ٦٩ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ۖ ٧٠ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ۖ ٧١ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۖ ٧٢ أَوْ يَبْصُرُونَكُمْ أَوْ يَبْصُرُونَ ۖ ٧٣ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ۖ ٧٤ ﴾

[الشعراء]

وفى هذه الآية أمثلة تحمل جواب الإسكات .

ثم يقول الحق سبحانه ، على لسان إبراهيم عليه السلام :

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۖ ٧٨ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۖ ٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۖ ٨٠ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۖ ٨١ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ۖ ٨٢ ﴾

[الشعراء]

يقول رب العزة سبحانه فى سورة الأنبياء :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ۖ ٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ۖ ٥٢ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ۖ ٥٣ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۖ ٥٤ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ۖ ٥٥ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۖ ٥٦ ﴾

[الأنبياء]

هذه هي التربية الیقینية <sup>(١)</sup> التي أرادها الحق سبحانه لإبراهيم عليه السلام  
ليعلمنا كيف يكون الإيمان ؟

وكان قوم إبراهيم يعبدون آلهة غير الله ، لكن إبراهيم عليه السلام توصل  
إلى عبادة مَنْ خَلَقَهُ وَخَلَقَ الْكَوْنُ ، وهو الصانع الذي يضع قانون صيانة  
ما يصنع سبحانه وتعالى .

ولذلك نلاحظ قوله :

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ (٧٨) [الشعراء]

فلم يقل : «الذي خلقني يهديني» لأن هذه دعوى ؛ ستُدعى ، وسيضع  
الناس قوانين لأنفسهم ، فبين الحق سبحانه أن الذي خَلَقَ هو الذي يَهْدِي .

وجاء الحق سبحانه بكلمة «هو» لحصر الأمر حتى لا يشارك الخلق  
خالقهم فيه ، لكن الأمر الذي لم يُدَّعَ ، لم يأت فيه بكلمة «هو» كقوله :

﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي ﴾ (٨١) [الشعراء]

فما لا شركة فيه عند الخلق يأتي به القرآن من غير تأكيد الضمير ، ولكن  
في الأمر الآخر يأتي بتأكيد الضمير كقوله :

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي ﴾ (٨٠) [الشعراء]

فقد يقال : «إن الطبيب هو الذي يشفيني» ، ولكن ذلك غير حقيقي ؛ لأن  
الله سبحانه هو الذي يضع العلم ، وهو الذي خلق الداء وخلق الدواء <sup>(٢)</sup> .

(١) اليقين : العلم الثابت الواضح الذي لا شك فيه ، ويقال خير يقين لا شك فيه ، ويكفي به عن الموت ؛  
لأنه لا شك فيه ، قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ (٢٦) [الحجر] أى : الموت وقال  
تعالى : ﴿ فَمَنْكَتُمْ نَجْدًا فَذَلِكُنَّ أَصْحَابُ الْكَافَّةِ لَمْ يُحْمَلْ بِهِ وَجْهٌ مِنْ سَبَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ (٢٧) [النمل] وأيقن الأمر  
وأيقن به : علمه علماً ثابتاً واضحاً لا شك فيه [المقاموس القويم ٢/ ٣٧١ ، ٣٧٢] .

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء» أخرجه  
البخاري في صحيحه (٥٦٧٨) وابن ماجه في سننه (٣٤٣٩) .

ثم بعد ذلك يقول الحق سبحانه في قصة إبراهيم عليه السلام:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ<sup>(١)</sup> مِنَ الْبَيْتِ .. (١٢٧)﴾ [البقرة]

إذن: فكل مناسبة تأتي لتأكيد معنى من معاني الإيمان تأتي معها لقطة من لقطات قصة إبراهيم عليه السلام ، وإذا جُمِعت اللقطات كلها تجمد قصة إبراهيم كاملة .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى يريد أن يقص على نبيه محمد ﷺ القصص ، فذلك لتثبيت فؤاده ﷺ :

﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. (١٢٠)﴾ [هود]  
لأن النبي ﷺ يتعرض لكثير من الأحداث ، فيذكره الله سبحانه بما حدث للرسول عليهم السلام ويأتي باللقطات الإيمانية ليثبت فؤاد الرسول ﷺ .  
وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿.. قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩)﴾ [هود]

وفي موضع آخر يقول الحق سبحانه:

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجَلُونَ<sup>(٢)</sup> (٥٢)﴾ [الحجر]

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه عن هذا الموقف:

﴿فَأَوْجَسَ<sup>(٣)</sup> مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِنُفْلٍ عَظِيمٍ (٢٨)﴾

[الذاريات]

(١) القواعد: جمع قاعدة ، وقاعدة البناء: أساسه الذي يقوم عليه . [القاموس القويم ٢/ ١٢٧].

(٢) وجل وجل: فزع وخاف . قال تعالى: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ .. (٥٢)﴾ [الحجر] أى: لا تفرع ولا تخف ، وهو وجل ، أى: يخاف . وقال تعالى: ﴿.. قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجَلُونَ (٥٢)﴾ [الحجر] . وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ .. (١)﴾ [الأنفال].

(٣) أوجس في نفسه: أضمر الخوف في نفسه . قال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧)﴾ [طه] وقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً .. (٢٨)﴾ [الذاريات] أى: أحس الفزع والخوف . [القاموس القويم].

أى: أحس في نفسه الخوف ، وهذا من أمر المواجهيد<sup>(١)</sup> ؛ لأن كل فعل من الأفعال له مقدمات تبدأ بالإدراك ، ثم النزوع ، ثم الفعل ؛ فحين رآهم إبراهيم عليه السلام أوجس في نفسه خيفة ، ثم نزع إلى فعل هو السلام .

والشرع لا يتدخل في الإدراك أو المواجهيد ، ولكنه يتدخل في النزوع ، إلا في أمر واحد من مدركات الإنسان ، وهو إدراك الجمال في المرأة .

لذلك أمر الشرع بغض البصر<sup>(٢)</sup> ؛ حتى لا يدرك الإنسان ذلك فينزع إلى سلوك ليس له حق فيه ، ولأن إدراك حُسن المرأة قد يدفع الغرائز إلى السلوك الفوري ؛ لأن الغرائز لا تفصل النزوع عن الوجدان والإدراك .

وهنا بين الحق مواجهيد إبراهيم عليه السلام حين قال :

﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ .. ﴾ (٧١)

[هود]

وجاء بالمعنى النزوعى حين قال :

﴿ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ .. ﴾ (٦٩)

[هود]

وهو حين التأكيد والتثبيت .

وقال الحق سبحانه :

﴿ .. فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ (٦٩)

[هود]

وهو : العجل السمين المشوى على الحجارة ؛ لأن الشواء - كما نعلم - قد يكون على اللهب أو على الفحم ، أو على الحجارة .

(١) المواجهيد : جمع موجهة ، وهى ما يحس به القلب ويجده الإنسان فى نفسه من مشاعر الفرح والحزن والرضا والغضب وغيرها .

(٢) ودليل هذا قوله عز وجل : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور] .

(٣) أن : بمعنى حتى . قاله كبار النحويين . حكاه القاضى ابن العربى . والمعنى : أى : ما أبطل من مجيئه بعجل . ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٨٢) .

ومثل ذلك يحدث في البلاد العربية حين يأتون بحجر رقيق جداً ،  
ويحمونه على النار ، ثم يشوون عليه اللحم ، وهذا ما يضمن عدم حدوث  
تفاعلات بين اللحم والحجر ؛ لأن هناك تفاعلات تحدث من الحديد أو من  
الفحم ؛ ولذلك فهذه أنظف طريقة للشواء .

أو أن كلمة: ﴿ .. بِعَجَلٍ حَيْدٍ ٦٩ ﴾ [هود]

أى: يتزل منه الدهن بعد الشواء .

وقول الحق سبحانه:

﴿ .. فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعَجَلٍ حَيْدٍ ٦٩ ﴾ [هود]

لأن طبيعة سيدنا إبراهيم عليه السلام هي محبة الضيوف وإكرامهم .  
ومن عادة الكرام أن يُعَجَّلُوا بإكرام الضيف<sup>(١)</sup> ، وتقديم الطعام له ،  
والكريم هو من يفعل ذلك ؛ لأنه لا يعلم ما قد مر على الضيف دون  
طعام ، فإن كان الضيف جائعاً أكل ، وإن كان شبعان فهو يعلن ذلك .  
ويقول الحق سبحانه ما حدث بعد أن جاء لهم إبراهيم عليه السلام  
بالعجل المشوى:

﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ<sup>(٢)</sup>  
مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَزْسِلْنَاكَ قَوْمَ لُوطٍ ٧٠ ﴾

(١) وقد حث رسول الله ﷺ على إكرام الضيف ، فعن أبي هريرة رضى الله عنه قال: فمن كان يؤمن بالله  
واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ، ومن كان يؤمن بالله  
واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت متفق عليه . أخرجه البخارى في صحيحه (٦٠١٨) وكذا مسلم في  
صحيحه (٤٧) .

(٢) نكره: استوحش منه ونفر منه ولم يأنس به . [القاموس القويم] تقول: نكرتك وأنكرتك واستكرتك إذا  
وجدته على غير ما عهدته . راجع المفرد (٤ / ٣٣٨٤) .

(٣) وجس وأوجس: فزع . وأوجس في نفسه: أضم الحوف في نفسه . وقوله تعالى: ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ٧٠ ﴾ [هود] أى: أحمس الفزع والحوف . وقال تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ٤٧ ﴾ [طه] .  
أى: أضم الحوف في نفسه حين رأى أعمال السحرة . [القاموس القويم] .

وحين رأى إبراهيم أن أيديهم لا تصل إلى الطعام توجس من ذلك شراً ونكرهم ، أى : استنكر أنهم لم يأكلوا من طعام قدمه لهم ، فهل علم إبراهيم أنهم ملائكة ؟

لقد علم إبراهيم عليه السلام أنهم ملائكة من كلامهم .  
وقد بين ذلك قول الحق سبحانه فى موضع آخر من القرآن :

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجَلُونَ ﴾ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمِمْ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦) قَالَ لَمَّا خُطِبْتُمْ إِلَيْهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨) ﴿

[الحجر]

إذن : فهم لم يقولوا له مثلما قالوا للوط عليه السلام :

﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ .. ﴾ (٨١)

[هود]

وهنا حين قالوا لإبراهيم عليه السلام :

﴿ .. لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ ﴾ (٧٠)

[هود]

أى : أنهم فهموا أن إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم ملائكة ؛ لأن الملك قد يتشكل فى هيئة إنسان ، مثلما تشكل جبريل عليه السلام أمام سيدنا محمد ﷺ .

وكذلك الجن لهم قدرة على التشكل ، إلا أن هناك فارقاً بين تشكل الملك وتشكل الجن ، فالجن إن تشكل تحكمه الصورة ، فإن تشكل فى صورة رجل فيمكنك أن تمسك به وتؤذيه .

(١) القانطون : الذين انقطع أملهم فى الخير أو ينسوا مته . والقنوط : صيغة مبالغة ، أى : شديد اليأس معدوم الأمان . [القاموس المصون].

أَلَمْ يَقُلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

« إن عفريتاً من الجن تفلت<sup>(١)</sup> الباردة ليقطع على صلاتي ، فأمكنني الله منه ، فأخذه ، فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد ، حتى تنظروا إليه كلكم ، فذكرت دعوة أخى سليمان :

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَخِي أَنْ يَبْعِدَ عَنْكَ أَنْتَ الرَّهَابُ (٣٥) ﴾ [ص]

فرددته خاسئاً<sup>(٢)</sup> .

إذن: إذا تشكل الجن حكمته الصورة ، ويمكن أن يضربه مثلاً ، أما الملاك إذا تشكل فالصورة لا تحكمه .

وحُكْم الصورة عند تشكل الجنى هي التى تحمينا من مخاوفنا ، وهو أيضاً يخاف منا مثلما نخاف منه ، ولذلك لا يظهر الجنى متشكلاً فى صورة إلا لحظة قصيرة ليختفى على الفور ؛ لأنه يخاف أن تكون قد علمت أن الصورة التى تشكل عليها تحكمه وتستطيع أن تفتك به ؛ لذلك فالجن يخافون من البشر .

وشاء الحق سبحانه ذلك الأمر حتى لا يفزع الجنُّ الناسَ .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ .. (٧) ﴾ [هود]

(١) تفلت: أى: تعرض لى فلتة أى: بفتة .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٤٢٣) ومسلم فى صحيحه (٥٤١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .



وكلمة ﴿نَكْرَهُمْ﴾ تقتضى أن ننظر فى مادة «النون والكاف والراء» وكلمة «نكر» وكلمة «أنكر» كلتاها مستعملة فى القرآن<sup>(١)</sup>.

والشاعر يقول:

وَأَنْكَرْتَنِي وَمَا كَأَنَّ الَّذِي نَكِرْتَ<sup>(٢)</sup> مِنْ الْحَوَادِثِ إِلَّا الشَّيْبَ وَالصَّلَاعَ  
والاستعمال اللغوى يدل على أن المقابح من ألوان السلوك تسمى  
منكرات ، أى: ينكرها الإنسان بفطرته.

وهنا حين رأى إبراهيم عليه السلام أن أيديهم لا تصل إلى العجل الخنيز  
نكرهم ، وأوجس فى نفسه خيفة ، فلاحظوا ذلك ، وقالوا:

﴿.. لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠)﴾ [هود]

وهكذا عرف لمن جاءوا، واطمأن أن قومه لم يأتوا بفعل يستحقون عليه  
العذاب، وخصوصاً أن كتب التاريخ تقول: إن امرأة إبراهيم عليه السلام قالت  
له: ألا تنضم ابن أخيك إلى كنفك<sup>(٣)</sup> هنا؛ لأن قومه يوشك أن يعمهم الله بالعذاب.

وحين سمعت أن الرسل إنما جاءت إلى قوم لوط سُرَّتْ من  
فراستها<sup>(٤)</sup> ، وتبسَّمت لأنها تنبّهت إلى هذه المسألة.

(١) كلمة «نكر» وردت فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَنَّهُمْ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ .. (٧٠)﴾ [هود]. وقال تعالى عن  
سليمان: ﴿قَالَ نَكِرُوا لَهَا عَرْشَهَا .. (٤١)﴾ [النمل]. أما أنكر ، فقد قال تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَآيَ آيَاتِ  
اللَّهِ فَتَكُونُ (٥٥)﴾ [غافر] وقال تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يَنْكُرُ بَعْضَهُ .. (٢٦)﴾ [الرعد] ، وقوله  
تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْفَرُهُمْ الْكَافِرُونَ (٨٥)﴾ [النحل].

(٢) جمع الشاعر بين اللفتين . ويقال: نكرت لما نراه بعينيك وأنكرت لما نراه بقلبك . قاله القرطبي فى تفسيره  
(٣٣٨٤/٤).

(٣) الكنف والكنفه: ناحية الشئ . وكنف الرجل الرجل جعله فى كنفه أى: فى حفظه وإعائنه . وكنفت  
الرجل: حطته وصنفته . [راجع لسان العرب].

(٤) الفراسة: الفطنة فى النظر والتثبت والتأمل للشئ والبصيرة . والفرس: أن تتوصم أمراً ما فى شخص ما  
فيكون كما توسمت ، وهذا يكون بأحد أمرين:

١- ما يوقعه الله فى قلوب أوليائه بنوع من المكاشفات.

٢- ما يتعلم بالدلائل والتجارب لتعرف بها أحوال الناس.

[راجع لسان العرب] مع زيادة من عندنا.

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُّسَوَّمَةً <sup>(١)</sup> عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) ﴾

[الذاريات]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَأَمْرًا تَقَابُحَةً <sup>(٢)</sup> فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٣٦) ﴾

فعندما كانت امرأته قائمة على خدمة الضيوف <sup>(٣)</sup> ، وسمعت كلام الملائكة اطمأنت على أنه لا عذاب على قومهم ، وتحققت فراستها فضحكت فازادها الله سروراً ، وبشّرتها الملائكة بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب .

فبعد دفع العذاب ، وبيان أمر العذاب لقوم آخرين مجرمين ، تأتي البشارة بتحقيق ما كان إبراهيم عليه السلام وزوجه يصبوان <sup>(٤)</sup> إليه ، وإن كان أوانها قد فات ؛ لأن زوجة إبراهيم كانت قد بلغت التسعين من

(١) ﴿ مُّسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ .. ﴾ [الذاريات] أى : عليها خواتيم بأسماء المعذبين . وسومٌ على القرم : أغار عليهم فعات فيهم بالإنساد والإهلاك . قال تعالى : ﴿ .. يُعَذِّبُكُمْ بِكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُّسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران] أى : معلمى أنفسهم وخيلهم بعلامات ، أو مغيرين على الكفار . وقوله تعالى : ﴿ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ .. ﴾ [آل عمران] أى : المرسلة للرعى ، أو المعلمة بعلامات . وقوله تعالى : ﴿ سَيُخَافُكُمْ فِي وُجُوهِهِمْ .. ﴾ [الفتح] أى : علامة إيمانهم نور فى وجوههم . [القاموس القويم] .

(٢) هى : سارة امرأة إبراهيم عليه السلام من قومه ، وهى أم إسحاق عليه السلام جاءها الولد وهى فى سن كبيرة ، بعد أن ولدت هاجر - لإبراهيم - إسماعيل عليه السلام .

(٣) عن سهل بن سعد أن أبا أمييد الساعدي أتى رسول الله ﷺ فدعاه فى عرسه فكانت امرأته خادمتهم يومئذ وهى العروس . قال : تدرون ما سقت رسول الله ﷺ ؟ أتقعت تمرات من الليلة فى تور ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٥١٧٦) ، وأحمد فى مسنده (٤٩٨/٣) وابن ماجه فى سننه (١٩١٢) .

(٤) صبا يصبو صبواً وصبواً : مال وأحب . قال تعالى : ﴿ .. وَلَا تَصْرَفْنِي يَتِي كَيْفَ هُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [يوسف] . أصبو : أميل . وصبا إلى الشيء : حنّ واشتاق إليه ، [القاموس القويم] .

## سُورَةُ هُودٍ

٦٥٦١

عمرها ، وبلغ هو المائة والعشرين عاماً<sup>(١)</sup> . وفى هذا امتنان على إبراهيم  
بمجيء ابن الابن أيضاً ، وكذلك يمتن الله سبحانه على عباده حين يقول :

﴿وَاللّٰهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ  
وَخَفَدَةً<sup>(٢)</sup> ۚ ۞ (٧٢)﴾ [النحل]

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿.. فَبَشَّرْنَا هَآءَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۚ (٧١)﴾ [هود]

فالإنسان يحب أن يكون له ابن ، ويحب أكثر أن يرى ابن ابنه ، لأن  
هذا يمثل امتداداً له .

وهكذا توالى البشارات ، فقد أعلنت الملائكة أنها جاءت لتعذب قوم  
لوط ، هؤلاء الذين اختلف معهم إبراهيم عليه السلام ؛ لما جاءوا به من  
الفواحش ، وكذلك لأن إبراهيم عليه السلام وامراته قد علما أنهما لم يأتيا  
بأى أمر يغضب الله تعالى .

والثالثة من البشارات هى الغلام ، وكان ذلك حُلماً قديماً عند امرأة  
إبراهيم عليه السلام لأنها عاقر ، واستقبلت امرأة إبراهيم البشارة الأولى  
بالضحك ، واستقبلت البشارة بالابن بالدهشة<sup>(٣)</sup> .

(١) قال مجاهد : كانت سارة بنت تسع وتسعين سنة . وقال ابن إسحاق : كانت بنت تسعين . وقيل غير  
هذا . أما إبراهيم فقيل : كان ابن مائة وعشرين سنة . وقيل : ابن مائة سنة . ذكره القرطبي فى تفسيره  
(٣٣٨٨/٤) .

(٢) حفدة : أولاد الأولاد . والحافد : العون والخادم ، وولد الولد ، جمعه : حَفْدٌ ، وَحَفْدٌ ، وَخَفْدَةٌ .  
وحفد فى عمله : خف ونشط وأسرع فيه فهو حافد ، وهو حفيد ، وسمى العون أو الخادم أو ولد الولد  
حافداً لنشاطه ونخته فى العون والخدمة . [القاموس القويم ١/ ١٦١] .

(٣) يقول رب العزة سبحانه عن ذلك فى سورة الذاريات : ﴿.. وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صُرَّةٍ  
فَسَكَتَ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَالِمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠)﴾ [الذاريات] . صك  
الوجه : اللطم تعجباً وهو كتابة عن الدهشة والتعجب [القاموس القويم ١/ ٣٨٠] .

وهذا ما يقول فيه الحق سبحانه :

﴿ قَالَتْ يَتْلُو بَنَاتِي أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا <sup>(١)</sup>  
إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ (٧٢)

والشيء العجيب هو الذى يخالف نواميس الكون المعتادة ، ولكن هناك فرقاً بين النواميس <sup>(٢)</sup> وخالق النواميس ، الذى هو قادر على أن يخرق النواميس .

وها هو سيدنا إبراهيم يقول فى موضع آخر :

﴿ أَبَشِّرْهُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسْنِي الْكِبَرُ .. ﴾ (٥٤) [الحجر]

ولم يأت هنا بقول امرأة إبراهيم التى قالت :

﴿ يَا وَيْلَتَىٰ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا .. ﴾ (٧٢) [هود]

وتسمية الزوج بعلاً فيها دقة شديدة ؛ لأن البعل هو الذى يقوم بأمر المبعول ولا يحوجه لأحد .

كذلك الزوج يقوم بأمر زوجته فيما لا يستطيع أبوها ولا أخوها أن يقوموا به ، وهو الإحساس بالأنوثة والإخصاب ، وهو أهم ما تطلبه المرأة .

وأيضاً سُمي النخل بالبعل ، لأنه لا يطلب من زارعه أن يسقيه ، وإنما يكتفى النخل بما يمتصه من الأرض ، وما ينزل له من مطر السماء <sup>(٣)</sup> .

(١) البعل : الزوج والزوجة ، فهو مصدر سمي به بلفظه فلا يؤنث ، وجمع البعل : بمولة . قال تعالى : ﴿ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا .. ﴾ (٧٢) [هود] . وقال تعالى : ﴿ وَتَعْرِفْنَهُنَّ أَحْقَ بِرَدِّهِنَّ .. ﴾ (٥٧) [البقرة] أى : وأزواجهن أحق بردهن بعد الطلاق الرجعى ، وبعد طليقة بائنة أو طليقتين بائنتين بعقد جديد . [القاموس القويم ١/ ٧٦] .

سمى زوج المرأة بعلاً لأنه سيدها ومالكها . والمباعدة : المباشرة . والبعل : النكاح . تبعلت المرأة : أطاعت بعلمها . وتبعلت له : تزينت . وامرأة حسنة التبعل إذا كانت مطوعة لزوجها محبة له . [لسان العرب] .

(٢) النواميس : القوانين الإلهية التى يخضع لها الكون .

(٣) ذكره ابن منظور فى لسان العرب (مادة : بع ل) : استبعل الموضع والنخل : صار بعلاً راسخ العروق فى الماء مستغنياً عن السقى وعن إجراء الماء فى نهر أو حاثور إليه . ( العاثور : هو البئر )

وكذلك سُمِّي نوع من الفول «بالفول البعلی»، وهو الذى لا يحتاج إلى إرواء.

إذن: فالبعل هو الزوج الذى يقوم على أمر زوجته فلا يُحوجها إلى غيره فى أى شىء من الأشياء.

وهنا تتعجب زوجة إبراهيم عليه السلام من أمر الإنجاب؛ لأن هذا شىء عجيب يقع على غير انتظار؛ ولذلك يرد الملائكة عليها.

ويقول الحق سبحانه عن ذلك:

﴿قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ

وَبَرَكَّتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ (٧٣)

والعجب - إذن - إنما يكون من قانون بشرى ، وإنما القادر الأعلى سبحانه له طلاقة القدرة فى أن يخرق الناموس . . ومن خرق النواميس جاءت المعجزات لتثبت صدق البلاغ عن الله تعالى ، فالمعجزات أمر خارق للعادة الكونية .

والقصة التى حدثت لإبراهيم عليه السلام وامراته تكررت فى قصة زكريا عليه السلام ، والحق سبحانه هو الذى أعطى مريم عليها السلام بشارة التذكير لزكريا عليه السلام حين سألها:

﴿أَنْتِ<sup>(١)</sup> لَكِ هَذَا .. (٢٧)﴾

[آل عمران]

فقالت مريم:

(١) أنتى: اسم استفهام بمعنى: من أين . وتأتى بمعنى: كيف مثل قوله تعالى: ﴿فَاتُوا حَرْنَكُمْ أَنْتِ شَتْمٌ .. (٢٢٦)﴾ [البقرة] أى: كيف شتم بشرط اتباع الفطرة المستقيمة التى تشير إليها الآية فى قوله تعالى: ﴿فَاتُوا حَرْنَكُمْ أَنْتِ شَتْمٌ .. (٢٢٦)﴾ [البقرة] وجاءت فى بعض الآيات صالحة للمعنيين مثل قوله تعالى: ﴿أَنْتِ بِكَوْنِ بِي غَلَامٌ .. (٤١)﴾ [آل عمران] . [القاموس القويم ص ٤١ - ح ١] .

﴿..هُوَ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾

[آل عمران]

إذن: فالحساب يكون بين الخلق وبعضهم ، لا بين الخالق - سبحانه - وخلقهم.

ولذلك يأتي قول الحق عز وجل:

[آل عمران]

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ.. (٣٨)﴾

وما دام زكريا عليه السلام قد تذكر بقول مريم:

[آل عمران]

﴿.. إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾

فمن حقه أن يدعو :

[آل عمران]

﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً.. (٣٨)﴾

فأوحى له الله سبحانه وتعالى:

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٣٩)﴾

[مريم]

أى: أن الحق سبحانه لم يرزقه الابن فقط ، بل وسماء له أيضاً باسم لم يسبقه إليه أحد.

وتسمية الله تعالى غير تسمية البشر ، فإن كان بعض البشر قد سموا من بعد ذلك بعض أبنائهم باسم «يحيى» فقد فعلوا ذلك من باب الفأل<sup>(١)</sup> الحسن في أن يعيش الابن.

(١) الفأل: ضد الطيرة ، والجمع: فنول وأفول. ومنها: التفاؤل ، وهو الاستبشار بالخير. [مختار القاموس] بتصرف.

## سُورَةُ هُودٍ

٦٥٦٥

لكن الحق سبحانه حين يسمي اسماً ، فقد سماه «يحيى» ليحيا بالفعل ،  
ويبلغ سن الرشد ، ثم لا يأتي الموت ؛ لذلك قُتل<sup>(١)</sup> يحيى وصار شهيداً ،  
والشهيد حيٌّ عند ربه لا يأتي إليه موتٌ أبداً<sup>(٢)</sup> .

وهذا عكس تسمية البشر ؛ لأن الإنسان قد يسمي ابنه «سعيد» ويعيش  
الابن حياته في منتهى الشقاء .

والشاعر يقول عن الإنسان الذي سمى ابنه «يحيى» :

وَسَمَّيْتُهُ يَحْيَى لِيَحْيَا فَلَمْ يَكُنْ      لِرَدِّ قَضَاءِ اللَّهِ فِيهِ سَبِيلُ

وحين نرجع إلى أن مريم عليها السلام هي التي نهت إلى قضية الرزق  
من الله ، نجد أن زكريا عليه السلام قد دعا ، وذكر أنه كبير السن<sup>(٣)</sup> وأن  
زوجه عاقر .

ولا بد أن زكريا عليه السلام يعرف أن الحق سبحانه وتعالى يعلم كل  
شيء أزلاً<sup>(٤)</sup> ، ولذلك شاء الله سبحانه أن يطمئن زكريا عليه السلام بأنه  
سيرزقه الولد ويسميه ، ويأتي قول الحق سبحانه وتعالى :

(١) قال ابن كثير في قصص الأنبياء (ص ٣٩٠) : «ذكروا في قتله أسباباً من أشهرها أن بعض ملوك ذلك  
الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوج بعض محارمه أو من لا يحل له تزويجها فنهاه يحيى عليه السلام عن  
ذلك فبقي في نفسه منه ، فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها استوهبت منه دم يحيى . فوجه لها  
فبعثت إليه من قتله وجاء برأسه ودمه في طست إلى عندها ، فيقال إنها هلكت من نورها وساعتها» .  
(٢) وفي هذا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ أَلِيبْنِ قُطُوبًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَلَمْ يَأْتِ الْوَقْدَ بَلْ أَحْيَاهُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ  
(٣٩) ﴾ [آل عمران] .

(٣) قال زكريا : ﴿ .. رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْتًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَاؤِكَ رَبِّ شَقِيحًا ﴾ [مريم] وقال  
بعد نبشيره يحيى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي مَكُونٌ فِي غُلَامٍ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ [آل  
[مريم] قال مجاهد : عتياً يعني : نحول العظم . قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ١١٢) : «لم يبق فيه لقاح  
ولا جماع» .

(٤) الأزل : القدم . أصلها «لم يزل» ، قال أبو منصور : ومنه قولهم : هذا شيء أزلي ، أي : قديم . [لسان  
العرب] .

[مريم]

﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ... (٩)﴾

وما دام الحق سبحانه وتعالى هو الذى قرّر ، فلا رادّ لما أَراده ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿...هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتِكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩)﴾ [مريم]

وهكذا توالى الأحداث بعد أن نبهت مريم زكريا عليه السلام إلى قضية خرق النواميس التى تعرضت هى لها بعد ذلك ، حينما تمثّل لها الملك بشراً ، وبشرها بغلام اسمه المسيح عيسى ابن مريم - عليه السلام .

وتساءلت مريم عن كيفية حدوث ذلك - وهى التى لم يمسسها بشر - فيذكّرها الملك بأنها هى التى أجرى الله سبحانه وتعالى على لسانها قوله الحق فى أثناء كلامها مع زكريا عليه السلام :

﴿...إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾ [آل عمران]

وكان لا بد من طمأننتها ؛ لأن إيجابها للمسيح عيسى - عليه السلام - دون أب هى مسألة عرض ، ويجب أن تُقبل عليها وهى آمنة ، غير مرتاب فيها ولا متهمّة .

والآية التى نحن بصددّها هنا تتعرض لامرأة إبراهيم عليه السلام حين جاءتها البشارة بالطفل ، وكيف أوضحت لها الملائكة أنه لا عجب مما قدره الله تعالى وأرادّه ، خلافاً للناموس الغالب فى خلقه ؛ لأن رحمة الله تبارك وتعالى بكل خير فيها قد وسعت أهل بيت النبوة ، ومن تلك الرحمة والبركات هبة الأبناء فى غير الأوان المعتاد<sup>(١)</sup> .

ولهذا قال الحق سبحانه هنا :

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٤/٣٣٨٩) : « من تلك الهبات والبركات أن جميع الأنبياء والمرسلين كانوا فى ولد إبراهيم وسارة » . يتصرف



﴿رَحِمْتَ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ .. (٧٣)﴾ [هود]

وينهى الحق سبحانه الآية بقوله تعالى :

﴿ .. إِنَّهُ حَمِيدٌ مُجِيدٌ (٧٣) ﴾ [هود]

أى : أنه سبحانه يستحق الحمد لذاته ، وكل ما يصدر عنه يستوجب الحمد له من عباده ، فلا حد لخيره وإحسانه ، ولله تعالى مُطلق صفات المجد .

وكلمة «حميد» - فى اللغة - من «فَعِيل» وتَرَدُّ على معنيين : إما أن تكون بمعنى فاعل مثل قولنا : «الله رحيم» بمعنى أنه راحم خلقه . وإما أن تكون بمعنى مفعول ؛ كقولنا : «قتيل» بمعنى «مقتول» .

وكلمة «حميد» هنا تأتى بالمعنيين معاً : «حامد» و«محمود» ، مثل قول الحق سبحانه عن نفسه أنه «الشكور» ؛ لأنه سبحانه يشكر من يشكره على نعمه بطاعته . والله سبحانه «حميد» ؛ لأنه حامد لمن يطيعه طاعة نابعة من الإيمان ، والله سبحانه «محمود» ممن أنعم عليهم نعمه السابغة .

والله سبحانه هو المجيد الذى يعطى قبل أن يُسأل .

ولذلك نجد عارفاً بالله تعالى قد جاءه سائل ، فأخرج كيساً ووضع فيه يده ، ثم رجع إلى أهله يبكى ، فقالت له امرأته : وما يبكيك وقد أدبت له حق سؤاله ؟ قال : أنا أبكى لأنى تركته ليسأل ، وكان المفروض ألا أجعله يقف موقف السائل .

والحق سبحانه وتعالى أعطانا ، حتى قبل أن نعرف كيف نسأل ، ومثال ذلك : هو عطاء الحق سبحانه وتعالى للجنين فى بطن أمه ، والجنين لم يتعلم الكلام والسؤال .

والحق سبحانه وتعالى فى كل لقطة من لقطات القرآن يعطى فكرة اجتماعية مأخوذة من الدين ، فيها هو ذا سيدنا إبراهيم عليه السلام يقدم العجل الحنيد للضيوف ، ليعلمنا أنه إذا جاء لك ضيف ، وعرضت عليه الطعام ، ولم يأكل ، فلا ترفع الطعام من أمامه ، بل عليك أن تسأله أن يأكل ، فإن رد بعزيمة ، وقال : لقد أكلت قبل أن أحضر إليك ، فَلَكَ أن ترفع الطعام من أمامه بعد أن أكدت عليه فى تناول الطعام .

ويروى بعض العارفين <sup>(١)</sup> أن سيدنا إبراهيم عليه السلام حينما قال : ألا تأكلون ؟ قالت الملائكة : لا نأكل إلا إذا دفعنا ثمن الطعام . فقال إبراهيم ، بما آتاه الله من حكمة النبوة ووحى الإلهام : ثمنه أن تُسمُوا الله أوله ، وتحمده آخره <sup>(٢)</sup> .

وأنت إذا أقبلت على طعام وقلت فى أوله : «بسم الله الرحمن الرحيم» وإذا انتهيت منه وقلت : «الحمد لله» ؛ تكون قد أديت حق الطعام مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ (٨)

[التكاثر]

وهكذا بين لنا الحق سبحانه أن إبراهيم عليه السلام وزوجه قد اطمأنا على أن الملائكة قد جاءت لهما بالبشرى ، وأنها لا تريد بإبراهيم أو بقومه سوءاً ، بل هى مكلفة بتعذيب قوم لوط .

(١) هو عمرو بن دينار الجهمى بالولاء ، أبو محمد الأثرم ، فقيه ، كان مفتى أهل مكة ، فارسى الأصل ، مولده بهمناء ٤٦ هـ ووفاته بمكة (١٢٦ هـ) عن ٨١ عاماً . قال شعبة : ما رأيت أثبت فى الحديث منه .  
الأعلام للزركلى (٧٧/٥) .

(٢) ذكر هذا الأثر السيوطى فى الدر المنثور (٤/ ٤٥٠) وفى آخره أن الملائكة نظرت لبعضها البعض وقالوا : «لهذا اتخذك الله خليلاً» . وعزاه لابن المنذر عن عمرو بن دينار .

## سُورَةُ هُودٍ

٥٦٩

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرَىٰ <sup>(١)</sup> ۖ

يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ <sup>(٢)</sup> ۖ ﴾

والجدل هو أن تأخذ حُجَّةً من مقابل ، وتعطيه حُجَّةً ، لتصل إلى حق .  
والجدل يختلف عن المراء <sup>(٣)</sup> فالمرء يعني أنك تعرف الحقيقة وتجادل بالباطل  
لأنك لا تريد أن تصل إلى الحق .

وقد نهانا الحق سبحانه عن المراء ، وأمرنا بأن نجادل بشرط أن يكون  
الجدال بالتى هي أحسن .

وهنا يبين لنا الحق سبحانه أن إبراهيم بعد أن ذهب عنه الروع وجاءته  
البشرى بأن الله تعالى سيرزقه بغيلام ، وعلم إبراهيم من الملائكة أنهم  
ذاهبون لتعذيب قوم لوط :

﴿ قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ مُجْرِمِينَ <sup>(٢٧)</sup> لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ <sup>(٢٨)</sup>  
مُسَوَّمَةً <sup>(٢٩)</sup> عِندَ رَبِّكَ .. <sup>(٣٠)</sup> ﴾

[الذاريات]

(١) راحه الشيء يروعه ، روعاً : أصاب روعه ، أى : قلبه . والروع : القلب - بضم الراء . وقوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ .. <sup>(٢٧)</sup> ﴾ [هود] أى : ذهب عنه الخوف والفزع . [القاموس القويم] .

(٢) الجدل : المنازعة فى الرأى وشدة الخصومة . قال تعالى : ﴿ .. وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا <sup>(٥١)</sup> ﴾

[الكهف] أى : أكثر مبالغة فى الخصومة وتأييداً للباطل بغير حق . [القاموس القويم] .

(٣) مراء يماريه مراءة ومراء : ناظره وجادله . قال تعالى : ﴿ .. فَلَا تُصَارِفُهُمْ إِلَّا مَرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ

مَنْهُمْ أَحَدًا <sup>(٥٩)</sup> ﴾ [الكهف] أى : فلا تجادل أهل الكتاب فى شأن أهل الكهف إلا جدلاً واضحاً يسيراً .

وقال تعالى : ﴿ لَبَّائِي آيَ رَبِّكَ تَعَارَىٰ <sup>(٥٥)</sup> ﴾ [النجم] أى : تشكك . [القاموس القويم] .

(٤) مسومة : أى : عليها خواتيم بأسماء المعليين . قال تعالى : ﴿ وَالْغَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ .. <sup>(٥٤)</sup> ﴾ [آل عمران]

أى : العلامة بعلامات ، أو الرسالة للرعى . وقال تعالى : ﴿ سِجَانِهِمْ فِي وَجُوهِهِمْ .. <sup>(٥٩)</sup> ﴾ [الفتح] ،

أى : علامة إيمانهم نور فى وجوههم . [القاموس القويم] .

ومجادلة سيدنا إبراهيم في عقاب قوم لوط ، لم تكن رداً لأمر الله ،  
ولكن طلباً للإمهال لعلهم يؤمنون ؛ ذلك أن قلب إبراهيم عليه السلام ؛  
قلب رحيم .

ولذلك يأتي الحق سبحانه بالعلة في المجادلة في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾<sup>(١)</sup>

إذن : فالعلة في الجدال أنه حلیم لا يُعَجِّلُ بالعقوبة ، وأوَّاه ؛ أى : يتأوه  
من القلب ، والتأوه رقة في القلب ، وإن كان التأوه من الأعلى فهذا يعنى  
الخوف من ألا يكون قد أدى حق الله تعالى ، وإن كان التأوه للأقل فهو  
رحمة ورافة .

ولذلك فقد طلب إبراهيم عليه السلام من الله تعالى تأجيل العذاب لقوم  
لوط لعلهم يؤمنون ، وتأوَّهه هنا لله تعالى ، وعلى هؤلاء الجهلة بما  
ينتظرهم من عذاب أليم .

وقال الحق سبحانه في صفات إبراهيم أنه «منيب» أى : يرجع إلى الحكم  
والى الحق في قضاياها .

ألم يَقُلْ الحق سبحانه في موضع آخر من كتابه العزيز :

(١) أوَّاه : صيغة مبالغة ، أى : كثير التأوه ، وغلب على معنى التضرع إلى الله في العبادة ، والندم على  
الذنوب . [القاموس القويم] .

(٢) أناب العبد إلى ربه : رجع إليه ، وتاب ، وترك الذنوب . قال تعالى : ﴿ .. عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ ﴾<sup>(١)</sup> [هود] أى : إليه أتوب وأرجع ، ومنيب : اسم فاعل . وقال تعالى : ﴿ مِنْ عَشِيِّ الرَّحْمَنِ بِالْغَيْبِ  
وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾<sup>(٢)</sup> [ق] أى : بقلب راجع إلى الله . وجاء جمع «منيب» في قوله تعالى : ﴿ مُنِيبِينَ  
إِلَيْهِ وَأَقْفَوْهُ .. ﴾<sup>(٣)</sup> [الروم] أى : راجعين إلى الله تائبين إليه ، أى : كونوا تائبين وكونوا متقين .  
[القاموس القويم] .

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ<sup>(١)</sup> وَعَدَهَا إِيَّاهُ .. (١١٤)﴾

[التوبة]

وبعد أن بحث إبراهيم عليه السلام عن الحق ، وأتاب إليه ، يبين لنا الله سبحانه وتعالى مظهرية الإنابة في قوله تعالى :

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ .. (١١٤)﴾

[التوبة]

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها والتي أوضحت تأوه إبراهيم لله عز وجل وتأوهه رحمة بهؤلاء الذين لم يؤمنوا ، وهم قوم لوط ، وأيضاً كانت حجة إبراهيم - عليه السلام - في الجدل ما قاله الحق سبحانه في سورة العنكبوت :

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنِ أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا .. (٣٢)﴾

[العنكبوت]

وكان سؤال إبراهيم للملائكة : كيف تُهلكون أهل هذه القرية وفيهم من هو يؤمن بالله وعلى رأسهم نبي من الله هو لوط عليه السلام ، وردت عليه الملائكة :

﴿.. نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن لِّهَا لُتَجِئُهُ وَأَهْلُهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ<sup>(٢)</sup> (٣٢)﴾

[العنكبوت]

(١) وعده شيئاً بعده وعداً وعده : أخبره أنه سيحققه له ، أو سيعطيه إياه ، وهو فعل يتمدى للفعولين ، وقد يحذف أحد للفعولين للعلم به .

وللعدة : مصدر ميمي ، واسم زمان أو مكان . قال تعالى : ﴿إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ .. (١١٤)﴾ [التوبة] أى : عن وعد واحد في مرة واحدة . [القاموس القويم ٢/ ٣٤٣] .

(٢) من الغابرين : أى : من الباقين المتخلفين في القرية للهلاك . أو كانت من الماضين الذاهبين أى : من الهالكين . يقال : مضى وذهب بمعنى مات وهلك . [القاموس القويم] .

وكان إبراهيم خليل الرحمن يعلم أن وجود مؤمنين مع الكافرين في قرية واحدة ، يبيح له الجدل عن أهل القرية جميعاً .

ويتلقى إبراهيم الرد هنا في سورة هود في الآية التالية :

﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ إِنِّيهِمْ  
عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ (٧٦)

وقول الملائكة :

﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا .. ﴾ (٧٦) [هود]

يعنى إبلاغ إبراهيم أن مسألة تعذيب من لم يؤمن من قوم لوط أمرٌ مُتَّهٍ ومحسوم ، فهم قد جاءوا ليتفدوا ، لا ليهددوا ؛ وأبلغوا إبراهيم :

﴿ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ .. ﴾ (٧٦) [هود]

وإذا ما كان الأمر قد جاء من الله ، فإبراهيم عليه السلام لأنه ﴿ مُنِيبٌ ﴾ يعلم أن أى أمر من الله تعالى لا بد أن يُنْفَذَ ، فلا بد أن يتقبل - أمر الحق سبحانه :

﴿ .. وَإِنَّهُمْ أَتَيْهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ (٧٦) [هود]

أى : لا أحد بقادر على أن يرد عذاب الله . وكما أن هناك وعداً من الله تعالى غير مكذوب <sup>(١)</sup> ، فهناك أيضاً عذاب غير مردود <sup>(٢)</sup> .

(١) أعرض : فعل أمر من الإعراض ، وهو الانصراف عن الشيء . وأعرض عن الشيء : ولى منصرفاً عنه غير راغب فيه . قال تعالى : ﴿ أَعْرِضْ وَتَأْتِي بِحَاجَتِهِ .. ﴾ (٢٥) [الإسراء] . [القاموس القويم ١٦/٢] .

(٢) جاء هنا فى حق قوم نمرود مع نبهم صالح ، وذلك أن الله نوحدهم بالملك والتمتع فى دهرهم ثلاثة أيام بعدما يأتهم عذاب الله بسبب عفرهم الناقه . يقول سبحانه : ﴿ فَعَفَرُوا فَقَالَ تَمَتُّعُوا فِى ذَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَذَابٌ مُّكْتُوبٌ ﴾ (٢٥) [هود] .

(٣) غير مردود : أى : غير مصروف عنهم ولا مدفوع . [تفسير القرطبي ٢٣٩٢/٤] .

ويُروى <sup>(١)</sup> أن إبراهيم عليه السلام فى جداله قال للملائكة: إذا كان فى قوم لوط خمسون قد آمنوا بالله تعالى، أتعذبونهم؟ قالوا: لا. قال: وإن كان فىهم عشرة يؤمنون بالله، أتعذبونهم؟ قالوا: لا. قال: وإن كان فىهم واحد هو لوط؟ فردت الملائكة:

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ ..﴾ (٤٧) [المنكوت]

وانتهى الجدل، وذهبت الملائكة إلى مهمتها التى هى إيقاع العذاب بقوم لوط.

ويقول الحق سبحانه:

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧)

أى: أن لوطاً شعر بالسوء، وضاق بهم ذرعاً، والذرع مأخوذ من الذراع التى فيها الكف والأصابع وتدفع بها الأشياء، وأى شىء تستطيع أن تمد إليه ذراعك لتدفع به، وإن لم تطله ذراعك؛ قلت: «ضقت به ذرعاً» أى: أن يدي لم تطله، وهو أمر فوق قوتي وطاقتي، وفوق ما آتاني الله من الآلات ومن الحيل.

وما الذى يسىء لوطاً فى معنى الملائكة؟

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٤/ ٤٦٠) وهزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن حذيفة بن اليمان.

(٢) يقال: ضاق بالامر ذرعاً، وذراعاً: أى: لم يُطْفِه ولم يَقْوَ على احتماله واشتد عليه بسبب الضيق. قال تعالى: ﴿.. وضاق بهم ذرعاً﴾ (٧٧) [هود] أى: اشتد عليه الضيق بسبب وجودهم خوفاً عليهم من قومه. [القاموس القويم]، وضاق بهم ذرعاً: ضغفت طاقته عن تدبير خلاصهم. [كلمات القرآن للشيخ حسين مخلوف].

(٣) يوم عصيب: شديد شره وبلاءه. [كلمات القرآن].

قيل: لأن الملائكة قد جاءوا على الشكل المعروف من الجمال ، فحين يُقال: «فلان ملك» ، أى: أن شكله جميل<sup>(١)</sup>.

ولوط - عليه السلام - يعلم أن آفة قومه هى إتيان الذكور ، وامراته تعلم هذه الآفة ، لكن موقفها من ذلك غير موقف لوط ، فهى ترحب بتلك الآفة .

ويُقال: إنها تنبّهت لمجيء الرجال الحسان - ولم تعرف أنهم ملائكة العذاب - وصعدت إلى سطح المنزل ، وصفقت لعل القوم يتجهون لها ، فلم يلتفت لها أحد ، فأشعلت ناراً فانتبه لها القوم ، وأشارت لهم بما يعبر عن مجيء ضيوف يتميزون بالجمال<sup>(٢)</sup>.

وهنا قال لوط عليه السلام:

﴿ .. هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ (٧٧)

[هود]

أى: يوم شديد المتاعب.

ويقال: «يوم عصيب» و «يوم عصبصب»<sup>(٣)</sup> ، ومنه «العُصْبَةُ»<sup>(٤)</sup> وهم جماعة يتكاتفون على شيء ، ويقوى الفرد بمجموعهم ، وقد صدق ظن لوط .

وفى هذا يقول الحق سبحانه عن ذلك :

(١) وهذا هو ما قالت صويحبات يوسف عليه السلام ، عندما أدخلته امرأة العزيز عليهن: ﴿ .. فلما رأتهن أكبرتهن وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا مقلب كريم ﴾ (٥٥) [يوسف].

(٢) وتلك كانت خيانتها لزوجها لوط عليه السلام ، أنها كانت تدل قومه على أهياف لوط ليفعلوا معهم المنكر ، وقد قال رب العزة عن امرأة نوح وامرأة لوط: ﴿ كانتا تحت عيني من عبادنا صالحين فخانتاهما .. ﴾ (٥٦) [التحريم].

(٣) قال الفراء: يوم عصيب ، وعصبصب: شديد ، وقيل: هو الشديد الحر . وقال أبو الملاء: يوم عصبصب بارد ذو سحاب كثير ، لا يظهر فيه من السماء شيء . [لسان العرب: مادة (ع ص ب)].

(٤) العصبة والعصابة: جماعة ما بين العشرة إلى الأربعين . قال تعالى: ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ .. ﴾ (٥٦) [يوسف] قال الأخفش: والعصبة والعصابة جماعة ليس لها واحد . [لسان العرب: مادة (ع ص ب)].



﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾<sup>(١)</sup>  
 قَالَ يَنْقَوْمِرْ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ  
 فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾

وقول الحق سبحانه: ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ .. (٧٨) ﴾

أى: يسرعون إليه فى تدافق ، والإنسان إذا لم يكن قد مرن على الشر وله به  
 دربة ، يكون متردداً خائفاً ، أما من له دربة فهو يقبل على الشر بجراة ونشاط .

وكلمة «يهرعون» هى من الألفاظ العجيبة فى اللغة العربية ، والفاظ  
 اللغة تجد فيها فعلاً له فاعل ، كقولنا: «يضرب زيدُ عمرو» أى: أن الضارب  
 هو «زيد» والمضروب هو «عمرو» ، ونقول: «يُضْرَبُ عمرو» أى: أننا بنينا  
 الفعل للمجهول ، وسمى عمرو «نائب فاعل» .

أما فى الفعل «يُهْرَعُ» فلا نجد أحداً يقول: «يُهرع» إلا ويكون بعدها فاعل  
 وليس نائب فاعل ، مثلها مثل الفعل «جُنَّ» فهل هناك من يأتى لنفسه  
 بالجنون ، أم أن الجنون هو الذى جاءه؟ لا أحد يعرف سبب الجنون؟  
 ولذلك بُنيت الكلمة للمجهول ، ولكن ما يأتى بعدها يكون فاعلاً . وهذا  
 من إعجاز البيان القرآنى .

(١) الهرع: المشى فى اضطراب وسرعة ، وأقبل بهرع ، وأهرع - مجهولاً - فهو مهرع: يردد من ضعف ،  
 أو خوف . والمهروع: المجنون بصرع . [مختار القاموس] .

(٢) الرشيد: من أسماء الله الحسنى ، ولم يوصف الله به فى القرآن . ورشد يرشد رشداً ورشاداً: أصاب  
 وجه الصواب والخير والحق . والرشد: ضد الغي والضلال . والرشد: ضد السفه وصوه التبشير ، وبلغ  
 رشده: بلغ كمال عقله وحسن نصريقه للأمور . قال تعالى: ﴿ فَدُتِّينِ الرُّشْدَ مِنَ الْغَىِّ .. (٢٥٣) ﴾  
 [البقرة] . وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ .. (٥٤) ﴾ [الأنبياء] أى: هديناه إلى الحق والخير  
 والصواب . وقال تعالى - ما جاء على لسان الكفار - : ﴿ .. إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَكِيمُ الرَّشِيدُ (٥٧) ﴾ [هود]  
 وقصدهم الاستهزاء بنى الله شعيب - عليه السلام - بوصفه بأنه وحده من بينهم الحكيم الرشيد ، وهم  
 يعتقدون عكس ذلك . [القاموس القويم ١/ ٢٦٦] بتصريف .

وكذلك نقول: «زَكِمَ فلان» فمن الذى أصابه بالزكام؟ لا نعرف سبباً ظاهراً للزكام.

إذن: فإذا جُهِلَ الفاعل فنحن نبني الفعل للمجهول ، ولكن ما يأتى بعده يكون فاعلاً.

وقوله تعالى:

﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ .. (٧٨)﴾ [هود]

يبين أنهم أقبلوا باندفاع ، كأنهم يعشقون ما يذهبون إليه ؛ لأن كلاً منهم له درجة على ذلك الفعل المشين ، أو أن كلاً منهم ذاهب إلى ما يحب دون تهيب ، باندفاع من نفسه ودفع من غيره ، مثلما تقول: «سنوزع تمويناً بالمجان» ؛ هنا تجمد الناس يتدافعون ، كل منهم من تلقاء نفسه ، وغيره يدفعه ليرتد إلى الوراء.

وقوم لوط كانوا على درجة بتلك الفاحشة.

يقول الحق سبحانه عنهم:

﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ .. (٧٨)﴾ [هود]

أى: أن هذه المسألة عندهم كانت محبوبة ، ولهم درجة عليها وخفيفة على قلوبهم ، ولا حياء يمنعهم عنها.

فالحياء يعنى أن بعض الناس يعمل السيئة ويخشى الآخرون أن يفعلوها ، لكن إذا ما كانوا كلهم يحبون تلك السيئة ، فلن يمحجل أحد من الآخر<sup>(١)</sup>.

(١) وليس أدل على حبهم الشديد لهذه الفعلة وعدم حياتهم من إتيانهم إياها أنهم كانوا يأتون بها في ناديهم وهو مجلسهم حيث يجتمعون للحديث والتشاور ، قال الحق: ﴿اتَّكُمُ النَّاتُونَ الرِّجَالِ وَتَقَطُّونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ .. (٩٥)﴾ [المنكيات] وما كانوا يأتونه أيضاً في مجالسهم: الضرابط ، والصفير ، ولعب الحمام ، والسخرية من أبناء السبيل . [القاموس القويم] ، والدر المنثور للسيوطي . [٢٦١/٦]

وماذا يكون موقف لوط - عليه السلام - في هذا اليوم العصيب؟ لقد أقبلوا عليه بسرعة ، وفي كركبة واندفاع ، وهو يعلم نياتهم ويعلم سوابقهم ، وفكر لوط - عليه السلام - في أن يصرفهم انصرفاً من جنس اندفاعهم .

يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي مِنْ أَطْهَرِ لَكُمْ .. ﴾ (٧٨) [هود]

وقد قال ذلك لأن المرأة مخلوقة لذلك ، ومن الممكن أن يتزوجوا من بناته .

وكان العرف في أيام لوط عليه السلام لا يمنع أن يزوج المؤمن ابنته لغير المؤمن؟ وقد زوج رسول الله ﷺ إحدى بناته لعتبة بن أبي لهب ، وأخرى لأبي العاص بن الربيع؟ قبل تحريم الحق سبحانه تزويج المؤمنة لغير المؤمن .

فهل كان المقصود : بناته من صلبه أم بنات أمته ، أم بنات المؤمنين به ؟ وقد قيل : إنه لم يؤمن بالله إلا لوط وابنتاه ، فكيف يكون الزواج لابنتين من كل هذا العدد من الرجال المتدافعين؟

وقيل : إنه بحث عن السادة الأقوياء الذين بيدهم القرار ، وأراد أن يراضيه بهذا الزواج ؛ لعلهم يرجعون عن الفواحش والسيئات ، وفي هذا طهر لهم ، وبذلك يحفظون كرامته أمام ضيوفه .

يقول لوط عليه السلام :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْا فِي ضَيْفِي .. ﴾ (٧٨) [هود]

وكلمة «ضيف»<sup>(١)</sup> - كما نعلم - جاءت هنا مفردة ، ولكنها تطلق

(١) ضافه بضمه ضيفاً : نزل عنده فهو ضائف ، مؤنث اسم المفعول : مضيف . والضيف : مصدر يوصف به بلفظه فلا يتنى ولا يجمع ولا يؤنث ، وقد يجمع على ضيوف ، وضيفان . قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ (٧٨) [الحجر] أي : هؤلاء ضيفي فلا تفصحوني بالتعدي عليهم ، و«ضيف» هنا بلفظ المفرد وهو لعدد من الملائكة . [القاموس القويم] .

أيضاً على الجمع ، والمثنى ، وتصلح للدلالة على المذكر وعلى المؤنث أيضاً ، فإن جاء ضيف واحد تقول : « هذا ضيفي » ، وإن جاء اثنان تقول : « هذان ضيفي » ، وإن كانت امرأة تقول : « هذه ضيفي » ، وإن كانتا امرأتين تقول : « هاتان ضيفي » ، وإن جاءت جماعة تقول : « هؤلاء ضيفي »<sup>(١)</sup> .

والحق سبحانه يقول :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٤٤) ﴾ [الذاريات]

وهناك ألفاظ أخرى كذلك في اللغة مثل : كلمة « طفل »<sup>(٢)</sup> فهي مفرد ؛ ولكنها قد تطلق على الجماعة ، إلا أن كلمة « طفل » وُجِدَ لها جمع هو « أطفال » .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلَا يُدِينُ رِبِّتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبَنَّ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُدِينُ رِبِّتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ<sup>(٣)</sup> أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ

(١) يقول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ إِنْ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُون (٥٤) ﴾ [الحجر] .

(٢) الطفل (بكسر الطاء) : هو الصغير من كل شيء ، والطفل من الإنسان : الولد ما دام صغيراً . ويستوى فيه المفرد وغيره ، وجاء الجمع في قوله تعالى : ﴿ أَوِ الْبَطْلَ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٥٦) ﴾ [النور] أي : الأطفال ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُفَرِّجُكُمْ طِفْلاً .. (٥٠) ﴾ [الحج] أي : أطفالاً . وجمع الطفل : أطفال ، وجاء في القرآن : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا .. (٥٩) ﴾ [النور] [القاموس القويم ١/ ٤٠٣] بتصريف .

(٣) بعولتهن : أزواجهن .

أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ<sup>(١)</sup> مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ الَّذِينَ  
لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٣١) ﴿ [النور]

إذن: فكلمة «طفل» تطلق أيضاً ، ويراد بها الجماعة.

وهنا يطلب لوط عليه السلام من قومه ألا يخزوه<sup>(٢)</sup> في ضيفه ، والخزى  
فضيحة أمام النفس وأمام الناس.

والإنسان قد تهون عليه نفسه ويُقبل على العمل السيئ ما لم يره أحد ،  
أما أن يراه الناس ، ففي هذا فضح له ؛ فالفضيحة تكون بين جمهرة  
الناس ، والهوان أن يكون العمل السيئ بينه وبين نفسه.

ويتساءل لوط عليه السلام:

﴿ .. أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ (٧٨) ﴿ [هود]

أى: ألا يوجد بينكم رجل له عقل ومروءة وكرامة<sup>(٣)</sup> ، يمنع هذه  
المسألة.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

(١) الإرب: الحاجة التي تقتضى الاحتياط لها وكذلك الأربة والمأرب. قال تعالى: ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ  
مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ .. (٣١)﴾ [النور] أى: غير ذوى الحاجة إلى النساء ، أى: اللهن ليس لهم شهوة  
لكبرهم أو عجزهم أو صغرهم. وقوله: ﴿ .. وَلِي فِيهَا مَأْوٍ أُخْرَى ﴾ (٧٨) ﴿ [طه] أى: حاجات وأغراض  
كثيرة أخرى كالتقاء غير أو غير ذلك.

(٢) أخزاه فلان: أهانه وفضحه. قال تعالى: ﴿وَمِمَّا أَنْتَ مِنْ تَشْجِلِ النَّارِ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ .. (١١٢)﴾ [آل عمران]  
ومن دعاء القرآن: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُنْفَخُونَ ﴾ (٨٧) ﴿ [الشعراء] ، وقال تعالى: ﴿فَاظْكُرُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي  
صَلَاتِي .. (٧٨)﴾ [هود] أى: لا تهينوني ولا تفضحوني بإهانة ضيفي ، وحذفت ياء التكلم من كلمة  
«تخزونى» رسماً ونطقاً وتخفيفاً. [المقاموس القويم ١/ ١٩٢].

(٣) ومن معانى الرشد أيضاً أن يكون شديداً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويكون صالحاً مصلحاً هادياً  
مستقيماً مرشداً حكيماً. انظر تفسير القرطبي ٤/ ٢٣٩٦.

﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾<sup>(١)</sup>

هذه الآية تحمل رد المتدافعين طلباً للفحشاء من قوم لوط ؛ فقد قالوا له : أنت تعلم مقصدنا ، وليس لنا في بناتك أية حاجة نعتبرها غاية لمجيئنا .

وكان هذا يعنى الإعراض عن قبول نصحه لهم بالتزوج من بناته بدلاً من طلب فعل الفاحشة مع ضيوف لوط ، وهم الملائكة الذين جاءوا في هيئة رجال بلغوا مبلغ الكمال في الجمال .

ويأتى الحق سبحانه برد لوط عليه السلام :

﴿ قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْءَاوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾<sup>(٢)</sup>

وساعة تقرأ كلمة «لو» فهذا هو التمنى ، أى : رجاء أن يكون له قوة يستطيع أن يدفع بها هؤلاء ، وكان لا بد من وجود شرط ، مثل قولنا : «لو أن زيدا عندك لجئت» ، لكن نجد هنا شرطاً ولا جواب ، كأن يقال : «لو أن لى بكم قوة لفعلت كذا وكذا» .

(١) اختلف العلماء في المقصود بالبنات : هل من بنات لوط فعلاً من صلبه ؟ أم أن المقصود بهن نساء قومه ، فالنبي أب لأمته نساء ورجالاً . انظر تفسير ابن كثير (٤٥٣/٢) والقرطبي (٣٣٩٥/٤) والدر المنثور للسيوطي (٤٥٧/٤) .

(٢) قال ابن كثير : «أى : إنك لتعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن شئيهن» . وهو دبر - . تفسيره (٣٣٩٧/٤) : «أن قوم لوط خطبوا بناته فرددهم ، وكذا . سئتهم أن من رد في خطبة امرأة لم يحل له أبداً» .

(٣) أوى المكان ، وأوى إليه يأوى أوتياً : نزله والتجأ إليه . قال تعالى : ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ .. ﴾<sup>(٤)</sup> (الكهف) أى : نزله والتجأ إليه . (القاموس القويم)

(٤) ركن الشيء : جانبه الأقوى . وقوله تعالى : ﴿ .. أَوْءَاوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾<sup>(٥)</sup> (هود) أى : ألتجأ إلى حصن قوى يحمينى ، أو إلى رجل قوى يحمينى وينصرنى عليكم كأنه ركن ممتنع حصين . (القاموس القويم ١/٢٧٦) .

ولذلك يقال إن الملائكة قالت له : إن ركنك لشديد<sup>(١)</sup> ؛ ولذلك قال :

﴿ .. أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ (٨٠) [هود]

والشيء الشديد هو المتجمع تجمعا يصعب فصله ، أو المختلط اختلاطا بمزج يصعب تحلله ؛ لأنك حين تجمع الأشياء ؛ فلما أن تجمع أشياء أجناسها منفصلة ، ولكنك تربطها ربطا قويا ، مثل أن تربط المصلوب على شجرة برباط قوى ، لكن كليهما - المصلوب والشجرة - منفصل عن الآخر وله ذاته ، وهناك ما يُسمى خلطا ، وهناك ما يُسمى مزجا ، والخلط هو أن تخلط أشياء ، وكل شيء منها متميز عن غيره بحيث تستطيع أن تفصله ، أما المزج فلا يمكن فصل الأشياء المترجة ببعضها .

ومثال ذلك : أنك قد تخلط فول التدميس مثلاً مع حبات من الفول السوداني ، وتستطيع أن تفصل الاثنين بعضهما عن بعض ؛ لأنك جمعتهما على استقلال . ولكن إن قُمْتَ بعصر ليمون على كوب من الماء المالح بالسكر ؛ فهذا مزج يصعب حله .

وقد قال لوط عليه السلام ذلك لأنه لم يكن في منعة من قومه ، أهل «سودوم» ويقال : إنها خمس قرى قريبة من «حمص» .

وقد تعجب رسول الله ﷺ من قول لوط ، فقال - فيما رواه البخاري - :  
«رحم الله أخى لوطاً كان يأوى إلى ركن شديد»<sup>(٢)</sup> .

فلهول ما عانى لوط عليه السلام من كرب المفاجأة قال ذلك ، وهو يعلم أنه لا يوجد سند أو ركن أشد من الحق سبحانه وتعالى .

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (٤/٤٥٩) وعزاه لابن جرير الطبري عن وهب بن منبه . وركنه الشديد هنا هو الله سبحانه وتعالى .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣٧٥ ، ٤٦٩٤) وأحمد في مسنده (٣٢٦/٢ ، ٣٣٢ ، ٣٥٠) وابن ماجه في سننه (٤٠٢٦) من حديث أبي هريرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما قالته الملائكة للوط عليه السلام :

﴿ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ  
مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ  
إِن مَّوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ (٨١)

وهكذا علم لوط - لأول مرة - أنهم رسل من الله تعالى ، رغم أنهم حين تكلموا مع إبراهيم لم يقولوا أنهم رسل من الله ؛ ليدلنا على أن إبراهيم عليه السلام كان يعلم أنهم رسل من الحق سبحانه ، لكنه لم يكن يعلم سبب مجيئهم .

وهم حين أخبروا لوطاً : ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ .. ﴾ (٨١) فمن باب أولى ألا يصلوا إليهم ، وتخبر الملائكة لوطاً أن يسرى بأهله ليلاً أى : اخرج بأهلك فى جزء من الليل ، وقد أوضحت الملائكة أن موعد النكال<sup>(١)</sup> يقوم لوط هو الصبح :

﴿ .. إِنْ مَّوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ (٨١) [هود]

(١) القطع والقطعة : الجزء المقطوع . قال تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ .. ﴾ (٨١) [هود] والقطع : جمع «قطعة» . وقوله تعالى : ﴿ كَانُوا أَفْعَتْ وَجُوهُهُمْ قُطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا .. ﴾ (٣٧) [يونس] قطعاً - بكسر القاف وفتح الطاء - ومظلماً : حال من الليل ، وقرئ «قطعاً» - بكسر القاف وسكون الطاء - أى : جزءاً ، وتعرب مظلماً - على هذه القراءة - نعتاً لقوله : «قطعاً» أو حالاً من الليل . [القاموس القويم ١٢٥/٢] .

(٢) النكال : التنكيل والعقوبة الشديدة الزاجرة . قال تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (٢٠) ﴾ [النازعات] أى : عذبه الله عذاباً شديداً بعد حيرة لغيره فى الدنيا والآخرة . وقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٩٦) [البقرة] أى : جعلها الله - بالمعذب الشديد - حيرة لأهل زمانها ، ولمن باتى بعدها ، وللمتقين فى كل زمان . وقال تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ .. ﴾ (٣٨) [المائدة] أى : عقوبة زاجرة فرضها الله تعالى ليحفظ بها الناس . [القاموس القويم] .



لذلك قالوا:

﴿ فَاسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ .. (٨١) ﴾ [هود]

والمقصود أن يترك ربع الليل الأول ، وربعه الآخر ، وأن يسير في نصف الليل الذي بعد ربع الليل الأول وينتهى عند ربع الليل الأخير ، وقيل: إن أليق ما يكون بالقطع هو النصف .

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ<sup>(١)</sup> مِنْكُمْ أَحَدٌ .. (٨١) ﴾ [هود]

والالتفات: هو الانصراف عن الشيء الموجود قبالتك ، ويسمى الانصراف عن المقابل . فهل المقصود هو الالتفات الحسى أم الالتفات المعنوى ؟

نحن نعلم أن لوطاً سيصحب المؤمنين معه ؛ من ديارهم وأموالهم ، وما ألفوه من مقام ومن حياة ؛ لذلك تنبههم الملائكة ألا تتجه قلوبهم إلى ما تركوه ، وعليهم أن ينقذوا أنفسهم ، وسيعوضهم الله سبحانه خيراً مما فاتهم .

هذا هو المقصود بعدم الالتفات المعنوى ، وأيضاً مقصود به عدم الالتفات الحسى .

وتوصى الملائكة لوطاً عليه السلام ألا يصحب امرأته معه ؛ لأنها خائنه بمولاتها للقوم المفسدين ، وإفشائها للأسرار ، وعليه أن يتركها مع الذين يصيبهم العذاب .

(١) التفت الرجل: أمال وجهه ونظر يمنة أو يسرة ، أو انحرف ورجع عن وجهته . قال تعالى: ﴿ فَاسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ .. (٨١) ﴾ [هود] أى: لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، ولا إلى الخلف ، فيرجع وينصرف عن السير معك . [القاموس القويم ١٩٦/٢] .

ولكنها لحظة الخروج ادعت أنها مخلصة للوط ، وقالت : سأخرج حيث تخرج ، ثم نظرت إلى القوم وقالت : وا قوماء ورجعت لتمكث معهم ، ولينالها العذاب الذى نالهم فى الموعد الذى حددته الملائكة وهو الصبح :

﴿ .. إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ <sup>(٨١)</sup> أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود]

وقد تحدد الصبح لإهلاكهم ؛ لأنه وقت الدعة والهدوء فيكون العذاب أشد نكالا .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا

حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ <sup>(٨٢)</sup> ﴾

والحق سبحانه يبين لنا هنا أن الأمر بالعذاب حين يصدر ، فالأمور يستجيب قهراً ، ويقال إن قرى قوم لوط خمس : قرية «سدوم» وقرية «دادوما» وقرية «ضعوه» ، وقرية «عامورا» وقرية «قتم» .

وقوله تعالى :

﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا .. ﴾ <sup>(٨٢)</sup> [هود]

أى : انقلبت انقلاباً تاماً <sup>(٣)</sup> .

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٣٤٠٠ / ٤) : «يحتمل أن يكون جعل الصبح ميقاتاً لهلاكهم ، لأن النفوس فيه أودع ، والناس فيه أجمع» .

(٢) السجّيل : الطين المنحجر . قال تعالى : ﴿ .. وَانظُرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ <sup>(٨٢)</sup> ﴾ [هود] . [القاموس القويم ١ / ٣٠٤] .

(٣) ذكر القرطبي فى تفسيره (٣٤٠٠ / ٤) «أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط ، فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها ، حتى سمع أهل السماء نهيق حميرهم وصياح ديكهم ، لم تنكفئ لهم جرة ، ولم ينكسر لهم إناء ، ثم نكسوا على رؤوسهم ، وأبعمهم الله بالحجارة» .

ويقول القرآن في موضع آخر :

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ <sup>(١)</sup> أَهْوَى <sup>(٢)</sup>﴾ [النجم]

والمؤتفكة من الإفك وهو الكذب المتعمد ، أى : قول نسبة كلامية تخالف الواقع ، ولأن من يقول الإفك <sup>(٣)</sup> إنما يقلب الحقيقة إلى غير الحقيقة زعماً ، ويقلب غير الحقيقة إلى ما يشبه الحقيقة .

كذلك المؤتفكة ، أى : القرى التى جعل عاليها سافلها فانقلبت فيها الأوضاع .

ونفذ أمر الله بأن أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ، وهو طين قد تحجر .

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى <sup>(٤)</sup> ﴿... حِجَارَةً مِّن طِينٍ <sup>(٥)</sup>﴾ [الذاريات]

وكلمة «حجارة» تعطى الإحساس بالصلابة ، أما كلمة «طين» فتعطى إحساساً بالليونة ، ولكن الطين الذى نزل قد تحجر بأمر من الله تعالى ، وهو قد نزل منضوداً . . . أى : يتتابع فى نظام ، وكأن كل حجر يعرف صاحبه ، لأن الحق سبحانه يقول بعد ذلك :

(١) المؤتفكة : القرى المنقلبة عند خسفها . قال تعالى : ﴿وَأَصْحَاب مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ... <sup>(١)</sup>﴾ [التوبة] هى للمخسوفات ، وهى قرى قوم لوط ، جعل الله عاليها سافلها ، وهى المؤتفكة <sup>(٢)</sup> ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى <sup>(٣)</sup>﴾ [النجم] أى : أسفلها ونسفها . [القاموس القويم] .

(٢) الإفك : الكذب ، وأفك : صيغة مبالغة أى : كثير الكذب ، قال تعالى : ﴿تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ <sup>(١)</sup>﴾ [الشعراء] . وقال فى سحرة فرعون : ﴿... إِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ <sup>(٢)</sup>﴾ [الأعراف] . أى : ما يكذبون ويدعون أنه حق ، وهذا يدل على أن السحر تخيل وإيهام ، وليس قلباً لحقائق الأشياء ، فالحيل حيل والتعيان تعيان ، ولكن الساحر يوهم الناس أنه عمل شيئاً وهو لم يعمل شيئاً . [القاموس القويم] .

(٣) كان ذلك فى شأن قوم لوط أيضاً ، قال تعالى فيما قاله إبراهيم عليه السلام للملائكة المرسلين إليه : ﴿قَالَ فَمَا خَبَّكُمْ أَنَّهُ الْمُرْسَلُونَ <sup>(١)</sup> قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ <sup>(٢)</sup> لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ <sup>(٣)</sup> مَسُومَةً بِعِذِّ رَبِّكَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ <sup>(٤)</sup>﴾ [الذاريات] .

## ﴿مُسُومَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (٨٢)

وكلمة «مُسُومَةٌ» أى: مُعلَّمة ، وكأن كل حجر قد تم توجيهه إلى صاحبه ، فهذا الحجر يذهب إلى فلان ، وذاك إلى فلان ، مثل الصواريخ الموجهة إلى البلاد ، ولكن الدقة فى هذه الحجارة أن كل حجر يعرف على من بالتحديد سوف ينزل بالعذاب ، وقد جعلها الحق سبحانه لتعذيب المكين ، أى: الإنسان ، ولا تدمر البلاد .

وهى مُرتبة ، لأن الحق سبحانه قال :

﴿.. سَجِيلٌ مُنْقُودٌ﴾ (٨٢) [هود]

ووردت كلمة ( سجيل ) أيضاً فى قول الحق سبحانه :

﴿.. طَوْرًا أَهَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سَجِيلٍ (٤)﴾ [الفيل]

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿.. وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (٨٢) [هود]

والظالمون هنا مقصود بهم الكافرون برسالة الحق - سبحانه وتعالى - التى تتابعت فى الموكب الرسالى وخاتمها هو محمد ﷺ .

ونحن نعلم أن القصص القرآنى قد نزل تسليّة وثباتاً ييقين لرسول الله ﷺ وتذكرة بالأسوة :

﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ..﴾ (١٢٠) [هود]

(١) نفى الشئ بنفيه: جعل بعضه فوق بعض ، أو بجانب بعض فى نظام ، فهو منقود ونفيس ، أى: منظم . قال تعالى: ﴿وَالْفَخْلَ بِأَسْفَافٍ لَهَا طَلْعٌ نَفِيسٌ (٥)﴾ [ق] أى: مرصوص بنظام . ومثله قوله تعالى: ﴿وَطَلْعٌ مُنْقُودٌ (٦)﴾ [الواقعة] . أما قوله تعالى: ﴿.. مِّن سَجِيلٍ مُنْقُودٍ (٤)﴾ [هود] أى: متابع منظم السقوط عليهم . [القاموس القويم] .

وتحكي القصص المأزكة التي قامت بين كل رسول مُؤيّد بمعجزة من الله ، وبين المنكرين له والكافرين به ، وقد انتهت كل هذه المأزكة بنصرة الرسول على الكافرين ، إلا أن الرسل السابقين لم يُكَلِّفُوا أن يقاتلوا من أجل الإيمان ، بل كان عليهم أن يعلنوا الحجة الإيمانية فقط ، وأن يبلغوا المنهج ، فإن عصى القوم ؛ فالسما هي التي تتدخل لتأديب المخالفين .

والحق سبحانه يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ (١) ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَتَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ (١٣) عَذَابٍ (١٤) إِنَّ رَبَّكَ لَبَازِعٌ صَادٍ (١٥) ﴾ [الفجر]

(١) إرم : اسم قبيلة منها «عاد» ، وقيل : هي مدينة كبيرة لهم ، وزعم الكندي في كتابه «فضائل مصر» أنها مدينة الإسكندرية . وقوله تعالى : ﴿ .. ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) ﴾ [الفجر] يدل على أنها ذات حضارة ومبان صلبة . [القاموس القويم ١/ ١٨] .

(٢) جابه بجريه جوباً : قطعه . وقوله : ﴿ .. جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) ﴾ [الفجر] أي : قطعوه ونحتوه وصنعوا منه بيوتهم وأصنامهم ، وحلفت بآء الوادي في رسم المصحف . [القاموس القويم ١/ ١٣٥] .  
(٣) الأوتاد : جمع وتد . والتود : قطعة مستطيلة من الخشب أو الحديد تثبت في الأرض ثم يشد بها حبل يملك الدابة أو سقف الخيمة ، وشبهت الجبال بالأوتاد ؛ لأنها تحفظ توازن الأرض وتثبتها . قال تعالى : ﴿ وَالْجِبَالُ أَوْتَادُ (٧) ﴾ [النبا] وقال أيضاً : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٥) ﴾ [الفجر] قيل : هم الجنود الذين يشتون ملكه . وقيل : إنها أوتاد حقيقية كان يشد إليها من يريد تعذيبهم من الناس ، ولعل المراد بها الأهرام التي بناها فرعون ، تشبه الجبال . [القاموس القويم ٢/ ٣١٨] .

(٤) السوط : الجلد الذي يضر به ، وسُمي سوطاً لأنه يخلط الدم باللحم . وقوله تعالى : ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) ﴾ [الفجر] وحبر عن الضرب بالسوط بالفعل «صب» ليفيد دوام الألم وشموله ، كأنه صب ألم الضرب فوقهم صبا فأغرقهم فيه كما يصب الماء على الجسم فيحمره . أو السوط : الخلط ، فالعذاب مختلط متنوع ، فصب عليهم من العذاب أخلاطاً متنوعة . [القاموس القويم] .

(٥) المرصد : اسم مكان الرصد ؛ كالمُرْصَد . قال تعالى : ﴿ وَالْعُدُو لَهُمْ كُلٌّ مِرْصَدٌ .. (٥) ﴾ [التوبة] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٧١) ﴾ [النبا] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبَازِعٌ صَادٍ (١٥) ﴾ [الفجر] والمراد : أن الحق سبحانه رقيب عليهم ويحصى جميع ذنوبهم - مهما صغرت - ليعاقبهم عليها . [القاموس القويم ١/ ٢٦٦] بتصرف .

ولكن الأمر اختلف بمجىء محمد ﷺ ، لأن دين محمد ﷺ هو الدين الذى تقوم عليه الساعة ، وقومه مأمونون على البلاغ عن الله تعالى خلافة للرسول ﷺ .

وعلى كل واحد من أمة محمد ﷺ يعلم حكماً من أحكام الله تعالى أن يبلغه ؛ لأنه قائم مقام الرسول ﷺ .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا <sup>(١)</sup> لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. (١١٣) ﴾ [البقرة]

إذن : فكل واحد من أمة محمد ﷺ هو امتداد لرسالة الإسلام ، وبدلاً من أن السماء كانت تتدخل لتأديب الكافرين ، جعل الله سبحانه لأمة محمد ﷺ أن يقفوا بالقوة أمام الكافرين ، لا لفرض الإيمان ؛ لأن الإيمان لا يُفرض ، ولا يُكره عليه ؛ لأنك قد تُكره إنساناً فى الأمور الحسية ، لكنك لا تستطيع أن تملك قلبه ، والحق سبحانه يريد الإيمان الغيبي الذى يملك القلوب .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ <sup>(٢)</sup> نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢) إِنْ نَشَأْ نُنزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) ﴾ [الشعراء]

إذن : فالحق سبحانه يريد قلوباً تخشع ، لا أعناقاً تخضع .

(١) الوسط : مصدر ، ويسمى به الشيء المتوسط ، ولأنه مصدر يوصف به المفرد وغيره ، بلفظه . قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا .. (١١٣) ﴾ [البقرة] . أى : أمة فاضلة خيرة ، خير الأم ، فالوسط خير الطرفين ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ .. (٣١) ﴾ [آل عمران] .  
(٢) باخع نفسه بخملاً وبخوراً : اتلها همأً وغيظاً وحزناً . قال تعالى : ﴿ فَظَلَّتْ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٤) ﴾ [الكهف] . [القاموس القويم] .

وهكذا قُرِئَتْ أمة محمد ﷺ تفويضين: قُرِئَتْ في نقل رسالة محمد ﷺ إلى الأجيال ، وكل جيل ينقلها إلى الجيل الذي يليه .

وما هو ﷺ يقول: «نَصَّرَ اللهُ امرأَ سَمْعٍ مَقَالَتِي فَوَعَاها وَأَدَاها إلى من لم يسمِعها ، فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى من سَامِعٍ»<sup>(١)</sup> .

وقُرِئَتْ أمة محمد ﷺ في أن تقف من الكافرين موقف تأديب ، لا لتفرض الدين ولكن لتحمي حق اختيار الدين ، فلم يحدث أن رُفِعَ سيفٌ في الإسلام ليفرض ديناً ؛ بل رفع السيف ليحمي حرية اختيار الإنسان للدين .

يقول سبحانه :

﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ .. ﴾ (٢٩) [الكهف]

فإذا آمن فعليه الالتزام بالإيمان ، فلا يكسر حكماً من أحكام الإيمان ، وهذا تصعب للدخول في الإسلام ، فمن أين يأتي ادعاء فرض الدين على المخالفين ؟!

إذن: فقد آمن المؤمن من أمة محمد ﷺ إيمانين: الإيمان الأول هو أن يؤمن بالإسلام ، والإيمان الثاني أن يبلغ الدعوة .

ولذلك قال رسول الله ﷺ : «علماء أمي كأنبياء بني إسرائيل»<sup>(٢)</sup> .

فهل المقصود بالعلماء هم من يعلمون العلم فقط ؛ لا ، بل يقصد كل من يعرف قضية من قضايا الإيمان معرفة سليمة وصحيحة ، وينساح

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٧/١) والترمذي في سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وابن ماجه في سننه (٢٣٢) والحميدي (٤٧/١) من حديث عبد الله بن مسعود .

(٢) أورده السيوطي في الدرر المنتثرة (٢٩٣) وقال: لا أصل له . قال الشوكاني في الفوائد للجموعة (ص ٢٨٦) : قال ابن حجر والزرخشى: لا أصل له . وانظر كشف الخفاء للمجلوني (٢/٨٣) .

ويؤخذ من الحديث أن نوفر من العلماء الصدق والأمانة في البلاغ والذكاء في العرض .

بالدعوة فى الأرض ليعلم غير المؤمنين ويترك الناس أحراراً فى اختيار الدين .

وكذلك يقف المؤمنون برسالة رسول الله ﷺ لآية قوة تحارب حرية اختيار الدين .

وهكذا جاءت قصص القرآن لتثبيت فؤاده ﷺ .

ونحن نعلم أن الحق سبحانه قد بعث المصطفى ﷺ وهو فى مكة ، فصرخ بالدعوة ، لا فى أذان القبائل الواهية فى أطراف الجزيرة ، ولكن فى أذان سادة الجزيرة ، حتى لا يقال : إنه استضعف قوماً فناداهم إلى الإيمان به ، ولم يجرؤ على السادة ، وهم قريش ، التى أخذت السيادة بحكم إقامتها فى مكان البيت العتيق ، وكان كل العرب يحججون إلى البيت الحرام ، فإذا ما تعرضت قبيلة لقريش بسوء ، فقريش قادرة على أن تنال من أبناء تلك القبيلة حين يحججون إلى البيت الحرام .

وهكذا أخذت قريش هيبتها من وجودها حول البيت .

إذن : فالبيت هو الذى صنع السيادة لقريش ، وهو الذى صنع السيادة للآلهة المدعاة من الأصنام حين يأتى كل قوم باللهم من الحجر ؛ ليضعوه فى البيت ؛ ليكتسب الحجر قداسة من قداسة البيت .

إذن : فقد أخذت قريش السيادة من البيت الحرام ، وجاء رسول الله ﷺ فأعلن الدعوة على أسماع السادة ، وسَفَّهَ<sup>(١)</sup> أحلامهم ، ولم يُيَالِ بجبروتهم وسيادتهم على الجزيرة .

(١) سفَّهت الرجل : أى : رميته بالسفه ، ونسبته إلى الطيش والجهل ، وسفه نفسه : حملها على الجهل والطيش فكأنه جعل نفسه سفهاً . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ مِنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفْهٍ نَفْسَهُ . ﴾ (١٢٧) [البقرة] . وسفه أحلامهم : اتهمهم بالسفه والجهل . والأحلام - هنا - هى العقول [القاموس القرين ١/ ٣١٧] .



لكن الحق سبحانه قد شاء ألا يكون انتصار الإسلام على يد السادة من قريش في مكة ، بل جاء انطلاق الإسلام من المدينة ؛ لأن الله سبحانه أراد أن يُعلم الدنيا كلها أن العصبية لمحمد لم تخلق الإيمان بمحمد .

ولكن الله تعالى قد شاء أن يكون المستضعفون من أطراف الجزيرة هم الذين نصرروا الدعوة ؛ فكان الإيمان بمحمد ﷺ هو الذى خلق العصبية لمحمد للحق الممثل فى رسالة محمد ، ولم تخلق العصبية لمحمد إيماناً به وبرسالته .

وإذا كان الحق سبحانه قد نعتهم بالظالمين ، وبيّن لهم أن المكان الذى قُلبَ عاليه أسفله ، ليس ببعيد عنهم ، فهل لهم أن يتخذوا من ذلك عبرة ؟ والظلم - كما نعلم - هو مجاوزة الحق للغير ، أى : أن تأخذ حق الغير وتعطيه لغير ذى حق ، فإذا كان ظلماً فى الألوهية ، فهذا هو الشرك العظيم ، وإن كان ظلماً فى إعطاء حق من حقوق الدنيا للغير ، فهو ظلم للإنسانية ، والظلم درجات بحسب الجريمة .

وقد ظلمت قريش نفسها ظلماً عظيماً ؛ لأنها أشركت بالله ؛ وجعلت له شركاء فى الألوهية ؛ وهذا أقصى أنواع الظلم .

والله سبحانه يريد أن يذكر هؤلاء الظالمين بأن عذاب الله حين يجرى ، أو أمر الله حين يأتى ؛ لا يمكن أن يقوم أمامه قائم يمنعه ، فتنبهوا جيداً إلى أنكم عرضة أن يُنزل الله تعالى بكم العذاب كما أنزل بهذه القرى ؛ وهى غير بعيدة عنكم ، فالمسافة بين المدينة والشام قد تبدو مسافة طويلة إلا أن الله تعالى قد جعلهم يمرون عليها فى كل رحلة من رحلات الصيف إلى الشام<sup>(١)</sup> .

(١) وفى هذا يقول سبحانه : ﴿ وَإِنْ لَوْ طَأَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (٣٨) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (٣٩) ثُمَّ دَرَجَاتٍ الْآخِرِينَ (٤٠) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (٤١) وَبِاللَّيْلِ أَفْلا تَنْظُرُونَ (٤٢) ﴾ [المصافات] .

إذن: فهي قرى تقع على طريق مسلوكة ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه عن موقعها:

﴿وَأِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦)﴾ [الحجر]

أى: بطريق تمرّون عليها ، لا يجرفها سيل ، ولا يغير معالمها ريح . بل هي طريق ثابتة مقيمة تمرّون عليها حينما تذهبون فى رحلة الصيف إلى الشام ، فكان من الواجب أن تأخذوا فى كل مرور لقطعة وعبرة ؛ حتى لا تقعوا فى ظلم آخر .

وقد نهىكم الله سبحانه أيضاً بمروركم على ديار قوم صالح الذين خاطبهم الحق سبحانه بقوله :

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ <sup>(١)</sup> آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ <sup>(٢)</sup> لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ <sup>(٣)</sup> جِبَارِينَ (١٣٠)﴾ [الشعراء]

هكذا ترون ديار ثمود وديار عاد وديار لوط وهى خاوية ، وكان من الواجب - معشر قريش - ألا تبالغوا فى الظلم ، وأن تتبهاوا بالعبرة إلى مصير كل من يشرك بالله تعالى .

(١) الرّيع - بكسر الراء - : الجبل ، أو ما يشبهه من المباني المرتفعة أو المكان المرتفع . قال تعالى : ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨)﴾ [الشعراء] . [القاموس القويم] .

(٢) ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ (١٢٩)﴾ [الشعراء] أى : أبنية عالية وقصوراً متينة تحسّنون صنعها راجين أن تخلدوا فيها ، ولستم بخالدين . [القاموس القويم] .

(٣) بطش به بطشاً : أخذه بعنف وشدة . قال تعالى : ﴿إِنْ بَطِشَ ذَلِكَ لَعْنَةً (١٧)﴾ [البروج] . والجبر : القهر . وجبره : قهره وأكرهه على أمر . والجبار : صيغة مبالغة . والجبار من الناس : العاتى المتمرد للسلط . وقال تعالى : ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ .. (٢٦)﴾ [المائدة] . وقال تعالى : ﴿... وَخَافَ كُلُّ جَبَّارٍ عِيدَ (٥٤)﴾ [إبراهيم] . [القاموس القويم ١/ ٧٢] بتصرف .

ويلفتهم الحق سبحانه إلى أنهم لم يكفروا بحق الألوهية فقط ، ولكنهم - أيضاً - كفروا بشكر النعمة ، وظلموا ؛ لأن الله سبحانه هو الذى أنعم عليهم برحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشام ، والرحلتان للتجارة التى تأتى بالزيادة لقريش ؛ لأنهم يخرجون بالأموال ويعودون بالبضائع التى يبيعونها لأهل مكة ، ولزوار بيت الله الحرام .

وقد أخذت قريش مهابتها عند كل قوم يمرون عليهم أثناء الرحلتين ، من أنهم يعيشون حول البيت الحرام ، لذلك يمتن الله سبحانه على قريش فى قوله سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾

[الفيل]

فالقوم الذين جاءوا ليهدموا البيت الحرام - وهو رمز السيادة - لو هدم وتحول الحجيج إلى صنعاء ، لسقطت مهابة قريش ، ولكن الله تعالى حمى البيت وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، وجعل الذين قصدوه بسوء كعصف مأكول .

لماذا صنع الله تعالى ذلك ؟

تأتى الإجابة فى السورة التالية لسورة الفيل حيث يقول الحق سبحانه فى سورة قريش :

(١) كيدهم : سعيهم لتخريب الكعبة . تضليل : تضييع وإبطال وخسار . طيراً أبابيل : جماعات متفرقة متتابعة . سجيل : طين متحجر محرق (أجر) . كعصف مأكول : كتين أكلته الدواب فرائته . [كلمات القرآن - للشيخ حسنين مخلوف] .

﴿لَا يَلَاِفَ<sup>(١)</sup> قُرَيْشٍ (١) إِلَّا فِيهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤)﴾ [قريش]

إذن: كان من الواجب حين يمرون على هذه الديار أن يأخذوا منها عبرة ، وأنهم - وإن كانوا يمرون على هذه الديار بقصد التجارة وهي سر معاشهم - إذا لم يأخذوا من هؤلاء العبرة فهم يقتربون ظلماً جديداً آخر .

لذلك يقول الحق سبحانه:

﴿.. وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٢)﴾ [هود]

أو : أن الله سبحانه وتعالى أراد أن ينبه قريشاً إلى أن الهلاك الذي نزل بهؤلاء القوم المشركين ، ليس يبعد أن يصيب قريشاً ، وأن يرسل الله سبحانه على كل واحد من الكافرين به حجراً مسوماً يصيبه في مكانه الذي يكون فيه .

والسطحيون - في اللغة - يخطئون فيأخذون على القرآن مأخذ ، لا تلتفت إليها الملكة الصحيحة في اللغة ، ويقولون: كيف يقول الله:

﴿.. وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٢)﴾ [هود]

وكلمة «ما هي» مؤنثة ، وتقتضى أن يقول: «بعيدة» بدلاً من كلمة «بعيد» ، أى: أن يكون القول: «وما هي من الظالمين ببعيدة» ونسوا أن المتكلم هو الله تعالى ، وأنهم لم يدرسوا اللغة دراسة صحيحة ؛ لأن «فعليل» إن جاءت بمعنى «مفعول» ، فهذا يستوى المذكر والمؤنث .

(١) لإيلاف قريش: أجبوا لإيلافهم الرحلتين وتركهم عبادة رب البيت [كلمات القرآن].

ومثال ذلك من القرآن الكريم أيضاً هو قول الحق سبحانه :

﴿ .. وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ <sup>(١)</sup> ﴾ (٤)

[التحرير]

وقول الحق سبحانه :

﴿ .. إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ <sup>(٢)</sup> مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٥٦)

[الأعراف]

إذن : فعدم درايتهم باللغة هو الذي جعلهم يخطئون مثل هذا الخطأ .

ويأتى الحق سبحانه بعد ذلك بقصة أخرى من القصص التى جاء بها الله فى هذه السورة لموكب الرسل ، فبأتى بقصة شعيب عليه السلام ، ويقول سبحانه :

﴿ وَإِنْ مَدَّيْنِ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَرُوا عِبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمَكِّيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ <sup>(٣)</sup> ﴾ (٨٤)

(١) الظهير : المعين المساعد كأنه يسند ظهر من يعاونه . قال تعالى : ﴿ .. وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ <sup>(١)</sup> ﴾ [سبا] وقال تعالى : ﴿ .. وَلَوْ كَانَ مِنْهُمْ لَظَهِيرٌ <sup>(٢)</sup> ﴾ [الإسراء] أى : معيناً مساعداً . وقال تعالى : ﴿ .. وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا <sup>(٣)</sup> ﴾ [الفرقان] أى : معاوناً أعداء الله ضد الله وضد كتبه وضد رسله - وتعالى الله عما يفعلون . [القاموس القويم ١/ ٤١٨] .

(٢) قرب الشيء من الشيء ، يقرب قريباً : دنا منه فهو قريب قرب مسافة ، فيستوى فيه للذكر والمؤنث ، قال تعالى : ﴿ .. إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف] أى : مكانها قريب منهم ، وأما قرابة النسب فتطابق الموصوف فتقول : هو قريب لى وهى قريبة لى فى النسب والرحم . [القاموس القويم ٢/ ١٠٨] .

(٣) قال القرطبي فى تفسيره (٤/ ٣٤٠٤) : «فى تسميتهم بذلك قولان : أحدهما : أنهم بنو مدين بن إبراهيم ، فليل : مدين ، والمراد بنو مدين . كما يقال مضر والمراد بنو مضر .

الثانى : أنه اسم مدينتهم ، فنسبوا إليها . قال النحاس : لا يتصرف مدين لأنه اسم مدينة» .

(٤) كال القمح يكيله كيلاً : قدره بمكيال ، وهو وعاء له سعة معلومة اتفق الناس على التقدير به . قال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْمِكْيَالَ إِذَا كَلَّمْتُمْ <sup>(١)</sup> ﴾ [الإسراء] والمكيال : مصدر «كال» ، ويطلق على المكيال . والمكيال يستخدم لكيل الحبوب . وإذا نقص المكيال نقص ما يكال به ، فالله سبحانه وتعالى ينهى عن أن ينقص للؤمن شيئاً عما يبيعه للناس ، أو ما يكيله لهم . [القاموس القويم ٢/ ١٨٢] يتصرف . وجمع مكيال : مكاييل . وجمع كيل : أكياال . والكيلة : وعاء يكال به الحبوب ومقداره الآن ثمانية أقداح ، والجمع : كيالات . [المعجم الوسيط] .

(٥) يوم محيط : مهلك . [كلمات القرآن] .

و«مدين» هو اسم ابن إبراهيم عليه السلام ، ولم يكن هذا الابن موجوداً وقت بعثة شعيب ، لكن القبيلة التي تناسلت منه سُمِّيت باسمه ، وكذلك القرية التي أقامت فيها القبيلة سميت باسمه ، فإن قلت إن شعيباً أرسل لقبيلة مدين ، فهذا قول سليم ، وإن قلت إنه أرسل لقرية مدين ، فهذا قول سليم أيضاً ؛ لأن القرية لا بد لها من سكان .

والحق سبحانه يقول على لسان إخوة يوسف عليه السلام :

﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢)﴾ [يوسف]  
والمقصود «أسأل أهل القرية»<sup>(١)</sup> .

إذن : فمرة يطلق الاسم على المكان ، ومرة يطلق المكان ويراد به المكين . وقد بدأ شعيب رسالته مع قومه من حيث بدأ كل الرسل بالدعوة إلى قمة التدين ، وهو أن يعبدوا الله وحده لا شريك له ولا إله غيره ، وهذا هو القدر المشترك في كل الرسالات .

والحق سبحانه يقول :

﴿شَرَعَ<sup>(٢)</sup> لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي<sup>(٣)</sup> إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣)﴾ [الشورى]

إذن : فقمة الدين هي قضية العقيدة الإيمانية ، وهي عبادة الله تعالى وحده ولا إله غيره ، لأن الحق سبحانه حين يوجه الأوامر التكليفية «افعل»

(١) الآية فيها مجاز بالحذف ، وهو أحد فنون البلاغة .  
(٢) شرع الشيء : بينه وأوضحه . والشرعة والشرعة : ما شرعه الله ويؤتاه من العقائد والأحكام . [القاموس القويم] بتصرف .  
(٣) الاجتباء : الاختيار والاستخلاص والاصطفاء . [القاموس القويم ١/ ١١٧] .

## سُورَةُ هُودٍ

٦٥٩٧

و «لا تفعل» فالله سبحانه لا يوجهها إلا لمن آمن به إلهاً واحداً ، أما الذى لا يؤمن به ، فالله سبحانه لا يوجه إليه أى حكم .

ولذلك تجد حيثية كل حكم تكليفى فى القرآن مُصدراً بقوله تعالى :

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٧٨)﴾ [البقرة]

سواء أكان الأمر صيماً<sup>(١)</sup> ، أم قصاصاً<sup>(٢)</sup> ، ففى كل تكليف يُصدر بهذا القول ، لا بد أن يأتى المعنى : يا من آمنتم بى إلهاً قادراً حكيماً ، اسمع منى التكليف .

ولذلك أقول دائماً :

إن علة كل تكليف هى الإيمان بالملكف ، ولا داعى للبحث عن علة أخرى .

فمثلاً حين يُقال : إن علة الوضوء النظافة ، نقول : وإن لم يوجد ماء ، فنحن نلمس التراب أو الحجر ثم نمسح وجوهنا فى التيمم<sup>(٣)</sup> .

إذن : فالمقصد هو أن نتهى للصلاة بأى شكل يحقق مقصود العبادة وهو الطاعة للمخالق سبحانه وتعالى .

وليك أن تؤخر تنفيذ الحكم إلى أن تبرره ؛ لأن مبرره هو صدوره عن الله سبحانه وتعالى .

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢٨٥)﴾ [البقرة] .

(٢) يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَمْدُ بِالْعَمْدِ وَالْأَنْفَى بِالْأَنْفِ فَمَنْ عَفِيَ عَنْهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْلِيفٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَكُتِبَ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)﴾ [البقرة] .

(٣) التيمم لغة : القصد . وشرعاً : هو طهارة تربية تقوم مقام الماية عند فقدان الماء حقيقة أو حكماً ، ويصح إلى تسعة أشخاص : فاقط الماء الكافى ، وفاقد القدرة على استعماله ، والخائف حدوث مرض أو زيادته ، وتأخر بره ، وعطش محترم ، والخائف مع تلف حال ذى بال . الشرح الصغير للدرديرى ج ١ يقول سبحانه : ﴿... وَإِنْ كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَظِيمًا غُفُورًا (٤٣)﴾ [النساء] .

وكذلك كل شيء يقوله رسول الله ﷺ فنحن نتبعه ، ولا نبحث عن علة له ، وإلا لو كنا نؤجل الأحكام إلى أن تثبت تبريراتها العلمية مثل فساد لحم الخنزير بما يحمله من أمراض ، ومثل قدرة الخمر على إهلاك المخ وتدمير خلاياه ، فضلاً عن تدمير خلايا الكبد ، فنحن لو كنا قد أجلنا تلك الأحكام ، فماذا كان الموقف ؟

لقد طبق المسلمون هذه الأحكام فور نزولها ؛ لإيمانهم بالمنهج وحبهم في القرب من الله ، ثم أثبتت الأيام صدق الله تعالى في تكليفه .  
وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنِّي مَذِينٌ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ ۝٨٤ ﴾ [هود]

وعرفنا أن العبادة ليست محصورة في الصلاة أو الصوم أو الزكاة أو الحج ؛ لأن هذه هي الأركان الأساسية<sup>(١)</sup> التي يقوم عليها الإسلام ؛ ولكن الإسلام أيضاً هو عمارة الأرض بتنفيذ كل التكاليف<sup>(٢)</sup> ، وكل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

فإقبال الإنسان على مهنة ما يحتاجها المجتمع هو عبادة ، وإذا خلت صناعة من صانع فعلى ولي الأمر أن يكلف ويرغم بعض الناس على تعلمها ؛ وأيضاً إتقان الصنعة عبادة .

(١) من ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : « بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً » متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٨) وكذا مسلم (١٦) .

(٢) التكاليف تنحصر في الأمر والنهي . والأمر نأخذ منه الفرض والواجب والسنة والمستحب ، سواء كان تعبدياً أو اجتماعياً ، والنهي نأخذ منه الحرام والمكروه ، وعلى اتباع الأمر واجتناب النهي يكون للمجتمع الصالح بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ۖ ۝٢٧ ﴾ [الحشر] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْهَمُوا ۖ ۝٢٨ ﴾ [فصلت] .



وقول الحق سبحانه على لسان شعيب عليه السلام:

﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ .. ﴾ (٨٤)

[هود]

أى: إياك أن تأخذ حكماً تكليفاً من أحد آخر غير الله سبحانه وتعالى ،  
لأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

وإياك أن تستدرك<sup>(١)</sup> من البشر حكماً على الله سبحانه وتعالى ، وتظلم  
نفسك وتقول: «لقد فات الله أن يقول لنا هذا الحكم ، ولنا تأني لأنفسنا  
بحكم جديد»<sup>(٢)</sup> .

إياك أن تستدرك حكماً على الله . افهم الحكم أولاً ، فإن جاء حكماً  
محكماً فخذ ، وإن كان غير محكم بأن جاء مجملاً ، أو غير مبين ،  
فانظر باجتهادك إلى أية جهة تصل .

ولذلك نحمد رسول الله ﷺ يسأل من أرسله مبعوثاً إلى اليمن فقال:  
«كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟ قال: أقضى بما في كتاب الله . قال:  
فإن لم يكن في كتاب الله ؟ قال: فبسنة رسول الله ﷺ . قال: فإن لم  
يكن في سنة رسول الله ﷺ ؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو ، قال: فضرب  
رسول الله ﷺ صدرى ثم قال: الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله ﷺ  
لما يرضى رسول الله ﷺ »<sup>(٣)</sup> .

وبعد أن دعا شعيب - عليه السلام - آل مدين لعبادة الله سبحانه وحده، وهذا هو  
الأمر المشترك بين جميع الرسل - عليهم السلام - تأتى الأحكام الأخرى ،

(١) استدرك ما فات : تداركه . واستدرك الشيء بالشيء : تداركه به . واستدرك عليه القول : أصلح خطأه ،  
أو أكمل نقصه ، أو أزال عنه لبساً . [المعجم الوسيط] .

(٢) يقول الحق : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا .. ﴾ (٢) [المائدة] .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٠ / ٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢) وأبو داود في سننه (٣٥٩٢) كتاب الأقضية من  
حديث معاذ بن جبل .

فمن يعمل فاحشة له علاج ، ومن ينقص في الكيل والميزان ، فالرسول يعالج هذا الأمر .

لأن العالم القديم كان عالم انعزال ، لا التحام فيه أو مواصلة ؛ فقد يوجد عيب وآفة في مكان ، ولا يوجد هذا العيب أو تلك الآفة في مكان آخر .

وكل رسول يأتي ليعالج عيباً محدداً في المكان الذي أرسله الله إليه ، ولكن رسول الله محمداً ﷺ جاء - وهو الرحمة المهداة للجميع وخاتم الأنبياء والمرسلين - جاء ﷺ والدنيا على ميعاد بالالتقاء الإيمانى ، فلما تقاربت البلاد عن طريق سرعة الاتصالات ، وما يحدث في عصرنا الآن بقارة أمريكا نجده عندنا في نفس اليوم أو غداً ، فالعالم الآن عالم التقاء ، وتعددت الداءات فيه وتوحدت بسبب سرعة الالتقاء عن طريق عدم التمييز بين الخبيث والطيب .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يكون محمد ﷺ هو خاتم الرسل .

وكانت خيبة آل مدين هي عدم عبادة الله وحده ، وكذلك كانت فيهم خسيصة التطفيف<sup>(١)</sup> في الكيل والميزان ، لذلك يقول الحق سبحانه على لسان شعيب عليه السلام :

﴿ وَلَا تَقْصُرُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَيْكُمْ بِخَيْرٍ ۖ ﴾ (٨٤) [هود]

وحين قرأ العلماء هذا القول الكريم لم يلتفتوا إلى أن المراد ليس نقص المكيل والموزون<sup>(٢)</sup> ، لأنه لو شاء لقال : «ولا تنقصوا المكيل أو الموزون» هذا

(١) طقف الكيل : طول أهله وجعل له طغاً فوقه ، وذلك حين يضع يده أو يديه بجانبه ، فيمتنع الحب الزائد من التساقط ثم يسرع بوضعه في إنائه ليأخذ أكثر من حقه ويظلم من يبيع له السلعة . قال تعالى : ﴿ وَفِي الْمِطْطِفِينَ ﴾ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْفَحُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوا لَهُمْ أَوْ وَزَنُوا لَهُمْ يَخْسِرُونَ ﴾ (٣) [المطففين] فهم مطفنون في الحاليتين لأنهم يأخذون أكثر من حقهم ويسلمون غيرهم حقه ناقصاً . [القاموس القويم ٤٠٣/١] .

(٢) المكيل : اسم مفعول من (كال) ، وهو كل شيء يكال بالمكيال سواء أكان قمحاً أو غيره . واسم الفاعل : «كائل» . والموزون : اسم مفعول من (وزن) وهو كل شيء يوزن بالميزان . واسم الفاعل : «ولزن» .

إذا نظرنا إلى الأمر من وجهة ما يريد البائع ، ولكن القول هنا يقصد أن يأخذ كل ذي حق حقه ، أن يأخذ المشتري حقه من السلعة ، وأن يأخذ البائع حقه في الربح .

إذن : فهذا القول الكريم يشمل البائع والمشتري معاً<sup>(١)</sup> .

والكيل - كما نعرف - هو تعديل شيء بشيء ، فإِنْ كان في الخفة والثقل ؛ فالأمر يحتاج إلى ميزان ، وإن كان تعديل شيء بشيء في الكم ، فهذا يحتاج إلى الكيل ، وهذا هو الأمر المشهور في الكيل والميزان ، وأى تعديل شيء بشيء يحتاج إلى ما يناسبه ؛ فالقمماش مثلاً - يتم تعديله بالمتري ، والأرض يتم تعديلها بالمساحة ؛ أى : قياس الطول والعرض ، وبعض الأشياء تُباع بالحجم ، وهذا يعنى قياس الطول والعرض والارتفاع واستخراج الناتج بعملية ضرب كل منهم في الآخر .

إذن : فالأمر المهم هو أن يأخذ كل إنسان حقه ، حتى وإن كان تأجير قوة عامل لينجز عملاً ، فأنت تعدل زمن وقوة العمل بالأجر الملائم ، والأمر المشهور هو الكيل والميزان ، لكن بقية التقييمات موجودة ؛ ليأخذ كل ذي حق حقه .

لأن الإنسان لو أخذ غير حقه لاستمر أن يأخذ حقوق الناس ، ولو أكل بعض الناس حقوق البعض الآخر ؛ كزهد من أكلت حقوقهم في العمل .

وأنت حين تعطى للإنسان أقل مما يستحق ، أو تأخذ من جهده فوق ما تدفع له من أجر ، تجده يبطئ في العمل ، ولا ينجز المطلوب منه على تمام الدقة ، ومن هنا يحدث الخلل .

ولذلك أقول : إن إعطاء كل ذي حق حقه يزيد من جودة الأداء في العمل .

(١) كما يفهم من مراد الشيخ أن إعطاء الحقوق هو التوازن لميزان الحياة .

وعليها أن نترك صاحب الطموح ليعمل ؛ بدلاً من أن يخزن ماله أو يكتزّه ؛ لأن صاحب الطموح حين يقيم مشروعاً أو بناءً ؛ فهو يفيد الفقراء وينفعهم - حتى وإن كان لا يفكر في ذلك - فالذي يبنى عمارة سكنية ينفع الصناع والعمال ومنتجى المواد اللازمة للبناء - دون أن يقصد - وسيتنفع العامل الفقير - دون أن يقصد صاحب العمل - وربما انتفع كل الفقراء بما يصنعه صاحب العمل ، قبله فيما يفعل .

إذن : فمن المهم أن يأخذ كل إنسان حقه قبل أن يجف عرقه ؛ مصداقاً لقول رسول الله ﷺ : «أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه» <sup>(١)</sup> .

وهكذا نعلم أن الدين في ظاهر الأمر يحض على الإيثار ، وفي واقع الأمر ، هو يحرص على تأكيد ثواب الإنسان عند ربه ؛ لأن الذي يؤثر <sup>(٢)</sup> غيره على نفسه - ولو كان به خصاصة <sup>(٣)</sup> - لو كان معه مال قليل وأعطاه لآخر عنده ضائقة ، وليس عند هذا الآخر مال ، هنا يكون صاحب المال القليل قد أثر الآخر على نفسه في ظاهر الأمر ، ولكنه سيأخذ أضعاف هذا المال ثواباً من عند الله تعالى <sup>(٤)</sup> .

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢٤٤٣) من حديث ابن عمر ، قال البوصيري في زوائد : إسناده ضعيف ، فيه ضعيفان . وأخرجه بهذا اللفظ أيضاً الطبراني في معجمه الصغير (٢٠ / ١) من حديث جابر ، وأبو نعيم في الحلية (١٤٢ / ٧) من حديث أبي هريرة . فهو بمجموع هذه الطرق والروايات يرقى إلى مرتبة الحسن ، وله أصل في صحيح البخاري عن أبي هريرة - كتاب البيوع .

(٢) أثره : اختاره وفضله . قال تعالى : ﴿ قَالُوا تَاللّٰهِ لَئِنْ لَمْ يَنْزِلْ عَلَيْنَا لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا نَعْمَلُ ﴾ [يوسف] وقال تعالى : ﴿ بَلْ يُؤْثِرُونَ النَّعِيمَ ﴾ [الأعلى] أي : يفضلونها على الآخرة . وقال تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ ﴾ [الحشر] أي : يفضلون غيرهم على أنفسهم كرماء ومروءة وتقوى . [القاموس القويم ٧ / ١] .

(٣) الخصاصة : الفقر وسوء الحال والحاجة . وأصل ذلك من الفرجة أو الخلة لأن الشيء إذا انفرج وهى واختل [لسان العرب : مادة خصص] .

(٤) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ قُلِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَىٰ الْأَرْضِ هُمْ أُمُّ الْأَمْثَلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةً حَبَّةٍ وَأَلَّةٌ يَنْفَعُ لِمِائَةٍ بَشَرًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة] .

وهكذا يعلمنا الدين النفعية الراقية ، وهى النفعية التى يعاملنا بها الله سبحانه ؛ وحين نترك قانون النفعية ليسيطر على حركة الناس ، فنحن نوفر سيولة الانتفاع فى المجتمع .

وهنا فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنّا عنها عرفنا أن شعبياً قال لأهل مدين :

﴿ وَلَا تَقْصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرَاكُمْ بِخَيْرٍ .. ﴾ (٨٤) [هود]

أى : أنكم يا أهل مدين غير مضطرين لذلك ؛ لأن من يبيع منكم عنده سلع ، ومن يشتري إنما يملك نقوداً ، فاكثفوا بالخير الذى عندكم ، وليأخذ كل ذى حق حقه ، وهذه قضية يغفل عنها كثير من الناس ؛ فالذى يبيع قد يبيع صنفاً واحداً ، فإن غش فى الكيل أو الميزان ، فسوف يغشه ويخدعه غيره فى الأصناف الأخرى التى تلزمه لحياته .

وإن اشتغل واحد فى إنقاص الكيل والميزان ، فالآخرون سيفعلون مثل ذلك فى كل ما يخص حياته ؛ لأن المخادع الواحد ، سيلقى مخادعين كثيرين ، وهنا يقول شعيب عليه السلام : ما الذى يضطركم إلى ذلك وأنتم بخير ؟ ثم يقول محذراً :

﴿ .. وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابٌ <sup>(١)</sup> يَوْمٌ مُحِيطٌ ﴾ (٨٥) [هود]

لأنك حين تنقص شيئاً وأنت تبيع أو تزيد شيئاً حين تشتري ، فأنت لا تخدع من تتعامل معه ، وإنما تخدع نفسك .

وكلنا يعلم أن الغفلة قد تطرأ على البائع ، وقد تطرأ على المشتري ، وقد يحاول بائع أن يستغل غفلة المشتري فيزيد من ثقل الميزان بإصبعه ، وقد

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٤/ ٣٤٠٥) : « اختلف فى ذلك المذاب فقيل : هو عذاب النار فى الآخرة . وقيل : عذاب الاستئصال فى الدنيا . وقيل : فلاه السحر » .

يحاول المشتري أن يستغل غفلة البائع بأن يرفع كفة الميزان بإصبعه من غير أن يراه البائع ، فيأخذ غير حقه ، وهذا نوع من خداع النفس ؛ لأن الحق سبحانه إنما يأمر بالاستقامة في البيع والشراء ؛ لأن الانتفاع بأى شيء مهما كثر ، فهو موقوت بعمر الإنسان في الدنيا ، وعمر الإنسان موقوت ، ولكن الذى يغش ويخدع إنما يُعرض نفسه لعذاب الله سبحانه في الآخرة <sup>(١)</sup> ، وهو عذاب بلا أمد ولا نهاية .

وهكذا يسلّم الإنسان نفسه لفائدة قليلة في الدنيا الزائلة ، ثم يلقى عذاباً لا ينتهى في آخرة غير زائلة .

والعذاب في الآخرة عذاب محيط ، بمعنى أن المعذب لا يستطيع أن يفلت منه ، فأنت في الدنيا بإمكانك أن تحتال في النجاة من العذاب ، وقد تلجأ إلى من هو أقوى منك ليحميك ، ولكنك في الآخرة تواجه يوماً لا بيع فيه ولا خُلَّة <sup>(٢)</sup> ولا شفاعة ، إن كنت من أهل النار .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك ما جاء على لسان شعيب مواصلاً الحديث إلى أهل مدين :

وَيَقَوْمِ أَوفُوا بِالْمِيزَانِ وَالْمِيزَانُ بِالْقِسْطِ

وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا

فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ <sup>(٣)</sup>

(١) وهناك عذاب آخر في الدنيا جاءت به أحاديث رسول الله ﷺ ، فقد أورد القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٤٠٥) عن رسول الله ﷺ : لما أظهر قوم البخس في المكيال والميزان إلا ابتلاههم الله بالقحط والغلاء .

(٢) الخلّة : الصداقة الخالصة المتينة التي تخللت القلب ، وجمعها : خلال . [القاموس القويم] . وقال تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٍ ﴾ [إبراهيم] .

(٣) بالقسط : بالعدل ، بلا زيادة ولا نقصان .

لا تبخسوا : لا تنقصوا .

لا تفتنوا : لا تفسدوا أشد الإفساد . [كلمات القرآن] . والفتن في الأرض هو الإتلاف والإضلال .

وفى الآية الكريمة السابقة قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْصُرُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ (٨٤) ۖ ﴾ [هود]

وهكذا نعلم أن عدم الإنقاص فى الكيل والميزان مطلوب ، وكذلك توفية المكيال والميزان مطلوبة ؛ لأنهما أمر واحد ، والحق سبحانه لا يتكلم عن المكيل ولا عن الموزون إلا بإطلاقهما ، وهو كل عمل فيه واسطة بين البائع والمشتري .

وفى موضع آخر من القرآن الكريم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَلْ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) ۖ ﴾ [المطففين]

ذلك لأن البائع قد يقول لك : أنت مأمون فزن أنت لنفسك أو كل أنت لنفسك ، وقد تخدع البائع فتأخذ أكثر من حَقِّكَ ؛ وقد يفعل البائع عكس ذلك ، وفى مثل هذا يؤس للثنين .

وهنا يقول شعيب عليه السلام :

﴿ وَبَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۚ (٨٥) ۖ ﴾ [هود]

والحق سبحانه هنا تكلم عن النقص وعن الإيفاء .

ثم يقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ۚ (٨٥) ۖ ﴾ [هود]

(١) ويل : عذاب أو هلاك أو وادلى جهنم . للمطففين : المتقصين فى الكيل أو الوزن .  
اكتالوا : اشتروا بالكيل ، ومثله الوزن . يستوفون : يأخذون حقهم كاملاً .  
كالوهم : أعطوا غيرهم الوزن . وزنوهم : أعطوا غيرهم الوزن .  
بخسرون : ينقصون الكيل والوزن . [كلمات القرآن] بتصرف .

وهذا كلام عام لا ينحصر في مكيل أو موزون ، فقد يأتي مشتر ليبخس من قيمة سلعة ما ، أو أن يأخذ رشوة لقضاء مصلحة ، أو يخطف ما ليس حقاً له ، أو يغتصب ، أو يختلس ، وكلها أمور تعنى : أخذ غير حق بوسائل متعددة .

ونحن نعلم أن الخطف إنما يعنى أن يمد إنسان يده إلى ما يملكه آخر ويأخذه ويجرى ، أما الغصب ، فهو أن يمد إنسان يده ليأخذ شيئاً ، فيقاومه صاحب الشيء ، لكن المغتصب يأخذ الشيء عنوة ، أما المختلس فهو المأمون على شيء فاختلسه ، والمرتشى هو من أخذ مالاً أو شيئاً مقابل خدمة هي حق لمن يطلبها .

إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. (٨٥) ﴾ [هود]

تضم أشياء متعددة .

والبخس هو أن تضر غيرك ضرراً ، بإنقاص حقه ، سواء أكان له حجم ، أو ميزان ، أو كَمٌّ ، أو كَيْفٌ .

وكلمة «أشياء» مفردتها : «شيء» ، ويقولون عن الشيء : «جنس الأجناس» فالشجرة يقال لها : «شيء» ، وكل الثمر يقال له : «شيء» .

والحق سبحانه وتعالى يوصينا ألا يغرنا أى شيء مهما كان قليلاً .

ونحن نلاحظ هنا أن كلمة «الناس» جمع ، وكلمة «أشياءهم» جمع أيضاً ، وإذا قوبل جمع بجمع اقتضت القسمة أحاداً . أى : لا تبخس الفرد شيئاً ، وإن قلَّ .



ونجد واحداً من العارفين بالله قد استأجر مطية<sup>(١)</sup> من خان<sup>(٢)</sup> ليذهب بها من مكان إلى مكان آخر ، فلما ركب المطية وقع منه السوط الذي يحركها به ، فأوقف الدابة مكانها وعاد ماشياً على قدميه إلى موقع سقوط السوط ليأخذه ، ثم رجع ماشياً إلى مكان الدابة ليركبها . فقال له واحد من الناس : لماذا لم ترجع بالدابة إلى موقع السوط لتأخذه وتعود ؟ فأجاب العارف بالله : لقد استأجرتها لأصل بها إلى مكان في اتجاه معين ، ولم يتضمن اتفاقى مع صاحبها أن أبحث بها عن السوط .

ونجد عارفاً آخر جلس يكتب كتاباً ، وكان الناس فى ذلك الزمان يجففون الخبز الزائد بوضع قليل من الرمال فوق الصفحات المكتوبة ، ولم يجد العارف بالله ما يجفف به المکتوب ، فأخذ حفنة من تراب بجانب جدار . ثم ذهب إلى صاحب الجدار وقال له : أنا أخذت تراباً من جانب جدارك فقوم<sup>(٣)</sup> فقال صاحب الجدار : والله لورعك<sup>(٤)</sup> لا أقوم ، أى : أنه قد تسامح فى هذا الأمر .

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ .. وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ ﴾ (٨٥) [هود]

(١) المطية من الدواب : ما يُمتطى أى : يُركب [تذكر وتؤث] فالبعير مطية ، والناقة مطية . والجمع : مطايا ، ومطى . [المعجم الوسيط] .

(٢) الخان : المتجر ، أو الخانات ، وقد تطلق على الفندق ، أو الأمير ، أو غيره . وهى كلمة معربة . [المعجم الرسيط] .

(٣) التقويم هنا معناه : تقدير ثمنه ليشتره منه . والقيمة : ثمن الشيء بالتقويم . ويقال : كم قامت ناقتك ؟ أى : كم بلغت ؟ [انظر لسان العرب - مادة قوم] .

(٤) الورع : اتقاء الشبهات ، ولا يتم الورع إلا بحفظ اللسان واجتناب سوء الظن واجتناب السخرية وغض البصر عن المحارم وصدق اللسان والاعتراف بمن الله وإنفاق المال فى الحق ، وترك الكثير والمحافظة على التكاليف والاستقامة ، الغنى للجيلانى ص ١٣٤ يتصرف .

وكلمة عشا<sup>(١)</sup>، يَعْشَى، ويعشوا، وعشى. يعشى؛ كلها تعنى: زاول فساداً، أى: أن يعمد الإنسان إلى الصالح فى ذاته فيفسده، مثل طمر بئر ماء، أو حفر طريق يسير فيه الناس، وهو كل أمر يخرج الصالح - فى ذاته - عن صلاحه.

والمجتمع كله - بكل فرد فيه - مأمور بعدم مزاولة الفساد، ولو طبق كل واحد ذلك لصار المجتمع كله صالحاً، ولكن الآفة أن بعض الناس يحب أن يكون غيره غير مفسد، ولكنه هو نفسه يفسد، ولا يريد من أحد أن يعترض عليه.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ<sup>(٢)</sup>﴾

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ<sup>(٣)</sup>﴾

أى: ما يبقى لكم من الأمر الحلال خير لكم؛ لأن من يأخذ غير حقه يخطئ؛ لأنه يزيل البركة عن الحلال بالحرام؛ فمن يأخذ غير حقه يسلط الله عليه أبواباً تنهب منه الزائد عن حقه.

وأنت تسمع من يقول: «فلان هذا إنما يحيا فى بركة»، أى: أن دخله قليل، ولكن حالته طيبة، ويربى أولاده بيسر، على عكس إنسان آخر قد يكون غنياً من غير حلال، لكنه يحيا فى ضنك<sup>(٤)</sup> العيش.

(١) عشا يعشو ويعشى، وعشى يعشى، عشوا وعشياً: أفسد أشد الإفساد. قال تعالى: ﴿.. وَلَا تَقْرَؤْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٥٩) [هود] ومفسدين حال مؤكدة لمعنى تعشوا. [القاموس القويم ٧/٢].

(٢) البقية: ما بقى من الشيء أو ما استحق أن يبقى لما فيه من النفع والخير للناس. وتطلق البقية على الشيء الباقي. قال تعالى: ﴿يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ..﴾ (٦٠) [هود] أى: ما أبقاء الله وادخره لكم من الثواب خير. [القاموس القويم ٧/١].

(٣) حفيظ: رقيب عليكم ويجازيكم بأعمالكم. [كلمات القرآن] بمصرف.

(٤) ضنك الشيء: ضائق. والضنك: الضيق من كل شيء وهو مصدر يوصف به؛ فيستوى فيه المذكر والمؤنث والمفرد وغيره. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً..﴾ (٦١) [طه] أى: ضيقة غير متسعة. [القاموس القويم ١/٣٩٥].

وقد تجد هذا الإنسان قد انفتحت عليه مصارف الدنيا فلا يكفى ماله لصد همومه ، لأن الله سبحانه قد جرأ عليه مصارف سوء متعددة .

وقد يستطيع الإنسان أن يخدع غيره من الناس ، ولكنه لن يستطيع أن يخدع ربه أبداً<sup>(١)</sup> .

وقول الحق سبحانه :

﴿ بَقِيتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ .. ﴾ (٨٦) [هود]

أى : أن الله تعالى يُذهب - عمن يراعى حقوق غيره - مصارف السوء .  
وسبق أن قلنا قديماً : فلتنظر إلى رزق السلب لا إلى رزق الإيجاب ؛ لأن الناس فى غالبيتها تنظر إلى رزق الإيجاب ، بمعنى البحث عن المال الكثير ، وينسون أن الحق سبحانه وتعالى قد يسلط مصارف السوء على صاحب المال الكثير الذى جمعه من غير حق ، بينما يسلب عن الذى يرمى حقوق الناس تلك المصارف من السوء<sup>(٢)</sup> .

ومن يُربون أولادهم من سُحت<sup>(٣)</sup> أو حرام ، لا يبارك الله فيهم ؛ لأن هناك فى تكوينهم شيئاً حراماً . فنجد - على سبيل المثال - ابن المرتشى يأخذ دروساً خصوصية ويرسب ، بينما ابن المتضبط والملتزم بتحصيل

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٥٢) [البقرة] ، ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ .. ﴾ (٦٤) [النساء] ، ويقول عز وجل : ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يُخَادِعُوا اللَّهَ فَإِنْ حَسِبَ اللَّهُ .. ﴾ (٦٦) [الأنفال] .

(٢) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمًى ﴾ (٦٤) قال رب لم حشرتني أعْمى وقد كنت بصيراً (٦٥) قال كذلك أتتك آياتنا فسينها وكذلك اليوم نسئ (٦٦) [طه] .

(٣) السحت : المال الذى يكتسب من وجه حرام كالرشوة وما أخذ بالفسخ والخذاع . قال تعالى : ﴿ سَخِرُونْ لِلْكَذِبِ أَكْثَالُونَ لِمَحْضِ .. ﴾ (٤٦) [المائدة] ، وقال تعالى : ﴿ وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْثِلُهمُ السُّعْتِ .. ﴾ (٤٦) [المائدة] . [القاموس القويم] بتصرف .

الكسب الحلال مقبل على العلم وناجح . أو قد يرزق الله تعالى صاحب المال الحرام زوجة لا يرضيها أى شيء ، بل تطمع فى المزيد دائماً ، بينما يعطى الله سبحانه من يرعى حقوق الناس زوجة تقدر كل ما يفعله .

يقول الحق سبحانه :

﴿ بَقِيَّتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ .. (٨٦) ﴾ [هود]

أى : إن كنتم مؤمنين بأن الله تعالى رقيب ، وأنه سبحانه قيوم ؛ فلا تأخذ حقاً غير حقك ؛ لأنك لن تستغل إلا نفسك ؛ لأن الله سبحانه وتعالى رقيب عليك .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ .. وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٦) ﴾ [هود]

أى : أن شعبياً <sup>عليه السلام</sup> قد أوضح لأهل مدين : أنا لن أقف على رأس كل مفسد لأمنعه من الإفساد ؛ لأن كل إنسان عليه أن يكون رقيباً على نفسه ما دام قد آمن بالله سبحانه ، وما دام قد عرف أن الحق سبحانه قد قال :

﴿ بَقِيَّتُ <sup>(١)</sup> اللَّهُ .. (٨٦) ﴾ [هود]

أى : أن ما يبقى إنما تشيع فيه البركة .

وهذه هى فائدة الإيمان : ما يأمر به وما ينهى عنه .

وهذا أمر يختلف عن القانون الوضعى ؛ لأن عين القانون الوضعى قاصرة عما يخفى من أمور الناس فكأنها تحميهم من الوقوع تحت طائلته .. أما القانون الإلهى فهو محيط بأحوال الناس المعلنة ، والخافية .

(١) جاءت التاء فى (بقيت) فى رسم القرآن مفتوحة التاء ، قال الزركشى فى البرهان ١/ ٤١٣ : « مدت نازله ، لأنه بمعنى ما يبقى فى أموالهم من الربح المحسوس ، لأن الخطاب إنما هو فيها من جهة الملك » .

ومن يتأمل الآيات الثلاث :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ  
وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ  
مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ  
أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَحَوَّنَ فِي الْأَرْضِ مَفسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ  
وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ﴿٨٦﴾ ﴾ [هود]

من يتأمل هذه الآيات يجد عناصر الصيانة للحركة في المجتمع كله ،  
والمجتمع إن لم تُصنَّ حركته يفسد ؛ لأن حركة المجتمع أرادها الحق سبحانه  
حركة تكاملية ، لا تكرار فيها ؛ ولو تكررت المواهب لما احتاج أحد إلى  
مواهب غيره .

والمصلحة العامة تقتضى أن يحتاج كل إنسان إلى موهبة الآخر ، فمن  
يدرس الدكتوراه فهو يحتاج إلى من يكنس الشارع ، ومن يعالج الناس  
ليشفهم الله نجده يحتاج إلى من يقوم بإصلاح المجارى .

وماذا كان رد أهل مدين على قول شعيب ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلَوْثَكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ  
آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَا أَنتَ  
الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾

(١) الحليم : من أسماء الله الحسنى . قال تعالى : ﴿ ... وَاعْبُدُوا اللَّهَ غُفُورًا حَلِيمًا ﴾ (٧٢٥) [البقرة] ووصف الله  
خليله إبراهيم عليه السلام بقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنتَبِهٌ ﴾ [هود] وأما قوله تعالى : ﴿ ... إِنَّكَ  
لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (٨٧) [هود] فهو وصف بالحلم والرشد على سبيل التهكم من الكفار برسولهم  
شعيب عليه السلام . [القاموس القويم ١ / ١٧٠] .

أى: أيا مارك إلهك ودينك أن تترك ما يعبد آباؤنا ؟

ولقائل أن يقول: ولماذا قالوا: «أصلاتك» ؟

نقول: لأن الإسلام بُنى على خمس<sup>(١)</sup>: أولها شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ ويكفى أن يقولها الإنسان مرة واحدة فى حياته كلها ، ثم إقامة الصلاة ، وبعد ذلك إيتاء الزكاة ، ثم صوم رمضان ، ثم حج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً.

وأنت إن نظرت إلى هذه الأركان فقد تجد إنساناً لا يملك ما يزكى به أو ما يحج به ، وقد يكون مريضاً فلا صوم عليه ، وهو ينطق بالشهادة مرة واحدة فى حياته ، ولا يبقى فى أركان الدين إلا الصلاة ؛ ولذلك يقال عنها: «عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين»<sup>(٢)</sup> ؛ لأنها الركن الوحيد الذى يعلن العبد فيه الولاء لربه كل يوم خمس مرات ، دواماً فى الولاء لله .

ولا تسقط الصلاة أبداً عن أى إنسان مهما كانت ظروفه ، فإن عجز عن الحركة ؛<sup>(٣)</sup> فله أن يصلى بـرموش عينيه ، وإن عجز عن تحريك رموش عينيه فليجبر الصلاة على قلبه ، حتى فى حالة الحرب والمسايفة<sup>(٤)</sup>

(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً» متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) ومسلم فى صحيحه (١٦) .

(٢) قال الحافظ العراقي فى تخرجه للإحياء (١/ ١٤٧) : «رواه البيهقى فى الشعب بسند ضعفه من حديث حماد . وقال الملا على القارى فى «الأمراض المفروعة» (حديث ٥٧٨) : «قال ابن الصلاح فى «مشكل الوسيط»: إنه غير معروف . وقال النووى فى التضييع: إنه منكر باطل . لكن رواه الديلمى عن على كما ذكره السيوطى فى الدرر المنتثرة (ج ٢٧٩) .

(٣) من حصل له عذر من مرض ونحوه لا يستطيع معه القيام فى الغرض يجوز له أن يصلى قاعداً ، فإن لم يستطع القعود صلى على جنبه يومئذ بالركوع والسجود . راجع فقه السنة (١/ ٢٣٤) .

(٤) إذا اشتد الحرق والتحمت العفوف صلى كل واحد حسب استطاعته راجلاً أو راكباً مستقبلاً القبلة أو غير مستقبلها يومئذ بالركوع والسجود كيفما أمكن ، ويجعل السجود أخفض من الركوع ويسقط عنه من الأركان ما عجز عنه . [فقه السنة - ١/ ٢١٠] .

فالإنسان المسلم يصلى صلاة الخوف<sup>(١)</sup> .

إذن : فالصلاة هى الركن الذى لا يسقط أبداً ، ويُكرّر فى اليوم خمس مرات ، وقد أعطاها الحق سبحانه فى التشريع ما يناسبها من الأهمية .

وكل تكليفات الإسلام جاءت بوحي من الله سبحانه وتعالى ، فجبريل عليه السلام يحمل الوحي إلى الرسول ﷺ ، ويبلغنا الرسول ﷺ إياه ، وتميزت الصلاة وحدها بأن الحق سبحانه قد كلّف بها النبي ﷺ فى أثناء وجوده فى الملا الأعلى ؛ عند سدرة المنتهى<sup>(٢)</sup> ، وذلك لفرط أهميتها .

ومثال ذلك من حياتنا - ولله المثل الأعلى - لمجد الرئيس فى أى موقع من مواقع العمل ؛ وهو يستقبل البريد اليومى المتعلق بالعمل ، ويحول كل خطاب إلى الموظف المختص ليدرسه أو ليقتراح بخصوصه اقتراحاً ، وإذا وجد الرئيس أمراً مهماً قادماً من أعلى المستويات ؛ فهو يستدعى الموظف المختص ؛ ويرتب معه الإجراءات والترتيبات الواجب اتخاذها ؛ وإذا كان هذا يحدث فى الأمور البشرية ، فما بالناس بالتكليف من الله سبحانه وتعالى للرسول ؟

وقد شاء الحق سبحانه أن يكون تكليف الصلاة - لأهميته - هو التكليف الوحيد الذى نال تلك المنزلة ؛ لأنها الركن الذى يتكرر خمس مرات فى اليوم الواحد ؛ ولا مناص<sup>(٣)</sup> منه .

(١) ثبتت صلاة الخوف بكتاب الله ، فقال : ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقِمْ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مِنْكَ وَتَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ إِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مِنْكَ وَتَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَسْلِحَتِهِمْ فِيمَا كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ فَمِثْلُ وَاحِدَةٍ .. ﴾ [النساء] قال الإمام أحمد : ثبتت فى صلاة الخوف ستة أحاديث أو سبعة أيها فعل المرء جازاً . وذكر الشيخ السيد سابق ست كفايات لصلاة الخوف فى فقه السنة (١/ ٢٠٨ - ٢١٠) وانظر أحكام القرآن للجصاص (٢/ ٣٢٢ - ٣٣٢) .

(٢) فرغتم الصلاة مباشرة ليلة الإسراء والمعراج لشرفها ، ولأنها جماع العبادات ، ففيها الشهادة والزكاة والصوم والحج ، لذلك لم تسقط عن المكلف . من مفهوم خواطر الشيخ .

(٣) لا مناص : لا بد ولا مهرب . وناص : ينوصي : فرّ هارباً . وناص من المكروه : نجاة منه وخلوص . قال تعالى : ﴿ .. وَلَاتِ جُنْ مَنَاصٍ ﴾ [ص] أى : ليس الحين حين فرار وهروب من العذاب المحيط بهم ، أو ليس الحين حين نجاة وخلوص من العذاب . [القاموس القويم] بتصرف .

فأنت قد لا تنطق الشهادة إلا مرة واحدة ؛ لكنك تقولها في كل صلاة .

وفي الزكاة تضحى ببعض المال ؛ وأنت لم تولد ومعك المال ؛ إلا إن كنت قد ورثت وأنت في بطن أمك ؛ ولا بد أن تزكى من مالك ؛ والعمال لا يأتى إلا من العمل ؛ والعمل فرع من الوقت ؛ وأنت في الصلاة تضحى بالوقت نفسه ؛ والوقت أوسع من دائرة الزكاة .

وفي الصيام أنت تمتنع عن شهوتي البطن والفرج ؛ من الفجر إلى المغرب ؛ لكنك تمارس كل أنشطة الحياة ؛ أما في الصلاة فأنت تصوم عن شهوتي الفرج والطعام ؛ وتصوم أكثر عن أشياء مباحة لك في الصيام .

وفي الحج أنت تتوجه إلى بيت الله الحرام ؛ وأنت في كل صلاة تتوجه إلى بيت الله الحرام .

وهكذا تجتمع كل أركان الإسلام في الصلاة .

وأهل مدين هنا - في الآية الكريمة التي نحن بصدد خواتمها - قد هزءوا برسولهم شعيب عليه السلام ، وصلاته ؛ مثلما فعل كفار قريش مع رسول الله ﷺ .

وقال أهل مدين لشعيب عليه السلام :

﴿ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ .. ﴾ (٨٧)

[هود]

وظنوا أنهم بهذا القول إنما يتحكمون عليه ؛ لأن شعيباً كان كثير الصلاة ؛ وهم - كفار قريش - يجهلون أن الصلاة تأمر وتنهى .

والحق سبحانه يقول :



﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ<sup>(١)</sup> وَالْمُنْكَرِ<sup>(٢)</sup>..﴾ (٤٥) [العنكبوت]

إذن: فللصلاة<sup>(٣)</sup> أمر ، وللصلاة نهى ، وما دام قد ثبت لشيء حكم ؛ ثبت له مقابله ، وأنت تسمع من يقول لآخر: أنت تصلى لذلك فأنا أثق فى أمانتك وتسمع إنساناً آخر ينصح صديقاً بقوله: كيف تسمح لنفسك أن ترتكب هذا الإثم وأنت خارج من الصلاة ؟<sup>(٤)</sup>

وكثير من الناس يغفلون عن أن التقابل فى الجهات إنما يحل مشاكل متعددة ؛ فيأخذون جهة ويتركون الأخرى .

ولذلك أقول: ما دام الحق سبحانه قد قال إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فلا بد أنها تأمر بالبر والخير<sup>(٥)</sup> .

ومثال آخر : نجده فى قول الحق سبحانه عن غرق قوم فرعون :

﴿فَمَا يَكْتُ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ<sup>(٦)</sup>..﴾ (٧٩) [الدخان]

(١) الفحشاء : الفحش هو العمل القبيح المنكر . قال تعالى : ﴿الشُّعُطَانُ يَعَذِّكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ..﴾ (البقرة) [أى : يأمركم باليخل أو فعل القبيح - عامة - ومنه البخل . والفاحشة : الفعلة القبيحة . والفواحش : الأمور القبيحة . وقد فَحِشَ وَفَحِشَ فَحِشًا فهو فاحش : أى : جاوز الحد ، وفعل القبيح .] [القاموس القويم ٧٣ / ٢] .

(٢) لأن الصلاة فعلت استجابة لأمر الأمر ، وهى تشمل على آيات القرآن الكريم ، والآيات إما آيات أمرة ، وإما آيات ناهية ، وما فيها من إحرام وركوع وسجود يدل على استقبالها بقلب منيب فى استجابة خاشعة ، فكل ما فيها هو نافع لك أمراً أو نهياً ؛ لذلك كانت الصلاة مدرسة تنهى عن الفحشاء والمنكر .

(٣) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلا بعداً» أخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير (٥٤ / ١١) وعزاه ابن كثير لابن أبى حاتم فى تفسيره ، وذكره الهيثمى فى المجمع (٢٥٨ / ٢) وقال : فيه لىث بن أبى سليم ثقة مدلس .

(٤) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبی ﷺ فقال : إن فلاناً يصلى بالليل ، فإذا أصبح سرق . قال : «إنه سينهاه ما تقول» . أخرجه أحمد فى مسنده (٤٤٧ / ٢) والبخارى (٣٤٦ / ١) - كشف الأستار) وابن حبان (ص ١٦٧ - موارد الظمان) . قال الهيثمى فى المجمع (٢٥٨ / ٢) : «رجال رجال الصحيح» .

وما دام الحق سبحانه وتعالى قد نفى بكاء السموات والأرض على قوم فرعون ؛ ففي المقابل فلا بد أنها تبكى على قوم آخرين<sup>(١)</sup> ؛ لأن السموات والأرض من المسخرات للتسييح ، وقال الحق سبحانه عنهما :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا .. ﴾ (٧٧)

[الأحزاب]

وبهذا القول اختارت كل من السموات والأرض مكانة الكائنات المسبحة ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. ﴾ (٤٤)

[الإسراء]

فإذا رأت السموات والأرض إنساناً مُسَبِّحاً ؛ فلا بد أن تحبه ، وإن رأت إنساناً كافراً ، معانداً ؛ فلا بد أن تكرهه .

وما دامت السموات والأرض لم تبك على قوم فرعون ؛ فذلك لأنهم ضالون ؛ لأنها لا تبكى إلا على المهديين .

وقد حلّ لنا الإمام على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - هذه المسألة ؛ فقال : « إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع فى الأرض ، وموضع

(١) من أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « ما من عبد إلا وله فى السماء بابان : باب يخرج منه رزقه ، وباب يدخل منه عمله وكلامه فإذا مات فلقناه ويكيا عليه وتلا هذه الآية ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ .. [الدخان] - وذكر - أنهم لم يكرهوا عملوا على الأرض عملاً صالحاً يبكى عليهم ولم يصعد

لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ولا عمل صالح فتفقدتهم فتبكى عليهم .  
(٢) الأمانة : مصدر آمن فهو أمين ، تطلق الأمانة على الوديعة نفسها . قال تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذُوبُوا الْأَمْثَانَ إِنِّي لَأَفْلُهَا .. ﴾ [النساء] أى : الودائع . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴾ [الأحزاب] فالأمانة هنا مستعارة للتكاليف الشرعية من أوامر ونواهٍ وأحكام وعقائد وعبادات وأخلاق . [القاموس القويم ١/ ٣٥] .

(٣) إن - هنا - نافية بمعنى «ما» أو «ليس» . أى : ما من شيء خلقه الله إلا يسبح بحمد الله تعالى .

فى السماء ، أما موضعه الذى فى الأرض ؛ فمصلاة ، وأما موضعه فى السماء فمصعد عمله <sup>(١)</sup> .

لأن موضعه الذى كان يصلى فيه ؛ يُحرم من أن واحداً كان يصلى فيه ، وأما موضعه الذى كان يصعد منه عمله ؛ فيفتقد رائحة عبور العمل الصالح .

فإن أردت بالصلاة الدين ؛ وهى رمز الدين ؛ فللصلاة أمر هو نفس أمر الدين ، وهى الأمر بالإيمان الحق ، لأن الإيمان المقلد لا نفع له .

إذن : فقد أراد أهل مدين التهكم على دعوة شعيب لهم ؛ وتساءلوا :

﴿ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا .. ﴾ (٨٧) [هود]

وهذا القول يحمل أيضاً ردهم على دعوته لهم ألا يعبدوا غير الله ؛ فلا إله غيره ؛ وردوا كذلك على دعوته لهم ألا ينقصوا الكيل والميزان ؛ وألا يخسوا <sup>(٢)</sup> الناس أشياءهم ؛ وأن يتيقنوا أن ما يبقى عند الله هو الخير لهم ، وألا يمشوا <sup>(٣)</sup> فى الأرض مفسدين .

وقالوا : أنتهانا أيضاً عن أن نفعل بأموالنا ما نشاء ؟ وكأنهم قد عميت بصيرتهم ؛ لأنهم إن أباحوا لأنفسهم أن يفعلوا بأموالهم ما يشاءون ؛

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (١٤٢/٤) وعزاه لابن أبى حاتم أن عباد بن عبد الله قال : سأل رجل علياً رضى الله عنه : هل تبنى السماء والأرض على أحد ؟ فقال له : لقد سألتنى عن شيء ما سألتى عنه أحد قبلك ، إنه ليس من عبد إلا له مُصَلًى فى الأرض ومصعد عمله من السماء ، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح فى الأرض ولا عمل يصعد فى السماء ، ثم قرأ على رضى الله عنه : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْقَرِنِينَ ﴾ [الدخان] .

(٢) بخسه حقه بخساً : نقصه حقه ولم يوفه . قال تعالى : ﴿ وَلَا تَخْسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. ﴾ (٨٥) [هود] . [القاموس المبرور ١/٥٦] .

(٣) مشوا : أفسد أشد الإفساد . قال تعالى : ﴿ .. وَلَا تَقْرَأُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [البقرة] ، فكونهم لا يوفون المكيال ولا الميزان بل يخسرونه ، ويخسون الناس أشياءهم هذا هو قمة الإفساد فى الأرض .

فغيرهم سيبيحون لأنفسهم أن يفعلوا بأموالهم ما يشاءون ؛ ومستصطدم  
المصالح ، ويخسر الجميع .

وقولهم : ﴿ .. إِنَّكَ لَأَنْتَ الْعَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (٨٧) [هود]

استمرار في التهكم الذي بدءوه بقولهم :

﴿ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا .. ﴾ (٨٧) [هود]

مثلهم في ذلك مثل منافق المدينة الذين قالوا للأنصار :

﴿ لَا تَنَافِقُوا عَلَيَّ مَنْ "عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا" .. ﴾ (٧) [المنافقون]

وكانوا يريدون أن يضربوا المواخاة بين المهاجرين والأنصار ؛ وقد قالوا :  
﴿ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ تهكماً ؛ وهم يحرضون أثرياء المدينة على تجويع المهاجرين .

ومثلهم - أيضاً - مثل قوم لوط حين نهاهم عن فعل تلك الفاحشة ؛  
فقالوا تهكماً منه ومن آمن معه :

﴿ .. أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (٨٢) [الأعراف]

فهل تطهرهم علة للإخراج من القرية ، ولكنهم قالوا هذا لأنهم  
لا يريدون أن يكون بينهم من يعكر ما هم فيه .

وهذا مثلما نسمع في حياتنا من يقول : « لا تستعن بفلان لأنه حنبلي » .

(١) المقصود بهم : المهاجرون الذين كان رسول الله ﷺ قد آخى بينهم وبين الأنصار بعد قدومه إلى المدينة ، وكان زعيم هذه المقالة هو عبد الله بن أبي بن سلول ، وكان من مقتضى هذه المواخاة أن يشارك المهاجر الأنصاري في ماله وداره ، بل إن بعض الأنصار وصل به الأمر أن عرض أن يطلق إحدى زوجاته ليتزوجها المهاجري . انظر كتب السيرة وتفسير ابن كثير (٣٧٠ / ٤) .

(٢) أي : حتى ينفضوا من حول رسول الله ﷺ وينصرفوا عنه . يقال : انفض الناس : تفرقوا وانصرفوا . [راجع القاموس القويم ٢ / ٨٤] .

(٣) قال مجاهد : أي : إنهم يتطهرون من أدبار الرجال وأدبار النساء . قالوا هذا استهزاء بهم . وقال قتادة : عابوهم بغير عيب ، وذهموهم بغير ذم . انظر : الدر المنثور للسيوطي (٤٩٦ / ٣) .

هم - إذن - قد قالوا:

﴿ .. إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (٨٧)

[هود]

وهذا منطق السخرية منه ؛ لأنه لم يوافقهم على عبادة غير الله ؛ ولم يوافقهم على إنقاص الكيل والميزان ؛ ونهاهم عن بَخْسِ الناس أشياءهم .

وإذا قيل حُكْمٌ وهو حق ؛ ويقول من لا يؤمن به ؛ فهو يقصد به الهُزء والسخرية .

وهو لون من التهكم جاء في القرآن الكريم في مواضع متعددة ؛ فنجد الحق سبحانه يقول لمن تجبر وطغى في الدنيا ؛ ويلقى عذاب السعير في الآخرة :

﴿ ذُقْ <sup>(١)</sup> إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ (٤٩)

[الدخان]

وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ يَسْتَفِخُوا يَغَاثُوا بِحَاءِ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ <sup>(٢)</sup> .. ﴾ (٢٩)

[الكهف]

(١) ذاق الشيء بذوقه ذوقاً وذوقاً : أدرك طعمه في فمه وتستعمل مجازاً في الإحساس العام ، كقوله تعالى : ﴿ لِيَذُقُوا الْعَذَابَ .. ﴾ (٤٦) [النساء] ، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ .. ﴾ (١٨٥) [آل عمران] ، وقوله تعالى : ﴿ لَمَّا ذُاقَا الشَّجَرَةَ .. ﴾ (١٧) [الأعراف] . القاموس القويم ص ٢٤٧ ج ١ .

(٢) استفخات : طلب الغوث والمساعدة ؛ استفخت فلاناً واستفخت به : استنصره واستعان به . قال تعالى : ﴿ لَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ .. ﴾ (١٥) [القصص] أي : استنصره . وغاثه الله يغوثه غوثاً : نصره وأعانته . وأغاثه ، وغاثه : نصره وأعانته . والمهل (بضم الميم) : المعدن المذاب ، والقطران ، وعكر الزيت المغلي ، والقيح . قال تعالى : ﴿ وَإِنْ يَسْتَفِخُوا يَغَاثُوا بِحَاءِ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ .. ﴾ (٢٩) [الكهف] . [القاموس القويم ٦٢ / ٢] .

وفى كُلٍّ مِنَ الْقَوْلِينَ تَهْكُمُ وَسْخَرِيَّةٌ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ فِي الْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ  
بَصِيدٌ خَوَاطِرُنَا عَنْهَا :

﴿ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ .. (٨٧) ﴾ [هود]

وهذا قول يحمل التهكم بصلاته .

وكذلك قولهم :

﴿ .. إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ <sup>(١)</sup> الرَّشِيدُ (٨٧) ﴾ [هود]

يعنى التساؤل : كيف يصح لك وأنت العاقل الحليم أن تشورط  
وتقول لنا :

﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ .. (٨٤) ﴾ [هود]

وقد قالوا ذلك لأنهم قد ألفوا عبادة الأصنام ، وكذلك تهكموا على  
دعوته لهم بعدم إنقاص الكيل والميزان .

وأيضاً لم يقبلوا منه قوله بأن يحسنوا التصرف فى المال ، والعلة التى  
برروا بها كل هذا السَّفَهَ أن شعيباً حليم رشيد ؛ فكيف يدعوههم إلى  
ما يخالف أهواءهم ؟

ويأتى الحق سبحانه بما قاله شعيب - عليه السلام - فيقول جلَّ شأنه :

(١) الحليم : الأنفةً ونسيب النفس والعقل ، فهو حليم أى : متأنٌ عاقل ضابط لنفسه بعيد عن الجهل والحمق  
والعيش .

والحليم : من أسماء الله الحسنى ، قال تعالى : ﴿ .. وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَنْقُضُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ  
اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥) ﴾ [البقرة] ووصف الله خليله إبراهيم بقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَعَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) ﴾  
[هود] أما قوله تعالى : ﴿ .. إِنَّكَ لَأَنْتَ الْعَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) ﴾ [هود] فهو وصف بالحلم والرشد على

سبيل التهكم من الكفار برسولهم شعيب عليه السلام . [القاموس القويم ١/ ١٦٩ ، ١٧٠ ]

﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَمِينٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالَفَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (٨٨)

وهنا يعلن لهم شعيب - عليه السلام - أنه على يقين من أن الله سبحانه وتعالى قد أعطاه حجة ومنهجاً ، وقد رزقه الرزق الحسن الذي لا يحتاج معه إلى أحد ؛ فأمور حياته ميسورة <sup>(١)</sup> .

وقد يكون المقصود بالرزق الحسن رحمة النبوة .

ثم يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان شعيب عليه السلام :

﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالَفَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ .. ﴾ (٨٨) [هود]

أى : أننى أطبق ما أدعوكم إليه على نفسى ؛ فلا أنقص كيبلاً أو أخسر ميزاناً ، ولا أبخس أحداً شيئاً ؛ لأننى لا أعبد غير الله .

(١) بينة : حجة وبرهان . وبان الشيء يبين بياناً : ظهر واتضح فهو بين ، وهى بينة ، أى : ظاهر وظاهرة ، ويستعمل البين والبيئة بمعنى المظهر والمظهرة والموضح والموضحة ، وبالمعنيين يُفسر قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ أَنْتَاهُمْ مِنْ آيَةِ بَيْنَةٍ .. ﴾ (١١١) [البقرة] أى : واضحة لا شك فيها . أو هى مينة للحق مؤيدة له ، مظهرة لأمره . [القاموس القويم] .

(٢) إن - هنا - نافية ، بمعنى (ما) أو (لا) أى : ما أريد - أو لا أريد - إلا الإصلاح .

(٣) أناب العبد إلى ربه : رجع إليه وتاب وترك الذنوب . وقوله تعالى : ﴿ .. عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (٨٨) [هود] أى : إليه أتوب وأرجع . [القاموس القويم] .

(٤) الرزق الحسن : الواسع الحلال ، وكان شعيب عليه السلام كثير المال ، قاله ابن عباس وغيره . وقيل : لراد به الهدى والتوفيق ، والعلم والمعرفة . قاله القرطبي فى تفسيره (٣٤٠٨/٤) .

وكلمة «أخالف»<sup>(١)</sup> تدل على اتجاهاين متضادين ، فإن كان قولك بهدف صرف إنسان عن فعل لكي تفعله أنت ؛ تكون قد خالفته «إلى» كذا ، وإن كنت تريده أن يفعل فعلاً كيلا تفعله أنت ؛ تكون قد خالفته «عن» كذا .

فشعيب - عليه السلام - يوضح لهم أنه لا ينهاهم عن أفعال ؛ ليفعلها هو ؛ بل ينهاهم عن الذي لا يفعله ؛ لأن الحق سبحانه قد أمره بالألا يفعل تلك الأفعال ، فالحق سبحانه هو الذي أوحى له بالمنهج ، وهو الذي أنزل عليه الرسالة .

وشعيب - عليه السلام - لا ينهاهم عن أفعال يفعلها هو ؛ لأنه لا يستأثر لنفسه بما يروونه خيراً ؛ فليس في نقص الكيل والميزان ؛ أو الشرك بالله أدنى خير ، فكل تلك الأفعال هي الشر نفسه .

ويوضح لهم شعيب - عليه السلام - مهمة النبوة ؛ فيقول :

﴿ إِن أَرِيدُ إِلَّا الإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ .. ﴾ (٨٨) [هود]

فالنبوات كلها لا يرسلها الله تعالى إلا حين يطم<sup>(٢)</sup> الفساد ، ويأتى النبي المرسل بمنهج يدل الناس إلى ما يصلح أحوالهم ؛ من خلال «افعل» و «لا تفعل» ويكون النبي المرسل هو الأسوة لتطبيق المنهج ؛ فلا يأمر أمراً هو عنه بنجوة<sup>(٣)</sup> ؛ ويطبق على نفسه أولاً كل ما يدعو إليه .

(١) قال أبو حيان في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ .. ﴾ (٨٨) [هود] للمعنى : لست أريد أن أفعل الشيء الذي نهيتكم عنه ، من نقص الكيل والوزن واستأثر بالمال . قال ابن عطية وقتادة : لم أكن لأنهاكم من أمر ثم ارتكبه ، فعلى هذا الظاهر أن قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَخَالِفَكُمْ .. ﴾ (٨٨) [هود] في موضع المفعول لأريد ، أى : ما أريد مخالفتكم ، أى أكون خلفاً منكم ، ويكون خالف بمعنى خلف تحو جاوز وجاز وتعلق إلى ما خالفتمكم ، وقال الزجاج : ما أقصد بخلافكم إلى ارتكاب ما أنهاكم عنه ( تفسير البحر المحيط ٦/ ١٩٨ باختصار ) .

(٢) طم الشيء : عظم وعلا . وطم الماء إذا كثر . وجاء السيل فطم كل شيء أى : علاه . والمقصود أن يكثر الفساد ويتشرب ويصيح فساداً عاماً يعم البلاد والعباد . وانظر [لسان العرب - مادة : طسم] .

(٣) النجوة : ما ارتفع من الأرض فلم يعله السيل . أى : أنه مكان مرتفع . وللمقصود : أنك بعيد عما تأمر به . [وانظر لسان مادة : نجو] .



ولذلك قال شعيب - عليه السلام - :

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ.. (٨٨)﴾ [هود]

لأن الله سبحانه وتعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، وما يدخل في طوعها.

ويقول شعيب - عليه السلام - بعد ذلك :

﴿... وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨)﴾ [هود]

وهكذا نعلم أن هناك فرقاً بين العمل ؛ وبين التوفيق في العمل ؛ لأن جوارحك قد تشغل بالعمل ؛ ولكن النية قد تكون غير خالصة ؛ عندئذ لا يأتي التوفيق من الله.

أما إن أقبلت على العمل ؛ وفي نيتك أن يوفقك الله سبحانه لتؤدي هذا العمل بإخلاص ؛ فستجد الله تعالى وهو يصوب لك أي خطأ تقع فيه ؛ وستنجز العمل بإتقان وتشعر بجمال الإتقان ، وفي الجمال جلال .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا ما جاء على لسان شعيب عليه السلام : ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ ؛ أي : أنه لا يتوكل إلا على الله ؛ ولا يصح أن تعطف على هذا القول شيئاً ؛ لأنك إن عطفت على هذا القول وقلت «على الله توكلت وعليك» ؛ فتوقع ألا يوفقك الله ، لأنك أشركت أحداً غير الله <sup>(١)</sup>.

ونجد في القرآن الكريم قول الحق سبحانه على لسان هود عليه السلام :

﴿تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ.. (٥٦)﴾ [هود]

(١) من حذيفة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان» أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٤/٥) وأبو داود في سننه (٤٩٨٠) والحاكم في مستدركه (٤٦٢/٣). قال النووي في الأذكار (ص ٣١٨) : «هذا إرشاد إلى الأدب، وذلك أن الواو للجمع والتشريك، وثم للعطف والتراخي، فأرشدهم ﷺ إلى تقديم مشيئة الله تعالى على مشيئة من سواه».

ويجوز لك هنا أن تعطف .

ولك أن تتذكر قول أحد العارفين <sup>(١)</sup> : «اللهم إني أستغفرك من كل عمل قصدتُ به وجهك فخالفتني فيه ما ليس لك» .

فلا تترك شيئاً يزحف على توكلتك على الله تعالى ؛ لأنك إليه تنيب ؛ وترجع ؛ كما قال شعيب عليه السلام : «وإني أنيب» .

ويقول الحق سبحانه وتعالى من بعد ذلك :

﴿وَيَقْوِرْ لَا يَجْرِ مِنْكُمْ شِقَاقِي<sup>(٢)</sup> أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَوْ طِ مِنْكُمْ

بَعِيدٍ ﴿٨٩﴾

يقول لهم شعيب عليه السلام : أرجو ألا تحملكُم عداوتكم لى على أن تُجرُموا جرماً ؛ يكون سبباً فى أن ينزل الحق سبحانه بكم عقاباً ، مثلما أصاب القوم

(١) هو : مطرف بن عبد الله بن الشخير ، كان يلبس الصوف ويجلس مع المساكين . وقد أورد أبو نعيم هذا الأثر فى حلية الأولياء (٢/ ٢٠٧) وابن رجب الحنبلى فى جامع العلوم (ص ٢٧) . وقد أورداه تامةً والعطف فيه من تمام الدعاء ، وليس عطفاً مغايراً .

(٢) جرم الشيء جرماً : قطعه ؛ وطلب على فعل الشر . يقال : جرَّم : أذنّب وجنى جناية . وجرم المال : كسبه من أى وجه . وجرمه : حمّله على فعل شر أو ذنب أو جرّم . قال تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمُكُمْ شِقَاقُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ تَتَّبِعُوا .. ﴾ [المائدة] أى : لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل ، أى : التزموا العدل حتى مع من نكرهونهم . أى : اعدلوا دائماً ، فالعدل أقرب للتقوى .

وأجرمه : دفعه وحمله على فعل الجرم والشر . وقرئ (ولا يُجرِمُكُمْ) - بضم الباء من الرباعى المزيد بالهمزة - أى : لا يحملنكم على فعل الجرم والظلم . [القاموس القويم] .

(٣) شاقه مشاقةً وشقاقاً : خالفه . ومنه قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاظَرُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. ﴾ [الأنفال] . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ قُلُوا فَإِنَّمَا هُمْ بِى شِقَاقٍ .. ﴾ [البقرة] أى : بى خلاف ونزاع . [القاموس القويم ١/ ٣٥٣] .

الذين سبقوكم ؛ من الذين خالفوا رسلهم ؛ فأنزل الله - عز وجل - عليهم العذاب كالغرق ، والرجفة ، والصيحة ، والصاعقة <sup>(١)</sup> ؛ فاحذروا ذلك .

وشعيب عليه السلام ينصحهم هنا حرصاً منه عليهم ، على الرغم من علمه أنهم يكونون له العداء ؛ لأنه دعاهم إلى ترك عبادة الأصنام التي عبدها أبائهم ؛ ونهاهم عن إنقاص الكيل والميزان ، وألا يبخسوا الناس أشياءهم ؛ وسبق أن عذب الحق سبحانه المخالفين لشرع الله من الأمم السابقة ؛ ويذكرهم شعيب - عليه السلام - بأقرب من عذبوا زماناً ومكاناً ؛ وهم قوم لوط .

يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿وَأَسْتَغْفِرُكُمْ وَأُغْفِرُكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي

رَحِيمٌ رُوْدُودٌ ١٠﴾

وهذه الآية تبين لنا أن الحق سبحانه لا يغلق أمام العاصي - حتى المُنْصِرِّ - على شيء من المعصية - باب التوبة .

ويقول رسول الله ﷺ : «الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط <sup>(٢)</sup> على بعيه وقد أضله في أرض فلاة <sup>(٣)</sup>» .

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَامِيًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ١٠﴾ [المنكوت] .  
(٢) الرودود : من أسماء الله الحسنى ، وهو صيغة مبالغة أى : كثير الود . [القاموس القويم ٣٢٦/٢] والود : الحب ، قال تعالى : ﴿... سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ١١﴾ [مريم] أى : محبة منه تعالى ومحبة في قلوب الناس .

(٣) سقط على بعيه : أى : صادفه وعثر عليه من غير قصد فظفر به ، ومنه قولهم : على الخير سقطت . قاله ابن حجر المسفلاني في فتح الباري (١٠٨/١١) .

(٤) الفلاة : الصحراء ليس بها ماء ولا أنيس . وهى : القفر من الأرض لأنها فليت عن كل خير أو فطمت وعزلت . [لسان العرب] .

(٥) متفق عليه . أخرجه البخارى في صحيحه (٦٣٠٨ ، ٦٣٠٩) ، وأخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٤٤) عن عبد الله بن مسعود . واللفظ للبخارى .

ولنا أن نتخيل بماذا يشعر من فقد بغيره ؛ وهذا البعير يحمل زاد صاحبه ورَحْله ؛ ثم يعثر الرجل على بغيره هذا .

لا بد - إذن - أن يفرح صاحب البعير بالعثور عليه .

والحق سبحانه يقول هنا ما جاء على لسان شعيب - عليه السلام - لقومه :

﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ .. ﴾ (٩٠) [هود]

وما دمتم ستستغفرونه عن الذنوب الماضية ؛ وتتوبون إليه ؛ بالألا تعودوا إلي ارتكابها مرة أخرى ؛ فالحق سبحانه لا يرد من قصد بابه : ﴿ .. إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَذُودٌ ﴾ (٩٠) لأن مغفرته تستر العذاب ، ورحمته تمنع العذاب .

وجاء الحق سبحانه هنا بأوسع المعاني : المغفرة ، والرحمة ، ومعهما صفة «الودود» ؛ وهي من الود ؛ والود هو الحب ؛ والحب يقتضي العطف على قدر حاجة المعطوف عليه .

ولله المثل الأعلى : نرى الأم ولها ولدان : أولهما قادر ثرى يأتي لها بما تريد ؛ وثانيهما ضعيف فقير ؛ فنجد قلب الأم - دائماً - مع هذا الضعيف الفقير ؛ وتحسن قلب القوي القادر على الفقير الضعيف .

ونجد المرأة العربية القديمة تحبب على من سألها : أى أبنائك أحب إليك ؟ فتقول : الصغير حتى يكبر ؛ والغائب حتى يعود ؛ والمريض حتى يشفى .

إذن : فالحب يقتضي العطف على قدر الحاجة .

ويقول الحق سبحانه في الحديث القدسي :

«يا بن آدم ؛ لا تخافن من ذى سلطان ؛ ما دام سلطاني باقياً ؛ وسلطاني لا ينفد»<sup>(١)</sup> . يا بن آدم لا تخش من ضيق رزق ؛ وخزائني ملائكة ، وخزائني

(١) لا ينفد : لا ينتهي . ونفذ ينفد نفداً ونفاداً : فنى وانقطع ولم يبق منه شيء . قال تعالى : ﴿ مَا عِدَّكُمْ يَنْفَدُ

وَمَا عِدَّ اللَّهُ نَالِي .. ﴾ [النحل] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لِرِزْقَانَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴾ [ص] . أى : أنه

رزق دائم لا انقطاع له . [القاموس القويم] .

لا تنفذ أبداً . يا ابن آدم خلقتك للعبادة ؛ فلا تلعب ، وضمنت لك رزقك فلا تتعب ، فوَعَزَّتِي وجلالى إن رضيت بما قسمته لك أرحتُ قلبك ويدنك ؛ وكنْتَ عِنْدِي محموداً ؛ وإن أنت لم ترض بما قسمته لك ؛ فوَعَزَّتِي وجلالى لَأَسْلُطَنَّ عَلَيْكَ الدنيا ، تركض فيها ركض<sup>(١)</sup> الوحوش فى البرية<sup>(٢)</sup> ؛ ثم لا يكون لك منها إلا ما قسمته لك . يا ابن آدم خلقت السموات والأرض ولم أَعِ<sup>(٣)</sup> بخلقهن ؛ أيعينى رغيْف عيش أسوقه لك ؟ يا ابن آدم لا تسألنى رزق غد كما أطلب منك عمل غد . يا ابن آدم أنا لك مُحِبٌّ ؛ فبحقّى عليك كن لى مُحبّاً .

وهذا الحديث الكريم يبين مدى مودة الله سبحانه خلقه ؛ تلك المودة التى لا تستوعبها القلوب المشتركة .

ويأتى الحق - سبحانه وتعالى - بعد ذلك بقول أهل مدين ردّاً على شعيب - عليه السلام - :

(١) **قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا يَمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ** (١١)

(١) الركض : الجرى والعدو . قال تعالى : ﴿ لَمَّا أَحْسَوْا بِأَمْسِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكضُونَ (١٧) ﴾ [الأنبياء] أى : يجرّون ويفرون كناية عن الفرار والخوف الشديد . والركض : الضرب بالرجل ، قال تعالى : ﴿ ارْكضْ بِرِجْلِكَ ۚ ۞ ﴾ [ص] أى : اضرب بها . [القاموس القويم] .

(٢) البرية : الصحراء . والجمع : البرارى . والبر : ضد البحر . [راجع : مختار الصحاح - مادة : برء] .

(٣) لم أعي بخلقهن : لم أجز عنه ولم أطلق أحكامه . والإعياء : الكلال والتعب . [من لسان العرب] .

(٤) الفقه : الفهم . وفقه يفقه فهو فقيه : صار عالماً فاهماً . والفقه فى الاصطلاح : علم أحكام العبادات والمعاملات ، وهو فرع من فروع المعارف الدينية . قال تعالى : ﴿ لَا تَقْفُوهُنَّ نَسِيحَهُمْ ۚ ۞ ﴾ [الإسراء] أى : لا تفهمونه . وقال تعالى : ﴿ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ۚ ۞ ﴾ [التوبة] أى : ليدرسوا أحكام الدين وليتعلّموها . [القاموس القويم ٢ / ٨٦] .

(٥) الرهط : جماعة دون العشر من الرجال ، ورهط الرجل عشيرته وقبيلته ، لا واحد له من لفظه . قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۚ ۞ ﴾ [هود] أى : ولولا عشيرتك من الرجال لرجمناك . وقوله تعالى : ﴿ تَسْعَ رَهْطٍ ۚ ۞ ﴾ [النمل] من إضافة الشئ إلى ما يبينه . [القاموس القويم ١ / ٢٧٨] .

وهذا يُضاهي قول مشركي قريش لرسول الله ﷺ ، فقد قالوا:

﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ ۖ ۝٥٠ ﴾

[فصلت]

والإيمان يتطلب قلباً غير ممتلىء بالباطل ؛ ليُحسن استقباله ؛ أما القلوب الممتلئة بالباطل ، فهي غير قادرة على استقبال الإيمان ؛ إلا إذا أخلت العقول تلك القلوب من الباطل ، وناقشت العقول كُلاً من الحق والباطل ، ثم تأذن لما اقتنعت به أن يدخل القلوب .

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يطبع ويختتم على القلوب الممتلئة بالكفر ؛ فلا يخرج منها الكفر ولا يدخل فيها الإيمان .

ولم يكتف أهل مدين بإعلان الكفر ؛ بل هددوا شعبياً وقالوا:

﴿ .. وَإِنَّا لَنَرَاكَ لَيْنًا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْمُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۝٩١ ﴾

[هود]

وهذا التهديد يحمل تحدياً ، وكأنهم ظنوا أن بقدرتهم الفتك به ؛ لأنهم ييغضون حياته ؛ وأعلنوا حجة واهية ؛ وهي أن رهطه - أي : قومه وأهله ؛ لأن الرهط هم الجماعة التي يتراوح عدد أفرادها بين ثلاثة وعشرة أفراد - ما زالوا على عبادة الأصنام ؛ وأن هذا الرهط سيغضب لأي ضرر يصيب شعبياً ؛ وتناسوا أن الذي أرسل شعبياً - ﷺ - لا بد أن يحميه ، وهم - بتناسيهم هذا - حققوا مشيئة الله - عز وجل - بأن يُسخّر الكفر لخدمة الإيمان .

ومثال ذلك: هو بقاء عم النبي ﷺ أبى طالب على دين قومه ؛ وقد ساهم هذا الأمر في حماية محمد ﷺ في ظاهر الأسباب .

ثم يأتي الحق سبحانه من بعد ذلك بردّ شعيب عليه السلام على قومه ؛ فيقول :

﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُوا رَحْطِيْ- أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ  
وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا ۚ إِنَّ رَبِّيْ بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۝٩٦﴾

وهنا يتساءل شعيب عليه السلام باستنكار : أوضعتم رحطى فى كفة ؛ ومعزة  
الله تعالى فى كفة ؟ وغلبتم خوفكم من رحطى على خوفكم من الله ؟  
ولم يأبه شعيب عليه السلام باعتزازهم برحطه أمام اعتزازه بربه ؛ لأنه أعلن - من  
قبل - توكله على الله ؛ ولأنه يعلم أن العزة لله تعالى أولاً وأخيراً .

ولم يكتفوا بذلك الاعتزاز بالرحط عن الاعتزاز بالله ؛ بل طرحوا  
التفكير فى الإيمان بالله وراء ظهورهم ؛ لأن شعبياً عليه السلام يقول لهم :

﴿ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا ۚ .. ۝٩٧﴾ [هود]

أى : لم يجعلوا الله - سبحانه - أمامهم ، فلم يأبهوا بعزة الله ؛  
ولا بحماية الله ؛ وجعلوا لبعض خلقه معزة فوق معزة الله .

ولم يقل : (ظهِرًا) نسبة إلى (الظهر) ، فعندما ننسب تحدث تغييرات ،  
فعندما ننسب إلى اليمن نقول : يمنى . ونقول : يمانى ، فالنسب هنا إلى  
الظهري ، وهى المنسى والمترك ، فأنت ساعة تقول : أنت طرحت فلاناً  
وراء ظهرك ، يعنى جعلته بعيداً عن الصورة بالنسبة للأحداث ، ولم  
تحتسب له حساباً . إذن : فهناك تغييرات تحدث فى باب النسب <sup>(١)</sup> .

(١) الظهري : المنسى المتروك وراء الظهر ، يقال : جعله ظهيراً ، أى : جعله نسياً منسياً . قال تعالى :  
﴿ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا ۚ .. ۝٩٧﴾ [هود] أى : نسيتم الله وحقوقه عليكم . [القاموس القويم ١/٤١٩] .

(٢) المحيط : من أسماء الله الحسنى ، أى : المسيطر على كل شئ . وقال تعالى : ﴿ .. وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ۝١٧٨﴾ [البقرة] . أى : مسيطر عليهم لا يملكون منه هرباً ولا فراراً . [القاموس القويم ١/١٧٨] .

(٣) النسب باب من أبواب علم الصرف .

ويذكرهم شعيب عليه السلام بقوله :

﴿ .. إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (٩٢)

[هود]

أى : أن كل ما تقولونه أو تفعلونه محسوب عليكم ؛ لأن الحق سبحانه لا تخفى عليه خافية ، وقد سبق أن عرفنا أن القول يدخل فى نطاق العمل ؛ فكلُّ حدث يقال له : «عمل» ؛ وعمل اللسان هو القول ؛ وعمل بقية الجوارح هو الأفعال .

وقد شرف الحق سبحانه القول لأنه وسيلة الإعلام الأولى عنه سبحانه .

يقول الحق سبحانه من بعد ذلك ما جاء على لسان شعيب عليه السلام :

﴿ وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ  
تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ  
وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ (٩٣)

إذن : فشعيب عليه السلام عنده القضية المخالفة ؛ لأن الله تعالى عنده أعزُّ من رهنه ؛ وباعتزازه بربه قد أوى إلى ركن شديد ، وبهذا الإيمان يعلن لهم : افعلوا ما فى وسعكم ، وما فى مكتتكم هو ما فى مكتنة البشر ، وسأعمل ما فى مكتتى ، ولست وحدى ، بل معى الله سبحانه وتعالى ؛ ولن تتسامى قوتكم الحادثة على قدرة الله المطلقة .

ومهما فعلتم لمعارضة هذا الإصلاح الذى أدعوكم إليه ؛ فلن يخذلنى الذى أرسلنى ؛ وما دمتم تريدون الوقوف فى نفس موقف الأمم السابقة التى

(١) المكانة : رفعة الشأن والرزانة والتودة ، قال تعالى : ﴿ قُلْ مَا أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ .. ﴾ (١٣٥) [الأنعام] أى : برزانة وتودة وتبصر . وقرئ : «على مكاناتكم» بالجمع . [القاموس القويم ٢ / ٢٣٢] .



تصدت لموجات الإصلاح السماوية ؛ فهزمهم الله سبحانه بالصيحة ، وبالرجفة ، وبالريح الصرصر<sup>(١)</sup> ، وبالقذف بأى شيء من هذه الأشياء ، وقال لهم : اعملوا على مكانتكم ، وإياكم أن تتوهموا أنى أتودد إليكم ؛ فأنا على بينة من ربي ، ولكنى أحب الخير لكم ، وأريد لكم الإصلاح .

ولم يقل شعيب عليه السلام هذا القول عن ضعف ، ولكن قاله رداً على قولهم :

﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا دَهْطُكَ<sup>(٢)</sup> لَرَجِمْنَاكَ .. ﴾ (٩١) [هود]

وأبرز لهم مكانته المستمدة من قوة مَنْ أرسله سبحانه وتعالى ، وقال :

﴿ اَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ .. ﴾ (٩٢) [هود]

وهكذا أوضح لهم : أنا لن أقف مكتوف الأيدي ، لأنى سأعمل على مكانتى ، و﴿ .. سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ (٩٣) [هود]

أى : أن المستقبل سوف يبين مَنْ مَنَّا على الحق وَمَنْ مَنَّا على الضلال ، ولن سيكون النصر والغلبة ، ومن الذى يأتیه الخزي ؛ أى : أن يشعر باحتقار نفسه وهوانها ؛ ويعانى من الفضيحة أمام الخلق ؛ وَمَنْ مَنَّا الكاذب ، وَمَنْ على الحق .

وكان لا بد أن تأتى الآية التالية :

(١) الريح الصر والصرصر : شديدة البرد . وقيل : شديدة الصوت . قال الزجاج : الصر والصرة شدة البرد . [قاله ابن منظور فى اللسان] .

(٢) الدهط : الجماعة دون العشر من الرجال ، ورهط الرجل هشيرته وقبيلته ، لا واحد له من لفظه . قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَهْطُكَ لَرَجِمْنَاكَ .. ﴾ (٩١) [هود] أى : ولولا عشيرتك من الرجال لرجمناك . وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ .. ﴾ (٩٥) [النمل] من إضافة المثنى إلى ما يبينه . [القاموس القويم ٢٧٨/١] .

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ  
بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَآخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ<sup>(١)</sup> فَأَصْبَحُوا  
فِي دَيْرِهِمْ جِثْمِينَ<sup>(٢)</sup>﴾

ونلاحظ أن الحق سبحانه قد أورد في هذه السورة : أسلوبيين منطوقين  
أحدهما بالواو ، والآخر بالفاء .

الأول : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا .. (٩٤)﴾ ، في قصة اثنين آخرين من الرسل .

الثاني : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا .. (٩٦)﴾ [هود]

في قصة اثنين من الرسل<sup>(٣)</sup> .

وقصة شعيب هي إحدى القصتين اللتين جاء فيهما ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾  
ولم يأت بـ «الفاء» لأنها - كما نعلم - تقتضى التعقيب بسرعة ، وبدون  
مسافة زمنية ، وتسمى في اللغة «فاء التعقيب» ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ<sup>(٤)</sup>﴾ (٢١)﴾ [عبس]

(١) الصيحة : اسم مرة من الصباح ، وهو الصوت الشديد . والصيحة : العذاب الذي يصحبه صوت  
شديد . قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ (٩٤)﴾ [ق] . [القاموس القويم] .

(٢) جثم جثوماً : لزوم مكانه لا صفياً بالأرض ، قال تعالى : ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَيْرِهِمْ جِثْمِينَ (٩٦)﴾ [هود]  
كتابة عن موتهم بحالتهم فهم هامدون لا صفون بالأرض . [القاموس القويم] .

(٣) هما نبي الله صالح ، ونبي الله لوط عليهما السلام . قال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا  
مَعَهُ .. (٩٦)﴾ [هود] . وقال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّنْ سَجَابِلِ  
مُنْهَوْدٍ (٩٥)﴾ [هود] .

أما ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ فقد جاءت في نبي الله هود في قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ  
ءَامَنُوا مَعَهُ .. (٩٤)﴾ [هود] ، وكذلك نبي الله شعيب في قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ  
ءَامَنُوا مَعَهُ .. (٩٦)﴾ [هود] .

(٤) قبره وألبيره : دفنه في قبر . وهذا الفعل يتعدى بنفسه ، ويتعدى بالهمزة . قال تعالى : ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ  
(٢١)﴾ [عبس] وجمع القبر : قبور . وقال تعالى : ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُخِرَتْ (١)﴾ [الانفطار] . [القاموس  
القويم ٩٥/٢] بتعريف .

أما «ثم» فتأتى لتعقيب مختلف ؛ وهو التعقيب بعد مسافة زمنية ؛ مثل قول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشُرَهُ ﴾<sup>(١)</sup> (٢٢) ﴿

[عبس]

وقد جاءت «الفاء» مرة فى قصة قوم لوط ؛ لأن الحق سبحانه قد حدد الموعد الذى ينزل فيه العذاب ، وقال :

﴿ .. إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ (٨١) ﴿

[هود]

فكان لا بد أن تسبق «الفاء» هذا الحديث عن عذابهم ، فقال :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ<sup>(٢)</sup> مُنْضُودٍ ﴾ (٨٢) ﴿

[هود]

أما هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، فقد قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ .. ﴾ (٩٤) ﴿

[هود]

ولم يذكر وعداً ولم يحدد موعد العذاب .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا .. ﴾ (٩٤) ﴿

[هود]

وكل أمر يقتضى أمراً ؛ ويقتضى مأموراً ؛ ويقتضى مأموراً به .

(١) أنشره : أحياه وأوجده . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشُرَهُ ﴾ (٢٢) ﴿ [عبس] أى : بعثه من قبره . وقال تعالى : ﴿ فَأَنْشُرُنَا بِهِ بِلَادَهُمْ ﴾ (١١) ﴿ [الزخرف] أى : أحييناها بماء المطر ؛ لأنها كانت ميتة من قبل . [القاموس القويم] .

(٢) السجيل : الطين المتحجر . والمنضود : المتتابع المنتظم السقوط عليهم . ويقول تعالى : ﴿ وَالتَّخْلُفُ بِاسْفَافٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾ (٤٥) ﴿ [ق] أى : مرصوص بنظام . [القاموس القويم ١ / ٣٠٤] .

والأمر هنا هو الله سبحانه ؛ وهو القادر على إنفاذ ما يأمر به ، ولا يجزئ مأمور ما على مخالفة ما يأمر به الحق سبحانه ؛ فالكون كله يأتمر بأمر خالقه .

إذن : فحين يخبرنا الحق سبحانه وتعالى أن العذاب قد جاء لقوم ؛ فمعنى ذلك أن الأمر قد صدر ؛ ولم يتخلف العذاب عن المجيء ؛ لأن التخلف إنما ينشأ من مجازفة أمر لمأمور قد لا يطيعه ، ولا يجزئ العذاب على المخالفة لأنه مُسَخَّر ، لا اختياري له .

والقائل هنا هو الله سبحانه صاحب الأمر الكوني والأمر التشريعي ؛ فإذا قال الحق سبحانه حكماً من الأحكام وسجله في القرآن ؛ فتيقن من أنه حادث لا محالة ؛ لأن القضية الكونية هي من الحق سبحانه وتعالى ، ولا تتخلف أو تختلف مع مشيئته سبحانه ، والحكم التشريعي يسعد به مَنْ يُطَبِّقُهُ ؛ ويشقى من يخالفه .

والحق سبحانه يعطينا مثالا لهذا في قصة أم موسى . . يقول جلَّ شأنه :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فِإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ۖ ۝ (٧) ﴾ [القصص]

فمنطق البشر يقول : كيف نقول لامرأة : إذا خفت على ابنك ألقيه في البحر ؟ كيف ننجيه من موت مظلون إلى موت محقق ؟

هذا وإن كان مخالفاً لسنن العادة إلا أن أم موسى سارعت لتنفيذ أمر الله سبحانه ؛ لأن أوامر الله بالإلهام للمقربين ، لا يأتى لها معارض في الذهن .

والحق سبحانه كما أمرها بإلقاء وليدها في اليم ، فقال :

(١) اليم : البحر أو النهر العذب ، قال تعالى : ﴿ فَأَلْقَاهُم فِي الْيَمِّ ۖ ۝ (٧٦) ﴾ [الأعراف] وقوله : ﴿ فَالْقَلْبَ فِي الْيَمِّ ۖ ۝ (٧٧) ﴾ [طه] النهر العذب [ القاموس الفروع ص ٣٧٢ ح ٢ ] .

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْنَا أَمْرَكَ مَا يُوْحَىٰ (٣٨) أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ .. (٣٩)﴾ [طه]

كذلك أمر الحق - سبحانه وتعالى - اليم باللقاء التابوت - وفي داخله موسى - للساحل ، ولذلك فيقين أم موسى في أن أوامر الله لا تتخلف ، جعلها تسارع في تنفيذ ما أمرها الله به .

والحق سبحانه يريد أن يُرَبِّبَ الإيمان ، أى : يزيده في قلوب عباده ، فَهَبَ أن الله قضى بقضية أو أمر بأمر ، ثم لم يأت الكون على وفق ما أمر الله ، فماذا يكون موقف الناس ؟

فما دام رب العزة سبحانه قد قال فلا بد أن يحدث ما أمر به ، فعندما يقول الحق سبحانه : ﴿وَإِنْ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [المافات]

فلا بد أن تكون الغلبة لجنود الله ، فإذا ما غلبوا فافهموا أن شرط الجندية لله قد تخلف ، وأن عنصراً من عناصر الجندية قد تخلف وهو الطاعة .

ومثال هذا : الذين خالفوا أمر رسول الله ﷺ في البقاء على الجبل يوم أحد ، إنهم خالفوا أمر الرسول ﷺ ، فماذا يحدث لو أنهم انتصروا مع هذه المخالفة ؟

إذن : فقد انهزم المسلمون الذين اختلت فيهم صفة من صفات جنديتهم لله .

ولا بد أن تلتنقى القضيتان : القرآنية والكونية ؛ لأن قائل القرآن هو صاحب سنن الكون سبحانه وتعالى .

ولأن أهل مدين هنا قد أعلنوا الكفر ؛ فلا بد أن يأتيهم العذاب .

وسمى الحق سبحانه هنا العذاب بالصيحة ؛ وقال :

﴿.. وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ (٩٤)﴾ [هود]

وسمى الحق سبحانه في سورة الأعراف العذاب الذي لحق بهم :  
«الرجفة» ؛ فقال :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ (٩١)

[الأعراف]

وسماه في قصة قوم عاد :

﴿ .. بِرِيحٍ صَرْسَرٍ <sup>(١)</sup> عَاتِيَةٍ ﴾ (٦١)

[الحاقة]

وسماه بالخسف في عذاب قارون .

ومن عظمة التوجيه الإلهي أن العذاب كان يتقى القوم الكافرين فقط ؛  
ولا يصيب الذين آمنوا ، بدليل قول الحق سبحانه :

﴿ نَجِّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ .. ﴾ (٩٤)

[هود]

ولا يقدر على ذلك إلا إله قادر مقتدر ؛ يُصرف الأمور كما يشاء سبحانه .

وكلمة «نجينا» : من النجاة ؛ أى : أن يوجد بنجوة ؛ وهى المكان  
العالى ، والعرب قد عرفوا مبكراً طغيان الماء ؛ فقد كانوا يقيمون فى اليمن  
ثم بعثهم السيل مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ <sup>(٢)</sup> فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ  
رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ

(١) الصر ، والصرصر : البرد الشديد . قال تعالى : ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ لَمُبِطَةٍ <sup>(١١٧)</sup> ﴾ [آل عمران] . والريح :

الهواء المتحرك فى الجو ، وأصلها «روح» قلبت الواو ياء لكسر ما قبلها . والجمع : رياح ، وتجمع أيضاً  
على «أرواح» - على الأصل - وقال تعالى : ﴿ .. بِرِيحٍ صَرْسَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ (٦١) [الحاقة] أى : شديدة  
مدمرة - على سبيل الاستعارة - كأنها إنسان جبار طاغى عات . [القاموس القويم] .

(٢) سبأ : اسم رجل يجمع عدة قبائل نشأت فى اليمن ، وسميت باسمه مدينة كبيرة باليمن ، كانت عاصمة  
ملك اليمن . قال تعالى : ﴿ .. وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَا يُعَمِينَ ﴾ (٢٧) [النمل] . [القاموس القويم ١/ ٢٩٩] .

الْعَرَمِ <sup>(١)</sup> وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ <sup>(٢)</sup> وَأَثَلٍ <sup>(٣)</sup> وَشَيْءٍ مِّنْ  
سِدْرٍ <sup>(٤)</sup> قَلِيلٍ <sup>(٥)</sup> ﴿١٦﴾

هكذا تفرق العرب من اليمن ؛ وانتشروا في الجزيرة العربية ، وكانوا  
يخافون من الماء - رغم أنه سر الحياة ؛ وفضلوا التعب في البحث عن الماء  
للشرب لهم ولأنعامهم ؛ بدلاً من الوجود بجانب الماء ، ومن عداوة الماء  
جاءت كلمة «نجاء» أي : صعد إلى مكان مرتفع .

واستخدمت كلمة «نجاء» في كل موقف ينجو فيه الإنسان من الخطر  
الداهم <sup>(٥)</sup> ، فيقال : «نجاء من النار» ؛ «ونجاء من العدو» ؛ «ونجاء من الحيوان  
المفترس» ؛ وكلها مأخوذة من النجوة ، أي : المكان المرتفع . ويقال في  
الفعل (نجأ) : نجأ فلان ، إذا كانت قوته تسعفه ليخلص نفسه من العذاب .

أما إذا كانت قوته غير قادرة على تخليصه من العذاب ، فهو يحتاج إلى  
مَنْ يُنْجِيهِ ، ويُقال : «أنجأه» ، إذا كانت المسألة تحتاج إلى جهد ومعالجة  
صعبة ليتحقق الفوز .

(١) السيل : الماء الكثير يجري ويسيل على الأرض . وسيل العرم : أي : سيلان العرم ، وهي سدود اليمن ،  
أو سيل المطر الشديد . [القاموس القويم ١ / ٣٤٠] .

(٢) الخمط : كل نبات فيه مرارة وحموضة تعافه النفس . قال تعالى : ﴿ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّنْ  
سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ [سبأ] لما غضب الله على سبأ جعل طعامهم هذه الأشياء ، وذلك كناية عن شدة الفقر .  
[القاموس القويم ١ / ٢١١] .

(٣) الأثل : شجر طويل مستقيم الخشب كثير الأغصان ، أوراقه دقيقة ، وثمره حب أحمر مر لا يؤكل . قال  
تعالى : ﴿ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ [سبأ] كناية عن هيق العيش وشدة الفقر .  
[القاموس القويم ١ / ٧] .

(٤) السدر : شجر النبق ، وهو شجر شائك له ثمر ، فيه حلاوة قليلة ، وأحدثه سدره ، وهو كناية عن هيق  
العيش ، فقد ضيق الله عليهم الرزق لعدم شكرهم . [القاموس القويم ١ / ٣٠٧] .

(٥) كل ما غشيك فقد دهمك . ويقال : يدهمهم أي : يهجومهم . راجع لسان العرب .

ونسب الفعل فيها إلى الله ؛ فقال «نجينا» .

ويأتى الحق سبحانه فى مثل هذا الأمر بضمير الجمع ، كقوله تعالى :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ <sup>(١)</sup> 》 [القدر]

فكل شىء فيه فعل من الحق سبحانه وتعالى يأتى الله فيه بضمير الجمع : إِنَّا .  
أما إذا كان الشىء متعلقاً بصفة من صفات الذات الإلهية ، فإن الحق سبحانه يأتى بضمير الأفراد (أنا) مثل قوله تعالى :

﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ .. 》 [طه]

وقد أنجى الحق سبحانه شعباً والذين آمنوا معه ؛ لأن شعباً عليه السلام قال لقومه :

﴿ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ .. 》 [هود]

وكان عمل شعب عليه السلام فيه صحة وعزيمة التوكل ؛ لذلك أنجاه الله تعالى والذين آمنوا معه ، فهو سبحانه لا يريد من عباده إلا التوجه بالنية الخالصة الصادقة إليه ، فإذا توجه العبد بالنية الصادقة إلى الله ، فالحق سبحانه يربح العبد ، ويُعينه بالاطمئنان على أداء أى عمل .

ومجرد الإيمان بالله تعالى والاتجاه إليه بصدق وإخلاص ؛ يفتح أمام العبد آفاقاً من النجاح والرفعة .. والمفتاح فى يد العبد ؛ لأن الحق سبحانه قد قال فى الحديث القدسى :

«من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى ملا خبير منه» <sup>(٢)</sup> .

(١) أنزلناه : ابتدأنا إنزال القرآن العظيم . ليلة القدر : ليلة الشرف والعظمة . [كلمات القرآن للشيخ حسين مخلوف] .

(٢) تمام الحديث : «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني ، فإن ذكرني فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرني فى ملا خبير منه ، وإن اقترب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن اقترب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » من حديث أبى هريرة .



إذن: فالفتاح في يد العبد.

والحق سبحانه هو القائل:

«ومن تقرب إلى شبراً تقربتُ إليه ذراعاً».

وهكذا يترك الحق سبحانه أمر التقرب إليه للعبد ، وعندما يتقرب العبد من الله تعالى ، فإنه سبحانه يتقرب إلى العبد أكثر وأكثر .

ثم يقول الحق سبحانه في حديثه القدسي:

«ومن جاءني يمشي أتيتُه هرولة»<sup>(١)</sup> لأن المشي قد يُتعب العبد ، لكن لا شيء يُتعب الحق سبحانه أبداً ؛ لأنه مُنزهٌ عن ذلك .

إذن: فالحق سبحانه يريد منا أن نُخلص النية في الالتحام بمعِية الله تعالى ، ليضفي علينا ربنا سبحانه من صفات جلاله وصفات جماله<sup>(٢)</sup> .

وانظروا إلى سيدنا رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه في الغار .. يقول الحق سبحانه:

﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا .. ﴾ (٤٠) [التوبة]

أي: أن رسول الله ﷺ ينهى صاحبه عن الحزن بعلّة معية الله سبحانه وتعالى ، ولا بد أن أبا بكر الصديق قد قال كلاماً يفيد الحزن ؛ لأن الحزن لم يأت له من تلقاء نفسه ، بل من قانون كوني ، حين قال لرسول الله ﷺ: « لو نظر أحدهم تحت قدميه لرأنا» لكن رسول الله ﷺ لا يتكلم عن القانون

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٠٥) والإمام أحمد في مسنده (٣١٥ / ٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) صفات الجمال هي الصفات المعبرة عن الرحمة والمغفرة والأمن والسلام مثل: الرحيم ، الغفور ، السلام ، المؤمن . أما صفات الجلال فهي الصفات المعبرة عن القهر والجبروت والفر مثل: القهار ، الجبار ، الضار ، المميت .

الكوني ، لكنه يتكلم عن طلاقة قدرة المكون سبحانه ، فقال : «ما ظنك  
بأثنين الله ثالثهما؟»<sup>(١)</sup> .

فمعية الله أضفت عليهما شيئاً من جلاله وجماله ، والله سبحانه  
لا تتركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار<sup>(٢)</sup> .

وقد ألجى الحق سبحانه شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منه سبحانه ،  
والرحمة ألا يصيبك شيء .

ومثال ذلك : إن الإنسان يعالج فيشفى ، ومرة أخرى يحميه الله من  
الداء .

ولذلك انتبهوا إلى حقيقة أن القرآن قد جاء بأمرين : شفاء ، ورحمة ،  
فإذا كان هناك داء وترجعه إلى منهج الله ؛ فالحق سبحانه يشفيه ،  
والرحمة ألا يصيبك الداء من البداية .

وأما الذين ظلموا فقد أخذتهم الصيحة ، وفي آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ .. ﴾ (٦٧)

[هود]

وفي هذه الآية يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ .. ﴾ (٦٨)

[هود]

لأن القرآن على جمهرته جاء على لغة قريش ، لا ليُعلَى قريشاً ؛ ولكن  
لأن لغة قريش كانت مُصَفَّاة من جميع القبائل العربية ، فهي تملك صفوة  
لغة كل القبائل ، ولكن لم يكن ذلك يعني أن نطمس بقية القبائل .

(١) متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٤٦٦٣) ومسلم في صحيحه (٢٣٨١) من حديث أبي بكر  
الصديق رضي الله عنه .

(٢) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ  
(٥١) لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْخَبِيرُ ﴾ (٥١) [الأنعام] .

ولذلك جاء في القرآن بعض من لغات القبائل الأخرى ، حتى لا يعطى لقريش سيادة في الإسلام كما كان لها سيادة في الجاهلية ، لذلك يأتي بلغات القبائل الأخرى ، فمرة يأتي بناء التانيث ومرة لا يأتي بها .

والتانيث إما أن يكون حقيقياً<sup>(١)</sup> أو مجازياً<sup>(٢)</sup> . والتانيث الحقيقي هو المقابل للمذكر ، مثل : المرأة . والتانيث المجازي مثل : «الصبيحة» و«الحجرة» . وكانت القبائل العربية تتجاوز في المؤنث المجازي ؛ فمرة تأتي «الناء» ومرة لا تأتي<sup>(٣)</sup> .

وإن كان هناك فصل بين الفعل والفاعل ، فالفاصل قائم مقام التانيث فيقول سبحانه :

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّبِيحَةَ .. ﴾ (٦٧) [هود]

(١) المؤنث الحقيقي هو الذي يلد ، ويتناسل ، ولو كان تناسله من طريق البيض والتفريخ . ولا بُدَّ في لفظ المؤنث الحقيقي من علامة تانيث ظاهرة أو مقدرة مثل : فاطمة ، ليلي ، هند ، عصفورة ، بقرة . . . إلخ . قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَلَّوْتُ لَكَ مَا لِي بَطْنِي .. ﴾ (٣٢) [آل عمران] . وقوله تعالى : ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَنَازِكَكُمْ .. ﴾ (١٨) [النمل] .

(٢) المؤنث المجازي هو الذي لا يلد ولا يتناسل ، سواء أكان لفظه مختوماً بعلامة تانيث ظاهرة ؛ مثل : ورقة ، وسفينة . . . أم مقدرة ، مثل : دلو ، وشمس . ولا سبيل لمعرفة المؤنث المجازي إلا من طريق السماع الوارد من العرب .

(٣) يجوز التانيث وتركه إذا كان الفاعل حقيقياً التانيث ولم يتصل بالفاعل - أي : فصل فاصل بين الفعل والفاعل المؤنث - مثل قوله تعالى : ﴿ فَمَجَاءتُهُ إِحْدَاهُمَا تُسَبِّحُ عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ .. ﴾ (١٢) [القصص] وقوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكُمُ الْمُرْسَلَاتُ مِنْهُاجِرَاتٍ فَاذْكُرُونَهُنَّ .. ﴾ (١٢) [الممتحنة] وإذا كان الفاعل مؤنثاً مجازياً ، كقوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا .. ﴾ (١٨) [محمد] ، وأن يكون الفاعل جمع تكسير ، كقوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا .. ﴾ (١١) [الحجرات] وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ بَشْرَةُ فِي الْمَدِينَةِ .. ﴾ (٢٠) [يوسف] . وهناك تفصيلات كثيرة أخرى انظرها في [النحو الوافي] لعباس حسن (٤/ ٥٨٦ ، ٥٨٧) ، و«النحو المصفي» للدكتور محمد عبد (ص ٤٠٢ - ٤٠٦) .

فكان الصبيحة لها مقدرة على أن تأخذ بما أودعه فيها مُرسِل الصبيحة من قوة الأخذ ، وأخذه أليم شديد .

وَيُنْهِى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿ .. فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ ﴾ (٩٤)

[هود]

ونلاحظ أن كل عذاب إنما يحدد له الحق سبحانه موعداً هو الصبح ، مثل قوله تعالى :

﴿ .. إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ (٨١)

[هود]

ومثل قوله الحق :

﴿ .. فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ (١٧٧)

[الصافات]

والصبح هو وقت الهجمة على الغافل الذي لم يغادره النوم بعد <sup>(١)</sup> ، مثل زُؤار الفجر الذين يقبضون على الناس قبيل النهار .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ .. فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ ﴾ (٩٤)

[هود]

ولم يقل سبحانه : « فأصبحوا في دارهم جائعين » ؛ لأن بعضهم قد لا يكون في بيته ، بل في مكان آخر لزيارة أو تجارة .

ومثال ذلك : قصة أبي رغال ، وكان في مكة ، لكن الحجر الذي قتله بإرادة الله سبحانه نزل عليه في البقاع ولم ينزل عليه الحجر في مكة ؛ لأن

(١) وقد قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴾ [القمر] والبكرة أول النهار . ويستعا للإسراع إلى الأمر في أي وقت . [القاموس القويم] .

الله سبحانه قد شاء ألا ينزل عليه الحجر في البيت الحرام ، الأمن ، وكان الحجر قد تتبَّعه ، مثلما تتبعت الصبيحة الكفار من أهل مدين <sup>(١)</sup> .

ونلاحظ في الكلمة الأخيرة من هذه الآية الكريمة وهي «جائمين» أن حرفي «الجيم» و«الشاء» حين يجتمعان معاً - بصرف النظر عن الحرف الثالث - ففيهما شيء من الهلاك ، وشيء من الغناية . ومعنى «جائمين» أي : مُلقون على بطونهم بلا حراك .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً <sup>(٢)</sup> .. ﴾ (٦٨)

[الجائية]

أي : يركع كل مَنْ فيها على ركبتيه . ويقال عن الميت : «الجثة» .

وانظروا إلى عظمة الحق سبحانه حين يجعل الناس تنطق لفظ «الجثة» تعبيراً عن أي «ميت» عظيماً كان أم وضعياً <sup>(٣)</sup> ، ثم توضع جثته في القبر ، لتحتضنه أمه الأولى ؛ الأرض .

(١) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال : لا تسألوا الآيات فقد سألتها قوم صالح فكانت - يعني الناقة - ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم فعمقروها وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً فعمقروها فأخذتهم صبيحة أحمد الله من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله . فقالوا : من هو يا رسول الله ؟ قال : أبو رغال ، فلما أخرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه ، أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٦/٣) والحاكم في مستدركه (٢/٣٢٠ ، ٥٦٧) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٢) جئاً يجئو جئوا ، وجئى يجئى جئياً : جلس على ركبتيه فهو جاث وهي جائية . قال تعالى : ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً .. ﴾ (٦٨) [الجائية] كناية عن العجز والخوف والشرق كالسجين ينتظر المحاكمة . وقال تعالى : ﴿ .. ثُمَّ لَنَحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا ﴾ (٦٨) [مرهم] تصويراً لحالهم في ذل ومهانة ينتظرون العذاب الشديد . [القاموس القويم : مادة (جئى)] .

(٣) الوضيع : الدنىء من الناس ، وهو ضد الشريف . والضعة : الذل والهوان والدناءة . [لسان العرب - مادة : وضع] .

ومن يرغب في نهدثة إنسان ملتاناً<sup>(١)</sup> وغاضب لموت عزيز عليه ، فليقل له : هل تتحمل جثمانه أسبوعاً ؟ وسوف يجيب : « لا » .

إذن : فبمجرد أن ينزع الله سبحانه السر الذي به كان الإنسان إنساناً ، وهو الروح ، يصبح الإنسان جثة ثم يتخشب ، ثم يرم<sup>(٢)</sup> .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك وصفاً لمن أخذتهم الصيحة من أهل « مدين » :

﴿ كَانُوا لَمْ يَرِغُوا فِيهَا<sup>(٣)</sup> إِلَّا بَعْدَ الْمَدِينِ<sup>(٤)</sup> كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ<sup>(٥)</sup> ﴾

أى : أن من يمر على أهل « مدين » بعد ذلك كأنهم لم يكن لهم وجود .

والحق سبحانه يقول :

﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَطْنَ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا .. ﴾ (٦٨) ﴿

[يونس]

فالإنسان الذى ارتقى حتى وصل إلى الحضارات المتعددة ، إلى حد أنه قد يطلب القهوة بالضغط على زر آلة ، فإذا شاء الله سبحانه أزال كل ذلك فى لمح البصر .

(١) اللوعة : وجع القلب من المرض والحب والحزن ، وقيل : هى حرقه الحزن والهوى والوجد ، وهى أيضاً ما يبعده الإنسان لولده وحميمه من الحرقه وشدة الحب . [انظر اللسان - مادة : لوع] .

(٢) الرميم : البالى من كل شىء . رم للميت : بلى جسمه ، قال تعالى : ﴿ .. مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (٧٨) ﴿ [يس] والرمة : العظم البالى . [لسان العرب ، القاموس القويم مادة : رم] .

(٣) غنى القوم فى ديارهم : طال مقامهم فيها . قال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَالِسِينَ ﴾ (٦٨) ﴿ كَانُوا لَمْ يَرِغُوا فِيهَا .. ﴾ (٦٨) ﴿ [هود] [القاموس القويم مادة (غنى)] .

(٤) بعد بَعْدًا وَبَعْدًا : هلك . قال تعالى : ﴿ .. إِلَّا بَعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ ﴾ (٦٨) ﴿ [هود] [أى : هلكاً لمدين كما هلكت ثمود . [القاموس القويم : مادة (بعد)] .

هذه الحياة المرفهة يستمتع فيها الإنسان كمخدوم ، وهي غير الجنة التي ينال فيها الإنسان ما يشتهي بمجرد أن يخطر الأمر بباله .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا .. ﴾ (٩٥)

[هود]

ومادة «الغنى» منها : الغناء - بكسر الغين - وهو ما يغنيه المطربون ، ومنها الغناء - بفتح الغين - وهو يؤدي إلى الشيء الذي يغنيك عن شيء آخر ، فالغنى بالمال يكتفى عما في أيدي الناس .

وهكذا الغناء ؛ لأن الأذن تسمع كثيراً ، والعين تقرأ كثيراً ، لكن الإنسان لا يردد إلا الكلام الذي يعجبه ، والملحن بطريقة تعجبه ؛ فالغناء هو اللحن المستطاب الذي يغنيك عن غيره .

والغناء ، أى : الإقامة فى مكان إقامة تغنيك عن الذهاب إلى مكان آخر ، وتتوطن فى هذا المكان الذى يغنيك عن بقية الأماكن .

إذن : يقول الحق سبحانه :

﴿ كَانَ لَمْ يَغْنَوْا<sup>(١)</sup> فِيهَا .. ﴾ (٩٥)

[هود]

أى : كأنهم لم يقيموا هنا ، ويستغنوا بهذا المكان عن أى مكان سواه .

ويقول الحق سبحانه فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ .. مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ<sup>(٢)</sup> ﴾ (١٠٠)

[هود]

(١) غنى القوم فى ديارهم : طال مقامهم فيها . قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرُوا لِمَا دَلَّوْهُمُ جَالِمِينَ ﴾ (٩٥) كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا .. [هود] وقد غنيت الدار بأهلها : عَمُرَتْ بِهِمْ . قال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَانَ لَمْ تَغْنِ بِالْأَنْسِ ﴾ (٩٥) ..

[يونس] أى : كأنها لم تعمر . [القاموس القويم : مادة (غنى)] .

(٢) قائم : اسم فاعل من قام . قال تعالى : ﴿ وَفَرَّ قَائِمٌ يَهُودِيٌّ إِلَى الْمَغْرَبِ .. ﴾ (٩٥) [آل عمران] وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ [هود] أى : منها ما هو إلى الآن قائم عامر بأهله كالزروع ، ومنها ما هلك فصار كالزراع الحصيد . [القاموس القويم : مادة (قوم)] .

أى: أن الأطلال<sup>(١)</sup> قائمة بما تحويه من أحجار ورسوم<sup>(٢)</sup>، مثل معابد قدماء المصريين، وأنت حين تزورها لا تجد المعابد كلها سليمة، بل تجد عموداً منتصباً، وآخر ملقى على الأرض، وباباً غير سليم، ولو كانت كلها حصيداً؛ لا خفت تماماً، ولكنها بقايا قائمة، ومنها ما اندثر<sup>(٣)</sup>.

وهذا يثبت لنا صدق الأداء القرآنى بأنه كانت هناك حضارات، لأنها لو ذهبت كلها؛ لما عرفنا أن هناك حضارات قد سبقت.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿.. أَلَا بَعْدُ لِمَدَيْنَ كَمَا بَعْدَتْ نَمُودُ (٩٥)﴾ [هود]

وكلمة «ألا» - كما عرفنا من قبل - هى «أداة استفتاح» ليلفت السامع وينصت، فلا تأخذه غفلة عن الأمر المهم الذى يتكلم به المتكلم، وليستقبل السامع الكلام كله استقبال المستفيد.

وكلمة «بُعْدُ» ليست دعاءً على أهل مدين بالبعد؛ لأنها هلكت بالفعل، ومادة كلمة «بُعْدُ» هى: «الباء» و«العين» و«الدال» ونستعمل استعمالين: مرة تريد منها الفراق؛ والفراق بينونة إلى لقاء مظنون، أما إذا كانت إلى بينونة متيقنة ألا تكون، ولذلك جاء بعدها:

﴿.. كَمَا بَعْدَتْ نَمُودُ (٩٥)﴾ [هود]

وهى تدل على أنه بعد لا لقاء بعده إلا حين يجمع الحق سبحانه الناس يوم القيامة.

(١) الأطلال: جمع طلل، وهو ما شُيِّد من آثار الديار القديمة. وقيل: طلل كل شيء شخصه. [انظر: لسان العرب].

(٢) الرسوم: جمع الرسم. وهو بقية الأثر. وقيل: هو ما لصق بالأرض منها. ورسم الدار: ما كان من آثارها لا صفقاً بالأرض.

(٣) اندثر: الدروس وأمعاء الذكر، وكل شيء أمحى وذهب أثره فقد دثر. [اللسان بتصرف].



والشاعر<sup>(١)</sup> يقول:

يَقُولُونَ لَا تَبْعِدْ وَهُمْ يَدْفِنُونَنِي  
وَأَيْنَ مَكَانُ الْبُعْدِ إِلَّا مَكَانِيَا  
فهذا هو البعد الذي يذهب إليه الإنسان ولا يعود<sup>(٢)</sup>.

ولماذا خَصَّ الحق سبحانه ثمود بالذكر هنا ، وقد سبق أن قال سبحانه عن  
أقوام آخرين: «ألا بعداً؟»

لأن الصيحة قد جاءت لثمود<sup>(٣)</sup> ، وبذلك اتفقوا في طريقة العذاب.

وتنتهى هنا قصة شعيب عليه السلام مع مدين ، ونلاحظ أن لها مساساً برسل  
مثل موسى عليه السلام ، مثلما كان لقوم لوط مساس بإبراهيم عليه السلام.

وهكذا نعلم أن هناك رسلاً قد تعاصرت ، أى: أن كل واحد منهم  
أرسل إلى بيئة معينة ومكان معين . ولأن المرسل إليهم هم عبيد الله  
كلهم ؛ لذلك أرسل لكل بيئة رسلاً يناسب منهجه عيوب هذه البيئة .

وإبراهيم عليه السلام هو عم لوط عليه السلام ، وموسى عليه السلام هو صهر شعيب عليه السلام .  
وقد ذهب موسى إلى أهل مدين قبل أن يرسله الله إلى فرعون .

(١) الشاعر هو: مالك بن الوب المازني ، شاعر من الظرفاء الأدباء الفُتُكَا ، اشتهر في أوائل العصر  
الأموي ، شهد فتح سمرقند وتنسك ومرح في مرو وأحسن بالموت فقال قصيدته التي منها هذا البيت  
وعندتها ٥٨ بيتاً أوردها أبو علي الفاي كامل في أماليه (٣/ ١٥١ - ١٥٤) توفي عام ٦٠ هجرية . انظر  
الأعلام للزركلي (٥/ ٢٦١).

(٢) البعد: الهلاك . بعد: هلك . فقوله تعالى: ﴿.. أَلَا بَعْدُ لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٤] أى:  
هلاكا لمدين كما هلكت ثمود . والبعد: خلاف القرب ، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ٨] أى: لا تقربوا مال الوالدين والأقرب .  
.. [الزخرف: ٩٤] أى: مقدار بعد أحدهما عن الآخر . [القاموس القويم].

(٣) قال رب العزة سبحانه: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُتُوا بِالنَّازِلَةِ﴾ [الحاقة: ١٦] أى: أهلكوا بالصيحة التي تجاوزت  
الحد في قوتها . والظفيران: تجاوز الحد ، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُكُمْ فِي الْجَارِ﴾ [الزخرف: ١٦] أى:  
[الحاقة: ١٦] أى: زاد وتجاوز الحد فأغرق البلاد . [القاموس القويم ١/ ٤٠٢].

ونحن نعلم أن الأماكن في الأزمنة القديمة كانت منعزلة ، ويصعب بينها الاتصال ، وكل جماعة تعيش في موقع قد لا يدرون عن بقية المواقع شيئاً ، وكل جماعة قد يختلف داؤها عن الأخرى .

لكن حين أراد الحق سبحانه بعثة محمد ﷺ كرسول خاتم ، فقد علم الحق سبحانه ألا أن رسول الله ﷺ على ميعاد مع ارتقاء البشرية ، وقد توحدت الداءات .

فما يحدث الآن في أي مكان في العالم ، ينتقل إلينا عبر الأقمار الصناعية في ثوان معدودة ، لذلك كان لا بد من الرسول الخاتم ﷺ .

أما تعدد الرسل وتعدد اللقطات لكل رسول بالقرآن ، فليست تكراراً كما يظن السطحيون ؛ لأن الأصل في القصص القرآني أن الحق سبحانه قد أنزله لتثبيت الرسول ﷺ ، فقد كانت الآيات تنزل من السماء الدنيا بالوحي لتناسب الموقف الذي يحتاج فيه الرسول ﷺ إلى تثبيت للفؤاد .<sup>(١)</sup>

وبيّن الحق سبحانه لرسوله ﷺ أن يتذكر إخوانه من الرسل وما حدث لهم مع أقوامهم وانتصار الله لهم في النهاية ، وحين أراد الحق سبحانه أن يقص قصة محبوبة جاء بسورة يوسف .

وهكذا فليس في القرآن تكرار ، بل كل لقطة إنما جاءت لتناسب موقعها في تثبيت الرسول ﷺ .

ولنا أن نلاحظ أن قصة شعيب عليه السلام مع قومه ، ما كان يجب أن تنتهي إلا بأن تأتي فيها لقطة من قصة موسى عليه السلام ، وهو صهر شعيب عليه السلام .

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَكَلَّا لَئِنْ لَفِئَتْ مِنْ أَهْلِ الْوَيْلِ مَا لَبِثَ لَكَ فُؤَادَكَ رَجَافًا فِي هَذِهِ نَعُودُ ﴾ وذكرى للمؤمنين (١٥) [هود] . ثبت الأمر : رسخ واستقر ضد تزلزل واضطرب . ويقول تعالى : ﴿ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ .. ﴾ [إبراهيم] أي : يقوى إيمانهم بالقول الصحيح الثابت وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وذلك ثبت معنوي . [راجع : القاموس القويم ١/ ١٠٥] .

## سُورَةُ هُودٍ

٦٦٤٩

والملاحظ أن الحق سبحانه قد ذكر هنا من قصة موسى عليه السلام لقطتين:  
اللقطة الأولى: هي الإرسال بالآيات إلى فرعون .

واللقطة الثانية: هي خاتمة فرعون لا مع موسى عليه السلام ، ولكن مع الحق سبحانه يوم القيامة ، يقول تعالى:

﴿ يَاقُومُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَرْرُودُ (٩٨) وَأَنْتُمْ فِي هَذِهِ لَعْنَةٌ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩) ﴾ [هود]

وكان لشعيب عليه السلام مهمة تثبيت قلب موسى عليه السلام من الهلع ، حين أعلن له أنه خائف من أن يقتله قوم فرعون لأنه قتل رجلاً منهم ، فقال له شعيب عليه السلام ما ذكره الحق سبحانه في قوله:

﴿ .. نَجَّوْتِ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) ﴾ [القصص]

وهكذا ثبتته وهياً له حياة يعيش فيها آمناً لمدة ثمانى حجج أو أن يتمها عشر حجج<sup>(١)</sup> ، مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿ قَالَ إِنِّي أَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ وَنَعْبُدَكَ وَمَا أَرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ سِتْرًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) ﴾ [القصص]

(١) الحجة - بكسر الحاء - : السنة الكاملة اثنا عشر شهراً ، وجمعها : حجج . قال تعالى : ﴿ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّجَ .. (٢٧) ﴾ [القصص] أى : ثمانى سنوات كاملة . [القاموس القويم] .

(٢) أجر فلان فلاناً أجراً : أثابه على عمل أو صار أجيراً له ، وبالوجهين فُسِّرَ قوله تعالى : ﴿ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّجَ .. (٢٧) ﴾ [القصص] وسُمِّيَ المهر أجراً مجازاً . وقال تعالى : ﴿ فَاتَّوَفَّوْا أَجْرَكُمْ .. (٧١) ﴾ [النساء] أى : مهورهم . وقال تعالى : ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ .. (١١٣) ﴾ [البقرة] أى : ثواب عمله .

وهكذا باشر شعيب عليه السلام مهمة في قصة موسى عليه السلام .

ومن هذا ومن ذاك يعطينا الحق سبحانه الدرس بأن الفطرة السليمة لها تقنيات قد تلتقى مع قانون السماء ؛ لأن الحق سبحانه لا يمنع عقول البشر أن تصل إلى الحقيقة ، لكن العقول قد تصل إلى الحقيقة بعد مرارة من التجربة ، مثلما قسَّ الحق سبحانه الطلاق في الإسلام ، ثم أخذت به بلاد أخرى غير مسلمة بعد أن عانت مرَّ المعاناة .

ومثلما حرَّم الحق سبحانه الخمر ، ثم أثبت العلم مضارها على الصحة ، فهل كنا مطالبين بأن نؤجل حكم الله تعالى إلى أن يهتدى العقل إلى تلك النتائج ؟

لا ؛ لأن الحق سبحانه قد أنزل في القرآن قانون السماء الذي بقي الإنسان شر التجربة ؛ لأن الذي أنزل القرآن سبحانه هو الذي خلقنا وهو مأمون علينا ، وقد أثبتت الأيام صدق حكم الله تعالى في كل ما قال بدليل أن غير المؤمنين بالقرآن يذهبون إلى ما نزل به القرآن ليطبّقوه .

وفي قصة موسى عليه السلام مثل واضح على مشيئة الحق سبحانه ، فها هو فرعون الكافر قد قام بتربية موسى بعد أن التقطه لعله يكون قرّة عين له <sup>(١)</sup> ، رغم أن فرعون كان يُقتل أطفال تلك الطائفة <sup>(٢)</sup> .

ثم تلحظ أخت موسى أخاها ، ويرد الحق سبحانه موسى عليه السلام إلى أمه <sup>(٣)</sup> .

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي وَلَوْلَا لَا تَقْطُوهُ عَنِّي أَنْ يَفْعَا أَوْ تَخْذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥) ﴾ [القصص] .

(٢) قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلًا شَرًّا يَنْصَلِفُ عَنْهَا فَالِقَةً مِّنْهُمُ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٦) ﴾ [القصص] .

(٣) قال تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٧) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٨) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (٩) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أَبِيهِ تَعْرِفُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَنَلَّعْنَا أُنُوسَهُمْ أَنْ يَدَّعُوا إِلَيْهِمْ وَرَدَّهُمْ لَمْ يَكُنْ أَكْثَرَهُمْ لَاطِمِينَ (١٠) ﴾ [القصص] .

وقد صورَّ الشاعر هذا الموقف بقوله :

إِذَا لَمْ تُصَادِفْ فِي بَيْتِكَ عِنَابَةً

مِنْ اللَّهِ فَقَدْ كَذَبَ الرَّاجِي وَخَابَ الْمَأْمُلُ

فَمُوسَى "الَّذِي رَبَّاهُ جِبْرِيلُ كَافِرٌ"

وَمُوسَى الَّذِي رَبَّاهُ فِرْعَوْنُ مُرْسَلٌ

وقد جاءت قصة موسى عليه السلام هنا موجزة ، في البداية وفي النهاية ؛ ليبين لنا الحق سبحانه أن لشعيب دوراً مع واحد من أولى العزم من الرسل ، وهو موسى عليه السلام .

وكان مقصد موسى عليه السلام قبل أن يبعث - هو ماء مدين ، فحدث ما يمكن أن نجد فيه حلاً لمشاكل الجنسين - الرجل والمرأة - وهي رأس الحرية التي تُوجّه إلى المجتمعات الإسلامية ؛ لأن البعض يريد أن تتبذل المرأة في مفاتها ، لإغواء الشباب في أعز أوقات شراسة المراهقة .

لكن القرآن حلَّ هذه المسألة في رحلة بسيطة ، ولنقرأ قول الحق سبحانه عن موسى :

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ .. (٢٣) [القصص]

أى : تمنعان الماشية من الاقتراب من المياه ، وكان هذا المشهد مُلفتاً لموسى عليه السلام ، وكان من الطبيعي أن يتساءل : ألم تأتيا إلى هنا لتسقيا الماشية ؟ وقال القرآن السؤال الطبيعي :

- (١) موسى السامري الذي رباه جبريل خالف أمر ربه بفتنة ، فعزل اجتماعياً وكتب عليه العذاب ، بخلاف موسى الرسول عليه السلام .
- (٢) ورد يرد وورداً : حضر أو أشرف على المكان - دخله أم لم يدخله . وورد الماء : قصده وبلغه ووصل إليه . واسم الفاعل منه : وارد . واسم المفعول : مورود . [القاموس القويم] .
- أمة من الناس : جماعة كثيرة منهم . [كلمات القرآن للشيخ حسين مخلوف] .
- تذودان : تمنعان أهنامهما عن الماء . [كلمات القرآن] .

[القصر]

﴿ مَا خَطَبُكُمَا <sup>(١)</sup> .. (٢٣) ﴾

فتأتيه الإجابة من المرأتين:

﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدِّرَ الرَّعَاءُ <sup>(٢)</sup> وَأَبُونَا شَيْخٌ <sup>(٣)</sup> كَبِيرٌ (٢٣) ﴾ [القصر]

وهكذا نعلم أن خروج المرأة له علة أن الأب شيخ كبير ، وأن خروج المرأتين لم يكن بفرض المزاحمة على الماء ، ولكن بسبب الضرورة ، وانتظرتا إلى أن يسقى الرعاة ، بل ظللتا محتجبتين بعيداً ؛ لذلك تقدم موسى ﷺ ليمارس مهمة الرجل :

[القصر]

﴿ فَسَقَى لَهُمَا .. (٢٤) ﴾

وهذه خصوصية المجتمع الإيماني العام ، لا خصوصية قوم ، ولا خصوصية قري ، ولا خصوصية أهل ، بل خصوصية المجتمع الإيماني العام .

فساعة يرى الإنسان امرأة قد خرجت إلى العمل ، فيعرف أن هناك ضرورة ألجأتها إلى ذلك ، فيقضى الرجل المسلم لها حاجتها .

وأذكر حين ذهبت إلى مكة في عام ١٩٥٠م أن نزل صديقي من سيارته أمام باب منزل ، وكان يوجد أمام الباب لوح من الخشب عليه أرغفة من العجين التي لم تخبز بعد ، وذهب به إلى المخبز ، ثم عاد به بعد خبزه إلى

(١) ما خطبكما : ما شأنكما ؟ أو ما مطلوبكما ؟ . [كلمات القرآن] .

(٢) يصدر الرعاء : يصرف الرعاة مواشيهم عن الماء . [كلمات القرآن] .

والصنوبر : الرجوع والانصراف . يقال : ورد إلى البشر ثم صدر عنها أي : رجع . وصدر دوابه : أوجعها بعد ورودها . [القاموس القويم] .

(٣) شاخ الإنسان بشيخ : أسن أو ظهرت فيه آثار كبر السن ، ويطلق الشيخ على من جاوز الخمسين من عمره . وله جموع كثيرة منها : أشياخ ، وشيوخ ، ومشايخ ورد منها في القرآن جمع واحد هو : شيوخ . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ تَبَلَّغُوا أَفْئِدَتَكُمْ لِمَ لَبَّيْتُمْ شيوخاً .. (٢٥) ﴾ [طه] . [القاموس القويم ١/ ٣٦٣] .

نفس الباب . وقال لى : إن هذه هى عادة أهل مكة ، إن وجد إنسان لوحاً من العجين غير المخبوز؛ فعليه أن يفعل ذلك؛ لأن وجود هذا اللوح أمام الباب إنما يعنى أن الرجل رب البيت غائب .

وهذا كله مأخوذ من كلمة :

﴿ فَسَقَى لَهُمَا .. (٢٤) ﴾

[القصر]

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يأمر الجنود أن تدق الأبواب لتسأل أهل البيوت عن حاجاتهم .

والأمر الثالث والمهم هو أن المرأة التى تخرج إلى مهمة عليها ألا تستمرى<sup>(١)</sup> ذلك ، بل تأخذها على قدر الضرورة ، فإذا وجدت منفذاً لهذه الضرورة ، فعليةا أن تسارع إلى هذا المنفذ ، ولذلك قالت الفتاة لأبيها شعيب :

﴿ .. يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) ﴾ [القصر]

ويتهى شعيب رضي الله عنه هذا الموقف إنهاء إيمانياً حكيماً حازماً ، فيقول لموسى :

﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ إِنْ كُنْتَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ

فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ .. (٢٧) ﴾

[القصر]

وهكذا يعلم موسى - عليه السلام - أن شعيباً لا يلقى بابتته هكذا دون مهر<sup>(٢)</sup> ،

(١) استمرى الطعام : وجده مريضاً أى : جيداً مستمافاً . واستمرى الشيء : أحبه واستزاد منه . [المعجم الوسيط] يتصرف .

(٢) المهر : الصداق ، والجمع : مهور . وهو الصدقة جمعها صدقات . قال تعالى : ﴿ وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً .. (٤٤) ﴾ [النساء] . قال فى فقه السنة (٢/٢١٨) : «لم تجعل الشريعة حداً لقلته ، ولا لكثرتها ، إن الناس يختلفون فى الغنى والفقر ، ويفاوتون فى السعة والفقير ، ولكل جهة عاداتها وتقاليدها ، وكل النصوص جاءت تشير إلى أن المهر لا يشترط فيه إلا أن يكون شيئاً له قيمة ، يقطع النظر عن القلة والكثرة ، ويجوز تعجيل المهر وتأجيله ، أو تعجيل البعض وتأجيل البعض الآخر حسب عادات الناس وعرفهم » .

لا .. بل لا بد أن يكون لها مهر ، وأيضاً تصبح أختها محرمة عليه <sup>(١)</sup> .

وهذه القصة وضعت لنا مبادئ تحل كل المشكلات التي يتشدد بها خصوم الإسلام .

وها نحن نجد في الغرب صيحات معاصرة تطالب بأن تقوم المرأة بالبقاء في المنزل لرعاية الأسرة والأولاد ؛ ليس لأن المرأة ناقصة ، ولكن لأن كمال المرأة في أداء أسمى مهمة توكل إليها ، وهي تربية الأبناء .

ونحن نعلم أن طفولة الإنسان هي أطول أعمار الطفولة في كل الكائنات ، والأبناء الذين ينشأون برعاية أم متفرغة يكونون أفضل من غيرهم .

وهكذا نتعلم من قصة شعيب عليه السلام مع موسى عليه السلام .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ <sup>(٢)</sup> ﴾

ونحن نعلم أن الآيات إذا وردت في القرآن إنما تنصرف إلى ثلاثة أشياء :

آيات كونية تعاصر كل الناس ويراهها كل واحد ، مثل آيات الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والأرض الخاشعة إذا ما نزل عليها الماء اهتزت

(١) الجمع بين الأخنين من المحرمات محرماً مؤقتاً ، يزول التحريم بزوال أسبابه ، وذلك بطلاق الأخت طلاقاً باتناً وبعد انقضاء عدتها ، والحالة الثانية هي وفاتها ، ودليل هذا التحريم قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ .. ﴾ (١٣) إلى قوله : ﴿ .. وَأَنْ تَحْمِلُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (١٤) [النساء] . وانظر فقه السنة (٢/١٦٩) .

(٢) سلطان مبين : برهان بين على صدق رسالته . [كلمات القرآن] . والسلطان : الملك والقوة والقهر والحجة والبرهان . يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُ عَلَى الَّذِينَ يَتُولُونَهُ .. ﴾ (١٧) [النحل] أي : قهر الشيطان وغلبيه وتسلطه على الذين يتولونه ويتبعونه ، وقال تعالى : ﴿ هَلْكَ عَلَى سُلْطَانِهِ ﴾ (١٨) [الحاقة] أي : قوتي زالت وغلبي وقهري فلا أستطيع الدفاع عن نفسي . [القاموس القويم] .



وربت <sup>(١)</sup> ، وكلها آيات كونية تلفت العقل إلى النظر في أن وراء هذا الكون الدقيق تكويناً هندسياً أقامه إله قادر .

وهناك آيات تأتي لبيان صدق الرسول في البلاغ عن الله ، وهي المعجزات مثل : ناقة ثمود المبصرة <sup>(٢)</sup> ، وشفاء عيسى <sup>(٣)</sup> للأكمة والأبرص <sup>(٤)</sup> بإذن الله .

ثم آيات الأحكام التي تبين مطلوبات المنهج بـ «افعل» و«لا تفعل» .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ٤٦ ﴾ [هود]

فهناك آيات تدل على صدقه ، وفوق ذلك سلطان ظاهر ، إما أن يكون سلطاناً يقهر الغالب ، أو سلطان حجة تقنع العقل .

وسلطان القوة قد يقهر الغالب ، لكنه لا يقهر القلب ، والله سبحانه يريد قلوباً ، لا قوالب ؛ لذلك قال سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ لَعَلَّكَ بَاحِعٌ ٥١ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٥٢ ﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ نَزْلٍ عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّ أَعْنَاقَهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ٥٤ ﴾ [الشعراء]

(١) يقول تعالى : ﴿ . وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَلَمَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتُ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ٥١ ﴾ [الحج] . رأى : فإذا أنزل الله عليها المطر اهتزت أي تحركت بالنبات وحييت بعد موتها ، وربت أي : ارتفعت ، ثم أنبت ما فيها من الألوان والفتون من ثمار وزروع ، قاله ابن كثير في تفسيره (٢٠٨ / ٣) .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ٥٢ ﴾ [الإسراء] .

(٣) قال تعالى - حكاية عن عيسى عليه السلام : ﴿ وَأُتِيَ الْأَكْمَةُ وَالْأَبْرَصُ وَأُخِي الْمَوْثِقُ بِإِذْنِ اللَّهِ .. ٥٣ ﴾ [آل عمران] . والأكمة : أن يولد أعمى ، أو يفقد بصره ، والأبرص : من أصابه مرض جلدي يحدث بقعا بيضا في الجلد تشوّهه [القاموس القويم] .

(٤) يخع نفسه بخعاً وبخوعاً : قتلها مما وغيظاً وحزناً . قال تعالى : ﴿ فَعَلَّكَ بَاحِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آفَاتِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمَرُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ٥٤ ﴾ [الكهف] . وقال تعالى : ﴿ لَعَلَّكَ بَاحِعٌ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٥٢ ﴾ [الشعراء] [القاموس القويم ١ / ٥٦] بتصريف .

إذن: فالحق سبحانه يطلب القلوب لا القوالب ، قلوب تأتي إلى الله تعالى طواعية بدون إكراه .

لذلك فالسلطان الأهم هو سلطان الحجة ؛ لأنه يقنع الإنسان أن يفعل . . ولم يكن لموسى عليه السلام سلطان من القوة ليظهر ، بل كان له سلطان الحجة ، وهو قول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ <sup>(١)</sup> عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الأعراف]

فيرد عليه فرعون :

﴿ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَاتَّقِ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ <sup>(٢)</sup> ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ <sup>(٣)</sup> لِلنَّاطِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الأعراف]

وبياض اليد مسألة ذاتية في موسى عليه السلام ، وطارئة أيضاً ، فلم تكن مرضاً كالبهاق مثلاً ، بدليل الاحتياط في قوله تعالى :

﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِثْلَ غَيْرِ سَوَاءٍ <sup>(٤)</sup> .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [طه]

أما العصا فهي الحجة التي دفعت فرعون إلى أن يأتي بالسحرة ، ليغلبهم موسى أمام الفرعون والملأ ، فيتبع السحرة موسى ويؤمنوا برب موسى وهارون <sup>(٥)</sup> .

(١) حقيق على أن : حريص على أن ، أو خليق بأن . . [كلمات القرآن] .

(٢) مبين : أى : ظاهر أمره لا يشك فيه . [كلمات القرآن] .

(٣) ونزع يده : أخرجها من طوق قميصه . بيضاء : غلب شعاعها شعاع الشمس . [كلمات القرآن] .

(٤) إلى جناحك : إلى جنبك تحت العضد الأيسر . [كلمات القرآن] .

(٥) قال تعالى : ﴿ فَاتَّبَعَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٢٥﴾ ﴾ [طه] .

ونحن نعلم أن الحق سبحانه قد أرسل موسى ﷺ بتسع آيات هي :  
العصا التي تصير ثعباناً يلقف ما صنع السحرة ، واليد البيضاء من غير  
سوء ، ثم أخذ آل فرعون بالسنين ، ونقص في الأنفس والشمرات ، لأن  
الجدب يمنع الزرع ، ونقص الأموال يحقق المجاعة ، وكذلك أرسل الحق  
سبحانه على قوم فرعون الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع ، هذه هي  
الآيات التسع<sup>(١)</sup> التي أرسلها الحق سبحانه على آل فرعون ، بسبب عدم  
إيمانهم برسالة موسى ﷺ.

وهناك آيات أخرى أرسلها الحق سبحانه لقوم موسى بواسطة موسى  
ﷺ هي نتق الجبل<sup>(٢)</sup> ، وضرب البحر بالعصا<sup>(٣)</sup> ، ثم ضرب الحجر  
بالعصا لتنفجر اثنتا عشرة<sup>(٤)</sup> عيناً ، وكذلك نزول التوراة في ألواح<sup>(٥)</sup>.

(١) قال تعالى : ﴿ وَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَمَا قَالَ ابْنِي إِسْرَآئِيلَ .. ﴾ [الاسراء] . وقال تعالى :  
﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَمَآءٌ مُبِينٌ ﴾ (١٥٧) وَفَرَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاصِرِينَ (١٥٨) . وقال تعالى :  
﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعَ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ .. ﴾ [النمل] .  
وقال تعالى : ﴿ وَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ (١٧٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ  
قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ شَيْئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ إِلَّا إِنَّمَا مَثَلُ الْمُثَلَّبِينَ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٧١)  
وَقَالُوا مَهْمَا قَاتَلْنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٧٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ  
وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٧٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَىٰ ادْعُ  
نَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ فَيَنْسِفْ عَلَيْنَا الرِّجْزَ كُلَّ مَوْجِنٍ لَّكَ وَلَنُرْسِلَنَّ بِكَ ابْنِ إِسْرَآئِيلَ (١٧٤) فَلَمَّا كَذَبْنَا عَنْهُمْ  
الرِّجْزَ إِلَىٰ آخِرِهِمْ بِالْقُرْآنِ إِذَا هُمْ يُكْفَرُونَ (١٧٥) فَانظُرْنَا مِنْهُمْ فَأَعْرَفْنَا فِيهِمُ الْيَمَّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا  
غَافِلِينَ (١٧٦) [الأعراف] .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلِ فَوْقَهُمْ كَالْهِفَّةِ .. ﴾ [الأعراف] . ونسقه : ولعله من مكانه وحركه  
وجنبه . [القاموس القويم] .

(٣) قال تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ احْبِرْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾  
[الاسراء] . والطود : الجبل الثابت العالي [القاموس القويم ١/ ٤٠٨] .

(٤) قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا احْتَرَبَ بَعْضُكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا .. ﴾ [البقرة] .

(٥) قال تعالى : ﴿ وَكُنَّا لَهُ فِي الْأَنْوَاعِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْجِعَةً .. ﴾ [الأعراف] . والألواح : جمع لوح ،  
وهو الصفحة المربضة من خشب أو غيره يكتب عليه . [القاموس القويم ٢/ ٢٠٦] .

إذن: فالكلام فى الآيات التسع المقصود بها الآيات التى أرسل بها موسى إلى فرعون ، أما هذه الآيات فقد كانت بعد الخروج من مصر أو مصاحبة له كضرب البحر بالعصا .

والدليل على أن قصة موسى مع فرعون خاصة ، أن موسى كانت له رسالتان : الرسالة الأولى مع فرعون ، والرسالة الثانية مع بنى إسرائيل .  
ولذلك نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى يخبرنا فى آخر السورة بالخلاف بين موسى ﷺ وبنى إسرائيل :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ ۖ ۝١٦١ ﴾ [هود]

إذن: فقصته مع بنى إسرائيل تأتى بعد إتيانه الكتاب ، أى : التوراة .  
وهنا يتكلم الحق سبحانه عن آيات موسى ﷺ مع فرعون فيقول :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝١٦٢ ﴾ [هود]

أى : سلطان محيط لا يدع للخصم مكاناً أو فكاً<sup>(١)</sup> .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ مَتَابِعُوا أَمْرًا فِرْعَوْنَ  
وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۝١٦٣ ﴾

والملا : هم القوم الذين يملأون العيون ، ويتصدرون المجالس .  
ويقال : «فلان ملء العين» أى : لا تقتحمه العيون ؛ لأنه واضح ظاهر .

(١) الفكك : فكك الرهن والأسير : ما فك به . والمراد به هنا : الهروب [المعجم الوسيط] بتصرف .  
(٢) الرشد : ضد الغي والضلال ، وضد السفه وسوء التدبير . ورشد فلان : أصاب وجه الصواب والخير والحق . ونفى الرشد نفى للحق والخير والصواب . [القاموس القويم ١ / ٢٦٥] بتصرف .

فالملا - إذن - هم أشرف القوم ، وهم - عادة - الذين يزينون للطاغية الاستخفاف بالرعية .

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَاسْتَخَفَّ <sup>(١)</sup> قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ <sup>(٥٤)</sup> ﴾ [الزخرف]

وحين يتكلم الحق سبحانه عن فرعون والملا والقوم ، نجده يبين ويفصل بين الملا من جهة ، وفرعون من جهة أخرى ، وكذلك يفصل بين الفرعون والملا من جهة ، والقوم من جهة أخرى . . فلكل طرف من تلك الأطراف الثلاثة أسلوب يعامله الحق سبحانه به .

وهنا يبين لنا الله سبحانه أن الملا قد اتبعوا أمر فرعون ، هذا الأمر الذي يصفه الحق سبحانه بقوله :

﴿ .. وَمَا أَمَرَ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ <sup>(٩٧)</sup> ﴾ [هود]

والرشد يقابله الغي ، وهذا القول يدلنا على أن الملا من قوم فرعون لم يتدارسوا أمر فرعون بتأن ، ولم تستقبله عقولهم بالبحث ، وهم لو فعلوا ذلك لما اتبعوا أمر فرعون .

ويبين الحق سبحانه لنا عدم رشد أمر فرعون ، فهو يذكر لنا ما يحدث له يوم القيامة هو وقومه ، فيقول تعالى :

﴿ يَفْقَهُمْ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ <sup>(٧)</sup>  
وَبَشَّشَ الْوَرْدَ الْمَوْرُودَ <sup>(٧٨)</sup> ﴾

(١) خف الحمل : قل ولم يكن ثقبلاً . ومن المجاز : خف عقله : طاش وحمق . ومنه : استخفه : أي : استضعف عقله وسخره وسيره على هواه وحمله على الطيش والحمق . قال تعالى : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ .. <sup>(٥٤)</sup> ﴾ [الزخرف] [القاموس الفهيم ١/ ٢٠٠] .

(٢) يقدم قومه : يتقدمهم كما يتقدم الوارد . فأوردهم النار : أدخلهم فيها بكفره وكفرهم . الورد المورود : المدخل المدخول فيه ، وهو النار . [كلمات القرآن] .

وكلمة «يُقدم» هي من مادة «القاف» و«الدال» و«الميم». وعند استخدام هذه المادة في التعبير قولاً أو كتابة ، فهي تدل على الإقبال بالمواجهة؛ فيقال: «قدم فلان» دليل إقباله عليك مواجهة. وإذا قيل: «أقبل فلان» فهذا يعنى الإقبال بشيء من العزم. و«قدم القوم يقدمهم» أى: أنهم يتقدمون فى اتجاه واحد ، ومن يقودهم يتقدمهم.

ويُفهم من هذا أن فرعون اتبعه الملا ، والقوم اتبعوا الملا وفرعون ، وما داموا قد اتبعوه فى الأولى ؛ فلا بد أن يتبعوه فى الآخرة.

ويأتى القرآن بآيات ويبيّنُها ، مثل قول الحق سبحانه:

﴿قَوْرَبِكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۖ (٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِثًّا ۖ (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلًا ۖ (٧٠)﴾ [مرم]

فالحق سبحانه ينزع من كل جماعة الأشد فتوة وسطوة ، ويلقيه فى النار ، لأنه أعلم بمن يجب أن يصلّى السعير.

ويقول الحق سبحانه:

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۖ (٧١) كَانَ عَلَىٰ رِبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۖ (٧٢) ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنُذِرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا ۖ (٧٣)﴾ [مرم]

(١) جثياً: باركين على ركبهم لشدة الهول. عثياً: عصياناً ، أو جراءة أو فجوراً. صلياً: دخولا أو مقاساة لحرها. [كلمات القرآن].

(٢) واردةا: أى: بالغ النار ، وواصل إليها ، فمنهم من يردّها ليدخلها ، ومنهم من لا يدخلها ويكون وصوله إليها ورويتها ليدرك مقدار نعمة الله سبحانه عليه بالنجاة منها. [القاموس القويم ٢/ ٣٣٠] ، وورد فى [كلمات القرآن]: واردةا ، أى: بالمرور على الصراط الممدود عليها.

(٣) حتم الله الأمر حتماً: أوجبه ، وهذا أمر حتم: أى: لازم لا بد منه ولا فكاك عنه. والحتم: القضاء الناقد. قال تعالى: ﴿.. كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۖ (٧٢)﴾ [مرم] أى: أن ورود المخاطبين من الكفار النار ليعذبوا فيها هو قضاء نافذ لازم. وقيل: يردّها المؤمنون أيضاً ليدركوا مقدار نعمة الله عليهم بالنجاة منها. مقضياً: أى: محكوماً به مفروغاً من ، لا راد له ، ولا معقب عليه. [القاموس القويم ١/ ١٤١].

ولم يقل الحق سبحانه : « وَإِنْ مِنْهُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » .

ولمّا قال : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا .. ﴾ (٧١)

[مرم]

وبذلك عمّم الخطاب للكل ، أو أنه يستحضر الكفار ويترك المؤمنين بمعزل .

وهنا يقول الحق سبحانه عن قوم فرعون :

﴿ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَسَّى الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ <sup>(١)</sup> ﴾ (٩٨)

[مرد]

وحين تكلم كتاب الله الكريم عن «الورود» ، وهو الكتاب الذى نزل بلسان عربى مبين ، لمجد أن الورود يأتى بمعنى الذهاب إلى الماء دون شرب من الماء ، قلت : «ورد يرد ورودا» ، وإن أردت التعبير عن شرب الماء مع الورود ، فقل : «ورد يرد ورودا» بدليل أن الحق سبحانه يقول هنا :

﴿ .. وَيَسَّى الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ <sup>(٢)</sup> ﴾

[مرد]

أى : أنهم يشعرون بالبؤس لحظة أن يروا ماء جهنم ويشربون منه .

إذن : فكلمة «الورد» تطلق على عملية الشرب من الماء ، وقد تطلق على ذات الواردين مثل قوله :

﴿ وَتَسْقَى الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا <sup>(٣)</sup> ﴾ (٨٦)

[مرم]

(١) يسى الورد المورود : أى : يسى الموضع الذى يرفه الإنسان فيلقى فيه العذاب الأليم . [القاموس القويم ٣٣٠ / ٢] .

(٢) الورد : ماء أو موضعه ، أو الإبل الواردة على سبيل اللجاز . قال تعالى : ﴿ وَتَسْقَى الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا <sup>(٤)</sup> ﴾ [مرم] أى : جماعة يردونها ويدخلونها كما ترد الإبل الماء . [القاموس القويم ٣٣٠ / ٢] .

وقد قال الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى<sup>(١)</sup> في معلقته:

فَلَمَّا وَرَدَنَّ الْمَاءَ زُرْقًا جِمَامُهُ      وَضَعْنَ عَصِيَ الْحَاظِرِ الْمُتَخَيِّمِ<sup>(٢)</sup>

والشاعر هنا يصف الركب ساعة يرى المياه الزرقاء الخالية من أى شيء يعكسها أو يكدرها ، فوضع القوم عصا الترحال .

وكان الغالب قديماً أن يحمل كل من يسير عصاً في يده ، مثل موسى عليه السلام حين قال:

﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴾<sup>(٣)</sup> (١٨) [طه]

ويقول الشاعر<sup>(٤)</sup>:

فَأَلْقَيْتُ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى<sup>(٥)</sup>      كَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالْإِيَابِ<sup>(٦)</sup> الْمُسَافِرُ

(١) حكيم الشعراء في الجاهلية ، من قبيلة مضر ، ولد في بلاد «مزينة» بنوحي المدينة ، كان أبوه وخاله وابناه كعب وبجير شعراء ، وكذلك أخته سلمى والخنساء . توفي عام (١٣ ق هـ) . [انظر: الأعلام لخبر الدين الزركلي] .

(٢) الجمام: ما اجتمع منه في البئر والحوط وغيرها . ووضع العصي: كناية عن الإقامة ، لأن المسافرين إذا أقاموا وضعوا عصيهم . والتخيم: ابتداء الخيمة . [راجع: شرح المعلقات السبع للزوزني - ص ٨٢] . والمعلقة من بحر الطويل .

(٣) هش الشجر بهشه هشاً: ضرب به عصاً ليقط ورقه لتأكله الماشية . قال تعالى: ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي .. ﴾ (١٨) [طه] أى: أسقط بعصاي أوراق الأشجار على غنمي لتأكلها .

ومآرب أخرى: أى: حاجات وأغراض كثيرة أخرى كاتقاء ضرر أو خير ذلك . [القاموس القويم ١٧/١] بتصرف .

(٤) هو: معقر بن حمار . [قاله ابن منظور في لسان العرب - مادة: نوى] .

(٥) النية والنوى: الوجه الذي ينويه المسافر من قرب أو بعد . والنية والنوى جميعاً: البعد . والنوى: الدار . والنوى: التحول من مكان إلى مكان آخر أو من دار إلى دار غيرها . وقد أورد ابن منظور هذا البيت في اللسان مادة: نوى .

(٦) الإياب: الرجوع والعودة . أب يؤوب: يرجع . ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَهُنا لِيَاقُومٌ ﴾ (٥٥) [الغاشية] أى: رجوعهم . والمآب: للرجع ، اسم زمان واسم مكان . [القاموس القويم ١٧/١] .



فساعة رأى الركب المياه زرقاء ، فهذا يعنى أنها مياه غير مكدّرة .  
ونحن نعلم أن المياه لا لون لها ، ولكنها توصف بالزُّرْقَة إن كانت خالية  
من الشوائب ، شديدة الصفاء ، فتعكس عليها صورة السماء الزرقاء .  
والشاعر يصف قومه ساعة أن وصلوا إلى الماء الصافى وتوقفوا وأقاموا  
فى المكان .

وهكذا نجد أن الورود يعنى الذهاب إلى الماء دون الشرب منه . والورد  
للماء يُفْرَح النفس أولاً ، ثم يورده ويرويه ما يشربه منها ، ومن يرد الماء  
لا شك أنه يعانى من ظمأ يريد أن يرويه ، وحرارة كبد يريد أن يبردها .  
وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) ﴾ [هود]

وفى هذا تهكم شديد ، لأنهم - قوم فرعون - ساعة يرون الماء يشعرون  
بقرب رى الظمأ وإبراد الحرارة ، ولكنهم يشربون من ماء جهنم ، فبئس  
ما يشربون ، فهو يُطْمَعهم أولاً ، ثم يؤيسهم بعد ذلك .  
كما فى قوله سبحانه :

﴿ وَإِنْ يَسْتَفْهِتُوا يُفَاطُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ (٢٩) ﴾ [الكهف]

فهم ساعة يسمعون كلمة «يفاثوا» يفهمون أن هناك فرجاً قادماً لهم ،  
فإذا ما علموا أنه ماء كالمهل يشوى الوجوه ، عانوا من مرارة التهكم .

ولله المثل الأعلى : فأنت قد تجدد من يدعوك لأطياب الطعام ، وبعد ذلك  
تغسل يديك ، فيلج عليك من دعاك إلى تناول الحلوى ، فتستشرف نفسك

(١) كالمهل : مثل ددى الزيت أو كالمذاب من المعادن . [كلمات القرآن] . والمهل : المعدن المذاب والقطران  
وعكر الزيت المغلى ، والقيح . [القاموس القويم ٢/ ٢٤٢] .

إلى تناول الحلوى ، بينما يكون من دماك قد أوصى الطباخ أن يخلط  
الحلوى بنبات «الشطة» فيلتهب جوفك ؛ أليس فى هذا تهكم شديد ؟<sup>١٩</sup>  
والحق سبحانه يبين لهم أن الورد إنما جاء لترطيب الكبد ، لكن  
أكبادكم ستشتعل بما تشربونه من هذا الماء ، وكذلك الطعام الذى  
ياكله أهل النار .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ <sup>(٢١)</sup> ﴾ [الحاقة]  
وهكذا تصير النكبة نكبتين .

وبعض الناس قد فهم قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا .. <sup>(٧١)</sup> ﴾ [مریم]  
بمعنى أنهم جميعاً سوف يَردون جهنم .  
ولكن الحق سبحانه يقول أيضاً :

﴿ ثُمَّ لَنَنْحُنَّ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أُولَىٰ بِهَا صِلًا <sup>(٧٠)</sup> ﴾ [مریم]

إذن : فالحق سبحانه يعطى لكل الناس صورة للنار ، فإذا رأى المؤمنون  
النار وتسعروها <sup>(٢٢)</sup> ، ولم يدخلوها ، عرفوا كيف نجَّتهم كلمة الإيمان منها  
فيحمدون الله سبحانه وتعالى على النجاة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) القليلين : خسارة أبدان أهل النار ، أو ما يسيل من جلود أهل النار من القيح وغيره مما تعافه النفس  
وتكرمه . قال تعالى : ﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ <sup>(٢١)</sup> ﴾ [الحاقة] . [القاموس القويم ٥٤ / ٢] .  
(٢) سعرت النار : اشتعلت ، وأمرها : أوقدها وهيجها . وسعروها - بالتشديد - : هيجها . قال تعالى :  
﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ <sup>(٢٢)</sup> ﴾ [التكوير] أى : أوقدت بشدة . [القاموس القويم ٣١٣ / ١] .

## ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾<sup>(١)</sup>

أى : أن اللعنة قد بقيت لهم ، وما زلنا نحن المسلمين نلعنهم إلى الآن ،  
ثم يصيرون إلى اللعنة الكبرى ، وهى لعنة يوم القيامة : ﴿يَكُونُ الرِّفْدُ  
الْمَرْفُودُ﴾<sup>(٢)</sup> والرغد : هو العطاء ، فهل تعد اللعنة فى الآخرة عطاء ؟

إن هذا نهكم منهم أيضاً ، مثلها مثل قول الحق سبحانه :

﴿ .. وَيَكُونُ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾<sup>(٣)</sup> [هود]

ثم يقول الحق سبحانه :

## ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾<sup>(٤)</sup>

وقد أهلك الحق سبحانه تلك القرى بالعذاب ؛ لأنها كذبت أنبياءها .  
والخطاب موجّه لرسول الله ﷺ لتثبيت فؤاده ، والحق سبحانه إنما يبيّن  
له أن الكافرين لن يكونوا بمنجى من العذاب ؛ كما أخذ الله سبحانه الأمم  
السابقة الكافرة بالعذاب .

وقول الحق سبحانه :

(١) وفده يرفده وفداً : أعطاه وأعانه . والرغد : العطاء والمعونة . قال تعالى : ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ  
يَكُونُ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾<sup>(٢)</sup> [هود] أى : العطاء المعطى لهم ، وهو اللعنة التى أتبعوها فى الدنيا والآخرة ،  
وسمى اللعنة رفداً نهكماً وسخرية . [القاموس القويم ١ / ٢٧٠] .  
(٢) قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾<sup>(٣)</sup> [هود] أى : منها باقى ، ومنها  
هالك . وقال تعالى : ﴿ .. حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِئِينَ ﴾<sup>(٤)</sup> [الأنبياء] أى : جعلناهم كالزروع  
للحصاد ، أى : أهلكناهم . [القاموس القويم ١ / ١٥٦] .

[هود]

﴿ نَقْصُ عَالِكٍ .. (١٠٠) ﴾

يتطلب أن نفرّق بين المعنى الشائع عن القصة ، والمعنى الحقيقي لها ، فبعض الناس يقول : إن القرآن فيه قصص ، والقصص عادة تُمثّل بالتوسع ، وتوضع فيها أحداث خيالية من أجل الحكمة .

ولهؤلاء نقول : أنتم لم تفهموا معنى كلمة «القصة»<sup>(١)</sup> في اللغة العربية ، لأنها تعني - في لغتنا - الالتزام الحرفي بما كان فيها من أحداث ، فهي مأخوذة من كلمة : «قصّ»<sup>(٢)</sup> الأثر ، ومن يقص الأثر إنما يتتبع مواقع الأقدام إلى أن يصل إلى الشيء المراد .

إذن : فقصص<sup>(٣)</sup> القرآن يتقصى الحقائق ولا يقول غيرها ، أما ما اصطُحح عليه في عرف العامة أنه قصص ، بما في تلك القصص من خيالات وعناصر مشوقة ، فهذا ما يُسمّى - لغوياً - بالروايات ، ولا يُعتبر قصصاً .

وقصص الإهلاك للآم التي كُفرت إنما هو عبرة لمن لا يعتبر ، والناس تعلم أن ما رَواه القرآن من قصص هو واقع تدل عليه آثار الحضارات التي اندثرت ، وبقيت منها بقايا أحجار ونقوش على المقابر .

(١) قص الكلام أو الأخبار ، يقصها نصاً وفصلاً : تتبعها ورواها وحكاها . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ .. (٢٤) ﴾ [القصص] أي : قص عليه أخباره وحديثه بها . وقال تعالى : ﴿ وَرَسُولًا قَدْ فَضَّلْنَاكَ مِنْ لَدُنْ رُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ .. (١١٩) ﴾ [النساء] أي : ورسلاً ذكرنا لك أخبارهم ، ورسلاً لم نذكر لك أخبارهم . [القاموس القويم ١٢٠ / ٢] .

(٢) قص الأثر قصصاً : تتبعه . ومنه قوله : ﴿ .. فَارْتَدَّا عَلَى آثَرِهِمَا قَصَصًا (٢٤) ﴾ [الكهف] أي : يتتبعان آثارهما تتبعاً . [القاموس القويم ١٢٠ / ٢] .

(٣) القصص : مصدر يطلق على ما يروى من الأخبار . قال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ .. (١١١) ﴾ [يوسف] ، وقال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقِصَصِ .. (٢٤) ﴾ [يوسف] . وقال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ .. (١٦) ﴾ [الكهف] . [القاموس القويم ١٢٠ / ٢] .

ونحن نجد في آثار الحضارات السابقة ما هو قائم من بقايا أعمدة ونقوش ، ومنها ما هو مُحطَّم .

ولذلك يقول الحق سبحانه في موضع آخر من القرآن :

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٢٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَقْلًا تَعْقِلُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

[الصفات]

أى : أنكم تشاهدون من الآثار ما هو قائم وما هو حطيم .

ويقول الحق سبحانه عن تلك القرى :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيرٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

وبين الحق سبحانه هنا أنه حين أخذ تلك الأقوام بالعذاب لم يظلمهم ؛ لأن معنى الظلم أن يكون لإنسان الحق ، فتسلبه هذا الحق .

وفى واقع الأمر أن تلك الأمم التى كفرت وأخذها الله بالعذاب ، هى التى ظلمت نفسها بالشرك ، وكذبت تلك الأقوام الرسل الذين جاءوا وفى يد كل منهم دليل الصدق وأمارات الرسالة .

وهكذا ظلم هؤلاء الكفار أنفسهم ؛ لذلك لا بد أن نعلم أن الحق سبحانه مُنزَّه عن أن يظلم أحداً .

(١) التتبيح : الإملاك والتخسير . والتباب : الهلاك . قال تعالى : ﴿ .. وَمَا كُنْزُ الْفِرْعَوْنَ إِلَّا بِلِي تَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾

[غافر] . وتبَّه تبيهاً : أهلكه . قال تعالى : ﴿ .. وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيرٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [هود] . [القاموس المقوم

وهم حين أشركوا بالله - تعالى - آلهة أخرى ، لماذا لم تتحرك تلك  
الآلهة المزعومة وتتدخل لتحمي من آمنوا بها ١٩

ويخبرنا الحق سبحانه أن الحجارة التي عبدوها تلعنهم ، وهم في النار ،  
وهذه الأحجار تكون وقوداً للنار .

والحق سبحانه يقول عن النار :

﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ ۞ (٢٤) ﴾ [البقرة]

وهؤلاء الذين عبدوا واحداً من الناس أو بعضاً من الأصنام ، إنما تجنّوا ،  
بالجهل على هذا الإنسان الذي عبدوه أو تلك الأحجار التي صلّوا لها  
أو قدّسوها .

والشاعر المسلم تأمل غار حراء وغار ثور - وكلاهما من الأحجار -  
فوجد أن غار حراء قد شهد نزول الوحي على الرسول ﷺ ، وغار ثور  
حمى رسول الله ﷺ حين اختفى فيه ومعه الصديق أبو بكر في أثناء الهجرة  
من مكة إلى المدينة ، فتخيل الشاعر أن غار ثور قد حسد غار حراء وقال :

كَمْ حَسَدْنَا حِرَاءَ حِينَ يَرَى الرُّوحَ      آمِيناً يَغْزُوكَ بِالْأَنْوَارِ

فَحِرَاءُ وَثُورٌ صَارَا سَوَاءً      بِهِمَا تَشْفَعُ لَأُمَّةِ الْأَحْجَارِ

فغار حراء شهد جبريل عليه السلام وهو يهبط بالنور على محمد ﷺ ، لكن  
غار ثور نال أيضاً الشرف لحمايته الرسول في الهجرة .

(١) الوقود : ما تشتعل به النار من حطب وغيره . قال تعالى : ﴿ النَّارُ ذَاتُ فُوقُودٍ (٤) ﴾ [البروج] أى : ذات  
الحطب الذى يلقى فيها ليزيدها اشتعالاً ، وذلك يدل على حرص الكفار القاعدين حولها على زيادة  
اشتعالها ليعذبوا بها المؤمنين أشد العذاب - كما حدثت في قصة أصحاب الأخدود - ولكن النار في  
الآخرة يكون وقودها الناس والحجارة ، والمراد بالناس هنا : الكفار والعصاة الذين يكون مصيرهم إلى  
النار . قال تعالى : ﴿ .. وَأَوَّلُكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٦) ﴾ [ال صمران] . [القاموس القويم ٢/ ٣٤٨] بصرف .



ويقول الشاعر على لسان الأحجار:

عَبَدُونَا وَنَحْنُ أَعْبَدُ لِلَّهِ      مِنْ الْقَائِمِينَ بِالْأَسْحَارِ<sup>(١)</sup>  
قَدْ تَجَنَّوْا جَهْلًا كَمَا قَدْ تَجَنَّوْا      عَلَى ابْنِ مَرْيَمَ وَالْحَوَارِي<sup>(٢)</sup>  
لِلْمُغَالِي جَزَاؤُهُ وَالْمُغَالِي فِيهِ      تُنَجِّيهِ رَحْمَةُ الْغَفَّارِ

وهكذا لا تُغنى عنهم آلهتهم المعبودة شيئاً سواء أكانت بشراً أم حجارة ،  
لم تُغْنِ عنهم شيئاً ولم ترفع عنهم العذاب الذى تلقوه عقاباً فى الدنيا  
وسعيراً فى الآخرة ، وإذا كانوا قد دعوهم من دون الله فى الدنيا ، فحين  
جاء العذاب لم تتقدم تلك الآلهة لتحميمهم من العذاب .

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ .. وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝١٠١ ﴾ [هود]

أى : أن تخلّى تلك الآلهة التى أشركوها مع الله تعالى أو عبدوها من  
دون الله .. هذا التخلّى يزيدهم إلماً وإهلاكاً نفسياً وتخسيراً ، لأن التتبيب  
هو القطع والهلاك .

والحق سبحانه يقول :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ ﴾ [المسد]

(١) الأسحار : جمع السحر . بفتح السين والحاء . وهو الجزء الأخير من الليل إلى مطلع الفجر . قال تعالى : ﴿ .. وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ۝١٧ ﴾ [آل عمران] ، وقال : ﴿ وَالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٥ ﴾ [الناريات] . [القاموس القويم ١/ ٣٠٥] .

(٢) الحواري : هم الخواريون ، وهم الخلفاء والأصفياء للأنبياء . قال تعالى : ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ .. ۝٥٧ ﴾ [آل عمران] والحوارى : الخالص الذى من كل شيء . [القاموس القويم ١/ ١٧٧] .

(٣) تب يتب تباً وتباً : خسر وهلك . قال تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ ﴾ [المسد] وهو دعاء عليه بالحرمان والهلاك . ودعا عليه أولاً بأن تهلك يده لأنهما آله البطش والإيذاء . [القاموس القويم ١/ ٩٦] .

كذلك الأخذ الذى أخذ الله به القرى التى كذبت أنبياءها .

لذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ  
إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٢)

أى : أن الأخذ الذى أخذ به الله القرى الكافرة ، إنما هو مثل حى لكل من يكفر .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ (٥) ﴾ [الفجر]

أى : أن الحق سبحانه يقسم لعل كل صاحب عقل يستوعب ضرورة الإيمان ، ويضرب الأمثلة بالقوم الذين جاءهم الأخذ بالعذاب ، فيقول سبحانه :

(١) الأليم : المولم شديد الإيلاء والوجع . قال تعالى : ﴿ .. وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ مِمَّا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة] . والأليم : الوجع الشديد . [القاموس القويم ١/ ٢٦٦] بتصرف .

(٢) والفجر : قسم من الله تعالى بالوقت المعروف (وقت الفجر) .

وليل عشر : العشر الأول من ذى الحجة .

والشفع والوتر : يوم النحر ، ويوم عرفة .

والليل إذا يسر : إذا يمضى ويذهب أو يسار فيه .

هل فى ذلك : أى : فى المذكور الذى أقسمنا به .

قسم لذي حجر ؟ : مقسم به حقيق بالتمظيم لدى العقلاء - نعم - (وجواب القسم) لتعلمين الكافرين .

[كلمات القرآن] للشبّخ حسين محمد مخلوف .



﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَفَّوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) ﴾ [النجم]

فهو سبحانه قد أخذ كل هؤلاء أخذ العزيز المقتدر .

وقوله سبحانه هنا :

﴿ وَكَذَلِكَ .. (١٠٢) ﴾ [هود]

أى : مثل الأخذ الذى أَخَذَتْ به القرى التى كَذَّبَتْ رسلها ، فظلمت نفسها .  
والأخذ هنا عقاب على العمل ، بدليل أنه أنجى شعباً بِهِمْ وأخذ قومه بسبب ظلمهم ، فالذات الإنسانية بريئة ، ولكن الفعل هو الذى يستحق العقاب .

ومثال ذلك : نجده فى قصة نوح عليه السلام حين قال له الحق سبحانه :

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (١٦) ﴾ [هود]

فالذى وضع ابن نوح فى هذا الموضع هو أن عمله غير صالح ؛ لذلك فلا يقولن نوح : إنه ابنى .

(١) عَاد : قوم هود ، سُمُوا باسم أبيهم .

إِرَم : هو اسم جدهم وبه سميت القبيلة .

ذات العِمَاد : الشدة ، أو الأبنية الرابطة بالحكمة بالعمد .

جَابُوا الصَّخْرَ : قطعوه ونحتوا فيه بيوتهم .

ذِي الْأَوْتَادِ : الجيرش الكثيرة التى تشد ملكه .

سَوْطَ عَذَابٍ : عذاباً شديداً مؤلماً دائماً .

إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ : يرقب أعمالهم ويجازيهم عليها . [كلمات القرآن] .

فليس الإهلاك بعلة الذات والدم والقراية ، بل الإهلاك بعلة العمل ،  
فأنت لا تكره شخصاً يشرب الخمر لذاته ، وإنما تكرهه لعمله ، ونحن نعلم  
أن البنية للأنبياء ليست بنوة الذوات ، وإنما بنوة الأعمال .

وكذلك نجد الحق سبحانه ينبه إبراهيم عليه السلام ألا يدعو لكل ذريته ، فحين  
كرم الحق سبحانه إبراهيم عليه السلام وقال :

﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۚ ۞ (١٢٤) ﴾ [البقرة]

جاء الطلب والدعاء من إبراهيم عليه السلام لله تعالى :

﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ۚ ۞ (١٢٤) ﴾ [البقرة]

لأن إبراهيم عليه السلام أراد أن تمتد الإمامة إلى ذريته أيضاً ، فجاء الرد من الله  
سبحانه :

﴿ .. لَا يَتَّالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ۚ (١٢٤) ﴾ [البقرة]

وظلت هذه القضية في بؤرة شعور إبراهيم عليه السلام ، وعلم تماماً أن البنية  
للأنبياء ليست بنوة ذوات ، بل هي بنوة أعمال .

(١) قوله تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۚ ۞ (١٢٤) ﴾ [البقرة] أي : قدوة يقتدى بك الناس . ويقول تعالى :  
﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئَانِهِمْ ۚ ۞ (٧٧) ﴾ [الاسراء] أي : برسولهم فيقال : يا أتباع إبراهيم ، وأمة موسى ،  
ويا أمة محمد - أو يكتنبتهم ، فيقال : يا أمة التوراة ، ويا أمة الإنجيل ، ويا أمة القرآن . [القاموس القويم  
٣٣/١] .

(٢) القرية : للمفرد والمتن والجمع والمذكر والمؤنث من نسل الإنسان . قال تعالى : ﴿ وَوَلَّهُ ذُرِّيَّةً صَافَةً ..  
(١٢٤) ﴾ [البقرة] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۚ ۞ (٧٧) ﴾ [الحديد]  
وقال تعالى : ﴿ .. وَإِنِّي أُعِيذُكَ بِكَ وَفَرَّقْتُهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٥) ﴾ [آل عمران] وقال  
تعالى : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ ۚ ۞ (١٢٤) ﴾ [البقرة] وقال تعالى : ﴿ وَمَا هَبْنَا مِنْ أَرْوَاحِنَا وَذُرِّيَّتِنَا قُرَّةَ  
أَعْيُنٍ ۚ ۞ (٧٠) ﴾ [الفرقان] بالجمع ، وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ أَبْنَائِهِمْ ذُرِّيَّتُهُمْ وَإِخْوَانِهِمْ ۚ ۞ (٨٧) ﴾ [الأنعام]  
بالجمع ، ورسمت بغير ألف في المصحف . وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَتَىٰ إِبْرَاهِيمُ رَبَّهُ بِكَلِمَاتٍ فَتَمَنَّنَ قَالَ إِنِّي  
جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَتَّالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ۚ (١٢٤) ﴾ [البقرة] . [القاموس القويم  
٢٤٢/١] بتصرف .

ولذلك نجد دعاء إبراهيم عليه السلام حين نزل بأهله في وادٍ غير ذي زرع ،  
وقال :

﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ .. ﴾ (١٢٦) [البقرة]

وهنا انتبه إبراهيم عليه السلام وأضاف :

﴿ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ .. ﴾ (١٢٦) [البقرة]

فجاء الرد من الحق سبحانه موضحاً خطأ القياس ؛ لأن الرزق عطاء ربوبية يستوى فيه المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي ؛ فلا تخلط بين عطاء الربوبية <sup>(١)</sup> وعطاء الألوهية ؛ لأن عطاء الألوهية تكليف ، وعطاء الربوبية رزق ، لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ ..وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (١٢٦) [البقرة]

فأنت يا إبراهيم دعوت برزق الأهل بالثمرات لمن آمن ، لأن بؤرة شعورك تعي الدرس ، لكن هناك فرقاً بين عطاء الألوهية في التكليف ، وعطاء الربوبية في الرزق ، فمن كفر سيرزقه ربه ، ويمتعه قليلاً ثم يكون له حساب آخر .

إذن : فأخذُ الحق سبحانه للظالمين بكفرهم هو عنف التناول لمخالف ، وتختلف قوة الأخذ بقوة الأخذ ، فإذا كان الأخذ هو الله سبحانه ، فهو أخذ عزيز مقتدر .

وهو أخذ لمن ظلموا أنفسهم بقمة الظلم وهو الكفر ، وإن كان الظلم لحقوق الآخرين فهو فسق ، وأيضاً ظلم النفس فسق ؛ لأن الحق سبحانه حين يُحرّم عليك أن تظلم غيرك فهو قد حرّم عليك أيضاً ظلم نفسك .

(١) عطاء الربوبية عام ، وعطاء الألوهية خاص ، فالعطاء العام لكل مخلوق ، والعطاء الخاص لأهل التكليف من الإيمان السخي واليقين النقي . من حكم الشيخ .

ويصف الحق سبحانه أخذه للظالمين بقوله:

﴿ .. إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١٠٢) [هود]

أى: أن أخذه موجه على قدر طلاقته قدرته سبحانه.

وهب أن إنساناً أساء إلى إنسان ، فالحق سبحانه أعطى هذا الإنسان أن يرد السيئة بسيئة ، حتى لا تتراكم الانفعالات وتزداد.

لذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ .. ﴾ (١٢٦) [النحل]

حتى لا تبیت انفعالاتك عندك قهراً ، ولكن من كان لديه قوة ضبط النزوع فعليه أن ينظر فى قول الحق سبحانه:

﴿ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ (١٣٤) [آل عمران]

إذن: فلما أن ترد السيئة بعقاب مماثل لها ، ولما أن تكظم غيظك ، أى: لا تُترجم غيظك إلى عمل نزوى ، ولما أن ترتقى إلى الدرجة الأعلى وهى أن تغفروا؛ لأن الله تعالى يحب من يحسن بالعفو<sup>(١)</sup>.

(١) عاقبه عقاباً: جازاه سوءاً بما فعل . قال تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ .. ﴾ (١٢٦) [النحل].

والعقاب والمعاقبة: إيقاع الجزاء على المذنب . قال تعالى: ﴿ .. إِنَّ رَبَّكَ لَذُرْ مُغْفِرَةٌ وَذُرْ عِقَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١٢٤) [فصلت]. [القاموس القويم ٢/ ٢٩].

(٢) الكاظمين الغيظ: الخاضعين غيظهم فى قلوبهم. [كلمات القرآن]. وكظم الغيظ: إمساكه وحبسه فى النفس والصبر عليه. [القاموس القويم ٢/ ١٦٣].

(٣) يقول الله سبحانه: ﴿ وَمَا رَعَوْا إِلَّا مَغْفِرَةً مِنْ رَبِّكُمْ وَجَاءَتْ عِزُّهَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَعْدَتُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٢٧) الذين ينفقون فى السراء والعراء والكاظمين الغيظ والعاملين عن الناس والله يحب الْمُحْسِنِينَ (١٢٤) [آل عمران].

ويقول الحق سبحانه أيضاً: ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٩٠) [فصلت].

ولذلك حين سألوا الحسن البصري : كيف يُحسن الإنسان إلى من أساء إليه ؟

أجاب: إذا أساء إليك عبد ، ألا يُغضب ذلك ربه منه ؟ قالوا: نعم.  
قال: وحين يغضب الله من الذي أساء إليك : ألا يقف إلى جانبك ؟ أفلا تحسن إلى من جعل الله يقف إلى جانبك ؟

ولهذا السبب يُروى عن أحد الصالحين <sup>(١)</sup> أنه سمع أن شخصاً اغتابه : فاهدى إليه - مع خادمه - طبقاً من بواكير <sup>(٢)</sup> الرطب ، وتعجب الخادم متسائلاً: لماذا تهديه الرطب وقد اغتابك ؟  
قال العارف بالله: بلغته شكرى وامتنانى لأنه تصدق على بحسناته عندما اغتابنى ، وحسناته - بلا شك - أنفُسُ من هذا الرطب.

ولذلك يقال: إن الذى يعفو أذكى فهماً ممن عاقب ، لأن الذى يعاقب إنما يعاقب بقوته : والذى يعفو فهو الذى يترك العقاب لقوة الله تعالى، وهى قوة لا متناهية.

وهكذا نفهم قول الحق سبحانه:

﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ <sup>(٣)</sup> وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١٠٢)

[هود]

(١) هو الحسن البصري ، روى أن رجلاً قال له : إن فلاناً قد اغتابك فبعث إليه رطباً على طبق وقال : قد بلغنى أنك سميت إلى من حسناتك فأردت أن أكافئك عليها فاعذرني فلهي لا أقدر أن أكافئك على التمام . أورده الفزالي في الإحياء (٣/ ١٥٤) .

(٢) البواكير . جمع باكور أو بلكور، وهى أول ما يدرج من الثمر، وهى أيضاً المعجل من كل شيء . [المعجم الوسيط : مادة (ب ك ر)] بتصرف.

(٣) القرى . جمع قرية وهى البلدة الكبيرة وتكون أقل من المدينة، أو هى كل مكان اتصلت به الأبنية.  
قال تعالى: ﴿ وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. ﴾ (٨٢) [يوسف] أى: أهل القرية، مجاز مرسل علاقته المحلية. وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُرْبًا مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَ أَهْلَكُنَا مِنْهَا فَلَا تَأْسِرُ لِنَهُمْ ﴾ (٩٣) [محمد] والمراد: أهلها أشد من أهل مكة الذين أخرجوك. وقوله تعالى: ﴿ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ .. ﴾ (١٠٢) [هود] أى: أخذ أهلها وهم ظالمون. [القاموس القويم : مادة (ق ر ي)].

أى: أخذٌ موجعٌ على قدر قوة الله سبحانه ؛ وهو أخذٌ شديد ؛ لأن الشدة تعنى: جمع الشيء إلى الشيء بحيث يصعب انفكاكه ؛ أو أن تجمع شيئين معاً وتقبضهما بحيث يصعب تحلل أى منهما عن الآخر.

وهذه أقوى غاية القوة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾  
 ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ (١٣)

من يخاف عذاب الآخرة ، فإن هذه الآيات التى تخبر عن الذى حدث للامم السابقة ، إنما تلفته إلى ضرورة الإيمان بأن الله سبحانه يحاسب كل إنسان على الإيمان وعلى العمل.

ومن يسمع لقصص الأقوام السابقة ؛ ويعتبر بما جاء فيها ؛ وينتفع بالخبرة التى جاءت منها ؛ فهو صاحب بصيرة نافذة ؛ فكل ما حدث للأقوام السابقة آيات ملفتة.

ولذلك يقال: «إن لكل آية مواليد ؛ هى العبر بالآيات» ومن لا يؤمن فهو لن يعتبر ؛ مصداقاً لقول الحق سبحانه:

(١) مجموع: اسم مفعول من جمع. والامر الجامع: الامر العظيم الذى يجمع الناس له. والجامع: اسم فاعل من جمع، وهو من أسماء الله الحسنى. قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ..﴾ (١٣) [آل عمران] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا كَانُوا نَفْعًا عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْأَلُوهُ...﴾ (١٤) [النور] [القاموس القويم: مادة (ج م ع)].

(٢) مشهود: اسم مفعول، قال تعالى: ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ (١٣) [هود] أى: حضره الناس، وشاهدوا قوله أو حضرته ملائكة العذاب، وقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَانَ الْقَحْرَ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (١٤) [الإسراء] أى إن فران الفجر تشهد الملائكة وتسجل ثوابه. ومشهد: اسم مكان، واسم زمان ومصدر مبهى، كما فى قوله تعالى: ﴿لَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٥) [مريم] [القاموس القويم: يتصرف من ٢٥٩ ج١]

## سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿٦٦٧﴾

﴿وَكَايْنِ (١) مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (٢)﴾ (١٠٥)

[يوسف]

إذن: فقد شاء الحق سبحانه أن يلفتنا بالآيات لنعتبر بها ونكون من أولى الالباب (٣)؛ فلا ندخل في دائرة من لا يخافون العذاب؛ أولئك الذين يتلقون العذاب خزيًا في الدنيا وجحيمًا في الآخرة؛ وعذاب الآخرة لا نهاية له؛ والفضيحة فيه أمام كل الخلق.

لذلك قال الحق سبحانه:

﴿.. ذَلِكَ يَوْمٌ مُجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (١٠٢)﴾

[هود]

أي: أن الفضيحة في هذا اليوم تكون مشهودة من كل البشر؛ من لدن آدم إلى آخر البشر؛ لذلك تكون فضيحة مدوية أمام من يعرفهم الإنسان؛ وأمام من لا يعرفهم.

وقول الحق سبحانه:

﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مُجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ .. (١٠٢)﴾

[هود]

وكلمة «مجموع» تقتضي وجود «جامع»؛ و«المجموع» يتناسب مع قدرة «الجامع»؛ فما بالنا والجامع هو الحق الخالق لكل الخلق سبحانه وتعالى.

ولا يجتمع الخلق يومها عن غفلة؛ بل يجتمعون وكلهم انتباه؛ فالحق سبحانه يقول:

(١) ﴿وَكَايْنِ مِنْ آيَةٍ .. (١٠٥)﴾ [يوسف] أي: كم من آية، أو كثير من الآيات. [كلمات القرآن للشيخ حسن بن مخلوف].

(٢) معروضون. اسم فاعل من «أعرض»، وأعرض عن الشيء، ولى منصرفاً عنه غير راغب فيه. قال تعالى: ﴿أعرض وناج بجانبه .. (٨٣)﴾ [الإسراء]. [القاموس اللويمي: مادة. (ع و خ)].

(٣) الالباب: جمع لب. وهو العقل. وقد وردت في القرآن ١٦ مرة. يقول تعالى: ﴿.. إِنَّمَا يَذْكُرُ لَوْ كَرِهَ الْآلِبَابُ (١٥)﴾ [الرعد].

﴿ .. إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ (١٢)

[إبراهيم]

ويقول الحق سبحانه أيضاً:

﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. ﴾ (٩٧)

[الأنبياء]

وهنا يقول سبحانه :

﴿ .. وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ (١٠٣)

[هود]

أى: أن كل الخلق سيشهدون هذا الفضح المعزى لمن لم يعتبر بالآيات.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك فى ميعاد هذا اليوم:

﴿ وَمَا نُنْخِرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ <sup>(١)</sup> ﴾

وهكذا نعلم أن تأخر مجيء يوم القيامة ؛ لا يعنى أنه لن يأتى ؛ بل سوف يأتى - لا محالة- ولكن لكل حدث ميعاد ميلاد ، ولكم فى تتابع مواليدكم ما يجعلكم تثقون بأن مواليد الأحداث إنما يحددها الله.

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَمَا نُنْخِرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ .. ﴾ (١٠٤)

[هود]

يتطلب أن نعرف أن كلمة «الاجل» تطلق مرة على مدة عمر الكائن من لحظة ميلاده إلى لحظة نهايته.

(١) معدود: اسم مفعول من الفعل (عدّ). قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا مُّعَدُّودَةٌ .. ﴾ (٨٠) [البقرة] أى: محسوبة قليلة، هى أيام شهر رمضان. وقال تعالى: ﴿ وَمَا نُنْخِرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ ﴾ [هود] وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَخْصَنَّاكُمْ وَعَدْنُمْ عَدًّا ﴾ [مريم] . والاجل: مدة الشيء وغاية الوقت ووقت الحياة أو وقت الدّين أو وقت الموت. والمراد به هنا يوم القيامة. [القاموس القويم]. (مائة ع د د) ، و(مائة ا ج ل) [بتصرف].



## سُورَةُ هُودٍ

٦٦٧٩

والحق سبحانه يقول:

﴿ .. لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ <sup>(١)</sup> ﴾ (٣٨)

[الرعد]

وتطلق كلمة «الاجل» مرة أخرى على لحظة النهاية وحدها ، مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿ .. إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ <sup>(٢)</sup> ﴾ (٣٩) [الاعراف]

ولنعرف جميعاً أن كل أجل - وإن طال - فهو معدود ، وكل معدود قليل مهما بدا كثيراً ؛ لذلك فلنقل أن كل معدود قليل ، ما دُمنا قادرين على إحصائه.

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك:

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ <sup>(٣)</sup>

وَسَعِيدٌ <sup>(٤)</sup> ﴾ (١٠٥)

(١) الكتاب: له عدة معانٍ، منها: القرآن، والتوراة، والإنجيل، والرسالة، ومصدر كتب، ويسمى به ما كتب وسجل في صحف، ومصدر كاتب. قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ لَهُ .. ﴾ (٢) [البقرة] وقال تعالى: ﴿ أَذْهَبَ بِكُنَازِيهِ مِمَّا فَاتَتْهُ إِلَيْهِمْ .. ﴾ (٣) [النمل] . وقال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِخَيْرِي مِنْ كِتَابِ اللَّهِ .. ﴾ (٤) [الأحزاب] أي: في حكمه وتقديره أو في القرآن الكريم في آيات المواريث. وقال تعالى: ﴿ تَوَلَّوْا كِتَابَ مَنْ اللَّهِ شَبِيحًا .. ﴾ (٥) [الأنفال] أي: ولولا قضاء من الله من قبل سجله سبحانه عنده؛ فلا تغيير له، وهو إبلاحة القضاء. وقال تعالى: ﴿ .. لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ (٦) [الرعد] أي: موعد مكتوب مسجل عند الله. وقال تعالى: ﴿ .. إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ (٧) [النساء] أي: فرضاً مسجلاً عنده سبحانه، كل صلاة في وقت وفي ميعاد محدد معين.

[القاموس القويم: مادة (ك ت ب)] يقتصرفه

(٢) تأخر واستأخر. ضد تقدم. قال تعالى: ﴿ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (١) [سبا] أي: لا تتأخرون ولا تطلبون التأخير ولا التأجيل، ولا تتقدمون لأنه محدد بوقت معلوم يستحيل تقديمه أو تأخيره. [القاموس القويم: مادة (أ خ ر)].

(٣) شقى شقاءً وشقاءً وشقاوةً: ساءت حاله المادية أو المعنوية، قهر شقىً. واسم التفضيل: أشقى. قال تعالى: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا .. ﴾ (١) [المؤمنون] أي: حالة الشقاء والضلال وفساد النفوس. والشقى: المحروم من الخير. قال تعالى: ﴿ .. وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ (٢) [مريم] ، أي: لم يسبق لي أن كنت محروماً من الخير حين أدعوك. [القاموس القويم: مادة (ش ق ي)].

وهنا جمع الحق سبحانه جماعة في حكم واحد ، فقوله تعالى :

﴿ لَا تَكَلِّمْ نَفْسًا .. (١٠٥) ﴾ [هود]

يعنى: لا تتكلم أى نفس<sup>(١)</sup> إلا بإذن الله ، وقد كانوا يتكلمون فى الحياة الدنيا بطلاقة القدرة التى منحهم إياها الله سبحانه حين أخضع لهم جوارحهم.

وجعل الحق سبحانه الجوارح مؤتمرة بأمر الإنسان ؛ وشاء سبحانه أن يجعل بعضاً من خلقه نماذج لقدرته على سلب بعض تلك الجوارح؛ فتجد الآخرس الذى لا يستطيع الكلام ؛ وتجد المشلول الذى لا يستطيع الحركة ؛ وتجد الأعمى الذى لا يبصر ، وغير ذلك..

وبتلك النماذج يتعرف البشر على حقيقة واضحة هى أن ما يتمتعون به من سيطرة على جوارحهم هو أمر موهوب لهم من الله تعالى ؛ وليست مسألة ذاتية فيهم.

وقول الحق سبحانه:

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمْ نَفْسًا إِلَّا بِإِذْنِهِ .. (١٠٥) ﴾ [هود]

يبين لنا سبحانه حقيقة تسخير الجوارح لطاعتنا فى الدنيا ، فهى ترضخ لإرادتنا ؛ لأنه سبحانه شاء أن يسخرها لأوامرنا ولانفعالاتنا ، ولا أحد فينا يتكلم إلا فى إطار الإذن العام للإرادة أن تنفعل لها الجوارح.

وقد يسلب الله سبحانه هذا الإذن فلا تنفعل الجوارح للإرادة ، فتجد الحق سبحانه يقول فى آية أخرى:

﴿ لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٢٨) ﴾ [النبأ]

(١) النفس: الروح وذات الشيء وحقيقته مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ .. (١٥٨) ﴾ [الأعراف] هى نفس آدم عليه السلام، وقوله : ﴿ تَعْلَمُ مَا لِيْ نَفْسِي .. (١١٣) ﴾ [المائدة] أى: ما أسره فى ضميرى، وقوله : ﴿ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي .. (٦٢) ﴾ [يوسف] أى: ذاتى وقوله : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ نَسْأَلُكُمْ فَاذْهَبْ فِيهَا .. (٧٢) ﴾ [البقرة] أى: إنساناً والنفس لها حالات، فتكون إشارة، وتكون لوامة، وتكون مطمئنة وراضية، وترتفع بدرجةها لتكون مرضية قد رضى الله عنها وأرضاها، وقوله تعالى: ﴿ وَبَحِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسًا .. (٢٨) ﴾ [آل عمران] أى: فضبه [القاموس القويم ص ٢٧٨ ج ٢ ]

ويقول الحق عز وجل في آية أخرى:

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧)﴾ [الصافات]

وهناك آية أخرى يقول فيها الحق سبحانه:

﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦)﴾ [المرسلات]

ويقول الحق سبحانه أيضاً:

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ (١) عَنْ نَفْسِهَا .. (١١١)﴾ [النحل]

وفي موضع آخر يقول سبحانه:

﴿وَقِفُّهُمْ (٣) إِنَّهُمْ مُسْتَوْلُونَ (٢٤)﴾ [الصافات]

وهكذا قد يُخِيل للبعض أن هناك آيات تناقض بعضها ؛ فهناك آيات

تسمح بالكلام ، وهناك آيات تنفي القدرة على الكلام.

وأقول: يجب أن نفهم أن الكلام الذي سيعجز الأشقياء عن نطقه يوم

القيامة هو الكلام المجدي النافع (٣) ، وسيتكلم البعض كلام السفسطة الذي

لا يفيد ، مثل لومهم بعضهم البعض ؛ وذكره لنا القرآن في قوله سبحانه:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ آمَنُوا (١) مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجَعْتُهُمَا

تَحْتَ أَقْدَامِنَا .. (٢٩)﴾

[فصلت]

(١) جادل خصام بالحق، وبالباطل، واستعمل في الباطل في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادِلْتُمْ عَنْهُمْ فِي

أَحْيَاءِ الدُّنْيَا .. (١٢٨)﴾ [التساءل] ، واستعمل في الحق في قوله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ..

(١٢٩)﴾ [النحل] ، وقد نهى الله حجاج بيت عن الجدل بكل أنواعه صيانة لعلاقة المحبة بينهم. قال

تعالى: ﴿فَلَا رَفْثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ .. (١٣٧)﴾ [البقرة] [القاموس القويم: مادة (ج د ل)].

(٢) قفوهم: أحبسوهم في موقف الحساب. [كلمات القرآن للشيخ حسن بن مخلوف].

(٣) أي: أنهم لا ينطقون بحجة تجب لهم، وإنما يتكلمون بالإقرار بذنوبهم، ولوم بعضهم بعضاً، وطرح

بعضهم الذنوب على بعض، فاما التكلم والنطق بحجة لهم فلا، وهذا كما تقول للذي يخطبك كثيراً،

وخطابه فارغ عن الحجة: ما تكلمت بشيء، وما نطقت بشيء، فسمى من يتكلم بلا حجة فيه له

غير متكلم. فله القرطبي في تفسيره (٢٤١٧/٤).

(٤) أخبل فلان غيره: أوقعه في الضلال. والضلال: النسيان والضياع. قال تعالى: ﴿... وَخَلَّ عَنْهُمْ مَا

كَانُوا يَفْعَلُونَ (٥)﴾ [يونس] أي: غاب عنهم ما عبوه. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ خَلَّ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

.. (٦٤)﴾ [الكهف] أي: ضاع عقلهم ولم يحقق الرجاء منه، أو لم يجعروا ثواباً يوم القيامة.

[القاموس القويم: مادة (ض ل ل)] [بصرف].

وهذا كلام لا يشفع لصاحبه ولا يجدى.

إذن: فالممنوع هو الكلام المجدى المفيد ، أو أن مقامات القيامة متفاوتة؛  
فوقت يتكلمون فيه ؛ ووقت يؤخذون فيه ، فينبهرون ولا يتكلمون، ويأمر  
الحق سبحانه الجوارح المنفصلة أن تتكلم وتشهد عليهم<sup>(١)</sup>.

ويقسم الحق سبحانه أحوال الناس قسمين، كما فى قوله تعالى فى آخر الآية:

﴿ .. فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ <sup>(٢)</sup> وَسَعِيدٌ <sup>(٣)</sup> ﴾ [هود]

وجاء بالاسم المحدد لكل من القسمين: «شقى» و«سعيد» ؛ لأن الاسم يدل على  
الثبوت ، فالشقاء ثابت لمن نُعت بالشقى ؛ والسعادة ثابتة لمن نُعت بالسعيد<sup>(٤)</sup>.

ثم يبين لنا الحق سبحانه منازل مَنْ شَقُوا ، ومنازل مَنْ سَعَدُوا ؛  
ولذلك يعدل عن استخدام الاسم إلى استخدام الفعل ، فيقول سبحانه:

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَمِنَ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ <sup>(٥)</sup> ﴾

(١) يقول الحق سبحانه: ﴿ يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتَهُمْ وَأَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النور] وقد  
أورد السيوطى فى الدر المنثور (١٦٥/٦) عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «إنا كان  
يوم القيامة عُرف الكافر بعمله فجسد وخاصم. فيقال: هؤلاء جيرانك يشهدون عليك . فيقول:  
كذبوا. فيقال: أهلك وعشيرتك . فيقول: كذبوا. فيقال: احلفوا . فيحلفون، ثم يصمتهم الله وتشهد  
عليهم ألسنتهم وأيديهم، ثم يدخلهم النار» عزاه لأبى يعلى وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه.  
(٢) شقى - من باب فوح - شَقًّا وشَقَاقًا وشَقَاقَةً: ساءت حاله العادية أو المعنوية فهو شقى، واسم  
التفضيل. أشقى.. وسَعَدَ كَفَرَح وسَعَدَ [ككرم] يسَعَدُ ويسَعِدُ سَعْدًا وسَعُودًا وسعادة نال الخير:  
﴿ .. فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود] [القاموس القويم: (٣٥٣/١)، (٣١٢/١)] يتصرف مختصر.

(٣) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ .. فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود]  
سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا نبي الله فعلام نعمل ؟ على شيء قد فرغ منه، أو على شيء لم  
يلفرغ منه؟ فقال: «بل على شيء قد فرغ وجرى به الأقدام يا عمر، ولكن كل مُحَسَّر لما خُلِقَ له»  
أخرجه الترمذى فى سننه (٣١١١) وابن أبى عاصم فى السنة (٢٤/١) وأحمد فى مسنده (٦/١)  
قال الترمذى: «هذا حديث حسن غريب».

(٤) زهير. إخراج شهيد للنفس من الصدر. وشهيق: رد النفس إلى الصدر. [كلمات القرآن للشيخ  
حسنين مخلوف].

## سُورَةُ الزُّمَرِ

٦٦٨٢

والذين حكموا على أنفسهم بالشقاء لخروجهم عن منهج الله :  
يجمعهم الشقاء ؛ لكنهم يدخلون النار أفراداً وزُمَرًا.

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا <sup>(١)</sup> .. (٧١) ﴾ [الزمر]

وفي آية أخرى يقول سبحانه:

﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ <sup>(٢)</sup> أَخْتَهَا .. (٢٨) ﴾ [الاعراف]

وهكذا نفهم أن الكافرين - في الوصف الثابت - أشقياء ، لكنهم لحظة دخول النار إنما يدخلونها أفراداً ؛ بل ويدخل معهم بعض من المسلمين العصاة، ويتلقى كل واحد منهم عقابه المناسب لما ارتكب من الذنوب والمعاصي ؛ ويعانى كل منهم من شقاء يتناسب مع آثامه ؛ وبذلك يجتمعون في الشقاء ويختلفون في نوع وكمية العذاب ؛ كلٌ حسب ذنوبه، ولا يظلم ربك أحداً.

وجاء الحق سبحانه هنا بالفعل «شقوا» ليبين لنا أنهم هم الذين اختاروا الشقاء ؛ وأتوا به لأنفسهم ؛ لأن الحق سبحانه خلق عباده وترك لكل منهم حق الاختيار ؛ وأنزل لهم المنهج ؛ ليصونوا أنفسهم ؛ وأعان - من اختار الإيمان - على الطاعة.

ثم يذكر الحق سبحانه في نفس الآية موقف مَنْ أدخلوا على أنفسهم الشقاء ، فيقول عنهم:

(١) الزمر: جمع زمرة، وهي الفوج والجماعة. قال تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا .. (٧١) ﴾ [الزمر]، وقال تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا .. (٧٢) ﴾ [الزمر]. [القاموس القويم: مادة (ز م ر)] بتصريف.

(٢) اللعنة. السخط والإبعاد عن الرحمة. فاللعن: السب والدعاء بالطرد من رحمة الله. [القاموس القويم: مادة: لعن].

﴿ .. فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ (١٠٦) [هود]

ونحن نعلم أن الذي يتنفس في النار سيخرج الهواء من صدره  
ساخناً مثلما يأخذ الشهيق ساخناً .

ويواصل الحق سبحانه وتعالى وَصَفَ ما يتلقاه أهل الشقاء في  
النار ، فيقول سبحانه:

﴿ خَلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ  
إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ (١٠٧)

وكلمة «الخلود» تفيد المكث طويلاً ؛ مكوثاً له ابتداء ولا نهاية له ؛  
وإذا أبد فهو تأكيد للخلود.

والذين شقوا إنما يدخلون النار ؛ بدءاً من لحظة:

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ .. ﴾ (١٠٨) [هود]

وهو عذاب لا نهاية له بالنسبة للكافرين.

وأما عذاب المسلم العاصي على ما ارتكب من آثام ؛ فبدايته من  
لحظة انتهاء الحساب إلى أن تنتهي فترة عذابه المناسبة لمعاصيه ؛  
ويدخل الجنة من بعد ذلك <sup>(١)</sup>.

(١) فعل يفعل فهو فاعل. وفاعل اسم فاعل من فعل وفعلال: حيفة مبالغة من فعل، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ (٢٦) [المؤمنون]، وقال تعالى: ﴿.. إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (١٠٧) [هود].  
[القاموس القويم: مادة (ف ع ل)] بتصريف.

(٢) عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناساً أصابتهم النار بذنوبهم أو قتل بخطاياهم فاستأنهم الله إماتة حتى إذا كانوا فحماً أذن لهم في الشفاعة فيجيء بهم ضبيلن ضبائر فبثوا على أنهار الجنة ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبثون نبات الحبة تكون في حميل السيل». أخرجه مسلم في صحيحه حديث (١٨٥)، وأحمد في مسنده (٢/ ١١٠).

ولهذا قال الحق سبحانه:

﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ .. (١٠٧)﴾

[مرد]

وهكذا ينقص الحق سبحانه الخلود في النار بالنسبة لانصاف المؤمنين، فالحق سبحانه ﴿.. فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧)﴾ ولا يحكمه أى شئ.

وإياكم أن تظنوا أن قدر الله يحكمه ؛ فالقدر فعله ، ولا أحد يسأل الله سبحانه عما يفعل ، لأن ذات الله هي الفاعلة ؛ فإن شاء سبحانه أن ينقص خلود مسلم عاص في النار ؛ فالنقص يكون في النهاية ؛ وبذلك يتحقق أيضاً نقص خلوده في الجنة ، لأنه لا يدخلها إلا بعد أن يستوفي عقابه.

وبهذا التصور ينتهى الإشكال الذى اختلف حوله مائة وخمسون عالماً ؛ فقد ظن بعضهم أن الحق سبحانه يخلق أبواب النار على من أدخلهم إياها ، ويستمر ذلك إلى ما لا نهاية ، وكذلك من دخل الجنة من البداية سيظل فيها أبداً ، ولن يُلحق الله أصحاب الكبائر بالجنة ، ومن قال بذلك الرأى إنما يُسوّى بين من ارتكب الكبيرة وبين الكافر بالله ، وهذا أمر غير متصور ، وهو بعيد عن رحمة الله .

وإذا كان هذا البعض من العلماء قد استدل على رايه بالآية الكريمة التى جاءت في سورة الجن ، والتى يقول فيها الحق سبحانه:

﴿إِلَّا بِلَاغٍ مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا (٢٣)﴾

[الجن]

فنحن نقول: إن الحق سبحانه يربب لطفه للكافر حتى يؤمن ، وللعاصي حتى يتوب ، وهذا من رحمة الله سبحانه ، فتأبىد الخلود في العذاب لم

يرد إلا في آيتين<sup>(١)</sup>، وهذا دليل على عظيم رحمة الله وسعة عفوه سبحانه.  
ولذلك قيل عن رسول الله ﷺ إنه رحمة الله للعالمين : وكلمة  
«العالمين» جمع «عالم» والعالم هو ما سوى الله تعالى.  
ولذلك هناك رحمة للكافر : هي عطاء الله له في الدنيا.  
ومكنا نعلم أن الله سبحانه هو الذي يملك نواويس الكون ،  
ولم يتركها تفعل وحدها ، بل يزاول سبحانه سلطانه عليها ، وما دام  
القدر هو فعله سبحانه : فهو يغير فيه كما يشاء.  
فهو سبحانه رب الزمان والمكان والحركة، ومادام هو رب كل شيء  
فإنه فعال لما يريد، وهنا تخضع أبدية الزمان لمراده ومشيتته.  
وقول الحق سبحانه:

﴿ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ .. ﴾ (١٠٧) [هود]

نفهم منه أن الجنة أو النار لا بد أن يوجد لهما ما يعلوهما  
ويظللهما ، ولا بد أن يوجد فوق أرض ما.  
وإذا قال قائل: إن الحق سبحانه قد ذكر في القرآن أن السماء  
سوف تمور<sup>(٢)</sup> وتنفطر<sup>(٣)</sup>.

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ (٥٤) خالدين فيها أبداً لا يجدون فيها ولا نصيراً (٥٥) [الاحزاب] وكذلك في سورة الجن: ﴿... وَمَنْ يَخْصِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا...﴾ (٢٢) [الجن].

(٢) ماز الشيء يعمور موراً: تحرك وذهب وجاء في سرعة. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ (٤) [الطود] [القاموس القويم: مادة (مور)].

(٣) يتفطر الشيء وينفطر: يتشقق. قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ (١) [الانفطار] أي: انشقت يوم القيامة. وقوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرُنَّ بِهِ...﴾ (٤٠) [مريم] أي: يتشققن من هول كفرهم وادعائهم أن لله ولداً - كما يفهم من قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ (٢٢) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا (٢٣) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرُنَّ بِهِ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَتَغْرُ الْجِبَالُ هَذَا (٤١) [مريم]. [القاموس القويم: مادة (فطر)] بتصريف.



## سُورَةُ هُودٍ

٦٦٨٧

نقول رداً عليه: لا تأخذ آية في القرآن إلا بضميمة <sup>(١)</sup> مثيلاتها.

ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ <sup>(٢)</sup> ..﴾ (٤٨) [إبراهيم]

والحق سبحانه يورث أرض الجنة لمن يشاء ؛ لأنه سبحانه هو القائل على لسان المؤمنين يوم القيامة:

﴿وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَبِئاً <sup>(٣)</sup> مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ..﴾ (٧٤) [الزمر]

أو لأن الإنسان له أغيار ، وما حوله له أغيار.

ومن العجيب أن الإنسان المخدم بالمادة الجامدة ؛ وبالنبات النامي؛ وبالحيوان الذي يحس ويتحرك ؛ هذا الإنسان قد يكون أطول عمراً من بعض المخلوقات المسخرة لخدمته ؛ لكنه أقل عمراً من الشمس ومن القمر.

(١) الضميمة: المضموم، أو المضموم إلى غيره. [المعجم الوسيط: مادة (ضمم)]. والمراد ضم الآيات المتماثلة وفهمها فهماً شاملاً.

(٢) يبدل الشيء: غيَّره. وبدل الكلام: غيَّره أو حرَّفه بحيث يؤدي معنى غير المراد منه. قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ..﴾ (٤٩) [البقرة] أي: غيَّروه بكلام آخر، أو حرَّفوه ليؤدي معنى آخر غير المراد منه. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْ حَسَبًا بَعْدَ سُوْرَةٍ ..﴾ (٦٦) [النمل] أي: عمل الخير والحسن بعد عمل السوء. وقال تعالى: ﴿.. وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ (٤٨) [الإنسان] أي: جعلناهم بدلاً منهم. كقوله تعالى: ﴿.. إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (٥٥) [إبراهيم] [القاموس القديم: مادة (بدل)].

(٣) بؤاه: أسكنه. وبؤاه في الأرض: مكَّن له فيها. قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ..﴾ (٤٦) [الحج] أي: هيأناه له ومكناهُ منه. وقال تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿يَتَّبِعُوا مِنْهَا خَيْبَ تَبْشِيرٍ﴾ (٤٦) [يوسف] أي: ينزل في أي مكان يريد من أرض مصر، وهذا كناية عن اتساع جأه. [القاموس القديم: مادة (ب و أ)] بتصرف.

لكن الحق سبحانه هنا يصور عمر الإنسان في الآخرة ؛ فكانه سبحانه يعطى الأمد على أطول ما عرفنا من الأعمار ؛ ولذلك قال سبحانه:

﴿ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ .. (١٠٧) ﴾ [هود]

وإذا علّق الله سبحانه شيئاً على شيء ، فلا بد أن يوجد هذا التعليق.

والحق سبحانه يتكلم عن أهل النار من الكفار ، فيقول تعالى:

﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ <sup>(١)</sup> .. (٤٠) ﴾ [الأعراف]

فهو سيلج الجمل في سمّ الخياط ؟ إن ذلك محال.

ولذلك أقول : فلنأخذ التعليقات في نطاق أنه سبحانه:

﴿ .. لَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) ﴾ [هود]

وقد جاء في الكتاب قول سيدنا عيسى عليه السلام:

﴿ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَلَئِنْكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة]

فكان مقتضى السياق أن يقول سبحانه: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم.

وهذه نظرة سطحية لمدلولات القرآن ، بعقول البشر ، أما ببلاغة

(١) السمّ - مثناة السنين - : الثقب الضيق ، قال تعالى ﴿ حَتَّى يَلْجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ .. (٤٠) ﴾ [الأعراف] أى: ثقب الإبرة. [القاموس القويم : مادة (ص م م)].

## سُورَةُ هُودٍ

٦٦٨٩

الحق سبحانه فيكون الأمر مخالفاً ، فامر التعذيب أو الغفران موكل لله سبحانه بيده وحده ، وليس لأحد أن يسأله لِمَ فعل هذا ؟ ولمَ ترك هذا ؟

لذلك كان هذا هو معنى العزة ! ولذلك كان سبحانه عزيزاً ، وهو سبحانه أيضاً حكيم في أى أمر يحكم فيه سواء أكان بالتعذيب أو المغفرة.

لذلك جاء سبحانه بالغاتمة التى تثبت للحق سبحانه التعذيب أو المغفرة.

ففى تعذيب الكافرين قال سبحانه: ﴿ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) ﴾ .

وفى الكلام عن الطائعين الذين أدخلوا الجنة قال سبحانه:

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِى الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ

السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ (١٠٨) ﴾

فالحق سبحانه يعطى المؤمنين ما شاء ، ويؤكد خلودهم فى الجنة ، وعطاؤه لهم لا مقطوع ولا ممنوع.

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُونَ هَؤُلَاءِ مَا يَعْْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ

ءَابَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (١٠٩) ﴾

(١) جذ الشيء، يجذّه جذاً: قطعه أو كسره . أو فتقه . والجذال: القطع المكسرة المفتحة والحطام قال

تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ جُذَالًا إِلَّا كَثِيرًا أَلْهَمَ .. (٥٨) ﴾ [الأنبياء] والمجدود: المقطوع . قال تعالى: ﴿ .. عَطَاءٌ

غَيْرَ مَجْدُودٍ (١٠٨) ﴾ [هود] أى: أنه عطاء دائم غير مقطوع . [القاموس القويم: مادة (جذذ)].

(٢) المرية - بكسر الميم، ويضمها - : الجدل والشك . قال تعالى: ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ

.. (١٧) ﴾ [هود] وقرئ: مرية - بضم الميم . [القاموس القويم: مادة (م ر ي)].

(٣) لنقص: مصدر نقص . قال تعالى: ﴿ وَتَلَقَّوْنَكُمْ بِشَىْءٍ مِنَ الْخُوفِ وَالْجُوعِ وَنَقَصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ

وَالْأَمْوَاتِ .. (١٥٥) ﴾ [البقرة] . ومنقوص: اسم مفعول منه . قال تعالى: ﴿ .. وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ

مَنْقُوصٍ (١٠٩) ﴾ [هود] أى: كاملاً . لا ننقص منه شيئاً . [القاموس القويم: مادة (نقص)].

فهل كان الرسول ﷺ فى مربة ؟

هل كان الرسول ﷺ فى شك؟

لا ، ولكنه قول الامر الاعلى سبحانه للادنى ، ورسول الله ﷺ فى صدد هذا الامر ؛ وبذلك ينصرف امر الحق سبحانه إلى الدوام.

مثمما قال الحق سبحانه للنبي ﷺ :

﴿ اَقِمِ الصَّلَاةَ .. (٧٨) ﴾ [الإسراء]

وكان الرسول ﷺ يقيم الصلاة قبلها ، ولكن قول الحق سبحانه هنا إنما يمثل بداية التشريع.

ومثل هذا أيضاً قول الحق سبحانه فى خطاب النبي ﷺ:

﴿ يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. (١) ﴾ [الاحزاب]

فهل كان رسول الله ﷺ لا يتقى الله ؟

نقول: لا ، إنما هو لإدامة التقوى ، فإنه إذا أمر الأعلى الأدنى بأمر هو بصدد فعله ، انصرف هذا الامر إلى الدوام، واتباع أمته للتقوى والإعراض عن النفاق والكفر، وهو خطاب للرسول وأمته، فللرسول الدوام والترقى والحصانة، ولأمته الاتباع لمنهج الله.

ومثل هذا قوله تعالى:

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٥٣) ﴾ [البقرة]

وهو سبحانه يناديهم بالإيمان ؛ لأنهم اعتقدوا اعتقاد الألوهية الواحدة ، ومن يسمع منهم هذا الخطاب عليه أن يداوم على الإيمان.

## سُورَةُ هُودٍ

٦٦٩١

وما دام قد آمن بالإله الواحد قبل الخطاب ، فقد استحق أن ينال التكريم من الحق سبحانه بأن يخاطبه ويصفه بأنه من المؤمنين، فإذا نُودي عليهم بهذه الصفة فهي علامة السمو المقبول.

وإذا طُلبت الصفة ممن توجد الصفة فيه ، فاعلم أنه سبحانه يطلب دوام الصفة فيه واستمرارها، وفي الاستمرارية ارتقاء.

وقول الحق سبحانه هنا:

﴿ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ .. (١٠٩) ﴾

[هود]

نجد أن التحقيق لا يثبت لهم عبادة<sup>(١)</sup> ؛ لأن معنى العبادة ائتمار عابد بأمر معبود. وهؤلاء إنما يعبدون الأصنام ، وليس للأصنام منهج يسير عليه من آمنوا بها.

ولكن الحق سبحانه أثبت لهم هنا أنهم عبدوا الأصنام ، وهم قد قالوا من قبل:

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى<sup>(٢)</sup> .. (٢) ﴾

[الزمر]

(١) عَبْدُ اللَّهِ يَعْبُدُهُ، عبادة وعُبُودَة. أطاعه فهو عابد اسم فاعل. وَعَبْدُهُ بالتضعيف سَخَرَهُ وأَذَلَهُ، يقول الحق سبحانه: ﴿وَبَلَدِكَ بَعْهَةً لِّمَنْهَا عَلِيُّ أَنْ عَمِدَتْ بَنِي إِسْرَافِيلَ﴾ [الشعراء] والعبد بالنسبة للناس الرقيق المملوك، ويجمع على جموع منها: عباد، وعبيد وعبد - وَعَبْدٌ والعبد بالنسبة لله: الإنسان الحر أو الرقيق. فكلاهما مملوك لله خاضع لحكمه وإرادته، وَعِبَادُ الأصنام هم عباد لأفكار هي تخريف وتحريف عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وكل عابد لفكرة منحرفة، فهو منحرف عن الحقيقة [القاموس القويم ١/٣ - ١ - بتصرف].

(٢) الزُلْفَى القرب ، والمنزلة، والدرجة. قلل تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالْأَيْ تَقْرِبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى .. (٢٥)﴾ [سبا] أى: قريباً، مفعول مطلق مرادف أو تقريكم درجة ومنزلة قريبة منا. [القاموس القويم: مادة ( ز ل ف )].

وهو إيمان فقد حجية التعقل الإيماني ، أي: أن تستقبل أنت بذاتك القضية الإيمانية وتناقشها لتدخل عليها باقتناع ذاتك .

وهم قد دخلوا إلى الإيمان بعبادة الأصنام باقتناع الغير ، وهم الأباء ، فأيمانهم إيمان تقليد ، وفي التقليد جفاف الفطرة السليمة وهو لا ينفع .  
ونحن نعلم أن الحق سبحانه وتعالى قد جعل النسب في الكون إما ليثبت نسبة إيجابية - أو نسبة سلبية <sup>(١)</sup> .

﴿ مَا يَعْبُدُونَ .. (١٠٩) ﴾ [هود]

أي: على ما قالوا إنه عبادة ، ولكنه ليس عبادة ، لأن العبادة تقتضي أمراً ونهياً ، وليس للأصنام أوامر أو نواهٍ ، وعبادتهم هي عبادة تقليدية للأباء ؛ ولذلك قالوا:

﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا آَلَيْنَا <sup>(٢)</sup> عَلَيْهِ آبَاؤُنَا .. (١٧٠) ﴾ [البقرة]

ولذلك يقرر الحق سبحانه هنا جزاءهم ، فيقول تعالى:

﴿ .. وَإِنَّا لَمُوقِنُونَ <sup>(٣)</sup> نَصِيْبُهُمْ <sup>(٤)</sup> غَيْرَ مَنْقُوصٍ (١٠٩) ﴾ [هود]

(١) فالكون فيه الفاظ مفردة نعرف معانيها مثل: السماء، والأرض، ونظم تصور الشيء. أما عندما نذكر لهذا الشيء صفة فهذا معناه النسبة، مثل قولنا: الأرض كروية. [مستتبط من كلام فضيلة الشيخ].

(٢) الفى الشيء: وجده. قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَكْفَرُوا بِآيَاتِهِمْ خَالَيْنَ (١٢٥)﴾ [الصافات]. وقال تعالى: ﴿وَأَنفِصْنَا سَبَئَهَا لَمَّا الْآبَاءُ .. (١٢٥)﴾ [يوسف] أي: وجدها. [القاموس القويم: مادة (ل ف ي)].

(٣) وفى إليه حق: أوصله إليه كاملاً. ويتعدى للمفعولين فيقال: وقَّاه حقَّه. واسم الفاعل مؤف: اسم منقوص. [القاموس القويم: ٢/٢٤٧].

(٤) قال القرطبي في تفسيره (٤/٣٤٢٣):

«فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: نصيبهم من الرزق. قاله أبو العلية.

الثاني: نصيبهم من العذاب. قاله ابن زيد.

الثالث: ما وعدوا به من خير أو شر. قاله ابن عباس.

## سُورَةُ مُوسَى

٦٦٩٢

أى: سنعطيههم جزاءهم كاملاً ؛ لانهم يفسدون فى الكون ، رغم أن الحق سبحانه قد جعل لكل منهم حق الاختيار فى أن يفعل الشيء أو لا يفعله ، وإن لم تنتضبط حركة الاختيار ، فالتوازن الاجتماعى يصير إلى اختلال.

وما دام للإنسان حق الاختيار ؛ فقد أنزل الحق سبحانه له المنهج الذى يضم التكاليف الإيمانية.

وهم حين قلدوا الآباء قد ساروا فى طريق إفساد الكون ؛ لذلك يؤقِّبهم الحق سبحانه نصيبهم من العذاب .

والمفهوم من كلمة «النصيب»<sup>(١)</sup> ، أنها للرزق ، ويذكرها الحق سبحانه هنا لتقرير نصيب من العذاب ، وفى هذا تهكم عليهم ، وسخرية منهم. ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ

سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾<sup>(١١٠)</sup>

(١) النصيب: القسم والحصة من الشيء. قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا ..﴾<sup>(١٠٩)</sup> [البقرة] أى: لهم حظ وقسم وحصة من حق لهم من كسبهم. [القاموس القويم: مادة (ن ص ب)].

(٢) سبق: يسبق سبقاً: تقدم، فهو لازم. وسبقه: تقدمه، فهو متعد. واسم الفاعل: سابق. واسم المفعول: مسبوق. قال تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ ..﴾<sup>(١٠٩)</sup> [الأنفال] أى: تقدم وثبت فيه الحكم من قبل، وهو اللوح المحفوظ. [القاموس القويم ١/ ٢٠١]. والكلمة: قضاء الله وحكمه السابق فى اللوح المحفوظ. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ..﴾<sup>(١١٠)</sup> [هود] أى: قضائه بتأجيل الحكم بين الناس إلى يوم القيامة. [القاموس القويم: مادة (س ب ق)]. (ك ل م) يتصوف.

(٣) الريب: الشك. قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ..﴾<sup>(١٠٩)</sup> [البقرة] ورابه الأمر، يريب ريباً وريبة: شك فيه. والريب: حادث الدهر المفاجئ. وريب المنون: الموت. قال تعالى: ﴿أَنَّهُمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّعُ بِهِ رَبِّهِمْ فَمَنْ يَعْتَدِ (١٠٩)﴾ [الطور] أى: حادث الموت. وقال تعالى: ﴿لَا يَزَالُ يَقْتُلُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ..﴾<sup>(١١٠)</sup> [التوبة] أى: مصدر شك وتناقى. ورابه: أوصله إلى الشك وأدخل الشك فى نفسه. واسم الفاعل: ريب. قال تعالى: ﴿.. وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾<sup>(١١٠)</sup> [هود] على سبيل التوكيد أى: فى شك موصل إلى شك. وراب الرجل: فهو مرِيب: صار موضع ريبة وشك لا يطمئن إليه الناس. قال تعالى: ﴿مَتَاعٌ لِّغَيْرِهِمْ مُرِيبٍ﴾<sup>(١١٠)</sup> [ق] [القاموس القويم: مادة (ر ي ب)].

وسورة هود هي السورة الوحيدة في القرآن التي جاء فيها ذكر رسول واحد مرتين ، فقد ذكر الحق سبحانه أنه أمر موسى ﷺ بأن يذهب إلى فرعون ، وأن يريه الآيات ، ولم يزد <sup>(١)</sup> ، ثم انتقل من ذلك الإبلاغ فقال سبحانه:

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. ﴾ (٩٨)

[هود]

أى: أنه أعقب أولية البلاغ بالختام الذي انتهى إليه فرعون يوم القيامة ، فيُورد قومه النار.

ثم يأتى الحق سبحانه هنا إلى موسى ﷺ بعد ابتداء رسالته :  
ولذلك يقول تعالى:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ .. ﴾ (١١٠)

[هود]

ونحن نعلم أن ذكر موسى ﷺ في البداية كان بمناسبة ذكر ما له علاقة بشعيب ﷺ حين ورد موسى ماء مدين ، ولكن العجيب أنه عند ذكر شعيب لم يذكر قصة موسى معه ، وإنما ذكر قصة موسى مع فرعون.

وقد علمنا أن موسى ﷺ لم يكن آتياً إلى فرعون إلا لمهمة واحدة ، هي أن يرسل معه بنى إسرائيل <sup>(٢)</sup> ولا يعذبهم.

وأما ما يتأتى بعد ذلك من الإيمان بالله فقد جاء كامر تبين ، لأن

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ (٩٥) إلى فرعون ومعه هاتين امر فرعون وما أمر فرعون برشده ﴾ [هود].

(٢) وذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٠٧) حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئكم ببينة من ربكم فارجل معي بنى إسرائيل ﴾ [الاعراف].



رسالة موسى ﷺ لم تكن إلا لبني إسرائيل ؛ ولذلك جاء هنا بالكتاب ليبلغه إلى بني إسرائيل منهجاً ، أما في الموضع الأول فقد ذكر سبحانه الآيات التي أرسل بها موسى إلى فرعون.

ونحن نعلم أن سورة هود عرضت لمواكب الرسل: نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، وإبراهيم - عليهم جميعاً السلام - وجاء الحديث فيها عن موسى ﷺ مرتين: مرة في علاقته بفرعون ، ومرة في علاقته ببني إسرائيل.

وفي كل لقطة من اللقطات مهمة أساسية من مهمات المنهج الإلهي للناس عموماً ، من أول آدم ﷺ إلى أن تقوم الساعة ؛ إلا أنه عند ذكر كل رسول يأتي باللقطة التي تعالج داءً موقوتاً عند القوم.

فالقدر المشترك في دعوات كل الرسل هو قوله سبحانه:

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ ۝٥٩﴾ [الأعراف]

ثم يختلف الأمر بعد ذلك من رسول لآخر ، فمنهم من يأمر قومه ألا يعبدوا الأصنام ؛ ومنهم من يأمر قومه ألا ينقصوا الكيل والميزان.

وهكذا نجد في كل لقطة مع كل رسول علاج داء من داءات <sup>(١)</sup> تلك

(١) ما - هنا - نافية بمعنى: ليس. أي: ليس لكم إله غير.

(٢) الداء: المرض ظاهراً أو باطناً، والعيب ظاهراً أو باطناً، ويقال: فلان ميت الداء: لا يصدق على من يسمي إلهه. وداء الأسد: الحمى. وداء الطلي: الصحة والنشاط. وداء الملوك: النقرس. وداء الكرم: العفن والفقر. وداء الضرائر: الشر الدائم. وداء البطن: الفتنة العمياء. وداء النشب: الجوع. والجمع: أدواء. [المعجم الوسيط مادة ( د و أ )] ويجوز التأنيث فيقال: داءة وجمعها: داءات، وهي الأمراض سواء أكانت مادية أم معنوية.

الامة ، أما الإسلام فقد جاء ليعالج داءات البشرية كلها؛ لذلك جمعت كل القيم الفاضلة في القرآن كمنهج للبشرية<sup>(١)</sup>.

لذلك فالحق سبحانه لا يقص علينا القصص القرآني للتسلية ، أو لقتل الوقت ، أو لتعلم التاريخ ؛ ولكن لنتلقت العبرة من رسالة كل رسول إلى أمته التي بعث إليها ليعالج داءها.

وبما أن أمة محمد ﷺ ستكون آخر عهد لالتقاء البشر بالبشر<sup>(٢)</sup> ، وستكون فيها كل أجواء وداءات الدنيا ، لذلك فعليهم التقاط تلك العبر ؛ لأن رسالتهم تستوعب الزمان كله ، والمكان كله.

والحق سبحانه هنا يقول:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ .. (١١٠) ﴾ [هود]

ونحن نعلم أنه إذا تقدم أمران على ضمير الغيبة ؛ فيصح أن يعود الضمير إلى كل أمر منهما.

وقوله سبحانه: ﴿ فَاخْتَلَفَ فِيهِ .. (١١٠) ﴾ يصح أن يكون الاختلاف في أمر موسى ، ويصح أن يكون الاختلاف في أمر الكتاب ، والخلاف في واحد منهما يؤدي إلى الخلاف في الآخر ؛ لأنه لا انفصال بين موسى ﷺ ، والكتاب الذي أنزله الله عليه.

وهكذا فالأمران يلتقيان: أمر الرسالة في الكتاب ، وأمر الرسول في الاصطفاء ؛ ولذلك لم يجعلهما الحق سبحانه أمرين ، بل هما أمر

(١) يقول الحق : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَهْبُوا الدِّينَ وَلَا تَتَّبِعُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى] إذن : جمعت قيم الأديان في الكتاب الخاتم المنزل على الرسول الخاتم لتوحيد الإنسانية على الحق والخير والسلام.

(٢) مقصود فضيلة الشيخ أن أمة محمد ﷺ هي آخر الأمم منذ بعث محمد ﷺ إلى أن تقوم الساعة، ورسولها محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء والرسول.

واحد : لأن الرسول لا ينفصل عن منهجه.

وقوله الحق: ﴿ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ .. (١١٠) ﴾ أمر يتعلق بفعل الحق سبحانه ، والله<sup>(١)</sup> ذات ، وله صفات ، وله أفعال.

وهو سبحانه مُنَزَّهٌ في ذاته عن أى تشبيه ، وله صفات ، وهى ليست ككل الصفات ، فالحق سبحانه موجود ، وأنت موجود ، لكن وجوده قديم أزلي لا ينعدم ، وأنت موجود طارئ ينعدم.

ونحن نأخذ كل ما يتعلق بالله سبحانه فى إطار:

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١١) ﴾ [الشورى]

فإذا تكلم الحق سبحانه عن الفعل فخذ كل فعل صدر عنه بقوته سبحانه غير النهائية.

وقوله سبحانه هنا:

﴿ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ .. (١١٢) ﴾ [هود]

نفهم منه أن هذا الفعل قد استلزم صفات متكاملة ، علماً وحكماً ، وقدرةً ، وعفواً ، وجبروتاً ، وقهراً ، فهناك أشياء كثيرة تتكاتف لتحقيق هذا الإتيان.

وقد يسأل سائل: وما دام موسى عليه السلام قد أوتي الكتاب ، واختلف فيه ، فلماذا لم يأخذ الحق سبحانه قوم موسى كما أخذ قوم نوح، أو قوم عاد ، أو قوم ثمود ، أو بقية الأقاليم الذين أخذهم الله بالعذاب ؟

(١) توحيد الذات هى لغة القلب بالوحدانية والتفريد والتجريد لله. يقول الحق ﴿ قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَسَلَّمْتُ وَمُحِبَّتِي وَمُحِبَّتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١١٢) ﴾ [الأنعام] وللذات عطامات كلما ذكرته موحداً فانت فى رفى دائم وتستمتع من الله عطاء الصفات - فتستحق الرحمة من الرحيم، والرزق من الرزاق، والجبر من الجبار، فمن أحب الذات وهبت له عطامات الصفات، وفى أسمائه الحسنى الزاد المطلوب - [من مفهوم الخواطر].

ونقول: ما نجوا من عذاب الله بقدرتهم ؛ بل لأن الحق سبحانه قد جعل عذابهم أجلاً<sup>(١)</sup> ، وهو يوم الحساب.

ولذلك قال سبحانه في الآية نفسها:

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ .. ﴾ (١١٠) [هود]

وبذلك حكم الحق حكماً فاصلاً ، كما حكم على الأمم السابقة التي كانت مهمة رسلهم هي البلاغ ، ولم تكن مهمة رسلهم أن يحاربوا من أجل إرساء دعوة أو تثبيت حق ؛ ولذلك كانت السماء هي التي تتدخل بالأمر النهائي.

لكن اختلف الأمر في رسالة موسى عليه السلام ، فقد سبق فيه قول الله تعالى بالتأجيل للحساب إلى يوم القيامة.

ثم يقول الحق سبحانه هنا:

﴿ .. وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ (١١١) [هود]

كانهم في شك من يوم القيامة ، وفي شك من الحساب ، مثل قوله سبحانه في أول الآية عن الاختلاف في الكتاب وموسى عليه السلام.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَإِنْ كَلَّا لَيُوفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ

خَبِيرٌ ﴾ (١١١)

(١) وهذه هي الكلمة التي ذكرها الله سبحانه هنا: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ .. ﴾ (١١٠) [هود] قال

القرطبي في تفسيره (٤/ ٢٤٢٢) : «الكلمة: أن الله عز وجل حكم أن يؤخرهم إلى يوم القيامة لما علم في ذلك من الصلاح، ولولا ذلك لقضى بينهم أجلهم بأن يثيب المؤمن ويعاقب الكافر».

(٢) الخبير: من أسماء الله الحسنى. قال تعالى: ﴿ .. وَهُوَ أَعْلَمُ الْخَبِيرُ ﴾ (١٦٨) [الأنعام]. والخبير: العالم ببواطن

الأمور. قال تعالى: ﴿ .. فَاسْتَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ (٦٩) [الفرقان] [القاموس القويم : مادة ( خ ب ر )].

إنن: فالحق سبحانه قد أخذ قوم الرسل السابقين على موسى بالعذاب ، أما في بدء رسالة موسى ﷺ فقد تم تأجيل العذاب ليوم القيامة.

ويبين الحق سبحانه: لا تعتقدوا أن تأجيل العذاب ليوم القيامة يعني الإفلات من العذاب ، بل كل واحد سيوفى جزاء عمله ؛ بالثواب لمن أطاع ، وبالعقاب لمن عصا ، فأمر الله سبحانه أت - لا محالة <sup>(١)</sup> - وتوفية الجزاء إنما تكون على قدر الأعمال ، كفرًا أو إيمانًا ، صلاحًا أو فسادًا ، وميعاد ذلك هو يوم القيامة.

وهنا وقفة في أسلوب النص القرآني، حتى يستوعب الذين لا يفهمون اللغة العربية كملكة <sup>(٢)</sup>، كما فهمها العرب الاقدمون.

ونحن نعلم أن العربي القديم لم يجلس إلى معلم، لكنه فهم اللغة ونطق بها صحيحة ؛ لأنه من أمة مفطورة <sup>(٣)</sup> على الأداء البياني الدقيق ، الرقيق ، الرائع.

فاللغة - كما نعلم - ليست جنسًا ، وليست دما ، بل هي ظاهرة اجتماعية ، فالمجتمع الذي ينشأ فيه الطفل هو الذي يحدد لغته ، فالطفل الذي ينشأ في مجتمع يتحدث العربية ، سوف ينطق بالعربية ،

(١) للمحال: ما اقتضى الفساد من كل جهة كاجتماع الحركة والسكون في جسم واحد. والمحال من الأشياء: ما لا يمكن وجوده. والمحال من الكلام: ما عدل به عن وجهه. والمَحَالَة: التحيلة. والجمع مُحَال، ومُحَاوَل - بفتح الميم فيهما - ويقال: لا محالة من ذلك، أي: لا بد منه. [المعجم الوسيط: مادة ( ح و ل )] يتصرف.

(٢) الملكة - بفتح الميم واللام والكاف - : صفة راسخة في النفس أو استعداد عقلي خاص لتناول أعمال معينة بحذق ومهارة ، مثل الملكة العديدة، والملكة اللغوية. [المعجم الوسيط: مادة (ملك)].

(٣) فطر النفس، فطراً: شقّه. والجمع: فطور. والاسم: الفطرة. قال تعالى: ﴿فَطَرْتُ اللَّهَ أَنِّي فَطَرُ النَّاسِ عَلَيْهَا ..﴾ [الروم] أي: خلقته التي خلق الناس عليها. وقوله تعالى ﴿.. هل ترى من فطور﴾ (٣) ﴿

[الملك] أي: من صدوع، أي: هل ترى من خلل أو فساد في الخلق ، والاستقهام هنا للنفس، أي: لا ترى أي خلل. [القاموس القويم: مادة (فطر)].

والطفل الذي يوجد في مجتمع يتحدث اللغة الإنجليزية ، سينطق بالإنجليزية ؛ لأن اللغة هي ما ينطق به اللسان حسبما تسمع الأذن.

وكانت غالبية البيئة العربية في الزمن القديم بيئة منعزلة ، وكان من ينشأ فيها إنما يتكلم اللغة السليمة.

أما العربي الذي عاش في حاضرة مثل مكة ، ومكة - بما لها من مكانة - كانت تستقبل أغراباً كثيرين ؛ ولذلك كان أهل مكة يأخذون الوليد فيها لينقلوه إلى البادية ؛ حتى لا يسمع إلا اللغة العربية الفصيحة ، وحتى لا يحتاج إلى من يضبط لسانه على لغة العرب الصافية.

ولنقرب هذا الأمر ، ولننظر إلى أن هناك في حياتنا الآن لغتين: لغة نتعلمها في المنازل والشوارع ونتخاطب بها، وتسمى «اللغة العامية»، ولغة أخرى نتعلمها في المدارس، وهي اللغة المصقولة<sup>(١)</sup> المميزة بالفصاحة والضبط.

وكان أهل مكة يرسلون أبناءهم إلى البادية لتلتقط الأذن الفصاحة<sup>(٢)</sup>، وكانت اللغة الفصيحة هي «العامية» في البادية ، ولم يكن الطفل في

(١) المصقول: اسم مفعول من الفعل «صقل». وصقل الشيء صقلاً وصقلاً: جلاه . يقال: صقل السيف والحرّة ونحوهما. ويقال: صقل كلامه: هذب ونمقه. وصقل الدابة: تمهدها بالتربية. وتستخدم هذه الكلمة أيضاً للتعبير عن إجانة شيء مثل اللغة ، والموهبة ، فيقال: صقل لغة ، أي: تدرب عليها حتى أجادها. وصقل موهبته بالدراسة ، أي: تدرب على استخدامها حتى أجادها. [المعجم الوسيط : مادة (صقل)] بتصريف.

(٢) ومما يبين أن اللغة العربية في الجزيرة العربية مصاحبة للفطرة السليمة والملكة الراسخة ما حكى أن سقاه أمر ابنه أن يمسك بقم قرية الماء. فقال الغلام لأبيه: «يا أبت إن القرية غلبنى فوها أدرك فاما لا طاقة لي بغيرها» وفي هذا المنطق قواعد لإعراب الأسماء الخمس أو الست فهي تُعرب بالواو رفعاً، وبالألف نصباً، وبالياء جرّاً، والأملكة لا حصر لها وفي المراجع مزيد لكل من أراد.

البادية يحتاج إلى معلم ليتعلمها : لأن أذنه لا تسمع إلا الفصاحة.

وكانت هذه هي اللغة التي يتفوق فيها إنسان ذلك الزمان كملكة ، وهي تختلف عن اللغة التي نكتسبها الآن ، ونصقلها في مدارسنا ، وهي لغة تكاد تكون مصنوعة ، فما بالناس بالذين لم يتعلموا العربية من قبل من المستشرقين، ويتعلمون اللغة على كبر .

وهؤلاء لم يمتلكوا صفاء اللغة ، لذلك حاولوا أن يطعنوا في القرآن ، وادعى بعض من أغبيائهم أن في القرآن لحنًا <sup>(١)</sup> ، قالوا ذلك وهم الذين تعلموا اللغة المصنوعة ، رغم أن من استقبلوا القرآن من رسول الله ﷺ وهم أهل الفصاحة، لم يجدوا في القرآن لحنًا ، ولو أنهم أخذوا لحنًا على القرآن في زمن نزوله : لاعلنوا هذا اللحن : لأن القرآن نزل باللغة الفصيحة على أمة فصيحة ، بليغة ، صناعتها الكلام.

ولأمر ما أبقي الله سبحانه صنائيد <sup>(٢)</sup> قريش وصنائيد العرب على كفرهم لفترة ، ولو أن أحداً منهم اكتشف لحنًا في القرآن لأعلنه.

وذلك حتى لا يقولن أحد أنهم قد آمنوا فستروا على القرآن عيوباً

(١) لحن لفلان يلحن لحنًا: كَلَّمَهُ كلاماً يفهمه دون غيره لما فيه من تورية، أو تمريض، أو إشارة خفية. قال تعالى: ﴿وَلَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ (٢٢) [محمد] أي: إنك ستعرف المنافقين في أسلوبهم في القول بإخفائه وتحريفه، أي: ستعرفهم في خطأ القول وزلات اللسان. ولحن في كلامه: أخطأ. وفي «المعجم الوسيط»: «لَحْنُ الْقَوْلِ: فحواه، وما يفهم السامع المتأمل فيه من وراء لفظه، ويمكن أن يفسر بذلك أيضاً. والجراد باللحن في اللغة: الخطأ فيها والخروج عن قواعدها. [القاموس القويم: مادة (لحن) بتصرف].»

(٢) الصنديد: القديد. والجمع: صنائيد. ويقال: يوم حامى الصنائيد: شديد الحر. ويقال: برد صنديد،

وريج صنديد، ومطر صنديد، أي: شديد. وصنائيد القدر: دواهيها. [المعجم الوسيط: مادة

(صندد)] بتصرف.

فيه. ولو كان عند أحدهم مَهْمَزٌ لما منعه كفره أن يبين ذلك ، فهل يمكن لهؤلاء المستشرقين الذين عاشوا في القرن العشرين أن يجدوا لحنًا في القرآن ، وهم لم يمتلكوا ناصية اللغة ملكة ، بل تعلموها صناعة، والصنعة عديمة الإحساس الذوقى.

ومثال ذلك: عدم فهم هؤلاء لاسرار اللغة فى الآية التى نحن بصدد خواطرنّا عنها ، فالحق سبحانه يقول:

﴿وَأِنْ كُلًّا لَّمَّا لَيُؤْفِقْنَهُمْ <sup>(١)</sup> رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ <sup>(٢)</sup>﴾

[هود]

أى: أن كل واحد من الذين صدّقوا أو من الذين كذّبوا ، له توفية فى الجزاء ، للطائع الثواب ؛ وللعاصى العقوبة.

وكلمة «إِنْ» - كما نعلم - هى فى اللغة وحرف توكيد، فى مقابلة مَنْ يَنْكَرُ ما يَجِىء بعدها.

والإنكار - كما نعلم - مراحل ، فإذا أردت أن تخبر واحداً بخبر لا يعلمه ، فأنت تقول له مثلاً: «زارنى فلان بالأمس».

وهكذا يصادف الخبر ذهن المستمع الخالى، فإن قال لك: «لكن فلاناً كان بالأمس فى مكان آخر»، فأنت تقول له: «إن فلاناً زارنى بالأمس».

(١) وفى الشيء وفى وفياً: تم ولم يذهب منه شيء. وفى الرجل بالعهد وفاء. قام به وفذه. فهو واف. واسم التفضيل أوفى. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ.. <sup>(١)</sup>﴾ [التوبة] أى. أن الله أعظم وفاءً ممن سواه. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ يَجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوَّلَ <sup>(٢)</sup>﴾ [النجم] أى. الجزاء الاثم الاكمل. وفى إليه حقه: أوصله إليه كاملاً. ويتعدى هذا الفعل لمفعولين فيقال: وفّاه حقه. واسم الفاعل: موف [اسم منقول]. قال تعالى: ﴿.. وَإِنَّا لَمَوْفُونَ بِمَا نَعْتِدُهُمْ خَيْرَ مَقْدُورٍ <sup>(٣)</sup>﴾ [هود] [القاموس القويم : مادة (وفى)].



وحين يرد عليك السامع: «لكننى قابلت فلاناً الذى تتحدث عنه أمس فى المكان الفلانى».

وهنا قد تؤكد قولك: «والله لقد زارنى فلان بالأمس».

إذن: فانت تأتى بالتوكيد على حسب درجة الإنكار<sup>(١)</sup>.

وحين يؤجل الحق سبحانه العذاب لبعض الناس فى الدنيا ، قد يقول غافل: لعل الله لم يعد يعذب أحداً.

ولذلك بين الحق سبحانه مؤكداً أن الحساب قادم ، لكل من الطائع المصدق ، والعاصى المكذب ، فقال سبحانه:

﴿ وَإِنْ كَلَّا لَمَا يُؤْفِقِيهِمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ .. (١١١) ﴾ [هود]

والذين لم تستقم لهم اللغة كملكة ، كالمستشرقين ، وأخذوها صناعة ، توقفوا عند هذه الآية وقالوا: لماذا جاء بالتنوين فى كلمة «كلّا» ؟

وهم لم يعرفوا أن التنوين<sup>(٢)</sup> يغنى عن جملة ، فساعة تسمع أو تقرأ التنوين ، فاعلم أنه عوضٌ عن جملة ، مثل قول الحق سبحانه:

(١) إن التوكيد المنكر من فنون البلاغة، يقول الإمام السيوطى فى الإتقان (١٩٢/٣): «ويتقوت التاكيد بحسب قوة الإنكار وضعفه، كقوله تعالى حكاية عن رسل عيسى إذ كذبوا فى المرة الأولى ﴿إِنَّا إِلَهُكُمْ مُرْسَلُونَ (٣١)﴾ [يس] ، فاكد بأن وإسمية الجملة . وفى المرة الثانية ، ﴿فَالْوَا رَبَّنَا يَلُومُنَا إِنَّا إِلَهُكُمْ لَمُرْسَلُونَ (٣٢)﴾ [يس] ، فاكد بالقسم وإن واللام وإسمية الجملة، لمبالغة المخاطبين فى الإنكار حيث قالوا: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٢)﴾ [يس]».

(٢) التنوين فى اللغة : هو نون ساكنة تتبع آخر الاسم لفظاً وتفارقة خطاً، وهو أنواع منها تنوين التمكين والتذكير والعرض والترنم . [راجع : شرح الأشموني على الألفية (١ / ١٨)].

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ <sup>(١)</sup> وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ <sup>(٢)</sup> ﴾ [الواقعة]

وهكذا، في الآية التي نحن بصدد خواطرنّا عنها توجّز أن كلّاً من الطائعين المؤمنين ، والعاصين الكافرين ، سوف يلقى جزاءه ثواباً أو عقاباً.

أما قوله سبحانه: ﴿لَمَّا﴾ في نفس الآية، فنحن نعلم أن «لما» تستعمل في اللغة بمعنى «الحين» و«الزمان»، مثل قول الحق سبحانه:

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا <sup>(٣)</sup> وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ <sup>(٤)</sup>﴾ [الاعراف]

ومثل قوله سبحانه:

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ <sup>(٥)</sup> يُوسُفَ .. <sup>(٦)</sup>﴾

[يوسف]

أى: حين فصلت العير وخرجت من مصر قال أبوهم: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ .. <sup>(٦)</sup>﴾ .

(١) الحلقوم: الحلق . والحلقوم علمياً الآن: هو تجويف خلف تجويف الفم، وفيه ست فتحات: فتحة الفم، وفتحتا المنخرين، وفتحتا الأذنين، وفتحة الحنجرة؛ ويمر الطعام والشراب من الحلقوم إلى المريء، أما النفس فهو يمر من الحلقوم إلى الحنجرة. قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ <sup>(١)</sup>﴾ [الواقعة] كناية عن الاحتضار للموت، أى: بلغت الروح الحلقوم وهي خارجة من الجسد. [القاموس القويم: مادة (ح ل ق)].

(٢) الميقات: الوقت المحدد لعمل من الأعمال. قال تعالى: ﴿لَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً .. <sup>(٢)</sup>﴾ [الاعراف] أى: تم الزمن المحدد لمناجاة ربه. وقال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ <sup>(٣)</sup>﴾ [الدخان] . أى: وقتهم المحدد لبعثهم وحسابهم. والجمع: موافيت. [القاموس القويم: مادة (و ف ت)].

(٣) فصل عن المكان: جاوزه. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ .. <sup>(٣)</sup>﴾ [يوسف] أى: خرجت وجاوزت المدينة. [القاموس القويم: مادة (ف ص ل)].

(٤) قوله: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ .. <sup>(٤)</sup>﴾ [يوسف] أى: ريحاً تحمل رائحته، أو الريح بمعنى الرائحة، أى: رائحته. [القاموس القويم ١/ ٢٨٠].

و«لما» تأتي أيضاً للنفي مثل قوله سبحانه:

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. (١٤)﴾ [الحجرات]

أى: أن الإيمان لم يدخل قلوبهم بعد، وتحمل كلمة «لما» الإذن بأن الإيمان سوف يدخل قلوبهم بعد ذلك.

وحين تستخدم كلمة «لما» في النفي تكون «حرفاً» مثلها مثل كلمة «لم» ، ولكنها تختلف عن «لم» لأن «لم» تجزم الفعل المضارع ، ولا يتصل نفيها بساعة الكلام ، بل بما مضى ، وقد يتغير الموقف. أما «لما» فيتصل نفيها إلى وقت الكلام ، وفيها إيذان بأن يحدث ما تنفيه.

وهكذا نفهم أن قول الحق سبحانه:

﴿وَإِنْ كَلَّا لَمَا يُؤْفِكُهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالُهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١)﴾ [هود]

أى: أن كلا من الطائع والعاصي سيوفى حسابه وجزاءه ثواباً أو عقاباً ، حين يأتى أجل التوفية ، وهو يوم القيامة.

وقد جاءت «لما» لتخدم فكرة العقوبة التي كانت تأتي في الدنيا ، وشاء الله سبحانه أن يؤجل العقوبة للكافرين إلى الآخرة ، وأنسب حرف للتعبير عن ذلك هو «لما».

وحين تقرا ﴿لُؤْلُؤُهَا﴾ تجد اللام ، وهى لام القسم بأن الحق سبحانه سيوفىهم حسابهم إن ثواباً أو عقاباً.

(١) الخبير : من أسماء الله الحسنى. قال تعالى: ﴿... وَهُوَ الْعَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٥)﴾ [الأنعام] . وخبير الأمر، وخبير بالامر، كعلمه، وعلم به - وزناً ومعنى - فهو به خبير والخبير. العالم ببواطن الأمور. قال تعالى: ﴿... فَاسْتَلْ بِهِ خَبِيراً (٢٩)﴾ [الفرقان] . [القاموس القويم : مادة (خبير)].

والله سبحانه بما يفعل العباد خبير ، وهو سبحانه يعلم أفعال العبد قبل أن تقع ، ولكنها حين تقع لا يمكن أن تُنسى أو تذهب أدراج الرياح ؛ لأن من يعلمها هو «الخبير» صاحب العلم الدقيق ، والخبير يختلف عن العالم الذي قد يعلم الإجماليات ، لكن الخبير هو المدرب على التخصص.

ولذلك غالباً ما تأتي كلمتا «اللطيف والخبير» معاً ؛ لأن الخبير هو من يعلم مواقع الأشياء ، واللطيف هو من يعرف الوصول إلى مواقع تلك الأشياء.

ومثال هذا: أنك قد تعرف مكان اختباء رجل في جبل مثلاً ، هذه المعرفة وهذه الخبرة لا تكفيان للوصول والنفوذ إلى مكانه، بل إن هذا يحتاج إلى ما هو أكثر ، وهو الدقة واللفظ.

والحق سبحانه جاء بهذا الحديث عن موسى عليه السلام ليسلّي رسوله ﷺ، لأن بعضاً من الكافرين برسالة محمد عليه الصلاة والسلام قالوا: ما دام الله يأتي بالعذاب ليبيد من يكفرون برسله ، فلماذا لا يأتي لنا العذاب<sup>(١)</sup>؟

ولهذا جاء ما يخبر هؤلاء بأن الحق سبحانه سيوقع العقوبة على الكافرين، لا محالة ، فإياك أن يخادعوك - يا رسول الله - في شيء.

(١) إن وعد الله له توقيته المراد له مصداقاً لقوله تعالى : ﴿وَلَا تَحْزَنْ أَلِلهُ غَالِبٌ عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْغُرُ لَهُ الْأَشْجَارُ﴾ (١٦) [إبراهيم] وقوله : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٧) وأتلى لهم (إِنْ كُنْتُمْ مِنْكُمْ) [القم]

أو يساوموك على شيء ، مثلما قالوا : نعبد إلهك سنة ، وتعبد آلِهتنا سنة <sup>(١)</sup> .

وقد سبق أن قطع الحق سبحانه هذا الأمر بأن أنزل:

﴿ قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) ﴾ [الكافرون]

وهذا هو قطع العلاقات التام في تلك المسألة التي لا تقبل المساومة، وهي العبادة.

ونحن نعلم أن العبادة أمر قلبي، لا يمكن المساومة فيه، وقطع العلاقات في مثل هذا الأمر أمر واجب؛ لأنه لا يمكن التفاوض حوله؛ فهي ليست علاقات ظرف سياسي، ولكنه أمر ربّاني ، يحكمه الحق سبحانه وحده.

وقول الحق سبحانه:

﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) ﴾ [الكافرون]

هذا القول الكريم يشعر من يسمعه ويقرؤه أنهم سيظلون على

(١) ذكر الواحدي في أسباب النزول (ص ٢٦٦) «أن رهطاً من قريش قالوا: يا محمد هلم اتبع ديننا وننتج دينك تعبد آلِهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه واخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يديك قد شركت في أمرنا واخذت بحظك» فقال: «مأذ الله أن أشرك به غيره، فأنزل الله تعالى: ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) ﴾ [الكافرون] إلى آخر السورة، ففدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملاء من قريش فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة . فأيسوا منه عند ذلك».

عبادة غير الله ، وأن محمداً سيظل على عبادة الله ، وأن كلمة «الله» ستعلو ؛ لأن الحق سبحانه يأتي بعد سورة «الكافرون» بقوله تعالى:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۚ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝﴾ [النصر]

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝﴾

والاستقامة معناها: عدم الميل أو الانحراف - ولو قيد شعرة - وهذا أمر يصعب تصقيقه ؛ لأن الفاصل بين الضدين ، أو بين المتقابلين هو أدق من الشعرة في بعض الأحيان.

ومثال ذلك: حين ترى الظل والضوء ، فأحياناً يصعد الظل على الضوء ، وأحياناً يصعد الضوء على الظل ، وسنجد صعوبة في تحديد الفاصل بين الظل والنور ، مهما دقت المقاييس.

(١) يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿إِذَا جَاءَكَ نَصْرُ اللَّهِ - يَا مُحَمَّد - عَلَى قَوْمِكَ مِنْ قُرَيْشٍ، وَالْفَتْحُ: فَتْحُ مَكَّةَ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ: مِنْ صَنُوفِ الْعَرَبِ وَقِبَائِلِهَا يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا: أَي: فِي دِينِ اللَّهِ الَّذِي ابْتَعَنَّا بِهِ. أَفْوَاجًا: يَعْنِي: زُمَرًا (جَمَاعَاتٍ) ، فَوْجًا فَوْجًا ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ: أَي: فَسَبِّحْ رَبَّكَ وَعَظِّمِهِ بِحَمْدِهِ وَشُكْرِهِ، وَاسْتَغْفِرْهُ: وَسَلِّهِ أَنْ يَغْفِرَ ذُنُوبَكَ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا: أَي: ذَا رَجُوعٍ لِعِبْدِهِ الْمَطِيعِ إِلَى مَا يَحِبُّ. [مختصر تفسير الطبري - بتصرف].

(٢) استقام الشيء: خلا من العوج. واستقام العزم: سلك الطريق القويم. قال تعالى ﴿فَمَا اسْتَظَمُوا لَكُمْ فَاسْتَظَمُوا لَهُمْ ۖ.. (٢)﴾ [التوبة] أَي: حَافِظُوا عَلَى الْوَفَاءِ لَهُمْ بِعَهْدِكُمْ مَا بَادَمُوا هُمْ بِحَافِظُونَ عَلَى عَهْدِكُمْ، وَلَمْ يَنْكُثُوا الْعَهْدَ مَعَكُمْ. [القاموس القويم: مادة (ظم)].

(٣) ظفأ يظفأ ظفواناً وظفؤى: فعل واوى، بمعنى: تجاوز الحد في الجور والتعدي. وظفى يظفى وظفياً: فعل يافى، بمعنى: تجاوز الحد. قال تعالى ﴿الَّذِينَ ظَفُّوا فِي الْبِلَادِ (١١)﴾ [الفجر]. أَي: ظَلَمُوا وَتَجَاوَزُوا الْحَدَّ فِي الْعَصِيَانِ. [القاموس القويم: مادة (ظفى)].

## سُورَةُ هُودٍ

٦٧٠٩

وهكذا يصبح فصل الشيء عن تقيضه صعباً ، ولذلك فالاستقامة أمر شاق للغاية.

وساعة أن نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : «شيببتي هود وأخواتها»<sup>(١)</sup>.

ولولا أن قال الحق سبحانه في كتابه الكريم:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ <sup>(١)</sup> .. (١٦) ﴾ [التغابن]

فلولا نزول هذه الآية لتعب المسلمون تماماً ، وقد أنزل الحق سبحانه هذا القول بعد أن قال:

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ <sup>(٢)</sup> .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران]

وعز ذلك على صحابة رسول الله ﷺ ، فأنزل الحق سبحانه ما يخفف به عن أمة محمد ﷺ بأن قال سبحانه:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ <sup>(١)</sup> .. (١٦) ﴾ [التغابن]

إنن: فالامر بالاستقامة هو أمر بدقة الأداء المطلوب لله أمراً ونهياً ، بحيث لا تميل إلى جهة دون جهة.

(١) عن أبي جحيفة قال: قالوا يا رسول الله نراك وقد شبت؟ قال: «شيببتي هود وأخواتها» أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤ / ٣٥٠) وأورده الهيثمي في المجمع (٧ / ٢٧) من حديث عقبة بن عامر وعزاه للطبراني وقال رجاله رجال الصحيح، وأخوات سورة هود التي شيبب رسول الله ﷺ هي سورة الواقعة والمرسلات والنبا والتكوير. انظر الترمذي في سننه (٣٢٩٧).

(٢) اتقى: أصله (أتقى) على وزن (افتعل) ، قلبت واو الفعل تاء. وادغمت في تاء الافتعال. واتقى الله: تجنب ما يغضبه، وما يسبب عذابه، وذلك بطاعة الله، وبالبعد عن معصيته. قال تعالى: ﴿ .. لَكُمْ نُفُوسٌ (٢٣) ﴾ [البقرة] أي: تحفظون أنفسكم من عذاب الله بطاعته وترك معصيته. [القاموس القويم: مادة (وقى)]

(٣) التمسك: الاتكاء والتقوى. وأصلها: وقية، قلبت الواو تاء، والياء ألفاً. وجمعها: تقى. قال تعالى: ﴿ إِنْ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا <sup>(١)</sup> .. (١٥) ﴾ [آل عمران] . أي: [لا أن تخافوا منهم شراً. وتحذروا منهم مكروهاً. لا تريدون لأنفسكم. [القاموس القويم: مادة (وقى)].

وهكذا تطلب الاستقامة كامل اليقظة وعدم الغفلة.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ .. ﴾ (١١٢)

[هود]

وهذا إيذان بالأمر بياس رسول الله ﷺ من وقوف صناديد قريش أمام دعوته ﷺ ؛ لأنهم سيتساقطون يوماً بعد يوم.

وقول الحق سبحانه:

﴿ .. وَلَا تَطْفَرُوا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١١٢)

[هود]

يعنى ألا تتجاوز الحد ، فالطغيان هو مجاوزة الحد.

وهكذا نعلم أن الإيمان قد جعل لكل شيء حداً ، إلا أن حدود الأوامر غير حدود النواهي ؛ فالحق سبحانه إن أمرك بشيء ، فهو يطلب منك أن تلتزمه ولا تتعده.

وقال الحق سبحانه:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا <sup>(١)</sup> .. ﴾ (٢٢٩)

[البقرة]

وهذا القول في الأوامر ، أما في النواهي فقد قال سبحانه:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا <sup>(٢)</sup> .. ﴾ (١٨٧)

[البقرة]

(١) اعتدى : ظلم وجار. قال تعالى ﴿ لِمَنْ أَعَدُّوا عَلَيْكُمْ فَاغْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدُّوا عَلَيْكُمْ .. ﴾ (١٩١)

[البقرة] أى : فعاقبوه على اعتدائهم. وسُمِّي عقاب المعتدى اعتداءً للمشاكلة. وعدا يعدو. عدواً : جرى. وعدا عليه عدواً وعدواناً : ظلمه وحال عليه. مثل : اعتدى عليه. والراد بعدم الاعتداء هنا عدم تجاوز حدود الله التي نهى سبحانه عن اقترافها. [القاموس القويم : مادة (عدا) بتحريف]

(٢) قربت الأمر : اقرب قرباناً وقرباً : فعلته أو دانيتها. ومنه قول الله تعالى ﴿ وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْنَى .. ﴾ (٢٤)

[الإسراء] وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ .. ﴾ (٣٣) [البقرة] أى : لا تاتياها ولا تلمسها ولا تاكلها منها والنهي من باب أولى عن الشيء. وكذلك : ﴿ وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْنَى .. ﴾ (٣٧) [الإسراء] فإنه نهى عن القرب منه. وهو نهى عن اللمس وعن القبلة ونحوها مما يقرب الإنسان من الوقوع فيه.

[القاموس القويم : مادة (ق ر ب)] .



أى: أن تبعد عنها تماماً.

ويقول رسول الله ﷺ : «من وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى<sup>(١)</sup> يوشك أن يرتع<sup>(٢)</sup> فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه»<sup>(٣)</sup>.

وحين ينهانا الحق سبحانه عن الاقتراب من شيء فهذه هى استقامة الاحتياط ، وهى قد تسمح لك بأن تدخل فى التحريم ما ليس داخلاً فيه ، فمثلاً عند تحريم الخمر ، جاء الأمر باجتنابها أى: الابتعاد عن كل ما يتعلق بالخمر حتى لا يجتمع المسلم هو والخمر فى مكان.

وجعل الحق سبحانه أيضاً الاستقامة فى مسائل الطاعة ، وهو سبحانه يقول:

﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا<sup>(١)</sup> ..﴾ (١٤١)

[الأنعام]

(١) قال الفروى فى شرحه: «معناه أن الملوك من العرب وغيرهم يكون لكل ملك منهم حمى يحميه عن الناس ويمنعهم دخوله، فمن دخله أوقع به العقوبة، ومن اعتاط لنفسه لا يقارب ذلك الحمى، خوفاً من الوقوع فيه، (٣/ ١٢٢٠) ط. فؤاد عيد الباقي.

(٢) الرتع، الأكل بشره. والرتع فى الخصب هو الرعى فيه. وأرتع القوم: وقعوا فى خصب ورعوا. [اللسان : مادة رتع].

(٣) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥١) ومسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير.

(٤) أسرف : جاوز القصد والاعتدال. فهو سرف، ويكون فى المال وفى غيره. قال تعالى ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾ (١٧) [الفرقان] أى: معتدلاً فى إنفاق المال. وقال تعالى: ﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ..﴾ (٥٣) [الزمر] أى: جاوزوا القصد والاعتدال فى أمور كثيرة، فأكثروا الذنوب على أنفسهم. وقال تعالى ﴿فلا يسرف فى القتل ..﴾ (٢٢) [الإسراء] أى: لا يقتل أكثر من القاتل، كما كانوا يفعلون فى الجاهلية. فيقتلون بالشريف عدداً من قبيلة القاتل. وقال تعالى: ﴿ولا تطعوا أمر المفسرين﴾ (١٥١) [الشعراء] والإسراف يكون فى أمور كثيرة، لا فى إنفاق المال وحده، ومن حكم الصالحين: لا إسراف فى الخير. ولا خير فى الإسراف. [القاموس المفيد : مادة (سرف)].

والنهي عن الإسراف هنا ؛ ليعصمنا الحق سبحانه من لحظة نتذكر فيها كثرة ما حصدنا ، ولكننا لا نجد ما نقيم به الاود <sup>(١)</sup> فقد يسرف الإنسان لحظة الحصاد لكثرة ما عنده ، ثم تأتي له ظروف صعبة فيقول: «يا ليتني لم أعط». وهكذا يعصمنا الحق سبحانه من هذا الموقف.

ويقول رسول الله ﷺ : «سدّدوا» <sup>(٢)</sup> وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحدكم عمله الجنة ، وأن أحب الأعمال أدومها إلى الله وإن قل» <sup>(٣)</sup> ؛ لأن الدين قوى متين <sup>(٤)</sup> ، وإن يشاد الدين أحد إلا غلبه <sup>(٥)</sup> .

وهكذا نجد الحق سبحانه ونجد رسوله ﷺ أعلم بنا ، والله لا يريد منا عدم الطفيان من ناحية المحرمات فقط ، بل من ناحية الحل أيضاً، فيوصينا سبحانه بالرفق واللين والهدوء ، وأن يجعل الإنسان لنفسه مكنة الاختيار.

ومثال ذلك: أن يلزم الإنسان نفسه بعشرين ركعة كل ليلة ، وهو يلزم نفسه بذلك نذراً لله تعالى في ساعة صفاء ، لكنه حين يبدأ في مزاوله ذلك القدر يكتشف صعوبته ، فتكرمه نفسه.

(١) الاود : أي ما يكون قوتاً ضرورياً له، فتقوم به حياته.

(٢) سد الشيء سداً وسدوداً : استقام . يقال : سد السهم . وسد فلان أصاب قوله وفعله . وسد قوله وقطعه . استقام وأصاب . فهو سديد . والسداد : الاستقامة والقصد . والصواب من القول والفعل . [المعجم الوسيط : مادة (سد) بتصريف]

(٣) متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٦٣) ومسلم في صحيحه (٢٨١٦) عن أبي هريرة .

(٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق» أخرجه أحمد في مسنده (١٩٩/٣).

(٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا ويسروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة» أخرجه النسائي في سننه (١٢٢/٨).

ولذلك يأمرنا الحق سبحانه بالاستقامة وعدم الطغيان : استقامة في تحديد المأمور به والمنهى عنه ؛ ولذلك كان الاحتياط في أمر العبادات أوسع لمن يطلب الاستقامة.

ويقول رسول الله ﷺ : «الحلال بَيْنٌ»<sup>(١)</sup> ، والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبها لا يعلمون كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ<sup>(٢)</sup> لدينه وعرضه»<sup>(٣)</sup>.

ولذلك يطلب الشارع الحكيم سبحانه منا في الاحتياط أن نحتاط مرة بالزيادة ، وأن نحتاط مرة بالنقص ، فحين تصلى خارج المسجد الحرام، يكفيك أن تكون جهتك الكعبة ، أما حين تصلى في المسجد الحرام ، فأنت تعلم أن الكعبة قسمان: قسم بنايته عالية ، وقسم اسمه «الحطيم»<sup>(٤)</sup> وهو جزء من الكعبة ، لكن نفقتهم أيام رسول الله ﷺ قد قصرت ؛ فلم يبنوه<sup>(٥)</sup>.

لذلك فأنت تتجه ببصرك إلى البناء العالى المقطوع بكعبيته ، وهذا هو الاحتياط بالنقص.

(١) بَيْنٌ: صيغة مبالغة من البيان: أى: شديد الوضوح.

(٢) استبرأ من اللّين والذنب: طلب البراءة منه. واستبرأ الشيء: قلص به حتى ليقطع الشبهة عنه. [المعجم الوسيط : مادة (برأ)].

(٣) متفق عليه. أخرجه البخارى في صحيحه (٢٠٥١) ، ومسلم في صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير.

(٤) الحطيم: الجدار. وهو هنا جدار الكعبة. قال الأزهري. الذى فيه المزاب، وإنما سمي حطيماً لأن البيت رفع وترك ذلك معطوماً. [اللسان ، مادة : حطم].

(٥) عن عائشة رضى الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الجدر (هو حجر الكعبة) أمن البيت هو؟ قال: نعم. قلت: فلم لم يدخلوه فى البيت؟ قال: إن قومك قصرت بهم النفقة. قلت: فما شأن بابيه مرتفعاً؟ قال: فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا. ولولا أن تذكر قلوبهم لنظرت أن أدخل الجدر فى البيت وأن ألزق بابيه بالأرض، متفق عليه. أخرجه البخارى في صحيحه (١٥٨٤) ومسلم في صحيحه (١٣٣٢ - رواية رقم ١٠).

أما الاحتياط بالزيادة ، فمثال ذلك: هو الطواف ، وقد يزدحم البشر حول الكعبة ، ولا تسمح ظروفك إلا بالطواف حول المسجد .  
وهكذا يطول عليك الطواف ، لكنه طواف بالزيادة، فعند الصلاة يكون الاحتياط بالنقص، أما عند الطواف فيكون الاحتياط بالزيادة.  
وهكذا نجد الاحتياط هو الذى يحدد معنى الاستقامة.

وَيُنْهِى الْحَقُّ سُبْحَانَهُ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿ .. إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١١٢ ﴾ [هود]

وفى الآية السابقة قال سبحانه : ﴿ .. إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١١١ ﴾

[هود]

وعلمنا معنى الخبير ، أما المقصود بالبصير هنا فهو أنه سبحانه يعلم حركة العبادة؛ لأن حركة العبادة مرئية.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ  
وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ  
لَا تُنصَرُونَ ١١٣ ﴾

(١) ركن يركن ركنًا وركنًا: مال إليه وسكن. وركن الشيء: جانبه الأقوى. قال تعالى: ﴿ .. أَوْ أَرَى إِلَى رُكْنٍ ضَخِيمٍ ٨٦ ﴾ [هود] أى: الجأ إلى حصن قوى يحمينى، أو إلى رجل قوى يحمينى وينصرنى عليكم، كأنه ركن مستنقح حصين. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ .. ٨٧ ﴾ [هود] أى: لا تميلوا إليهم وتعتمدوا عليهم. وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ لَا أَنْ تَحْتَفَظَ لَفَدَّ كَبَدْتُ تَرْكُنَ إِلَيْهِمْ ذَيْفًا قَلِيلًا ٧٧ ﴾ [الإسراء] أى: تميل إليهم. [القاموس القويم: مادة (ركن)].

والكافرون - كما نعلم - قد عرضوا على رسول الله ﷺ أن يعبد  
آلهتهم سنة ، وأن يعبدوا هم الله سنة ، ولكن الحق سبحانه قطع  
وفصل في هذا الامر.

ويأتى هنا تأكيد هذا الامر ؛ فيقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا <sup>(١)</sup> .. ﴾ (١١٣) [هود]

والركون هو الميل والسكون والمودة والرحمة. وأنت إذا ركنت  
للاظالم ؛ أدخلت في نفسه أن لقوته شأنا في دعوتك.

والركون أيضاً يعنى: المعاملة ، وإعانة هذا الظالم على ظلمه ، وأن  
تزيين للناس ما فعله هذا الظالم.

وأفة الدنيا هي الركون للظالمين ؛ لأن الركون إليهم إنما يشجعهم  
على التماذى في الظلم ، والاستشراء فيه. وأدنى مراتب الركون إلى  
الظالم ألا تمنعه من ظلم غيره. وأعلى مراتب الركون إلى الظالم أن  
تزين له هذا الظلم ؛ وأن تزين للناس هذا الظلم.

وأنت إذا استقرات وضع الظلم في العالم كله لوجدت أن آفات  
المجتمعات الإنسانية إنما تنشأ من الركون إلى الظالم ؛ لكنك حين  
تبتعد عن الظالم ، وتقاطعته أنت ومن معك ؛ فلسوف يظن أنك لم  
تُعرض عنه إلا لأنك واثق بركن شديد آخر ؛ فيتزلزل في نفسه ؛  
حاسباً حساب القوة التي تركز إليها ؛ وفي هذا إضعاف لنفوذه ؛ وفي  
هذا عزلة له وردع ؛ لعله يرتدع عن ظلمه.

(١) الظلم . مجاوزة الحد ومفارقة الحق أو هضمه وانتقاصه، وهو ضد العدل. قال تعالى ﴿ وَمَا  
ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (١١٥) [النحل] والظالم اسم فاعل يقول الحق. ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ  
.. ﴾ (٣٥) [الكهف]. والظلام صيغة مبالغة يقول الحق: ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَفُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (٩١) [إبراهيم]  
وظلام صيغة مبالغة يقول الحق: ﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (٣٩) [ق] ، ومظلوم اسم مفعول يقول  
الحق: ﴿ وَمَنْ قُلٌ مَّظْلُومًا .. ﴾ (٣٢) [الإسراء] [القاموس القويم ١/ ٤١٦ ، ٤١٧].

والركون للظالم إنما يجعل الإنسان عرضة لأن تمسه النار بقدر آثار  
هذا الركون ؛ لأن الحق سبحانه يقول:  
﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَعِمَسْكُمْ <sup>(١)</sup> النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ  
أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصرون <sup>(١١٣)</sup> ﴾ [هود]

فانتم حين تركنون إلى ظالم إنما تقعون في عداة مع منهج الله ؛  
فيختلئ الله عنكم ولا يتصرکم احد ؛ لأنه لا ولي ولا ناصر إلا الله تعالى.  
ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَلَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ  
يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكِرِينَ <sup>(٢)</sup> ﴾

وهذا أمر بالخير ؛ يوجهه الله سبحانه إلى رسوله ﷺ .  
ونحن نلاحظ في هذه الآيات من سورة هود أنها تحمل أوامر ونواهي ؛  
الأوامر بالخير دائماً ؛ والنواهي عن الشر دائماً.  
ونلاحظ أن الحق سبحانه قال:

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ .. <sup>(١١٦)</sup> ﴾ [هود]

(١) مَسَّ يَمَسُّه مَسًّا : أجرى يده عليه من غير حائل.

ومسسه النار: أصابته، وياشورت جلده؛ فحذته.

ومسه المرض - على المجاز - : أصابه. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الشُّرَكَاءُ بِرْسًا <sup>(٨٥)</sup> ﴾ [الإسراء].

[القاموس القويم : مادة (مس)].

(٢) زَلَفَ إِلَيْهِ يَزْلِفُ زَلْفَةً وَزَلْفَى: قَرَّبَ وَنَدَى. قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زُلِفَ <sup>(١٢٧)</sup> .. ﴾ [الملك] أي : قريباً .

وهو وصف بالمصدر بلفظه، ويعرب حالاً، أي: ذا قرب، أي: قريباً قريباً شديداً.

والزلفى: القرب والمنزلة والدرجة. قال تعالى: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالْأَيْمَانِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ <sup>(١٢٧)</sup> ﴾

[سبا] أي: قريباً، مفعول مطلق مرادف . لو تقربكم درجة ومنزلة قريبة منا. والزلفة: الحلاقة من الليل.

وجمعها: زلف. قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ .. <sup>(١١٦)</sup> ﴾ [هود] أي: أوقافاً وساعات

من الليل. قيل: في أوله. وقيل: في أي وقت فيه. [القاموس القويم : مادة (زلف)].

## سُورَةُ هُودٍ

٦٧١٧

ثم وَجَّهَ النهى للامة كلها: ﴿وَلَا تَطْغَوْا...﴾ (١١٢) [هود] ولم يقل: «فاستقم ولا تطغى» لان الامر بالخير يأتى للنبي ﷺ وامته معه ؛ وفى النهى عن الشر يكون الخطاب موجهاً إلى الامة ، وفى هذا تأكيد لرفعة مكانة النبي ﷺ .

ونرى نفس الامر حين يوجه الحق سبحانه الحديث إلى امة محمد ﷺ فيقول سبحانه وتعالى:

﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا...﴾ (١١٣) [هود]

ولم يقل: «ولا تركن إلى الذين ظلموا».

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنها عنها يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ ولامته:

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ...﴾ (١١٤) [هود]

والإقامة تعنى: أداء المطلوب على الوجه الاكمل ، مثل إقامة البنين ؛ وأن تجعله مؤدياً للغرض المطلوب منه.

ويقال: «أقام الشيء» أى: جعله قائماً على الامر الذى يؤدى به مهمته.

وقول الحق سبحانه:

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيْ النَّهَارِ...﴾ (١١٤) [هود]

أى: نهايته من ناحية ، ونهايته من الناحية الاخرى ؛ لان طرف الشيء هو نهايته.

(١) الطرف - بفتح الراء - : الجانب، ومتنهى الشيء. قال تعالى: ﴿لِنَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ (١١٧) [آل عمران] أى: يهلك جانباً منهم، أى: طائفة منهم. وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيْ النَّهَارِ...﴾ (١١٤) [هود] أى: صباحاً ومساءً والمراد: جميع الاوقات. ويؤيده قوله تعالى: ﴿...وَمِنَ آثَارِ اللَّيْلِ فَسَبَّحْهُ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْهَوْنِ﴾ (١٣٠) [طه] أى: جميع الاوقات [القاموس الموفى، مادة: طرف].

وتتحدد نهاية الطرفين من منطقة وسط الشيء ، فالوسط هو  
الفاصل بين الطرفين ؛ فما على يمين الوسط يعد طرفاً ؛ وما على  
يسار الوسط يعد طرفاً آخر ؛ وكل جزء بعد الوسط طرف.

وعادةً ما يعد الوسط هو نقطة المنتصف تماماً ، وما على يمينها يقسم  
إلى عشرة أجزاء ، وما على يسارها يقسم إلى عشرة أجزاء أخرى ، وكل  
قسم بين تلك الأجزاء التي على اليمين والتي على اليسار يعد طرفاً.

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ ۖ ۝ (١١٤) ﴾ [هود]

يقتضى أن تعرف أن النهار عندنا إنما نتعرف عليه من بواكير الفجر  
الصادق ، وهذا هو أول طرف نقيم فيه صلاة الفجر ، ثم يأتي الظهر؛  
فإن وقع الظهر قبل الزوال <sup>(١)</sup> حسبناه من منطقة ما قبل الوسط ، وإن  
كان بعد الزوال حسبناه من منطقة ما بعد الوسط.  
وبعد الظهر هناك العصر ، وهو طرف آخر <sup>(٢)</sup>.

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَزَلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۖ ۝ (١١٤) ﴾ [هود]

يقتضى منا أن نفهم أن كلمة ﴿زَلَفًا﴾ هي جمع: زلفة، وهي مأخوذة  
من: أزلفه ، إذا قرَّبه.

والجمع أقله ثلاثة ؛ ونحن نعلم أن لنا في الليل صلاة المغرب ، وصلاة

(١) الزوال: الوقت الذي تكون فيه الشمس في كبد السماء. [المعجم الوسيط : مادة (زول)].

(٢) قال مجاهد: الطرف الأول صلاة الصبح، والطرف الثاني صلاة الظهر والعصر، واختاره ابن  
عطية. وقيل: الطرفان الصبح والمغرب. قاله ابن عباس والحسن. وعن الحسن أيضاً: الطرف الثاني  
العصر وحده. وقاله قتادة والضحاك. نقله القرطبي في تفسيره (٢٤٢٨/٤).



## سُورَةُ هُودٍ



العشاء ، ولذلك نجد الإمام أبا حنيفة يعتبر الوتر واجباً <sup>(١)</sup> ، فقال: إن صلاة العشاء فرض ، وصلاة الوتر واجب ؛ وهناك فرق بين الفرض والواجب <sup>(٢)</sup> .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك مباشرة:

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ <sup>(٣)</sup> .. ﴾ (١١٤)

[هود]

وهذا التعقيب يضع الصلاة في قمة الحسنات ، وقد أوضح رسول الله ﷺ هذا بأن قال: « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تغش الكباثر » <sup>(٤)</sup> .

(١) قال الشوكاني في نيل الأوطار (٣٠ / ٢) : «ذهب الجمهور إلى أن الوتر غير واجب بل سنة، وخالفهم أبو حنيفة فقال: إنه واجب، وروى عنه أنه فرض». قال ابن المنذر: ولا أعلم أحداً وافق أبا حنيفة في هذا. ومن الأدلة الدالة على عدم وجوب الوتر ما اتفق عليه الشيخان من حديث طلحة ابن عبيد الله قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : «خمس صلوات في اليوم والليل». قال: هل على غيرها؟ قال: لا إلا أن تطوعه.

(٢) الفرض: ما ثبت بدليل قطعي لا شبهة فيه ويكفر جاحده ويُعذب تاركه، وهو على نوعين: فرض عين وفرض كفاية، وفرض العين ما يلزم كل واحد إقامته، ولا يسقط عن البعض بإقامة البعض كالإيمان ونحوه، وفرض الكفاية ما يلزم جميع المسلمين إقامته، ويسقط بإقامة البعض عن الباقين كالجهاد وصلاة الجنازة. أما الواجب فهو اسم لما لزم علينا بدليل فيه شبهة كخير الواحد والقياس والعمام المخصوص والآية المؤولة كصدقة الفطر والاضحية. [التعريفات للجرجاني - صفحات ١٤٤ ، ٢٢٢.]

(٣) ذكر القرطبي في تفسيره (٢٤٣٠ / ٤) أن سبب نزول هذه الآية أن رجلاً من الانصار خلا بامرأة فقبلها وتلذذ بها فيما دون الفرج، روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: «إني عالجت امرأة في أقصى المدينة، وإنني أصبت منها ما دون أن أمسها وأنا هذا فاقض لي ما شئت». فقال له عمر: لقد سترك الله لو سترت على نفسك. فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً، فانتطلق الرجل فالتبعه رسول الله ﷺ رجلاً فدعاه، فتلا عليه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَاقًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ ﴾ (١١٤) [هود] فقال رجل من القوم: هذا له خاصة؟ قال: «لا بل للناس كافة» قال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٣) وأحمد في مسنده (٤٨٤ / ٢) وابن ماجه في سننه (١٠٨٦) من حديث أبي هريرة.

واختلف العلماء فى معنى السيئات والحسنات ، وقال بعضهم: الحسنة هى ما جعل الله سبحانه على عملها ثواباً ، والسيئة هى ما جعل الله على عملها عقاباً.

وأول الحسنات فى الإيمان أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وهذه حسنة أذهبت الكفر : لأن الحسنات يذهبن السيئات.

ولذلك قال بعض العلماء: إن المسلم الذى ارتكب معصية أو كبيرة من الكبائر ، لا يخلد فى النار ؛ لأنه إذا كانت حسنة الإيمان قد أذهبت سيئة الكفر ، أفلا تذهب ما دون الكفر ؟

وهكذا يخفف العقاب على المسلم فينال عقابه من النار ، ولكنه لا يخلد فيها ؛ لأننا لا يمكن أن نساوى بين من آمن بالله ومن لم يؤمن بالله. والإيمان بالله هو أكبر حسنة ، وهذه الحسنة تذهب الكفر ، ومن باب أولى أن تذهب ما دون الكفر.

وتساءل بعض العلماء: هل الفرائض هى الحسنات التى تذهب السيئات؟ وأجاب بعضهم: هناك أحاديث صحيحة قد وردت عن رسول الله ﷺ عن حسنات فى غير الفرائض ، ألم يقل رسول الله ﷺ أن صوم يوم عرفة إلى صوم يوم عرفة يذهب السيئات <sup>(١)</sup>.

ألم يقل رسول الله ﷺ أن الإنسان الذى يستقبل نعمة الله بقوله: الحمد لله الذى رزقنيه من غير حول <sup>(٢)</sup> منى ولا قوة ، والحمد لله الذى

(١) عن قتادة بن النعمان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من صام يوم عرفة غفر له سنة أمامه وسنة بعده.

(٢) المحول: الحق . وجودة النظر ، والقدرة على دقة التصرف فى الأمور. [المعجم الوسيط : مادة (حول)].

## سُورَةُ هُودٍ

٦٧٢١

كسأني من غير حولٍ مني ولا قوة<sup>(١)</sup>. وهذا القول يكفر السيئات.

الم يقل ﷺ إنك إذا قلت: سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم<sup>(٢)</sup> ؛ فهذا القول كفارة<sup>(٣)</sup> ؟

إذن: فالحسنات مطلقة سواء أكانت فرضاً أم غير فرض ، وهي تذهب السيئات . والسيئة هي عمل توعد الله - سبحانه - من يفعله بالعقوبة.

وتسأل أيضاً بعض العلماء: إن السيئة عمل ، والعمل إذا وقع يُرفع ويُسجل ، فكيف تُذهبها الحسنة ؟

وأجابوا: إن ذهب السيئة يكون إما عن طريق مَنْ يحفظ العمل ، ويكتبه عليك ، فيمحوه الله من كتاب سيئاتك ، أو أن يعفو الله سبحانه وتعالى عنك ؛ فلا يعاقبك عليه ، أو يكون ذهب العمل في ذاته فلا يتأتى ، وما وقع لا يرتفع ؛ أو يحفظها الله إن وقعت ؛ لأنه هو سبحانه القائل:

(١) عن معاذ بن أنس أن رسول الله ﷺ قال : «من أكل طعاماً ثم قال: الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ومن لبس ثوباً فقال: الحمد لله الذي كسأني هذا الثوب ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر» أخرجه أبو داود في سننه (٤٠٢٣) وكذا ابن ماجه (٣٢٨٥).

(٢) عن أبي الدرداء قال قال رسول الله ﷺ : «قل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، فإنهن الباقيات الصالحات. وهن يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها وهي من كنوز الجنة».

قال المنذرى في الترغيب (٢٤٨/٢) : «رواه الطبراني بإسنادين أصلحهما فيه عمر بن راشد، وبقيّة رواه محتج بهم في الصحيح ولا بأس بهذا الإسناد في المتابعات ورواه ابن منجد في طريق عمر أيضاً باختصاره».

(٣) الكفارة: ما شرعه الله من القربات لمحو الذنوب وغفرانها. مثل كفارة اليمين، قال تعالى: ﴿كَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ خَشْرَةِ مَسَاكِينَ ..﴾ [المائدة] [القاموس القويم : مادة (كفر)]. وقال ابن منظور في اللسان (مادة : كفر): «تكرر ذكر الكفارة في الحديث، وهي عبارة عن الفعل والخصلة التي من شأنها أن تكفر الخطيئة أي : تمحوها وتسترها».

﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾<sup>(١)</sup> (١٨) [ق]

ويقول سبحانه:

﴿ وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) ﴾ [الانفطار]

وهكذا يكون إذهاب السيئة ، إما محوها من الكتاب ، وإما أن تظل في الكتاب ، ويذهب الله سبحانه عقوبتها بالمغفرة.

والحق سبحانه يقول:

﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ <sup>(٢)</sup> إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ  
الْمَغْفِرَةِ .. ﴾ (٣٢) [النجم]

واجتناب الكبائر لا يمنع من وقوع الصغائر.

والحق سبحانه يقول:

﴿ إِذْ الصَّلَاةُ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ <sup>(٣)</sup> .. ﴾ (٤٥) [العنكبوت]

(١) لفظ للنواة يلفظها لفظاً : رماها. ولفظ الكلمة. قالها. قال تعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (١٨) [ق] أي: كل كلمة يتكلمها الإنسان تسجل عليه بواسطة ملك عتيد. وعتيد: أي: حاضر مستعد لإثبات هذا القول في كتاب الحسنات والسيئات. [القاموس القويم . مادة (لفظ . عتد)].  
(٢) اللمم: صفائر الخنوب. قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ .. ﴾ (٣٢) [النجم]. [القاموس القويم : مادة (للم)].

قال العوفي عن ابن عباس في قوله . ﴿ إِلَّا اللَّمَمَ .. ﴾ (٣٢) [النجم] : «كل شيء بين الحدين: حد الدنيا وحد الآخرة تكفروه الصلوات فهو اللمم، وهو دون كل موجب، فأما حد الدنيا فكل حد فرض الله عقوبته في الدنيا، وأما حد الآخرة فكل شيء ختمه الله بالنار وأخر عقوبته إلى الآخرة» ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/٢٥٦).

(٣) الفحشاء . الفحش. وهو العمل القبيح المنكر . قال تعالى: ﴿ الشَّيْطَانُ يَدْعُوكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ .. ﴾ (٢١٨) [البقرة] أي: يأمركم بالبخل أو فعل القبيح عامة، ومنه البخل. والفواحش هي الأمور القبيحة المنكرة. [القاموس القويم : مادة (فحش)].

والمنكر : ما يستقيمه الشرع الشريف. وما تستنكره العقول السليمة. قال تعالى: ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ .. ﴾ (١٠٤) [آل عمران] [القاموس القويم : مادة (نكر)].

## سُورَةُ هُودٍ

٦٧٢٢

وحين ننظر إلى مواقيت الصلاة ، نجد ما خمسة مواقيت ، فمن تعلق قلبه بالصلاة ، إنما ينشغل قلبه طوال وقت حركته بإقامة الصلاة ، ثم يأتي وقت الليل لينام ، وكل من يرتكب معصية سينشغل فكره بها لمدة ، ولو لم يات له وقت صلاة لأحس بالضياع ، أما إذا ما جاء وقت الصلاة ، فقلبه يتجه لله سبحانه طالباً المغفرة.

وإن وقعت منه المعصية مرة ، فقد لا تقع مرة أخرى ، أو أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر في وقت الاستعداد لها ، فمن جلس لينم على غيره ، أو يظلم الناس ، إذا ما سمع أذان الصلاة وقام وتوضأ ؛ فقد رحم الناس في وقت وضوئه ووقت صلاته ووقت ختمه للصلاة.

وهناك أعمال كثيرة من القروض والحسنات وهي تمحو السيئات ، وعلى المسلم أن ينشغل بزيادة الحسنات ، وألا ينشغل بمحو السيئات؛ لأن الحسنة الواحدة بعشرة أمثالها وقد يضاعفها الله سبحانه ، أما السيئة فإنما تكتب واحدة<sup>(١)</sup>.

وينهى الحق سبحانه هذه الآية الكريمة بقوله:

﴿ .. ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلَّذِينَ أُكْرِهُوا ﴾ (١١٤)

[هود]

أى: أن إقامة الصلاة طرفى النهار ، وزلفاً من الليل هي حسنات تذهب السيئات ؛ وفى ذلك ذكرى وتنبيه للنفس إلى شيء غُفل عنه ، أى: أن هذا الشيء كان موجوداً من قبل ، ولكن جاءت الغفلة لتنسيه ، والإخبار الأول أزال الجهل بهذا الشيء ، والإخبار الثانى يذكر كرك

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ . من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة. ومن هم بحسنة فعملها كتبت له عشرأ إلى سبعائة ضعف. ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب وإن عملها كتبت. أخرجه مسلم فى صحيحه (١٢٠) كتاب الإيمان.

بالحكم ؛ لأن آفة الإنسان أن الأمور التي تمر به من المرائي والمدركات ، تتوالى وتصير الأشياء التي في بؤرة <sup>(١)</sup> الشعور إلى حاشية الشعور ، فيغفل الإنسان عما صار في حاشية الشعور ، ولا بد من مجيء معنى جديد ليذكر بما غاب في حاشية الشعور.

ومثال ذلك: إنك إذا ألقيت حجراً في بحر ، فهذا الحجر يستقر في بؤرة تصنع حولها دوائر من المياه ، وتذهب هذه الدوائر إلى أن تختفي من رؤية الإنسان ، ودليل ذلك أنك قد تتذكر أحداثاً مرت عليك من عشرين عاماً أو أكثر ، هذه الأحداث كانت موجودة في حاشية الشعور ، ثم جاء لك ما ينبهك إليها.

والمخ كآلة التصوير الفوتوغرافية يلتقط أحياناً من مرة واحدة ، وأحياناً من مرتين ، أو أكثر ، والالتقاط من أول مرة إنما يتم لأن المخ في تلك اللحظة كان خالياً من الخواطر.

ونحن نجد أن من فقدوا أبصارهم إنما ينعم الله سبحانه عليهم بنعمة أخرى ، هي قدرتهم الكبيرة على حفظ العلم ؛ لأنه حين يسمع الكفيف العلم لا تشغله الخواطر المرئية التي تسرق انتباه بؤرة الشعور ، أما المبصر ، فقد تسرق بؤرة شعوره ما يمر أمامه ، فيسمع العلم لأكثر من مرة إلى أن يصادف العلم بؤرة الشعور خالية فيستقر فيها.

وهكذا تفعل الذكرى ؛ لأنها تستدعي ما في حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور ، فإذا انشغلت عن طاعة وذهبت إلى معصية ، فالذكرى توضح لك آفاق المسئولية التي تتبع المعصية ، وهي العقاب.

(١) بؤرة الشيء: مركزه، أو وسطه. وبؤرة الشعور: مركزه، أي: داخل مركز الإحساس والشعور (الإدراك) في المخ. والبؤرة في اللغة: الحفرة، وهي مأخوذة من البئر. أما البؤرة في علم الطبيعة، فهي نقطة تتلاقى أو تتفرق عندها الأشعة الضوئية أو الحرارية أو الصوتية، إذا لم يعترض دونها شيء. [المعجم الوسيط: مادة (بئر) بتصرف وإضافة].

ولذلك يقال: «لا خير في خيرٍ بعده النار ، ولا شر في شر بعده الجنة».

والحق سبحانه يقول هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنّا عنها:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ .. ﴾ (١١٤) [مود]

وأنت حين تنظر إلى أركان الإسلام ، ستجد أنك تشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله مرة واحدة في العمر ، والركن الثاني ، وهو الصلاة ، وهو ركن لا يسقط أبداً ، فهي كل يوم خمس مرات ، فيها تنطق بالشهادة ، وتزكّي ببعض الوقت ليبارك لك الله - سبحانه وتعالى - فيما بقى لك من وقت ، وفيها تصوم عن الطعام والشراب وكل ما يفسد الصيام ، وأنت تتجه لحظة قيام الصلاة إلى البيت الحرام.

ففي الصلاة تتضح العبادات الأخرى ، ففيها من أركان الإسلام الخمس.

ولذلك لا تسقط الصلاة أبداً ؛ لأنك إن لم تستطع الصلاة واقفاً ؛ فلك أن تصلي قاعداً ، وإن لم تكن تستطيع الحركة فلك أن تحرك رموش عينيك ، وأنت تصلي<sup>(١)</sup>.

وهكذا نجد في الصلاة كل أركان الدين ، ولاهيتها نجد أنها تبقى مع الإنسان إلى آخر رمق في حياته ، وهي قد أخذت أهميتها في التشريع على قدر أهميتها في التكليف ، وكل تكاليف الإسلام قد جاءت بواسطة الوحي إلا الصلاة ، فقد جاءت مباشرة من الله تعالى ، فقد استدعى الله

(١) عن عمران بن حصين قال: كانت بي بواسير، فسألت النبي ﷺ فقال: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب»، أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٢٦/٤) والبخاري في صحيحه (٥٨٤/٢ ، ٥٨٦ - الفتح). قال الشيخ سيد سابق في لسانه السنة (١٠١/١) ، «من عجز عن القيام في الغرض صلى على حسب قدرته، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وله أجره كاملاً غير منقوص».

سبحانه رسوله ﷺ إليه ليفرض عليه الصلاة <sup>(١)</sup> وهي تحية لامة محمد ﷺ؛ نظراً لأنها شرعت في قرب محمد ﷺ من ربه سبحانه وتعالى. لذلك جعل الحق سبحانه الصلاة المفروضة في القرب وسيلة لقرب أمة رسوله ﷺ جميعاً ؛ ولذلك فهي الباقية.

وَيُحَكِّى أَنْ الْإِمَامَ عَلِيًّا - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ وَرَضَى عَنْهُ - أَقْبَلَ عَلَى قَوْمٍ وَقَالَ لَهُمْ: أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَرْجَى عِنْدَكُمْ ؟

أى: ما هي الآية التي تعطي الرجاء والطمأنينة والبشرى بأن الحق سبحانه يقبلنا ويغفر لنا ويرحمنا ، فقال بعضهم: هي قول الحق سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ .. (١١٦)﴾

[النساء]

فقال الإمام على: حسنة ، وليست إياها. أى: أنها آية تحقق ما طلبه، لكنها ليست الآية التي يعنيها .

فقال بعض القوم: إنها قول الحق سبحانه:

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا (١١٠)﴾

[النساء]

فكر الإمام على: حسنة ، وليست إياها.

فقال بعض القوم: هي قول الحق سبحانه:

(١) وذلك في ليلة الإسراء والمعراج عند سيرة المفتي، ذكره البخاري في أول كتاب الصلاة (٤٥٨/١) فيه: قال النبي ﷺ: «ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقدام، ففرض الله على أمتي خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى، فقال: ما فرض الله لك على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة، قال: فارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك. فراجعتني فوضع شطرها. فرجعت إلى موسى قلت: وضع شطرها، فقال: راجع ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك. فراجعت فقال: هي خمس وهي خمسون، لا يبدل القول لدي. فرجعت إلى موسى فقال: راجع ربك. فقلت: استحييت من ربي» حديث ٣٤٩.



## سُورَةُ هُودٍ

٦٧٢٧

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا<sup>(١)</sup> عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا<sup>(٢)</sup> مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ..﴾ (٥٣) [الزمر]

فقال الإمام علي: حسنة ، وليست إياها.

فقال بعضهم: هي قوله سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً<sup>(٣)</sup> أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاَسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ..﴾ (١٣٥) [آل عمران]

فقال الإمام علي: حسنة ، وليست إياها.

وصعدت القوم وأحجموا ، فقال الإمام علي كرم الله وجهه: ما بالكم يا معشر المسلمين؟ وكأنه يسألهم: لماذا سكتم ؟.. فقالوا: لا شيء.

(١) أسرف: جاوز القصد والاعتدال، ويكون الإسراف في المال وفي غيره. قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ..﴾ [الزمر] أي: جاوزوا القصد والاعتدال في أمور كثيرة، فأكثروا الذنوب على أنفسهم. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا لَمَّا مَسَرَّلَ الْوَيْلَ﴾ [الضحراء] والإسراف يكون في أمور كثيرة، لا في إنفاق المال وحده. ومن حكم الصالحين: لا إسراف في الخير، ولا خير في الإسراف. [القاموس القويم: مادة (سرف)] بتصرف.

(٢) قنط يقنط قنوطاً: انقطع أمله في الخير، أو يش منه، فهو قانط. وقرأ حفص يفتح النون في الماضي في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْفَيْتُ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ..﴾ (١٥) [الشورى] وفي قوله تعالى: ﴿.. فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَاقِطِينَ﴾ (٥٥) [الحجر] ، وقرئ: ومن القنطين - بكسر النون - كما قرئ: بالحركات الثلاث في النون في قوله تعالى: ﴿.. وَمَن يَقْنُتْ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَىٰ الْغُلَاكُونِ﴾ (٥٦) [الحجر]. وقنوط: صيغة ميالفة. قال تعالى: ﴿.. وَإِنَّ مَثَلَ الشُّرَافِيَّتِمْ قَنُوطٌ﴾ [فصلت] أي: شديد اليأس معدوم الأمان. [القاموس القويم: مادة (قنط)] بتصرف.

(٣) فاحش، وفحش، فحشا، فهو فاحش: أي: جاوز الحد، وفعل القبيح. والفاحشة: الفعلة القبيحة. قال تعالى: ﴿وَلَا فَعَلُوا فَاحِشَةً ..﴾ (٧٨) [الأعراف] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ ..﴾ (٥٥) [النساء] أي: الزنا. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ ..﴾ (٥١) [الأنعام] أي: لا تقربوا الأمور القبيحة المنكرة. [القاموس القويم: مادة (فحش)].

وهكذا جعل الإمام على التشويق أساساً يبني عليه ما سوف يقول لهم:  
واشرأبت<sup>(١)</sup> أعناقهم ، وأرهقوا السمع ، فقال لهم الإمام علي: سمعت حبيبي  
رسول الله ﷺ يقول: أَرْجَى آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ هِيَ قَوْلُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ:

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ  
ذِكْرٌ لِلَّذِينَ كَرِهُوا﴾ (١١١) [هود]

يا علي إن أحدكم ليقوم من وضوئه فتتساقط عن جوارحه ذنوبه ،  
فإذا أقبل على الله بوجهه وقلبه لا ينفصل<sup>(٢)</sup> - أي: لا يلتفت - إلا وقد  
غفر الله له كل ذنوبه كيوم ولدته أمه ، فإذا أحدث شيئاً بين الصلاتين  
فله ذلك ، ثم عدّ الصلوات الخمس واحدة واحدة ، فقال: بين الصبح  
والظهر ، وبين الظهر والعصر ، وبين العصر والمغرب ، وبين المغرب  
والعشاء ، وبين العشاء والفجر ، ثم قال ﷺ : «يا علي إنما الصلوات  
الخمس لأمّتي كنهر جار بيباب أحدكم ، أو لو كان على جسد واحد  
منكم درن<sup>(٣)</sup> ثم اغتسل في البحر ، أيبقى على جسده شيء من  
الدرن؟ قال: فذلكم والله الصلوات لأمّتي » .

ولذلك لو نظرنا إلى الأعمال لوجدنا كل عمل له مجاله في عمره إلا  
مجال الصلاة ، فمجالها كل عمر الإنسان.  
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١١٥)

(١) اشرأبت إليه ، أو اشرأبت له ، اشرأبها ، وشرئبية: مد عنقه ، أو ارتفع لينظر . [المعجم الوسيط :  
مادة (شرأ)].

(٢) انفصل: التوى ، وانصرف . ويقال: انفصل عن رايه ، وعن حاجته وانفصل وجهه عنهم . [المعجم  
الوسيط : مادة (فصل)].

(٣) درن الشيء درناً ، وصغ وتلطخ . يقال: درن الثوب . ودرنت يده بكذا . فهو درن ، وأدرن ، وهي  
درناه . وأم درن: الدنيا . [المعجم الوسيط : مادة (درن)].

وجاءت كلمة «اصبر» لتخدم كل عمليات الاستقامة.

وكذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ<sup>(١)</sup> عَلَيْهَا .. (١٣٢)﴾ [طه]

والصبر نوعان: صبر «على» ، وصبر «عن» وفي الطاعات يكون الصبر على مشقة الطاعة ، مثل صبرك على أن تقوم من النوم لتصلي الفجر ، وفي اتقاء المعاصي يكون الصبر عن الشهوات.

وهكذا نعلم أن الصبر على إطلاقه مطلوب في الأمرين: في الإيجاب للطاعة ، وفي السلب عن المعصية.

ونحن نعلم أن الجنة حُفَّتْ<sup>(٢)</sup> بالمكاره ؛ فاصبر على المكاره ، وحُفَّتِ النار بالشهوات ؛ فاصبر عنها<sup>(٣)</sup>.

وافرض أن واحداً يرغب في أكل اللحم ، ولكنه لا يملك ثمنها ، فهو يصبر عنها ؛ ولا يستدين.

(١) اصطبر: على وزن المفعول ويفيد زيادة الصبر والتحمل. قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا .. (١٣٢)﴾ [طه] وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ .. (٩٥)﴾ [مريم]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّارِ فَتَةً لَهُمْ فَارْتَهِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٣٧)﴾ [القمر]. [القاموس القويم : مادة (صبر)] بتصرف.

(٢) حف القوم بالبيت، أو من حوله: أطلقوا به وأحرقوا حوله. قال تعالى: ﴿وحفناهما بنفح .. (١٧)﴾ [الكهف] أي: جعلنا النخل يعميط بالجننتين. [القاموس القويم: مادة (حفف)].

وحف الشيء حفاً وحفافاً: استدار حوله وأحرق به. ويقال: حف الشيء بالشيء. وحوله، ومن حوله. [المعجم الوسيط : مادة (حفف)].

(٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات». أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٢٢) قال النووي في شرحه : «أما المكاره فيدخل فيها الاجتهاد في العبادات والمواظبة عليها والصبر على مشاقها وكظم الغيظ والعفو والحلم والصدقة والإحسان إلى المصير والصبر عن الشهوات. وأما الشهوات التي النار محفوفة بها فالظاهر أنها الشهوات المحرمة كالخمر والزنا والنظر إلى الأجنبية والفحشاء واستعمال الملاهي ونحو ذلك. وأما للشهوات المباحة فلا تدخل في هذه، لكن يكره الإكثار منها مخافة أن يجر إلى الشهوات المحرمة أو يقسى القلب أو يشغل عن الطاعات أو يعوج إلى الاعتناء بتحصيل الدنيا للمصروف فيها».

ولذلك يقول الزهاد: ليس هناك شيء اسمه غلاء ، ولكن هناك شيء اسمه رخص النفس.

ولذلك نجد من يقول: إذا غلا شيء على تركته، وسيكون أرخص ما يكون إذا غلا.

والحق سبحانه يقول:

﴿وَأَصْبِرْ<sup>(١)</sup> عَلَى مَا أَصَابَكَ .. (١٧)﴾ [لقمان]

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥)﴾ [هود]

وهم الذين أدخلوا أنفسهم في مقام الإحسان ، وهو أن يلزم الواحد منهم نفسه بجنس ما فرض الله فوق ما فرض الله ، من صلاة أو صيام ، أو زكاة ، أو حج لبیت الله ؛ لأن العبادة ليست اقتراحاً من عابد لمعبود ، بل المعبود هو الذي يحدد ما يقربك إليه.

وحاول ألا تدخل في مقام الإحسان نذراً<sup>(٢)</sup>؛ لأنه قد يشق عليك أن تقوم بما نذرته ، واجعل زمان الاختيار والتطوع في يدك ؛ حتى لا تدخل مع الله في ودّ إحسانى ثم تقتتر عنه ، وكأنك - والعياذ بالله -

(١) والصبر إما أن يكون على المأمورات، وهي الطاعة وإما صبر على الممذورات، وهي النواهي. وإما

صبر على المفدورات، وهذا الصبر على القضاء والقدر فإذا تحققت الثلاثة كنت من أهل الفلاح، مصداقاً

لقول الحق : ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَصَابَرُوا وَرَبُّوهُوَ الرَّحِيمُ (١١٥)﴾ [آل عمران]

(٢) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تنذروا فلان النذر لا يفتى من القدر شيئاً، وإنما

يستخرج به من البخل». أخرجه مسلم في صحيحه (١٦١٠). والترمذي في سننه (١٥٣٨) وكذا

التنصائى (١٧/٧). قال النووي في شرحه: «معناه أنه لا يأتي بهذه القرية تطوعاً محضاً مبتداً

وإنما يأتي بها في مقابلة شفاء المريض وغيره مما تعلق النذر عليه».

قد جُرِّبَتْ مودة الله تعالى ، فلم تجده أهلاً لها ، وفي هذا طغيان منك .  
وإذا رأيت إشراقات فيوضات على مَنْ دخل مقام الإحسان فلا  
تنكرها عليه ، وإلا لسويت بين من وقف عند ما قُرِضَ عليه ، وبين  
من تجاوز ما قُرِضَ عليه من جنس ما قُرِضَ الله .

وجرب ذلك في نفسك ، والتزم أمر الله باحترام مواقيت الصلاة ،  
وقم لتصلي الفجر في المسجد ، ثم احرص على أن تتقن عمك ،  
وحين يجئ الظهر قم إلى الصلاة في المسجد ، وحاول أن تزيد من  
ركعات السنة ، وستجد أن كثافة الظلمانية قد رَقَّتْ في أعماقك ،  
وامتلأت بإشراقات نورانية تفوق إدراكات الحواس ، ولذلك لا تستكثر  
على مَنْ يرتاض <sup>(١)</sup> هذه الرياضة الروحية، حين تجد الحق سبحانه قد  
أنار بصيرته بتجليات من وسائل إدراك وشفافية.

ولذلك لا نجد واحداً من أهل النور والإشراق يدعى ما ليس له ،  
والواحد منهم قد يعلم أشياء عن إنسان آخر غير ملتزم ، ولا يعلنها  
له؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد خَصَّهُ بأشياء وصفات لا يجب أن  
يضعها موضع التباهي والمראה.

وحين عرض الحق سبحانه هذه القضية أراد أن يضع حدوداً للمرتاض  
ولغير المرتاض ، في قصة موسى عليه السلام حينما وجد موسى وفتاه  
عبداً صالحاً ، ووصف الحق سبحانه العبد الصالح بقوله تعالى:

(١) راضه رَوْضاً ورياضاً ورياضة. ذلّهُ. يقال: راض المهر، وراض نفسه بالقوى، وراض القواني  
الصعبة. وارتاض: صار مروضاً. يقال: ارتاض المهر: ذلّ. وارتاضت القوافي: ذللت. والرياضة -  
عند الصوفية - تهذيب الأخلاق النفسية بملازمة العبادات، والتخلّي عن الشهوات. [المعجم  
الوسيط : مادة (روض)] بتصرف.

﴿ .. عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا <sup>(١)</sup> ﴾

عِلْمًا (٦٥) ﴿

[الكهف]

وقال العبد الصالح لموسى عليه السلام:

﴿ .. إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) ﴾

[الكهف]

وبَيَّن العبد الصالح لموسى - بمنتهى الأدب - عذره في عدم الصبر، وقال له:

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا <sup>(١)</sup> (٦٨) ﴾

[الكهف]

ورد موسى عليه السلام:

﴿ .. سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) ﴾

[الكهف]

فقال العبد الصالح:

﴿ .. فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا <sup>(٢)</sup> (٧٠) ﴾

[الكهف]

(١) لدن: ظرف مكان، أو ظرف زمان، بمعنى (عند) مبنى على السكون، وإنا أضيف إلى ياء المتكلم فصلت بينهما نون الوقائية وأدغمت في نونها مثل قوله تعالى: ﴿ .. لَقَدْ بَقِيتُ مِنَ لَدُنِّي عُزْرًا (٧١) ﴾ [الكهف]، وجاءت مضافة إلى ضمير المخاطب في قوله تعالى: ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً .. (٦٨) ﴾ [آل عمران]، وإلى ضمير المتكلمين (نا) في قوله تعالى: ﴿ .. وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) ﴾ [الكهف]، وتضاف إلى ضمير الغائب كقوله تعالى: ﴿ لِيُذَكِّرَ أَتَمًا شَرِيبًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُنَبِّئَ الْمُؤْمِنِينَ .. (٦٤) ﴾ [الكهف] [القاموس القويم: مادة (لدن)].

(٢) خير الأمر، وخير بالامر، مثل: علمه، وعلم به - وزنا ومعنى - فهو به خير. قال تعالى: ﴿ .. لَأَمَثَلُ بِهِ خَيْرًا (٦٩) ﴾ [الفرقان]. وقال تعالى: ﴿ سَأَتْلُوكم مِّنْهَا بِخَبَرٍ .. (٧٠) ﴾ [النمل] أي: بنبا. وقال تعالى: ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا (٦٨) ﴾ [الكهف] أي: عِلْمًا. [القاموس القويم: مادة (خير)].

(٣) الذكر: القرآن، والكتب المنزلة كلها. قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَافِعُونَ (٥١) ﴾ [الحجر] هو القرآن الكريم. وقال تعالى: ﴿ ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا (٤١) ﴾ [مريم] أي: قصة رحمة الله لعبده زكريا. وقال تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤٢) ﴾ [الشرح] أي: شرفك وحديث الناس عنك بالخير. [القاموس القويم: مادة (ذكر)].

وجاء في [مختصر تفسير الطبري: ص ٢٣٧] في تفسير هذه الآية: ﴿ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) ﴾ [الكهف]. يقول: معنى (أذكر أنا لك ما ترى من الأعمال التي أفعليها وتستنكرها أنت، وأبين لك شأنها، وأبديتك الخبر عنها).

ولكن الأحداث تواترت ؛ فلم يصبر موسى ؛ فقال له العبد الصالح :

﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ .. (٧٨) ﴾ [الكهف]

وهذا حكم أزلى بأن المرتاض للرياضة الروحية ، ودخل مقام الإحسان لا يمكن أن يلتقى مع غير المرتاض على ذلك، ويلزم غير المرتاض الأدب مثلاً يلتزم المرتاض الأدب، ويقدم العذر فى أن يذكر عليه غير المرتاض معرفة ما لا يعرفه.

ولو أن المرتاض قد عذر غير المرتاض ، ولو أن غير المرتاض تادب مع المرتاض لاستقر ميزان الكون.

والحق سبحانه يبين لنا مقام الإحسان وأجر المحسنين، فى قوله تعالى:

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) ﴾ [الذاريات]

وبيّن الحق سبحانه لنا مدارج الإحسان ، وأنها من جنس ما فرض الله تعالى ، فى قوله سبحانه:

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) ﴾ [الذاريات]

والحق سبحانه لم يكلف فى الإسلام ألا يهجع المسلم إلا قليلاً من الليل ، وللمسلم أن يصلى العشاء ، وينام إلى الفجر.

وتستمر مدارج الإحسان، فيقول الحق سبحانه:

(١) هجع يهجع هجوعاً . نام ليلاً . قال تعالى: ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) ﴾ [الذاريات] .  
[القاموس القويم : مادة (هجع)].

﴿وَبِالْأَسْحَارِ<sup>(١)</sup> هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨)﴾ [الذاريات]

والحق سبحانه لم يكلف المسلم بذلك ، ولكن الذي يرغب في الارتقاء إلى مقام الإحسان يفعل ذلك.

ويقول الحق سبحانه أيضاً:

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ<sup>(٢)</sup> (١٩)﴾ [الذاريات]

ولم يحدد الحق سبحانه هنا هذا الحق بأنه حق معلوم ، بل جعله حقاً غير معلوم أو محدد ، والله سبحانه لم يفرض على المسلم إلا الزكاة ، ولكن من يرغب في مقام الإحسان فهو يبذل من ماله للسائل والمحروم. وهكذا يدخل المؤمن إلى مقام الإحسان ، ليودَّ الحق سبحانه.

ولله المثل الأعلى: نحن نجد الإنسان حين يوده غيره : فهو يعطيه من خوصصياته ، ويفيض عليه من مواهبه الفائضة ، علماً ، أو مالاً ، فما بالناس ممن يدخل في ودِّ مع الله سبحانه وتعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

(١) السَّحَر - بفتح السين والحاء - الجزء الأخير من الليل إلى مطلع الفجر. وجمعه أسحار. قال تعالى: ﴿...وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧)﴾ [آل عمران] ، وقال تعالى ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨)﴾ [الذاريات] [القاموس القويم : مادة (سحر)].

(٢) السائل: الفقير. أو من يسأل عن شيء. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلُ فَلَا تَنْهَرْ (١٦)﴾ [الضحى] يحتمل المعنيين السائل الذي يطلب الصدقة، والسائل المستغفم عن شيء. وقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا الَّذِيْنَ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ النَّاسِ الْفَارِسِيِّينَ (٦٦)﴾ [الأعراف] أى: لنحاسب الناس والرسول يوم القيامة. [القاموس القويم : مادة (سأل)].

والمحروم: الممنوع من الخير. قال تعالى: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (١٧)﴾ [الواقعة] أى: حرماننا ثمر الحقيقة وحرماننا الخير كله. والحرمان: المنع. والمحروم أيضاً: اسم مفعول ويطلق على الفقير. وقال تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)﴾ [الذاريات] [القاموس القويم : مادة (حرم)].



﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنَهُونَ  
عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ  
الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَوْا بِهِ وَكَانُوا بِجُرْمِهِمْ﴾ (١١٦)

وكلمة «لولا» هنا تحضيضية ، والتحضيض إنما يكون حثاً لفعل  
لم يأت زمنه ، فإن كان الزمن قد انتهى ولا يمكن استدراك الفعل فيه ،  
تكون «لولا» للتحسر والتأسف.

وفي سورة يونس يقول الحق سبحانه:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ (٩٨) [يونس]

وذكرهم بالآيات. ونحن قد علمنا أن «لولا» لها استعمالان في اللغة ،  
فهى إن دخلت على جملة اسمية ، فهى تدل على امتناع لوجود ، كقول  
إنسان لآخر: «لولا أن أباك فلاناً لضربتك على ما أذنبت» وتسمى «لولا»  
في هذه الحالة «حرف امتناع لوجود».

وإذا دخلت «لولا» على جملة فعلية ، فهى أداة تحضيض ،  
وتحميس، وحث المخاطب على أن يفعل شيئاً، مثلما تشجع طالباً على  
المذاكرة ، فنقول له: «لولا ذاكرت بجد واجتهاد فى العام الماضى لما  
نجحت ووصلت إلى هذه السنة الدراسية».

(١) أولو البقية : أصحاب التمييز والعقل والنظر فى العرائب وأصحاب الفضل الباقي والخير الثابت.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنَهُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ (١١٦) [هود] .

والبقية : الباقية والشيء الباقي. [القاموس القويم : مادة (بقى)] .

(٢) ترف ترفاً : تنعم . وأترف الله : نعمه وأعطاه ما يشتهى . قال تعالى ﴿وَأَتْرَفَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (٢٢) [المؤمنون] .

وقال تعالى ﴿وَأَتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَوْا بِهِ﴾ (١١٦) [هود] أى: جروا وراء

شهواتهم وتمادوا فى الترف فابطروهم وأطفاهم [القاموس القويم : مادة (ترف)] .

وفى هذا تحميس له على بذل مزيد من الجهد ، أما إذا قلت لراسب :  
«لولا ذاكرت لما رسبت» فهذا توبيخ وتأسيف له على ما فات ،  
وشحن طاقته لما هو آت ؛ لأن الزمن قد فات وانتهى وقت المذاكرة ؛  
لذلك تكون «لولا» - هنا - للتقريع والتوبيخ <sup>(١)</sup>.

والحق سبحانه وتعالى يرشدنا إلى أن بقية الأشياء هي التي ثبتت  
أمام أحداث الزمن ، فأحداث الزمن تأتي لتطوح بالشئ التساقط أولاً ،  
ثم بما دونه ثم بما دونه ، ويبقى الشئ القوى ؛ لأنه ثابت على  
أحداث الزمن ؛ وبقية الأشياء دائماً خيراً.

والحق سبحانه قد بين لنا أنه قد أهلك الأمم التي سبقت ؛ لأنه لم  
توجد فئة منهم تنهى عن الفساد فى الأرض ، وجاء الإهلاك لامتناع  
من يقاوم الفساد بالامر بالمعروف ، والنهى عن المنكر.

(١) لولا : حرف شرط لا يعمل. ويدل على امتناع الجواب لوجود الشرط، وجملة الشرط (اسمية) ويحذف  
الخبر وجوباً إذا كان كونه عاملاً وإذا وليها مضمير يكون ضمير رفع منفصل مثل ﴿.. لَوْلَا لَنُكُنَّا  
مُؤْمِنِينَ﴾ [سبا] ، وجملة الجواب (فعلية) وتقترب باللام إذا كانت مثبتة فى الغالب، وتجرد عنها  
إذا كانت منفية، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ..﴾ [النور] تجرد  
الجواب من اللام لأنه منفي بالحرف (ما) ، وقد يحذف جواب الشرط بعد «لولا» إذا دل عليه دليل  
كقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ وَهَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [النور] ، وتقدير الجواب :  
«المسككم فيما أنضمت فيه عذاب عظيم» ، كما وضحت الآية التي بعدها فى نفس السورة.

وتستعمل «لولا» أداة عرض وتخصيضي مثل (هلاً) فتختص بالدخول على المضارع كقوله تعالى:  
﴿لَوْلَا تَنْفِرُونَ اللَّهُ ..﴾ [النمل] ، وتدخل على ماضى فى تأويل المضارع كقوله تعالى ﴿لَوْلَا  
أُخْرِضَ إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ..﴾ [المنافقون] أى: لولا تؤخرنى - وتستعمل «لولا» للتوبيخ والتقديم  
فتختص بالماضى، كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ..﴾ [النور] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا  
إِذْ سَخَّرْتُمُوهُ قُتِمَ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَكَلِّمَ بِهِذَا ..﴾ [النور] وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا  
..﴾ [الأنعام] ولولا هنا بمعنى (هلاً) للتوبيخ، ويؤيده قراءة : «هلاً إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا».

[القاموس القويم : مادة (لولا)].

وضرب الحق سبحانه لنا المثل بالبقيّة في كل شيء ، وأنها هي التي تبقى أمام الأحداث ، ففي قصة شعيب عليه السلام يقول الحق سبحانه:

﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .. (٨٦)﴾ [هود]

ومعنى ذلك أن نقص المكيال أو الميزان قد يزيد التاجر ما عنده ، ولكنه لا يلتفت إلى ما هو مدخور.

ولذلك قال شعيب عليه السلام:

﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ (١) وَلَا تَبْخَسُوا (٢) النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. (٨٥)﴾ [هود]

فانت إن نظرت إلى شيء قد ذهب ، فامتلك القدرة على أن تحقق فيه بالفهم ، لتجده مدخوراً لك باقياً.

ولنا المثل في موقفه رسول الله ﷺ مع أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - حينما سألها عن شاة أهديت له ، وكانت تعرف أن

(١) اقص : عدل ، وأزال الظلم أو الجور. قال تعالى: ﴿.. وَأَقْسُطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (١)﴾ [الحجرات] واستعمل القرآن الكريم كلمة (القص) - بكسر القاف وسكون السين - بمعنى العدل كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ .. (٢٩)﴾ [الأعراف] أي بالعدل. وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ بِالْقِسْطِ .. (٥)﴾ [الرحمن] أي: بالعدل. وقال تعالى: ﴿أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ .. (٨٥)﴾ [هود] أي: بالعدل. [القاموس القويم : مادة (قسط)].

(٢) بخسه حقه بخساً - نقصه حقه ولم يوفه. قال تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. (٨٥)﴾ [الأعراف]. [القاموس القويم : مادة (بخس)].

رسول الله ﷺ يحب من الشاة كتفها <sup>(١)</sup> ، فتصدقت بكل الشاة إلا جزءاً من كتفها ، فلما سألها: ما فعلت بالشاة ؟ قالت: ذهبت كلها إلا كتفها.

هكذا نظرت عائشة - رضى الله عنها - هذا المنظور الواقعي ؛ بأن الباقي من الشاة هو كتفها فقط ، وأنها تصدقت بباقي الشاة ، ويلفتها رسول الله ﷺ لفظة إيمان ويقين ، ويقول لها: «بقي كلها إلا كتفها» <sup>(٢)</sup>.

هكذا نظر رسول الله ﷺ إلى ما بقي من الشاة من خير.

ويؤيد ذلك حديث قاله ﷺ: «وهل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفانيت، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » <sup>(٣)</sup>.

ويلفتنا القرآن الكريم إلى المنظور ، وإلى المدخور ، فيقول الحق سبحانه:  
﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ <sup>(٤)</sup> الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا .. ﴾ (٤٦) [الكهف]

ويعصف الحق سبحانه هذا المدخور بقوله:

(١) أخرج أبو الشيخ في «أخلاق النبي» (٢٠١) عن ابن عباس «كان أحب اللحم إلى رسول الله ﷺ الكتف». وأخرج البخاري في صحيحه (٤٧١٢) عن أبي هريرة قال: «أتى رسول الله ﷺ بلحم ، فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه».

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥٠/٦) والترمذي في سننه (٢٤٧٠) من حديث عائشة . قال الترمذي : «حديث صحيح» .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤/٤) ومسلم في صحيحه (٢٩٥٨) والترمذي في سننه (٢٣٤٢) وصححه.

(٤) بقى بقاء ضد فنى. وبقا اسم فاعل، مؤنثه باقية. قال تعالى: ﴿وَيَقُلْ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْإِزَامِ﴾ (٤٧) [الرحمن] وقال تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ..﴾ (٤٦) [النحل].

والبقية: الباقية، والنسى: الباقي. وجمع بقية: بقيات. وجمع باقية: باقيات، قال تعالى: ﴿.. وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (٤٦) [الكهف] أى: الأعمال النافعة الباقية التي يبقى خيرها في الناس هي خير ثواباً عند الله. [القاموس القويم : مادة (بقى)].

## سُورَةُ هُودٍ

٦٧٣٩

﴿ .. ثَوَابًا وَخَيْرًا أَمَلًا <sup>(١)</sup> ﴾ [الكهف]

وفى آية أخرى يقول سبحانه:

﴿ .. وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مُرَدًّا <sup>(٢)</sup> ﴾ [مريم]

إذن: لا بد أن ننظر إلى الباقيات فى الأشياء ! لأنها هى التى يُعَوَّل عليها.

ويلفتنا الحق سبحانه إلى ذلك فى أكثر من موضع من القرآن الكريم ، فيقول تعالى:

﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى <sup>(٣)</sup> ﴾ [الاعلى]

ويقول سبحانه:

﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى <sup>(٤)</sup> .. ﴾ [القصاص]

إذن: فإياك أن تنظر إلى الذاهب ، ولكن انظر إلى الباقي.

وإذا عضت الإنسان الأحداث فى أى شىء ، نجد أن سطحي الإيمان يفرغ مما ذهب ، ونجد راسخ الإيمان شاكرًا لله تعالى على ما بقى.

وما هو ذا سيدنا عبد الله بن جعفر - رضى الله عنه - حينما

(١) امل يامل أملاً واملاً وأملاً : رجا يرجو. والامل. الرجاء. قال تعالى: ﴿ .. وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مُرَدًّا <sup>(٢)</sup> ﴾ [الكهف] لأنه رجاء عند الله متحقق، لا شك فيه. [القاموس القويم ، مادة (أمل)].

(٢) مرد: اسم مكان أو زمان، أو مصدر ميمي. قال تعالى: ﴿ وَأَنْ مُرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ .. ﴾ [غافر] أى: رجوعنا إليه - على المصدرية - أو مرجعنا إليه - على أنه اسم مكان أو زمان. وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَوْمَ الْمَوْتِ شَاءَ فَمَا مُرَدُّ لَهُ .. ﴾ [الرعد] أى: لا صرف له ولا إرجاع له - على المصدرية - فهو واقع بهم حتماً [القاموس القويم : مادة (رمد)]. وجاء فى [كلمات القرآن للشيخ محمد حسنين مخلوف] أن كلمة (خير مردًا)، أى: مرجعاً وعاقبة.

## سُورَةُ الْهُودِ

٦٧٤٠

جُرُحت ساقه جرحاً شديداً، وهو فى الطريق إلى الشام ، ولحظة أن وصل إلى قصر الخلافة قال الأطباء: لابد من التخدير لنقطع الساق المريضة ، فقال: والله ما أحب أن أغفل عن ربي طرفة عين.

وكان هذا القول يعنى أن تجرى له جراحة بتر الساق دون مخدر ، فلما قُطعت الساق ، وأرادوا أن يأخذوها ليدفنوها ؛ لتسببه إلى الجنة إن شاء الله ؛ قال: ابعثوا بها ، فجاءوا بها إليه ، فأمسكها بيده وقال: اللهم إن كنت قد ابتليت فى عضو ؛ فقد عافيت<sup>(١)</sup> فى أعضاء .

هكذا نظر المؤمن إلى ما بقى.

وحين يتكلم القرآن الكريم عن مراتب ومراقى الإيمان يقول مرة :

﴿ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ .. ﴾ (٤٠) [غافر]

ويقول عن أناس آخرين :

﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ .. ﴾ (١٥٧) [البقرة]

والجنة باقية بإبقاء الله لها ، ولكن رحمة الله باقية ببقاء الله. وهكذا تكون درجة الرحمة أرقى من درجة الجنة.

وهكذا تجد فى كل أمر ما يسمى بالباقيات.

وهنا يقول الحق سبحانه:

(١) عفا النبت: كثر وطال. وعفا القوم كثرُوا. يقول الحق : ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا .. ﴾ [الاعراف] أى: كثروا وعزوا واغتنوا. والعفو فى المال ما زاد عن النفقة. يقول الحق: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُغْفَرُ .. ﴾ (٢٤٦) [البقرة] وعفا عن الذنب عفواً: تجوز عنه، وعفواً: صيغة مبالغة أى: كثير العفو. يقول الحق : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُغْفِرُ غَفُورٌ ﴾ (٦٠) [الحج]، ويقول الحق: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ .. ﴾ [الاعراف] أى: خذ ما عفا عنه الناس وسمحوا به عن طيب خاطر، ومن دعاء القرآن الكريم. ﴿ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا إِنَّكَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢٨٦) [البقرة] القاموس القويم (١/٢٧، ٢٨).

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ <sup>(١)</sup> مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ <sup>(٢)</sup> فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ .. ﴾ (١١٦)

[هود]

أى: لولا أن كان فى الناس بقية من الخير وبقية من الإيمان ، وبقية من اليقين ، وكانوا ينهون عن الفساد فى الأرض ، لولا هم لخسف الله الأرض بمن عليها .  
والبقايا فى كل الأشياء هى نتيجة الاختيار ، والاختبار : مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَمَّا الزُّبْدُ <sup>(٣)</sup> فَيَذْهَبُ جُفَاءً <sup>(٤)</sup> وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ <sup>(٥)</sup> فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (١٧)

[الرعد]

(١) القرن من الناس : أهل زمان واحد . قال تعالى : ﴿ فَأَمْلِكْنَاكُمْ يَدْنُوهُمْ وَأَنْفُسًا مِنْهُمْ فَرَقْنَا بِآخِرِينَ ﴾ [الأنعام] ، وجمعه : قرون . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا .. ﴾ (١٦) [يونس] . [القاموس القويم : مادة (قرن)] .

(٢) فسد فساداً ، والفساد : ضد الصلاح . وأفسده غيره . جعله فاسداً . قال تعالى : ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١٦) [المائدة] . وقال تعالى : ﴿ .. وَلَا تَعْلَمُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [البقرة] ، وكلمة مفسدين حال مؤكدة لمعنى الفعل «تفسدوا» أى : لا تفسدوا فى الأرض فساداً . [القاموس القويم : مادة (فسد)] .

(٣) زبد الماء : ما يعلوه - عند جيشانه واضطرابه - من الرغوة وحطام الأشياء . وزبد المعادن : خبثها ونفاياتها . قال تعالى : ﴿ فَاحْضِلِ السَّيْلَ زَبْدًا رَابِيًا .. ﴾ (١٧) [الرعد] وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً .. ﴾ (١٧) [الرعد] تشبه الله - سبحانه - الباطل بالزبد الذى يلقى ويرى : لانه لا ينفع الناس . [القاموس القويم : مادة (زبد)] .

(٤) جفأت القدر : رمت زبدتها عند الفلجان . وجفأت السيل خثاءه : رماء وقذفه . ومن عادة الطهارة أن يلقوا ما جفأت القدر بعيداً ليبقى الطعام خالصاً من الشوائب . قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (١٧) [الرعد] أى : لا ينتفع به . ويلقى بعيداً ، أو يذهب ضياعاً كالجفاء . [القاموس القويم : مادة (جفاء)] .

(٥) مكث مكثاً ومكثاً : أقام فى مكانه . وتفيد التانى وعدم العجلة . قال تعالى : ﴿ لَمْكُثْ غَيْرَ بَعِيدٍ .. ﴾ (٣٦) [النمل] أى : استمر الهدوء فى غيبته مدة لكنها غير طويلة . وقال تعالى : ﴿ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (١٧) [الرعد] أى : يبقى مدة طويلة فيها : فيزيدها خصباً . وقال تعالى : ﴿ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا .. ﴾ (٣٦) [طه] أى : أقيموا فى مكانكم منتظرين . وقال تعالى : ﴿ وَفَرَأْنَا لَهُمْ آيَاتَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ .. ﴾ (١٣) [الإسراء] أى : على مهل وتأن بغير عجلة فى أزمته متطولة . [القاموس القويم : مادة (مكث)] .

وفى العصر الحديث نقول: «البقاء للأصلح».

إذن: فالحق سبحانه إنما يحفظ الحياة بهؤلاء الذين ينهون عن الفساد فى الأرض ؛ لأنهم يعملون على ضوء منهج الله ، وهذا المنهج لا يزيد ملكاً لله ، ولا يزيد صفة من صفات الكمال لله ، لأنه سبحانه خلق الكون بكل صفات الكمال فيه ، ومنهجه سبحانه إنما يصلح حركة الحياة ، وحركة الأحياء.

وهكذا يعود منهج السماء بالخير على مخلوقات الله ، لا على الله الذى كَوَّنَ الكون بكماله.

واقرا إن شئت قول الحق سبحانه:

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا (٨) فِي الْمِيزَانِ (٨)﴾

[الرحمن]

فكما رفع الحق سبحانه السماء بلا عمد ، وجعل الأمور مستقرة متوازنة ؛ فلکم أن تعدلوا فى الكون فى الأمور الاختيارية بميزان دقيق؛ لأن اعوجاج الميزان إنما يفسد حركة الحياة.

ومن اعرجاج الميزان أن يأخذ العاقل خير الكادح ، ويرى الناس العاقل ، وهو يحيا فى ترف من سرقة خير الكادح ، فيفعلون مثله ، فيصير الأمر إلى انتشار الفساد.

(١) طغى يطفو طغواناً وطفوى: بمعنى تجاوز الحد فى الجور والتعدى وطفى يطفى طغياناً: تجاوز الحد . وطفوىء من الواوى، وطفيانء من اليائى. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ طَفَّوْا فِي الْبِلَادِ (٣٦)﴾ [الفجر] أى: ظلموا وتجاوزوا الحد فى العصيان. وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا نُمُودٌ فَأَقْلَكُوا بِالتَّأَغِيَةِ (٥)﴾ [الحاقة] أى بالصيحة التى تجاوزت الحد فى قوتها. [القاموس القويم . مادة (طغى)]. وجاء فى [كلمات القرآن للشيخ محمد حسن بن مخلوف] ﴿.. رَوَّضَ الْمِيزَانَ (٧)﴾ [الرحمن] شرع العدل وأمر به الخلق. و﴿الْأَطْفَاؤُ (٨)﴾ [الرحمن]: لئلا تتجاوزوا العدل والحق.



وينزوي أصحاب المواهب ، فلا يعمل الواحد منهم أكثر من قدر حاجته ؛ لأن ثمرة عمله إن زادت فهي غير مصونة بالعدالة. وهكذا تفسد حركة الحياة ، وتختل الموازين. وتتخلف المجتمعات عن ركب الحياة.

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (١١٦)

[هود]

وشاء الحق سبحانه أن يجعل أمة محمد ﷺ خير الأمم بشرط أن يأمروا بالمعروف ، وينهوا عن المنكر.

قال الله تعالى:

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ <sup>(١)</sup> وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ <sup>(٢)</sup> .. ﴾ (١١٠)

[آل عمران]

وجعلها الحق سبحانه الأمة الخاتمة ، لأنه لا رسالة بعد رسالة محمد ﷺ ، وقد كانت الرسالات قبلها تأتي بعد أن يتقصر الخير في المجتمعات ، وفي النفوس.

فقد وضع الحق سبحانه المنهج لأول الخلق في النفس الإنسانية ، وكانت المناعة ذاتية في الإنسان ، إن ارتكب ذنباً فهو يتوب ويرجع

(١) المعروف: ضد المنكر. وهو الذي تعارف الناس عليه وعرفوا أنه حسن. قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى .. ﴾ (البقرة) [٢: ٢٦٦] وقال تعالى: ﴿.. وَأَمْرٌ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (الأعراف) [١٦: ١٦٦]. [القاموس القويم مادة (عرف)] بتصرف.

(٢) المنكر: ما يستقبله الشرع الشريف، وما تستنكره العقول السليمة. قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْغَيْرِ وَالْأَمْرُونِ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ .. ﴾ (١١٣) [آل عمران]. [القاموس القويم : مادة (نكر)].

بعد أن يلوم نفسه ، ولكن قد يستقر أمره على المعصية ، وتختفى منه «النفس اللوامة» ، ويستسلم للنفس الأمارة بالسوء ، فيجد من المجتمع من يقومه ، فإذا ما فسد المجتمع ، فالسماة تتدخل بإرسال الرسل ، إلا أمة محمد ﷺ فقد آمنها الحق سبحانه أنه سيظل فيها إلى أن تقوم الساعة من يدعو إلى الخير ، ومن يأمر بالمعروف، ومن ينهي عن المنكر<sup>(١)</sup>؛ ولذلك لن يوجد أنبياء بعد رسول الله ﷺ .

ولذلك يقول رسول الله ﷺ تأكيداً لهذا المعنى: «علماء امتي كأنبياء بنى إسرائيل»<sup>(٢)</sup>.

والعالم: هو كل من يعلم حكماً من أحكام الله سبحانه ، وعليه أن يبلغه إلى الناس.

ورسول الله ﷺ يقول: «نضر الله وجه امرئ سمع مقالتي فوعاها ، وأداها إلى من لم يسمعها ، فربُّ مُبْلَغٍ أوعى من سامع»<sup>(٣)</sup>.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ .. أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ (١١٦) [هود]

وقد أنجى الحق سبحانه بعضاً ممن نهوا عن الفساد في الأرض.

(١) من معاوية بن أبي سفيان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من امتي قائمة بأمر الله ، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس» أخرجه مسلم في صحيحه (١٠٧٢).

(٢) ذكره المجلوني في كشف الخفاء (١٧٤٤) وقال : «قال السيوطي في الدرر: لا أصل له.. وكذا قال ابن حجر والدميري والزرخش».

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٧/١) وابن ماجه في سننه (٢٣٢) من حديث ابن مسعود.

ونرى أمثلة على ذلك في القرية التي كانت حاضرة البحر ، وكانت تاتيهم حينئذ منهم شُرْعاً <sup>(١)</sup> يوم السبت الذي حرموا فيه الصيد على انفسهم ، ويوم لا يسبتون لا تاتيهم .

ويقول الحق سبحانه:

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ <sup>(٢)</sup> قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ <sup>(٣)</sup> إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْصَحُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ <sup>(٤)</sup> بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ <sup>(٥)</sup> ﴿١٦٥﴾ ﴾

[الأعراف]

(١) شرح: ظهر وأشرف فهو شارع أى: بارز ظاهر، وجمعه شُرْعٌ ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِينَئِذِهِمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا ..

﴿١٦٤﴾ [الأعراف] بارزة واضحة في الماء. [القاموس القويم: ٢٤٦/١].

(٢) وعظه يعظه وعظاً وعظة: نصحه بالطاعة وبالعامل الصالح، وأرشده إلى الخير. قال تعالى مصوراً عناد الكافرين: ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَصْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنْ الْوَاعِظِينَ ﴾ [الشعراء] فهم لشدة عنادهم وكفرهم يستوى عندهم الامران: الوعظ، وعدم الوعظ.

والموعظة: ما يوعظ به من قول أو فعل. قال تعالى: ﴿ .. وَمَوْعِظَةُ الْمُنْثِقِينَ ﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ .. ﴾ [النحل]. [القاموس القويم: مادة (وعظ)].

(٣) المعذرة: مصدر ميمي، واسم للعتذار، وللحجة. وعذره قبل عذره وسامحه. قال تعالى: ﴿ مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ .. ﴾ [الأعراف] أى: اعتذاراً له ببذل الجهد في السعي لهداية الناس. وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّنَىٰ مَعَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة] . [القاموس القويم: مادة عذر].

(٤) يؤس يؤوس بآساً: شجع واشتد، فهو بشيس، أى: شديد. ويقال: فارس بشيس، أى: قوى شجاع. قال تعالى: ﴿ .. وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف] أى: عذاب شديد. [القاموس القويم: مادة (بؤس)].

(٥) فسقت الرطبة فسوقاً وفسقاً: خرجت من قشرتها. ومن هذا المعنى المادى أخذ المعنى المعنوى، فقيل: فسق الرجل: خرج من طاعة الله خروجاً فاحشاً. والفسق أعم من الكفر، فقد يكون فاسقاً ولا يكون كافراً؛ كالمسلم الماصى. قال تعالى: ﴿ .. إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَسَبِّحُوا .. ﴾ [الحجرات]. وقال تعالى: ﴿ الْفَاسِقُ كَانَ مُؤْمِنًا كَفَرَ ثُمَّ كَفَرَ فَاسِقًا .. ﴾ [السجدة] أى: كافراً غير مؤمن، فالفسوق هنا - في الآية الأخيرة - بمعنى: الكفر. [القاموس القويم: مادة (فسق)] يتصرف.

هكذا أنجى الله سبحانه الذين نهوا عن السوء فى تلك القرية ، وقد نرى فى بعض المجتمعات عنصريين:

الأول: أنه لا توجد طائفة تنهى عن الفساد.

والعنصر الثانى أن يفتح على المجتمع باب الترف على مصراعيه، وفى انفتاح باب الترف على مصراعيه مذلة للبشر ؛ لأنك قد تجد إنساناً لا تترفع إمكاناته ؛ فيزيد هذه الإمكانيات بالرشوة والسرقة والغصب.

وكل ذلك إنما ينشأ لأن الإنسان يرى مترفين يتنعمون بنعيم لا تؤمله إمكاناته أن يتنعم به.

ويقول الحق سبحانه وتعالى عن إهلاك مثل هذه المجتمعات :

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا <sup>(١)</sup> .. ﴾ [الاسراء]

وبعض الناس يفهمون هذه الآية الكريمة على غير وجهها ؛ فهم يفهمون الفسق على أنه نتيجة لأمر من الله - سبحانه وتعالى - والحقيقة أنهم إنما قد خالفوا أمر الله ؛ لأن الحق سبحانه يقول:

﴿ وَمَا أَمُرُوا إِلَّا لِیَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ <sup>(٢)</sup> لَهُ الدِّينَ .. ﴾ [البينة]

أى: أن الحق سبحانه أمر المترفين أن يتبعوا منهج الله ، لكنهم خالفوا المنهج الإلهى مختارين ؛ ففسقوا عن أمر ربهم.

(١) أمرنا مترفيها: أمرنا متتبعيها بطاعة الله. ففسقوا. فتمردوا وعصوا. [كلمات القرآن للشيخ محمد حسنين مخلوف].

(٢) أخلص دينه لله. طهره وصفاه من شوائب الشرك والرياء. قال تعالى: ﴿ .. فَأَمَدَ اللَّهُ مَخْلَصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ [الزمر] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرْنَاهُ الْفَارُ <sup>(٣)</sup> ﴾ [سورة ص] أى. إنا اخترناهم وخصصناهم بفضيلة خالصة خاصة فى ذكرى النار الآخرة، فذكرناهم والتذكير بها من شأن الأنبياء والرسل. وهى فضيلة عظيمة خاصة بهم. [القاموس القويم: مادة (خلص)].

وفى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرها عنها:

﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ .. (١١٦)﴾ [هود]

وقوله سبحانه: (ظلموا) تبين أن مادة الترف التى عاشوا فيها جاءت من الظلم ، وأخذ حقوق الناس وامتنصاص دماء الكاذبين.

ومادة (تurf) تعنى النعمة يتنعم بها الإنسان. ومنها: أترف ، وأترف ، وكلمة «أترف» أى: أطفته النعمة ، وأنسته المنعم سبحانه. وأترف ، أى: مد الله له فى النعمة ليأخذه أخذ عزيز مقتدر.

والحق سبحانه يقول:

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ<sup>(١)</sup> كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً<sup>(٢)</sup> .. (٤٤)﴾ [الأنعام]

فمن يمسك عدوه ليرفعه ؛ فلا يظن ظان أنه يدله ، ولكنه يرفعه ليلقيه من عل ، فيزداد ويعظم ألمه . وكان الله سبحانه قد أعطى أمثال هؤلاء نعمة ؛ ليطفوا.

ولنا أن ننتبه إلى كلمة «الفتح» التى تجعل النفس منشرفة ، وعلينا أن ننتبه إلى المتعلق بها ، أهو فتح عليك ، أم فتح لك ؟

(١) الباب. مدخل المكان، وجسمه: أبواب، ويستعمل مجازاً فيما يوصل إلى غيره ، قال تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا .. (٢٥)﴾ [البقرة] هو باب حقيقى للبلد.

وقال تعالى ﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ .. (٧٧)﴾ [المؤمنون] أى: أصبناهم بعذاب شديد، كأنه خلف باب مقلق ففتح وتدفق العذاب عليهم. وقال تعالى: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ .. (١١)﴾ [الأنعام] أى: منحناهم أصناف النعم من صحة ومال وجاء، وغير ذلك كانتها كانت خلف أبواب مغلقة ففتحت. [القاموس القويم مادة ب و ب].

(٢) بغتة وبغتة: فاجأه على غرة وغفلة. قال تعالى: ﴿.. فَاخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥)﴾ [الأعراف] . [القاموس القويم: مادة (بغت) ].

إن فُتِحَ عليك : فافهم أن النعمة جاءت لتطفيك ، ولكن إن فُتِحَ لك ،  
فهذا تيسير منه سبحانه ، فهو القائل:

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا <sup>(١)</sup> لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ ﴾ [الفتح]

وهؤلاء الذين يحدثنا الحق سبحانه عنهم في هذه الآية التي نحن بصدد  
خواتمها : قد فتح الله سبحانه عليهم أبواب الضر : لأنهم غفلوا عنه.  
ويُنهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله:

﴿ .. وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ۝١١٦ ﴾ [هود]

أى: كانوا يقطعون ما كان يجب أن يوصل : وهو اتباع منهج  
السماء : لأن كلمة (مجرمين) مأخوذة من مادة «جرم» <sup>(٢)</sup> وتعنى:  
«قطع» ، وقطع اتباع منهج السماء : والغفلة عن الإيمان بالخالق  
سبحانه ، والاستغراق فى الترف الذى حققوه لأنفسهم بظلم الغير ،  
وأخذ نتيجة عرق وجهد الغير.

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك:

(١) فتح يفتح فتحاً: ضد أغلق. ويسمى النصر على العدو فتحاً لأنه يفتح بلاده للمنتصر. قال تعالى:  
﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ .. ۝١٢٧ ﴾ [الاعراف] أى: انصبرنا عليهم، ويجوز أن يكون المعنى:  
ربنا افتح بيننا وبين قومنا باب التقام والمحبة بالحق حتى يؤمنوا ويتركوا عناهم. وقال تعالى:  
﴿ لَا تَفْتَحْ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ .. ۝١٢٨ ﴾ [الاعراف] أى: لا يرضى عنهم الله، ولا يبالون رحمته كان  
السماء مغلقة أمامهم كما تطلق أبواب الملوك فى وجه الذين لا يرغبون فى لقاءهم. [القاموس  
القيوم : مادة (فتح)].

(٢) جرم الشيء جرماً: قطعه، وغلب هذا الفعل على فعل الشر. يقال: جرم: أذنب، وجنى جناية. وجرم  
المال: كسبه من أى وجه. وجرمه: حمله على فعل شر أو ننب وجرم. قال تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ  
شَتَانُ قَوْمٍ عَلَى الْآخَرِينَ .. ۝١٢٨ ﴾ [المائدة] أى: لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل، أى التزموا  
العدل حتى مع من تكرهونهم. أى اعدلوا دائماً فالعدل أقرب للثبوت. [القاموس القويم - مادة :  
جرم].

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ  
وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (١١٧)

وساعة تقرا أو تسمع ( ما كان ) يتطرق إلى ذهتك : ما كان ينبغي <sup>(١)</sup> .  
ومثال ذلك: هو قولنا: «ما كان يصح لفلان أن يفعل كذا» . وقولنا  
هذا يعني أن فلاناً قد فعل أمراً لا ينبغي أن يصدر منه .  
وهناك فرق بين نفى الوجود : ونفى انبغاء الوجود .  
والحق سبحانه يقول:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ..﴾ (٦٩) [يس]

وهذا لا يعني أن طبيعة الرسول ﷺ جامدة ، ولا يستطيع - معاذ  
الله - أن يتذوق المعاني الجميلة ؛ لأنه ﷺ جَبِلٌ <sup>(٢)</sup> على الرحمة : وقد  
قال فيه الحق سبحانه:

(١) هلك: يهلك ملكاً وملكاً وهلكاً وهلاكاً، ومهلكاً - بفتح اللام وبكسرهما - وتهلكة : مات ونفى، فهو هالك.  
قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ..﴾ (٥٨) [القصاص] وقال تعالى: ﴿لِيُهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ آيَةٍ ..﴾  
(٤٧) [الأنفال] وقال تعالى: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ ..﴾ (٤٩) [النمل]. وقوله تعالى: ﴿هَلْكَ عَنِّي  
سُلْطَانِيَّةٌ﴾ (٧٩) [الحاقة] أي: ذهب وضاع ولم يبق لي عز ولا سلطان، وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَمْرٌ هَلْكَ  
نَاسٍ لَهُ وَلَدٌ ..﴾ (٧٦) [النساء] أي: مات وليس له ولد يرثه، وأهلكه: أمانته وأفسده، أو كان سبباً في  
هلاكه. قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ (٤١) [النجم] أي: أفتاهم وأبادهم. [القاموس القويم  
مادة هلك] بتصرف.

(٢) قال الإمام أبو يحيى زكريا الأنصاري في مفتاح الرحمن (ص ١٩٥) : «نفى الله الظلم عن نفسه  
بأبلغ لفظ يستعمل في النفي، لأن اللام فيه لام الجسود، والمضارع يفيد الاستمرار، فمعناه:  
ما فعلت الظلم فيما مضى، ولا أفعله في الحال، ولا في المستقبل فكان غاية في النفي» .  
(٣) جبل الله الخلق جبلاً : خلقهم . ويقال: جبلة على كذا: طبعه . وفي الأثر : «جبلت القلوب على حب من  
أحسن إليها» . وجبل الشيء: شده وأوثقه . وجبل فلاناً على الشيء والأمر: جبره، [المعجم  
الوسيط: مادة (جبل)] .

﴿ قَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ .. ﴾ (١٥٩)

[آل عمران]

ولهذا نفهم قوله الحق:

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ .. ﴾ (٦٩)

[يس]

أى : أن الحق سبحانه لم يشأ له أن يكون شاعراً.

وهكذا نفهم أن هناك فرقاً بين «نفى الوجود» وبين «نفى انبغاء الوجود».

والحق سبحانه يقول هنا:

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ .. ﴾ (١١٧)

[هود]

أى: لا يتأتى ، ويستحيل أن يهلك الله القرى بظلم ؛ لأن مراد الظالم أن يأخذ حق الغير لينتفع به ؛ ولا يوجد عند الناس ما يزيد الله شيئاً؛ لأنه سبحانه واهب كل شيء ؛ لذلك فالظلم غير وارد على الإطلاق فى العلاقة بين الخالق سبحانه وبين البشر.

وحين يورد الحق سبحانه كلمة «القرى» - وهى أماكن السكن -

فلنعلم أن المراد هو «المكين» ، مثل قول الحق سبحانه:

﴿ وَاسْتَلْهُمُ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً <sup>(١)</sup> الْبَحْرِ .. ﴾ (١٦٣)

[الاعراف]

وقوله الحق أيضاً:

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ <sup>(٢)</sup> الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. ﴾ (٨٢)

[يوسف]

(١) حاضرة البحر، أى: مشرفة عليه، مجاورة له غير بعيدة عنه. [القاموس القويم ١/ ١٥٩] بتصرف.

(٢) القرية: البلدة الكبيرة، تكون أقل من المدينة، أو هى كل مكان اتصلت به الأبنية. قال تعالى:

﴿ ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ .. ﴾ [البقرة] ، ثم قال: ﴿ واسأل القرية الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. ﴾ [يوسف] أى:

أهل القرية. مجاز يرسل علاقته المحلية. وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَأَنَّمِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَهُمْ مِنْهَا فَلَا تَأْمُرُهُمْ فَلَا تَنْصُرُهُمْ ﴾ [محمد] والمراد: أهلها أشد من أهل مكة الذين أخرجوك.

[القاموس القويم ٢/ ١١٥].



والحق سبحانه في مثل هاتين الآيتين : وكذلك الآية التي نتناولها الآن بهذه الخواطر إنما يسأل عن المكين.

والله سبحانه يقول هنا:

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ ۖ ۝١١٧ ﴾ [هود]

أي: أنه مُنْزَهٌ عن أن يهلكهم بمجاوزة حدٍّ ، لكن له أن يهلكهم بعدل؛ لأن العدل ميزان، فإن كان الوزن ناقصاً كان الخسران، ومن العدل العقاب، وإن كان الوزن مستوفياً كان الثواب.

وفي مجالنا البشري : لحظة أن نأخذ الظالم بالعقوبة : فنحن نتعبه فعلاً : لكننا نريح كل المظلومين : وهذه هي العدالة فعلاً.

ومن خطأ التقنيات الوضعية البشرية هو ذلك التراخي في إنفاذ الحقوق في التقاضى : فقد تحدث الجريمة اليوم : ولا يصدر الحكم بعقاب المجرم إلا بعد عشر سنوات ، واتساع المسافة بين ارتكاب الجريمة وبين توقيع العقوبة : إنما هو واحد من أخطاء التقنيات الوضعية : ففي هذا تراخٍ في إنفاذ حقوق التقاضى : لأن اتساع المسافة بين ارتكاب الجريمة وبين توقيع العقوبة : إنما يضعف الإحساس ببشاعة الجريمة.

ولذلك حرص المشرع الإسلامى على ألا تطول المسافة الزمنية بين وقوع الجريمة وبين إنزال العقوبة ، فعقاب المجرم فى حُمُوءٍ<sup>(١)</sup> وجود الأثر النفسى عند المجتمع : يجعل المجتمع راضياً بعقاب

(١) حموة الالم: سررتة، وشدته، سواء أكان الالم مادياً أم معنوياً. [المعجم الوسيط مادة: (حمو)]  
بتصرف.

المجرم، ويذكر الجميع ببشاعة ما ارتكب : ويوازن بين الجريمة وبين عقوبتها.

ويقول الحق سبحانه هنا:

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ <sup>(١)</sup> ﴾ [هود]

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه:

﴿ .. لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا غَافِلُونَ <sup>(٢)</sup> ﴾ [الأنعام]

إذن: لا بد من إزاحة الغفلة أولاً ، وقد أزاح الله سبحانه الغفلة عنا

(١) أصلح الأمر إصلاحاً: أزال إفساده. قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْسِرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَدِ إِصْلَاحِهَا ..﴾ [الأعراف]. وأصلح بين الرجلين: أزال ما بينهما من خلاف وخصام. قال تعالى: ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَعْيُنِكُمْ ..﴾ [الحجرات]. ومصالحون: جمع مصلح. والمصلح: اسم فاعل، من الفعل «أصلح». قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَهْتِمُ الْمُفْسِدِ مِنَ الْمُصْلِحِ ..﴾ [البقرة]. وقال تعالى: ﴿.. فَأَتُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة]. وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود]. وقال تعالى: ﴿.. إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف]. [القاموس القويم : مادة (صلح)] [بتصرف].

(٢) غفل عن الأمر، يغلغل غفولاً: تركه عمداً، أو عن غير عمد. وأغفله - متعد بالهمزة -: تركه عن عمد. وأغل غيرُه عن الأمر: جعله يغلغل عنه. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطْعَمُنَّ أَغْلَانًا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ..﴾ [الكهف] أي: جعلناه غافلاً عن ذكرنا. والغفلة: سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ وعدم اليقظة. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ..﴾ [ق] أي: غافلاً عن إيراد القيامة، وغافلاً عن أحداث ما بعد الموت. وقال تعالى: ﴿رَدِّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَنصَلُونَ عَنْ أَسْبَاحِكُمْ ..﴾ [النساء] أي: تسهون عنها وتتركون حراستها فينقضون عليكم. وقال تعالى: ﴿.. وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة] أي: إن الله عالم، يعلم بكل ما تعملون، لا يسهو عن شيء منه. وقال تعالى: ﴿.. أَوَلَيْكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف] أي: الذين لا يدركون الحق ولا يهتدون إليه فيعرضون عنه. [القاموس القويم : مادة (غلل)] [بتصرف].

بإرسال الرسل وبالبيان وبالنذر ! حتى لا تكون هناك عقوبة إلا على جريمة سبق التشريع لها <sup>(١)</sup>.

وهكذا أعطانا الله سبحانه وتعالى البيان اللازم لإدارة الحياة ، ثم جاء من بعد ذلك الأمر بضرورة الإصلاح:

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود]

والإصلاح فى الكون هو استقبال ما خلق الله سبحانه لنا فى الكون من ضروريات لنتنفع بها ، وقد كفانا الله ضروريات الحياة ؛ وأمرنا أن نأخذ بالأسباب لنطور بالابتكارات وسائل الترف فى الحياة.

وضروريات الحياة من طعام وماء وهواء موجودة فى الكون ، والتزاوج متاح بوجود الذكر والأنثى فى الكائنات المخلوقة ، أما ما نصنعه نحن من تجويد لاساليب الحياة ورفاهيتها فهذا هو الإصلاح المطلوب منا.

وسبق أن قلنا: إن المصلح هو الذى يترك الصالح على صلاحه ، أو يزيده صلاحاً يؤدى إلى ترفه وإلى راحتة ، وإلى الوصول إلى الغاية بأقل مجهود فى أقل وقت.

والقرى التى يصلح أهلها ؛ لا يهلكها الله ؛ لأن الإصلاح إما أن يكون قد جاء نتيجة اتباع منهج نزل من الله تعالى ؛ فتوازنت به حركة الإنسان مع حركة الكون ، ولم تتعاند الحركات ؛ بل تتساند وتتعاقد، ويتواجد المجتمع المنشود.

(١) يقول الحق سبحانه: ﴿ .. وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء].

وأما أن هؤلاء الناس لم يؤمنوا بمنهج سماوى ، ولكنهم اهتموا إلى أسلوب عمل يريحهم، مثل الامم الملحدة التى اهتمت إلى شىء ينظم حياتهم ؛ لأن الله سبحانه وتعالى لم يمنع العقل البشرى أن يصل إلى وضع قانون يريح الناس.

لكن هذا العقل لا يصل إلى هذا القانون إلا بعد أن يرهق البشر من المتاعب والمصاعب ، أما المنهج السماوى فقد شاء به الله سبحانه أن يقى الناس أنفسهم من التعب ، فلا تعرضهم الأحداث.

وهكذا نجد القوانين الوضعية وهى تعالج بعض الداءات التى يعانى منها البشر ، لا تعطى عائد الكمال الاجتماعى، أما قوانين السماء فهى تقى البشر من البداية فلا يقعون فيما يؤلمهم.

وهكذا نفهم قول الحق سبحانه:

﴿ .. وَأَهلُّهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (١١٧)

[هود]

لأنهم إما أن يكونوا متبعين لمنهج سماوى، وإما أن يكونوا غير متبعين لمنهج سماوى ، لكنهم يصلحون أنفسهم.

إنن: فالحق سبحانه وتعالى لا يهلك القرى لأنها كافرة ؛ بل يبقيها كافرة ما دامت تضع القوانين التى تنظم حقوق وواجبات أفرادها ؛ وإن دفعت ثمن ذلك من تعاسة وآلام.

ولكن على المؤمن أن يعلن لهم منهج الله ؛ فإن أقبلوا عليه ففى ذلك سعادتهم ، وإن لم يقبلوا ؛ فعلى المؤمنين أن يكتفوا من هؤلاء الكافرين بعدم معارضة المنهج الإيمانى.

ولذلك نجد - في البلاد التي فتحها الإسلام - أناساً بقوا على دينهم ؛ لأن الإسلام لم يدخل أى بلد لحمل الناس على أن يكونوا مسلمين ، بل جاء الإسلام بالدليل المقنع مع القوة التي تحمى حق الإنسان في اختيار عقيدته.

يقول الله جلّ علاه :

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٨)

[المتحنة]

فإذا كانت بعض المجتمعات غير مؤمنة بالله ، ومصلحة ؛ فالحق سبحانه لا يهلكها بل يعطيهم ما يستحقونه في الحياة الدنيا ؛ لأنه سبحانه القائل:

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ (٢٠)

[الشورى]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك:

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ

مُخْتَلِفِينَ ﴾ (١٨)

(١) حرث الأرض، يحرثها حرثاً: أثارها وهيأها للزراعة، أولقى فيها الحب للزراعة. وحرث الأرض زرعها. قال تعالى: ﴿الرَّايِظُمْ مَا تحَرَثُونَ﴾ (١٦) أنتم تزرعون أم نحن الزارعون (١٧) [الواقعة] . ويطلق الحرث على الزرع. قال تعالى: ﴿وَيَهْلِكُ الْفَحْرُ وَالْأَنْثَلُ ..﴾ (١٥) [البقرة] أى: يهلك المزروعات، والنسل من الإنسان والحيوان. وقال تعالى: ﴿بِسَاءِ مَا حَرَّثَ لَكُمْ ..﴾ (١٦) [البقرة] على التشبيه بالأرض المهيأة للزراعة فهذه بلدن لكم النرية. ومن المجاز قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ..﴾ (٢٠) [الشورى] أى: فى ثواب الآخرة. وقوله تعالى: ﴿أَنْ اغْنُوا عَلَى حَرْثِكُمْ ..﴾ (٢١) [القلم] أى: على زرعكم أو حديقتكم المزروعة. [القاموس القويم: مادة (حرث)].

## سُورَةُ هُودٍ

٦٧٥٦

ونحن نعلم أن الإنسان قد طرأ على هذا الكون بعد أن خلق الله - سبحانه - في هذا الكون كل مقومات الحياة : المسخرة بأمر الله لهذا الإنسان : ليمارس مهمة الخلافة في الأرض : ولم تتأب<sup>(١)</sup> تلك الكائنات على خدمة الإنسان ، سواء أكان مؤمناً أم كافراً : لأن الحق - سبحانه - هو الذي استدعى الإنسان إلى الوجود ، وما دام قد استدعاه : فهو - سبحانه - لن يرضى عليه بمقومات هذا الوجود : من بقاء حياة ، وبقاء نوع.

وهذا هو عطاء الربوبية الذي كفله الله - سبحانه - لكل البشر : مؤمنهم وكافرهم ، وهو عطاء يختلف عن عطاء الألوهية المتمثل في المنهج الإيماني : «افعل» و «لا تفعل».

ومن يأخذ عطاء الألوهية مع عطاء الربوبية فهو من سعداء الدنيا والآخرة<sup>(٢)</sup>.

إذن : فقدرة الله - سبحانه - قد أرغمت الكون - دون الإنسان - أن يؤدي مهمته ، وكان من الممكن أن يجعل البشر أمة واحدة مهتدية لا تخرج عن نظام إرادته الله - سبحانه وتعالى<sup>(٣)</sup> - كما لم تخرج الشمس أو القمر أو الهواء أو أى من الكائنات الأخرى المسخرة عن إرادته.

(١) أبى إباء وإبادة، وتأبى عليه: استعصى. وأبى الشيء: كرهه ولم يرضه. وفي التنزيل العزيز: ﴿وَأبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُعْطَى نُورَهُ...﴾ (٢٦) [التوبة] . وفي المثل: «رضى الخصمان وأبى القاضي» يضرب

لمن يطالب بحق تزل أصحابه عنه. [المعجم الوسيط : مادة (أبى)] بتصرف.

(٢) يقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخْفُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ (٣١) نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢)﴾ [فصلت] .

(٣) يقول تعالى: ﴿... وَتَوَّضَّاءَ لِهَيْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٦)﴾ [النحل]. ويقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾

(٤٨) [العنكبوت]. ويقول أيضاً: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مِنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ...﴾ (٥٨)

[الشورى].

لأن الحق - تبارك وتعالى - أثبت لنفسه طلاقة القدرة فى تسخير  
أجناس لمراده : بحيث لا تخرج عنه ، وذلك يثبت لله - سبحانه -  
القدرة ولا يثبت له المحبوبة.

أما الذى يثبت له المحبوبة فهو أن يخلق خلقاً : ويعطيهم فى  
تكوينهم اختياراً.

ويجعل هذا الاختيار كل واحد فيهم صالحاً أن يطيع ، وصالحاً أن  
يعصى ، فلا يذهب إلى الإيمان والطاعة إلا لمحبوبة الله - تعالى .  
وهكذا نعلم أن الكون المسخر المقهور قد كشف لنا سيال<sup>(١)</sup> القدرة ،  
والجنس الذى وهبه الله الاختيار إن أطاع فهو يكشف لنا سيال المحبوبة .  
والحق - سبحانه - هو القائل :

﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ... ﴾ (٢٩) [الكهف]

ولكن أترك الإنسان حتى يأتى له الغرور فى أنه يملك الاختيار دائماً ؟  
لا .. فمع كونك مختاراً إياك أن تغتر بهذا الاختيار : لأن فى طيِّك  
قهر<sup>(٢)</sup> ، وما دام فى طيِّك قهر فعليك أن تتأدب : ولا تتوهم أنك  
مختار فى أن تؤمن بالله أو لا تؤمن : ولا تتوهم أنك مُنْخَلت من  
قبضة الله - تعالى - فهو يملك زمامك<sup>(٣)</sup> فى القهريات التى تحفظ لك

(١) سال يسيل سَيْلاً ، وسَيْلاً ، ومَسَيْلاً ، ومَسَيْلاً ، فهو سائل ، وسَيْال . جرى وطغى . ويقال سالت  
الأرض ونحوها ، وسالت بما فيها . وسالت عليه الخيل وغيرها . جرت من كل وجه وتدفقت . وسال  
بهم السيل ، وجاش بنا البحر وقعوا فى أمر شديد . ووقعنا نحن فى أشد منه . وسالت الغرة :  
استطلت وعرضت فى الجبهة وقصبة الأنف .

وسَيْال القدرة الإلهية : ظهور آثارها فى جميع المخلوقات ، وانتشارها وشمولها لكل شىء فى  
الكون ، ما عظمها منه وما لم نعلم . [المعجم الوسيط : مادة (سِيل)] بتصرف .  
(٢) لأن الإنسان مختار فيما يستطيع البديل فيه ، مقهور فيما لا يستطيع إبداله . إذن : للاختيار حدود  
مقرونة بالاستطاعة ، والطاقة البشرية .

(٣) الزمام . الخيط الذى يشد فى البرة أو فى الخشاش ثم يشد إلى طرف المقود . ويقال : هو زمام  
قومه . قائدهم ومقدمهم وصاحب أمرهم . وهو زمام الأمر : ملاكه . وألقى فى يده زمام أمره  
فوضه إليه . ويملك الله زمامك . أى : يملك أمورك كلها . [المعجم الوسيط : مادة (زَمَم)] بتصرف .

حياتك مثل: الحيوان والنبات والجماد ، ولكنه - سبحانه - مَيِّزٌك بالعقل.  
وخطأ الإنسان دائماً أنه قد يعطى الأسماء معانى ضد مسمياتها ،  
فكلمة «العقل» مأخوذة من «عقل»<sup>(١)</sup> وتعنى : «ربط» ؛ فلا تجمع<sup>(٢)</sup>  
بعقلك فى غير المطلوب منه ؛ لأن مهمة العقل أن يكبح جماحك. وتذكر  
دائماً: فى قبضة من أنت ؛ وفى زمام من أنت ؛ وفى أى الأمور أنت  
مقهور؟

وما دُمْتَ مقهوراً فى أشياء فاختر أن تكون مقهوراً لمنهج الله  
سبحانه واحفظ أدبك مع الله ، واعلم أنه قد وهبك كل وجودك سواء  
ما أنت مختار فيه أو مقهور عليه.

وانظر إلى من سلبهم الحق - سبحانه - بعض ما كانوا يظنون أنها  
أمور ذاتية فيهم ، فتجد من كان يحرك قدمه غير قادر على تحريكها ،  
أو يحاول أن يرفع يده فلا يستطيع.

ولو كانت مثل هذه الأمور ذاتية فى الإنسان لما عَصَتْهُ ، وهذا دليل  
على أنها أمور موهوبة من الله ، وإن شاء أخذها، فهو - سبحانه -  
ياخذها ليؤدّب صاحبها.

ومادام الإنسان بهذا الشكل، فليقل لنفسه: إياك أن تَفْتَخِرَ بأن الله

(١) عَقْلٌ يعقلُ عقلاً: أدرك الأشياء على حقيقتها. وعَقْلٌ البعير: ضَمُّ رُسْغٍ يده إلى عَصَدِهِ وربطهما معاً  
بالمقال: ليبقى باركاً. والعقل: ما يكون به التفكير وتصور الأشياء على حقيقتها. كقوله تعالى:  
﴿ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ .. ﴾ [البقرة] ٧٥ أى: أدركوه على حقيقتها وعلموه علماً ثابتاً. قال تعالى:  
﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك] ١٧ أى: لو كنا ندرك الأمر على  
حقيقته. وقد نعى القرآن كثيراً على من لا يستعملون عقولهم، وحث على استعمال العقل، فمن ذلك  
قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة] ١٧٠. [القاموس القويم: مادة (عقل)] يتصرف.

(٢) جمع: أسرع. والجموح: الرجل يركب هواه فلا يسن رده. [مختار القاموس - مادة جمع].



جعل فيك زاوية اختيار، وتذكر أنك على أساس من هذه الزاوية تتلقى التكليف من الله بـ «افعل»<sup>(١)</sup>، و«لا تفعل»؛ لأن معنى «افعل كذا»؛ أنك صالحٌ ألا تفعل؛ ومعنى «لا تفعل كذا»؛ أنك صالحٌ أن تفعل؛ لأن لديك منطقة اختيار؛ ولكن لديك في زواياك الأخرى منطقة قَهْرٍ وتسخير، فتأدّب في منطقة الاختيار، كما تأدبت في منطقة الاضطرار والقهر.

وقد وصف الحق - سبحانه - الإنسان بأنه كنود، قال تعالى:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ<sup>(٢)</sup>﴾ [العاديات]

لأن الإنسان لا يتذكر أحياناً أن مهمة عقله الأولى هي أن يعقل حدوده، وأن يقول لنفسه: مادامت الحيوانية في مقهورة، ومادامت الجمادية في مقهورة؛ فَلَاكُنْ مؤدباً مع ربي، وأجعل منطقة الاختيار على مراد منهج الله.

وأنت إن أردت أن تضع إحصائية لـ «افعل» ولا «تفعل» لوجدت ما لم يرد فيه تكليف بـ «افعل»، و«لا تفعل»، لا يقل عن خمسة وتسعين في المائة من حركة الحياة، وهو المباح.

وأنزل الله - سبحانه - التكليف لتنضبط به حركة حياتك كلها - إن جعلت التكليف هو مرادك - وهو لن يأخذ أكثر من خمسة في المائة من حركة الحياة ، ويعود خير ذلك عليك.

(١) وكلمة افعل ولا تفعل تدور حول مطلوبات المنهج أمراً ونهيّاً، فالفرض والواجب والسنة والمستحب مأمور بهم. والحرام والمكروه منهيّ عنهما، وللأمر عطاؤه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلَىٰ بِأَلْيَاكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِیَ الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُی اُنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ [فصلت] والنهي مقابله أو المنغرة من الله.

(٢) كند النعمة بكدها : جدها ولم يشكرها. فهو كاند. وصيغة المبالغة «كنود». قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات] أي : كَفُور شديد الجعود . [ القاموس القويم: مادة (كند)].

فساعة يقول لك التكليف: عليك أن تزكى عن مالك، فلا بد لك من أن تقدّر المقابل، لأنك إن افتقرت واحتجت! سيأتيك من زكاة الآخرين ما يلبي احتياجاتك، فمن «افعل» التي تلتزم بها ويلتزم بها غيرك تأتي الثمرة التي تسدّ عجز أي ضعف في المجتمع الإيمانى بالتراحم المتبادل النابع عن اليقين بالمنهج.

وحين يقول لك التكليف: لا تعتمد على حُرّمات الغير، فهو يقيد حريتك في ظاهر الأمر، لكنه يحمي حُرّماتك من أن يعتدى عليها الغير، وحين تتعقل أوامر التكليف كلها ستجدها لصالحك: سواء أكان الأمر بـ «افعل» أو «لا تفعل».

وهنا يقول الحق - سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾ (١٨٨) [هود].

و «لو» تفيد الامتناع<sup>(١)</sup>. أى: أن الله - تعالى - لم يجعل الناس أمة واحدة، بل جعلهم مختلفين.

(١) لو: حرف شرط غير جازم، ومعناه: امتناع الشرط لامتناع الجواب. قال تعالى: ﴿لَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَاهُ حُطًا...﴾ [الواقعة]. ويقترون جوابها باللام للتوكيد، وقد لا يقترون باللام، كقوله تعالى: ﴿لَوْ شَاءَ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة] ويقول اقتتران جوابها باللام إذا كان منفياً كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ...﴾ [لقمان] ثم قال: ﴿مَا نَفَذْتُ كَلِمَاتُ اللَّهِ...﴾ [لقمان]. وقد يُحذف جواب لو كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا قَرَأْنَا سُبُوتَ بَهِ الْجِبَالِ أَوْ قَطَعْنَا بِهِ الْأَرْضَ...﴾ [الرعد] الجواب محذوف تقديره: لكان هذا القرآن العظيم يفعل ذلك، ولكن الله لم يجعل قرآننا بهذه الصفة. [القاموس القويم ٢٠٦/٢].

وقد تستعمل «لو» حرفاً مصدرياً مثل «إن» ويكثر ذلك بعد كلمة «ودّه»، وكلمة «أحبّ»، وما يشبههما، كقوله تعالى: ﴿يُودُّ أَحِبَّاهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ...﴾ [البقرة] أى: يود التعمير ألف سنة، والمصدر المؤول مفعول به للفعل «يودّه».

وقد تستعمل «لو» للتمنى، مثل قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّا كَرَّمْنَا نَضِرًا مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا...﴾ [البقرة] وهى على لسان بعض أهل النار يوم القيامة الذين يتمنون الرجوع إلى الدنيا ليتبرّروا من الكبراء الذين كانوا يتبعونهم في الدنيا ثم تنكروا لهم في الآخرة. [القاموس القويم: مادة (لو)].

وقد حاول بعض من الذين يريدون أن يدخلوا على الإسلام بنقد ما ، فقالوا: ألا تتعارض هذه الآية مع قول الله : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ .. ﴾ (٢١٣) ﴿ [البقرة]

وظن أصحاب هذا القول أن البشر لم يلتفتوا إلى خالقهم من البداية ؛ ثم بعث الله الأنبياء ليلفتهم إلى المنهج.

ونقول لهؤلاء . لا ، فقد ضمن الحق - سبحانه - للناس قوتهم وقوام حياتهم، وكذلك ضمن لهم المنهج الإيماني منذ أن أمر آدم وزوجه بالهبوط إلى الأرض لممارسة مهمة الخلافة فيها، وقال الله - سبحانه: ﴿ فَمَنْ أَتَّبِعْ هَٰذَايَ <sup>(١)</sup> فَلَا يَضِلَّ <sup>(٢)</sup> وَلَا يَشْقَى <sup>(٣)</sup> .. ﴾ (٢١٣) ﴿ [طه]

ولو استقصى هؤلاء الآيات التي تعالج هذا الامر، وهي ثلاث آيات، فهنا يقول الحق - سبحانه: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً .. ﴾ (١١٨) ﴿ [هود]

(١) هداه الطريق يهديه هدياً ومداية وهْدَى أعلمه إياه، وعَرَفَه له، وأرشده إليه، فهو هادٍ ومن المجاز المعنوي: هداه الحق، أو هداه إلى الحق: دلَّاهُ عليه وأرشده إليه

والهْدَى : مصدر الفعل «هدى»، ويأتي بمعنى الإرشاد، ويوصف به للمبالغة، كقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ لَهُ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢١) ﴾ [البقرة] أي هادٍ للمتقين، وذلك إذا وقفنا على قوله تعالى : ﴿ لَا رَيْبَ لَهُ .. ﴾ (٢١) ﴿ [البقرة] فالكتاب هُدًى للمتقين، أي . هادٍ لهم. وأما إذا وقفنا على قوله تعالى ﴿ لَا رَيْبَ .. ﴾ (٢١) ﴿ [البقرة] فيكون هُدًى مصبواً بمعنى هُداية، أي في الكتاب هداية للمتقين لا ريب في ذلك. [القاموس القويم مادة (هدى)] بتصرف.

(٢) ضلُّ الكافر. غاب عن الحجة المقنعة وعدل عن الطريق المستقيم، ولم يعرف الحق، والضلال. النسيان والضياع. قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي .. ﴾ (٥٠) ﴿ [سبأ] . [ القاموس القويم : مادة (ضلل) ].

(٣) شقى شقاً شقاءً وشقاوة ساءت حاله المادية أو المعنوية. فهو شقيٌّ. قال تعالى : ﴿ قَاتِلُوا رَبَّنَا غَبَّتْ عَلَيْنَا شَقَوَاتُنَا .. ﴾ (١٠٦) ﴿ [المؤمنون] أي . حالة الشقاء والضلال وفساد النفوس. وقال تعالى ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢٦) ﴿ [طه] أي لتحزن وتتألم أسفاً على عصيانهم [القاموس القويم: مادة (شقى)] بتصرف.

وفى الآية التى ظنوا أنها تتعارض مع الآية التى نحن بصدد  
خواتمها عنها يقول - سبحانه :

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ  
الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ  
مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ  
الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٢١٣) [البقرة]

وهكذا نعرف أن الحق سبحانه وتعالى أنزل المنهج مع آدم -  
عليه السلام - ثم طرأت الغفلة<sup>(١)</sup> : فاختلف الناس ، فبعث الله الانبياء  
ليحكموا فيما اختلف فيه الناس.

إذن : فقول الله - تعالى:

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً .. ﴾ (١١٨) [هود]

يعنى أنه - سبحانه - لو شاء لجعل الناس كلهم على هداية؛ لأنه  
بعد أن خلقهم؛ وأنزلهم إلى الأرض؛ وأنزل لهم المنهج : كانوا على  
هداية، ولكن بحكم خاصية الاختيار التى منحها الله لهم، اختلفوا.

ثم يقول الحق - سبحانه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ .. ﴾ (١١٨) [هود]

أى : أنهم سيظلون على الخلاف.

ويأتى الحق - سبحانه وتعالى - فى الآية التالية بالاستثناء فيقول:

(١) الغفلة . سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ وعدم اليقظة . يقول الحق : ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ  
هَذَا .. ﴾ (٦٦) [ق] وتأتى بمعنى عدم الإدراك للحق . وعدم الاعتماد إليه يقول الحق : ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ  
الْأَفْئُتَةُ (١٧٧) ﴾ [الأعراف].

وغفل عن الأمر غُفُولاً تركه عمداً أو عن غير عمد، وأغفله متعدياً بالهمزة . تركه عن عمد . وأغفل  
غيره عن الأمر : جعله يغفل عنه . يقول الحق : ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا .. ﴾ (٢٨) [الكهف]  
أى : جعلناه غافلاً عن ذكرنا. [القاموس القويم بتصريف وترتيب ص ٥٧ ج ٢ ] .

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ  
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١١٩)

أى : أن الحق - سبحانه - قد خلقَ الخلقَ للرحمة والاختلاف.

وساعة نرى «اسم إشارة» أو «ضميراً» عائداً على كلام متقدم،  
فنحن ننظر ماذا تقدم. والمتقدم هنا : ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ  
رَبُّكَ..﴾ (١١٩) ﴿[هود]

والحق - سبحانه وتعالى - حين تكلم عن خلق الإنسان قال :  
﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) ﴿[الذاريات]

ومعنى العبادة<sup>(١)</sup> هو طاعة الله - سبحانه - فى «افعل» و «لا  
تفعل» وهذا هو المراد الشرعى من العبادة ؛ ولكن المرادات الاجتماعية  
تحكمت فيها خاصية الاختيار، فحدث الاختلاف، ونشأ هذا الاختلاف  
عن تعدد الأهواء.

فلو أن هوائاً كان واحداً ؛ لما اختلفنا ، ولكننا نختلف نتيجة  
لاختلاف الأهواء ، فهذا هواء يمينى ؛ وذاك هواء يسارى ؛ وثالث هواء  
شيوخى ؛ ورابع هواء رأسمالى ؛ وخامس هواء وجودى، وكل واحد له  
هوى<sup>(٢)</sup>.

(١) عبادة يعبد عبادة وعبودة أطاعة، فهو عبد. قال تعالى ﴿مَا كَانُوا إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) ﴿[القصص]  
وقال تعالى ﴿إِنَّا نَعْبُدُكَ..﴾ (٥٦) ﴿[الفاتحة]. [القاموس القويم: مادة (عبد)] بتصرف.  
(٢) يقول تعالى : ﴿وَلَا تَطْعَمْنَ مِنْ أَغْلَانِ قَلْبِهِ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (٥٨) ﴿[الكهف].

ولذلك قال الحق - سبحانه: ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ<sup>(١)</sup> لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ .. (٧١)﴾ [المؤمنون]

ولم يكن العالم ليستقيم؛ لو اتبع الله - سبحانه - أهواء البشر المختلفة، ولكن أحوال هذا العالم يمكن أن تستقيم؛ إذا صدرت حركته الاختيارية عن هوى واحد؛ ولذلك قال النبي ﷺ :

«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به»<sup>(٢)</sup> .

وفى حياتنا اليومية نلاحظ أن الأعمال التى تسير بها حركة الحياة وبدون أن ينزل تكليف فيها : نجد فيها اختلافاً لا محالة : لأن الحق سبحانه وتعالى لو شاء لخلقنا كلنا عباقرة فى كل مناحى الحياة : أو يخلقنا كلنا شعراء أو أطباء أو فلاسفة.

ولو شاء - سبحانه - ذلك فمن سيقوم بالأعمال الأخرى ؟ فلو أننا كنا كلنا أطباء فمن يقوم بأعمال الزراعة وغيرها ؟ ولو كنا جميعاً مهندسين ! فمن يقوم بأعمال التجارة وغيرها؟

وقد شاء الحق - سبحانه - أن يجعل مواهبنا مختلفة ليرتبط العالم ببعضه ارتباط تكامل وضرورة : لا ارتباط تفضل.

(١) هوى بهواه هوى : أحبّه وأكثر ما يستعمل فى الباطل وفى الشهوات الضارة. قال تعالى : ﴿لَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ .. (١٢٠)﴾ [النساء] أى : ما تهواه أنفسكم وما تشتهيهِ فيضلّكم ذلك عن الحق. وقال تعالى : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَكْثَرُوا كُثُورًا وَهُمْ لَوَّاهُ .. (٣٧)﴾ [العائدة] [القاموس القويم. ٢/ ٣١٠ ، ٣١١].

(٢) أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب «السنة» (١٢/١) من حديث عبدالله بن عمرو، وأورده ابن رجب الحنبلى فى «جامع العلوم» (ص ٤٦٠) وضعفه

ولذلك يقول الحق - سبحانه:

﴿أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ <sup>(١)</sup> لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا <sup>(٢)</sup> .. (٣٢) ﴿

[الزخرف]

وهكذا نعرف أن رفع الدرجات لا يعنى تلك النظرة الحمقاء الرعناء <sup>(٣)</sup>، والتي تدعى أن فى ذلك التقسيم رفعة للفقير والغنى وتقليلاً لشان الفقير ؛ لأن الواقع يؤكد أن كل إنسان هو مرفوع فى جهة بسبب ما يُحسنه فيها ؛ ومرفوع عليه فى جهة أخرى بسبب ما لا يُحسنه ويُحسنه غيره ، وغيره مكمل له.

وهكذا يتبادل البشر ما يحققه اختلاف مواهبهم <sup>(٤)</sup>، واختلاف المواهب هى مقومات التلاحم.

ولذلك قلنا: إن مجموع سمات ومواهب كل إنسان إنما يتساوى مع مجموع سمات ومواهب كل إنسان آخر ، ولا تفاضل إلا بالتقوى ؛ وقيمة كل امرئ ما يُحسنه.

(١) الدرجة : المرقاة يرقى عليها الصاعد إلى أعلى، ويهبط عليها النازل من أعلى، وهى واحدة درجات السلم، تستعار للمنزلة والمكانة المعنوية فى الفضل والجاه، وفى الاجر والثواب عند الله. قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ .. (١٣٢)﴾ [آل عمران] أى: أنهم منازل مختلفة فى الفضل وفى الثواب كُلُّ بحسب عمله. قال تعالى ﴿وَرَفَعْنَا الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ .. (١٦٥)﴾ [غافر] أى: أن الله عنده المنازل العالية ينزل فيها من يشاء من عباده المقربين، والله عالٍ متعالٍ فوق أعلى الدرجات طيُّ القَدَرِ، جَلُّ شَانِهِ. [القاموس القويم: ٢٢٥/١].

(٢) سَخَّرَهُ يَسْخَرُهُ : أَذَلَّهُ وقهره وأخضعه. قال تعالى ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا .. (٣٢)﴾ [الزخرف] وسَخَّرَهُ بالتشديد: أخضعه وقهره لينفذ ما يريد منه بدون إرادة ولا اختيار من المسخَّر، ومنه قوله تعالى ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .. (١١١)﴾ [البقرة]

[القاموس القويم: ٢٠٦/١]

(٣) الرعونة : الحمق. والأرعن: الأهوج فى منطقته. [لسان العرب: مادة : رعن].

(٤) إن اختلاف المواهب هو للتكامل الإنسانى نحو تيسير حركة الحياة، بخلاف اختلاف الأهواء ففيها فساد لحركة الحياة.

وقد ترى صاحب السيارة الفارمة وهو يرجو عامل إصلاح السيارات الذي يرتدى ملابس رثة<sup>(١)</sup> ومتسخة ؛ ليصلح له سيارته؛ فيقول له العامل: لا وقت عندي لإصلاح سيارتك ؛ فيلج صاحب السيارة الفارمة بالرجاء ؛ فيرضى العامل ويرق قلبه لحال هذا الرجل صاحب السيارة الفارمة ويذهب لإصلاحها.

لذلك أقول : إذا نظرتَ لمن هو دونك في أى مظهر من مظاهر الحياة؛ فلا تغترّ بما تفوقتَ وتميزتَ به عليه ؛ ولكن قلْ لنفسك : لا بد أن هذا الإنسان متفوق في مجال ما.

ونحن نعلم أن الله - سبحانه وتعالى - ليس له أبناء ليميز واحداً بكامل المواهب ، ويترك آخر دون موهبة.

ولذلك يقول الحق - سبحانه - هنا: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مِنْ رَحْمِ رَبِّكَ وَلَئِنْ خَلَقْتَهُمْ .. (١١٩) ﴾ [هود]

وإن كان الاختلاف<sup>(٢)</sup> في المقدرات والمنهج ؛ فهذا ما يولد الكفر أو الإيمان ، ولنا أن نعرف أن الكفر له رسالة ؛ بل هو لازم ليستشعر المؤمن حلاوة الإيمان . ولو لم يكن للكفر وظيفة لما خلقه الله.

وقد قلت قديماً : إن الكفر يعاون الإيمان ؛ متثماً يعاون الألم العافية ، فلولاً الألم لما جئنا بالطبيب ليَشْخُصَ الداء ، ويصفِ الدواء الشافي بإذن الله.

ولذلك نقول : الألم رسول العافية.

والحق سبحانه يقول هنا : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مِنْ رَحْمِ رَبِّكَ .. (١١٩) ﴾ [هود]

وأنت إن دققْتَ النظر في الاختلاف لوجدته عين الوفاق.

(١) الرث: القديم البالي من كل شيء. وارث الثوب: أخلق. [اللسان: مادة رثث].

(٢) إذا كان الاختلاف في المقدرات والمنهج، ينتج ذلك الشيء وضده.



## سُورَةُ هُودٍ



ومثال ذلك: اختلاف أبنائك فيما يحبونه من ألوان الطعام، فتجد ابناً يفضل صدر الدجاجة، وآخر يفضل الجزء الأسفل منها «الورك»، وتضحك أنت لهذا الاختلاف، لأنه اختلاف في ظاهر الأمر، ولكن باطنه وفاق، لو اتفقنا جميعاً في الأمزجة لوجدنا التعاند والتعارض؛ وهذا ما ينتشر بين أبناء المهنة الواحدة.

ولمن يسأل: هل الخلق للاختلاف أم الخلق للرحمة؟

نقول: إن الخلق للاختلاف والرحمة معاً، لأن الجهة مُنْفَكَةٌ.

ثم يقول - سبحانه - في نفس الآية: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ<sup>(١)</sup> وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ<sup>(٢)</sup>﴾ [هود]

والحق سبحانه قد علم أولاً بمن يختار الإيمان ومن يختار الكفر، وهذا من صفات العلم الأزلي لله - سبحانه وتعالى - ولذلك قال - سبحانه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أي: علم - سبحانه - مَنْ مِنْ عِبَادِهِ سيختار أن يعمل في الدنيا عمل أهل النار، ومن سيختار أن يعمل عمل أهل الجنة: لسبق علمه الأزلي بمرادات عباده واختياراتهم.

وسبق أن ضربنا مثلاً - والله المثل الأعلى - بعميد الكلية الذي

(١) ثم الأمر يتم تماماً: كَمُلَ وتحقق وهو تامٌ وتَمِيمٌ، ويكون حسياً ومعنوياً. قال تعالى ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا..﴾ [الأنعام] أي: كَمَلَتْ وتحققَتْ. وتَمَّ الشيء: كَمَلَتْ أجزاؤه. قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ..﴾ [الاعراف] أي: كَمَلَ العبد المعبود لمناجاة موسى عليه السلام، واتَمَّ الشيء: أكمله على أحسن وجه، قال تعالى: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي..﴾ [المائدة] أي: على أكمل وجه، ليس فيها نقص. [القاموس القويم: ١٠١/١، ١٠٢] بتصريفه.

(٢) الجنة - بكسر الجيم - الجن. قال تعالى: ﴿الَّذِي يُنْفِثُ فِي صُدُورِ النَّاسِ<sup>(٣)</sup> مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس]. [القاموس القويم: ١٢٧/١].

يعلن للأساتذة ضرورة ترشيح المتفوقين في كل قسم ؛ لأن هناك جوائز في انتظارهم، فيرشح كل أستاذ أسماء المتفوقين الذين لمس فيهم النبوغ والإخلاص للعلم ، ويطلب العميد من أساتذة من خارج جامعتهم أن يضعوا امتحانات مفاجئة لمجموع الطلاب ؛ ويُفاجئ العميد بتفوق الطلبة الذين لمس فيهم أساتذتهم النبوغ والإخلاص للعلم ؛ وهنا يتحقق العميد من صدق تنبؤ الأساتذة الذين يعملون تحت قيادته.

ولكن قد تحدث مفاجأة : أن يتخلف واحد من هؤلاء الطلبة لمرض أصابه أو طارئ يطرأ عليه من تعب أعصاب أو إرهاق أو غير ذلك ؛ وبهذا يختل تقدير أساتذته ؛ لكن تقدير الحق - سبحانه - مُنزه عن الخطأ، وما علمه أزلاً فهو مُحقق لا محالة؛ لذلك بين لنا أنه علم أزلّ، ويتحدى الكافر به أن يغيره.

وكلنا يعرف أن الحق - سبحانه - أنزل قوله الكريم :

﴿ تَبَّتْ<sup>(١)</sup> يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ<sup>(٢)</sup> ﴾ [المسد]

وسمعا أبو لهب ولم يتحدها بإعلان الإيمان - ولو نفاقاً.

وقول الحق : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ تبين لنا أن الحق - سبحانه -

---

(١) تَبَّتْ يَتَّبُ تَبًّا وَتَبَابًا : خَسِرَ وَهَلَكَ. قال تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ<sup>(٢)</sup> ﴾ [المسد] دعاء عليه بالخسران أو بالهلاك - ودعا عليه أولاً بأن تهلك يداه؛ لأنهما آلة للبطش والإيذاء.

والتباب : الهلاك. قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْزُ لِرُحُونَ إِلَّا فِي تَابٍ<sup>(٣)</sup> ﴾ [غافر] وَتَبَّه تَتَبَّيْه أهلكه. قال تعالى : ﴿ وَمَا رَأَوْهُمْ إِلَّا فِي تَبَابٍ<sup>(٤)</sup> ﴾ [هود] أي إهلاك وتخسير. [ القاموس القويم ٩٦/١ ]

## سُورَةُ هُودٍ

٦٧٦٩

إِنْ قَالَ شَيْئًا فَهُوَ قَدْ تَمَّ بِالْفِعْلِ : فَلَا رَادَّ لِمَشِئَتِهِ ، أَمَا نَحْنُ فَعَلِينَا  
أَنْ نَسْبِقَ كُلَّ وَعْدٍ نَعْمَلُ سَنَقُومُ بِهِ بِقَوْلٍ : ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ .. ﴾ (١٤)

[الكهف]

لأن الحق يقول لنا : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا كُنَّا لَا نَفْعِلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ (١٥) لِمَا كُنَّا لَا نَفْعِلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .. (١٥)  
[الكهف]

وفى هذا احتراماً لوضعنا البشرى، وإيماناً بغلبة القهر، ومعرفة  
لحقيقة أننا من الأغيار : لأن كل حدث من الأحداث يتطلب فاعلاً :  
ومفعولاً يقع عليه الفعل : ومكاناً : وزماناً : وسبباً : ولا أحد منّا  
يملك أى واحد من تلك العناصر.

فَإِنْ قُلْتَ : ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ تكون قد عصمت نفسك من أن  
تكون كاذباً، أو أن تعد بما لا تستطيع، لكن إذا كان مَنْ يقول هو  
مالك كل شيء، ولا قوة تخرجه عما قال، فهو وحده القادر على أن  
ينفذ ما يقول.

ولذلك قلنا : إن كل فعل يُنسب إلى الله - تعالى - يتجرد عن

(١) ذكر ابن كثير في تفسيره (٧١/٢) عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية أن جماعة من  
قريش سألوا رسول الله ﷺ عن ثلاثة أمور وذلك بعد مشورة اليهود: سلوه عن فتية ذهبوا  
في الدهر الأول . ما كان من أمرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب . وسلوه عن رجل  
طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه وسلوه عن الروح ما هو ؟ فقال رسول  
الله ﷺ : « أخبركم غداً عما سألتكم عنه ولم يقل » إن شاء الله ، ومكث رسول الله ﷺ  
خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك وحياً ، ولا يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكة ،  
وقالوا وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه  
عنه، فنزلت هذه الآية وهذه السورة (الكهف) فيها خبر ما سألوا عنه.

الزمن: فلا نقول: «فعل ماضٍ» أو «فعل سيحدث في المستقبل» أو «فعل مضارع»؛ لأن تلك الأمور إنما تُقاسُ بها أفعال البشر، لكن أفعال الله - سبحانه - لا تقاس بنفس المقياس، فسبحانه حين يقرر أمراً فنحن نأخذه على أساس أنه قد وقع بالفعل.

والحق - سبحانه - يقول:

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ <sup>(١)</sup> فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ <sup>(٢)</sup> ۚ ۝١٠٠ ﴾ [النحل]

وقوله سبحانه : ﴿ أَتَىٰ ﴾ بمعنى : تقرر الأمر ولم يُنفذ - بعد - فلا تتعجلوه؛ وهذا هو تحدّي القيومية القاهرة، ولا توجد قوة قادرة على أن تمنع وقوع أمر شاءه الله - سبحانه وتعالى - فهو يحكم فيما يملك، ولا مُنَازِع له سبحانه.

وقوله الحق : ﴿ لَا أَمْلَأُ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۚ ۝١١٩ ﴾ [هود]

فسببه أن الإنس والجن هما الثقلان <sup>(٣)</sup> المكلفان .

ويقول الحق - سبحانه - بعد ذلك:

(١) أمر الله : عقابه لمن أقام على الشرك وتكذيب رسوله. [قاله القرطبي ٢٧٨٩/٥] وقال ابن كثير في تفسيره (٥٦١/٢): «يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع لا محالة».

(٢) استعجل الأمر: طلبه عاجلاً سريعاً. قال تعالى : ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُظِّي لَهُمْ أَجْلُهُمْ ۚ ۝١١٠﴾ [يونس] . [القاموس القويم: ٩/٢].

(٣) الثقلان: الإنس والجن لأنهما كالحمليين الثقيلين على ظهر الأرض. قال تعالى: ﴿سَنُرْفِقُكُمْ لَهَا الثَّقَلَانِ ۝٦٦﴾ [الرحمن]. وهو خبر المقصود منه التهديد والوعيد. [القاموس القويم: ١٠٨/١].

﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئْتُمْ بِهِمْ فُؤَادَكَ﴾

﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٠)

وساعة ترى التنوين في قوله الحق ﴿وكلا﴾ فاعلم أن المقصود هو قصة كل رسول جاء بها الحق - سبحانه - في القرآن الكريم.

وحين يتكلم الحق - سبحانه وتعالى - عن فعل قد أحدثه ؛ فلنا أن ننظر: هل هذا الفعل مأخوذ من صفة له - سبحانه - أم مأخوذ من اسم موجود ؟ فيحق لنا أن نأخذ الاسم ونأخذ الفعل مثل قوله - تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ (٧٠) [النحل]

نعلم منه أنه - سبحانه - خالق ، ولكن إن جاء فعل ليس له أصل في أسماء الله الحسنى، فإياك أن تشتق من الفعل اسماً لله.

ومثال ذلك قوله - سبحانه : ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ﴾ (١٢٠) [هود] والذي يقص هنا هو الله - سبحانه - لكن لا أحد في إمكانه أن

(١) ثَبَتَهُ : جمعه ثابتاً مُتَمَكِّناً . قال تعالى : ﴿وَلَوْ لَا أَنْ تَعْلَمَ لَقَدْ كُنْتَ تَرْكَبُ فِيهِمْ شَيْئاً خَيْلًا﴾ (٧١)

[الإسراء] أى : جعلناك ثابتاً ودفعنا عنك أسباب الضعف . [القاموس القويم: ١٠٥/١].

(٢) قوله تعالى : ﴿فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ (١٢٠) [هود] : أى هذه السورة . قال ابن عباس ومجاهد

وجماعة من السلف، وعن الحسن في رواية عنه وقتادة: في هذه الدنيا . والصحيح : في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء ، وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم وأهلك الكافرين ، جاءك فيها قصص حق، ونبا صدق وموعظة يرتدع بها الكافرون وذكرى يتذكر بها المؤمنون، قاله ابن كثير في تفسيره (١٦٥/٢).

(٣) يقول رب العزة سبحانه - ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَرَفَأُكُمْ﴾ (٧٠) [النحل]

(٤) قَصَّ الْكَلَامِ أَوْ الْأَخْبَارِ : يقصها قصاً وقصصاً يتبعها ورواها وحكاها . قال تعالى : ﴿فَلَمَّا

جَاءَهُمْ نَصْرُهُمْ عَلَيْهِ الْقَمْعُ قَالَ لَا تُغْنِ عَنْكُمْ﴾ (٧٥) [القصص] . وقص الأمر قصاً يتبعه . ومنه قوله

تعالى : ﴿فَارْتَدْنَا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ (٦٦) [الكهف] . والقصص مصدر يُطْلَقُ عَلَى مَا يُرَوَّى مِنْ

الْأَخْبَارِ . ومنه قوله تعالى : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ (٣) [يوسف] . [القاموس

القويم بتصرف جـ ٢ ص ١٢٠].

يقول: إن الله قصاص ، مثمنا لا يحق لاحد أن يقول: إن الله ماکر ، رغم أن الله - سبحانه - قد قال: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَاكِرِينَ <sup>(١)</sup> ﴾ [الأنفال]

وكذلك لا يصح لاحد أن يقول : الله المخادع ، رغم أن الحق - سبحانه - قد قال: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ <sup>(٢)</sup> .. ﴾ [النساء]

وهكذا نتعلم أدب الحديث عن الله المتصف بكل صفات الكمال والجلال ، وأن نكتفى بقول: إن مثل هذا الفعل جاء للمشاكلة <sup>(٣)</sup> ما دام ليس له وجود ضمن أسماء الله الحسنى.

(١) مَكَرٌ يَمْكُرُ مَكْرًا دَبِيرُ الشَّرِّ لغيره في خفية واحتيال. قال تعالى ﴿ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُتُهُمْ فِي الْمُدِينَةِ .. ﴾ [الأعراف] ، وقال تعالى ﴿ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا .. ﴾ [يونس] أي تدبير سييء بقصد صرفها عن وجهها وصدت الناس عنها. وإذا أسند المكر إلى الله سبحانه فمعناه إبطال مكر الماكدين وإيقاع العقوبة بهم من حيث لا يشعرون. كقوله تعالى ﴿ وَمَكْرُؤُاٍّ وَعَمْرُؤُاٍّ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ <sup>(١)</sup> ﴾ [آل عمران] ، وقوله تعالى ﴿ وَمَكْرُؤُاٍّ مَكْرًا وَمَكْرُؤُاٍّ مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ <sup>(٢)</sup> ﴾ [النمل] . [القاموس القويم: ٢٣١/٢ ، ٢٣٢] .

(٢) خدعه يخدعه خدعاً وخديعة: أظهر له خلاف ما يُخفيه ليوقعه في مكروه من حيث لا يعلم. قال تعالى ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ .. ﴾ [الأنفال] وخادعته خدعه أو حاول ذلك. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ .. ﴾ [النساء] أي : يُظهرون الإيمان نفاقاً ليخدعوا الله ورسوله والمؤمنين، والله مبطل خداعهم. وكاشف أمرهم. ومعاقبهم على خداعهم. [القاموس القويم: ١٨٨/١] .

(٣) المشاكلة ذكر الشيء بلفظ غيره. لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تدبيراً . فالأول كقوله تعالى ﴿ نَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ .. ﴾ [المائدة] ، وقوله ﴿ وَمَكْرُؤُاٍّ وَعَمْرُؤُاٍّ وَاللَّهُ .. ﴾ [آل عمران] ، فإن إطلاق النفس والمكر في جانب الباري تعالى إنما هو لمشاكلة ما معه. ومثال التقديرى قوله تعالى : ﴿ حَسْبُكَ اللَّهُ .. ﴾ [البقرة] أي . تطهير الله : لأن الإيمان يظهر النفوس. فعبّر عن الإيمان بـ « صيغة الله » للمشاكلة بهذه القرينة، الإتيان للسيوطي (٢٨٢/٢).

وهنا يقول الحق - سبحانه :

﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ .. (١٢٧)﴾ [هود]

و « أنباء » جمع «نبأ» ، وهو الخبر العظيم الذي له أهمية ، والذي يختلف به الحال عند العلم به، وأخبار الرسل - عليهم السلام - تتناثر لقطات مختلفة عبر سور القرآن الكريم ، موضحة ما جاء به كل رسول معالجا الداء الذي عانى منه قومه ، وكذلك ما عاناه كل رسول من عنت القوم المبعوث لهم ، وجاء ذكر تلك الانباء في القرآن لتثبيت فؤاد الرسول ﷺ : لأن الرسول سيصادف في الدعوة المتاعب والصعاب.

وقد ذكر القرآن بعضاً من تلك المواقف، يقول الحق - سبحانه:

﴿وَزَلْزَلُوا<sup>(١)</sup> حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ<sup>(٢)</sup> وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ .. (٢١٤)﴾ [البقرة]

ويقول الحق - سبحانه - مصوراً حال المؤمنين<sup>(٣)</sup> :

(١) زلزل الشيء - حركه حركة عنيفة مكررة. قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زَلْزَالَهَا (١)﴾ [الزلزلة] أى: أصابها الزلزال عند قيام الساعة. وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُهَا النَّاسُ أَتَقُومُ إِنْ زُلْزِلَتِ السَّاعَةُ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١)﴾ [الحج] وقوله تعالى: ﴿وَزَلْزَلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا (٣١)﴾ [الأحزاب] أى: أزعجوا وخافوا وقلقوا واضطربوا اضطراباً شديداً - على التشبيه بالشيء المهدى [القاموس القويم: ٢٨٨/١].

(٢) قال القرطبي في تفسيره (١/٩٤٩) - «الرسول هنا شعبياً في قول مقاتل ، وهو اليسع. وقال الكلبي هذا في كل رسول بعث إلى أمته وأجهد في ذلك حتى قال: متى نصر الله؟ وروى عن الضحك قال: يعنى محمداً ﷺ وعليه يدل نزول الآية. والله أعلم».

(٣) وذلك في غزوة الأحزاب. في شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور وفيها تحالفت قريش ومن تابعها مع يهود بنى النضير وبنى قريظة، فكان مجموعهم عشرة آلاف، أما المسلمون فكانوا ثلاثة آلاف. وظل المسلمون محاصرين داخل المدينة قريبا من شهر [باختصار من تفسير ابن كثير (٢/٤٧٠)]

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ<sup>(١)</sup> الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ<sup>(٢)</sup> وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا<sup>(٣)</sup>﴾ [الأحزاب]

ومثل هذه المواقف تقتضى تثبيت الفؤاد ؛ بمعنى تسكينه على منطق اليقين الإيماني برب أرسله رسولاً ليبلغ منهجاً ، وما كان الله سبحانه ليرسل رسولاً ليبلغ منهجاً ثم يُسلمه لأعدائه.

فإذا ما ذكر له أخبار الرسل والصعاب التى تعرضوا لها تهون عليه المصاعب التى يتعرض لها ، ويثبت فؤاده.

و«الفؤاد» هو ما نقول عنه: «القلب»، وهو وعاء العقائد، بمعنى أن المخ يستقبل من الحواس - وسائل الإدراكات من عين ترى، ومن أذن تسمع، ومن أنف يشم، ومن فم يستطعم، ومن كف تلمس -

(١) زَاغَ يَزِيغُ زَيْغًا وَزَيْغَانًا : مال عن القصد . وزَاغَ البصرُ : اضطرب ولم يحقق ما يرى ، أو انحرف عن القصد فلم ير شيئًا . قال تعالى : ﴿مَّا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى<sup>(١٧)</sup>﴾ [النجم] أى: ما انحرف بصر الرسول ﷺ عن رؤية الملك ، ولا طغى فرأى أكثر مما أمامه ، بل رأى الملك رؤية صائفة . وقوله تعالى فى وصف فزع بعض الناس فى المدينة حين أحلقت بهم الأعداء فى غزوة الأحزاب : ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ..﴾ [الأحزاب] أى . اضطربت لشدة الفزع . [القاموس القويم: ٢٩٤/١] بتصريف.

(٢) الحَنَجْرَة - فى اللغة - الطقوم والطق . وهى علمياً تسمى القصبه الهوائية . ويمر منها النفس زفيراً وشهيقاً . قال تعالى : ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ..﴾ [الأحزاب] كفاية عن شدة الكرب والضيق.

(٣) الظنون : ما يحصل فى النفس عن إشارة فهو شك راجح . وفعله من أفعال الرجحان - من باب نصر - والظن مصدر . والظن : اسم لهذا الضابط الذى يحصل فى النفس . قال تعالى : ﴿إِنْ يَهْمُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا<sup>(٤٨)</sup>﴾ [النجم] وجسمه ظنون . وقرئ . ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا<sup>(٤٩)</sup>﴾ [الأحزاب] الظنوناً - بآلف فى الوصل . وهى الوقف - ويغير ألف قراءة . [القاموس القويم : ٤١٧/١].



فنتولد المعلومات التي يصنفها المخ ، ويرتبها كقضايا عقلية.

ويناقش المخ تلك القضايا العقلية إلى أن تصبح القضية العقلية صحة لا يأتي بعدها ما ينقضها ، فيسقطها المخ في الفؤاد لتصير عقيدة ؛ لا تطفو بعدها إلى العقل لتناقش من جديد ؛ ولذلك يسمونها «عقيدة» - من العقدة - فلا تتذبذب بعد ذلك.

إذن : فالفؤاد هو الوعاء القابل للقضايا التي انتهى المخ من تمحيصها<sup>(١)</sup> تمحيصاً وصل فيه إلى الحق ، واسقطها على القلب ليدير حركة الحياة على مقتضاها.

وعلى سبيل المثال : نجد الشاب الذي يفكر في مستقبله ، فيدرس مزايا وعيوب المهن المختلفة ليختار منها التخصص الذي يتناسب مع مواهبه ؛ وأحلامه ، ثم يدرس المحسّات التي استقبلها بحواسه ليُمحّصها بعقله ؛ وما ينتهي إليه عقله يسقطه في قلبه ؛ ليصير عقيدة يدير بها حركة حياته.

مثال هذا : أنه قد استقر في وجدان الناس وعقولهم أن النار مُحْرَقَةٌ، ولكن من أين جاء هذا اليقين في أن النار مُحْرَقَةٌ ؟ نقول : جاء من أمر حسي بأن شاهد الناس أن مَنْ مسَّته النار أحرقتة.

لا بد - إذن - أن يكون القلب ثابتاً ؛ غير مذبذب.

(١) مُحْصَى الشيءَ ومُحْصِه . خُلصه من عيوب . يقال : محص المعدن بالنار : خُلصه مما يشوبه . ومحص السيف : جلاه . ومحص الله التائب من الذنوب : طهره منها . ومحص فلاناً : انلأه واختبره . [المعجم الوسيط].

ولذلك يقول الحق - سبحانه :

﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ ۝ (١٢٠)﴾ [هود]

لأن الفؤاد هو الوعاء الذى من مهمته أن يكون مستعداً لاستقبال كلمة الحق؛ وليقبل تنبيه الذكرى ، وجلال الموعظة ، وكمال الوارد من الحق - سبحانه - وما يأتى من الحق - سبحانه - هو الحق أيضاً ، والحق هو الشيء الثابت الذى لا يطرأ عليه تغيير.

وحق الحق ينبوع العقيدة الذى ستصدر عنه طاعة التكليف ، ولا بد أن يكون الإنسان على ثقة من حكمة المكلف قبل أن يُقبل على التكليف ؛ لذلك لزم أن يأتى الدليل على وجود الحق - سبحانه - وهو قمة الوجود الأعلى - قبل أن تأتى الموعظة<sup>(١)</sup> ، ويكون الإيمان بالوجود الأعلى الذى لا يتغير ولا تطرأ عليه الأغيار هو السابق لمجئ تلك الموعظة.

لأن الموعظة قد تتطلب من الإنسان شيئاً يكره أن يلتزم به ، وهى هنا صادرة من الحق - سبحانه - الذى خلق ، ولا يمكن أن يغش أو يخدع مخلوقاته ، ويحملها لك رسول منه - سبحانه.

وقد تكره الموعظة إن صدرت عن إنسان مثلك ؛ لأنه لن يعطك إلا بكمال يتميز به ليعدد نقصاً فيك ، وإن لم يكن الواعظ يتمتع بالكمال الذى يعط به ، فالموعوظ سيردُّ على الواعظ قائلًا : فلتعظ نفسك أولاً.

(١) الموعظة - ما يُوعظ به من قول أو فعل . قال تعالى : ﴿ وَمَوْعِظَةُ الْمُنْتَلَمِ ۖ (٦٦) ﴾ [البقرة] وقوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ ۝ (١٢٥) ﴾ [النمل] . ووعظه يعظه وعظاً وعظة . نصحه بالطاعة وأرشده إلى فعل الخير [ القاموس القويم بتصرف ٢/ ٢٤٥ ] .

ولذلك نجد قول الحق - سبحانه:

﴿ كَرِهَ مَثَلُهُمْ<sup>(١)</sup> عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) ﴾ [الصف]

لأن الواعظ الذي يَعِظُ بما لا يطبقه على نفسه يعطي الحجة للموعوظ ليرفض الموعظة ؛ وليقول لنفسه : « لو كان في هذا الامر خير لطبقه على نفسه ».

وهكذا بَيَّنَّتْ الآية الكريمة موقف الرسول ﷺ كَمْثُبَّتْ ، وايضاً موقف المؤمنين برسائله كَمَذْكُرِينَ من الرسول بأنهم سيتعرضون للمتاعب؛ متاعب مشقة التكليف التي سيعانى منها مَنْ لا يأخذ التكليف بعمق الفهم.

فقد يرى بعض المكلفين - مثلاً - أن الامر بغض الطرف<sup>(٢)</sup>

(١) مَثَلُهُمْ يَعْنِي مَثَلَهُمْ : أَبْغَضَهُ بَغْضًا شَدِيدًا ؛ لِأَمْرِ قَبِيحٍ فَعَلَهُ.

وَمَثَلُ اللَّهِ : غَضَبُهُ وَلِتْقَامُهُ وَعَذَابُهُ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَادَوْنَ لَمَثَلُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَثَلِكُمْ أَنْفُسَكُمْ... (١٠)﴾ [غافر] أَيْ : أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ أَكْبَرُ مِنْ بَغْضِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا. وَانْتِقَامُ بَعْضِكُمْ مِنْ بَعْضٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا (٢١)﴾ [النساء] أَيْ : أَنَّ زَوَاجَ مَنْ سَبَقَ أَنْ تَزَوَّجَهَا الْآبُ يَعْتَبَرُ فَعْلَةً فَاحِشَةً شَدِيدَةً الْقُبْحِ، وَتَكُونُ سَبَبًا لِمَقْتِ النَّاسِ وَبِغْضِهِمْ الشَّدِيدِ لِمَرْتَكِبِهَا، وَسَبَبًا فِي مَقْتِ اللَّهِ وَغَضَبِهِ وَانْتِقَامِهِ مِنْ فَاعِلِهَا؛ لِأَنَّهَا حَقُوقٌ بِالْآيَاءِ وَخُلُطٌ لِلْأَنْسَابِ. [القاموس القويم: ٢٢١/٢].

(٢) الطرف : جَانِبُ الْعَيْنِ، وَيُطْلَقُ عَلَى الْعَيْنِ وَعَلَى الْبَصَرِ. قَالَ تَعَالَى : ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَافٍ... (١٥)﴾ [الشورى] أَيْ : مِنْ جَانِبِ الْعَيْنِ فِي خُفَاءٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطُّرُفِ عَنِ (١٨)﴾ [الصافات] أَيْ : غَاضَاتُ الْبَصَرِ مِنَ الْعَفَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنَا أَنَا بِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ... (١٩)﴾ [النمل] أَيْ : بَصَرُكَ. أَيْ مِقْدَارُ غَمْضَةِ الْعَيْنِ وَفَتْحِهَا. [القاموس القويم، مادة: طرف].

حرماناً من شهوة طارئة ولا يسبر غور<sup>(١)</sup> الفهم بأن في غَضُّ الطرف  
أمراً لكافة المؤمنين أن يفضوا الطرف عن محارمه ، وقد يرى في  
الزكاة أنها أخذٌ من ماله ، ولا يسبر غور الفهم بأن في الزكاة تأميناً  
له إنْ مرَّت عليه الأغيار وصار فقيراً ؛ عندئذ سيقدم له المجتمع  
الإيماني التأمين الاجتماعي الذي يحميه وعياله من مَقْبَةِ السؤال.

وعمق الفهم أمر مطلوب؛ لأن الحق - سبحانه - هو القائل:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ<sup>(٢)</sup> الْقُرْآنَ .. (٨٢) ﴾ [النساء]

لأنك حين تتدبر المعاني ستعلم أن التكليف هو تشريف لك ؛  
وستقول لنفسك : « ما كلفني الله إلا لخير نفسي ؛ وإن ظهر أنه لخير  
الناس » .

(١) سَبَرَةٌ سَبْرًا : حَزْرَةٌ ، أو خَبْرَةٌ . يقال: سَبَرَ الجرح: قَاسَ غُورَهُ بالمسبار. وَسَبَرَ فلاناً:  
خَبَّرَهُ ليعرف ما عنده. وَالْقَوْرُ: كل منخفض من الأرض، والقور من كل شيء: قعره وعمقه.  
يقال: سَبَرَ غوره: ثَبَّتَ حقيقته وسره. ويقال: فلان بعيد القور: داهية. وماء غُورٍ: غائر.  
وفي التنزيل العزيز: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْحَابُكُمْ غُورًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مُّسَبَّرٍ (٤٢) ﴾ [المك].  
[المعجم الوسيط: مادة (سبر)، (غور)].

(٢) دَبَّرَ الأمر: نظر في عواقبه وأدباره ليتق على ما يرى فيه الخير له، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ  
اسْمِعْنِي عَلَى الْغُرَى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ .. (٣) ﴾ [يونس] أي: يقضيه ويقدره وينفذ على حسب حكمته  
وإرادته. وقوله تعالى: ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٦) ﴾ [النازعات] هم الملائكة يدبرون أمور الخلق  
بإذن الله وبمقتضى حكمته وإرادته.

وتدبر : تأمل في أديار الأمور وعواقبها، أو تأمل ليعرف حقائق الأمور. قال تعالى :  
﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَفْئَالِهِا (٢٤) ﴾ [محمد] أي: هل عجزوا وعصوا فلا يتأملون  
معاني القرآن، ويبصرون ما فيه من حكم بالغة فيؤمنون به - وبين همزة الاستكهام وهاء  
الخطف فعل محذوف ناشئاً فسرناه هنا بقولنا: أعجزوا فلا يتدبرون - وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ  
يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ .. (٤٩) ﴾ [المؤمنون] أي : أمجزوا فلم يدبروا، والاصل: يتدبروا، قلبت التاء  
بالا، وأدبعت في الدال. [القاموس القويم: ٢٢١/١].

## سُورَةُ هُودٍ

٦٧٧٩

ومن المتاعب أيضاً ما يلقاه المؤمنون من عنت المستفيدين من الفساد ؛ هؤلاء الذين يعيشون على الانتفاع من المفسد ، ويواجهون كل من يريد أن يقضى على الفساد ؛ لأن الفساد في الأرض لا يعيش إلا إنا وُجد منتفع بهذا الفساد ؛ والمنتفع بالفساد يكره ويعلن الخصومة لكلّ مقاوم له.

إذن : فموقف خصوم النبي ﷺ موقف طبيعي لمصالحهم، ولكنهم - لحقهم - حددوا الصالح بمصالحهم الآنية<sup>(١)</sup> في الحياة الدنيا ؛ ولم ينظروا إلى عاقبة ما يؤول إليه أمرهم في الآخرة نعيماً أو عذاباً<sup>(٢)</sup>.

ولو أنهم امتلكوا البصيرة ؛ لعرفوا أن من مصلحتهم أن يوجد مَنْ يَقُومُهم حتى لا يقدموا لأنفسهم شركاً يوجد لهم في الآخرة.

ولو أنهم قطنوا ؛ لعلموا أن الرسول كما جاء لمصالح المستضعفين المستغلين بالفساد ؛ جاء أيضاً لمصالحهم ، ولو أنهم كانوا على شيء من التعقل ؛ لكانوا من أنصار رسول الله ﷺ ؛ ولكن

(١) المصالح الآنية - العاجلة - نسبة إلى (الآن) وهو الأمر العاجل الحال، وهو ظرف للوقت الحاضر معرف بال دائم، ومبنى على الفتح. قال تعالى : ﴿ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ۚ ﴾ (٧٦) [البقرة] [ القاموس القويم ٤٥/١ ].

(٢) ولذلك قال عنهم رب العزة - ﴿ يَتْلُمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (٧) [الروم] ثم بلغت الحق نظرهم إلى الكون وما فيه وإلى عاقبة المكثنين فيقول : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِآجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ (٨) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَلَارُوا الْأَرْضَ وَفَعَرُوهَا أَخْرَجُوا مِنْهَا شَرًّا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ آمَنُوا السَّوَاءُ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (١٠) [الروم]

من الواجب عليهم كلما حدثتهم أنفسهم بالسعى إلى الفساد : وسمعوا من الرسول ﷺ ما ينتظرهم نتيجة لهذا الفساد : أن يتبعوه وأن يشكروه : لأنه خلّصهم من طاقة الشر الموجودة فيهم.

وهنا يوضح الحق سبحانه - لرسوله : أنت لست بدعاً من الرسل<sup>(١)</sup>، وكل رسول تعرّض للمتاعب مثلاً تتعرض أنت لمثلها<sup>(٢)</sup>، وأنت الرسول الخاتم ، ولأن الدين الذي جئت به لن يأتى بعده دين آخر : لذلك لابد أن تتركز المتاعب كلها معك : فكنّ على ثقة تماماً أنك مُصَادَفٌ للمتاعب .

ولذلك نثبت فؤادك بما نقصه عليك من أنباء الرسل ، لأن هذا الفؤاد هو الذى سيستقبل الحقائق الإيمانية من قمة «لا إله إلا الله» إلى أن يكون ذكرى تذكرك والمؤمنين معك.

وهكذا بيّنت الآية موقف الرسول ﷺ كمنبّت : وموقف المؤمنين كمذكّرين من الرسول : لأنهم سيتعرضون للمتاعب أيضاً.

ونحن نعرف جميعاً ما قاله رسول الله ﷺ للأَنْصار حين بايعوه فى العقبة على نصرته . وقالوا : إِنْ نحن وقينا بما عاهدناك عليه :

(١) يقول رب العزة سبحانه لرسوله ﷺ ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ . (١١) ﴿[الاحقاف] أَيْ مَا كُنْتُ مَبْتَدَعًا مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي مَا أَدْعُو إِلَيْهِ. إِنْ أَتَّبِعَ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ.﴾

(٢) يقول الحق سبحانه مخاطباً نبيه . ﴿لَقَدْ نَعِمْنَا إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذِبُونَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٣٢) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَلْوَدُوا حَتَّى أَنفُسُهُمْ نُصَرِّفُهَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَا الرُّسُلِ (٣١) ﴿[الأنعام]

## سُورَةُ هُودٍ

٦٧٨١

فماذا يكون لنا ؟ ولم يَقُلْ لهم ﷺ : « ستملكون الدنيا ، وستصبحون سادة الفُرس والروم » ، بل قال لهم : « لكم الجنة »<sup>(١)</sup>.

لأنه ﷺ يعلم أن منهم مَنْ سيموت قبل أن تتحقق تلك الانتصارات : لذلك وعدمهم بالقَدَر المشترك الذي يتساوى فيه مَنْ يموت بعد إعلانه للإيمان ، وبين مَنْ سيعيش ليشهد تلك الانتصارات.

وهكذا تبيننا كيف تَضُمَّنَت الآية الكريمة تثبيت فؤاد الرسول ﷺ : وكيفية إعداد هذا الفؤاد لاستقبال الحق والموعظة وذكرى المؤمنين معه.

هذا هو الطرف الأول ، فماذا عن الطرف الثاني : الطرف المكذَّب للرسول؟

كان ولا بد أن يتكلم الحق - سبحانه - هنا عن المكذَّبين للرسول ، لأن استدعاء المعاني يجعل النفس قابلة للسمع عن الطرف الآخر.

وما دام الحق - سبحانه - قد تكلم عن تثبيت وعاء الاستقبال،

---

(١) كان ذلك في بيعة العقبة الثانية وهي الكبرى، وذلك أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة الانصاري: يا معشر الخزرج، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم. قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرفكم قتل أسلمتموه فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة، قالوا: فإننا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فمالنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟ قال: «الجنة». قالوا أبسط يدك، فبسط يده فبايعوه، [سيرة النبي لابن هشام ٥٥/٢].

والموعظة ، وتذكير المؤمنين ؛ لحظة أن تخور<sup>(١)</sup> منهم العزائم ، فلا بُدَّ - إذن - أن يتكلم - سبحانه - عن القسم الآخر ؛ وهو القسم المكذَّب ، فيوضح - سبحانه - لرسوله أن له أن يتحداهم ولا يتهيب.

يقول الحق - سبحانه:

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ (١٢١)

أى : اصنعوا ما شئتم ، ومعنى ذلك أنه ﷺ مستندٌ إلى رصيد قويٍّ من الإيمان بالله لا يهوله أن يستعد له الخصم ؛ فهو ﷺ والذين معه لا يواجهون الخصم بذواتهم ؛ ولا بعددِهم وعددهم ؛ وإنما يواجهونه بالركن الركين الذى يستندون إليه ، وهو الحق سبحانه وتعالى.

ونحن نرى فى حياتنا اليومية أن أى قائد فى معركة إنما يشعر بالثقة حين يصل إلى علمه أن مدداً سوف يصله من الوطن الذى

(١) الخَوْر . الضعف . خار للرجل ضعف وانكسر . والخَوْرُ . الضعيف الذى لا بقاء له على الشدة . [لسان العرب - مادة : خور].

(٢) المكانة: رغبة الشأن والرزانة والنوذة. قال تعالى: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ..﴾ (١٢٢) ﴿[الإنعام] أى: برزانة ونوذة وتبصر، وتورىء. على مكاناتكم بالجمع. [القاموس القويم ٢/٢٣٢].

والمكانة. الحالة التى يكون عليها المرء من قدرة أو عجز أو إيمان أو كفر ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ..﴾ (١٢٢) [هود] أى . على الحالة التى أنتم عليها، وقوله تعالى: ﴿لَمَسْتَخْفَمٌ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ..﴾ (١٢٧) [يس] أى . على الحالة التى هم عليها حين عداهم وكفرهم. [القاموس القويم: ٢/١٧٩ . ١٨٠].



يحارب من أجله؛ لأنه سيعزز من قوته، فما بالناس بالمدد الذي يأتي  
ممن لا ينفد ما عنده<sup>(١)</sup>؛ وممن لا يُجبر عليه أحدٌ؛ فهو يُجبر ولا  
يُجَار عليه.

ولذلك نلاحظ أن الأنبياء استظلوا بتلك المظلة، فموسى - عليه  
السلام - حين كاد الفرعون أن يلحق به؛ ورأى قومه أن لا نجاة لهم؛  
فالبجر أمامهم والعدو وراءهم؛ صرخوا:

﴿ إِنَّا نُمَدِّدُكَ<sup>(٢)</sup> .. ﴾ (٦١)

[الشعراء]

لكن موسى - عليه السلام - يطمئنهم :

﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (٦٢)

[الشعراء]

فموسى - عليه السلام - يعلم أنه مُستند بقوة الله لا بقوة قومه،  
وأمدّه الله - سبحانه - بمعجزة جديدة:

﴿ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ .. ﴾ (٦٣)

[الشعراء]

فينفلق البحر؛ ليفسح بين مياه طريقاً يابسة؛ وسار موسى  
عليه السلام وقومه، وفكر موسى في قطع السبيل على عدوه حتى

(١) يقول الحق سبحانه ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح] . ويقول تعالى في شأن غزوة  
حنين : ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُرُودًا لَمْ تَرْوُهَا .. ﴾ [التوبة]  
(٢) أدركه . لحقه . قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَكَهُ الْفَرَقُ .. ﴾ [يونس] على المجاز، كان الفرق  
عدو مطارد لحق فرعون فاهلكه.

والدرك - بفتح الداء . ويسكونها - : اسم مصدر بمعنى الإدراك واللاحاق . قال تعالى :  
﴿ لَا تَخَافْ دِرْكَهُ وَلَا تَغْثَى ﴾ [طه] أي لا تخاف أن يدركك فرعون وجنوده . [القاموس  
القيوم : ٢٢٦/١].

لا يسير في نفس الطريق المشقوق بأمر الله عبر معجزة ضرب البحر بالعصا، وأراد موسى - عليه السلام - أن يضرب البحر ضربة ثانية ليعود البحر إلى حالة السيولة مرة أخرى، فيقول له الله - سبحانه: ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا<sup>(١)</sup> إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُفْرَقُونَ (٢٤)﴾ [الدخان]

أى : أتركه على ما هو عليه : لينخدع فرعون ويسير في الطريق اليابسة، ثم يعيد الحق - سبحانه - البحر كما كان ، وبذلك أنجى الحق - سبحانه - وأهلك بالشىء الواحد<sup>(٢)</sup>؛ وهذه لا يقدر عليها غير الله - سبحانه وتعالى وحده.

وهكذا يَهَبُ الحق - سبحانه - المؤمنين به القدرة على تحدى الكافرين. والإيمان كله معركة من التحدى : تحدُّ فى صدق الرسول كمبلِّغ عن الله ، ومعه معجزة تدل على رسالته، وتحدُّ فى نصرته الرسول وَمَنْ مَعَهُ مِنْ قَلَّةٍ مُؤْمِنَةٍ : فيغلبون الكثرة الكافرة.

والحق - سبحانه يقول: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾ [البقرة]

وهكذا يشيع التحدى فى معارك الإيمان.

وقد تميَّز كل رسول بمعجزة يتحدى بها أولاً : ثم ينتهى دورها؛ لينزل له بعدها منهج من السماء : ليبشِّر به قومه، لكن رسول الله ﷺ

(١) رها البحر يرهو رهوًا : سكن فهو راه. ورهوًا : مصدر يوصف به بلفظه ، قال تعالى :

﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا (٢٤)﴾ [الدخان] ساكن الأمواج: ليفتروا، فينزلوا فيه ، أو ساكن النفس،

فهى حال من المفعول به وهو البحر، أو من الفاعل وهو الضمير المستتر «أنت»، وهو

موسى عليه السلام. أى: يكون مادئًا مطمئنًا إلى النجاة [ القاموس القويم: ٢٧٩/١ ].

(٢) فاه سبحانه وتعالى أنجى موسى وَمَنْ مَعَهُ ، وأهلك فرعون وجنوده بالشىء الواحد .

وهذا دليل على طلاقة القدرة.

تميّز بمعجزة لا تنتهى ، وهى عَيْنُ منهجه : لأنه رسول إلى كل  
الازمان وإلى كل الامكنة<sup>(١)</sup> ؛ فكان لابد من معجزة تصاحب المنهج  
إلى يوم القيامة.

ولذلك نجد كل مؤمن بالرسالة المحمدية يقول : محمد رسول الله  
والقرآن معجزته إلى أن تقوم الساعة.

والحق - سبحانه - يقول هنا : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اَعْمَلُوا عَلَى  
مَكَانَتِكُمْ ۖ ﴾ [هود]

ونحن نعلم أن كل كائن مثلاً له مكان ، أى : له حيزٌ وجِرمٌ<sup>(٢)</sup>.  
ويقال : فلان له مكانة فى القوم ، أى : له مركز مرموق ؛ إذا خلا  
منه لا يستطيع غيره أن يشغله ، وهو مكان يدل على الشرف  
والعظمة والسيادة والوجاهة ونباهة الشأن.

فقول الحق : ﴿ اَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ۖ ﴾ [هود]

أى : اعملوا<sup>(٣)</sup> على قَدْر طاقَتكم من عُدّة ومن عَدَد، فإن  
لمحمد ﷺ ربّاً سيّديه وينصره، وفى هذا تهديد لهم؛ وليس أمراً لهم؛  
لأنهم ككفار لن يمتثلوا لأمر من عَدُوهم.

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : فضلت على الأنبياء بست: أعطيت  
جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لى الفنائم، وجعلت لى الأرض ظهوراً ومسجداً،  
وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبوة، أخرجه مسلم فى صحيحه (٥٢٢) كتاب  
المساجد.

(٢) الجِرم . الجسد أو الجسم. وهو مُجَسَّم نياخذ مكاناً وحيناً فى الوسط الذى هو فيه.

(٣) الأمر هنا للتهديد . وهو لون من ألوان علوم البلاغة.

ولو أنهم امتثلوا لأمر محمد ورَبِّ محمد لَمَّا كانوا كافرين؛ بل  
لأصبحوا من المطاعين.

رحين يقول لهم - سبحانه - في آخر الآية :

﴿ إِنَّا غَامِلُونَ ﴾ [هود]

فمعنى ذلك أن كل ما في قدراتكم هو محدود لأنكم من الأغيار  
الأحداث<sup>(١)</sup>؛ أما فعل الله - تعالى - فهو غير محدود ؛ لأنه -  
سبحانه- قديم أزلي لا تحده حدود ، ولن يناقض عمل المُحدث  
الحادث عمل القديم الأزلي ، ف قوة الحادث المُحدث موهوبة له من  
غيره ، أما قوة الحق - سبحانه - فهي ذاتية فيه.

ونحن نعلم أن أى عمل إنما يُقاس بقوة فاعله ، وخطأ المستقبلين  
لمنهج الله أنهم إذا جاء عمل ؛ نَسُوا مَن الذى عَمِلَ العمل ، ولو كان  
العمل من فعل البشر لَحَقَّ للإنسان أن يتكلم، لكن إذا ما كان العمل  
من الله - تعالى - فليُلْزَم الإنسان حدوده.

ومثال ذلك: هؤلاء الذين جادلوا في مسألة الإسراء التى قال فيها  
الحق - تبارك وتعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى<sup>(٢)</sup> بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ

(١) الأحداث : الأشياء الحادثة، أى لم يكن لها وجود ثم وجدت، وتأتى عليها عوامل الفناء والتغير.  
(٢) أسرى به : جعله يسرى، أو جعله معه على السَّيْرِ لَيْلًا. قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ .. ﴾ [الإسراء] وهذا يُشعر أن الله تعالى كان رفيقاً للرسول ﷺ ومُعِيناً له فى إسرائه. وقوله تعالى : ﴿ فَاسْرِ بِعَبْدِى لَيْلًا إِنَّكَ مُّتَّبِعُونَ ﴾ [الدخان] أمر الله سبحانه موسى عليه السلام أن يجعل قومه على الإسراء ويكون لهم دليلاً ومُعِيناً وهادياً. [القاموس القويم: ٢١٢/١] بتصريف.

الْحَرَامَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ<sup>(١)</sup> .. ﴿١﴾ [الإسراء]

وقالوا : إننا نضرب إليها أكباد الإبل شهراً، فكيف يقول إنه أتابها في ليلة؟

وكان الرد عليهم: إن محمداً لم يَقُلْ إنه سَرَى من البيت الحرام إلى المسجد الأقصى بقوته هو، بل أُسْرِيَ به، والذي عمل ذلك هو الله - سبحانه - وليس محمداً، فقيسوا هذا العمل بقوة الله تعالى وليس بقوة محمد.

ويقول الحق - سبحانه - بعد ذلك:

﴿وَأَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾<sup>(٢)</sup>

في هذه الآية نلمس الوعيد والتهديد : قال الكافرون ينتظرون وعد الشيطان لهم ، والمؤمنون ينتظرون وعد الرحمن لهم<sup>(٣)</sup>.

ولذلك سيقول المؤمنون للكافرين يوم القيامة : ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا

(١) البركة: زيادة الخير والنماء والسعادة . قال تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَهُمْ بَرَكَاتٌ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

.. ﴿٥٥﴾ [الأعراف] . وبارك الله الشيء، وبارك فيه وعليه وحوله . قال تعالى . ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ لَدُنَّا عَنْ هَذِهِ . . . ﴿٨١﴾ [النمل] . وقوله تعالى ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ

مُتَّازَةٍ زَيْتُونَةٍ .. ﴿٥٥﴾ [النور] أي : عظيمة الخير، كبيرة النفع. [القاموس القويم : ٦٥/١].

(٢) انتظروه : ترقبوه وتوقعوه . وقال تعالى : ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴿٣﴾ [السجدة]

أي: ترقب ما سيحل بهم، إنهم متوقعون. [القاموس القويم : ٢٧٢/٢].

(٣) يقول الحق سبحانه . ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ

.. ﴿٣٦﴾ [إبراهيم]

وَعَدْنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا .. (١١) ﴿ [الاعراف]

وفى انتظار الكفار تهديد لهم ، وفى انتظار المؤمنين تثبيت لقلوبهم ، ولو لم تأتِ الأحداث المستقبلية كما قالها القرآن لتشكك المؤمنون ، ولكن المؤمنين لم يتشككوا ، وهكذا نتأكد أن القول بالانتظار لم يكن ليصدر إلا من واثق بأن ما فى هذا القول سوف يتحقق.

وقد جاء الواقع بما يؤيد بعض الأحداث التى جاءت فى القرآن.

ألم ينزل قول الحق - سبحانه :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ <sup>(١)</sup> ﴾ (١٥) ﴿ [القمر]

وكان وقت نزول هذا القول الحكيم إبان ضعف البداية <sup>(٢)</sup> ، حتى قال عمر - رضى الله عنه - <sup>(٣)</sup> : أَيْ جَمْعٌ يَهْزَمُ ؟ لَأَنْ عَمْرٌ حِينْتُنْذَ كَانَ يَلْمَسُ ضَعْفَ هَالِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَعَدَمَ قُدْرَةَ بَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى

(١) وأى المحارب يبره كناية عن فراره . قال تعالى ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (١٥) ﴿ [القمر] أى : ويفرون ، وجمع الدبر : أدبار . قال تعالى : ﴿ وَإِنْ يَفْقَهُوْكُمْ يُولُوْكُمْ أَلْدَابَارُكُمْ لَا يُصْرُوْنَ ﴾ (١١) ﴿ [آل عمران] أى : يفرون منكم منهزمين . وقوله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (١٥) ﴿ [القمر] أى : سيُهْزَمُ الجيش الذى جمعه ، أو سَيُهْزَمُ جماعتهم . [القاموس القويم: ١٢٧/١] بتصريف.

(٢) قال ابن عباس: كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين . نقله القرطبي فى تفسيره (٦٥٤٦/٩).

(٣) أورده ابن كثير فى تفسيره معزواً إلى ابن أبى حاتم ، قال عمر: أى جمع يهزم ؟ أى جمع يُغلب؟ قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يشب فى الدرع ، وهو يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (١٥) ﴿ [القمر] فعرفت ناولها يومئذ.

## سُورَةُ هُودٍ

٦٧٨٩

حماية نفسه، ثم تأتي غزوة بدر : ليرى المؤمنون صدق ما تنبأ به رسول الله ﷺ .

ومن العجيب أنه ﷺ خطط على الأرض مواقع مصرع بعض كبار الكافرين<sup>(١)</sup>، بل وأماكن إصاباتهم، وجاء ذلك قرآنًا يُتلى على مر العصور، مثل قوله الحق: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ<sup>(٢)</sup>﴾ [القلم]

وهكذا شاء الحق - سبحانه - أن يأتي الواقع بما يؤيد صدق الرسول ﷺ ، كما شاء - سبحانه - أن ينزل على الرسول لقطات من قصص الرسل الذين سبقوه لشد أثره ، وليثبت فؤاده ، ويذكر المؤمنين فيزدادوا إيمانًا.

ثم يختتم الحق - سبحانه - سورة هود بقوله الكريم :

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ<sup>(٣)</sup>﴾

(١) أخرج مسلم في صحيحه (٢٨٧٢) عن أنس بن مالك قال: كنا مع عمر بين مكة والمدينة، وأنشأ يحدثنا عن أهل بدر، فقال: إن رسول الله ﷺ كان يُرينا مصارع أهل بدر بالأمس، يقول: «هنا مصرع فلان غداً إن شاء الله» قال عمر: فوالذي بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود التي حد رسول الله ﷺ، وكنا أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٢١٩، ٢٥٨) وفيه أن رسول الله ﷺ كان يضع يده على الأرض وهنا وهناك، فما أطاق أحدهم عن موضع يد رسول الله .  
(٢) الخرطوم: الأنف أو مقدم الأنف، والأنف رمز العزة عند العرب. ويقال: شتم الأنوف أي: أعزاء. والوسم على الأنف: إذلال وإهانة. قال تعالى: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ<sup>(٢)</sup>﴾ [القلم] أي: سنذله نهاية الإذلال. قيل: إن هذه الآيات فُزلت في الوليد بن المغيرة . وقد ضرب على أنفه بالسيف يوم بدر ، قبل مقتله ، فصنفت عليه الآية، وأخبرت بما سيحدث له قبل حدوثه. وقد أسلم عن ابنائه اثنان، أحدهما سيدنا خالد بن الوليد سيف الله وغياث العراق وقاهر الروم. [القاموس القويم: ١/ ١١٩].

(٣) غاب الشيء: غيب غيباً: استتر عن العين أو عن علم الإنس في المعنوي. والغيب: مصدر، ويسمى به ما غاب واستتر. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ..﴾ [البقرة] والغيب: هو ما غاب عن العيون كالجنة والنار والملائكة والجن، وجمعه: غيوب. قال تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ<sup>(١)</sup>﴾ [المائدة] . [القاموس القويم: ٢/ ٦٤].

أى : أن ما جاء من ذكر حكيم هو أمر غائب عنكم، يخبركم به الله - سبحانه - من خلال ما يُنزل على رسوله ﷺ .

وقد شاء الحق - سبحانه - أن يحفظ هذا الذُكر الحكيم ، ثقةً منه - سبحانه - أنه إذا أخبرنا في القرآن بخبر لم يجرأ أوانه ، فلنُفهم أنه قد أخبر بما له من أزلية علم بالكون وما يجرى فيه ، وبما له من قدرة مطلقة تتحكم فيما يؤول إليه أمر المُختار من الكائنات - مؤمنهم وكافرهم - فإذا حدثنا القرآن بشيء مما يغيب عن الإنسان ، فلنعلم أنه إخبار بصدق مطلق.

وهناك الكثير مما يغيب عن الإنسان ، وهناك حجاب بين وسائل إدراك الإنسان وبين بعض المُدركات ، ومرة يكون الحجاب حجابَ زمنٍ ، فإذا أخبر الله - تعالى - عن أمر لم نشهده من قديم قد أوغَل<sup>(١)</sup> في الزمن، ولم يقرأه النبي ﷺ في كتاب ولم يسمعه من معلّم<sup>(٢)</sup> ؛ فهذا كُشِفَ لحجاب الماضي.

ولذلك فبعض سور القرآن الكريم يسميها العلماء «ماكُنات القرآن»

(١) وَغَلَّ فِي السَّيِّءِ وَغَوَلَ . دَخَلَ فِيهِ . وَغَلَ : نَهَبَ وَابْعَدَ . وَتَوَغَّلَ فِي الْأَرْضِ : نَهَبَ فَابْعَدَ فِيهَا . وَكَذَلِكَ أَوْغَلَ فِي الْعِلْمِ . [لسان العرب - مادة : وغل].

(٢) وَلَمَّا كُنْتُ تَقُولُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ بِهَيْبِكَ إِذَا لَأَرْتَابَ الْمُظْلَمُونَ

(١٨) [المنكوت] قال مجاهد: كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمداً ﷺ لا يخط ولا

يقرأ لفزات هذه الآية. قال النحاس دليلاً على نبوته لقريش: لأنه لا يقرأ ولا يكتب ولا

يخالط أهل الكتاب. ولم يكن بمكة أهل الكتاب. فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم، وزالت الريبة

والشك. [انظر: تفسير القرطبي - ٥٢٤١/٧].



## سُورَةُ هُودٍ

٦٧٩١

مثل قوله الحق: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا مَهْمُ<sup>(١)</sup> أَيُّهُمْ يَكْفُلُ<sup>(٢)</sup> مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ<sup>(٣)</sup>﴾ [آل عمران]

وغير ذلك من الآيات<sup>(٤)</sup> التي تبدأ بقوله الحق: ﴿مَا كُنْتَ﴾.

وقد كان هناك أناس في ذلك الماضي يدركون ما صار غيباً عن الرسول ومن معه؛ لكن الحق - سبحانه - أظهر هذا الغيب للرسول

(١) الأفلام: جمع قلم، وهو السهم أو خشبة تشبهه يكتب عليه رمز يدل على مقدار يُعطى لمن يخرج باسمه، وكانوا يستعملونه في القرعة، ومن استعماله في القرعة قوله: ﴿إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا مَهْمُ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ..﴾ [آل عمران]، فالأفلام هنا سهام الاقتراع، وقد أجريت القرعة لفظاً سهم زكريا فكفل مريم. [القاموس القويم: ١٣٧/٢].

(٢) كَفَّلَهُ يَكْفُلُهُ كَفْلاً وَكَفَالَةً: أَوَاهُ وَرَعَاهُ وَرَبَّاهُ. وَكَفَّلَهُ الْيَتِيمَ، وَكَفَّلَهُ الْيَتِيمَ: أَسْنَدَ إِلَيْهِ كِفَالَتَهُ وَرَعَايَتَهُ. كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ..﴾ [آل عمران] جعله كافلاً لها. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ<sup>(١)</sup>﴾ [ص: آي: قَالَ: أَجْعَلْنِي كَافِلاً لَهَا رَاعِيًا شَرُونَهَا، مَا كَانَتْ لَهَا. [القاموس القويم: ١٦٧/٢].

(٣) هي تسع آيات في القرآن الكريم، منها آية آل عمران التي ذكرها الشيخ هنا ومنها:

- ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ..﴾ [هود]
- ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ اجْتَمَعُوا لَهُمْ وَهُمْ يُصْخَرُونَ<sup>(١)</sup>﴾ [يوسف]
- ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ<sup>(٢)</sup>﴾ [القصص]
- ﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَابِتًا فِي أَعْيُنِ مَنْدِينَ نَقَلُوا عَنْهُمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ<sup>(٣)</sup>﴾ [القصص]
- ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَنَاخَمَ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ<sup>(٤)</sup>﴾ [القصص]
- ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ فَهِيئاً لِلْكَافِرِينَ<sup>(٥)</sup>﴾ [القصص]

- ﴿وَمَا كُنْتَ تَقْرَأُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ بِيَمِينِكَ إِذْ أَرْسَلْنَاكَ بِالْبَطُورِ<sup>(٦)</sup>﴾ [المنكوث]

- ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ..﴾ [الشورى]

الذي لم يجلس إلى مُعَلِّم بشهادة أعدائه ، وكذلك كشف الحق - سبحانه - لرسوله حجاب الزمان وحجاب المكان.

وَمَنْ يَنْكَشِفْ لَهُ حِجَابُ الزَّمَانِ وَحِجَابُ الْمَكَانِ؛ إِنَّمَا يَنْكَشِفْ لَهُ حِجَابُ الْمُسْتَقْبَلِ أَيْضاً ، والذي كشف هذا هو الحق - سبحانه - الذي قَدَّرَ مَجِيءَ هذا العالم، وما سرف يحدث فيه إلى أن تقوم الساعة.

وقد طمر<sup>(١)</sup> الحق - سبحانه - في القرآن أموراً لو كُشِفَ عنها في زمن بَعَثَ الرسول : لكان الحديث عنها فوق مستوى العقول والإدراك ؛ وتحدث - سبحانه - عن وقائع مستقبلية بالنسبة للمعاصرين لرسول الله ﷺ ؛ لم يكن أحد يتوقعها.

وكانت هناك معركة بين أرقى حضارتين معاصرتين للإسلام ؛ حضارة فارس وحضارة الروم ، وكانت الحضارتان تتنازعان السيطرة وتوسيع مناطق النفوذ . وَهَزَمَتْ فَارِسٌ - التي لا تؤمن بآله - امبراطورية الروم التي تعتنق المسيحية ، ولا تؤمن برسالة محمد الخاتمة.

لذلك حزن رسول الله ﷺ لهزيمة الذين يؤمنون بآله في السماء؛ فَيُسْرَى<sup>(٢)</sup> الله - سبحانه - الأمر على رسوله، وَيُنْزِلُ الحق - سبحانه -

(١) طمر الشيء: خَبَاه. والمطمورة صغيرة تحت الأرض أو مكان تحت الأرض قد هُبِيَءَ خفياً يُطْمَرُ فيها الطعام والمال، أي: يُخْبَأ. [لسان العرب - مادة : طمر].

(٢) إن في حزن رسول الله ﷺ على هزيمة الروم ، وهم أهل كتاب لدليلاً على أن الإسلام هو جماع الأديان السماوية ، وأن الأديان جميعاً كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى إليه سائر الجسد بالسهر والحمى - الحديث إن إحساس رسول الله ﷺ بالهزيمة وحزنه عليها لدليل على رحابة الإسلام وعالميته مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. ﴾ [الشورى]

(٣) يسرو : يكشف عن فؤاده الألم ويزيله. وَسُرِّيَ عنه: أُنْزِلَ كُشِفَ عنه الخوف. وقد تكرر ذكر هذه اللفظة في الحديث، وخاصة في ذكر نزول الوحي عليه، وكلها بمعنى الكشف والإزالة [لسان العرب - مادة : سرو].



وإن قيل : تلك نبوءة محمد ، نقول : ما علم محمد بأخبار  
المعسكرين ولا بأسرار السياسة الداخلية لهما؟

وقد جاء نصر الروم كما حدد القرآن ، وكان هذا هتكا للحجب ،  
حجاب الزمان ، وحجاب المكان ، وحجاب الناس ، وأوحى به الحق  
سبحانه عالم الغيب المطلق لرسوله ﷺ .

والغيب المطلق هو الذى لا يعرفه إلا الحق - تبارك وتعالى - وليس  
له مقدمات، ويكشفه الله لمن يرتضيه، مصداقاً لقوله - سبحانه : ﴿عَالِمُ  
الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ .. (٢٧)﴾ [الجن]

وهذا الغيب<sup>(١)</sup> المطلق يختلف عن الغيب المقيد الذى له مقدمات ؛  
ما إن يأخذ بها الإنسان ويرتبها حتى يصل إلى اكتشاف سرٍّ من  
أسرار الكون.

والحق - سبحانه - هو القائل:

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا  
يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥)﴾ [البقرة]

وهكذا نعلم أن كل المكتشفات كانت موجودة فى الكون ومطمورة  
فيه ؛ وجعل الله - تعالى - لكل مستور منها ميلاداً ، فالبحار  
واستخدامه فى الحركات كان له ميلاد ؛ والكهرباء كان لها ميلاد ؛  
واكتشاف الذرة كقوة ومصدر للطاقة كان له ميلاد، وكل مُكتشف  
ومُخترع له ميلاد ، وتتوالى مواليد الغيب مستقبلاً ، وفى ميلادها

(١) الغيب : مصدر ويُسَمَّى به ما غاب واستقر ، قال الحق : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ .. (٢)﴾ [البقرة].

والغيب : هو ما غاب عن العيون كالجنة والنار والملائكة والجن ، وجمعه غيوب. قال تعالى

﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٥٥)﴾ [المائدة]. [القاموس القويم ج ٢ / ٦٤].

إيمان اليقين بمن أخفاه وأظهره ، وهو الله الحكيم.

وقد يأتي هذا الميلاد بكشف وبحث ؛ وقد يُظهره الله بدون بحث ؛  
أو يُظهره صدفة؛ مثلما أظهر قانون الطفو النابغ من قاعدة «أرشميدس»  
ومثلما أظهر الحق - سبحانه - قانون الجاذبية صدفة ؛ أى : أنه سبب  
من الأسباب جعل عبداً من عباده يبحث فى شيء، فيظهر له شيء لم  
يكن يبحث عنه ؛ ولذلك نسب الحق - سبحانه - الإحاطة له - سبحانه.

وهنا يقول الحق - سبحانه : ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ  
يَرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ۖ﴾ (١٢٢) [هود]

ولم يقل : «إليه يرجع الامر كله» ، لانه سبحانه ضابط كل  
مخلوق على قدر.

والله المثل الأعلى : كما تضبط أنت المنبه على ميقات معين ، وكما  
يضبط المقاتل القنبلة لتنفجر فى توقيت معين ، والكون كله مُرتَّب  
على هذا الترتيب.

والله - سبحانه - القائل :

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٦) [يس]

فكل شيء إنما يرجع إلى الله فى التوقيت الذى شاءه الله.

أو : أن الامر هو كل ما يتعلق بكائن حي ؛ لأن الحق - سبحانه - قد  
خلق فى الكون أشياء وترك ملكيتها له - سبحانه - والحق  
- سبحانه - لا ينتفع بها ، أما الإنسان فينتفع بها ، وإن كان لا يقربها  
ولا يملكها، مثل: الشمس التى ترسل أشعتها، ويستفيد الإنسان  
بضوئها<sup>(١)</sup> وحرارتها ، وهى لا تدخل فى ملكية الإنسان ؛ لأنها من

(١) وصف الله تعالى الشمس فى قرآنه، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً ۖ﴾ (٥٠) [يونس]، وقال  
عنها: ﴿... وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ (١٥) [نوح] والسراج: المصباح يعطى ضوءاً ويبعث حرارة.

أساسيات الحياة : لذلك لم يجعل للإنسان الذى خَصَّهُ الله بخاصية الاختيار حق ملكيتها أو الاقتراب منها : حتى لا يعيث بها.

وكذلك كل أساسيات الحياة جعلها الحق - سبحانه - فى سلطته وحده ، ولم يَأْمَنْ أحداً من خلقه عليها ، مثل الأرض بعناصرها ، وكذلك الماء والهواء حتى لا يعيث أحد بأنفاس الهواء لأحد آخر.

شاء الحق سبحانه أن يجعل الأساسيات فى يده دون أن يملكها لأحد : رحمةً منه بنا ، ذلك أنه - سبحانه - عَلِمَ أن الإنسان بما تعتريه من أغيار قد يسوء استخدام تلك الأساسيات.

وسَخَّرَ الله هذه الأساسيات لخدمة كل المخلوقات <sup>(١)</sup> ، وسَخَّرَ بعض المخلوقات ليسُوسها الإنسان ، وبعض المخلوقات الأخر لم يستطع الإنسان تسخيرها ، وحتى قوة الإنسان نفسه؛ شاء الحق - سبحانه - أن يجعلها أغياراً ؛ فالقوى يسير إلى الضعْف <sup>(٢)</sup> ؛ والفقير قد يصبح غنياً.

(١) يقول تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ فَتَجَرِّيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٢٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَالِّينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٢٣)﴾ [إبراهيم] وقد جمعت هاتان الآيتان أساسيات الكون التى تحدث عنها فضيلة الشيخ الشعراوي: السماوات - الأرض - الماء - الثمرات - الفلك - البحر - الأنهار - الشمس - القمر - الليل - النهار.

(٢) وفى ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥١)﴾ [الروم].

## سُورَةُ هُودٍ

٦٧٩٧

وهكذا يثبت لنا أن كل ما نملك موهوب<sup>(١)</sup> لنا من الله - تعالى -  
وليس هناك ما هو ذاتي فينا ، وما نملكه اليوم لا يخرج عن الملكية  
الموقوتة ، فإذا جاء يوم القيامة؛ رجع كل ما نملك لله - سبحانه وتعالى.

ولذلك يقول الحق - سبحانه :

﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

ولذلك أيضاً تشهد الجوارح على الإنسان؛ لأنها تخرج عن التسخير  
الذي كانت عليه في الدنيا<sup>(٢)</sup>.

وإذا كان الحق - سبحانه - يقول هنا:

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٢٣) ﴾ [هود]

فهو - سبحانه - يقول في آية أخرى: ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي  
الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦) ﴾ [طه]

وكان الحق - سبحانه - ينبه البشر منذ نزول القرآن إلى أهمية  
ما تحت الثرى من كنوز يمتنُّ الله - تعالى - بها على عباده أنه يملكها.

(١) يقول الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ  
فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَاقِعُ وَمِنْهَا يَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾ [يس] .

(٢) وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ لَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَامَعُوهَا شَهِدَ  
عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لَبِطُوا بِمَعْنَى لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهَ  
الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ زَالِيَةً تَرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْمَعُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ  
وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ فَتَنَّا أَنْتُمْ أَنْ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) ﴾ [فصلت] .

(٣) الثرى : القرب الدنى أو التراب مطلقاً قال تعالى : ﴿ وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦) ﴾ [طه] أى :

ما تحت جميع طبقات الأرض . [ القاموس القويم - ١٠٧/١ ] .

ونحن نعيش الآن باستخراج المكنوز الذي تحت الثرى.

وحين يقول الحق - سبحانه هنا - فى الآية التى نحن بصدد  
خاطرها عنها - : ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ۖ ﴾ (١٢٣) [مود]

ففى ذلك تنبيه لكل إنسان ، ليعمل مُستهدفاً النجاة حين لا يكون  
لنفسه على نفسه سبيل يوم القيامة.

وليعلم كل إنسان أن كل ما يستمتع به هو من فيوضات الحق  
الاعلى الذى أعطى الإنسان قدرة من باطن قوته - سبحانه - وأعطاه  
غنى من باطن غناؤه - سبحانه - وأعطاه حكمة من باطن حكيمته  
- سبحانه - وأعطاه قبضاً<sup>(١)</sup> وبسطاً من باطن قدرته - سبحانه -  
وكذلك أعطى لعبيده من كل صفة بعضاً من قبضها ، ثم تظل  
الفيوضات للحق - سبحانه وتعالى.

وحين يشاء فهو يسلب كل الفيوضات ويعود الأمر إليه ، لأن  
الأمر كله له سبحانه.

فإنْ حَدَّثْتَ فى القرآن بأمر تغيب عنك مقدماته، فاعلمْ أن الذى أنزل  
هذا الكتاب لا يعزب<sup>(٢)</sup> عن علمه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض.

(١) يستعمل القبض كناية عن خفيq الميش، والبسط كناية عن سعة . كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَفْقَهُ تَوَسُّطَ إِلَيْهِ لُجُجُهُمْ ﴾ [البقرة] أى يضيق الرزق ويوسِّعه على من يشاء.  
[القاموس القويم : ٩٦/٢] يتصرف . وبسط اليد : يُكنى به عن الكرم والسخاء أو عن  
الإسراف وكثرة إنفاق المال، ويقول تعالى عن نفسه : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ ﴾ [المائدة] كناية عن الكرم والسخاء [ القاموس القويم ٩٦/١].

(٢) عزب الأمر يعزب : بُعد وغاب وصُغِبَ مطلبه، قال تعالى : ﴿ وَمَا يَعْزِبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مُبِين ﴾ [يونس] . أى : لا يغيب  
ولا يبعد عنه أى شىء، فهو يعلم الصغير والكبير من الأمور والأشياء. [القاموس القويم : ٩٨/٢].



ولذلك كان الرسول ﷺ على ثقة أن الحق - سبحانه - حين أمره أن يتوعد أعداء الدين فهو يُطمئنه أن المرجع في كل الأمور إليه - سبحانه.

واطمأن الرسول ﷺ والذين معه أن أعداء الدين إن لم يُجازوا في الدنيا، فقد أترجع الأمور كلها إلى الله ، وإن كان الحق قد ملكهم أشياء؛ فسيُسلبهم هذه الملكية في الآخرة ، وإن كان قد أعطاهم الخيار<sup>(١)</sup> في الدنيا ؛ خيار أن يؤمنوا ويطيعوا ، أو أن يكفروا ويعصوا<sup>(٢)</sup> ؛ فهذا الاختيار سيزول عنهم في الآخرة ، وكل مالك لملك يصير ملكه بعده إلى الله.

ومادام الأمر كذلك فلنعبد الله وحده - سبحانه - لأنه صاحب الأمر فيما مضى ؛ وله الأمر الآن ؛ وله الأمر فيما يأتي.

وهو - سبحانه - الذي شاء، فجعل للإنسان ثلاثة أزمان: زمان سبق وجود آدم ؛ وزمان من بعد آدم إلى وجود أيّ منا ؛ ثم زمان مستقبل إلى ما لا نهاية ، وبذلك يكون لكل منا زمان ماضي ؛ وزمان حاضر وزمان مستقبل ، وكل منا يدور في فلك الأحداث<sup>(٣)</sup>.

(١) الخيار : اسم من الاختيار. وخيّرته بين الشيئين أي : فوّضت إليه الخيار، وتخير الشئ اختاره. والاختيار. الاصطفاة وكذلك التخيير. [لسان العرب - مادة : خير] يتمصرف.

(٢) وقد جاء هذا في آيات كثيرة منها:

- ﴿وَقُلِ الْغُلُومُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ..﴾ (١٥) [الكهف]

- ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّا شَاكِرُونَ إِنَّمَا تَقْوُوا﴾ (٢) [الإنسان]

ومبدأ الإسلام العام أنه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ..﴾ (١٥٥) [البقرة]

(٣) الحدث من أحداث الدهر: التازلة. وحنثان الدهر وحوادثه: نَوْبُهُ ومصائبه. [اللسان - مادة :

حدث].

ومن المنطقي بعد أن تستمتع بوجودك في الحياة : وتنضج عقلياً  
أن تتساءل عن ماضيك ، وتاريخ الجنس البشري.

وانت - في هذه الحالة - تكون رهنًا بثقة المحدث : هل يقول  
الصدق أم يقول الكذب ؟ خصوصاً إذا كان الحديث عن تاريخ ما قبل  
آدم ، ولا بد أن تقول لنفسك : لا يمكن أن يحدثني عن ذلك إلا مَنْ  
خلقني<sup>(١)</sup>.

وساعة يُبْلَغُكَ رسول الله ﷺ عن بداية الخلق قائلاً : «كان الله ،  
ولم يكن شيء غيره»<sup>(٢)</sup>.

ومعنى ذلك أن الصادق الوحيد الذي يمكن أن نقبل منه كلاماً عما  
فات قبل آدم هو الله - سبحانه وتعالى.

وإن سألْتَ : لماذا وُجِدْتُ في زمني هذا ، ولم أوجد في زمن  
آخر؟ هنا ستقول لنفسك إن كنت مؤمناً : « إن مشيئة وإرادة مَنْ  
أوجدني هي التي رجَّحت وجودي في هذا الزمن عن أي زمن آخر ».

ولا بد أن تسأل نفسك : وما المطلوب مني ؟

(١) وفي هذا يقول الحق سبحانه: ﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ .. ﴾ (٥١) [الكهف] ، وقال تعالى عن خلق الملائكة: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَالَا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ (٥١) [الزخرف]

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٤٢١)، والبخاري في صحيحه (٣١٩١) من حديث عمران بن حصين. وتامه: «كان الله ولم يكن شيء غيره»، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض».

وستجد أن المطلوب منك هو حركة الحياة ؛ لأن تلك الحركة هي  
الفاصل بين الحياة والموت ، والحق يقول: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ  
وَأَسْتَعْمَرَكُمْ<sup>(١)</sup> فِيهَا .. ﴾ (٦١)

[هود]

فقد أعطاك الحق - سبحانه - العقل لتفكر ، وأعطاك الطاقة لتفعل،  
وسخر لك الكون بالمطموح فيه من الرزق ؛ لتستخرجه وتعيش منه.

وهكذا يتضح لك أن كل شيء يحتاج منك أن تتحرك ، وأنت في  
حركتك تحتاج لطاقة تأخذها من الأعلى منك وتعطي للأدنى منك ؛  
لذلك أنت تأخذ طاقة من الأعلى منك ، وتُعطي للأدنى منك.

وأنت تعلم أن قمة المطلوب منك أن تُصلي بين يدي الله خمس  
مرات كل يوم؛ لتشحن طاقتك وتخرج للحياة بعد أن تُجدد ولاءك لمن  
خلقك وخلق الأكوان كلها ، وإن أحسنت الوقوف بين يدي الله سيأتي  
مستقبك مبنياً على هذا الإحسان.

والحق - سبحانه - يعطينا مثلاً لهاتين الحركتين ، فيقول:  
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ  
وَقَرُّوا الْبَيْعَ .. ﴾ (٩)

[الجمعة]

هذه حركة يأخذ فيها الإنسان طاقة من الأعلى، فالسعي إلى ذكر

(١) استعمره في المكان - جعله يعمّره. قال ابن منظور في [اللسان - مادة : عمر] :  
«استعمركم فيها، أي: أنن لكم في ممارستها واستخراج قوتكم منها، وجعلكم عمّارها».

الله وترك البيع من أجل ذلك يعطى الإنسان طاقة إيمانية ، يظهر أثرها فى الحركة الثانية من حركات الإنسان.

ولذلك يقول الحق - سبحانه - بعد هذا:

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا <sup>(١)</sup> فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الجمعة]

ولذلك يقول الحق - سبحانه - فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها:

﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [هود]

أى : أطع الله فى أمره ؛ لأنه - سبحانه - الأعلى منك ، بأن تؤدى المطلوب العبادى من : صلاة ، وزكاة ، وصيام ، وحج إن استطعت لذلك سبيلاً ، لتأخذ من المدد الأعلى ما يعينك فى حركتك الثانية التى تتحركها فى الكون.

ومن العجيب أن حركتك فى الكون الأدنى تُعينك على حركتك لاستمداد الطاقة من مُكوّن الكون - سبحانه.

فأنت حين تصلى تحتاج لِسَتر عورتك بثوب ، وحتى تاتى بالثوب لا بد لك من أن تعتمد على حركة الفلاح فى الزراعة ، وحركة

(١) انتشر الناس. تفرقوا وتصرفوا فى معاشهم. قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنَّهُمْ نَشَرُوا تَتَشِيرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الروم] أى : تتصرفون فى معاشكم وتَسْفُونَ فى الأرض. وقال : ﴿ فَلَا طَعْمَ فَاَنْتَشِرُوا .. ﴾ [الاحزاب] انصرفوا كل إلى حال سبيله. [القاموس القويم: ٢٦٦/٢].

العامل في النَّسْجِ ، وحركة التاجر في البيع ، وحركتك في عملك الذي يتيح لك أجراً تشتري منه الثوب.

وبذلك تكون قد أخذت كل علوم الحياة ؛ لكي تذهب للصلاة لتأخذ المدد من المدد الأعلى.

وهكذا تجد أنك في حركة دائرة ؛ تأخذ المدد من الأعلى لتعطى الكون الأدنى ، وتأخذ من الأدنى ما يتيح لك الوقوف بين يدي صاحب المدد الأعلى.

وبهذا يثبت لك أن الحركة في الحياة الحاضرة لكل إنسان بالنسبة لعمره في الحياة، هي استقبال<sup>(١)</sup> من المدد الأعلى ، وانفعال مع المدد الأدنى ، وكل منهما يعين على الآخر ؛ لذلك فعليك أن تعبد الله بأن تنظم حركة حياتك على ضوء منهجه - سبحانه.

واعلم أنه ستصادفك المصاعب فإن صادفتك فتوكل على الله ، وتلك فائدة من فوائد استمرار ولائك لله الذي تأخذ منه المدد.

ولذلك «كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة»<sup>(٢)</sup>.

(١) فمن طريق عيانتك يكون العون من المدد الأعلى يقول الحق: ﴿إِنَّا نَعْبُدُ وَإِنَّا نَسْتَعِينُ﴾ (٥) [الفاصلة] فعليتنا العبادة الخالصة لنفوذ بعون المدد الأعلى، وقد كان دعاء إبراهيم عليه السلام عندما أودع ملجأ وإسماعيل عند البيت الحرام : قال في دعائه: ﴿رَبِّ اجْعَلْ أَلَدَةَ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ ..﴾ (٣٧) [إبراهيم] . من مفهوم ماثورات الإمام.

(٢) عن حنيفة رضي الله عنه قال : «كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلى» أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٨٨/٥) وأبو داود في سننه (١٣١٩).

ومعنى «حزبه»<sup>(١)</sup> أى خرج عن أسبابه ، لذلك فهو يذهب إلى المسبب الأعلى ، فإن عبدت الله وتوكلت عليه ؛ فهو يعينك ؛ لأنه - سبحانه لا يفغل عما نعمل.

وهذه الآية تدلُّ على السعادة فى الحاضر والمستقبل ؛ لأنك إن كنت ترعى الله فسبحانه يكتب لك الحسنة بعشر أمثالها ، وقد يضاعف عن ذلك<sup>(٢)</sup> ، وتُكتب السيئة بمثلها.

وبذلك تكون هذه الآية قد استوعبت وانتظمت حال الإنسان ؛ قبل حياته ، وحاضر حياته ، ومستقبل حياته إلى أن تقوم الساعة.

يقول الحق - سبحانه :

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ..

[الأنفال]

﴿٢٤﴾

فدعوة الله بالطاعة ، ودعوة الرسول بالسلوك السَّوَّى يعطى للمؤمن حياة الحياة ، وهى حياة تعيش فى معية الله.

(١) حزبه أمر: أصابه، إذا نزل به مُهمٌّ أو أصابه غمٌّ. وأمر حازب وحزيب: شديد. وحولاب

الخطوب - وهو جمع حازب - وهو الأمر الشديد. [لسان العرب: حازب].

(٢) يقول الحق سبحانه : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِمَّا هِيَ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَمَنْ لَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأنعام] ويقول أيضاً: ﴿فَلِلَّذِينَ يُلْقُونَ لُغْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمِثْلِ حَبَّةٍ نَبْتٍ

سَبْعَ سَابِلٍ فِي كُلِّ سَبْتٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة].

سُورَةُ يُوسُفَ





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### الْأَرْقَامُ أَيْتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ١

قد تعرضنا من قبل لفواتح السور<sup>(١)</sup> : من أول سورة البقرة، وسورة آل عمران، وقلنا: إن فواتح بعض من سور القرآن تبدأ بحروف مُقَطَّعة :

● سورة يوسف سورة مكية، نزلت بمكة المكرمة. قال السيوطي في «الإتقان في علوم القرآن» (١/٤٠): «استثنى منها ثلاث ليات من أولها، حكاه أبو حيان، وهو واء جداً لا يلتفت إليه». عدد آياتها ١١١ آية. وهي سورة جامعة لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين، والملائكة والشياطين، والجن والإنس، والأتعام والطير، وسير الملوك والممالك، والتجار والعلماء والجهال، والرجال والنساء، وحيلهن ومكرهن، وفيها ذكر التوحيد والفقه، والسير وتعبير الرؤيا، والسياسة والمعاشرة وتبشير المعاش، وجمل الفوائد التي تصلح للدين والدنيا ذكره القرطبي في تفسيره (٤/٣٤٤١).

(١) قال الإمام السيوطي : «اعلم أن الله افتتح سور القرآن بعشرة أنواع من الكلام:  
الأول : الثناء عليه تعالى، والثناء قسمان. الأول: التحميد في خمس سور، وتبارك في سورتين، والثاني: التسبيح في سبع سور.  
الثاني : حروف التهجي في تسع وعشرين سورة.  
الثالث : النداء في عشر سور. خمس ببناء الرسول ﷺ، وخمس ببناء الأمة.  
الرابع : الجمل الضبرية، نحو: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ..﴾ (٦) [الأنفال]، وذلك في ثلاث وعشرين سورة.

الخامس: القسم ، في خمس عشرة سورة.  
السادس : لشرط ، في سبع سور مثل : ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ (١) [الواقعة].  
السابع : الأمر، في ست سور، نحو : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) [الإخلاص]  
الثامن : الاستكهام، في ست سور، نحو: ﴿عَمُ يُسْأَلُونَ﴾ (١) [النبأ]  
التاسع : الدعاء، في ثلاث سور: الهمزة للمطففين، المسد.  
العاشر : التعليل ، في سورة قريش . انتهى باختصار [ الإتقان في علوم القرآن

تنطقها ونحن نقرؤها بأسماء الحروف ، لا بمسميات الحروف.

فإن لكل حرف اسماً ومُسَمًّى ، واسم الحرف يعرفه الخاصة الذين يعرفون القراءة والكتابة ، أما العامة الذين لا يعرفون القراءة أو الكتابة ؛ فهم يتكلمون بمسميات الحروف ، ولا يعرفون أسماءها.

فإن الأمي إذا سُئِلَ أن يتهجى أى كلمة ينطقها ، وإن يفصل حروفها نطقاً ؛ لما عرف ، وسبب ذلك أنه لم يتعلم القراءة والكتابة ، أما المتعلم فهو يعرف أسماء الحروف ومُسَمِّيَّاتها.

ونحن نعلم أن القرآن قد نزل مسموعاً ، ولذلك أقول: إياك أن تقرأ كتاب الله إلا أن تكون قد سمعته أولاً ؛ فإنك إذا قرأته قبل أن تسمعه فسيستوى عندك حين تقرأ في أول سورة البقرة : ﴿الْم ١﴾ [البقرة] مثلاً تقرأ في أول سورة الشرح : ﴿الْم .. ١﴾ [الشرح]

أما حين تسمع القرآن فأنت تقرأ أول سورة البقرة كما سمعها رسول الله ﷺ من جبريل<sup>(١)</sup> - عليه السلام - « ألف لام ميم » ، وتقرأ أول سورة الشرح « ألم ».

وأقول ذلك لأن القرآن - كما نعلم - ليس كأي كتاب تُقبل عليه لتقرأه من غير سماع ، لا، بل هو كتاب تقرأه بعد أن تسمعه وتصحح

(١) إن السماع قبل القراءة ضرورة من ضرورات سلامة النطق ، وطهارة الكلمة ؛ لذلك يقول الحق : ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة] فال تلاوة ابتداء ، والتزكية ارتقاء ، والتعليم صفاء ، ووضع الشيء في مكانه ووضع للمقال في مقامه ، وفي الغيب علم يتوالى ، وفي التوالى إعجاب ، والإعجاب توحيد بنزاهة ، وتكريد بطهارة ، وتجريد بإخلاص.

قراءتك على قارىء : لتعرف كيف تنطق كل قَوْل كريم ، ثم من بعد ذلك لك أن تقرأ بعد أن تعرفت على كيفية القراءة : لأن كل حرف فى الكتاب الكريم موضوع بميزان<sup>(١)</sup> وبقدر.

ونحن نعلم أيضاً أن آيات القرآن منها آيات مُحْكَمَات وأُخَر مُتَشَابِهَات<sup>(٢)</sup> . والآيات المُحْكَمَاتُ تضم الاحكام التى عليك أن تفعلها لتُثَاب عليها ، وإن لم تفعلها تُعاقب ، وكل ما فى الآيات المُحْكَمَات واضح.

أما الآيات المُتَشَابِهَات إنما جاءت مُتَشَابِهَةً<sup>(٣)</sup> لاختلاف الإدراك من إنسان لآخر ، ومن مرحلة عُمرية لأخرى ، ومن مجتمع لآخر ، والإدراكات لها وسائل يتشابه فيها الناس ، مثل : العين ، والاذن ، والأنف ، واللسان ، واليد.

ووسائل الإدراك هذه : لها قوانين تحكمها:

(١) قال ابن الجزرى فى كتابه «النشر فى القراءات العشر» (١/٢١٠) : «لا شك أن هذه الامة كما هم متعبدون بفهم معانى القرآن وإقامة حدوده متعبدون بتصحيح الفاظه وإقامة حروفه على الصفة المتفقاة من أئمة القراءة المتصلة بالحضرة النبوية الافصحية العربية التى لا تجوز مخالفتها ولا العدول عنها إلى غيرها».

(٢) يقول تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧)﴾ [آل عمران]

(٣) معنى المتشابه هنا أى : ما استأثر الله بعظمه ، وخفى معناه على الناس ، أو هو ما احتمل أوجهاً من حيث المعنى والتأويل . وهذا هو معنى الآية السابعة من سورة آل عمران ، أما قوله تعالى : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا .. (٢٢)﴾ [الزمر] فمعناه : أنه يشبه بعضه بعضاً فى الصفة ، وعدم التناقض وتأييد بعضه لبعض . انظر «فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن» لأبى يحيى الأنصارى (ص ٦٠).

فَعَيْنُكَ يَحْكُمُهَا قَانُونُ إِبْصَارِكَ ، الَّذِي يَمْتَدُّ إِلَى أَنْ تَلْتَقِيَ خُطُوطُ  
الْأَشْعَةِ عِنْدَ بُورَةِ تَمْتَنَعُ رُؤْيُكَ عَنْهَا ؛ وَلِذَلِكَ تَصْفُرُ الْأَشْيَاءُ تَدْرِيجِيًّا  
كَلِمَا ابْتَعَدَتْ عَنْهَا إِلَى أَنْ تَتَلَاشَى مِنْ حُدُودِ رُؤْيِكَ.

وَصَوْتُكَ لَهُ قَانُونٌ ؛ تَحْكُمُهُ ذَبْذِبَاتُ الْهَوَاءِ الَّتِي تَصِلُ إِلَى أَدْوَاتِ  
السَّمْعِ دَاخِلَ أَذْنِكَ.

وَكَذَلِكَ الشَّمُّ لَهُ حُدُودٌ ؛ لِأَنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ شَمُّ وَرْدَةٍ مُوجُودَةٍ فِي بَلَدٍ  
بَعِيدَةٍ.

وَكَذَلِكَ الْعَقْلُ الْبَشَرِيُّ لَهُ حُدُودٌ يُدْرِكُ بِهَا ، وَقَدْ عَلَّمَ اللَّهُ كَيْفَ يَدْرِكُ  
الْإِنْسَانُ الْأُمُورَ ، فَلَمْ يَمْنَعْ تَأَمُّلَ وَرْدَةٍ جَمِيلَةٍ ، لَكِنَّهُ أَمَرَ بِغَضِّ  
الْبَصَرِ<sup>(١)</sup> عِنْدَ رُؤْيَةِ أَيِّ امْرَأَةٍ.

وَهَكَذَا يُحَدِّدُ لَكَ الْحَقُّ الْحَالَ الَّذِي تَرَاهُ ، وَيُحَدِّدُ لَكَ الْحَرَامَ الَّذِي  
يَجِبُ أَنْ تَمْتَنَعَ عَنْ رُؤْيَتِهِ . وَكَذَلِكَ فِي الْعَقْلِ ؛ قَدْ يَفْهَمُ امْرَأَةً وَقَدْ  
لَا يَفْهَمُ امْرَأَةً أُخْرَى ، وَعَدَمُ فَهْمِكَ لِذَلِكَ الْأَمْرِ هُوَ لَوْ أَنَّكَ مِنْ الْفَهْمِ أَيْضًا ،  
وَأَنْ تَسَاءَلْتَ كَيْفَ ؟

انْظُرْ إِلَى مَوْقِفِ تَلْمِيزِ فِي الْإِعْدَادِيَّةِ ؛ وَجَاءَ لَهُ اسْتِزَادُهُ بِتَعْرِينِ

(١) غَضُّ بَصَرِهِ وَغَضُّ مِنْ بَصَرِهِ ، يَغْضُو غَضًّا: خَفَضَهُ وَلَمْ يَرْفَعْهُ وَلَمْ يَحْبِثْهُ فِيمَا أَمَامَهُ ، أَوْ  
كَفَّ بَصَرَهُ وَلَمْ يَنْظُرْهُ . وَفِي غَضِّ الْبَصَرِ قَالَ : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغْضُوا مِنْ أَعْيُنِهِمْ .. ﴾ (٢٤) ﴿  
[النور] ، وَقَالَ : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضِينَ مِنْ أَعْيُنِهِنَّ .. ﴾ (٢٥) ﴿ [النور] . وَمِنْهُ غَضُّ صَوْتِهِ:  
خَفَضَهُ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَغْضَضْ مِنْ صَوْتِكَ .. ﴾ (٢٦) ﴿ [لقمان] [القاموس القويم : ٥٦/٢] .

هندسى<sup>(١)</sup> مما يدرسه طلبة الجامعة ؛ هنا سيقول التلميذ الذكى  
لأستاذه : نحن لم نأخذ الأسس اللازمة لحل مثل هذا التمرين  
الهندسى ، هذا القول يعنى أن التلميذ قد فهم حدوده.

وهكذا يُعلّمنا الله الأدب فى استخدام وسائل الإدراك : فهناك أمر  
لك أن تفهمه ؛ وهناك أمر تسمعه من ربك وتطيعه ، وليس لك أن  
تفهمه قبل تنفيذه ؛ لأنه فوق مستوى إدراكك.

ودائماً أقول هذا المثل - والله المثل الأعلى - إنك حين تنزل فى فندق  
كبير، تجد أن لكل غرفة مفتاحاً خاصاً بها ، لا يفتح أى غرفة أخرى ،  
وفى كل دور من أدوار الفندق يوجد مفتاح يصلح لفتح كل الأدوار ، ولا  
يفهم هذا الأمر إلا المتخصص فى تصميم مثل تلك المفاتيح.

فما بالنّا بكتاب الله تعالى ، وهو الكتاب الجامع فى تصميم مثل  
تلك المفاتيح.

فما بالنّا بكتاب الله - تعالى - وهو الكتاب الجامع الذى يقول فيه  
الحق - تبارك وتعالى:

﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ <sup>(٢)</sup> هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ <sup>(٣)</sup> وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي

(١) أصل هذه الكلمة الهنداز، وهى كلمة فارسية أصلها انداز فصيرت الزاى سيناً، لأنه ليس فى  
شئ من كلام العرب زاي بعد الدال، والاسم الهندسة. والمهندز: هو الذى يُقَدِّر مجارى  
الْقَنَى والأبنية. [انظر: لسان العرب - مادتي: هندز، هندس].

(٢) لحكم الأمر: اتقنه، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ أَيْمَانَهُ .. (٥٢) ﴾ [الحج] أى: يبينها ويجعلها  
متقنة مقننة محكمة. وآيات محكمة: مقننة مقننة واضحة. وقيل: محكمة غير منسوخة أو  
محكمة غير متشابهة فلا تحتاج إلى تأويل. وقال تعالى: ﴿ إِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ .. (١٥) ﴾  
[محمد] أى: مقننة. [القاموس القويم: ١٦٦/١].

(٣) أم الكتاب. أصله: يُرَدُّ إليها كل ما عداها مما يحتمل أوجهاً كثيرة. قال فى التهذيب: أم الكتاب  
كل آية محكمة من آيات الشرائع والأحكام والفرائض. [نقله ابن منظور فى اللسان - مادة:  
أم] وأم الكتاب: فاتحته؛ لأنه يبدأ بها فى كل صلاة. [اللسان].

قُلُوبِهِمْ زَيِّجٌ<sup>(١)</sup> فَيَجِبُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ<sup>(٢)</sup> الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلُ الْأَنْبَابِ (٧) ﴿

[آل عمران]

إذن : فهذا المتشابه يعتبره أهل الزيغ فرصة لتحقيق مأربهم<sup>(٣)</sup> ، وهو إبطال الدين بأى وسيلة وبأى طريقة ، ويحاولون ممارسة التكبر على كتاب الله.

ولهؤلاء نقول: لقد أراد الله أن يكون بعض من سور الكتاب الكريم مبتدئة بحروف تُنطق بأسمائها لا بمسمياتها.

وقد أرادها الحق - سبحانه - كذلك ليختبر العقول ؛ فكما أطلق - سبحانه - للعقل البشرى التفكير فى أمور كثيرة ؛ فهناك بعض من الأمور يخيب فيها التفكير ، فلا يستطيع العقل إدراك الأشياء التى تفوق حدود عقله.

(١) زَاغَ يَزِيغُ زَيْغًا وَزَيْفَانًا: مال عن القصد. وزاغه: أماله وصرفه عن القصد : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ .. ﴾ [الصف] أى: فلما انصرفوا عن الحق واختاروا طريق الباطل، صرف الله قلوبهم وتركهم وما اختاروه فلم يجبرهم على الإيمان. [القاموس القويم: ٢٩٣/١، ٢٩٤].

(٢) بغى الشيء: طلبه، وابتغاه: طلبه. قال تعالى : ﴿ يَتَفَوَّنُكُمْ الْفِتْنَةُ .. ﴾ (٧٧) ﴿ [التوبة] ، أى: يطلبونها لكم. وقال تعالى: ﴿ يَتَفَوَّنُونَ فُضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا .. ﴾ (٣٩) ﴿ [الفتح] أى: يطلبون فضلا. وقوله: ﴿ فَقَدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ .. ﴾ (٤٥) ﴿ [التوبة] أى: طلبوها وسفروا فى بثها ونشرها. [القاموس القويم: ٧٦/١].

(٣) المارب والأرب والإرب: الحيلة والغرض. يقول تعالى عن عصا موسى أن موسى عليه السلام قال عنها: ﴿ وَلِي فِيهَا مَرْبٌ أُخَرَى ﴾ (٤٥) ﴿ [طه] أى: حاجات وأغراض كثيرة أخرى. كالتقاء ضرر أو غير ذلك. [القاموس القويم: ١٧/١] بتصرف.

والحق - سبحانه وتعالى - يصنع للإنسان ابتلاءات في وسائل إدراكه؛ وجعل لكل وسيلة إدراك حدوداً ، وشاء أن يأتى بالمتشابه ليختبر الإنسان ، ويرى : ماذا يفعل المؤمن ؟

وقوله الحق - سبحانه:

﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ <sup>(١)</sup> إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ <sup>(٢)</sup> فِي الْعِلْمِ .. (٧) ﴾ [آل عمران]

قد يفهم منه أنه عطف ؛ بمعنى أن الراسخين في العلم يعلمون تأويله ؛ وبالتالي سيُعلمون الناس ما ينتهون إليه من علم بالتاويل. ولكن تأويل الراسخين في العلم هو قولهم:

﴿ كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا .. (٧) ﴾ [آل عمران]

إذن : فنهاية تأويلهم : هو من عند ربنا ، وقد آمنا به.

وجاء لنا قوله ﷺ لِيَحُلْ لَنَا إشكال المتشابه:

« ما تشابه منه فَأَمْنُوا به » <sup>(٣)</sup>.

(١) تأويل الكلام: تفسيره وتبيين المراد منه. قال ابن منظور في [لسان العرب - مادة: أول]:

«التاويل والمعنى والتفسير واحد. قال أبو عبيد في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ..

(٢) ﴾ [آل عمران] : القائل المرجع والمصير مأخوذ من ال يؤول (إلى كذا، أى: صار إليه

قال الجوهري: التاويل تفسير ما يؤول إليه الشيء».

(٣) رَسَخَ يَرْسُخُ رُسُوخاً : ثبت فهو راسخ أى : ثابت. الراسخون في العلم: المتمكنون فيه.

[القاموس القويم: ٢٦٤/١].

(٣) تمام هذا الحديث : « إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به،

وما تشابه منه فَأَمْنُوا به » عزاه ابن كثير في تفسيره (٢٤٦/١) لابن مردويه من حديث

عبدالله بن عمرو بن العاص.

لأن العتق شبه من ابتلاءات الإيمان.

والمثل الذي أضربه هنا هو أمره ﷺ لنا أن نستلم<sup>(١)</sup> الحجر الأسود وأن نقبله<sup>(٢)</sup>، وأن نرجم الحجر<sup>(٣)</sup> الذي يمثل إبليس ، وكلاهما حجر، لكننا نعتل بالإيمان لما أمرنا به ﷺ<sup>(٤)</sup>.

وأنت لو أقبلت على كل أمر بحكم عقلك ، وأردت أن تعرف الحكمة وراء كل أمر ، لعبدت عقلك ، والحق - سبحانه - يريد أن تقبل على الأمور بحكمه هو - سبحانه.

وأنت إن قلت لواحد: إن الخمر تهري الكبد ، ووضعت على كبده جهاز الموجات فوق الصوتية الذي يكشف صورة الكبد ، ثم ناولت الرجل كأس خمر ؛ فرأى ما يفعله كأس الخمر في الكبد ، ورأعه<sup>(٥)</sup> ذلك ؛ فقال : والله لن أشربها أبداً.

(١) قال الليث استلام الحجر تناوله باليد وبالقُبلة ومسحه بالكف. وقال الجوهري: استلم الحجر لمسحه إما بالقُبلة أو باليد. [نقله ابن منظور في لسان العرب - مادة: سلم].  
(٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: استقبل رسول الله ﷺ الحجر فاستلمه، ثم وضع شفتيه عليه بيكي طويلاً، فالتفت فإذا هو بعمر بيكي، فقال: يا عمر، هذا تُسكب العبرات. أخرجه ابن ماجه في سننه (٢٩٤٥) والحاكم في مستدركه (٤٥٤/١) كلاهما من طريق محمد بن عون الخراساني قال البوصيري في الزوائد: ضعفه ابن معين وأبو حاتم وغيرهما، قلت: قد صححه الحاكم وأقره الذهبي على تصحيحه.

(٣) وهو ما يُعرف برمي الجمرات أي يثني في أيام الحج، وهي ثلاث جمرات: الصغرى وهي القريبة من مسجد الخيف، ثم الجمرة الوسطى وبينهما ١٥٥ متراً، ثم الجمرة الكبرى. كل جمرة تُرمى بـ ٢١ حصاة على ثلاثة أيام: ١١، ١٢، ١٣ من ذي الحجة. انظر كتابي «فتاوى وأحكام حول مناسك الحج والعمرة».

(٤) لذلك كان عمر رضي الله عنه يقول: «والله إني لأطم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك»، أخرجه البخاري في صحيحه (١٦١٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٥) راعه ذلك: أفزع، ولزاع منه وله ورّعه فتروّع، أي: تفزع . والرّوع والرّواع: الفزع.  
[لسان العرب - مادة: روع].



هل هو يفعل ذلك لأنه مؤمن ؟ أم أنه ربط سلوكه بالتجربة ؟

لقد ربط سلوكه بالتجربة ، وهو يختلف عن المؤمن الذي نُقِذَ  
تعاليم السماء، فامتنع عن الخمر لأن الله أمر بذلك ، فلا يمكن أن  
تُؤجل تعاليم السماء إلى أن تظهر لنا الحكمة منها.

إذن: فعلة المتشابه : الإيمان به. وقد يكون للمتشابه حكمة ؛ لكننا  
لن نُؤجل الإيمان حتى نعرف الحكمة.

وأقول دائماً : يجب أن يعامل الإنسانُ إيمانه بربه معاملته لطبيبه ،  
فالمريض يذهب إلى طبيبه ليعرض عليه شكواه من مرض يؤلمه ؛  
ليصفَ الطبيب له الدواء ، كذلك عمل عقلك؛ عليه أن ينتهي عند عتبة  
إيمانك بالله.

ونجد من أقوال أهل المعرفة بالله مَنْ يقول: إن العقل كالمطية<sup>(١)</sup> ،  
يُوصِّلُك إلى باب السلطان، لكنه لا يدخل معك.

إذن: فالذي يناقش في علل الأشياء هو مَنْ يرغب في الحديث مع  
مُساوٍ له في الحكمة، وهل يوجد مُساوٍ لله؟

طبعاً لا ، لذلك خُذْ افتتاحيات السور التي جاءت بالحروف المقطعة  
كما جاءت ، واختلافنا على معانيها يؤكد على أنها كُنْز لا يتفد من

(١) المطية: الدابة تُمطى أى: يُركب ظهرها. والجمع: مَطَايَا والمِطَا: الظهر لامتداده. وأصل

المطر المد. وتمطى الرجل: تمدد. وكل شيء مددت فقد مطوته. وتمطى النهار: امتد وطال.

[لسان العرب - مادة: مطا - بتصرف].

العطاء، إلى أن تُحلَّ إنْ - شاء الله - من الله<sup>(١)</sup>.

ومن العجيب أن آيات القرآن كلها مبنية على الوصل، ففي آخر سورة هود نجد قول الحق - سبحانه:

﴿وَمَا رَبُّكَ بِفَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٢)﴾ [هود]

وكان من المفترض أن نقف عليها فننطق كلمة «تعملون» ساكنة النون ، لكنها موصولة بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » ؛ لذلك جاءت النون مفتوحة.

وأيضاً ما دامت الآيات مبنية على الوصل، كان من المفروض أن ننطق بدء سورة يوسف «ألف لَام رَاء» لكن الرسول ﷺ عَلَّمَنَا أن نقرأها «ألف لَام رَاء» وننطقها ساكنة.

وهذا دليل على أنها كلمة مبنية على الوقف ، ودليل على أن الله - سبحانه - حكمة في هذا وفي ذاك.

ونحن نعلم أن الرسول ﷺ كان يراجع القرآن مرة كل رمضان مع جبريل - عليه السلام - وراجعته مرتين في رمضان الذي سبق وفاته ﷺ<sup>(٢)</sup>.

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٣٧/١): «مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً، وهي - ا ل م ص ر ك ه ي ع ط س ح ق ن - يجمعها قول : «نص حكيم قاطع له سر».

(٢) عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت «أسرَّ إلى النبي ﷺ أن جبريل كان يُعارضني بالقرآن كل سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضراً أجلى» أخرجه البخاري في صحيحه (٣٦٢٤) وأحمد في مسنده (٢٨٢/٦).

وهكذا وصلنا القرآن كما أنزله الحق - سبحانه - على رسوله  
الكريم ﷺ.

وهنا يقول الحق : ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ١﴾ [يوسف]

و «تلك» إشارة لما بَعْدَ (الر) ، وهى آيات الكتاب.

أى: خذوا منها أن آيات القرآن مُكَوَّنَةٌ من مثل هذه الحروف ،  
وهذا فَهْمُ البعض لمعنى : ﴿الر .. ١﴾ [يوسف]

لكنه ليس كل الفهم.

مثل : صانع الثياب الذى يضع فى واجهة المحل بعضاً من  
الخيوط التى تم نَسْجُ القماش منها : ليدلنا على دَقَّةِ الصنعة.

فكانَ الله - سبحانه - يُبَيِّنُ لنا أن ﴿الر .. ١﴾ [يوسف]

أسماء لحروف هى من أسماء الحروف التى نتكلم بها ، والقرآن  
تكوَّنَت ألفاظه من مثل تلك الحروف ، ولكن آيات القرآن معجزة ،  
لا يستطيع البشر - ولو عاونهم الجن - أن يأتوا بمثله<sup>(١)</sup>.

إذن : فالسُّمُو ليس من ناحية الخامة التى تُكوَّنُ الكلام ، ولكن  
المعجزة أن المتكلم هو الحق - سبحانه - فلا بد أن يكون كلامه  
مُعْجَزا ؛ وإن كان مُكوَّنًا من نفس الحروف التى نستخدمها نحن  
البشر.

(١) وفى هذا يقول الحق سبحانه : ﴿قُلْ لِي أَجْتَمِعَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ٢٥﴾ [الإسراء].

وهناك معنى آخر : فهذا رسول الله ﷺ ينطق أسماء الحروف «الف لام راء» ، وهو ﷺ الأمي<sup>(١)</sup> بشهادة المعاصرين له بما فيهم خصومه ، رغم أن القادر على نطق أسماء الحروف لا بد أن يكون متعلماً ، ذلك أن الأمي ينطق مُسمّيات الحروف ولا يعرف أسماءها<sup>(٢)</sup> ، وفي هذا النطق شهادة بأن مَنْ علّمه ذلك هو ربه الأعلى.

ويقول الحق - سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١)﴾ [يوسف]

كلمة «الكتاب» عندما تُطلق فمعناها ينصرف إلى القرآن الكريم<sup>(٣)</sup>.

ونجد كلمة «المبين» ، أي : الذي يُبين كل شيء تحتاجه حركة الإنسان الخليفة في الأرض ، فإن بأن لك شيء وظننت أن القرآن لم

(١) «قال أبو إسحاق معنى الأمي: المنسوب إلى ما عليه جبلته أمه. مكتسبة، فكانه نُسبَ إلى ما يُولد عليه، أي: على ما ولدت أمه عليه. نقله ابن منظور في [لسان العرب - مادة : أمم] وقال: «بعثه الله رسولا وهو لا يكتب ولا يقرأ من كتاب، وكانت هذه الخلقة إحدى آياته المعجزة لأنه ﷺ تلا عليهم كتاب الله منظوماً، تارة بعد أخرى. بالنظم الذي أنزل عليه فلم يُغيّره ولم يُبدل ألفاظه، إذن : الأمي هو ما كان على الفطرة الربانية ، وتلقية للإمدادات من العطايات النورانية ، أما الكتابة فهي اكتساب ، وعلم الأمي من الخصوصيات الاصطفائية.

(٢) الفرق بين الاسم والمسمى بالنسبة للحروف أن حروفاً مثل: (ك)، (ت)، (ب)، ينطقها الأمي في كلامه (كتب) كمسميات للحروف، ولكنه لا يستطيع أن يقول لك : إن هذا الحرف اسمه (ك) أو هذا اسمه (تاء) أو هذا اسمه (باء)، فهو لا يستطيع أن يتجهى الكلمة، ولكنه يستطيع أن ينطقها للدلالة على فعل الكتابة، وقد أخذنا من أفواه الناس هكذا. (من مفهوم الخراط).

(٣) وردت لفظة «الكتاب» في القرآن (٢٣٠) مرة، ويقصد بها معاني كثيرة: القرآن، التوراة، الإنجيل، النوح المخطوط. ومن معاني الكتاب أيضاً «الرسالة» مثل رسالة سليمان عليه السلام التي أرسلها مع الهدد إلى ملكة اليمن فقال: ﴿أذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظروا ماذا يرجعون (٢٥)﴾ [النمل]. ومن المعاني أيضاً صحيفة الإنسان التي تعرض عليه يوم القيامة. ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً (١١)﴾ [الإسراء].

يتعرض له ، فلا بد أن تبحث عن مادة أو آية تلفتك إلى ما يبين لك ما غابَ عنك.

ويُروى عن الإمام محمد عبده<sup>(١)</sup> أنه قابل أحد المستشرقين<sup>(٢)</sup> في باريس ؛ ووجه المستشرق سؤالاً إلى الإمام فقال:

مادامت هناك آية في القرآن تقول : ﴿ مَا فُرُطْنَا فِي الْكِتَابِ ﴾<sup>(٣)</sup> من شيء... (٣٨) ﴿ [الأنعام]

فَدَعْنِي أَسْأَلُكَ: كم رغيفاً ينتجه أَرَبُ القمح؟

فقال الإمام للمستشرق : انتظر. واستدعى الإمام خبازاً، وسأله: كم رغيفاً يمكن أن تصنعه من أَرَب القمح؟ فأجاب الخباز على السؤال.

هنا قال المستشرق: لقد طلبتُ منك إجابة من القرآن ، لا من الخباز.

(١) هو : محمد عبده بن حسن خير الله، من آل التركمانى، مفتى الديار المصرية، ولد في شنرا (من قرى الغربية بمصر) عام ١٨٤٩م ونشأ في مجلة نصر (بالبحيرة)، تعلم بالجامع الاحمدى بطنطا، ثم بالازهر، أجاد الفرنسية بعد الأربعين، أصدر في باريس جريدة «المروة الوثقى» مع جمال الدين الافغانى. توفي عام ١٩٠٥م بالإسكندرية، ودفن في القاهرة. [الاعلام للزركلى ٢٥٢/٦].

(٢) المستشرقون: جمع مستشرق ، وهم علماء الغرب المهتمون بعلوم الشرق وآدابه ودياناته وفلسفاته، فهم يتخصصون في هذا دراسة وبحثاً وتنقيحاً، ومنهم المنصفون للإسلام، ومنهم المعادون له الذين يسفرون دراساتهم للطعن في الإسلام.

(٣) قال القرطبي في تفسيره (٢/٢٥٠٥) «أى: فى اللوح المحفوظ، فإنه أثبت فيه ما يقع من الحوادث، وقيل: أى : فى القرآن أى: ما تركنا شيئاً من أمر الدين إلا وقد دللت عليه فى القرآن، إما دلالة مبيّنة مشروحة، وإما مجلة يلقى بيانها من الرسول ﷺ ، أو من الإجماع، أو من القياس الذى ثبت بنص الكتاب».

فرد الإمام : إذا كان القرآن قد قال:

[الأنعام]

﴿ مَا قَرُّنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ .. (٤٨) ﴾

فالقرآن قال أيضاً:

[النحل]

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٢) ﴾

لقد فطن الإمام<sup>(١)</sup> محمد عبده إلى أن العقل البشري أضيق من أن يسمع كل المعلومات التي تتطلبها الحياة ؛ لذلك شاء الحق - سبحانه - أن يوزع المواهب بين البشر ؛ ليصبح كل متفوق في مجال ما ، هو من أهل الذكر في مجاله.

ونحن - على سبيل المثال - عندما نتعرض لمسألة ميراث؛ فنحن نلجأ إلى مَنْ تخصص في المواريث ، ليدلنا على دقة توزيع أنصبة هذا الميراث.

وحين يؤدي المسلم من العامة فريضة الحج، فيكفيه أن يعلم أن الحج فريضة؛ ويبحث عند بدء الحج عمن يُعلمه خطوات الحج كما أداها ﷺ.

(١) الإمام محمد عبده من الأئمة الأعلام ، وهو مجدد لعصره ، له آثاره الفكرية ، وله مدرسته الإصلاحية ، عاصر جمال الدين الأفغانى ، وكان للإمام محمد عبده اتجاهاته في تربية الأفراد والشعوب ، بحيث تبدأ التربية بالفرد أولاً ، ثم بالجماعة ثانياً ، وهذا التدرج التربوى انفراد به الإمام عن جمال الدين الأفغانى ، وإن كان بينهما عموم وخصوص.

وهذا سؤال لأهل الذكر ، مثلما نستدعى مهندساً ليصمم لنا بيتاً حين نشرع فى بناء بيت ، بعد أن نمتلك الإمكانات اللازمة لذلك . وهكذا نرى أن علوم الحياة وحركتها أوسع من أن يتسع لها رأس ؛ ولذلك وزّع الله أسباب فضله على عباده ، ليتكاملوا تكاملاً الاحتياج ، لا تكامل التفضل ، ويصير كل منهم ملتجئاً بالآخرين غصباً عنه .

وبعد ذلك يقول الحق - سبحانه :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢)

وبالنسبة للقرآن نجد الحق - سبحانه - يقول : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ (١٦٣)

[الشعراء]

فنسب النزول مرة لجبريل كحامل للقرآن ليبليغ به رسول الله ﷺ .

ومرة يقول : ﴿ نَزَّلَهُ .. (٢) ﴾

[محمد]

والنزول فى هذه الحالة منسوب لله وجبريل والملائكة .

أما قول الحق - سبحانه : ﴿ أَنْزَلَهُ .. (٩١) ﴾

[البقرة]

فهو القول الذى يعنى أن القرآن قد تعدى كونه مَكْنُونًا فى اللوح المحفوظ ليباشِر مهمته فى الوجود ببعث رسول الله ﷺ .

(١) «الروح الامين» هو جبريل عليه السلام . قاله غير واحد من السلف: ابن عباس ومحمد بن كعب وقتادة وعطية الموصلى والسدى والضحاك والزهرى وابن جريج ، وهذا مما لا نزاع فيه . قاله ابن كثير فى تفسيره (٢/٢٤٧) .

هذا هو معنى الإنزال للقرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا<sup>(١)</sup>، ثم نزل من بعد ذلك نجوماً<sup>(٢)</sup> متفرقة ؛ ليعالج كل المسائل التي تعرض لها المسلمون.

وهكذا يؤول الأمر إلى أن القرآن نزل أو نزل به الروح الأمين.

والحق - سبحانه - يقول :

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. (١٠٥)﴾ [الإسراء]

أى: أن الحق - سبحانه - أنزله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم أنزله مفرقاً ليعالج الأحداث ويباشر مهمته في الوجود الواقعي<sup>(٣)</sup>.

(١) ذكر أبو شامة في المرشد الوجيز أن «السّر في إنزاله جملة إلى السماء، تفخيم أمره وأمر من نزل عليه، وذلك بإعلام سكان السماوات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم، قد قربناه إليهم لننزله عليهم، ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم منجماً بحسب الوظائف لهبط به إلى الأرض جملة، كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله بآين بينه وبينها، فجعل له الأمرين إنزاله جملة، ثم إنزاله مفرقاً، تشريفاً للمنزل عليه، نقله السيوطي في [الإتقان في علوم القرآن ١/١١٩].

(٢) نجوماً: منجماً، أى: أن القرآن أنزل مفرقاً نجماً بعد نجم، آية بعد آية ، على حسب الأحداث والأحوال، ولذلك كان علم «أسباب النزول» وذلك أدعى إلى قبوله، بخلاف ما لو نزل جملة واحدة، فإنه كان يفر من قبوله كثير من الناس، لكثرة ما فيه من الفرائض والمناهي. انظر [لسان العرب مادة: نجم]، [الإتقان للسيوطي ١/١٢٣].

(٣) من أمثلة هذا قوله تعالى : ﴿يُنَادِي الدِّينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَظَرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا إِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَقْبِلِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَعْجِلُ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَعْجِلُ مِنَ الْحَقِّ .. (٥٤)﴾ [الأحزاب]

قال الواحدي عن أسباب نزول هذه الآية : « لما بنى رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش أولم عليها بتمر وسويق وذبح شاة. قال أنس: وبعثت إليه أمي أم سليم بهيس في ثور من حجارة، فأمرني النبي ﷺ أن أدعو أصحابي إلى الطعام، فجعل القوم يجيئون فيأكلون فيخرجون ، ثم يجيء القوم ويأكلون ويخرجون. فقلت يا نبي الله قد دعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه. فقال: ارفعوا طعامكم، فرفعوا وخرج القوم وبقي ثلاثة أنفار يتحدثون في البيت، فاطأوا المكث. فتأذى منهم رسول الله ﷺ وكان شديد الحياء، فنزلت هذه الآية، [أسباب النزول: ص ٢٠٥].



وفي هذه الآية يقول - سبحانه :

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا .. (٢)﴾ [يوسف]

وفي الآية السابقة قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ .. (٦)﴾ [يوسف]

فمرة يَصِفُه بأنه قرآن بمعنى المقروء ، ومرة يَصِفُه بأنه كتاب ؛  
لأنه مسطور ، وهذه من معجزات التسمية.

ونحن نعلم أن القرآن حين جُمِع<sup>(١)</sup> ليكتب ؛ كان كاتب القرآن  
لا يكتب إلا ما يجده مكتوباً ، ويشهد عليه اثنان من الحافظين.

ونحن نعلم أن الصدور قد تختلف بالاهواء ، أما السطور فمُثَبِّتة  
لا تَبْسُ فيها.

وهو قرآن عربي؛ لأن الرسول ﷺ سيجاهر بالدعوة في أمة عربية.  
وكان لابد من وجود معجزة تدل على صدق بلاغه عن الله، وأن تكون

(١) قال الحاكم في المستدرک : جمع القرآن ثلاث مرات:

أولها : بحضرة النبي ﷺ .

الثانية : بحضرة أبي بكر رضي الله عنه.

الثالثة : في زمن عثمان رضي الله عنه.

والمقصود هنا هو الجمع الثاني للقرآن والذي قام به زيد بن ثابت بأمر من أبي بكر رضي  
الله عنه. إنك شاب عاقل، لا تنهكته وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ. فتنبع القرآن  
فاجمعه . قال زيد : فتنبع القرآن أجمعه من العُسْبُ واللُخَاف وصدور الرجال. وكان زيد لا  
يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيذان. قال السيوطي: وهذا يدل على أن زيدا كان لا يكتفي  
بمجرد وجدانه مكتوباً حتى يشهد به مَنْ تَلَقَّاه سماعاً، مع كون زيد كان يحفظ، فكان يفعل  
ذلك مبالغة في الاحتياط. [انظر: الإتيان في علوم القرآن ١/ ١٦٤ - ١٦٧] باختصار.

مَعًا نَبِغُ<sup>(١)</sup> فِيهِ الْعَرَبُ ؛ لِأَنَّ الْمَعْجِزَةَ مُشْرُوطَةٌ بِالتَّحْدِي ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَحَدَّاهُمْ فِي أَمْرِ لَا رِيَاذَةَ لَهُمْ فِيهِ وَلَا لَهُمْ بِهِ صِلَةٌ ؛ حَتَّى لَا يَقُولَنَّ أَحَدٌ: نَحْنُ لَمْ نَتَعَلَّمْ هَذَا ؛ وَلَوْ تَعَلَّمْنَا لَجِئْنَا بِأَفْضَلِ مِنْهُ.

وَكَانَ الْعَرَبُ أَهْلُ بَيَانٍ وَأَدَبٍ وَنَبُوغٍ فِي الْفَصَاحَةِ وَالشَّعْرِ ، وَكَانُوا يَجْتَمِعُونَ فِي الْأَسْوَاقِ<sup>(٢)</sup> ، وَتَتَفَاخَرُ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِشُعْرَائِهَا وَخُطْبَائِهَا الْمَفُوهِينَ<sup>(٣)</sup> ، وَكَانَتِ الْمُبَارَايَاتُ الْأَدَائِيَّةُ تُقَامُ ، وَكَانَتِ التَّحْدِيَّاتُ تَجْرِي فِي هَذَا الْمَجَالِ ، وَيُنْصَبُ لَهَا الْحُكَامُ.

أَيُ : أَنَّ الدُّرْبَةَ عَلَى اللُّغَةِ كَانَتْ صِنَاعَةً مُتَوَاتِرَةً وَمُتَوَارِدَةً ، مُحْكُومٌ عَلَيْهَا مِنَ النَّاسِ فِي الْأَسْوَاقِ ، فَهُمْ أُمَّةٌ بَيَانٌ<sup>(٤)</sup> وَبِلَاغَةٌ وَفَصَاحَةٌ.

لِذَلِكَ شَاءَ الْحَقُّ - سُبْحَانَهُ - أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ مَعْجِزَةً مِنْ جِنْسِ مَا نَبِغُ فِيهِ الْعَرَبُ ، وَهُمْ أَوَّلُ قَوْمٍ نَزَلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ ، وَحِينَ يَأْمَنُ

(١) نَبِغُ الشَّيْءَ : يَظْهَرُ نَبِغٌ مِنْهُمْ شَاعِرٌ خَرَجَ وَالنَّابِغَةُ: الشَّاعِرُ الْمَعْرُوفُ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِظُهُورِهِ. [لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّةُ: نَبِغُ].

(٢) كَانَتِ لِلْعَرَبِ أَسْوَاقٌ يَجْتَمِعُونَ فِيهَا، مِثْلُ: عَكَاظٍ، وَذِي الْمِجَازِ، فَكَانَتِ قَبَائِلُ الْعَرَبِ تَجْتَمِعُ بِهَا كُلَّ سَنَةٍ وَيَتَفَاخَرُونَ بِهَا، يَحْضِرُهَا الشُّعْرَاءُ قِيَتَنَاشِدُونَ مَا أَحْدَثُوا مِنَ الشُّعْرِ.

(٣) الْمَفُوهُ : حَسَنُ الْكَلَامِ بَلِيغُ الْمُنَطِقِ، فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الْكَلَامِ الْجَيِّدِ فِي بَسَاطَةٍ وَسِلَاسَةٍ. رَاجِعُ بَعْضُ هَذَا فِي [ لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّةُ: فَوَه ].

(٤) الْبَيَانُ: إِظْهَارُ الْمَقْصُودِ بِأَبْلَغِ لَفْظٍ، وَهُوَ مِنَ الْفَهْمِ وَذِكَاةِ الْقَلْبِ مَعَ اللَّسَنِ، وَأَصْلُهُ الْكَشْفُ وَالظُّهُورُ. [اللسان - مادة: بين]. والبيان: الكشف والإيضاح والكلام البليغ. قال تعالى: ﴿هَذَا بَيَانُ الْقَاسِ...﴾ (٣٧) [آل عمران] أَي: كَشَفَ وَإِضْاحَ أَوْ هَذَا كَلَامٌ بَلِيغٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿عَلِمَهُ الْيَانُ﴾ (٣٨) [الرحمن] أَي: انْطَلَقَ الْمَعْبَرُ عَمَّا فِي النَّفْسِ مِنْ مَعَانٍ وَأَفْكَارٍ. [القاموس القويم - مادة: بين].

هؤلاء لن يكون التحدى بفصاحة الالفاظ ونسق الكلام ، بل بالمبادئ التى تطفى على مبادئ الفرس والروم.

وهى مبادئ قد نزلت فى أمة مبتدئة<sup>(١)</sup>، ليس لها قانون يجمعها، ولا وطن يضمهم يكون الولاء له ، بل كل قبيلة لها قانون ، وكلهم بدؤوا يرحلون من مكان إلى مكان.

وحين نزل فيهم القرآن عليم أهل فارس والروم أن تلك الأمة المتبدئة قد امتلكت ما بينى حضارة ليس لها مثل من قبل ، رغم أن النبى أمي<sup>٢</sup> وأن الأمة التى نزل فيها القرآن كانت أمة.

وفارس والروم يعلمون أن الرسول الذى نزل فى تلك الأمة تحداهم بما نبغوا فيه، وما استطاع واحد منهم أن يقوم أمام التحدى ، ومن هنا شعروا أنهم أمام تحد حضارى من نوع آخر لم يعرفوه.

ويشاء الحق - سبحانه - أن ينزل القرآن عربياً ؛ لأن الحق لم يكن ليرسل رسولاً إلا بلسان قومه ، فهو القائل:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ (٤)﴾ [إبراهيم]

(١) متبدئة: نسبة إلى البادية. يقال: تبدى الرجل: أقام بالبادية. والبادية: خلاف الحضر. وسُميت بادية لبروزها وظهورها عن أماكن تجمع الناس فى الحضر حول الماء وغيره. بتصرف من [لسان العرب - مادة: بدر].

(٢) اللسان: إحدى حواس الذوق والنطق، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَفُتُنَيْنِ (٩)﴾ [البقرة] فانه يمتن على الإنسان بنعمة البصر والنطق. واللسان: اللغة والكلام، قال تعالى: ﴿وَأُخْبِرُونَ هُوَ الصَّحْبُ مِنْ لِسَانِنَا ۖ (٣٣)﴾ [القصص] أى: أدر منى على الكلام الفصحى وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَالْخِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۖ (٥١)﴾ [الروم] ألسنتكم، أى: لغاتكم ولهجاتكم [القاموس القويم - مادة: لسن].

وَأَرْسَلَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالْقُرْآنِ ، الَّذِي تَعَيَّنَ عَنْ سَائِرِ كُتُبِ الرُّسُلِ الَّذِينَ سَبَقُوهُ ؛ بِأَنَّهُ كِتَابٌ وَمُعْجَزَةٌ فِي أَنْ وَاحِدٍ ، بَيْنَمَا كَانَتْ مُعْجَزَاتُ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ عَلَيْهِ ﷺ مُتَفَصِّلَةً عَنْ كُتُبِ الْأَحْكَامِ الَّتِي أُنْزِلَتْ إِلَيْهِمْ .

وَيُظَلُّ الْقُرْآنُ مُعْجَزَةٌ تَحْمِلُ مِنْهَا إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ ، وَمَادَامَ قَدْ آمَنَ بِهِ الْأَوَائِلُ وَانْسَاحُوا<sup>(١)</sup> فِي الْعَالَمِ ، فَتَحَقَّقَ بِذَلِكَ مَا وَعَدَ بِهِ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْكِتَابُ شَامِلًا ، يَجْذِبُ كُلَّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ إِلَى الْإِنْبِهَارِ بِمَا فِيهِ مِنْ أَحْكَامٍ .

وَلِذَلِكَ حِينَ يَبْحَثُونَ عَنْ أَسْبَابِ انْتِشَارِ الْإِسْلَامِ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ الْوَجِيزَةِ ، يَجِدُونَ أَنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ انْتَشَرَ لَا بِقُوَّةِ مَنْ آمَنُوا بِهِ ؛ بَلْ بِقُوَّةِ مَنْ انْجَذَبُوا إِلَيْهِ مَشْدُودِينَ<sup>(٢)</sup> بِمَا فِيهِ مِنْ نُظُمٍ تُخَلِّصُهُمْ مِنْ مُتَاعِبِهِمْ .

فَفِي الْقُرْآنِ قَوَانِينٌ تُسَعِدُ الْإِنْسَانَ حَقًّا ، وَفِيهِ مِنَ الْإِسْتِنْبَاءَاتِ بِمَا سَوْفَ يَحْدُثُ فِي الْكَوْنِ ؛ مَا يَجْعَلُ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ يَذْكُرُونَ بِالْخُشُوعِ أَنَّ الْكِتَابَ الَّذِي أُنْزِلَهُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِمْ لَمْ يَفْرِطْ فِي شَيْءٍ .

وَإِنَّا قَالُ قَائِلٌ مِنَ الْمُسْتَشْرِقِينَ: كَيْفَ تَقُولُونَ : إِنَّ الْقُرْآنَ قَدْ نَزَلَ

(١) الْمِبَاحَةُ. الذَّهَابُ فِي الْأَرْضِ لِأَغْرَاضٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْهَا الْعِبَادَةُ وَالِدَّعْوَةُ وَالتَّجَارَةُ. وَأَصْلُهُ مِنْ

سَبَّحَ الْمَاءَ الْجَارِيَّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ. [لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّة: سَمَحَ] بِتَصْرِفٍ.

(٢) شَدَّ الرَّجُلُ شِدَّةً: تَحَيَّرَ. وَالذَّهْنُ أَيْضًا: التَّحَيَّرُ. دَهَشَ: تَحَيَّرَ. أَوْ ذَهَبَ عَقْلُهُ مِنْ ذَهَلٍ أَوْ

وَلَهُ فُهِوٌ مَدْهُوشٌ. وَأَدْمَشُهُ ضَمِيرُهُ. [اللسان - مادتنا: شَدَّ، دَهَشَ].

بلسان عربى مبين ؛ رغم وجود ألفاظ أجنبية مثل كلمة « آمين » التى  
تُؤمّنون<sup>(١)</sup> بها على دعاء الإمام ؛ كما توجد ألفاظ رومية<sup>(٢)</sup>، وأخرى  
فارسية<sup>(٣)</sup> ؟

وهؤلاء المستشرقون لم يلتفتوا إلى أن العربى استقبل ألفاظاً  
مختلفة من أمم متعددة نتيجة اختلاطه بتلك الأمم ، ثم دارت هذه  
الألفاظ على لسانه ، وصارت تلك الألفاظ عربية ، ونحن فى عصورنا  
الحديثة نقوم بتعريب الألفاظ ، وندخل فى لغتنا أى لفظ نستعمله

(١) التامين. قول آمين. وامين كلمة تُقال فى إثر الدعاء. قال الفارسى هى جملة مركبة من  
فعل واسم، معناه: اللهم استجب لى. [لسان العرب - مادة: أمن]. وعن أبى هريرة - رضى  
الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمن الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين  
الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه» أخرجه الإمام مالك فى موطئه (٨٧/١) وأحمد فى  
مسنده (٢٣٨/٢ ، ٢٢١) والبخارى فى صحيحه (٧٨٠) وكذا مسلم (٤١٠).

(٢) من أمثلة الألفاظ الرومية الموجودة فى القرآن الكريم :  
- (الرقيم) فى قوله تعالى : ﴿وَأَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ (١)  
[الكهف]. قال السيوطى فى الإتقان (١١٢/٢) أنه قد قيل فيها ثلاثة أقوال. اللوح.  
الكتاب. الدواة.

- (الصراط) : حكى النقاش وابن الجوزى أنه الطريق بلغة الروم.  
- (طقفا) فى قوله تعالى : ﴿وَرَحِلًا فَخَصِصْنَاهُ عَلَيْهِمَا مِنْ رَوْقِ السُّجَّةِ ..﴾ (٢) [الأعراف] معناه:  
قصدا بالرومية.

(٣) من أمثلة الألفاظ الفارسية فى القرآن الكريم :  
- (إبريق) حكى الثعالبى فى فقه اللغة أنها فارسية. وقال الجوالقى: الإبريق فارسى  
مُترَبّ ومَعْنَاهُ: طريق الماء، أو صنب الماء على هيئة.  
(دينار) فى قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ أَنَاءَهُ دِينَارٌ لَا يُؤَدُّ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ..﴾  
(٣٦) [آل عمران] . ذكر الجوالقى وغيره أنه فارسى.  
- (سجيل) : عن مجاهد قال: سجيل بالفارسية، أولها حجارة، وآخرها طين.

ويدور على السنتنا ، ما دُمنا نفهم المقصود به <sup>(١)</sup> .

ويُذيل الحق - سبحانه - الآية الكريمة بقوله :

﴿ لَكُمْ تَعْلُونَ ﴾ (٢)

[يوسف]

ليستنهض همة العقل ، ليفكر فى الامر ، والمنصف بالحق يُهمه أن يستقبل الناس ما يعرضه عليهم بالعقل ، عكس المدلس <sup>(٣)</sup> الذى يهمه أن يستر العقل جانباً ؛ لينفذ من وراء العقل.

وفى حياتنا اليومية حين ينبهك التاجر لسلعة ما ، ويستعرض معك متانتها ومحاسنها ؛ فهو يفعل ذلك كدليل على أنه واثق من جودة بضاعته.

أما لو كانت الصنعة غير جيدة ، فهو لن يدعوك للتفكير بعقلك ؛ لأنك حين تتدبر بعقلك الامر تكتشف المدلس وغير المدلس ؛ لذلك فهو يدلس عليك، ويُعمى عليك، ولا يدع لك فرصة للتفكير.

(١) ذكر السيوطى فى كتابه الإتقان (١٠٥/٢ - ١٠٨) اختلاف العلماء فى عربية هذه الالفاظ وفى اعميتها وذكر أدلة كل من الفريقين ثم قال: «وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: «الصواب عندى مذهب أبيه تصديق القولين جميعاً، وذلك أن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء، لكنها وقعت للعرب، فعربتها بالسنتنا وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها، فصارت عربية، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب، فمن قال إنها عربية فهو صادق، ومن قال أعجمية فصانقه، ومال إلى هذا القول الجوالقي وابن الجوزي وآخرون».

(٢) التذليل: إخفاء العيب. والمبالسة: المخادعة. والتدليس فى البيع: كتمان عيب السلعة عن المشتري. والمدلس الشيء: إذا خفي [لسان العرب - مادة: دلس].

ويقول الحق - سبحانه - من بعد ذلك:

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ  
هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (٢)

حين يتحدث الحق - سبحانه - عن فعل من أفعاله ؛ ويأتي بضمير الجمع ؛ فسبب ذلك أن كل فعل من أفعاله يتطلب وجود صفات متعددة ؛ يتطلب : علماً ؛ حكمة ؛ قدرة ؛ إمكانات.

ومن غيره - سبحانه - له كل الصفات التي تفعل ما تشاء وقت أن تشاء؟

لا أحد سواه قادر على ذلك ؛ لأنه - سبحانه - وحده صاحب الصفات التي تقوم بكل مطلوب في الحياة ومُقدّر.

لكن حين يتكلم - سبحانه - عن الذات ؛ فهو يؤكد التوحيد فلا تأتي بصيغة الجمع ، يقول تعالى : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي

(١) قصر الكلام أو الاخبار: يقصّها قصّاً وقصصاً: تتبعها ورواها وحكاها، قال تعالى : ﴿ فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف .. ﴾ (٢٠) ﴿ [القصص] أي: قص عليه أخباره وحديثه بها. والقصص: مصدر يطلق على ما يُروى من الاخبار، قال تعالى : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب .. ﴾ (٢١) [يوسف] . [القاموس القويم (١٢٠/٢) ] .

وَأَقِمِ<sup>(١)</sup> الصَّلَاةَ لِذِكْرِي<sup>(٢)</sup> ﴿١٤﴾ [طه]

وهنا يتكلم - سبحانه - بأسلوب يعبر عن أفعال لا يقدر عليها غيره؛ بالدقة التي شاءها هو - سبحانه - فيقول:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ..﴾ (١٤) [يوسف]

وحدد - سبحانه - أنه هو الذي يقصُّ، وإذا وُجد فعل لله ؛ فنحن نأخذ الفعل بذاته وخصوصه ؛ ولا نحاول أن نشق منه اسماً نطلقه على الله ؛ إلا إذا كان الفعل له صفة من صفاته التي علمناها في أسمائه الحسنى ؛ لأنه الذات الاقدس.

وفى كل ما يتعلق به ذاتاً وصفات وأفعالا إنما نلتزم الادب ؛ لاننا لا نعرف شيئاً عن ذات الله إلا ما أخبرنا الله عن نفسه ، لذلك لا يصح أن نقول عن الله أنه قصاص ، بل نأخذ الفعل كما أخبرنا به ، ولا نشق منه اسماً لله ؛ لأنه لم يصف نفسه في أسمائه الحسنى بذلك.

(١) أقام الصلاة: أناها كاملة. وقوله تعالى : ﴿وَأَقِمُوا رُجُوعَكُمْ عَدَّ كُلِّ مَسْجِدٍ ..﴾ (٣٢) [الاعراف] أى: اخلصوا قلوبكم لله، وعملوا وجوهكم واجطوها تتجه لله في المساجد في الصلاة بإخلاص. وقوله تعالى : ﴿فَالِقَمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ..﴾ (٢٥) [الروم] أى: ارفعه وعمله، والمراد كن مستقيماً مخلصاً للدين. وإقام: اسم مصدر من أقام بمعنى إقامة. ومنه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ..﴾ (٢٧) [النور] أى: إقامة الصلاة كاملة بصفة دائمة. [القاموس القويم ٢/ ١٤٠، ١٤١، ١٤٢] يتصرف واختصار شديدين.

(٢) الذكر الاستحضار بالقلب مع التأمل. والذكر الحديث والقصة. والذكر القرآن والكتب المنزلة كلها. قال تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزَلُّهُ الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٥) [الحجر] هو القرآن الكريم. وقوله تعالى : ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (١) [الشرح] أى: شرفك وحديث الناس عنك بالخير.



والواجب أن ما أطلقه - سبحانه - اسماً نأخذه اسماً، وما أطلقه فعلاً نأخذه فعلاً.

وهنا يقول - سبحانه:

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. ﴾ (٣)

[يوسف]

ونعلم أن كلمة «قص» تعنى الإتياع ، وقال بعض العلماء : إن القصة تُسمى كذلك لأن كل كلمة تتبع كلمة ، وماخوذة من قص الأثر ، وهو تتبع أثر السائر على الأرض ، حتى يعرف الإنسان مصير مَنْ يَتَّبِعُهُ ولا ينحرف بعيداً عن الاتجاه الذى سار فيه مَنْ يبحث عنه.

واقراً قول الحق - سبحانه - : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ <sup>(١)</sup> بِهِ عَنْ جُنُبٍ <sup>(٢)</sup> وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١١)

[القصص]

و ﴿ قُصِّيهِ .. ﴾ (١١)

[القصص]

أى: تتبعى أثره.

إذن : فالقص ليس هو الكلمة التى تتبع كلمة، إنما القص هو تتبع ما حدث بالفعل.

(١) بَصُرَ بِهِ : رآه ببصره فهو بصير. وبَصُرَ بِالْأَمْرِ : عَلِمَهُ كَأَنَّهُ رَأَاهُ ببصره.. وقوله : ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ .. ﴾ (١١) [القصص] أى : رآته من أحد جوانب البيت وهى متخفية. وقوله تعالى عن السامري : ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ .. ﴾ (١٦) [طه] أى : علمت بما لم يعلموا، وهو رؤية أثر الرسول أو سيئه. [القاموس القويم ٦٩/١].

(٢) الجنب: قد يراد به البعد البعيد كما يراد به الجانب. قال تعالى : ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ .. ﴾ (١١) [القصص] أى : عن بُعد ، أو رآته من جانب من جوانب القصر أو من بعيد. [القاموس القويم ١٣٠/١].

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً من قصة موسى عليه السلام مع فتاه:

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ <sup>(١)</sup> وَمَا أَنَسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا <sup>(٢)</sup> ﴾ [٦٣] قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ <sup>(٣)</sup>  
فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا <sup>(٤)</sup> ﴾ [الكهف]

أى : تَابَعَا الخطوات.

وهكذا نعلم أن القصة هو تتبُّع ما حدث بالفعل، فتكون كل كلمة مُصَوِّرة لواقع ، لا لَيْسَ <sup>(١)</sup> فيه أو خيال ؛ ولا تَزِيدُ ، وليس كما يحدث

(١) الحوت: السمكة. كبرت أو صغرت. والجمع حيتان. قال تعالى عن موسى قوله: ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ .. ﴾ [٦٤] [الكهف] أى : السمكة، وقال ﴿ إِذْ نَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبَقَهُمْ شُرْعَا .. ﴾ [٦٥] [الاعراف] كانت تظهر لهم الحيتان فى الماء يوم السبت، فيصيدونها مخالفين أمر ربهم. [القاموس القويم ١/١٧٦] قال ابن منظور فى [لسان العرب - مادة: حوت]: «المحاوطة: المراوغة. وهو يُحاوِظنى أى يُراوِغنى. وحات الطائر على الشيء يحوت أى : حام حوله»

(٢) العجب: روعة ودمشة تأخذ الإنسان عند استحسان شيء خفى سره أو استعظامه وأعجبه الأمر: سره أو حمله على العجب منه. وأمر عجيب وعُجَاب وعُجَابٌ بتشديد الجيم للمبالغة. قال تعالى ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ .. ﴾ [٦٥] [من] [القاموس القويم ٢/٧٧].

(٣) بغى الشيء: طلبه. وابتغاه. طلبه. قال تعالى ﴿ يَتَخَوَّنُكُمْ الْفِتْنَةُ .. ﴾ [٦٦] [التوبة] أى: يطلبونها لكم. وقال تعالى ﴿ يَتَخَوَّنُ لَعْنًا مِنَ اللَّهِ .. ﴾ [٦٧] [الفتح] وقوله ﴿ لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ .. ﴾ [٦٨] [التوبة] أى: طلبوها وسعوا فى بحثها ونشرها. والابتغاء: الطلب. قال تعالى . ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ .. ﴾ [٦٩] [النساء] فى طلبهم لقتالهم، وقال. ﴿ وَالَّذِينَ حَبِطُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ .. ﴾ [٧٠] [الرعد] أى طلباً لرضاء تعالى عنهم. [القاموس القويم ١/٧٦، ٧٧].

(٤) اللَّبْسُ واللبس : اختلاط الأمر. لبس عليه الأمر يلبسه لبساً فالتبس [لا خلطه عليه حتى لا يعرف جهته. والتبس عليه الأمر أى: اختلط واشتبه. وتلبس به الأمر: اختلط وتعلق. [لسان العرب - مادة: لبس].

في القصص الفني الحديث ؛ حيث يضيف القصص لقطات خيالية من أجل الحبكة<sup>(١)</sup> الفنية والإثارة وجذب الانتباه.

أما قصص القرآن فوضعه مختلف تماماً ، فكل قصص القرآن إنما يتتبع ما حدث فعلاً؛ لناخذ منها العبرة<sup>(٢)</sup>؛ لان القصة نوع من التاريخ.

والقصة في القرآن مرة تكون للحدث، ومرة تكون لتثبيت فؤاد الرسول ﷺ ، فلم تأت قصة رسول في القرآن كاملة، إلا قصة يوسف - عليه السلام.

أما بقية الرسل فقصصهم جاءت لقطات في مناسبات لتثبيت فؤاد<sup>(٣)</sup> الرسول محمد ﷺ ، فتأتي لقطة من حياة رسول، ولقطة من حياة رسول آخر، وهكذا.

ولا يقولن أحد : إن القرآن لم يستطع أن يأتي بقصة كاملة

(١) الحبكة : الشد ، والحبكة الحبل يُشدُّ به على الوسط ، والتثبيت : التوثيق . وجاد ما حبكة إذا أجاد نسجه . وحبك الثوب يحبكه حبكاً . أجاد نسجه وحسن أثر الصنعة فيه . [لسان العرب - مادة: حبك] ويستعار اللفظ ليستخدم في الحبكة القصصية كأنها ثوب يُجاد نسجه وصنعه فلا يكون مهكلاً.

(٢) وذلك في قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ۚ﴾ (يوسف: ١١١) . والعبرة : اسم للشئ الذي يتعظ به الإنسان . والعبرة : العظة . قال تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً ۚ﴾ [النور] . وقال : ﴿فَاذْكُرُوا يَا أُولَى الْأَبْصَارِ ۖ﴾ [الحشر] أي : لتعظوا . [القاموس القويم ٤/٢] .

(٣) يقول الحق سبحانه : ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَرْغُطَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾ [هود] أي : تثبت به فؤادك على أداء الرسالة والصبر على ما ينالك فيها من الأذى . [تفسير القرطبي ٤/٢٤٢٥] .

مستوفية؛ فقد شاء الحق - سبحانه - أن يأتي بقصة يوسف من أولها إلى آخرها، مُستوفية، ففيها الحدث الذي دارت حوله أشخاص، وفيها شخص دارت حوله الأحداث.

فقصة يوسف - عليه السلام - في القرآن لا تتميز بالحبكة فقط؛ بل جمعت نوعي القصة، بالحدث الذي تدور حوله الشخصيات، وبالشخص الذي تدور حوله الأحداث.

جاءت قصة يوسف بيوسف، وما مرَّ عليه من أحداث؛ بدءاً من الرؤيا، ومروراً بحقد الإخوة وكيدهم، ثم محاولة الفجوة<sup>(١)</sup> له من امرأة العزيز، ثم السجن، ثم القدرة على تأويل الأحلام، ثم تولي السلطة، ولقاء الإخوة والإحسان إليهم، وأخيراً لقاء الأب من جديد.

إذن : فقول الحق - سبحانه :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. ﴾ (٢)

[يوسف]

يبين لنا أن الحُسن أتى لها من أن الكتب السابقة تحدثت عن قصة يوسف، لكن أحبار<sup>(٢)</sup> اليهود حين قرأوا القصة كما جاءت بالقرآن ترك

(١) الفجوة : الضلال والانهماك في الفنى والفساد. غوى يَفْوَى. انهماك في الجهل وهو ضد الرشد. قال تعالى : ﴿ لَا تَكْرَاهِ لِي الَّذِينَ قَدْ نَهَى الرَّشْدَ مِنَ الْفَنَى .. ﴾ (٢٦٦). [البقرة]. [القاموس القويم ٦٤/٢].

(٢) الأحبار جمع حَبْر. وهو العالم، قال تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ .. ﴾ (٣٦) [التوبة] وأصل الكلمة الحَبْر الذي يُكْتَبُ به، وهو العنبر. وكل ما حَسُنَ من خط أو كلام أو شعر أو غير ذلك، فقد حَبِرَ حَبْرًا وحَبْر. [لسان العرب - مادة. حبر].

بعضهم كتابه ، واعتمد على القرآن في روايتها ، فالقصة أحداثها واحدة ، إلا صياغة الأداء ؛ وتلمّسات المواجهيد النفسية ؛ وإبراز المواقف المطوّية في النفس البشرية ؛ وتحقيق الرؤى الغيبية كلّ ذلك جاء في حبكة ذات أداء بياني مُعْجَز جعلها أحسن القصص .

أو : هي أحسن القصص بما اشتملت عليه من عبر متعددة ، عبر في الطفولة في مواجهة الشيوخوخة ، والحق الحاسد بين الإخوة ، والتمرد ، وإلقائه في الجبّ والكيد له ، ووضعه سجيناً بظلم ، وموقف يوسف عليه السلام من الافتراء الكاذب ، والاعتزاز بالحق حتى تمّ له النصر والتمكين .

وكيف ألقى الله على يوسف - عليه السلام - محبة منه ؛ ليجعل كل من يلتقى به يحب خدمته .

وكيف صانَ يوسف إرث النبوة ، بما فيها من سماحة وقدره على العفو عند المقدرة ؛ فعفاً عن إخوته بما روّته السورة : ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٩٢) [يوسف]

وقالها سيد البشر محمد ﷺ لاهله يوم فتح مكة : « اذهبوا فأنتم الطلقاء »<sup>(١)</sup>.

(١) ثربه : لاهه وعتب عليه . وثرّبه بالتضعيف . أكثر لومته . وعيّره بننّبه . وأنّبه على سوء فعله . قال تعالى : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ .. ﴾ (٩٢) [يوسف] أي : لا لوم ولا تأنيب . [القاموس القويم ١/١٠٦] .

(٢) قال ابن إسحاق حدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام في خطابه على باب الكعبة فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، إلى أن قال : ما تُروون أنّي فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء [ راجع : السيرة النبوية لابن هشام ٤/٤١٢ ] .

هكذا تمتلئ سورة يوسف بعبّر متناهية ، يتجلى بعض منها في قضية دخوله السجن مظلوماً ، ثم يأتيه العفو والحكم ؛ لذلك فهي أحسن القصص ؛ إما لأنها جمعت حادثة ومن دار حولها من أشخاص ، أو جاء بالشخص وما دار حوله من أحداث.

أو : أنها أحسن القصص في أنها أدت المتحد والمتفق عليه في كل الكتب السابقة ، وجاء على لسان محمد الأمي ، الذي لا خبرة له بتلك الكتب ؛ لكن جاء عرض الموضوع بأسلوب جذاب مُستميل مُقنع مُمتع.

أو : أنها أحسن القصص ؛ لأن سورة يوسف هي السورة التي شملت لقطات متعددة تسير : العمر الزمني ؛ والعمر العقلي ؛ والعمر العاطفي للإنسان في كل أطواره ؛ ضعيفاً ؛ مغلوباً على أمره ؛ وقوياً مسيطراً ، مُمكنًا من كل شيء .

بينما نجد أنباء الرسل السابقين جاءت كلقطات موزعة كآيات ضمن سور أخرى ؛ وكل آية جاءت في موقعها المناسب لها.

إذن : فالحسن البالغ قد جاء من أسلوب القرآن المعجز الذي لا يستطيع واحد من البشر أن يأتي بمثله.

يقول الحق سبحانه : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (٢) [يوسف]

والمقصود بالغفلة هنا أنه ﷺ كان أمياً، ولم يعرف عنه أحد قبل

نزول القرآن أنه خطيب أو شاعر ، وكل ما عُرِف عنه فقط هو الصفات الخَلقية العالية من صدق وأمانة ؛ وهي صفات مطلوبة في المبلِّغ عن الله ؛ فما دام لم يكذب من قبل على بشر فكيف يكذب وهو يُبلِّغ عن السماء رسالتها لأهل الأرض ؟

إن الكذب أمر مُستبعد تماماً في رسول الله ﷺ قبل البعثة وبعدها.

والمثال على تصديق الغير لرسول الله هو تصديق أبي بكر رضي الله عنه له حين أبلغه رسول الله ﷺ أن الوحي قد نزل عليه ، لم يقل له أكثر من أنه رسول من عند الله ، فقال أبو بكر - رضي الله عنه - : صدقت.

وحين حدثت رحلة الإسراء ؛ وكذبها البعض متسائلين : كيف نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ويقول محمد إنه قطعها في ليلة ؟ فسألهم أبو بكر : أقال ذلك ؟ قالوا : نعم . فقال أبو بكر : ما دام قد قال فقد صدق<sup>(١)</sup>.

(١) ذكر ابن هشام في السيرة النبوية (١/٣٩٨) باختصار أن رسول الله ﷺ لما أصبح بعد عودته من بيت المقدس غدا على قريش فأخبرهم الخبر. فانكروا عليه ذلك ، وقصدوا أبا بكر وعرضوا عليه هذا الأمر في إنكار ، فقال لهم أبو بكر : إنكم تكذبون عليه . فقالوا : بلى . هاهو ذلك في المسجد يحدث به الناس.

فقال أبو بكر والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يُعجبكم من ذلك . فوالله إنه ليُخبرني أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصطفه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه .»

وهكذا نجد أن حيثية الصدق قبل الرسالة هي التي دلت على صدقه حين أبلغ بما نزل عليه من وحى.

مثال ذلك : تصديق خديجة رضى الله عنها وأرضاها له : حين أبلغها بنزول الوحي ، فقالت له : « والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل<sup>(١)</sup> ، وتكسب المعدوم<sup>(٢)</sup> ، وتقري<sup>(٣)</sup> الضيف ، وتعين على نوائب<sup>(٤)</sup> الحق<sup>(٥)</sup> ».

وكان في صدق بصيرتها ، وعميق حساسية فطرتها أسباباً تؤيد تصديقها له ﷺ في نبوته<sup>(٦)</sup>.

وحين وقعت بعض الأمور التي لا تتفق مع منطق المقدمات والنتائج ، والأسباب والمسببات : كانت بعض العقول المعاصرة

(١) الكل : هو من لا يستقل بامرء . قال تعالى : ﴿ وَهَزَّ كُلُّ عَلَى مِرْلَاهُ ۖ ﴾ [النحل : ٦٩] . والكل هو : الحاجز الثقيل لا خير فيه [ القاموس القويم ١٦٩/٢ ] باختصار .  
(٢) المعدوم : كالميت الذي لا تصرف له . والمعنى : أنك تعطى الناس ما لا يجدونه عند غيرك . [ فتح الباري ٢٤/١ ] .

(٣) قرى الضيف : أضافه . والقرى : طعام الأضياف . [ لسان العرب - مادة : قرى ] .  
(٤) النوائب : جمع نائبة ، وهي ما ينوب الإنسان أى ينزل به من العلمات والحوادث . والنائبة : المصيبة من مصائب الدهر تنزل بالإنسان . [ لسان العرب - مادة : نوب ] بتصرف .

(٥) حديث بدء الوحي أخرجه البخارى في صحيحه (٢) . وكذا مسلم في صحيحه (١٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها .

(٦) قال رسول الله ﷺ : « أمنت بهي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وولستني بمالها إذ حرمني الناس ، وورقني منها الله الولد دون غيرها من النساء » . أخرجه أحمد في مسنده (١١٨/٦) من حديث عائشة .



لرسول الله تقف متسائلة : كيف ؟ فيوضح لهم أبو بكر : « انتبهوا إنه رسول الله ».

مثال هذا : ما حدث في صلح الحديبية ، حين يقول عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - متسائلاً - ويكاد أن يكون رافضاً لشروط هذا الصلح - : ألسنا على الحق ؟ علام نعطي الدنيا<sup>(١)</sup> في ديننا ؟ ويرد عليه أبو بكر - رضى الله عنه - : استمسك بقرضه<sup>(٢)</sup> يا عمر ، إنه رسول الله<sup>(٣)</sup>.

أى : انتبه واعلم أنك تتكلم مع رسول الله ﷺ . وليس فى ذلك انصياع أعمى ؛ بل هى طاعة عن بصيرة مؤمنة.

والحق سبحانه يقول هنا:

﴿ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ (٣) ﴾ [يوسف]

والغافل : هو الذى لا يعلم - لا عن جهل ، أو قصور عقل - ولكن لأن ما غفل عنه هو أمر لا يشغل باله.

(١) الدنيا: الخصلة المذمومة. ورجل دنى من قوم استياء هو الضعيف الخسيس [لسان العرب - مادة: دنى] باختصار .

(٢) القرض: ركاب الرجل . وكل ما كان مساكاً للرجلين فى المركب قرض . والقرض للناقصة مثل الحزام للفرس . ومثل الركاب للبعل . ومنه حديث أبى بكر أنه قال لعمر : « استمسك بقرضه » أى امسك به وامسكه واتبع قوله وفعله ولا تخالفه ، فاستعار له القرض كالذى يمسك بركاب الراكب ويسير بسميره. [لسان العرب - مادة: قرض].

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٢٢/٤ - ٢٢٥) من حديث المسور بن مخرمة الزهرى ومروان ابن الحكم وتمايمه . أن عمر بن الخطاب أتى أبى بكر فقال: يا أبى بكر أو ليس برسول الله؟ أو لسننا بالمسلمين؟ أو ليسوا بالمشركين؟ قال بلى، قال: فعلام نعطي الدنيا فى ديننا؟ فقال أبو بكر: يا عمر الزم غرضه حيث كان الحديث.

أو : أن يكون المقصود بقوله :

﴿ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (٢٣)

[يوسف]

أى : أنك يا محمد لم تكن ممن يعرفون قصة يوسف : لأنك لم تتعلم القراءة فتقرأها من كتاب ، ولم تجلس إلى معلم يروى لك تلك القصة ، ولم تجمع بعضاً من أطراف القصة من هنا أو هناك .

بل أنت لم تتلقَّ الوحي بها إلا بعد أن قال بعض من أهل الكتاب لبعض من أهل مكة : أسألوه عن أبناء يعقوب وإخوة يوسف ؛ لماذا خرجوا من الشام وذهبوا إلى مصر<sup>(١)</sup> ؟

وكان ضرباً<sup>(٢)</sup> من الإعجاز أن ينزل إليك يا رسول الله هذا البيان العالى بكل تفاصيل القصة ، كدليل عملى على أن معلم محمد ﷺ هو الله ، وأنه سبحانه هو مَنْ أوحى بها إليه .

والوحي - كما نعلم - هو الإعلام بخفاء ، وسبحانه يوحى للملائكة فيقول :

﴿ إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴾ (١٢)

[الأنفال]

(١) ذكره القرطبي في تفسيره من قول النحاس ( ٢٤٤٠ / ٤ ) « يُروى أن اليهود قالوا : سلوه لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر ؟ ومن خير يوسف ، فأنزل الله عز وجل هذا بمكة موافقاً لما في التوراة ، وفيه زيادة ليست عندهم » .

(٢) الضرب الصنف من الأشياء ويقال : هذا من ضرب ذلك أى من نحوه وصنفه . والجمع : ضروب . وضرب الله مثلاً أى وصف وبين . وقولهم : ضرب له المثل بكذا ، إنما معناه بين له ضرباً من الأمثال أى صنفاً منها . [ لسان العرب - مادة : ضرب ] .

وسبحانه يوحى إلى مَنْ يصطفى من البشر إلى صفوتهم :  
مصدقا لقوله سبحانه :

﴿وَإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى الْحَوَارِيِّينَ <sup>(١)</sup> أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ  
بِأَنَّا مُسْلِمُونَ <sup>(٢)</sup>﴾

[المائدة]

ويقذف الحق سبحانه بالإلهام وحيا لا يستطيع الإنسان دفعاً له ،  
مثل الوحي لام موسى بأن تلقى طفله الرضيع موسى في اليم <sup>(٣)</sup> :

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى <sup>(٤)</sup> أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ <sup>(٥)</sup> فَاقْذِفِيهِ فِي  
الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ <sup>(٦)</sup> يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي  
وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي <sup>(٧)</sup>﴾

[طه]

ويوحى سبحانه إلى الارض وهي الجماد ، مثل قوله الحق :

﴿بِأَنْ رَّبُّكَ أَوْحَىٰ لَهَا <sup>(٨)</sup>﴾

[الزلزلة]

(١) الحواريون جمع حواري ، وهو : الخالص النقي من كل شيء ، وشاع استعماله في  
الخلاص والاصفياء للانبيا ، قال تعالى : ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ .. ﴾ <sup>(١٧)</sup> [آل  
عمران] ، [ القاموس القويم : ١٧٧/١ ] .

(٢) اليم : البحر أو النهر العذب ، قال تعالى : ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ .. ﴾ <sup>(١٧٣)</sup> [الأعراف] ، وهو  
خليج السويس وماؤه ملح ، وهو امتداد البحر الأحمر . وقوله تعالى ﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ .. ﴾ <sup>(٢٥)</sup> [طه] هو نهر النيل العذب . [ القاموس القويم : ٣٧٢/٢ ] .

(٣) التابوت : الصندوق . قال تعالى : ﴿ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ مَكِينٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا  
تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ .. ﴾ <sup>(٢١٥)</sup> [البقرة] وللتابوت أيضاً : الأضلاع  
وما تحويه كالقلب والكبد وغيرهما ، تشبيهاً بالصندوق الذي يُخزَّن فيه المتاع . [ القاموس  
القويم : ٩٦/١ ] ، [ لسان العرب - مادة : ثبت ] .

(٤) سطره : قشره ونحته . والرياح تسحل الأرض : تكشف ما عليها من تراب . والساحل :  
شاطيء النهر : لأن الموج يأكل منها وينحته ويسحته . قال تعالى : ﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ  
يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي <sup>(٢١)</sup>﴾ [ طه ] أي : بشاطئ  
النهر . [ القاموس القويم : ٣٠٦/١ ] .

وأوحى سبحانه إلى النحل ، فقال الحق :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ <sup>(١)</sup> ﴾ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا <sup>(٢)</sup> .. ﴾ (٦٩) ﴿

[النحل]

والحق سبحانه يوحى لمن شاء بما شاء ، فالكل : جماد ونبات وحيوان وإنسان : من خلقه ، وهو سبحانه يخاطبهم بِسِرٍّ خَلَقَهُ لَهُمْ ، واختلاف وسائل استيعابهم لذلك.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا <sup>(١)</sup>

وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾

(١) عرش البيت - سقفه . قال تعالى : ﴿ فَكَأَنَّمِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لِّهِيَ هَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا .. ﴾ (٤٩) [الحج] . [ لسان العرب - مادة : عرش ] .

(٢) ذل . لان وانقاد من غير قهر بعد تصعّب ، فهو ذلول وجمعه ذلل ، وهذه مطايا ذلل أو طرق ذلل . سهلة ممهدة ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [الملك] ، وقوله . ﴿ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا .. ﴾ (٦٩) [النحل] أي ممهدة للنحل ليجمع العسل منها . [ القاموس القويم : ٢٤٨/١ باختصار ] .

(٣) قال القرطبي في تفسيره ( ٢٤٤١/٤ ) : « سئل أبو الحسن الأقطع - وكان حكيماً - عن يوسف ، فقال : الأسف في اللفظ الحزن ، والأسيف العبد ، وقد اجتمعا في يوسف : فذلك سُمِّيَ يوسف » .

(٤) للكوكب : في تعبير القرآن يشمل الكوكب البارد التابع المستمد نوره من غيره ، ويشمل النجم الملتهب كأنه كرة كبيرة من النيران ، قال تعالى : ﴿ كَأَنَّهُا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ (٢٥) [النور] أي : نجم ساطع الضياء ، [ القاموس القويم : ١٧٧/٢ باختصار ] .

وهكذا تبدأ قصة يوسف ، حين يقول لآبيه يعقوب عليهما السلام  
« يا أبت » ، وأصل الكلمة « يا أبى » ، ونجد فى اللغة العربية كلمات  
« أبى » و « أبت » و « ابتاه » و « آبة » وكلها تؤدي معنى الأبوة ،  
وان كان لكل منها ملّحظ لغوى .

ويستمر يوسف فى قوله :

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي  
سَاجِدِينَ ﴾ (٤)

[يوسف]

وكلنا رأينا الشمس والقمر ؛ كلٌّ فى وقت ظهوره ؛ لكن حلم  
يوسف يُبين أنه رآهما معاً ، وكلنا رأينا الكواكب متناثرة فى السماء  
ألفاً لا حصرَ لها ، فكيف يرى يوسف أحد عشر كوكباً فقط ؟

لا بُدَّ أنهم اتصفوا بصفات خاصة ميّزتهم عن غيرهم من الكواكب  
الأخرى ؛ وأنه قام بعدهم .

ورؤيا يوسف عليه السلام تبين أنه رآهم شمساً وقمرًا واحد عشر  
كوكباً ؛ ثم رآهم بعد ذلك ساجدين .

وهذا يعنى أنه رآهم أولاً بصفاتهم التى نرى بها الشمس والقمر  
والنجوم بدون سجود ؛ ثم رآهم وهم ساجدون له ؛ بعلامح الخضوع  
لأمر من الله ، ولذلك تكررت كلمة « رأيت » وهو ليس تكراراً ، بل  
لإيضاح الأمر .

[يوسف]

﴿ سَاجِدِينَ ﴾ (٤)

ونجد أن كلمة « سَاجِدِينَ » وهى جمع مذكر سالم ؛ ولا يُجمع جَمْعُ المذكر السالم إلا إذا كان

المفرد عاقلاً ، والعقل يتميز بقدرة الاختيار بين البدائل ؛ والعاقل المؤمن هو مَنْ يجعل اختياراته في الدنيا في إطار منهج الدين ، وأسمى ما في الخضوع للدين هو السجود لله .

وَمَنْ سَجَدُوا لِيُوسُفَ إِنَّمَا سَجَدُوا بِأَمْرِ مِنَ اللَّهِ ، فَهُمْ إِنَّمَا يَعْقِلُونَ أَمْرَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى<sup>(١)</sup> .

مثَّهم في ذلك مَثَلُ ما جاء في قول الحق سبحانه :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۚ وَأَذْنَتْ<sup>(٢)</sup> لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ<sup>(٣)</sup> ۖ ﴾ [الانشقاق]

هذه السماء تعقل أمر ربِّها الذي بَنَاهَا .

وقال عنها أنها بلا قُرُوجٍ<sup>(٤)</sup> :

(١) قال القرطبي في تفسيره ( ٢٤٤٣/٤ ) : « القول عند الخليل وسهيويه أنه لما أخبر عن هذه الاشياء بالطاعة والسجود وهما من أفعال من يعقل أخبر عنهما كما يخبر عن يعقل » .  
ويؤخذ من مفهوم خواطر الإمام أن الآية بيّنت منزلة يوسف بين الأسيرة ، ومنزلته عند ربه وأنه في نهاية المطاف سيُعتَرَفون بفضلِهِ وعظمتِهِ ، وهذا دليل الانتصار بعد الحصار .  
ولنعلم أن الرؤيا المناسبة لها قوانين تختلف عن الرؤية البصرية ، وأن رمزيات الرؤيا المناسبة فيها من الأسرار ما يعطى المطلوب ؛ لأنها تعمل إشارات توضيحية للمراد منها مثل رؤيا يوسف في حالة سجودهم له ، وأنه رأى الجميع في وقت واحد مع حذف الزمن المنوط بهما .

(٢) أذن لكلام فلان ، وأذن إلى صوته : استمع إليه بآذنه وانصت معجباً به مُحباً له ، وفُسِّرَ بهذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ<sup>(٣)</sup> ۖ ﴾ [الانشقاق] أي : استمعت لأمر ربها واستجابت وأطاعت وخضعت راضية . [ القاموس القويم : ١٦/١ باختصار ] .

(٣) الفروج : جمع فرج ، وهو الخلل بين الشيتين . والفرج . الشق . قال تعالى في وصف السماء : ﴿ وما لها من قُرُوجٍ<sup>(٤)</sup> ﴾ [ق] أي . شقوق فهي متماسكة لا خلل فيها ولكنها يوم القيامة تتشقق . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ<sup>(٥)</sup> ۖ ﴾ [المرسلات] . [ القاموس القويم .

﴿ أَقْلَمَ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ (٦)

[ق]

وهي أيضاً تسمع أمر ربها ، مصداقاً لقوله سبحانه :

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ (٦)

[الانشاق]

أى : أنها امتلكت حاسة السمع : لأن «أذنت» من الأذن ؛ وكأنها بمجرد سماعها لأمر الله ؛ تتفعل وتنشق<sup>(١)</sup> .

وهكذا نجد أن كل عَالَمٍ من عوالم الكون أَمٌّ مثل أمة البشر<sup>(٢)</sup> ، ويتفاهم الإنسان مع غيره من البشر مَعْنٍ يشتركون معه فى اللغة ، وقد يتفاهم مع البشر أمثاله ممن لا يعرف لغتهم بالإشارة ، أو من خلال مُترجم ، أو من خلال تعلُّم اللغة نفسها .

ولكن الإنسان لا يفهم لغة الجماد ، أو لغة النبات ، أو لغة الحيوان ؛ إلا إذا أنعم الله على عبد بأن يفهم عن الجماد ، أو أن يفهم الجماد عنه .

والمثل : هو تسبيح الجبال مع داود ، ويُسَكِّلُ تسبيحه مع تسبيحها «جَوْقَةً»<sup>(٣)</sup> من الانسجام مُكَوَّنٌ من إنسان مُسَبِّح ؛ هو أعلى الكائنات ، والمُرْدَّدُ للتسبيح هى الجبال ، وهى من الجماد أدنى الكائنات .

(١) ومثال هذا قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت]

(٢) قال تعالى - ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَلُكُمْ .. ﴾ [الأنعام] .

(٣) الْجَوْقُ فى اللغة - كل خليط من الرعاء أمرهم واحد . وقال الليث : الجوق كل تطيع من الرعاة أمرهم واحد . والجوق أيضاً . الجماعة من الناس . [ لسان العرب - مادة : جوق ] .

ونحن نعلم أن كل الكائنات تُسبِّح ، لكننا لا نفقه تسبيحها<sup>(١)</sup> ،  
ولكن الحق سبحانه يختار من عباده مَنْ يُعَلِّمه مَنْطِقَ الكائنات  
الأخرى ، مثلما قال سبحانه عن سليمان :

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مِنْتُمْ أَنْتُمُ الطَّيْرُ .. (١٦)﴾

[النمل]

ومكنا علمنا أن للطير منطقاً . وعَلَّمَ الحقُّ سبحانه سليمان لغة  
النمل ؛ لأننا نقرأ قول الحق :

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ  
لَا يَحْطِمَنَّكُمْ<sup>(٢)</sup> سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ  
قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي<sup>(٣)</sup> أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ  
وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)﴾  
[النمل]

إذن : فلكل أمة من الكائنات لغة ، وهي تفهم عن خالقها ، أو مَنْ  
أراد له الله سبحانه وتعالى أن يفهم عنها ، وبهذا نعلم أن الشمس  
والقمر والنجوم حين سجدت بأمر ربها ليوسف في رؤياه ؛ إنما  
فهمت عن أمر ربها .

(١) قال تعالى . ﴿.. وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ خَلِيفًا غَفُورًا  
(١١)﴾ [الإسراء] .

(٢) حطمه يحطمه . كسره يعنف . وأصل الحطم : كسر الشيء الجاف . ويُطلق على أي كسر ،  
قال تعالى . ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ .. (١٨)﴾ [النمل] . والحطام : ما تكسر من  
اليابس ، قال تعالى : ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجْعَلْنَاهُ حُطَامًا .. (٦٥)﴾ [الواقعة] .

(٣) أوزعه أن يفعل كذا . دفعه وحثه وأغراه ، أو ألهمه وأرشده ، قال تعالى : ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ  
أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ .. (١٩)﴾ [النمل] أي : ألهمني شكرك وادفعني إليه وحببه إلي [ القاموس اللويزم  
[ ٢٢٤/٢ ] .



ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ يَبْنِي لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾

وحين يُورد القرآن خطاب أب لابن نجد قوله ﴿ يَا بَنِي ﴾ وهو خطابُ تحنينٍ ، ويدل على القرب من القلب<sup>(١)</sup> ، و « بَنِي » تصغير « ابن » .  
أما حين يأتي القرآن بحديث أب عن ابنه فهو يقول « ابني » مثل قول الحق سبحانه عن نوح يتحدث عن ابنه الذي اختار الكفر على الإيمان :

﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي .. (٤٥) ﴾ [هود]

وكلمة « يا بني » بما فيها من حنان وعطف : ستفيدنا كثيراً فيما سوف يأتي من مواقف يوسف : ومواقف أبيه منه .

وقول يعقوب ليوسف « يا بني » يفهم منه أن يوسف عليه السلام ما زال صغيراً ، فيعقوب هو الأصل ، ويوسف هو الفرع ، والأصل دائماً يمتلىء بالحنان على الفرع ، وفي نفس الوقت نجد أي أب يقول : مَنْ يَأْكُلْ لِقَمَتِي عَلَيْهِ أَنْ يَسْمَعَ كَلِمَتِي .

(١) كاد فلاناً يكيد كيداً : خدعه ومكر به واحتمل لإلحاق الضرر به . والكيد مصدر ويطلق على العمل أو الوسيلة التي يتذرع بها الكائد ليتغلب على خصمه . [القاموس القويم ١٨٠/٢] .

(٢) ورد هذا الخطاب في القرآن ٦ مرات في سورة هود ويوسف ولقمان في ثلاث آيات والمصافات .

ولنعلم أن الكون وما فيه وَمَنْ فِيهِ وظيفته أمام الله الطوعية والسجود استجابة لمراد الله فهو من الواردات .

وقول الأب : يا بني ، يفهم منه أن الابن ما زال صغيراً ، ليست له ذاتية منفصلة عن الأب ليقرر بها ما هو المناسب ، وما هو غير المناسب .

وحين يفرع يوسف مما يُزعجه أو يُسئ إليه ؛ أو أى أمر مُعضل<sup>(١)</sup> ؛ فهو يلجأ إلى مَنْ يحبه ؛ وهو الأب ؛ لأن الأب هو - الاقدر فى نظر الابن - على مواجهة الأمور الصعبة .

وحين روى يوسف عليه السلام الرؤيا لأبيه ؛ قال الأب يعقوب عليه السلام :

﴿ قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ .. (٥) ﴾ [يوسف]

ونفهم من كلمة « رؤيا » أنها رؤيا منامية ؛ لأن الشمس والقمر والنجوم لا يسجدون لأحد ، وهذا ما يوضح لنا دقة اللغة العربية ، فكلمة واحدة هى « رأى » قد يختلف المعنى لها باختلاف ما رُوى ؛ فرؤيتك وأنت يقظان يُقال عنها « رؤية » ؛ ورؤيتك وأنت نائم يُقال عنها « رؤيا » .

والرؤية مصدر مُتَّفَق عليه من الجميع ؛ فأنت ترى ما يراه غيرك ؛ وأما « الرؤيا » فهى تاتى للنائم .

وهكذا نجد الالتقاء فى « رأى » والاختلاف فى الحالة ؛ هل هى حالة النوم أو حالة اليقظة . وفى الإعراب كلاهما مؤنث ؛ لأن علامة التأنيث إما :

(١) الأمر المعضل . الصعب الشديد الضيق . عضل عليه فى أمره تعصيلاً : ضيق من ذلك وحال بينه وبين ما يريد ظمناً . وعضل بهم المكان . ضاق . وعضلت الأرض بأهلها إنا ضاقت بهم لكثرتهم . [ لسان العرب - مادة : عضل ] .

« تاء » ، أو « ألف معدودة » ، أو « ألف مقصورة » <sup>(١)</sup> .

وأخذت الرؤية الحقيقية التي تحدث في اليقظة « التاء » وهي عمدة  
التانيث ؛ أما الرؤيا المنامية فقد أخذت ألف التانيث .

ولا يقدر <sup>(٢)</sup> في كلمة « رؤيا » أنها منامية إلا آية واحدة في القرآن ،  
حين تحدث الحق سبحانه عن لحظة أن عُرِجَ <sup>(٣)</sup> به ﷺ ؛ فقال :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً <sup>(٤)</sup> لِلنَّاسِ .. ﴾ [الإسراء]

ولكن مَنْ يقولون : « إنها رؤيا منامية » لم يفقهوا المعنى وراء هذا  
القول ؛ فالمعنى هو : إن ما حدث شيء عجيب لا يحدث إلا في الأحلام ،  
ولكنه حدث في الواقع ؛ بدليل أنه قال عنها : أنها «فتنة للناس» .

(١) علامات التانيث اللفظية ثلاث هي :

- تاء التانيث : تدخل على الفعل والاسم ، مثل جالسة وفاطمة ولأنها تدخل للتعرف بين  
المذكر والمؤنث فإنها لا تدخل في الأوصاف الخاصة بالمؤنث مثل : حائض ، مريض ،  
ثيب .

- ألف التانيث المقصورة : وهي ألف لازمة مفتوح ما قبلها تلحق آخر الكلمة المؤنثة .  
ألف التانيث الممدودة : وهي مقطع مكون من همزة تسبقها ألف مد مفتوح ما قبلها ،  
وهي تلحق الأسماء ، دون الأفعال مثل : حسناء ، صحراء ، كبرياء ، عاشوراء ، راجع ،  
القواعد الصرفية - الدكتور علي أبو المكارم - طبعة ١٩٧٩ هـ : ٦٢ - ٦٥ .

(٢) قدح : أثار . يقال : قدح الشيء في صدرى : أثار . وفي حديث علي كرم الله وجهه : يقدح  
الشك في قلبه بأول حارضة من شبهة . [ لسان العرب - مادة : قدح ] .

(٣) عرج يعرج عروجاً : صعد وعلا وارتفع . والمعراج : كل ما ساعدك على الصعود . والجمع  
معارج ، قال تعالى : ﴿ وَمَعَارِجُ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ [الزخرف] أى : يركبونها ويصعدون فيها  
إلى أعلى . [ القاموس القويم باختصار : ١٢/٢ ] .

(٤) قال الأزهري وغيره . جماع معنى الفتنة الابتلاء والامتحان والاختبار . [ انظر : لسان  
العرب - مادة : فتن ] .

فالرسول ﷺ لو كان قد قال إنها رؤيا منامية لما كذَّبَه أحد فيما قال ؛  
 لكنه أعلن أنها رؤيا حقيقية ؛ لذلك عبَّر عنها القرآن بأنها فتنة للناس .  
 وهنا يقول يعقوب عليه السلام :

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ ۖ ۝٥ ﴾ [يوسف]

لأن يعقوب عليه السلام كآب مأمونٌ على ابنه يوسف ؛ أما إخوة  
 يوسف فهم غير مأمونين عليه ، وحين يقصُّ يوسف رؤياه على أبيه ، فهو  
 سينظر إلى الصالح ليوسف ويدلُّه عليه<sup>(١)</sup> .

أما إن قصَّ الرؤيا على إخوته ؛ فقد تجعلهم الاغيار البشرية يحسدون  
 أخاهم ، وقد كان .

وإن تساءل أحد : ولماذا يحسدونه على رؤيا منامية ، رأى فيها  
 الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً يسجدون له ؟

نقول : لا بدُّ أن يعقوب عليه السلام قد عَلم تأويل الرؤيا ؛ وأنها نبوءة  
 لأحداث سوف تقع ؛ ولا بدُّ أن يعقوب عليه السلام قد علم أيضاً قدرة  
 إخوة يوسف على تأويل تلك الرؤيا ، ولو قالها يوسف لهم لفهموا  
 المقصود منها ، ولا بد حينئذ أن يكيدوا له كيذاً يُصيبه بمكره .

فهم قد أصابهم الضيق من يوسف وهو ما زال طفلاً ، فما باله  
 بضيقهم إن عَلموا مثل هذه الرؤيا التي يسجد له فيها الأب والام مع  
 الإخوة .

(١) قال القرطبي في تفسيره (٣٤٤٧/٤) : « هذه الآية أصل في ألا تقص الرؤيا على غير  
 شقيق ولا ناصح ، ولا على من لا يحسن التأويل فيها » .

ولا يعنى ذلك أن نعتبر إخوة يوسف من الأشرار : فهم الأسباط<sup>(١)</sup> ؛  
وما يصيبهم من ضيق بسبب علو عاطفة الأب تجاه يوسف هو من الأغيار  
التي تصيب البشر ، فهم ليسوا أشراراً بالسليقة<sup>(٢)</sup> ؛ لأن الشرير بالسليقة  
تتصاعد لديه حوادثُ السوء ، أما الخيرُ فتتنزلُ عنده حوادثُ السوء .

والمثل على ذلك : أنك قد تجد الشرير يرغب في أن يصفع إنساناً آخر  
صفعة على الخد ؛ لكنه بعد قليل يفكر في تصعيد العدوان على ذلك  
الإنسان ، فيفكر أن يصفعه صفعتين بدلاً من صفعة واحدة ؛ ثم يرى أن  
الصفعتين لا تكفيان ؛ فيرغب أن يزيد العدوان بأن يصوب عليه مسدساً ؛  
وهكذا يصعد الشرير تفكيره الإجرامى .

أما الخير فهو قد يفكر في ضرب إنسان أساء إليه « علقه » ؛ لكنه يُقلل  
من التفكير في ردِّ الاعتداء بأن يكتفى بالتفكير في ضربه صفعتين بدلاً من  
« العلقه » ، ثم يهدأ قليلاً ويعفو عمن أساء إليه .

وإخوة يوسف - وهم الأسباط<sup>(٣)</sup> - بدءوا في التفكير بانتقام كبير من  
يوسف ، فقالوا لبعضهم :

(١) الأسباط : جمع سبط ، والسبط : الشجرة ذات أصل واحد ، ولها الجذعان كثيرة ، ونقل  
ذلك مجازاً إلى شجرة النسب . فالسبط : القبيلة المتفرعة من أصل واحد . والأسباط : هم  
القبائل من أولاد يعقوب عليه السلام ، وهما اثنتا عشرة قبيلة تنسب إلى أبناء يعقوب الاثني  
عشر : « وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ سَبْطًا أَمَّا .. » [٣٣] [الأعراف] [ القاموس القويم : ١ / ٣٠٠ ] .  
(٢) السليقة : الطبيعة والسجية ، وفلان يقرأ بالسليقة أى بطبيعته لا بتعلم . وقيل : بالسليقة ،  
أى : بطبعه الذى نشأ عليه . قال أبو زيد : إنه لكريم الطبيعة والسليقة [ لسان العرب -  
مادة : سلق ] .

(٣) ذكرت كلمة الأسباط في القرآن ٥ مرات منها ٤ مرات يُعنى بها أسباط كلنوا أنبياء ،  
والموضع الخامس الأسباط بمعنى أصول قبائل بني إسرائيل ، وكان كل ابن من أبناء  
يعقوب هو أول السبط أو ذاك .

[يوسف]

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ .. ﴾ (٩)

ثم هبطوا عن هذه الدرجة المؤلمة من تعبيرهم عن الغيرة من زيادة محبة أبيهم ليوسف ، فقالوا :

﴿ أَوْ اطْرَحُوهُ <sup>(١)</sup> أَرْضًا يَخْلُ <sup>(٢)</sup> لَكُمْ وَجْهٌ أَبِيكُمْ .. ﴾ (١٠) [يوسف]

وحينما أرادوا أن يطرحوه أرضاً ترددوا ؛ واستبدلوا ذلك بإلقائه فى الجُبِّ <sup>(٣)</sup> لعل أن يلتقطه بعض السيَّارة <sup>(٤)</sup> . فقالوا :

﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ <sup>(٥)</sup> الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ .. ﴾ (١١) [يوسف]

وهذا يدل على أنهم تنزلوا عن الانتقام الشديد بسبب الغيرة ؛ بل إنهم فكروا فى نجاته .

وفى الآية التى نحن بصدد خواتمها عنها يقول الحق سبحانه :

(١) طرح الشيء طرَحَه طرْحاً : نبذَه وإلقاه . قال تعالى : ﴿ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا .. ﴾ (١٠) [يوسف] أى : ألقوه فى أرض بعيدة . [ القاموس القويم ٢٩٩/١ ] .

(٢) خلا فلان إلى فلان : فرغ له ولم يشغل عنه بغيره . قال تعالى على لسان إخوة يوسف : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهٌ أَبِيكُمْ .. ﴾ (١٠) [يوسف] أى : يفرغ لكم والدكم ، ويتجه إليكم بكل عنايته ، ولا يشغل عنكم بأحد غيركم . [ القاموس القويم ٢٠٩/١ ] .

(٣) الجب : البئر التى لم تُبْنِ بالحجارة ، قال الليث : الجب : البئر غير البعيدة . وقال الفراء : بئر مُجَبَّبة الجوف إذا كان وسطها أوسع شئ منها مُقَبَّبة . وهو أيضاً : البئر الكثيرة الماء للبعيدة القعر . [ لسان العرب - مادة : جبيب ] .

(٤) سيَّار : كثير السير ، صيغة مبالغة . وسيَّارة : صيغة مبالغة للمؤنث . والسيَّارة : الجماعة السائرة المسافرة . قال تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ .. ﴾ (١١) [يوسف] أى : جماعة مسافرة ، وقوله : ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ .. ﴾ (١٢) [المائدة] للمسافرين [ القاموس القويم ٢٤٠/١ ] .

(٥) غاب الشيء يغيب غيباً : استتر عن العين أو عن علم الإنسان فى المعنوى . والغيب : مصدر ويسمى به ما غاب واستتر ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ (٢) [البقرة] . [ القاموس القويم ٦٤/٢ ، ٦٥ باختصار ] .

﴿ لَا تَقْصُصْ رُءُوسَكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا... ﴾ (٥) [يوسف]

والكيد : احتيال مستور لمن لا تقوى على مجابته ، ولا يكيد إلا الضعيف : لأن القوى يقدر على المواجهة .

ولذلك يُقال : إن كيد النساء عظيم : لأن ضعفهن أعظم .

ويُذيل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (٥) [يوسف]

وهذه العداوة معروفة لنا تماماً : لأنه خرج من الجنة ملعوناً مطروداً : عكس آدم الذي قبل الله توبته : وقد أقسم الشيطان بعزة الله ليُغوينَ الكل ، واستثنى عبادَ الله المخلصين<sup>(١)</sup> .

ولذلك يقول ﷺ : « لقد أعاننى الله على شيطانى فأسلم »<sup>(٢)</sup> .

ويصف الحق سبحانه عداوة الشيطان للإنسان أنها عداوةٌ مُبينة<sup>(٣)</sup> .

أى : محيطة . وحين نقرأ القرآن نجد إحاطة الشيطان للإنسان فيها بقطعة :

﴿ لَا تَتَّبِعْهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ

﴾ (١٧) [الأعراف]

(١) حكى رب العزة هنا عن إبليس اللعين أنه قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَا غَوِيَّتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٨٧) إلا عبادك منهم المخلصين (٨٨) [ص] .

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة . قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : وإياي ولكن الله أعاننى عليه فلا يأمرنى إلا بحق » . أخرجه أحمد فى مسنده (٢٨٥/١) .

(٣) بأن الشيء بيبين ببياناً : ظهر واتضح فهو بينٌ وهى بيّنة أى : ظاهر وظاهرة ، ويستعمل البين والبيّنة بمعنى المظهر والمظهرة والموضح والموضحة ، وبالمستبين يُستبر . وبين الشيء وأبان وبين واستبان : لم يُعدْ خافياً . وقوله : ﴿ إِنَّكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (١٧٨) [البقرة] . [القاموس القويم ٩١/١ ، ٩٢ بتصريف] .

ولم يَأْتِ ذِكْرُ للمَجِيءِ من الفوقية أو من التحتية ؛ لأن مَنْ يحيى  
فى عبودية تحتية ؛ وعبادية فوقية ؛ لا يأتيه الشيطان أبداً .

ونلاحظ أن الحق سبحانه جاء بقول يعقوب عليه السلام مخاطباً  
يوسف عليه السلام فى هذه الآية :

﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا .. (٥)﴾ [يوسف]

ولم يقل : فيكيدوك ، وهذا من نَضَح<sup>(١)</sup> نبوة يعقوب عليه السلام  
على لسانه ؛ لأن هناك farkاً بين العبارتين ، فقول : « يكيدوك » يعنى  
أن الشرَّ المستور الذى يدبرونه ضدك سوف يصيبك بأذى .

أما ﴿فَيَكِيدُوا<sup>(٢)</sup> لَكَ .. (٥)﴾ [يوسف]

فتعنى أن كيدهم الذى أرادوا به إلحاق الشر بك سيكون لحسابك ،  
ويأتى بالخير لك .

ولذلك نجد قوله الحق فى موقع آخر بنفس السورة :

﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ .. (٧٦)﴾ [يوسف]

أى : كدنا لصالحه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) أصل النضج : الرشح . يقال : نضج الرجل بالعرق نضجاً : غش به . ونضجت العين :  
فارت بالدمع وعيناه تنضجان ونضجت اللغابية والجرة تنضج : إذا كانت رقيقة فخرج الماء  
من الخزف ورشحت . [ لسان العرب - مادة : نضج بتصرف ] .

(٢) كاد فلاناً يكيد كيداً : خدعه ومكر به ولحقه إلحاق الضرر به ، والكيد مصدر ويُطلق  
على العمل أو الوسيلة التى يتلوع بها الكائد ليتغلب على خصمه . [ القاموس القويم



وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ<sup>(١)</sup>  
وَيُنِزُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ  
مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

أى : كما أنسك الله بهذه الرؤيا المفرحة المنبئة بأنه سيكون لك شأن كبير بالنسبة لإخوتك وبالنسبة لأبيك ، فلسوف يجتبيك ربك ؛ لا بأن يحفظك فقط ؛ ولكن بأن يجعل كيدهم سبباً لصالحك ، ويُعلمك من تأويل الأحاديث ما يجعل أصحاب الجاه والنفوذ يلتفتون إليك .

ومعنى تأويل الشيء أى معرفة ما يؤول إليه الشيء ، ونعلم أن الرؤى تاتى كطلاسم ، ولها شفرة رمزية لا يقوم بحلها إلا مَنْ وهب الله قدرة على ذلك ؛ فهي ليست علماً له قواعد وأصول ؛ لأنها إلهامات من الله سبحانه وتعالى .

(١) اجتنبى فلاناً اختاره واستخلصه واصطفاه . قال تعالى : ﴿ يَجْعَلْ لَّهُ مِنْ شَأْنِهِ رَهْداً وَيَهْدِ لِهَبِّهِ مِنْ يُبَيِّبُ (١٣) ﴾ [الشورى] أى . يصطفى ويختار من يشاء من خلقه . [ القاموس القويم ١١٧/١ ] .

(٢) الحديث : الكلام وجمعه أحاديث ، والأحاديث جمع أحداث ، وهى الحديث المعجيب . والحديث قد يُطلق على الرؤى والأحلام ، قال تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ . (٦) ﴾ [يوسف] وأما قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ . (٢٢) ﴾ [المؤمنون] فهو كناية عن الموت والهلاك . أى : بعد أن كانوا أحياء صاروا أمواتاً يتحدث الناس عنهم . [ القاموس القويم ١١٥/١ ] .

وبعد ذلك تصير يا يوسف على خزائن الأرض ؛ حين يُوجد الجَدْبُ<sup>(١)</sup> ، ويعمُ المنطقة كلها ، وتصبح عزيز مصر .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَيَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ .. ﴾ (٦) [يوسف]

فكلُّ ما تَمَتَّعَ به يوسف هو من نعم الدنيا ، وتاج نعمة الدنيا أن الله اجتباه رسولا .

أو أن : ﴿ وَيَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ .. ﴾ (٦) [يوسف]

بمعنى ألا تسلب منك النعمة أبداً ؛ ففي حياة يوسف منصبٌ مهم ، هو منصب عزيز مصر ، والمناصب من الأغيار التي يمكن أن تنزع .

أو أن : ﴿ وَيَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ .. ﴾ (٦) [يوسف]

بان يصل نعيم دنياك بنعيم أُخْرَاك<sup>(٢)</sup> .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٦) [يوسف]

يُذَكِّرُ الحق سبحانه يوسف عليه السلام بان كيد إخوته له لا يجب أن يُحوِّله إلى عداوة ؛ لأن النعم ستتم أيضاً على هؤلاء الإخوة فهم آل يعقوب ؛ هم وأبناؤهم حَفَدَةُ يعقوب ، وسينالهم بعضٌ من عِزِّ

(١) الجَدْبُ : القمط وهو نقيض الخصب . والأرض الجدية : التي ليس بها قليل ولا كثير ولا

مَرْتَعٌ ولا كلا ، والأرض المهداب : التي لا تكاد تُخْصَبُ . [ لسان العرب - مادة : جدب ] .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٤/٢٤٥٠) : ﴿ وَيَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ .. ﴾ (٦) [ يوسف ] أي :

بالنوبة ، وقيل : بإخراج إخوتك إليك . وقيل : بإنجائك من كل مكروه ..

يوسف وجأه وماله . كما أتمها من قبل على إبراهيم الجد الاول ليوسف باتخاذ خليلاً<sup>(١)</sup> لله ، وأتم سبحانه نعمته على إسحق بالنبوة . وهو سبحانه أعلم بمن يستحق حمل الرسالة ، وهو الحكيم الذي لا يترك شيئاً للعبث ؛ فهو المُقَدَّر لكل أمر بحيث يكون مُوافِقاً للصواب .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّائِلِينَ﴾ (٧)

أى : أن يوسف صار ظَرْفًا للأحداث . لأن « فى » تدل على الظرفية<sup>(٢)</sup> ، ومعنى الظرفية أن هناك شيئاً يُظَرَف فيه شيء آخر ، فكان يوسف صار ظَرْفًا ستدور حوله الأحداث بالأشخاص المشاركين فيها .

و « يوسف » اسم أعجمى ؛ لذلك فهو « ممنوع من الصرف » أى : ممنوع من التنوين فلا نقول : فى يوسف .

و ﴿يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّائِلِينَ﴾ (٧) [ يوسف ]

وهذا يعنى أن ما حدث إنما يُلَفِّت لقدرة الله سبحانه ؛ فقد ألقى فى الجُبِّ وأنقذ ليتربى فى أرقى بيوت مصر .

(١) قال تعالى : ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (٣٥) [النساء] . وسُمِّي إبراهيم عليه السلام خليل الله لشدة محبته لربه عز وجل لما قام له به من الطاعة التى يحبها ويرضاها . [ ابن كثير ٥٦٠/١ ] .

(٢) قال ابن هشام الانصارى فى معنى اللبيب (١٤١/١) : « فى » حرف جر له عشرة معان منها : الظرفية وهى إما مكانية أو زمانية . وقد اجتمعنا فى قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ وَاقْدَارِهِمْ فِي الدُّنْيَا نَافِلُونَ﴾ (١) [الروم] .

ونعلم أن كلمة آية تطلق على الأمر العجيب الملفت للنظر ، وهي  
تُرد بالقرآن بثلاثة معانٍ :

آية كونية : مثل الشمس والقمر والليل والنهار ، وتلك الآيات  
الكونية رصيد للنظر في الإيمان بواجب الوجود وهو الله سبحانه ؛  
فساعة ترى الكون منتظماً بتلك الدقة المتناهية : لا بدُّ أن تفكر في  
ضرورة وجود خالق لهذا الكون .

والآيات العجيبة الثانية هي المعجزات الخارقة للنواميس التي يأتي  
بها الرسل : لتدل على صدق بلاغهم عن الله ، مثل النار التي صارت  
برداً<sup>(١)</sup> وسلاماً على إبراهيم ، ومثل الماء الذي انقلب وصار كالطود<sup>(٢)</sup>  
العظيم أمام عصا موسى .

وهناك المعنى الثالث لكلمة آية ، والمقصود به آيات القرآن  
الكريم .

وفي قول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلِّسَانِ لِلَّذِينَ ﴾ [يوسف]

(١) وذلك في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا خَبَرُوا وَانصَرُوا إِلَيْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَاعِلِينَ ﴾ (١٨) قلنا يا نازكوني برذاً  
وسلاماً على إبراهيم (١٩) [الأنبياء] والبرد : ضد الحر . والبرودة : نقيض الحرارة . قال علي  
ابن أبي طالب : أي لا تضر به . قال ابن عباس وأبو العالمة : لولا أن الله عز وجل قال :  
﴿ وسلاماً ﴾ [الأنبياء] لأذى إبراهيم بردها . وقال جرير عن الضحاك : ﴿ كُونِي بَرْدًا  
وسلاماً على إبراهيم ﴾ [الأنبياء] قالوا : ضعوا له حظيرة من حطب جزل وأشعلوا فيه النار  
من كل جانب ، فأصبح ولم يصبه منها شيء حتى أحمدها الله ، [ انظر تفسير ابن كثير  
١٨٤/٢ ] .

(٢) الطود : الجبل الشايت العالي . قال تعالى : ﴿ فَاَنْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ (٢٢)  
[الشعراء] .

نستشف العبرة من كل ما حدث ليوسف الذي كاد له إخوته ليتخلصوا منه ؛ لكن كيدهم انقلب لصالح يوسف .

وفى كل ذلك سلوى<sup>(١)</sup> لرسول الله ﷺ ؛ لتثبيت فؤاده ؛ فلا يُعير بالآ لاضطهاد قومه له ، وتآمرهم عليه ، ورغبتهم فى نفيه إلى الشام ، ومحاولتهم قتله ، ومحاولتهم مقاطعة ، وقد صاروا من بعد ذلك يعيشون فى ظلال كنفه .

إذن : فلا تياس يا محمد ؛ لأن الله ناصرك بإذنه وقدرته ، ولا تستبطئ نصر الله ، أنت ومن معك ، كما جاء فى القرآن .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْزِئِينَ<sup>(٢)</sup> وَالضُّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ۝٢١٤﴾ [البقرة]

ويبين لنا الحق سبحانه ما حدث ليوسف بعد الفهر الذى أصابه من إخوته ، ويمر الوقت إلى أن تتحقق رؤيا الخير التى رآها يوسف عليه السلام .

ويقال : إن رؤيا يوسف تحققت فى فترة زمنية تتراوح بين

(١) سلأتى من همى تسلية وإسلانى أى كشفه عنى . وإنسلت عنى الهم وتسلت بمعنى أى : انكشف . [ لسان العرب - مادة : سلا ] .

(٢) الباساء - الفقر والشدّة ، قال تعالى : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضُّرَاءِ ۝٢١٧﴾ [البقرة] فى وقت الفقر والحاجة . والضراء . طول العرخ أو أى شدة أو نقص الاموال والانفس ، وذلك مؤلم معزّن وهو ضد السراء . [ القاموس القويم ٥٢/١ ، ٢٩٢ ] .

أربعين سنة وثمانين عاماً<sup>(١)</sup> .

ولذلك نجد رؤياً الخير يطول أمدُ تصديقها ؛ ورؤياً الشر تكون سريعة ؛ لأن من رحمة الله أن يجعل رؤيا الشر يقع واقعاً وينتهى ، لأنها لو ظلت دون وقوع لآمد طويل ؛ لوقع الإنسان فريسةً تخيل الشر بكل صورته .

والشر لا يأتى إلا على صورة واحدة ، ولكن الخير له صور متعددة ؛ فيجعلك الله متخيلاً لما سوف يأتك من الخير بالوان وتأويل شتى .

والمثل لدعوة الشر هو دعوة موسى على آل فرعون ؛ حين قال :

﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ<sup>(٢)</sup> عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ<sup>(٣)</sup> عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ<sup>(٤)</sup> ﴾ [يونس]

(١) . قال أبو عثمان النهدي عن سليمان كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة . وقال الحسن : كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا ثمانون سنة لم يفارق الحزن قلبه ودموعه تجري على خديه . . وهذا يوافق ما قاله ابن كثير في تفسيره ( ٤٩١/٢ ) .

(٢) طمس الشيء : تغيرت صورته أو انمحى أثره . وطمسه غيره : شوهه أو مَحَاهُ وأزاله . وطمس عينه : أعماهها . وطمس على عينه . أعماهها مستعملة معني غطى وغشى عليها . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ<sup>(١)</sup> . . ﴾ [يس] . [ القاموس القويم ٤٠٦/١ باختصار ] .

(٣) شدّه : قواه . وشد العجل : ربطه ربطاً مُحْكَمًا . وشد أسره : قوَّى قيده وأحكم وثاقه فلا يفلت منه أبداً . أى : أحكم السيطرة عليه . ﴿ وَشَدَدْنَا آسْرَهُمْ<sup>(٢)</sup> . . ﴾ [الإنسان] أى : أحكمنا وثاقهم وسيطرتنا عليهم . وقوله : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ<sup>(٣)</sup> . . ﴾ [ص] أى : قويناه . [ القاموس القويم ٢٤٢/١ ، ٢٤٤ بتصرف ] .

ويقول الحق سبحانه :

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْسَّائِلِينَ (٧)﴾ [يوسف]

فكل يوم من أيام تلك القصة هناك آية وتُجمع آيات .

وهناك قراءة أخرى : « لقد كان في يوسف وإخوته آية للساائلين »

أى : أن كل القصة بكل تفاصيلها وأحداثها آية عجيبة .

والحق سبحانه أعطانا في القرآن مثلاً على جَمْع الأكثر من آية في

آية واحدة ، مثلما قال : ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً (٥١)﴾ [المؤمنون]

مع أن كلا منهما آية منفردة .

ولك أن تنظر إلى قصة يوسف كلها على أنها آية عجيبة تشمل كل

اللقطات ، أو تنظر إلى كل لقطة على أنها آية بمفردها .

ويقول الحق سبحانه في آخر هذه الآية أن القصة : ﴿آيَاتُ

لِلْسَّائِلِينَ (٧)﴾ [يوسف]

والساائلون هنا إما من المشركين الذين حرّضهم اليهود<sup>(١)</sup> على أن

(١) أى : أنه سبحانه جعلهما آية للناس ، أى حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء ، فإنه خلق

آدم من غير أب ولا أم ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ،

وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى . قاله ابن كثير في تفسيره لهذه الآية (٢/٢٤٦) .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٤/٢٤٥٠) : أى . لقد كان للذين سألوا عن خبر يوسف آية

فيما خبروا به . لأنهم سألوا النبي ﷺ وهو بمكة فقالوا : أخبره عن رجل من الأنبياء كان

بالشام أخرج ابنه إلى مصر . فبكى عليه حتى عمى ؟ - ولم يكن بمكة أحد من أهل

الكتاب . ولا من يعرف خبر الأنبياء ، وإنما رَجَّه اليهودُ من المدينة يسألون عن هذا - فانزل

الله عز وجل سورة « يوسف » جملة واحدة ، فيها كل ما فى التوراة من خبر وزيادة .

فكان ذلك آية للنبي ﷺ بمنزلة إحياء عيسى بن مريم عليه السلام الميت . .

يسألوا رسول الله ﷺ عن مسألة يوسف ، وإما من المسلمين الذين يطلبون العبر من الأمم السابقة ، وجاء الوحي لينزل على الرسول الأُمي ب تلك السورة بالأداء الرفيع المعجز الذي لا يقوى عليه بشر .

وأنت حين تقرأ السورة : قد تأخذ من الوقت عشرين دقيقة . هات أنت أي إنسان ليتكلم ثلث ساعة ، ويظل حافظاً لما قاله : لن تجد أحداً يفعل ذلك : لكن الحق سبحانه قال لرسوله ﷺ :

﴿ سَتَقْرَأُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ (٦)

[الاعلى]

ولذلك نجد الرسول ﷺ يحفظ ما أنزل إليه من ربه ، ويعليه على صحابته ويصلى بهم : ويقرأ في الصلاة ما أنزل عليه ، ورغم أن في القرآن آيات متشابهات : إلا أنه ﷺ لم يخطئ مرة أثناء قراءته للقرآن .

والامثلة كثيرة منها قوله الحق :

﴿ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (١٧)

[القمان]

ومرة أخرى يقول :

﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (٤٢)

[الشورى]

وكذلك قول الحق سبحانه :

(١) عزم الامر . من للمجاز أي نفذ بعزيمة قوية من صاحبه . قال تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأُمُورَ ﴾ (١١) . [محمد] فعل لازم أي : نفذ وتقرر وثبت بعزيمة قوية منكم . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ ﴾ (١٢٧) [البقرة] أي : عقدوا النية على إتمامه . وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [آل عمران] أي : من الامور الجادة الرشيدة التي لا يجوز التردد فيها أو من الامور العظيمة التي يفعلها اصحاب العزم القوي . [ القاموس القويم ٢٠ / ٢ ] .



[الحجر]

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ﴾ (٤٥)

وفي موقع آخر يقول الحق :

[الطور]

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ (١٧)

فكيف يتأتى لبشر أمي أن يتذكر كل ذلك ، لولا أن الذي أنزل عليه الوحي قد شاء له ذلك .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿إِذْ قَالَ الْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ إِنَّمَا أَنَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾<sup>(١)</sup>  
 إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ<sup>(٢)</sup>

ولا بُدُّ لنا هنا أن ننظر إلى الأخوة بنوعياتها ؛ فقد تكون الأخوة من ناحية الأبوين معاً ؛ وقد تكون من ناحية الأب دون الأم ، أو من ناحية الأم دون الأب ، وكان عدد أبناء يعقوب عليه السلام اثنا<sup>(٣)</sup>

(١) العصبه الجماعة المترابطة . قال تعالى عن إخوة يوسف قولهم : ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ (٤٥) [يوسف] . عصبه ربطه ربطاً شديداً . وقوله : ﴿هَذَا يَوْمُ عَصِيبٍ﴾ (٧٧) [هود] أي : شديد العصب يعصب الناس ويضيق عليهم أو شديد الحر ، شديد الهول . [القاموس القويم ٢٢/٢] .

(٢) الضلال : النسيان والضياع . وقد يطلق الضلال على عمل خلاف الأولى كقوله في قصة يوسف : ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١٥) [يوسف] أي : شدة تعلقك بيوسف وحزتك عليه فهو في نظرهم ضلال . [القاموس القويم : ٢٩٥/١] .

(٣) قال القرطبي في تفسيره (٢٤٥١/٤) : : أسماؤهم : روبيل وهو أكبرهم . وشمعون ولاوي ويهوذا وزبالون ويساخار . وأمه لبنت ليان . وهي بنت خال يعقوب . وولد له من سريتين أربعة نفر : دان ونفتالي وجاد وأشر . ثم توفيت لبيا فتزوج يعقوب أختها راحيل . فولدت له يوسف وبنيامين . فكان بنو يعقوب اثني عشر رجلاً . قال السهيلي : أم يعقوب اسمها رفقا . وراحيل ماتت في نفاس بنيامين . وقيل : في اسم الامتين لبيا وثلاثا . كانت إحداهما لراحيل والأخرى لأختها لبيا . .

عشر : سبعة من واحدة ؛ وأربعة من اثنتين : زلفى وبلهه ؛ واثنين من راحيل هما : يوسف ، وأخوه بنيامين .

وتبدأ الآية التي نحن بصدد خواتمها :

﴿ إِذْ قَالُوا لْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ... ﴾ (٨) [يوسف]

وحرف اللام الذي سبق اسم يوسف جاء للتوكيد ، وكانهم قالوا : والله إن أبانا يحب يوسف وأخاه أكثر من حُبِّه لنا . والتوكيد لا يأتي إلا بصدد إنكار .

وهذا يدل على أنهم مختلفون في أمر يوسف عليه السلام ؛ فأحدهم يريد أن ينتقم من يوسف ، وآخر يقترح تخفيف المسألة بإلقائه في الجب<sup>(١)</sup> ؛ ثم انتهوا إلى أن يوسف أحبُّ إلى أبيهم منهم .

وفي قولهم لَمَحَّة من إنصاف ؛ فقد أثبتوا حب أبيهم لهم ؛ ولكن قولهم به بعضٌ من غفلة البشر ؛ لأنهم كان يجب أن يلتمسوا سبب زيادة حُبِّ أبيهم ليوسف وأخيه .

فيوسف وأخوه كانوا صِغَارًا وماتت أمهما<sup>(٢)</sup> ؛ ولم يَعدْ لهم إلا الأب الذي أحسَّ بضرورة أن يجتمع فيه تجاههما حنانُ الأب وحنانُ الأم ؛ ولأنهما صِغَارٌ نجد الأب يحنو عليهما بما أودعه الله في قلبه من قدرة على الرعاية .

وهذا أمر لا دَخَلَ ليعقوب فيه ؛ بل هي مسألة إلهية أودعها الله

(١) الجب : البئر التي لم تُبْنِ بالحجارة . قال التليث : هي البئر غير البعمية . وقال الفراء : بئر مُجَبَّة الجوف إذا كان وسطها أوسع شيء منها مُقَبَّة . [ لسان العرب - مادة : جب ] .

(٢) ماتت أمهما راحيل في نفس بنيامين . ذكره القرطبي في تفسيره .

فى القلوب بدون اختيار ؛ ويُودعها سبحانه حتى فى قلوب  
الحيوانات.

وقد شاء سبحانه أن يجعل الحنان على قدر الحاجة ؛ فالقطة -  
على سبيل المثال - إن اقتربَ أحد من صغارها المولودين حديثاً ؛  
تهجم على هذا الذى اقترب من صغارها .

ولذلك نجد العربى القديم قد أجاب على مَنْ سألَه « أى أبناؤك  
أحب إليك ؟ » فقال : « الصغير حتى يكبر ؛ والغائب حتى يعود ،  
والمريض حتى يشفى » .

وهذه مسألة نراها فى حياتنا اليومية ، فنجد امرأة لها ولدان ،  
واحد أكرمه الله بسعة الرزق ويقوم بكل أمورها واحتياجاتها ؛ والآخر  
يعيش على الكفاف<sup>(١)</sup> أو على مساعدة أخيه له ؛ ونجد قلبها دائماً مع  
الضعيف .

ولذلك نقول : إن الحب مسألة عاطفية لا تخضع إلى التقنين ؛  
ولا تكليف بها ؛ وحينما يتعرض القرآن لها فالحق سبحانه  
يوضح : أن الحب والبغض انفعالات طبيعية<sup>(٢)</sup> ؛ فأحببْ مَنْ شئتَ  
وأبغضْ مَنْ شئتَ ؛ ولكن إياك أن تظلم الناس لمن أحببت ؛ أو تظلم  
مَنْ أبغضت .

(١) الكفاف : أى ليس فى نفقته فضل إنما عنده ما يكفه عن الناس . قال الجوهري : كفاف  
الشيء بالفتح مثله وقيسه ، والكفاف أيضاً من الرزق . القوت وهو ما كفَّ عن الناس أى  
الغنى فهو لا يفضل عن الشيء ويكون بقدر الحاجة إليه . [ لسان العرب - مادة : كف ] .

(٢) الطبع والطبيعة : الخلقة والسجية التى جُبل عليها الإنسان . والطباع : كالتبيعة ، مؤنثة  
[ لسان العرب - مادة : طبع ]

اقرأ قول الحق سبحانه :

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا<sup>(١)</sup>نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ  
لِلتَّقْوَىٰ (٨)﴾ [المائدة]

فأحبب مَنْ شئتَ ، وأبغض مَنْ شئتَ ، ولكن لا تظلم بسبب الحب  
أو البغض .

وقد يقول قائل : ولكن الرسول ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى  
أكون أحب إليه من نفسه » .

نقول : اقرأ ما جاء في نفس رواية الحديث ! فقد قال عمر رضي  
الله عنه - بوضوحه وصراحته وجراءته ! دون نفاق - : أحببك  
يا رسول الله عن مالي وعن ولدي أما عن نفسي ! فلا . فكرر  
النبي ﷺ قوله :

« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » <sup>(٢)</sup> .

(١) جرم الشيء ، جرماً : قطعه وغلب على فعل الشر . يقال : جرم : أثنب وجنبى جنابة .  
وجرم المال : كسبه من أى وجه . وجرمه : حمّله على فعل شر أو لئب وجُرم . قال  
تعالى : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا<sup>(١)</sup>نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا .. (٨)﴾ [المائدة] أى : لا يمحلتكم بغض قوم  
على عدم العدل . أى : التزموا العدل حتى مع من تكرهونهم . أى : اعدلوا دائماً فالعدل  
أقرب للتقوى . [ القاموس القويم ١/ ١٢١ ] .

(٢) شناه وشنته شناً وشناً : أبغضه وكرهه قال تعالى : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا<sup>(١)</sup>نُ قَوْمٍ عَلَىٰ  
أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ (٨)﴾ [المائدة] وشانیه : اسم فاعل . قال تعالى : ﴿إِنْ  
شَانِيكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٢)﴾ [الكوثر] أى : ميفضك وكارحك . [ القاموس القويم ١/ ٣٥٧ ] .

(٣) عن جد زهرة بن معبد قال : كنا مع النبي ﷺ وهو أخذ بيد عمر بن الخطاب رضي الله  
تعالى عنه فقال : والله يا رسول الله ، لانت أحب إلى من كل شيء إلا نفسي فقال  
النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » قال :  
فانت الآن والله أحب إلى من نفسي . فقال رسول الله ﷺ : « الآن يا عمر » أخرجه أحمد  
في مسنده (٢٢٦/٤) .

فقطنَ عمر رضى الله عنه إلى أن الأمر هو التزام عقدي وتكليفى ؛  
وقهَم أن المطلوب هو حُبُّ العقل ؛ لا حب العاطفة .

وحب العقل - كما نعلم - هو أن تبصر الأمر النافع وتفعله ؛ مثلما  
تأخذ الدواء المرُ ؛ وأنت تفعل ذلك بحبٍّ عقلى ؛ رغبةً منك فى أن  
يأذن الحق بالشفاء .

والمسلم يحب رسول الله ﷺ بعقله ؛ لأنه يعلم أنه لولا مجيء  
رسول الله لما عرف حلاوة الإيمان ، وقد يتسامى<sup>(١)</sup> المسلم فى حُبِّ  
رسول الله ﷺ إلى أن يصير حب الرسول فى قلبه حباً عاطفياً .

وهكذا نرى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد أوضح لنا  
الخطوط الفاصلة بين مبادئ الحب العقلى والحب العاطفى .

والمثال الآخر من سيرة عمر رضى الله عنه فى نفس المسألة ؛  
حب العقل وحب العاطفة ؛ حين مرَّ عليه قاتل أخيه ؛ فقال واحد ممَّنْ  
يجلسون معه ؛ هذا قاتل أخيك . فقال عمر ؛ وماذا أفعل به وقد هداه  
الله للإسلام ؟

وصرف عمر وجهه بعيداً عن قاتل أخيه ؛ فجاء القاتل إليه قائلاً ؛  
لماذا تزوى وجهك عني ؟ قال عمر ؛ لأننى لا أحبك ، فأنت قاتلُ  
أخى . فقال الرجل ؛ أو يمنعنى عدم حبك لى من أى حق من  
حقوقى ؟ قال عمر ؛ لا . فقال الرجل ؛ « لك أن تحب من تريد ،  
وتكره من تريد ، ولا يبيكى على الحب إلا النساء » .

وكان على إخوة يوسف أن ينتبهوا إلى أن حب والدهم ليوسف

(١) السمر . الارتفاع والعلو . سما الشيء يسمو سمواً . ارتفع . وتساموا . تباروا .  
وتساميها ؛ تباريها وتفاخرها . والتسامى . الرُقعة والارتقاء . [ لسان العرب - مادة ؛  
سما ] بتصرف .

وأخيه هو انفعال طبيعي لا يُؤخذُ به الأب ؛ لأن ظروف الولدين حتمت عليه أن يحبهم مثل هذا الحب .

وتستمر القصة بما فيها من تصعيد للخير وتصعيد للشر ؛  
ولسائل أن يسأل : ولماذا انصب غضبهم على يوسف وحده ؟

ويقال : إنهم لم يرغبوا أن يَفْجَعُوا<sup>(١)</sup> أباهم في الاثنين - يوسف وأخيه - أو أن شيئاً من رؤيا يوسف تسرب إليهم .

ومن العجيب أن يقولوا بعد ذلك : ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ۖ ﴾ (٨) [يوسف]

والعصبة من عدد عشرة فما فوق ؛ والعصبة أيضاً هم المُتَكَاتِفُونَ  
الْمُتَعَصِّبُونَ لبعضهم البعض ؛ وهم الذين يقومون بالمصالح ويقضون  
الحاجات ؛ وقد تقاعد أبوهم ؛ وترك لهم إدارة أعمال العائلة .

وقالوا : « ما دُمْنَا نقوم بمصالح العائلة ، فكان من الواجب  
أن يَخُصَّنَا أبونا بالحب » ولم يلتفتوا إلى أنهم عُصْبَةٌ ، وهذا ما  
جعل الأب يحبهم ، لكنه أعطى مَنْ ليسوا عصبة مزيداً من الرعاية ،  
ولكنهم سددوا<sup>(٢)</sup> في غيِّهم<sup>(٣)</sup> ، ووصلوا إلى نتيجة غير منطقية وهي  
قولهم :

(١) الفجعة : الرزية الموجهة . فجعت المصيبة ؛ أوجعته . والفواجع : المصائب المؤلمة التي  
تفجع الإنسان بما يعز عليه من مال أو حميم ، الواحدة فاجعة . [ لسان العرب - مادة :  
فجع ] .

(٢) السائر . المتحير ، وهو أيضاً الذي لا يهتم بشيء ولا يبالي ما صنع . [ لسان العرب -  
مادة : سمر ] .

(٣) الغيُّ - الضلال والخيبة . غوى : ضلَّ . والغواية - الانهماك في الغيِّ . والغوى : شديد  
الضلالة والغواية ، وأغواه : أضله وأوقعه في الغيِّ والضلال . [ القاموس القويم ٦٤/٢ ] .

﴿ إِنَّ أَنَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٨) [يوسف]

وهذا القول هو نتيجة لا تنسجم مع المقدمات ، فيوسف وأخوه طفلان ماتت أمهما ، ولا بدُّ أن يعطف عليهم الأب ؛ وحبُّه لهما لم يمنع حبه للأبناء الكبار القادرين على الاعتماد على أنفسهم .

وحين يقولون :

﴿ إِنَّ أَنَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٨) [يوسف]

قد يفهم بعض الناس كلمة « ضلال » هنا بالمعنى الواسع لها .

نقول : لا ؛ لأن هناك ضلالاً مقصوداً ، وهو أن يعرف طريق الحق ويذهب إلى الباطل ، وهذا ضلال مذموم .

وهناك ضلال غير مقصود ، مثل : ضلال رجل يمشى فيسلك طرقاً لا يعرفها فيضل عن مقصده ؛ ومثل مَنْ ينسى شيئاً من الحق .

وسبحانه القائل :

﴿ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى .. ﴾ (٢٨٢) [البقرة]

وسبحانه القائل أيضاً :

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ (٧) [الضحى]

إذن : فالضلال المذموم هو أن تعرف طريق الحق ، وتذهب إلى الضلال .

وهكذا أخطأ إخوة يوسف في تقدير أمر حبِّ أبيهم ليوسف

وأخيه : ووصلوا إلى نتيجة ضارة : لأن المقدمات التي أقاموا عليها تلك النتيجة كانت باطلة : ولو أنهم مَحَصُّوا المقدمات تمحيصاً دقيقاً لَمَّا وصلوا إلى النتيجة الخاطئة التي قالوها :

﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٨) [يوسف]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما جاء على السنة إخوة يوسف :

﴿ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ  
وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ (٩)

والقتل هو قمة ما فكروا فيه من شر : ولأنهم من الأسباط هبط الشر إلى مرتبة أقل : فقالوا : ﴿ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا .. ﴾ (٩) [يوسف]

فكانهم خافوا من إثم القتل : وظنُّوا بذلك أنهم سينفردون بحب أبيهم : لأنهم قالوا : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. ﴾ (٩) [يوسف]

والوجه هو الذي تتم به المواجهة والابتسام والحنان ، وهو ما تظهر عليه الانفعالات .

والمقصود به : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. ﴾ (٩) [يوسف]

(١) طرح الشيء وطرح به : رماه . والطَّرَحَ بالتحريك البَعْدُ والمكان البعيد . قال تعالى : ﴿ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا .. ﴾ (٩) [يوسف] أى : القوه في أرض بعيدة . [ القاموس القويم ١/ ٣٩٩ ] .

(٢) خلا فلان إلى فلان : فرغ له ولم يشغل عنه بغيره . قال تعالى على لسان إخوة يوسف :

﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. ﴾ (٩) [يوسف] أى : يفرغ لكم والدكم ويتجه إليكم بكل عنايته ولا يشغل عنكم بأحد غيركم . [ القاموس القويم ١/ ٢٠٩ ] .



هو ألا يوجد عائق بينكم وبين أبيهم .

وقولهم : ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ (٩) [يوسف]

أى : أنهم يُقَدِّرُونَ الصلاح : ويعرفون أن الذى فكروا فيه غير مقبول بموازين الصلاح : لذلك قالوا : إنهم سيتوبون من بعد ذلك .

ولكن : ما الذى أدرأهم أنهم سوف يعيشون إلى أن يتوبوا ؟ وهم بقولهم هذا نَسُوا أن أمر المَوْت قد أبهم حتى لا يرتكب أحدُ المعاصي والكبائر .

أو : أن يكون المقصود بـ : ﴿ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ (٩) [يوسف]

هو أن يكونوا صالحين لحركة الحياة ، ولعدم تنفيس<sup>(١)</sup> علاقتهم بأبيهم : فحين يخلو لهم وجهه : سירתاحون إلى أن أباهم سيعدل بينهم ، ويهبهم كل حبه فيرتاحون .

أو أن يكون المقصود بـ : ﴿ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ (٩) [يوسف]

أن تلك المسألة التى تشغل بالهم وتأخذ جزءاً من تفكيرهم إذا ما وجدوا لها حلاً : فسירתاح بالهم فينصلح حالهم لإدارة شئون دنياهم .

وهكذا نفهم أن سعيهم إلى الصلاح : منوط بمراداتهم فى الحياة ، بحسب مفهومهم للصلاح والحياة .

(١) التنفص : كَذَرَّ العيش .. وقد نفص عليه عيشه تنفيساً أى : كثره . ونفص علينا أى : قطع علينا ما كنا نحب الاستكثار منه ، وكل من قطع شيئاً مما يحب الازدياد منه فهو مُنفَص . [ لسان العرب - مادة : نفص ] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ<sup>(١)</sup>  
يَلْقِظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ<sup>(٢)</sup> إِنْ كُنْتُمْ فَعِيلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

وهكذا نرى التخفيف في الشر حين يرفض واحد منهم مبدأ  
القتل ، واستبدله بالإخفاء بإلقائه في الجُبِّ .

ولم يحدد الحق سبحانه لنا اسم القاتل حتى يعصمهم جميعاً من  
سوء الظن بهم .

والجُبُّ هو البئر غير المطوى<sup>(٣)</sup> ؛ ونحن نعلم أن الناس حين تحفر  
بئراً ، فمياه البئر تتدفق طوال الوقت ؛ وقد يأتى الردم فيسدُّ البئر ؛  
ولذلك يبنون حول فُوْهَةِ البئر بعضاً من الطوب لحمايته من الرُّدْمِ ؛  
ويسمون مثل هذا البئر « بئر مطوى » ، وهكذا تظل المياه في البئر  
في حالة استطراق .

(١) غيابة الجب : ما غاب من جوائبه عن النظر ويستمر ما اختبأ فيه . قال تعالى : ﴿ وَالْقَوْهَ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ .. ﴾ [يوسف] وقرئ غيابات بالجمع . [ القاموس القويم ٦٥/٢ ] وغيابة كل شيء : قعره . ووقعوا في غيابة من الأرض . أى . في منهبط منها . [ لسان العرب - مادة : غيب ] .

(٢) السيار : الكثير السير والسيارة الجماعة السائرة المسافرة . قال تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَافِرَةٌ .. ﴾ [يوسف] ، وقوله : ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ .. ﴾ [المائدة] أى . للمسافرين . [ القاموس القويم ٣٤٠/١ ]

(٣) الطوى . البئر المطوية بالحجارة . يقال : طوى الركية طياً : عرشها بالحجارة والأجر . [ لسان العرب - مادة : طوى ] .

وكلمة : ﴿ غِيَابَةُ الْجُبِّ (١٠) ﴾ [يوسف]

أى : المنطقة المَخْفِيَة فى البئر ؛ وعادة ما تكون فوق الماء ؛ وما فيها يكون غائباً عن العيون .

ولسائل أن يقول : وكيف يتأتى إلقاؤه فى مكان مَخْفِيٍّ مع قول أحد الإخوة : ﴿ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ (١٠) ﴾ [يوسف]

ونقول : إن فى مثل هذا القول تنزيلاً لدرجة الشر التى كانت مُتَوَقَّدة فى اقتراح بعضهم بقتل يوسف ؛ وفى هذا الاقتراح تخفيض لمسألة القتل أو الطَّرْح أرضاً .

وبعد ذلك عاد القائل<sup>(١)</sup> لحالته العادية ، وصَحَّتْ فيه عاطفة الاخوة ؛ وقال :

﴿ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) ﴾ [يوسف]

أى : أنه توقع عدم رفضهم لاقتراحه .

ومكنا يشرح لنا الحق سبحانه كيف تَمَّتْ تصفية هذه المسألة ؛ فلم يقف صاحب هذا الرأى بالعنف ضد اقتراح إخوته بقتل يوسف أو طَرَحْه فى الأرض ؛ بل أخذ يستدرجهم ليستلَّ منهم ثورة الغضب ؛ فلم يَقُلْ لهم « لا تقتلوه » ، ولكنه قال : « لا تقتلوا يوسف » .

وفى نُطْقِهِ للاسم تحنين لهم .

(١) قال القرطبى فى تفسيره ( ٢٤٥٢/٤ ) : القائل هو يهوذا ، وهو أكبر ولد يعقوب. قاله

ابن عباس . وقيل : روبيل . وهو ابن خالته . وقيل : شمعون .

ويضيف :

﴿وَالْقُوَّةَ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ<sup>(١)</sup> بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١١﴾﴾

[يوسف]

وكأنه يامل في أن يتراجعوا عن مخططهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ

لَنَصِحُونَ ﴿١١﴾﴾

وبعد أن وافقوا أخاهم الذي خفف من مسألة القتل ، ووصل بها إلى مسألة الإلقاء في الجب ؛ بدأوا التنفيذ ، فقال واحد منهم موجهاً الكلام لأبيه ، وفي حضور كل الإخوة :

﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ .. ﴿١١﴾﴾ [يوسف]

وساعة تسمع قول جماعة ؛ فاعلم أن واحداً منهم هو الذي قال ، وأمنَ الباقيون على كلامه ؛ إما سُكوتاً أو بالإشارة .

ولكى يتضح ذلك اقرأ قول الحق سبحانه عن دعاء موسى عليه السلام على فرعون وكان معه هارون .

(١) التلطف الشيء ولطفه : أخذه ليصونه أو لفرض آخر ، ولا يلتقط الإنسان إلا ما يراه نافعا . قال تعالى : ﴿لَا تَلْقَاهُ إِلَّا لِرَعُونَ .. (٨)﴾ [القصص] فآخذه ظناً منهم أنه مفيد نافع لهم . وكذلك قوله ﴿يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ .. (١١)﴾ [يوسف] يأخذه بعض المسافرين لينتفعوا به وليصنونه . [ للقاموس القويم ١٩٨/٢ ] .

قال موسى عليه السلام :

﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ <sup>(١)</sup> عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ <sup>(٢)</sup> عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا  
الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) ﴾ [يونس]

وَرَدَّ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ عَلَى دَعَاءِ مُوسَى :

﴿ قَدْ أَجِيتَ دُعَوْتَكُمْ .. (٨٩) ﴾ [يونس]

والذى دعا هو موسى ، والذى أَمِنَ على الدعوة هو هارون عليه السلام .

وهكذا نفهم أن الذى قال :

﴿ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) ﴾ [يوسف]

تلك الكلمات التى وردت فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، هو واحد من إخوة يوسف ، وأَمِنَ بقية الإخوة على كلامه .

وقولهم : ﴿ مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) ﴾ [يوسف]

يدل أنه كانت هناك محاولات سابقة منهم فى ذلك ، ولم يوافقهم الأب .

(١) طمس الشيء : تغيرت صورته أو انمى أثره . وطمسه غيره : شوهه أو سحاه وأزاله .  
وطمس عينه : أعماه . وقوله تعالى . ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ .. (٨٨) ﴾ [يونس] أى : أزل  
عليها ما يحوها ويهلكها . [ اللقائوس القويم ١/ ٤٠٦ ] .

(٢) شد الحبل : ربطه ربطاً محكماً وشد أسرته : قوى قيده وأحكم وثاقه فلا يفلت منه أبداً ،  
أى أحكم السيطرة عليه . ﴿ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ .. (٦٨) ﴾ [الإنسان] . أى : أحكمنا وثاقهم  
وسيطرنا عليهم . وقوله : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ .. (٤١) ﴾ [ص] أى : قوينا . وقوله : ﴿ وَاشْدُدْ عَلَى  
قُلُوبِهِمْ .. (٨٨) ﴾ [يونس] أى . أحكم القطاء واربطة بقوة على قلوبهم وهو دعاء عليهم .  
[ اللقائوس القويم ١/ ٣٤٤ ] .

وقولهم : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ (١١)

[يوسف]

يعنى أنهم سوف ينتبهون له ، ولن يحدث له ضرر أو شر :  
وسيعطونه كل اهتمام فلا داعى أن يخاف عليه الأب .

ويستمر عَرَض ما جاء على لسان إخوة يوسف :

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ<sup>(١)</sup> وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ

لَحَافِظُونَ ﴾ (١٢)

ولأنهم كانوا يخرجون للرعى والعمل ؛ لذلك كان يجب أن يأتوا  
بعلة ليأذن لهم أبوهم بخروج يوسف معهم ، ويوسف فى أوان  
الطفولة ؛ واللعب بالنسبة له أمر مُحِبٌّ ومسموح به ؛ لأنه ما زال  
تحت سن التكليف ، واللعب هو الشغل المباح لقصد انشراح النفس .

ويُفَضَّلُ الشرع أن يكون اللعب فى مجال قد يطلبه الجدُّ مستقبلاً ؛  
كان يتعلمَ الطفلُ السباحة ، أو المصارعة ، أو إصابة الهدف ؛ وهى  
الرماية<sup>(٢)</sup> وهكذا نفهم معنى اللعب ؛ إنه شُغْل لا يُلْهِى عن واجب ، أما  
اللَّهُو<sup>(٣)</sup> فهو شُغْل يُلْهِى عن واجب .

(١) رَتَعَ يَرْتَعُ : أكل وشرب كما يشاء فى خصب وسعة . وأصله : أكل البهائم ويستعار  
للإنسان إذا أطلق لشهوات بطنه العنان . [ القاموس القويم ٢٥٤/١ ] .

(٢) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « مر النجى ﷺ بنقر يرمون . فقال : رميةً بنى  
إسماعيل فإن أباكم كان رامياً » أخرجه أحمد فى مسلم ( ٣٦٤/١ ) وأخرجه البخارى فى  
صحيحه ( ٢٨٩٩ ) عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه بنحوه .

(٣) لها يلهو لهواً : تسلى وشغل نفسه بما فيه لذتها وسرورها . أو تسلى بما لا يفيد . قال  
تعالى : ﴿ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التَّجَارَةِ ۚ ۝ ﴾ [الجمعة] واللَّهُو هنا : الفناء والتعطيل  
والزمر الذى كان يصاحب عودة التجار وقت الصلاة . [ القاموس القويم ٢٠٥/٢ ] .

وهناك بعضٌ من الألعاب يمارسها الناس ؛ ويجلسون معاً ؛ ثم يؤذّن المؤذن ؛ يأخذهم الحديث ؛ ولا يلتفتون إلى إقامة الصلاة في ميعادها ؛ وهكذا يأخذهم اللهو عن الضرورة ؛ أما لو التفتوا إلى إقامة الصلاة ؛ لصار الأمر مجرد تسلية لا ضرر منها .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ، وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ  
الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ (١٣)

وكلام الأب هنا لا بدُّ أن يغيظهم فهو دليل المحبة الفائقة إلى الدرجة التي يخاف فيها من فراق يوسف لقلة صبره عنه ، وشدة رعايته له ؛ ثم جاء لهم بالحكاية الأخرى ، وهي :

﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ (١٣) [يوسف]

وقال بعض الناس<sup>(١)</sup> : لقد علمهم يعقوب الكذبة ؛ ولولا ذلك ما عرفوا أن يكذبوها .

ونلاحظ أن يعقوب جعل للأخوة لحظاً ؛ فلم يقل : « أخاف أن يأكله الذئب وأنتم قاعدون » بل قال :

﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ (١٣) [يوسف]

(١) قال ابن كثير في تفسيره ( ٤٧٠ / ٢ ) : « أخذوا من فمه هذه الكلمة وجعلوها عندهم فيما فعلوه » . وقد أورد السيوطي في « الدر المنثور » ( ٥١٠ / ٤ ) أثراً في هذا الشأن . فقال : أخرج أبو الشيخ وابن مردويه والسنن في الطبريات عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : « لا تلقوا الناس فيكذبوا ، فإن بني يعقوب لم يعلموا أن الذئب يأكل الناس » . فلما لقنهم أبوهم كذبوا ففعلوا آكله الذئب » .

وهذا لِيُرَبِّيَ فِيهِمْ مَوَاجِيدَ الْإِخْوَةِ الَّتِي تَفْتَرِضُ إِلَّا يَتَصَرَّفُوا مَعَ  
أَخِيهِمْ بِشَرٍّ ؛ وَلَا أَنْ يَتَصَرَّفَ غَيْرُهُمْ مَعَهُ بِشَرٍّ إِلَّا إِذَا غَفَلُوا عَنْ  
أَخِيهِمْ .

ونلاحظ في رُبُّهُمْ عَجَزَهُمْ عَنْ أَنْ يَرُدُّوا عَلَى قَوْلِهِ :

﴿ إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ .. ﴾ (١٣) [يوسف]

فهذا الحب من يعقوب ليوسف هو الذي دفعهم إلى الحقد على  
يوسف ، وَرَدُّوا فَقَطْ عَلَى خَوْفِهِ مِنْ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ، وَجَاءَ الْقُرْآنُ بِمَا  
قَالُوهُ :

﴿ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا  
لَخَسِرُونَ ﴾ (١٤)

وهنا يكشف لنا الحق سبحانه محاولاتهم لطمأنة أبيهم : كَيْ يَأْذَنَ  
فِي خُرُوجِ يَوْسُفَ مَعَهُمْ ؛ وَلِهَذَا اسْتَنَكَرُوا أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَهُمْ  
مُحِيطُونَ بِهِ كَعُصْبَةٍ ، وَأَعْلَنُوا أَنَّهُ إِنْ حَدَثَ ذَلِكَ فَهُمْ سَيَخْسِرُونَ  
كَرَامَتَهُمْ أَمَامَ أَنْفُسِهِمْ وَأَمَامَ قَوْمِهِمْ ، وَهُمْ لَا يَقْبَلُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ هَذَا  
الْهَوَانَ <sup>(١)</sup> .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) قال القرطبي في تفسيره ( ٢٤٦٢/٤ ) : « قَوْلُهُ ﴿ إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ ﴾ [يوسف] أَيْ : إِنَّا  
لَخَاسِرُونَ فِي حِفْظِ أَغْنَامِنَا ، أَيْ : إِذَا كُنَّا لَا نَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ الذِّئْبِ عَنْ أَخِينَا فَهَنَّا أَعْجَزَ أَنْ  
نُدْفِعَهُ عَنْ أَغْنَامِنَا » .



﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِرُءُوسِهِمْ فَنَسُوا مَا فِي الْأَرْخَانِ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَعَنُوا سَبْعَةَ عَشَرَ مِنْهُمْ لَوَافِحُ رَعَسِهِمْ فِي الْوُجُوهِ فَلَمَّا دَهَبُوا بِرُءُوسِهِمْ فَنَسُوا مَا فِي الْأَرْخَانِ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَعَنُوا سَبْعَةَ عَشَرَ مِنْهُمْ لَوَافِحُ رَعَسِهِمْ فِي الْوُجُوهِ فَلَمَّا دَهَبُوا بِرُءُوسِهِمْ فَنَسُوا مَا فِي الْأَرْخَانِ ﴾

وقوله الحق :

﴿ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ .. ﴾ (١٥) [يوسف]

يدلنا على أن تلك المسألة أخذت منهم مناقشة ، فيها أخذ ورد ، إلى أن استقروا عليها<sup>(١)</sup> .

والهم الحق سبحانه يوسف عليه السلام بما سوف يفعلونه ، والوحى كما نعلم هو إلام يخفاء .

وسوف يأتى فى القصة أن يوسف عليه السلام بعد أن تولى الوزارة فى مصر ودخلوا عليه أمسك بقدر ونقر عليه بأصابعه ، وقال لهم : اسمعوا ما يقوله القدح : إنه يقول : إن لكم أخاً وقد فعلتم به كذا وكذا<sup>(٢)</sup> .

(١) جمع أمره : عزم عليه أو لحكمه . قال تعالى : ﴿ قَوْلِي فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴾ (٦٠) [طه] أى : عزم عليه ولحكمه . واجمع القوم على أمر : اتفقوا عليه . واجمع الأمر : عزم عليه ولحكمه . قال تعالى : ﴿ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَفْرِغْهُنَّ أَفْوَاجاً ﴾ (٦١) [طه] وقال تعالى : ﴿ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ .. ﴾ (١٥) [يوسف] أى : اتفقوا . [ القاموس القويم ١ / ١٢٧ ] .

(٢) ذكر القرطبي فى هذا أن يعقوب عليه السلام لما أرسله معهم أخذ عليهم ميثاقاً غليظاً ليحفظونه . وسلمه إلى روبيل وقال : يا روبيل إنه صغير وتعلم يا بنى شفتى عليه ، فإن جاع فاطعمه ، وإن عطش فاسقه ، وإن أعيا فاحمله ، ثم عجل برؤيه إليّ . قال : فآخذوه يحملونه على أكتافهم ، لا يضعه واحد إلا رفعه آخر [ انظر : تفسير القرطبي ٤ / ٢٤٦٢ ] .

(٣) أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما دخل إخوة يوسف على يوسف فمروهم وهم له منكرون . جاء بالصواع فوضعه على يده ، ثم نقره فظن فقال : إني ليخبرنى هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف ، يدين بينكم وأنكم أنطلقتم به فالتقيتموه فى غيابة الجب ، فأتيتكم أباكم فقلت : إن الذئب أكله وجثتم على قميصه بدم كذب . فقال بعضهم لبعض : إن هذا الجام ليخبره خبركم . (أورده السيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٥١١ )

وبعض المفسرين قال : إن الحق سبحانه أوحى له ، ولم يَحْظْ إخوته هذا الوحي .

ونقول : إن الوحي إعلام بخفاء ، ولا يمكن أن يشعر به غير الموحى إليه ، وعلى ذلك نرى أنهم لم يعلموا هذا الأمر إلا بعد أن تولى يوسف مقاليد الوزارة في مصر ؛ بل إنهم لم يعرفوا أن يوسف أخوهم ؛ لأنهم قالوا له لحظتها :

﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ<sup>(١)</sup> أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ .. (٧٧)﴾ [يوسف]

والمقصود بالوحي في هذه الآية - التي نحن بصدد خواتمها عنها - هو إيناس الوحشة ؛ وهو وارد إلهي لا يردده وارد الشيطان ؛ والإلهام وارد بالنسبة لمن هم غير أنبياء ؛ مثلما أوضحنا الأمر الذي حدث مع أم موسى حين أوحى لها الله أن تلقيه في اليم<sup>(٢)</sup> .

(١) يقصدون يوسف عليه السلام. قال سعيد بن جبيرة عن قتادة : كان يوسف عليه السلام قد سرق صنماً لجده أبي أمه فكسره . وقال محمد بن إسحاق عن عبدالله بن أبي نجيح عن مجاهد قال : كان أول ما دخل على يوسف من البلاء - فيما بلغني - أن عمته ابنة إسحاق وكانت أكبر ولد إسحاق وكانت عندها منطقة إسحاق وكانوا يتوارثونها بالكبر وكان من اختباها ممن وليها كان له سلماً لا ينازع فيه يصنع فيه ما يشاء وكان يعقوب حين ولد له يوسف قد حضنته عمة وكان لها به وكف فلم تحب أحداً حبها إياه حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات تأقت إليه نفس يعقوب فأتاها فقال : يا أخية سلمى إليّ يوسف فوالله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة قالت : فوالله ما أنا بتاركته ثم قالت : فدعه عندي أياماً أنظر إليه وأسكن عنه لعل ذلك يسليني عنه أو كما قالت فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى منطقة إسحاق لحزمتها على يوسف من تحت ثيابه ثم قالت : فقدت منطقة إسحاق عليه السلام فانظروا من أخذها ومن أصابها ؟ فالتصمت ثم قالت : اكتشفوا أهل البيت فكتشفوهم فوجدوها مع يوسف فقالت : والله إنه لي لسلم أصنع فيه ما شئت . فأتاها يعقوب فأخبرته الخبر فقال لها : أنت وذلك إن كان فعل ذلك فهو سلم لك ، ما أستطيع غير ذلك . فأمسكته فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت . راجع تفسير ابن كثير ٤٨٦/٢ .

(٢) يقول تعالى : ﴿إِذْ أَرْحَبْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوْحَىٰ (٢٥) أَنَّ الذِّفْفِ فِي الثَّابُوتِ فَأَقْنِفِي لِي الثَّمَّ فَلْيَلْقِ الثَّمَّ بِالسَّاحِلِ .. (٢٦)﴾ [طه] .

والوارد الإلهي لا يجد له معارضة في النفس البشرية ، وقد أوحى الله ليوسف ما يُؤنسُ وحشته<sup>(١)</sup> حين اللقاء إخوته في الجُب الذي ابتعد فيه عن حنان أبيه وأنسه بأخيه ، ومفارقته لبلده التي ترج<sup>(٢)</sup> فيها وأُنسه بالبيئة التي اعتاد عليها .

فكان لا بُدَّ أن تعطيه السماء دليلاً على أن ما حدث له ليس جَفْوَةً لك يا يوسف ؛ لكنه إعداد لك لتقابل أمراً أهم من الذي كنت فيه ؛ وأن غُرَماءك - وهم إخوتك - سوف يُضطَّرون لدق بابك ذات يوم يطلبون عَوْنك ، ويطلبون منك أقواتهم ، وستعرفهم أنت دون أن يعرفوك .

هذا من جهة يوسف ؛ وجهة الجُب الذي ألقوه فيه ، وبقي أن تعالج القصة أمر الإخوة مع الأب ، فيقول الحق سبحانه بعد ذلك :

### ﴿وَجَاءَ آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ ١٦

وهنا تتجلى لنا قدرة أداء القرآن أداءً دقيقاً معبراً عن الانفعالات التي توجد في النفس الإنسانية ، فها هم إخوة خدعوا أباهم ومكروا

(١) ومما ورد في هذا ما نقله القرطبي في تفسيره ( ٣٤٦٥/١ ) : « قال الضحاك : نزل جبريل عليه السلام على يوسف وهو في الجب فقال له : ألا أعطتك كلمات إذا انت قلتهم عجل الله لك خروجك من هذا الجب » فقال : نعم . فقال له : قل يا صانع كل مصنوع . ويا جابر كل كسير ، ويا شاهد كل نجوى ، ويا ماضٍ كل ماضٍ ، ويا مفرج كل كرب ، ويا صاحب كل غريب ، ويا مؤنس كل وحيد . ليتنى بالفرج والرجاء . واقذف رجلك في قلبى حتى لا أرجو أحداً سواك .

فرددتها يوسف في ليلته مراراً ، فأخرجته الله في صبيحة يومه ذلك من الجب .

(٢) يقال للصبي إذا دبَّ وأخذ في الحركة : درج . ودرج الشيخ والصبي يدرج فهو دارج : مشياً مَشْيًا ضعيفاً ودَبَّأً . [ لسان العرب - مادة : درج ] .

بأخيهم ، وأخذوه والقوه فى الجُبِّ مع أنهم يعلمون أن أباه يحبه ، وكان ضنيناً<sup>(١)</sup> أن ياتمنهم عليه ، فكيف يواجهون هذا الأب ؟

هذا هو الانفعال النفسى الذى لا تستطيع فطرة أن تثبته ؛ فقالوا : تؤخر اللقاء لأبيننا إلى العشاء : والعشاء محلُّ الظلمة ، وهو ستر للانفعالات التى توجد على الوجوه من الاضطراب ؛ ومن مناقضة كذب السنتهم : لأنهم لن يخبروا الأب بالواقع الذى حدث ؛ بل بحديث مُخْتَلَق<sup>(٢)</sup> .

وقد تخدعهم حركاتهم ، ويفضحهم تلجلجهم ، وتتكشف سيماهم الكاذبة أمام أبيهم ؛ فقالوا : الليل أخفى للوجه من النهار ، وأستر للفضائح ؛ وحين ندخل على أبينا عشاء ؛ فلن تكشفنا انفعالاتنا .

وبذلك اختاروا الظرف الزمنى الذى يتوارون فيه من أحداثهم :

﴿ وَجَاءُوا آبَاهُمْ عِشَاءً يَتَكُونُ ﴾ (١٦)

[يوسف]

والبكاء انفعال طبيعى غريزى نظرى ؛ ليس للإنسان فيه مجال اختيار ؛ ومنَّ يريد أن يقتله فهو يتباكى ، بأن يَفْرُك عينيه ، أو يأتى ببعض ريقه وَيُقْرِبُهُ من عينيه ، ولا يستتر ذلك إلا أن يكون الضوء

(١) ضننت بالشئ أضن . بخلت به ، وهو ضنين به . ورجل ضنين : بخيل . والضنة والضن : الإمساك والبخل . وقال تعالى . ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ (٢١) [التكوير] فهو لا يكتم غيباً عن رسول الله . بل يبيلغه كل ما أوحاه الله إليه من خبر السماء . [ راجع لسان العرب ، والقاموس القويم ] .

(٢) خلق الكذب والإفك يخلفه وتخلّفه واختلقه واقتراه : ابتدعه . الاختلاق : الكذب . وهو افتعال من الخلق والإبداع كأن الكاتب تخلق قوله . [ لسان العرب - مادة : خلق ]

خافتاً ؛ لذلك جاءوا أباهم عشاءً يُمَتُّون البكاء<sup>(١)</sup> .

والحق سبحانه حينما تكلم عن الخصائص التي أعطاها لذاته ، ولم يُعْطِها لأحد من خلقه ؛ أعلمنا أنه سبحانه هو الذي يميت ويحيى ، وهو الذي يُضْحِك ويُبْكِي .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤)﴾ [النجم]

ولا يوجد فَرْق بين ضحك أو بكاء إنسان إنجليزي وآخر عربي ؛ ولا يوجد فرق بين موت أو ميلاد إنسان صيني وآخر عربي أو فرنسي ؛ فهذه خصائص مشتركة بين كل البشر .

وإذا ما افعل الإنسان الضحك ؛ فهو يتضاحك ؛ وإذا ما افعل الإنسان البكاء فهو يتباكى ؛ أى : يفعل الضحك أو البكاء . والذي يفضح كل ذلك هو النهار .

والتاريخ يحمل لنا الكثير من الحكايات عن اتخاذ الليل كستار للمواقف ؛ والمثل في سيدنا الحسين رضى الله عنه وأرضاه ؛ حين جاءت موقعة كربلاء ، ورأى العدو وقد أحاط به ؛ ورأى الناس وقد انفضوا عنه بعد أن دَعَوْهُ لِيُبايعوه ، ولم يَبْقَ معه إلا قلة ؛ وعَزَّتْ عليه

(١) قال القرطبي في تفسيره ( ٢٤٦٦/١ ) : « قال علماؤنا : هذه الآية دليل على أن بكاء

المرء لا يدل على صدق مقاله ، لاحتمال أن يكون تصنعاً ، فمن الخلق من يقدر على ذلك ،

ومنهم من لا يقدر . وقد قيل : إن الدمع المصنوع لا يخفى . كما قال حكيم :

إذا اشتبك دموع في خدود تبين من بكى ممن تباكى » .

نفسه ؛ وعَزَّ عليه أن يقتل هؤلاء في معركة غير متكافئة صمم هو على دخولها .

فلما أقبل الليل دعا أصحابه وقال لهم :

« إن كنتم قد استحييتم أن تفروا عني نهاراً ، فالليل جاء وقد ستركم ، فمن شاء فليذهب واتركوني » <sup>(١)</sup> .

يقص الحق سبحانه ما بدر منهم فورَ أن دخلوا على أبيهم :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا أَأَنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا

صَادِقِينَ ﴿١٧﴾

كلمة : ﴿ نَسْتَبِقُ .. ﴾ (١٧) [يوسف]

تعبر عن بيان تفوق ذات على ذات في حركة ما ؛ لنرى من

(١) ذكر ابن كثير في كتابه ( البداية والنهاية ١٧٨/٨ ) أن الحسين بن علي رضي الله عنه قال لأصحابه : « من أحب أن ينصرف إلى أهله في ليلته هذه فقد أذنت له فإن القوم إنما يريدونني ، هذا الليل قد شهيكم فاتخذوه حجلاً ، ليأخذ كل منكم بيد رجل من أهل بيتي ثم اذهبوا في بساط الأرض في سواد هذا الليل إلى بلادكم ومساكنكم فإن القوم إنما يريدونني ، فلو قد أصابوني لهُواً عن طلب غيري ، فانهبوا حتى يفرج الله عز وجل » .

(٢) استبقا : تباريا ليسبق كل منهما الآخر . واستبقا الشيء : تباريا في الجري نحوه للوصول إليه . ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ .. ﴾ (١٧) [يوسف] أي : نتبارى في الجري والسبق . ﴿ وَاسْتَقْبَا الْآبَاءَ .. ﴾ (٢٥) [يوسف] حاول كل منهما أن يصل إليه قبل الآخر . ويقول تعالى : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ .. ﴾ (البقرة) تباروا في الوصول إليها أو فعلها قبل غيركم . [ القاموس اللويزم ٣٠٢/١ ] .

سيسبق الآخر ؛ فحين يتسابق اثنان فى الجرى ترى مَنْ فىهما سبق الآخر ؛ وهذا هو الاستباق .

وقد يكون الاستباق فى حركة بالكة ؛ كان يمسك إنسان ببندقية ويُصوِّبها إلى الهدف ؛ ويأتى آخر ويمسك ببندقية أخرى ويحاول أن يصيب الهدف ؛ وَمَنْ يسبق منهما فى إصابة الهدف يكون هو المتفوق فى هذا المجال .

وقد يكون الاستباق فى الرمى بالسهم ؛ ونحن نعرف شكل السهم ؛ فهو عبارة عن غُصْنٍ مَرْنٍ ، يلتوى دون أن ينكسر ؛ ومُثَبَّتٌ عليه وتر ، ويوضع السهم فى منتصف الوتر ، ليشده الرامى فينتطلق السهم إلى الهدف .

وتُقَاسُ دقة إصابة الهدف حسب شدة السهم وقوة الرمى ، ويسمى ذلك «تحديد الهدف» .

أما إذا كان التسابق من ناحية طول المسافة التى يقطعها السهم ؛ فهذا لقياس قوة الرامى .

وهكذا نجد الاستباق له مجالات متعددة ؛ وكل ذلك حلال ؛ فهم أسباط وأولاد يعقوب ، ولا مانع أن يلعب الإنسان لعبة لا تُلهيه عن واجبه ؛ وقد تنفعه فيما يجد من أمور ؛ فإذا التقى بعدو نفعه التدريب على استخدام السهم أو الرمح أو أداة قتال ؛ واللعب<sup>(١)</sup> الذى لا يَنْهَى عن طاعة ، وينفع وقت الجد هو لعب حلال .

(١) اللعب قد يكون محموداً إذا لم يتعارض مع القيم الفاضلة ، أما إذا كان اللعب قد يلهى الإنسان عن الواجبات فهو مذموم ، والله لا يكون إلا مذكوماً .

وهناك ألعاب قد لا يدرك الناس لها غاية مثل كرة القدم .

وأقول : قد يوجد عدوان : وبينهما قبلة موقوتة : ويحاول كل طرف أن يبعدها عن موقعه ، والقوة والحكمة تظهر في محاولة كل فريق في إبعاد الكرة عن مرماه .

ولكن لا بد ألا يُلهى لعب الكرة عن واجب : فمثلاً حين يؤذن المؤذن للصلاة ، الواجب علينا ألا نهمل الصلاة ونواصل اللعب ، وعلى اللاعبين أن يُراعوا عدم ارتداء ملابس تكشف عن عوراتهم .

وابناء يعقوب قالوا :

﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا <sup>(١١)</sup> .. ﴾ [يوسف]

وفي هذا إخلال بشروط التعاقد مع الاب الذي أُذن بخروج يوسف بعد أن قالوا :

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبُ .. ﴾ [يوسف]

وقالوا :

﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ [يوسف]

وقالوا :

﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [يوسف]

فهل أخذتموه معكم ليرتع ويلعب ، ويأكل من ثمار الأشجار والفاكهة : وتحفظونه ، أم ليحفظ لكم متاعكم وأنتم تستبقون .

(١) المتاع : يطلق على الكثير والقليل باعتباره مصدراً ويجمع على أمتعة باعتبار ما ينتفع به وما يتمتع به . قال تعالى : ﴿ أَبْطَأْ حَتَّىٰ أَوْمِتَ <sup>(١٧)</sup> .. ﴾ [الرعد] أي : وصنع أشياء ينتفع بها . وقال تعالى : ﴿ وَذَٰلِذَٰلِكَ كَفَرُوا لَوْ تَفْقَهُونَ <sup>(١٨)</sup> عَنْ أَبِيهِكُمْ وَأُنْجِبَكُمْ .. ﴾ [النساء] جمع متاع بمعنى أشياء ينتفع بها من طعام وأبنات للحرب ومال ونحو ذلك . [ القاموس القويم ٢١٥/٢ ] .



وهذا أول الكذب الذي كذبوه ؛ وهذه أول مخالفة لشرط إذن والده له بالخروج معكم ؛ ولأن «المريب يكاد يقول خذوني ، نجدهم قد قالوا :

﴿ فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ (١٧) [يوسف]

أو : أنهم قالوا ذلك لأنهم يعلمون أن والدهم لن يُصدِّقهم مهما قالوا . ونعلم أن « آمن » إما أن تتعدى إلى المفعول بنفسها مثل « آمنه الله من الجوع » ، أو قوله الحق :

﴿ وَأَمْنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ (٤) [فريش]

أو : تجيء بالباء ، ويقال « آمن به » أى : صدَّق واعتقد .

أو : يقال « آمن له » أى : صدَّقه فيما يقول .

وهم هنا يتهمون أباهم أنه مُتَّحِدٌ لهم ، حتى ولو كانوا صادقين ، وهم يعلمون أنهم غير صادقين ؛ ولكن جاءوا بكلمة الصدق ليداروا كذبتهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَجَاءَ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ  
أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ

عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

(١) القميص . ما يحيط بالبدن وقد يُسمَّى شعاراً وما فوقه دثار . وقد يُسمَّى كل ثوب قميصاً . والجمع القمص وقمصان . [ القاموس القويم ١٢٣/٢ ] .

(٢) « قال مجاهد : كان دم سخلة أو جدى ذبحوه . وقال قتادة : كان دم غلبة » أى : جاءوا على قميصه بدم مكذوب فيه . وقرأ الحسن وعائشة : « بدم كذب » بالدال غير المعجمة ، أى : بدم طرى . وحكى أنه المتغير . قاله الشعبي ، ( تفسير القرطبي ٣٤٧١/٤ ) .

(٣) سولت نفسه له أمراً . زينته له ليفعله . وسول له الشيطان : اغواه . والتسويل : تحسين الشيء وتزيينه وتحبيبه إلى الإنسان ليفعله أو يقوله . [ لسان العرب - مادة : سول ] .

كان قميص يوسف كان معهم . ويُقال : إن يعقوب علق على مجيء القميص وعليه الدم الكذب بأن الذئب كان رحيماً ، فاكل لحم يوسف ولم يُمزق قميصه ؛ وكأنه قد عرف أن هناك مؤامرة سيكشفها الله له <sup>(١)</sup> .

ويصف بعض العلماء قصة يوسف بقصة القميص :

فهنا جاء إخوته بقميصه وعليه دم كذب .

وفى أواسط السورة <sup>(٢)</sup> تأتي مسألة قميص يوسف إن كان قد شق من دُبُر لحظة أن جذبته امرأة العزيز لتراوده <sup>(٣)</sup> عن نفسه .

وفى آخر السورة <sup>(٤)</sup> يرسل إخوته بقميصه إلى والده فيرتد بصره .

ولهذا أخذ العلماء والادباء كلمة القميص كرمز لبعض الأشياء ؛ والمثل هو قول الناس عن الحرب بين على رضى الله عنه ومعاوية

(١) نقل القرطبي فى تفسيره ( ٢٤٧١/٤ ) ، أن يعقوب عليه السلام لما تأمل القميص فلم يجد فيه خرقاً ولا أثراً استدل بذلك على كذبهم . وقال لهم : متى كان هذا الذئب حكيماً ياكل يوسف ولا يخرق القميص . قاله ابن عباس وغيره .

(٢) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ هِيَ رَأَوْفَتِي عَنْ نَفْسِي رَهْطاً شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ فَدَمٌ مِّنْ قَبْلِ لَمَسْتَنَّتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ فَدَمٌ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٢٧) [يوسف] .

(٣) راوده على الشيء : مراودة : طلبه منه بجهد وحيلة ومساومة . وقوله تعالى : ﴿ وَرَأَوْتَهُ الْبَرِّ هُوَ لِي بِهَا مِّنْ نَّفْسٍ .. ﴾ (٢٦) [يوسف] أى : طلبت منه نفسه فى محاولة ومخادعة ، [ القاموس القويم ٢٨١/١ بتصرف ] .

(٤) وذلك فى قوله تعالى عن يوسف عليه السلام أنه قال لإخوته : ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَعِيرًا .. ﴾ (٢٧) [يوسف] .

رضى الله عنه أن معاوية أمسك بقميص عثمان بن عفان طلباً للثأر من على ، فقيل «قميص عثمان» رمزاً لإخفاء الهدف عن العيون ، وكان هدف معاوية أن يحكم بدلاً من على بن أبي طالب رضى الله عنهم أجمعين .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾<sup>(١)</sup> .. (٦٨)

[يوسف]

وكان القميص كان معهم ، ووضعوا عليه دماً مكذوباً ، لأن الدم لا يكذب ، إنما كذب مَنْ جاء بدم الشاة ووضعه على القميص .

وشاء الحق سبحانه هنا أن يُعطى الوصف المصدري للعبادة ؛ وكأن الدم نفسه هو الذى كذب ؛ مثلما تقول « فلان عادل » ويمكنك أن تصف إنساناً بقولك « فلان عدل » أى : كان العدل تجسّد فيه ، أو قد تقول « فلان ذو شر » ، فيرد عليك آخر « بل هو الشر بعينه » ، وهذه مبالغة فى الحدث .

وهل كان يمكن أن يُوصَفَ الدم بأنه دم صادق ؟

نقول : نعم ، لو كان الذئب قد أكل يوسف بالفعل ؛ وتلوّث قميص يوسف بدم يوسف وتمزق . ولكن ذلك لم يحدث ، بل إن الكذب يكاد يصرخ فى تلك الواقعة ويقول « أنا كذب » .

فلو كان قد أكله الذئب فعلاً ؛ كان الدم قد نشع من داخل القميص لخارجه ؛ ولكنهم جاءوا بدم الشاة ولطخوا به القميص من الخارج .

(١) هذا أسلوب الإعجاز البلاغى . وفيه إشارة إلى قضية ملفقة .

وباشه ، لو أن الذئب قد أكله فعلاً ، ألم تكن أنيابه قد مزقت القميص ؟

وحين انكشف أمرهم أمام أبيهم : أشار أحدهم خفية للباقيين وقال لهم همساً : قولوا لأبيكم : إن اللصوص قد خرجوا عليه وقتلوه ؛ فسمع يعقوب الهمس فقال : اللصوص أحوَجُ لقميصه من دمه<sup>(١)</sup> ؛ وهذا ما تقوله كتب السير.

وهذا ما يؤكد فراسة يعقوب ، هذه الفراسة<sup>(٢)</sup> التي يتحلى بها أي محقق في قضية قتل ؛ حين يُقَلَّبُ أسئلته للمتهم وللشهود ؛ لأن المحقق يعلم أن الكاذب لن يستوحى أقواله من واقع ؛ بل يستوحى أقواله من خيال مضطرب .

ولذلك يقال : « إن كنت كذوباً فكُنْ ذَكُوراً »<sup>(٣)</sup> .

ويأتى هنا الحق سبحانه بما جاء على لسان يعقوب :

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (٦٨) ﴾

[يوسف]

« والسَّوَّلُ » : هو الاسترخاء ؛ لأن الإنسان حين تكون أعصابه

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (٣٤٧٢/٤) محاولات أبناء يعقوب تبرير ما حدث وانكشف أمرهم أمام أبيهم لفراسته فقال : « روى أنهم قالوا له : بل اللصوص قتلوه ، فاختلف قولهم ، فاتهمهم . فقال لهم يعقوب : تزعمون أن الذئب أكله ، ولو أكله لشق قميصه قبل أن يفضي إلى جلده ، وما أرى بالقميص من شق . وتزعمون أن اللصوص قتلوه ، ولو قتلوه لأخذوا قميصه ، هل يريدون إلا ثيابه ؟ » .

(٢) الفراسة : في النظر والتثبت والتأمل للشيء والبصر به ولهما معنيان فالهما ابن الأثير أحدهما : ما يوقعه الله تعالى في قلوب أوليائه فيطلعون أحوال بعض الناس بنوع من الكرامات وإصابة الظن والحدس .

الثاني : نوع يتعلم بالدلائل والتجارب والخلق والخلق . فتعرف به أحوال الناس . . نقله ابن منظور في [ لسان العرب - مادة : فرس ] .

(٣) الذكر : الحفظ للشيء تذكيره . ورجل ذكيرٌ : جيد الذكر والحفظ . والذكر والذكرى : نقيض النسيان . والتذكر : تذكر ما أنسيته . [ لسان العرب - مادة : ذكر ] .

مشدودة ؛ ثم يحب أن يسترخى ، فيستريح قليلاً ، وبعد ذلك يجد في نفسه شيئاً من اليُسْر في بدنه ونبضه .

ونأخذ ﴿ سَوَّلَتْ .. (١٨) ﴾ [يوسف]

هنا بمعنى يَسَّرَتْ وسهَّلَتْ ، وما دامت قد سَوَّلَتْ لكم أنفسكم هذا الامر فسوف أستقبله بما يليق بهذا الوضع ، وهو الصبر .

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ .. (١٨) ﴾ [يوسف]

والذين يحاولون اصطیاد خطأ في القرآن يقولون « وهل يمكن أن يكون الصبر جميلاً ؟ » .

نقول : هم لا يعرفون أن الصبر يُقال فيه « اصبر عن كذا » إذا كان الامر عن شهوة قد تُورث إيلاًماً ؛ كان يُقال « اصبر عن الخمر » أو « اصبر عن الميسر » أو « اصبر عن الربا » .

ويُقال « اصبر على كذا » إذا كان الصبر فيه إيلاًماً لك . والصبر يكون جميلاً حينما لا تكون فيه شكوى أو جزع .

والحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ :

﴿ وَاهْجُرْهُمْ <sup>(١)</sup> هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) ﴾ [المزمل]

وهؤلاء الذين يبحثون عن تناقض أو تضارب في القرآن إنما هم قوم لا يعرفون كيفية استقباله وفهمه ؛ وقد بسَّين لنا يعقوب عليه السلام أن الصبر الجميل هو الصبر الذي لا شكوى فيه ، وهو القائل :

﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ .. (٨٦) ﴾ [يوسف]

(١) هجره يهجره هجراً وهجراناً . تركه مع سخط ونفور . قال تعالى : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) ﴾ [المدثر] أى اترك الرجز كله نافراً منه كارهاً له ، وهذا الامر بالنسبة للرسول ﷺ معناه . اثبت على هجره لانه لم يفعل رجراً . وقوله تعالى : ﴿ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) ﴾ [المزمل] أى . اتركهم وابتعد عنهم في سماحة بغير إيذاء . [ القاموس القويم ٢٩٨/٢ ] .

وهكذا نعلم أن هناك فارقاً بين الشكوى للرب : وشكوى من قدر الرب .

ولذلك يقول يعقوب عليه السلام هنا :

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ <sup>(١)</sup> .. (١٨) ﴾ [يوسف]

ويتبعها :

﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٨) ﴾ [يوسف]

كان الصبر الجميل أمر شاق على النفس البشرية ، ولم يكن يقوب قادراً على أن يُصدق ما قاله أبناؤه له : فكيف يُصدق الكذب ؟ كيف يمكن أن يواجه أبناءه بما حدث منهم ؟ وهم أيضاً أبناؤه : لكنه كان غير قادر على أن يكشف لهم كذبهم .

والمثل لذلك ما جاء في التراث العربي حين قيلَ لرجل : إن ابنك قد قتل أخاك ، فقال :

أقولُ لنفسي تأساء وتعزيةً      إحدى يدي أصابتنِي ولم تُردِ  
كلامُما خلفَ عَنْ فَقْدِ صاحِبِهِ      هذا أخى حين أدعوه ودّاً ولدي  
ومثل هذه المواقف تكون صعبة وتتطلب الشفقة : لأن مَنْ يمر بها  
يحتار بين أمر يتطلب القسوة وموقف يتطلب الرحمة : وكيف يجمع  
إنسان بين الأمرين ؟

إنها مسألة تعزُّ على خَلْق الله : ولا بد أن يفزع فيها الإنسان إلى الله : ولذلك علمنا ﷺ أنه إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة <sup>(٢)</sup> : وحزبه أمر

(١) الصبر الجميل هو الصبر مع الرضى ، والتقويض لمن بيده الأمر : من مفهوم خواطر الإمام.

(٢) عن حذيفة قال : « كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلى ، أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٨٨/٥) وأبو داود في سننه (١٢١٩) . »

ما يعنى : أن مواجهة هذا الامر تفوق أسباب الإنسان ؛ فيلجأ إلى  
المُسَبِّب الأعلى ؛ ولذلك قال يعقوب عليه السلام :

﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (١٨) [يوسف]

وقوله : « تصفون » يعنى : أنكم لا تقولون الحقيقة ، بل تصفون  
شيئاً لا يصادف الواقع ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ <sup>(١)</sup> أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ .. ﴾  
(١٦٦) [النحل]

أى : أن ألسنتكم نفسها تصِفُ الكلام أنه كذب .  
والحق سبحانه يقول :

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (١٨٠) [الصافات]

وتعنى أن هؤلاء الذين قالوا ما قيل عنه أنه وصف قد كذبوا فيما  
قالوا ؛ وكان مصير كذبهم مفضوحاً .

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ <sup>(٢)</sup> وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (١٨) [يوسف]

وهكذا عبّر يعقوب عليه السلام عن نفسه ؛ فالجوارح قد تكون  
ساكنة ؛ لكن القلب قد يزدحم بالهموم ويفتقد السكون ؛ لذلك لا بد  
من الاستعانة بالله .

(١) وصف الامر ؛ ذكره وعرفه وتحدث به . قال تعالى : ﴿ تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ .. ﴾ (١٦٦) [النحل] أى . تذكره وتقول . وقال تعالى . ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (١٨٠) [الأنعام] أى : من الوصف الذى يصفونه به مما لا يليق بكماله كوجود شريك له أو ابن أو غير ذلك . وقال تعالى : ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ .. ﴾ (١٢٩) [الأنعام] . أى : جزاء وصفهم وعقاب . [القاموس القويم ٢٣٩/٢] .

(٢) الجمال ؛ البهاء والحسن يوصف به الحسى والمعنوى . قال تعالى . ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ .. ﴾ (١٨) [يوسف] وهو جمال معنوى . وقوله : ﴿ لَمُصْفِحِ الصَّفْحِ الْجَمِيلِ ﴾ (٨٥) [الحجر] الذى لا لوم معه ولا عتاب . والسراح الجميل ؛ الطلاق المصحوب بالإحسان إلى المطلقة ومنحها حقوقها كاملة ويغير إيداء . وقوله : ﴿ وَأَعْجَزُ مِنْهُمْ فَعِزًّا جَمِيلًا ﴾ (٤٦) [المزمل] لا إيداء فيه بقول أو عمل . [القاموس القويم ١٢٨/١] .

وقد علمنا الحق سبحانه أن نقول في فاتحة الكتاب :

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٥) [الفاتحة]

فأنت تقف لعبادة الله وبين يديه ؛ لكن الدنيا قد تشغلك عن العبادة أثناء أداء العبادة نفسها ؛ لذلك تستعين بخالقك لتخلص في عبادتك .

وبعد أن عرض الحق سبحانه لموقف الأب مع أولاده ، نأتى لموقف يوسف عليه السلام في الجُبِّ .

يقول سبحانه :

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴿١٩﴾﴾ بِمَا يَصْمَلُونَ

(١) السيارة : الجماعة المائرة المسافرين . قال تعالى : ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ (١٩)﴾ [يوسف] أى جماعة مسافرة . وقوله تعالى : ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلْآيَةِ (٢٠)﴾ [المائدة] للمسافرين . [ القاموس القويم ١/ ٣٤٠ ] .

(٢) وردت الماء إذا حضرته لقترب . والورد : الماء الذى ترد عليه . والواردة . وراد الماء . والورد . الوراد وهم الذين يردون الماء . [ لسان العرب - مادة ورد ] . ورد الماء قصده وبلغه ووصل إليه .

(٣) الدلو : الوعاء الذى يخرج الماء من البئر ونحوه . قال تعالى : ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ (٢٠)﴾ [يوسف] أى أنزله فى البئر ليخرج منه ماء . [ القاموس القويم ١/ ٢٣١ ] .

(٤) قال القرطبي فى تفسيره (٣٤٧٥/٤) : « فى معناه قولان : أحدهما : اسم الغلام .

الثانى : يا أيتهما البشرى هذا حينك وأوانك . قال قتادة : بشر أصحابه بأنه وجد عبداً . قال السدى : نادى رجلاً اسمه بشرى . قال النحاس : قول قتادة أولى . لأنه لم يأت فى القرآن تسمية أحد إلا يسيراً . قال القرطبي : وهذا أصح لأنه لو كان اسماً لعلماً لم يكن مضافاً إلى ضمير المتكلم » .

(٥) أسررت الامر والحديث : أخفيته . وأسر إليه الحديث . لقاه إليه سرّاً ولم يُطلع عليه أحداً معه . وقوله : ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ (٢١)﴾ [يونس] أخفوها فى صدورهم وفى سرائيرهم . وقوله فى قصة يوسف : ﴿وَأَسْرَوْهُ بِضَاعَةً (٢٢)﴾ [يوسف] أخفوه . وقوله : ﴿يَسْرُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ (٢٣)﴾ [المتحة] أى . يسرون إليهم أنباء المسلمين وأحوالهم بسبب المودة بينكم ، وهو تبيكيت وتوبيخ لمن يفعل ذلك ، أو تخفون المودة لهم ، أى : تجعلون مودتكم لهم سرّاً ، وتخفونها عن المسلمين ظاهراً وخداً . [ القاموس القويم ١/ ٣١٠ ] .



ولم يقل الحق سبحانه من أين جاء السيارة ؟ أو إلى أين كانوا  
ذاهبين ؟

والمقصود بالسيارة هم القوم المحترفون للسيير ، مثل مَنْ  
كانوا يرحلون في رحلة الشتاء والصيف ؛ بهدف التجارة وجلب  
البضائع .

وكانت السيارة لا تنتقل بكامل أفرادها إلى البئر . بل يذهب واحد  
منهم إلى البئر ؛ ليأتى لهم بالمياه ويُسمى الوارد ، وذهب هذا الوارد  
إلى البئر ليُحضِر لبقية السيارة الماء وألقى نكّوه في البئر ؛ ويسمى  
حبل الدلو الرشاء .

وحين نزل الدلو إلى مستوى يوسف عليه السلام تعلق يوسف  
في الحبل ؛ فأحسّ الوارد بثقل ما حمله الرشاء ؛ ونظر إلى أسفل ؛  
فوجد غلاماً يتعلق بالدلو فنادى :

﴿ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ .. ﴾ (١٩)

[يوسف]

أى : أنه يقول يا بشرى هذا أوانك ؛ وكأنه يبشر قومه بشيء  
طيب ؛ فلم يحمل الدلو ماء فقط ، بل حمل غلاماً أيضاً .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَسْرَوْهُ بِضَاعَةً .. ﴾ (٢٠)

[يوسف]

أى : أنهم أخفوه وعاملوه كأنه بضاعة ، ولم يتركوه يمشى بجانبهم؛

خشية أن يكون عبداً أبقاً<sup>(١)</sup> ويبحث عنه سيده ؛ وهم يريدون بيعه .

ويذيل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ .. ﴾ (١٩) [يوسف]

وهذا قول يعود على مَنْ أسروه بضاعة ؛ وهم الذين عرضوه للبيع .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا

فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ (٢٠)

ونعلم أنهم لم يشتروه بل عشروا عليه ؛ ونعلم أن كلمة شراء تدل على البيع أيضاً ، أى : أنهم باعوه بثمن بخس ؛ أى : بثمن زهيد ، وكانت العبيد أيامها مُقَوِّمة بالنقود .

والبخس أى : النقص ، وهو إما فى الكَمِّ أو فى الكَيْف ؛ فهو يساوى مثلاً مائة درهم وهم باعوه بعشرين درهماً فقط ؛ وكان العبد فى عمر يوسف يُقَوِّم بالنقد ؛ وهم باعوه بالبُخْس ، وبثمن أقل قيمة إما كَمّاً وإما كَيْفاً .

(١) أبق يابق : هرب من ماله ، قال تعالى : ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ (١١) [الصافات] جعل ترك يونس عليه السلام قومه إباقاً لأنه مملوك لله وللرسالة التى كلفه الله أن يقوم بها . [ القاموس القويم : ٤/١ ] .

(٢) بخسه حقه بخساً : نقصه حقه ولم يؤفقه ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ (٨٥) [الأعراف] . والبُخْسُ : البخس : القليل الناقص عن مثله . ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ .. ﴾ (٢٠) [يوسف] وقوله : ﴿ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ (٣٢) [الجن] أى : لا يخاف نقصاً ولا ظملاً . [ القاموس القويم : ٥٦/١ ] .

ثم أراد الحق سبحانه أن يوضح الأمر أكثر فقال :

﴿ دَرَاهِمٌ مَعْدُودَةٌ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ (٢٠) [يوسف]

والزهد هنا هو حيثية الثمن البَخْس : فهم قد خافوا أن يبحث عنه أبوه أو صاحبه : وكانهم قالوا لأنفسهم : أى شىء يأتى من وراءه فهو فائدة لنا<sup>(١)</sup> .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَا مِرَّأَتِي بِأَكْرَمَى  
مَثُونَةٍ بَعْدِي أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ مَوْلًى وَكَذَلِكَ  
مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ  
الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ  
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢١)

(١) قال القرطبي في تفسيره (٢٤٧٩/٤) . قوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ (٢٠) [يوسف] قيل : المراد إخوته . وقيل : السيارة وقيل : الواردة . وعلى أى تقدير فلم يكن عندهم غبطاً أى : أن يوسف لم يكن مصدر سرور لأحد منهم . لا عند الإخوة ، لأن المقصد زواله عن أبيه لا ماله . ولا عند السيارة لقول الإخوة إنه عبد أبى منا . والزهد هنا الرغبة . ولا عند الواردة لأنهم خافوا اشتراك أصحابهم معهم . ودلوا أن القليل من ثمنه فى الانفراد أولى .

(٢) ثوى المكان . وثوى به يشوى . حله وأقام فيه واستقر به . فهو متعدد ولازم واستعمل القرآن اللازم . فقال : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَأْوِيهِ لِي أَهْلَ مَثْنٍ ﴾ (٢٥) [القصص] أى : مقيماً عندهم . والمشوى : اسم مكان أو مصدر ميمي . قال تعالى : ﴿ أَكْرَمَى مَقْوَاهُ ﴾ (٢٦) [يوسف] أى : إقامته . أى : أكرمى يوسف وعبر باسم المكان عن الحال فيه مجازاً مرسلأ علاقته المحلية . [القاموس القويم ١١٢/١] .

وكان للشراء علة : فهو قد اشتراه لامراته ليقوم بخدمتها ، وكانت لا تنجب وتكثر في الإلحاح عليه في طلب العلاج ، وتقول أغلب السير : إن من اشتراه كان ضعيفاً من ناحية رغبته في النساء .

وهذه اللقطة تبين لنا الفساد الذي ينشأ في البيوت التي تتبنى طفلاً ، لكنهم لا يحسبون حساب المسألة حين يبلغ هذا الطفل مبلغ الرجال ، وقد تعود أن تحمله ربة البيت وتقبله ، وتغدق عليه من التدليل ما يصعب عليها أن تمتنع عنه ؛ ولأن الطفل يكبر انسياقاً ؛ فقد يقع المحذور ويدخل في متاهة الخطيئة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ ۝ (٢١) ﴾ [يوسف]

وهذا يعنى أن تعتنى بالمسكان الذى سيقم فيه ، وبطبيعة الحال فهذا القول يقتضى أن تعتنى بالولد نفسه ؛ على رجاء أن ينتفع به الرجل وزوجته .

ولسائل أن يقول : كيف ينتفع به الرجل ؛ وهو عزيز مصر ، والكُلُّ في خدمته ؟

ونقول : إن النفع المقصود هنا هو النفع الموصول بعاطفة من ينفع ؛ وهو غير نفع الموظفين العاملين تحت قيادة وإمرة عزيز مصر ، فعندما ينشأ يوسف كابن للرجل وزوجه ؛ وإنسان تربى في بيت الرجل ؛ هنا ستختلف المسألة ، ويكون النفع مُحَمَّلاً بالعاطفة التي قال عنها الرجل :

[يوسف]

﴿ أَوْ نَتَّخِذْهُ وَلَدًا .. (٢١) ﴾

وقد علمنا من السِّيرِ أنهما لم يُرزقا بأولاد<sup>(١)</sup> .

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية :

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) ﴾ [يوسف]

وقد بدأ التمكين في الأرض من لحظة دخوله إلى بيت عزيز مصر ليحيا حياة طيبة ؛ وليعلمه الله تأويل الحديث ؛ بأن يهبه القدرة على تفسير الرؤى والأحلام ؛ وليقلب الله على أمره .

ولو نظر إخوته إلى ما آل إليه يوسف عليه السلام فسيعرفون أن مرادهم قد خاب ؛ وأن مراد الله قد غلب ؛ بإكرام يوسف ؛ وهم لو علموا ذلك لَضُتُّوا عليه بالإلقاء في الجُبِّ ، وهذا شأن الظالمين جميعاً .  
ولذلك نقول : إن الظالم لو عَلمَ ما أعدَّه الله للمظلوم لَضَنَّ عليه بالظلم .

وساعة يقول الحق سبحانه :

[يوسف]

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ .. (٢١) ﴾

فهذا قول نافذ ؛ لأنه وحده القادر على أن يقول للنَّشيء كُنْ فيكون ؛ ولا يوجد إله غيره ليرد على مراده .

(١) . قال ابن عباس . كان حصوراً لا يُولد له . وكذا قال ابن إسحاق : كان قسطين لا يأتي النساء ولا يُولد له . فإِنْ قيل . كيف قال ( أَوْ نَتَّخِذْهُ وَلَدًا ) وهو ملكه . والولدية مع العبدية تتناقض ؟ قيل له : يعتقه ثم يتخذ ولداً بالتبني . وكان النبي في الأمم معلوماً عندهم . وكذلك كان في أول الإسلام . ذكره القرطبي في تفسيره (٢٤٨٢/٤) .

ولذلك قلنا قديماً : إن الله سبحانه وتعالى قد شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو<sup>(١)</sup> : وهو يملك الرصيد المطلق المؤكد بأنه لا إله غيره : فهو وحده الذى له المُلْك ، وهو وحده القادر على كل شيء .

ولكن خيبة بعض من الخلق الذين يتوهمون أنهم قادرون على أن يخطئوا ويمكروا : متفاسين أو ناسين أن فوقهم قُيُوم<sup>(٢)</sup> : لا تأخذه سنة<sup>(٣)</sup> ولا نوم ، ولو انتبه هؤلاء لَعَلِمُوا أن الله يُمَلِّك بحق مَنْ يُظلم فوق الذى ظلمه .

ورأينا فى حياتنا وتاريخنا ظالمين اجتمعوا على ظُلم الناس : وكان مصيرهم أسوأ من الخيال : وأشدَّ هولاً من مصيرهم لو تحكم فيهم مَنْ ظلموهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ

يَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٢)

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَكُ وَالْعِلْمُ قَائِمًا بِأَلْفِ سِتٍّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْغَرِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٥) [آل عمران] .

(٢) القيوم والقيام فى صفة الله تعالى وأسمائه الحسنَى القائم بتبوير أمر خلقه فى إنشائهم ورزقهم وعلمه بامكتنهم . وقال قتادة : القيوم القائم على خلقه بأجلهم وأعمالهم وأرزاقهم . [لسان العرب - مادة : قوم] .

(٣) وسنَّ يُوَسِّنُ سنة - نام نومة خفيفة ، السنَّة - لفظة - قال تعالى : ﴿لَا تَأْخُذُ سِنَةً وَلَا نَوْمَ﴾ (٢٤) [البقرة] أى . لا تأخذه نومة خفيفة ولا أى نوم . أو لا تأخذه غفلة عن أى شيء . ولا نوم من أى نوع ثَقُلَ أو خَفُ كَثُرَ أو قَلَّ . [القاموس القويم ٢٣٨/٢] .

(٤) قال القرطبي فى تفسيره (٢٤٨١/٤) : « معناه استكمال القوة ثم يكون التفصيل بعد . وقال مجاهد وقتادة : الأشد ثلاث وثلاثون سنة . قال ربيعة وزيد بن أسلم ومالك بن أنس : الأشد بلوغ الحلم » .

والبلوغ هو الوصول إلى الغاية ، وقوله تعالى :

﴿ بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ ۝٢٢ ﴾

[يوسف]

أى : وصل إلى غايته فى النضج والاستواء ؛ ومن كلمة « بلغ » أخذ مصطلح البلوغ ؛ فتكليف الإنسان يبدأ فوراً أن يبلغ أشده ؛ ويصير فى قدرة أن ينجب إنساناً مثله .

وحين يبلغ إنسانٌ مثل يوسف أشده ، وهو قد عاش فى بيت ممثلى بالخيرات ؛ فهذا البلوغ إن لم يكن محروساً بالحكمة والعلم ؛ ستتولد فيه رعونة<sup>(١)</sup> ؛ ولهذا فقد حرسه الحق بالحكمة والعلم .

والحكم هو الفیصل بین قضيتين متعاندتين متعارضتين ؛ حق وباطل ؛ وما دام قد أعطاه الله الحكم ، فهو قادر على أن يفصل بين الصواب والخطأ .

وقد أعطاه الله العلم الذى يستطيع أن ينقله إلى الغير ، والذى سيكون منه تاويل الرؤى<sup>(٢)</sup> ، وغير ذلك من العلم الذى سوف يظهر حين يؤلى على خزانة مصر .

إذن : فهنا بلغ يوسف أشده وحرسه الحق بالحكمة والعلم .

ويُذِلُّ الحق سبحانه هذه الآية بقوله :

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝٢٢ ﴾

[يوسف]

وكل إنسان يُحسن الإقامة لما هو فيه ؛ يعطيه الله ثمرة هذا

(١) الرعونة : الحمق والاسترخاء . والارعن : الاهوج فى منطقه . [ لسان العرب - مادة : رمع ] .

(٢) الرؤى . جمع رؤيا . وهى ما تراه فى منامك . ورأى . بمعنى اعتقد وبمعنى عرف . ورأى فى منامه رؤيا : حلم . والرؤيا : الحلم فى المنام . [ القاموس القويم ٢٥٠/١ ] .

الحُسْنُ ، والمثل : حين لا يتأبى فقير على قَدَرِ الله أن جعله فقيراً ،  
ويحاول أن يُحسِّنَ وَيُتَّقِنَ ما يعمل ، فيوضح الله بِحُسْنِ الجزاء : أنت  
قبلت قدرى ، وأحسنْتَ عملك ؛ فخذُ الجزاء الطيب . وهذا حال عظماء  
الدنيا كلهم .

وهكذا نجد قول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾ [يوسف]

لا ينطبق على يوسف وحده : بل على كل مَنْ يحسن استقبال قَدَرِ  
الله ؛ لأنه سبحانه ساعة يأتى بِحُكْمٍ من الأحكام ؛ وبعد ذلك يعممُ  
الحكم ؛ فهذا يعنى أن هذا الحكم ليس خاصاً بل هو عام .

وإذا كان الحق سبحانه يورد هذا فى مناسبة بعينها ، فإنه يقرر  
بعدها أن كل مُحْسِنٍ يعطيه الله الحُكْمَ والعلم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ .. (٢٢) ﴾ [يوسف]

يوحى لنا أن يوسف عليه السلام كان قد بلغ مرحلة الفتوة<sup>(١)</sup> ،  
وهنا بدأت متاعبه فى القصر ، ففى طفولته نظرتُ إليه امرأة العزيز  
كطفل جميل ؛ فلم يَكُنْ يملك ملامح الرجولة التى تهيج أنوثتها .

أما بعد البلوغ فنجد حالها قد تغير ، فقد بدأت تدرك مفاتنه ؛  
وأخذ خيالها يسرح فيما هو أكثر من الإدراك ، وهو التهاب الوجدان

(١) الفتاء - الشباب . والفتى والفتية : الشاب والشابة . قال القتيبي : ليس الفتى بمعنى الشاب

والحدث إنما هو بمعنى الكامل الجَزَل من الرجال . قال الشاعر :

إِنَّ الْفَتَىَّ حَمَلٌ كُلُّ مَكْمَةٍ      لَيْسَ الْفَتَىَّ بِمَنْعَمِ الشُّبَّانِ

[ لسان العرب - مادة : فتأ ] .



بالعاطفة المشبوبة<sup>(١)</sup> ، وما بعد الإدراك والوجدان يأتى النزوع .

ولو كانت محبوبة عنه ؛ لما حدثت الغواية بالإدراك والوجدان .

وهذا يعطينا علّة غَضُّ البصر عن المثيرات الجنسية ؛ لأنك إن لم تغضّ البصر أدركت ، وإن أدركت وجدت ، وإن وجدت نزعت إلى الزواج أو التعفف بالكبت فى النفس ، وتعيش اضطراب القلق والتوتر ، وإن لم تتعفف عرّبت<sup>(٢)</sup> فى أعراض الناس .

وكذلك أمرنا الحق سبحانه ألا تبدي النساء زينتهن إلا لأناس حددهم الحق سبحانه فى قوله تعالى :

﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ<sup>(٣)</sup> أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ بَنَىٰ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَىٰ الْإِرْبَةِ<sup>(٤)</sup> مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٢٤) ﴾ [النور]

(١) شب النار والحرب : أرقدها . وشبة النار : اشتعالها . قال أبو حنيفة : حكى عن أبي عمرو ابن العلاء ، أنه قال . شُبَّتِ النار وشُبَّتِ هى نفسها . قال ولا يقال : شابّة ، ولكن مشبوبة . [ لسان العرب - مادة : شبيب ] .

(٢) رجل عرّب وعربيد وعربد : شريز مُشار . ويقال للمعربد . عربيد كأنه شبه بالحية . [ لسان العرب - مادة : عربد ] .

(٣) البعل : الزوج والزوجة فهو مصدر سُمي به بلغظه فلا يؤنث ، وجمع البعل : بعول . قال تعالى فى قرآنه : ﴿ وَهَذَا بِمِثْلِ شَيْخَا .. (٢٦) ﴾ [هود] وقال : ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَفْعِهِ .. (٢٢٨) ﴾ [البقرة] أى : وأزواجهن أحق بردهن بعد الطلاق الرجعى - وبعد طلاق بائنة أو طلفتين بائنتين بعقد جديد . [ القاموس القويم ٧٦/١ ] .

(٤) الأرب : الحاجة التى تلقطى الاحتياط لها ، وكذلك الأربة والمارب . قال تعالى : ﴿ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَىٰ الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ .. (٢٥) ﴾ [النور] أى : غير ذوى الحاجة إلى النساء ، أى : الذين ليس لهم شهوة لكبرهم أو عجزهم أو صغرهم . [ القاموس القويم ١٧/١ ] .

أى : الذى بلغ من العمر والشيخوخة حدا لا يجعله يفكر فى الرغبة فى النساء .

وكانت نظرة امرأة العزيز إلى يوسف عليه السلام وهو فى فتوته ، بعد أن بلغ أشده نظرة مختلفة ، يوضحها الله تعالى فى قوله :

﴿ وَرَوَدَتْهُ الْمَرْءُ بِئِنَّهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَعَلَّقَتْ الْأَبْوَابَ  
وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوًى  
إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

وساعة تسمع «راود» فافهم أن الأمر فيه منازعة مثل : « فاعل »  
أو « تفاعل » ومثل : « شارك محمد عليا » أى : أن عليا شارك محمداً :  
ومحمد شارك عليا : فكل منهم مفعول مرة ، وفاعل مرة أخرى .

والمراودة مطالبة برفق ولين بستر ما تريده ممن تريده : فإن  
كان الأمر مُسهلاً ، فالمراودة تنتهى إلى شيء ما ، وإن تأبى الطرف

(١) غلق الباب يغلقة غلقاً : أوصده مثل أغلقه . وغلقة بالتضعيف للمبالغة فى إغلاق الأبواب وإحكامها . كقوله تعالى : ﴿ وَعَلَّقَتْ الْأَبْوَابَ ٢٧ ﴾ [يوسف] أى : أحكمت إغلاقها لتأمين على نفسها من الداخلين . [ القاموس القويم ٥٩/٢ ] .

(٢) هيتاً الشيء : أعده وجهزه ويسره . قال تعالى : ﴿ وَهَبْنَا لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ٢٨ ﴾ [الكهف] أى : يسر لنا من أمرنا طريق الرشاد والحق . وهبت للأمر : أعدت نفسى له ، وقرئ فى سورة يوسف عليه السلام ( وهبت لك ) أى : أعدت نفسى لك . و ( هيت ) : اسم فعل أمر بمعنى أقبل وتعال . قال تعالى : ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ٢٧ ﴾ [يوسف] والمعنى : أقبل . واللام للتمعية ، أى : ادعوك لتقبل أو الدعاء لك . [ القاموس القويم ٣١١/٢ ، ٣١٢ ] .

الثانى بعد أن عرفَ المراد ؛ فلن تنتهى المراودة إلى الشيء الذى كنت تصبو<sup>(١)</sup> إليه .

وهكذا راودت امرأة العزيز يوسف عليه السلام ، أى : طالبتَه برفق ولين فى أسلوب يخدعه ليُخرجه عما هو فيه إلى ما تطلبه .

ومن قبل كان يوسف يخدمها ، وكانت تنظر إليه كطفل ، أما بعد أن بلغ أشده فقد اختلف الأمر ، ولنفرض أنها طالبتَه أن يُحضر لها شيئاً ؛ وحين يقدمه لها تقول له : لماذا تقف بعيداً ؟ ، وتدعوه ليجلس إلى جوارها ، وهو لن يستطيع الفكاك ؛ لأنه فى بيتها ؛ وهى مُتَمَكِّنة منه ؛ فهى سيدة القصر .

وهكذا نجد أن المسألة مجموعة عليه من عدة جهات ؛ فهو قد تربى فى بيتها ؛ وهى التى تتلطف وترقُّ معه ، وفهم هو مرادها .

وهكذا شرح الحق سبحانه المسألة من أولها إلى آخرها بادب راقٍ غير مكشوف ، فقال تعالى :

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ ۖ﴾ [يوسف] (٢٣)

وكلمة : ﴿غَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ ۖ﴾ (٢٣)

توضح المبالغة فى الحدث ؛ أو لتكرار الحدث ، فهى قد أغلقت أكثرَ من باب . ونحن حين نحرك المزلاج<sup>(٢)</sup> لنؤكد غلق باب ، ونحرك المفتاح ، ونديره لتأكيد غلق الباب .

(١) صبا يصبو : مال وأحب . قال يوسف عليه السلام : ﴿وَلَا تُصِرْ عَلَى كَيْدِهِمْ أَضْبَ إِلَيْهِمْ وَأَنْتَ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف] (٢٣) : امل إليهم وافعل ما يُغرينى به ، وصبا إلى اللهو . حن واشتاق إليه وصحب . [ القاموس القويم ٢٦٨/١ ] .

(٢) المزلاج والمزلاج : مفلاق الباب . سُمى بذلك لسرعة انزلاجه . وقد أزلجت الباب أى أظفقت . والمزلاج : المفلاق إلا أنه يفتح باليد ، والمفلاق لا يفتح إلا بالمفتاح . [ لسان العرب - مادة : زلج ] .

فهذه عملية أكبر من غلق الباب : وإذا أضفنا مزلاجاً جديداً نكون قد أكثرنا الإغلاق لباب واحد : وهكذا يمكن أن نصف ما فعلنا أننا غلقنا الباب .

وامرأة العزيز قامت بأكثر من إغلاق لأكثر من باب ، فقصور العظماء بها أكثر من باب ، وأنت لا تدخل على العظيم من هؤلاء في بيته لتجده في استقبالك بعد أول باب ، بل يجتاز الإنسان أكثر من باب ليلقى العظيم الذي جاء ليقابله .

ويحمل لنا التاريخ قصة ذلك الرجل الذي رفض أن يبايع معاوية في المدينة ، فأمر معاوية باستدعائه إلى قصر الحكم في دمشق .

هذا القصر الذي سبق أن زاره عمر بن الخطاب : ووجد فيه أبهة زائدة بررها له معاوية بحيلة الأريب<sup>(١)</sup> أنها أبهة<sup>(٢)</sup> ضرورية لإبراز مكانة العرب أمام الدولة الرومانية المجاورة ، فسكت عنها عمر<sup>(٣)</sup> .

وحين استدعى معاوية الرجل ، دخل بصحبة الحرس من باب ، وظن أنه سوف يلقى معاوية فور الدخول ؛ لكن الحرس اصططحه عبر أكثر من باب ؛ فلم ينخلع قلب الرجل ، بل دخل بثبات على معاوية وضنّ عليه بمناداته كأمير للمؤمنين ، وقال بصوت عال :

(١) الأريب : العاقل ، والإرب والأرب : الدهاء والبصر بالأمور ، وهو من العقل - وأصل الإرب : الدهاء والمكر . [ لسان العرب - مادة : أرب ] .

(٢) الأبهة : العظمة والبهاء . والأبهة : العظمة والكبر . ورجل ذو أبهة أى ذو كبر وعظمة . [ لسان العرب - مادة : أبه ] .

(٣) ذكر أبو علي الفاي في أماليه (١٣٦/٢) . قال المفيدة بن شعبة : كان عمر إذا نظر إلى معاوية يقول : هذا كسرى العرب . .

« السلام على رسول الله ﷺ » .

ففطن معاوية إلى أن الرجل يرفض مبايعته .

ونعود إلى الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : فنجد أن امرأة العزيز قد غلقت الأبواب : لأن مَنْ يفعل الأمر القبيح يعلم قُبْح ما يفعل ، ويحاول أن يستر فعله ، وهي قد حاولت ذلك بعيداً عن مَنْ يعملون أو يعيشون في القصر ، وحدثت المراودة وأخذت وقتاً ، لكنه فيما يبدو لم يَسْتَجِبْ لها .

﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ .. (٢٣) ﴾

[يوسف]

أى : أنها انتقلت من مرحلة المُرَاوِدَة إلى مرحلة الوضوح في طلب الفعل ؛ بأن قالت : هياتُ لك ؛ وكان ردّه :

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ .. (٢٤) ﴾

[يوسف]

والمَعَاذ هو مَنْ تستعيز به ، وأنت لا تستعيز إلا إذا خارت أسبابك أمام الحدث الذي تمرُّ به علَّك تجد مَنْ ينجذك ؛ فكان المسألة قد عَزَتْ عليه ؛ فلم يجد مَعَاذاً إلا الله .

ولا أحد قادر على أن يتصرف هكذا إلا مَنْ حرسه الله بما أعطاه له من الحكمة والعلم ؛ وجعله قادراً على التمييز بين الحلال والحرام .

ولبيان خطورة وقوة الاستعاذة نذكر ما ترويه كتب السيرة من أن

النبي ﷺ عقد على ابنة ملك<sup>(١)</sup> : كانت شديدة الجاذبية ، وشعرت بعض من نساء النبي بالغيرة منها ، وقالت واحدة منهن لعلها عائشة رضى الله عنها : إن تزوجها ودخل بها قد يفضلها عنا . وقالت للعروس : إن النبي يحب كلمة ما ، ويحب من يقولها<sup>(٢)</sup> . فسالت الفتاة عن الكلمة ، فقالت لها عائشة : إن اقترب منك قولى « أعوذ بالله منك » .

فبادرها رسول الله ﷺ وقال : « قد عُدَّتِ بمعاذ »<sup>(٣)</sup> وسرحها السراح<sup>(٤)</sup> الجميل .

وهناك فى قضية السيدة مريم عليها السلام ، نجدها قد قالت لحظة أن تمثّل لها الملاك بشراً سوياً<sup>(٥)</sup> :

﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ (١٨) [مريم]

فهى استعاضت بمن يقدر على إنقاذها .

(١) جاء فى الطبرى أنها ملكة بنت داود اللثيمية (١٢٢/٢) أو فاطمة بنت الضمك الكلابية (١٢٩/٣).

(٢) قال ابن حجر فى الفتح (٣٥٩/٩) : « وقع عند ابن سعد ( فى الطبقات ) أن عائشة وحفصة دخلتا عليها أول ما قدمت فمسططاهما وخضبتاهما وقالت لهما إحداهما : إن النبي ﷺ يحب من المرأة إذا دخل عليها أن تقول أعوذ بالله منك » .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢٥٥) كتاب الطلاق من حديث أبى أسيد رضى الله عنه .

(٤) السراح : مصدر أو اسم مصدر بمعنى الطلاق ﴿ فَعَمَلَيْنِ افْتَعَلَكُنْ وَأَسْرَحَكُنْ سَرَاْحًا جَمِيلاً ﴾

(٥) ﴿ [الاحزاب] أى . طلاقاً حسناً ليس فيه كيد ولا إيذاء . [ القاموس القويم ٢٠٩/١ ] .

(٥) السوى من الرجال : من ليس فى خلقه عيب وليس فى بدنه مرض ولا آفة ، فقوله : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ [مريم] أى : حاله كونه كامل

الخلق لا خرس به ولا يكلم ولا أى عجز . وقوله : ﴿ فَعَمَلٌ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ (١٧) [مريم]

مستوى الخلق فى صورة إنسان كامل جميل وطىء . [ القاموس القويم ٢٢٩/١ ] .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنها :

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ <sup>(١)</sup> إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٢) ﴾

[يوسف]

وأعطانا هذا القول معنيين اثنين :

الأول : أنه لم يوافق على طلبها بعد أن أوضحت ما تريد .

والمعنى الثاني : أنه طلب المعونة من الله ، وهو سبحانه مَنْ أنجاه من كيد إخوته ؛ ونجّاه من الجُبِّ ؛ وهياً له أفضل مكان في مصر ، ليحيا فيه ومنحه العلم والحكمة مع بلوغه لأشدّه .

وبعد كل هذا أيستقبل كل هذا الكرم بالمعصية ؟ طبعاً لا .

أو : أنه قال : ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَايَ .. (٢٢) ﴾ [يوسف]

ليُذكر امرأة العزيز بأن لها زوجاً ، وأن هذا الزوج قد أحسن ليوسف حين قال لها :

﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا .. (٢١) ﴾ [يوسف]

فالمعربة لا تأتي فقط من أنها تدعوه لنفسها ؛ بل الصعوبة تزداد سوء لأن لها زوجاً فليست خالية ، وهذا الزوج قد طلب منها أن تُكرم يوسف ، وتختار له مكان إقامة يليق بابن ، ولا يمكن أن يُستقبل ذلك بالجحود والخيانة .

وهكذا يصبح قول يوسف : ﴿ إِنَّهُ رَبِّي .. (٢٢) ﴾ [يوسف]

قد يعود على الله سبحانه ؛ وقد يعود على عزيز مصر .

(١) المَثْوَى : اسم مكان أو مصدر ميمي ، قال تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُ الْمُنَافِقِينَ (١٤١) ﴾ [آل عمران] اسم مكان فُصِدَ به النار ، وقال تعالى : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ .. (٢١) ﴾ [يوسف] أي : إقامته . أي : أكرمى يوسف وعيّر باسم المكان عن الحال فيه مجازاً مرسلًا علاقته المجازية . [ القاموس القويم ١/ ١١٢ ] .

وتلك مِيزة أسلوب القرآن : فهو يأتي بعبارة تتسع لكل مناحات  
الفهم ، فما دام الله هو الذي يُجازى على الإحسان ، وهو مَنْ قال فى  
نفس الموقف :

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢٢)

[يوسف]

فمعنى ذلك أن مَنْ يسئ يأتى الله بالضد : فلا يُفلح ؛ لأن  
القضيتين متقابلتان :

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢٢)

[يوسف]

و ﴿ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢٣)

[يوسف]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِهِ<sup>(١)</sup> وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ<sup>(٢)</sup>

كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ

عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ<sup>(٣)</sup> ﴾ (٢٤)

(١) هم بالفعل بهم به معاً : قصده واتجه إليه بنيت ولم يفعله . قال تعالى : ﴿ إِذْ هُمْ قَوْمٌ اَنْ يَسْطُرُوا اَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ اَيْدِيَهُمْ .. ﴾ (١٦) [المائدة] اى : عزموا واتجهت نيتهم الى حريك والتعدى عليكم واينالكم فكفهم الله . وقال تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿ وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِهِ وَهَمَّ بِهَا .. ﴾ (٢٤) [يوسف] همت به . هم عزم وتصميم . وهمَّ بها همَّ تركه واعراض ومقاومة . اى همَّ بمقاومتها والله اعلم . [ القاموس القويم : ٣٠٧/٢ بتصرف ] .

(٢) البرهان : الحجة البينة الفاصلة . قال تعالى : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ اِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢٤) [البقرة] وقوله . ﴿ لَوْلَا اَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ .. ﴾ (٢٤) [يوسف] اى : لولا اَنْ رآى حجة ربه التى ثبتته على الحق وحرفته عما هم به - او لولا اَنْ رآى برهان ربه . اى الدليل على قدوم سيده وحضوره . وقدر الله مجيء سيده الى البيت فى هذا الوقت ليصرف عنه السوء . [ القاموس القويم ٦٥/١ ] .

(٣) اخلصه الله : جعله صافياً نقياً طاهراً . واسم المفعول مخلص ، بفتح اللام . قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٢٤) [يوسف] اى . الاصفياء الاتقياء المطهرين . [ القاموس القويم ٢٠٢/١ ] .



والهَمُّ هو حديث النفس بالشئ : إما أن يأتيه الإنسان أو لا يأتيه .  
ومن رحمة ربنا بخلقه أن مَنْ هَمَّ بسيئة وحدثته نفسه أن يفعلها ؛  
ولم يفعلها كُتِبَتْ له حسنة<sup>(١)</sup> .

وقد جاءت العبارة هنا في أمر المراودة التي كانت منها ،  
والامتناع الذي كان منه ، واقتضى ذلك الأمر مُفاعلة بين اثنين  
يصطرعان في شئ .

فأحد الاثنين امرأة العزيز يقول الله في حقها :

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ...﴾ (٢٤) [يوسف]

وسبق أن أعلن لنا الحق سبحانه في الآية السابقة موقفها حين  
قالت : « هيت لك » وكذلك بين موقف يوسف عليه السلام حين قال  
يوسف « معاذ الله » .

وهنا يبين لنا أن نفسه قد حدثته أيضاً ؛ وتساوى في حديث  
النفس : لكن يوسف حدث له أن رأى برهان ربه .

ويكون فَهْمُنَا للعبارة : ولولا أن رأى برهان ربه لَهَمَّ بها ؛ لأننا  
نعلم أن « لولا » حرف امتناع لوجود ؛ مثلاً نقول : لولا زيد عندك  
لاتيتك .

ولقائل أن يقول : كيف غابت قضية الشرط في الإيجاد والامتناع  
عن الذين يقولون : إن الهَمَّ قد وُجِدَ منه ؟

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من همَّ بحسنة فلم يفعلها كتبت له حسنة ، ومن همَّ بحسنة فعلمها كتبت له مئراً إلى سبع مائة ضعف . ومن همَّ بسيئة فلم يفعلها لم تكتب . وإن علمها كتبت . » أخرجه مسلم في صحيحه ( ١٢٠ ) كتاب الإيمان ( حديث ٢٠٦ ) .

ولماذا لم يَقُلْ الحق : لقد هَمَّتْ به ولم يهتم بها ؛ حتى نخرج من تلك القضية الصعبة ؟

ونقول : لو قال الحق ذلك لما أعطانا هذا القول اللقطة المطلوبة ؛ لأن امرأة العزيز هَمَّتْ به لأن عندها نوازع العمل ؛ وإن لم يَقُلْ لنا أنه قد هَمَّ بها لظننا أنه عَنِين<sup>(١)</sup> أو خَصَّاه موقف أنها سيدته فخارت قواه .

إذن : لو قال الحق سبحانه : إنه لم يهتم بها ؛ لكان المانع من الهمِّ إما أمر طبيعي فيه ، أو أمر طارئ لأنها سيدته فقد يمنعه الحياء عن الهمِّ بها .

ولكن الحق سبحانه يريد أن يوضح لنا أن يوسف كان طبيعياً ، وهو قد بلغ أشده ونضجه ؛ ولولا أن رأى برهان ربه لَهَمَّ بها .

وهكذا لم يَقُمْ يوسف عليه السلام بما يتطلبه ذلك لنقص فيه ؛ ولا لأن الموقف كان مفاجأة ضيَّعت رجولته بغتة<sup>(٢)</sup> ؛ مثل ما يحدث لبعض الشباب في ليلة الزفاف ، حين لا يستطيع أن يقرب عروسه ؛ وتعر أيام إلى أن يستعيد توازنه . ويقرب عروسه .

إذن : لو أن القرآن يريد عدم الهمِّ على الإطلاق ؛ ومن غير شيء ، لَقَالَ : ولقد هَمَّتْ به ولم يهتم بها .

(١) العنين : الذي لا يلتصق النساء ولا يبرهمن بين العنانة . وعُنُن عن امرأته إذا حكم القاضي عليه بذلك أو مُنِع عنها بالسحر . وامرأة عنيئة كذلك . لا تريد الرجال ولا تشتهيهم . وسُمِّي عنيئاً لأنه يعن ذكره لقبل المرأة من عن يمينه وشماله فلا يقصده . [ لسان العرب - مادة : عنن ] .

(٢) بغتة بغتاً وبغتة : فاجأه على غرة وغفلة ، قال تعالى : ﴿ فَأَخْلَتْهُمْ بَغْةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأعراف] والمباغتة المفاجأة والبغتة والبغتة : الفجأة ، وهو أن يفسك الشيء . [ لسان العرب - مادة : بغت ] .

ولكن مثل هذا القول هو نقي للحدث بما لا يستلزم العفة والعصمة ، لجواز أن يكون عدم الهمّ راجعاً إلى نقص ما ؛ وحتى لا يتطرق إلينا تشبيهه ببعض الخدم ؛ حيث يستحي الخادم أن ينظر إلى البنات الجميلات للأسرة التي يعمل عندها ؛ ويتجه نظره إلى الخادمة التي تعمل في المنزل المجاور ، لأن للعواطف التقاءات .

ومن لطيف الله بالخلق أنه يوجد الالتقاءات التفاعلية في المتساويات ، فلا تأتي عاطفة الخادم في بعض الأحيان ناحية بنات البيت الذي يعمل عنده ؛ وقد يطلب من أهل البيت أن يخرج لشراء أى شيء من خارج المنزل ، لعله يحظى بلقاء عابر من خادمة الجيران .

ويجوز أن الخادم قد فكر في أنه لو همّ بواحدة من بنات الأسرة التي يعمل لديها ؛ فقد تطرده الأسرة من العمل ؛ بينما هو يحيا سعيداً مع تلك الأسرة .

وهكذا يشاء الحق سبحانه أن يوزع تلك المسائل بنظام وتكافؤات في كثير من الأحيان .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنّا عنها قال الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ .. (٢٤)﴾

[يوسف]

إذن : فبرهان ربه سابق على الهمّ ، فواحد همّ ولم يرتكب ما يتطلبه الهمّ ؛ لأن برهان ربه في قلبه ، وقد عرف يوسف برهان ربه من البداية .

وبذلك تنتهى المسألة ، ولذلك فلا داعى أن يدخل الناس فى متاهات أنه همّ وجلس بين شعبتيها<sup>(١)</sup> ، ولم يرتعد إلا عندما تمثّل له وجه والده يعقوب ونهاه عن هذا الفعل<sup>(٢)</sup> ؛ فافسقُ الفسّاق ولو تمثّل له أبوه وهو فى مثل هذا الموقف لأصيب بالإغماء .

وحين تناقش مَنْ رأى هذا الرأى ؛ يردّ بأن هدفه أن يثبت فحولة<sup>(٣)</sup> يوسف ؛ لأن الهمّ وجد وأنه قد نازع الهمّ .

ونقول لصاحب هذا الرأى : أنتكلم عن الله ، أم عن الشيطان ؟

أنت لو نظرتَ إلى أبطال القصة تجدهم ؛ امرأة العزيز ؛ ويوسف والعزيز نفسه ؛ والشاهد على أن يوسف قد حاول الفكّك من ذلك الموقف ، ثم النسوة اللاتى دَعَتْهُنَّ امرأة العزيز ليشاهدوا جماله ؛ والله قد كتب له العصمة .

فكُلُّ هؤلاء تضافروا<sup>(٤)</sup> على أن يوسف لم يحدث منه شيء .

(١) فى الحديث : « إذا قعد الرجل من المرأة ما بين شعبها الأربع وجب عليه الفسل » شعبها الأربع : يداها ورجلاها . وقيل : رجلاها وشَقْرُا لرجها ، كنى بذلك عن تغييبه الحشّة فى لرجها . [ لسان العرب - مادة : شعب ] .

(٢) قال قتادة ومجاهد والحسن والضحاك وسعيد بن جبیر : رأى صورة يعقوب على الجدران عاضاً على أنامله يتوعده فسكن ، وخرجت شهوته من أنامله . [ نكرة القرطبي فى تفسيره ٣٤٩٢/٤ ] .

(٣) رجل فحيل . فعل ، وإنه لبين الفحولة . غير خصص بل هو مُنْجَب . [ لسان العرب - مادة : فحل ] .

(٤) تضافر القوم على فلان وتظاهروا عليه وتظاهروا بمعنى واحد كله إذا تعاونوا وتجمعوا عليه ، وتآلبوا وتصابروا مثله . قال ابن سيده : تضافر القوم على الأمر تظاهروا وتعاونوا عليه . [ لسان العرب - مادة : ضمير ] .

وقال يوسف نفسه :

﴿ هِيَ رَاوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي .. ﴾ (٢٦) [يوسف]

وامرأة العزيز نفسها قالت مُصَدِّقَةً لِمَا قَالَ :

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ<sup>(١)</sup> .. ﴾ (٢٧) [يوسف]

وقالت : ﴿ الْآنَ خَصَصْتُ<sup>(٢)</sup> الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ<sup>(٣)</sup> ﴾ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ<sup>(٤)</sup> أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ .. ﴾ (٥٢) [يوسف]

وعن النسوة قال يوسف : ﴿ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ (٥٣) [يوسف]

وقال يوسف لحظاتها :

﴿ وَالْأَنزِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصَبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٢٢) [يوسف]

والصَّبُوة هي حديث النفس بالشيء : وهو ما يشبه قدرة يوسف عليه السلام على الفعل ، وحماه الله من الصبوة : لأن الحق سبحانه قد قال :

(١) استعصم : طلب لنفسه الحصانة وتمسك بها . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ (٢٧) [يوسف] أي . فامتنع متمسكاً بعصمته وعفة نفسه وحفظها من سوء . [ القاموس القويم ٢٤/٢ ] .

(٢) خصصت الحق : وضح وتبين بعد خفاؤه ، قال تعالى : ﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ خَصَصْتُ الْحَقُّ .. ﴾ (٥١) [يوسف] . قال ابن منظور في لسان العرب : « الخصصة : بيان الحق بعد كتمانته » . [ مادة خصص ] .

(٣) هي قائل هذه العبارة أقوال كثيرة ذكرها المفسرون منها : أنه يوسف ، ومنها أنها : امرأة العزيز . قال ابن كثير في تفسيره (٤٨١/٢) : « هذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام ، وقد حكاه الماوردي في تفسيره وانتسب لنصرته الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله فافهمه بتصنيف على حدة » .

﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۖ ۝ (٢٤) ﴾ [يوسف]

وانظر إلى لقطة النسوة اللاتي تهاوسن بالنميمة عن امرأة العزيز وحكايتها مع يوسف ، ألم يقلن :

﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۖ ۝ (٢٥) ﴾ [يوسف]

فحين دخل عليهن اتجهت العيون له ، وللعيون لغات ؛ وللانفعال لغات ؛ وإلا لماذا قال يوسف :

﴿ وَإِلَّا تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ۖ ۝ (٢٦) ﴾ [يوسف]

وهكذا نعلم أنه قد حدثت مُقَدِّمات تدل على أن النسوة ثوين له مثل ما نوتته امرأة العزيز ؛ وظنن أن امرأة العزيز سوف تطرده ؛ فيتلقنه هن ؛ وهذا دأب<sup>(١)</sup> البيوت الفاسدة .

وهل هناك أفسد من بيت العزيز نفسه ، بعد أن حكم الشاهد أنها هي التي راودت يوسف عن نفسه ؛ فيدمدم العزيز على الحكاية ، ويقول :

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ۖ ۝ (٢٧) ﴾ [يوسف]

وكان هدف العزيز أن يحفظ مكانته من القيل والقال .

وحين سال الشاهد النسوة ، بماذا أجبن ؟

يقول الحق سبحانه أن النسوة قلن :

(١) دأب على الأمر : اعتاده . والدأب والدأب : العادة والشأن . قال تعالى : ﴿ بَطِلَ دَأْبُ قَوْمِ نُوحٍ

ۖ ۝ (٢٨) ﴾ [غافر] أي : عادتهم وشأنهم . وقال تعالى : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا ۖ ۝ (٢٩) ﴾

[يوسف] أي : مساومين مجتهدين نوى دأب . وقال تعالى : ﴿ وَسَطَّرَ لَكُمْ الْفَيْسَ وَالْقَمَرِ

فَالْتَبَسَ ۖ ۝ (٣٠) ﴾ [إبراهيم] أي : مستمرين في الحركة دأبين فيها بلا انقطاع تحييبها لهما

بالإنسان المجتهد . [ القاموس القويم ٢١٩/١ ] .

﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ۖ ﴾ (٥١) [يوسف]

وقد صرف الله عنه الشيطان الذي يتكفل دائماً بالغواية ، وهو لا يدخل أبداً في معركة مع الله ؛ ولكنه يدخل مع خلق الله ؛ لأن الحق سبحانه يورد على لسانه :

﴿ قِيلَ فَبِمِزْثِكَ لِأَغْوِيَّتِهِمْ <sup>(١)</sup> أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص]

فالشيطان نفسه يُقرُّ أن مَنْ يستخلصه الله لنفسه من العباد إنما يعجز - هو كشيطان - عن غوايته ، ولا يجرو على الاقتراب منه .

والشاهد الذي من أهل امرأة العزيز ، واستدعاه العزيز ليتعرف على الحقيقة قال :

﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ <sup>(٢)</sup> مِنْ دُبُرٍ <sup>(٣)</sup> فَكَذَبْتَ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٧) ﴾ [يوسف]

(١) اغواء : أضله وأوقعه في الفسّ والضلّال . قال تعالى : ﴿ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ ﴾ (١٧) [القصص] أي : أضللناهم كما ضللنا . وغوى يغوي غيياً غواية : انهك في الجهل وهو ضد الرشاد . قال تعالى : ﴿ لَا تَرَاهُ فِي الْبَيْتِ قَدْ تَمَنَّ الرُّشْدَ مِنَ الْغَيِّ ۖ ﴾ (١٥٦) [البقرة] وغوي بمعنى خاب وضل لأنه انهك في الجهل . والغاوي : اسم فاعل ، قال تعالى : ﴿ وَبَرَزَتْ لَهُمْ أَهْلُهَا مِنَ الْغَاوِينَ (١١) ﴾ [الشعراء] أي : الضالين المنهمكين في أعمال الجهل . [ القاموس القويم ٦٤/٢ ] .

(٢) قد الثوب : شقّه . قال تعالى : ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ۖ ﴾ (١٢٢) [يوسف] . والقدة : القطعة المقصودة من الثوب ، والجماعة المختلفة في الرأي مع مجموع الأمة كأنها قُدتْ وقُطعت منها . قال تعالى : ﴿ كَمَا طَوَّلَ قَدًّا (١١) ﴾ [الجن] أي : جماعات مختلفة الرأي جمع قدة . [ القاموس القويم ١٠٢/٢ ] .

(٣) الدبر : مؤخر كل شيء وعقبه وظهوره ضد القبل ، قال تعالى : ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ۖ ﴾ (١٢٢) [يوسف] أي : من خلف . وولى المصارب دبره : كناية عن قراره . قال تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (١٥) ﴾ [القدر] أي : ويفرون . وجمع الدبر أنبار . قال تعالى : ﴿ وَإِنْ يَنْظُرُوكُمْ يُدْرِكُوكُمُ الْأَذْيَارُ ثُمَّ لَا يَصْرُفُونَ (١١) ﴾ [آل عمران] أي : يفرون منكم منهزمين ، وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبَّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ السُّجُودِ (١١) ﴾ [ق] أي : عقب كل سجود أو عقب كل صلاة . [ القاموس القويم ٧٢٠/١ ] .

وبعد كل هذه الأدلة فليس من حق أحد أن يتساءل : هل هم يوسف بامرأة العزيز ، أم لم يهم ؟

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرننا عنها ، يقول الحق سبحانه :

﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ.. (٢٤)﴾ [يوسف]

والبرهان هو الحجة على الحكم . والحق سبحانه هو القائل :

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)﴾ [الإسراء]

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِقَلَّ يُكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ.. (١٦٥)﴾ [النساء]

أى : لا بد أن يبعث الحق رسولاً للناس مؤيداً بمعجزة تجعلهم يُصدقون المنهج الذى يسيرون عليه ؛ كى يعيشوا حياتهم بانسجام إيمانى ، ولا يعذبهم الله فى الآخرة .

ويُذيل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ<sup>(١)</sup> عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤)﴾ [يوسف]

والفحشاء هى الزنا والإتيان ؛ والسوء هى فكرة الهم ، وبعض المعتدلين قالوا : إنها بعد أن راودته عن نفسه ؛ وخرجت بالفعل إلى

(١) الصرف : رد الشيء من حال إلى حال. وصرف القلوب : تغييرها أو إنفاقها . وصرف السجين . أخلى سبيله . وصرف القلوب يصرفها : حوّلها من الهدى إلى الضلال . قال تعالى : ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ (٩٧)﴾ [التوبة] . [ القاموس القويم ٢٧٤/١ ] .



مرحلة السُّعَار<sup>(١)</sup> لحظة أن سبقها إلى الباب : فَكَّرْتُ فِي أَنْ تَقْتُلَهُ : وحاول هو أن يدافع عن نفسه وأن يقتلها ، ولو قتلها فلسوف يُجَازَى كقاتل<sup>(٢)</sup> .

فصرف الحق عنه فكرة القتل : وعنى بها هنا قوله الحق « السوء » : ولكنى أطمئن إلى أن السوء هو فكرة الهم ، وهى مُقَدِّمَات الفعل .

ويقرر الحق سبحانه أن يوسف عليه السلام من عباده الْمُخْلِصِينَ ، وفى هذا رد على الشيطان : لأن الشيطان قال :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ ﴾ (٨٣)

[مر]

وقوله الحق هنا :

﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ ﴾ (٩٤)

[يوسف]

يؤكد إقرار الشيطان أنه لن يَقْرُبَ عباد الله المخلصين . وهناك « مُخْلِصِينَ » . و « مُخْلِصِينَ » والمخلص هو مَنْ جَاهَدَ فَكَسَبَ طَاعَةَ الله ، وَالْمُخْلِصُ هو مَنْ كَسَبَ فَجَاهَدَ وَأَخْلَصَهُ اللهُ لِنَفْسِهِ<sup>(٣)</sup> .

وهناك أَنَاسٌ يَصِلُونَ بِطَاعَةِ اللهِ إِلَى كَرَامَةِ اللهِ ، وهناك أَنَاسٌ

(١) السُّعَارُ : شدة الجوع . يقال : سَعِرَ الرجل ، فهو مسعور ، إذا اشتد جوعه وعطشه . والسُّعْرُ : شهوة مع جوع . والسُّعْرُ : الجنون . وسعار العطش : التهابه . والسعير والساعورة : النار . وقيل : لهبها . والسُّعَارُ والسُّعْرُ : حرها . [ لسان العرب - مادة : سحر ] .

(٢) ذكر القرطبي فى تفسيره أن من بين تاويلات هم يوسف عليه السلام بامرأة العزيز أنه هَمَّ بضربها ودفعها عن نفسه ، والبرهان كَلَمَهُ عن الضرب ، إذ لو ضربها لأوهم أنه قصد بها بالحرام فاستتعت لضربها . [ راجع تفسير القرطبي ٣٤٨٨/٤ ] .

(٣) أخْلَصَهُ اللهُ : جعله صافياً نقياً مَطْهُراً . واسم المفعول « مُخْلِصٌ » بفتح اللام . قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ ﴾ (٩٤) [ يوسف ] أى : الأصفياء الاتقياء المطهرين . وأخلص دينه : طهره وصفاه من شوائب الشرك والرياء . قال تعالى : ﴿ لَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴾ (٢٠٢) [ الزمر ] . [ القاموس القويم ٢٠٢/١ ] .

يكرمهم الله فيطيعون الله - والله المثل الأعلى - مُنْزَهُ عن كل تشبيه ،  
أنت قد يطرق بابك واحد يسألك من فضل الله عليك ؛ فتستضيفه  
وتكرمه ، ومرة أخرى قد تمشى في الشوارع وتدعو واحداً لتعطيه من  
فضل الله عليك ، أى : أن هناك مَنْ يطلب فتأذن له ، وهناك مَنْ تطلبه  
أنت لتعطيه .

وبعد الحديث عن المراودة بما فيها من لين وأخذ ورد ؛ ينتقل بنا  
الحق سبحانه إلى ما حدث من حركة ، فيقول تعالى :

﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا<sup>(١)</sup>  
لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ  
أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ<sup>(٢)</sup>﴾

وعرفنا أن كلاهما حاول الوصول إلى الباب قبل الآخر ؛ وتسابقا  
في هذا الاستباق ، ونلاحظ أن الحق سبحانه يذكر هنا باباً واحداً ؛  
وكانت امرأة العزيز قد غلقت من قبل أكثر من باب .

لكن قول الحق سبحانه :

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ<sup>(٣)</sup>﴾ [يوسف]

(١) ألفى الشيء : وجده ، قال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ أَكْفَرُوا بِآيَاتِهِمْ خَالَيْنَ<sup>(١)</sup>﴾ [الصافات] ، وقال :

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ<sup>(٢)</sup>﴾ [يوسف] أى : وجدها . [القاموس القويم ١٩٧/٢] .

(٢) ساد قومه يسويهم سيادة : شرف عليهم ورأسهم ، فهو سائد وسيد وجمعه سادة :

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ<sup>(٣)</sup>﴾ [يوسف] سيدها : زوجها . وقال تعالى : ﴿وَسَيِّدًا وَخَصْرًا<sup>(٤)</sup>﴾

.. ﴿[آل عمران] سيداً أى : حريفاً ورئيساً في الدين والعلم . وقال : ﴿إِنَّا أَنْطَقْنَا مَادَقًا<sup>(٥)</sup>﴾

وكُتِرَ أَمَّا .. ﴿[الاحزاب] أى : رؤساءنا من الملوك والأمراء . [القاموس القويم

يدلنا على أنها لحقت بيوسف عند الباب الأخير ؛ وهي قد استبقت مع يوسف إلى الأبواب كلها حتى الباب الأخير ؛ لأنها تريد أن تغلق الباب لتسد أمامه المنفذ الأخير ، وهذا الاستباق يختلف باختلاف الفاعل فهي تريده عن نفسه ، وهو يريد الفرار من الموقف ، ثم قدت قميصه من دبر .

هذا دليل على أنه قد سبقها إلى الباب ؛ فشده من قميصه من الخلف ، وتمزق القميص في يدها ، وقد محص الشاهد - الذي هو من أهلها<sup>(١)</sup> - تلك المسألة ليستنبط من الأحداث حقيقة ما حدث .

وقوله تعالى :

﴿وَأَلْقَى سَيْدَهَا لَدَا الْبَابِ.. (٢٥)﴾

[يوسف]

أى : حدثت لهما المفاجأة ، وهي ظهور عزيز مصر أمامهما ؛ وصار المشهد ثلاثياً : امرأة العزيز ؛ ويوسف ؛ وزوجها .

وهنا ألقت المرأة الاتهام على يوسف عليه السلام فى شكل سؤال تبريرى للهروب من تبعية الطلب ، وإلقاء التهم على يوسف :

﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا .. (٢٥)﴾

[يوسف]

ثم حددت العقاب :

﴿إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥)﴾

[يوسف]

ويأتى الحق سبحانه بقول يوسف عليه السلام :

(١) وذلك هو قوله تعالى : ﴿وَجَدَ نَاعِدٌ مِّنْ أَعْلَاهَا إِذْ كَانَ قَبِيضَةً قَدْ مِّنْ قَبْلِ فَصَنَعَتْ وَهِيَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٦٦) وَإِنْ كَانَ قَبِيضَةً قَدْ مِّنْ قَبْرِ فَكَذَّبَتْ وَهِيَ مِنَ الْمَاضِينَ (٦٧)﴾ [يوسف] .

﴿ قَالَ هِيَ رَأَوْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ <sup>(١)</sup> شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا <sup>(٢)</sup> إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا <sup>(٣)</sup> مِّنْ قَبْلِ فَصَدَّقَتْ وَهِيَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٢٦) [يوسف]

وهنا وجد عزيز مصر نفسه بين قولين مختلفين : قولها هي باتهام يوسف : وقوله هو باتهامها ، ولا بد أن يأتي بمن يفصل بين القولين ، وأن يكون له دقة استقبال وفهم الأحداث .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ قَالَ هِيَ رَأَوْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِّنْ قَبْلِ فَصَدَّقَتْ وَهِيَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٢٦)

وتأتي كلمة « شاهد » في القرآن بمعان متعددة .

(١) شهد : نلّ بقول أو فعل . وقال تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا .. ﴾ (٢٦) [يوسف] .  
[ القاموس القويم ٢٥٨/١ ] . وقال القرطبي في تفسيره (٢٤٩٤/٤) : « شهد شاهد من أهلها ، أي : حكم حاكم من أهلها ، لأنه حكم منه وليس بشهادة » .  
(٢) قال القرطبي في تفسيره (٢٤٩٤/٤ ، ٢٤٩٥) :  
« اختلف في هذا الشاهد على أقوال :

منها : أنه طفل في المهد تكلم . قال السهيلي : وهو الصحيح للحديث الوارد فيه عن النبي ﷺ ، وهو قوله : لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة ، وذكر فيهم شاهد يوسف ، ومنها : أنه رجل حكيم ذو عقل كان الوزير يستشير به في أموره ، وكان من جملة أهل المرأة ، بتصرف .  
(٣) قد الثوب . شقه . قال تعالى : ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ .. ﴾ (٢٥) [يوسف] والقدة : القطعة المقشورة من الثوب ، والجماعة المختلفة في الرأي مع مجسوع الأمة كأنها قُتَّتْ وقُطعت منها . قال تعالى : ﴿ كُنَّا طَرَأَىٰ قُدًّا ﴾ [الجن] أي : جماعات مختلفة الآراء جمع قدة .  
[ القاموس القويم ١٠٢/٢ ] .

فهى مرة تكون بمعنى « حضر » ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَيَشْهَدَنَّ عَذَابُهُمَا <sup>(٧)</sup> طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور]

وتأتى مرة بمعنى « علم » ، مثل قوله سبحانه :

﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا .. ﴾ (٨١) [يوسف]

وتأتى « شهد » بمعنى « حكم وقضى » أى : رجع كلاماً على كلام لاستنباط حق فى أحد الاتجاهين . والشاهد فى هذه الحالة وثق القرآن أن قرابته من ناحية المحكوم عليه ، وهو امرأة العزيز ، فلو كان من طرف المحكوم له لَرُبَّتْ شهادته .

وهكذا صار الموقف رباعياً : امرأة العزيز ، ويوسف ، وعزيز مصر ، والشاهد ، وحملت الآية نصف قول الشاهد :

﴿ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ قَبْلِ فَصَدَقْتَ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٢٦) [يوسف]

لأن معنى هذا - والواقع لم يكن كذلك - أن يوسف عليه السلام وهو مَنْ أَقْبَلَ عليها ! تدلّى منه ثوبه على الأرض ، فتعثر فيه ، فتمزّق القميص .

ويتابع الله قول الشاهد :

﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبْتَ وَهُوَ  
مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٢٧)

(١) أى : عذاب الزانية والزانى وإيقاع العقوبة بهما ، وذلك قوله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ لِّىْ دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَنَّ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٤) [النور] .

(٢) القميص : ما يحيط بالبدن ، وقد يسمى شعيراً وما فوقه دثار ، وقد يسمى كل ثوب قميصاً ، قال تعالى : ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِمِثْقَلِ كَذِبٍ .. ﴾ (٥٨) [يوسف] . [ القاموس القويم

أى : أن قميص يوسف عليه السلام إن كان قد من الخلف ؛  
فيوسف صادق ، وامرأة العزيز كاذبة .

ونلاحظ أن الشاهد هنا قال هذا الراى قبل أن يشاهد القميص ؛ بل  
وضع فى كلماته الأساس الذى سينظر به إلى الأمر ، وهو إطار دليل  
الإثبات .

وهذا ما تشرحه الآية التالية ، فيقول سبحانه :

﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِّنْ كَاذِبِينَ ۚ  
إِنَّ كَيْدَكَ عَظِيمٌ ۝٢٨﴾

وقول الحق سبحانه عن الشاهد القاضى :

﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ ۖ .. (٢٨) ﴾ [يوسف]

يدل على أنه رتب الحكم قبل أن يرى القميص ، وقرر المبدأ أولاً  
فى غيبة رؤية القميص ، ثم رآه بعدما ، وهكذا جعل الحيثية الغائبة  
هى الحكم فى القضية الشاغلة .

لذلك تابع قوله بما يدين امرأة العزيز :

﴿ قَالَ إِنَّهُ مِّنْ كَاذِبِينَ ۚ إِنَّ كَيْدَكَ عَظِيمٌ ۝٢٨ ﴾ [يوسف]

والكيد كما نعلم هو الاحتيال على إيقاع السوء بخفاء ، ويقوم به

(١) الكيد : مصدر ويطلق على العمل أو الوسيلة التى يتخذ بها الكائد ليهتلب على خصمه ،  
ومن ذلك قوله : ﴿ فَاجْتَبُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُّوا صَفًا ۝١١ ﴾ [طه] أى : اجتمعوا الوسائل التى تكيدون  
بها . [ القاموس القويم ٢ / ١٨٠ ] .

مَنْ لَا يَمْلِكُ الْقُدْرَةَ عَلَى الْمُجَاجَهَةِ ، وَكَيْدَ الْمَرْأَةِ عَظِيمٌ ؛ لِأَن ضَعْفَهَا  
أَعْظَمُ .

وتعود آيات السورة بعد ذلك إلى موقف عزيز مصر ، فيقول الحق  
سبحانه ما جاء على لسان الزوج :

يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ  
كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ<sup>(١)</sup>

وبهذا القول من الزوج أنهى الحق سبحانه هذا الموقف الرباعي  
عند هذا الحد ، الذي جعل عزيز مصر يُقرُّ أن امرأته قد أخطأت ،  
ويطلب من يوسف أن يعرض عن هذا الأمر ليكتمه .

وهذا يبين لنا سياسة بعض من أهل الجاه مع بيوتهم ، وهو أمر  
نشاهد في عصرنا أيضاً ؛ فنجد الرجل ذا الجاه وهو يتأبى أن يرى  
أهله في خطيئة ، ويتأبى أكثر من ذلك فيرفض أن يرى الغير أهله في  
مثل هذه القضية ، ويحاول كتمان الأمر في نفسه ؛ فيكفيه ما حدث له  
من مهانة الموقف ، ولا يريد أن يشمت به خصومه أو أعداؤه .

وهنا ملاحظ يجب أن نتوقف عنده ، وهو قضية الإيمان ، وهي

(١) أعرض عن الشيء : ولى منصرفاً عنه غير راغب فيه ، قال تعالى : ﴿ أَعْرِضْ وَتَأَيُّبَهِ  
... ﴾ [الإسراء] . [ القاموس القويم ١٦/٢ ] . قال القرطبي : « أي : لا تذكره لأحد  
واكتمه » . [ تفسير القرطبي ٤/٢٤٩٧ ] .

(٢) الخطأ والخطأ : ضد الصواب . وقد خطيء يخطئ خطأ : أذنب مطلقاً أو تعمّد الذنب . قال  
تعالى : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ [يوسف] أي : منبئين .

لا تزال متغلغلة حتى في المنحرفين والمتسترين على المنحرفين ،  
لعزيز مصر يقول ليوسف :

﴿ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا .. (٢٩) ﴾ [يوسف]

ويقول لزوجته :

﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) ﴾ [يوسف]

وهو في قوله هذا يُقِرُّ بأن ذنباً قد وقع ؛ وهو لن يُقَرَّ بذلك إلا  
إذا كان قد عرف عن الله منهاجاً سماوياً ، وهو في موقف لا يسعه فيه  
إلا أن يطلب منها أن تستغفر الله .

وبعد أن كان المشهد رباعياً : فيه يوسف ، وامرأة العزيز ،  
والعزيز نفسه ، ثم الشاهد الذي فحص القضية وحكم فيها ، ينتقل بنا  
الحق سبحانه إلى موقف أوسع ؛ وهو دائرة المجتمع الذي وقعت فيه  
القضية .

وهذا يدل على أن القصور لا أسرار لها ؛ لأن لأسرار القصور  
عيوناً تتعسس<sup>(١)</sup> عليها ، والسنة تتكلم بها ؛ حتى لا يظن ظان أنه  
يستطيع أن يحمي نفسه من الجريمة ؛ لأن هناك مَنْ سوف يكشفها  
مهما بلغت قدرة صاحبها على التستر والكتمان .

وقد تلصص البعض من خدم القصر ؛ إلى أن صارت الحكاية على  
ألسنة النسوة .

(١) أصل العُصْ : الطواف ليلاً . ومنه حديث عمر رضي الله عنه أنه كان يمس بالمدينة . أي :  
يطوف بالليل يحرس الناس ويكشف أهل الريبة . والمعسس : اسم منه كالطلب . وقد يكون  
جمعاً لعسس كعارس وحرس . [ راجع لسان العرب - مادة : عسس ] .



ويحكي القرآن الموقف قائلاً :

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۚ إِنَّا لَنَرْنَهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

وكلمة « النسوة » ، وكلمة « نساء » تدلُّ على الجماعة ، لكن مفرد كلٍّ منهما ساقط في اللغة ، فمفرد « نسوة » امرأة ؛ ومفرد « نساء » أيضاً هو « امرأة » .

ومن العجيب أن المفرد ، وهو كلمة « امرأة » له مثني هو « امرأتان » ، لكن في صيغة الجمع لا توجد « امراءات » ، وتوجد كلمة نسوة اسم لجماعة الإناث ، واحدها امرأة ، وجمعها نساء .

وقد قالت النسوة :

﴿ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [يوسف]

وما قلَّته هو الحق ؛ لكنهن لم يَقُلْنَ ذلك تعصباً للحق ، أو تعصباً للفضيلة .

(١) قال الفرطبي في تفسيره (٣٤٩٨/٤) : « قيل : امرأة ساقى العزيز ، وامرأة خبازة ، وامرأة صاحب دوابه ، وامرأة صاحب سجنه . وقيل : امرأة الصاحب . عن ابن عباس وغيره » .

(٢) شغف : أصاب شغاف قلبه أي غلافه ، أو أصاب باطنه وصميم قلبه . قال تعالى : ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۚ ﴾ [يوسف] أي : أصاب شغاف قلبها بحب قوي نافذ كالسهم . [ اللاموس القويم ٣٥٠/١ ] .

وشاء سبحانه أن يدفع هذه المقالة عنهم ، ففضح الهدف المختفى وراء هذا القول فى الآية التالية حين قال :

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣٦) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ (٣٧) ﴾ [يوسف]

والمكر هو ستر شيء خلف شيء ، وكان الحق يُنبِّهنا إلى أن قول النسوة لم يكن غضبة للحق ؛ ولا تعصبا للفضيلة ، ولكنه الرغبة للنكابة<sup>(١)</sup> بامرأة العزيز ، وفرضا للضلال الذى أقامت فيه امرأة العزيز .

وأردن - أيضا - شيئا آخر ؛ أن يُنزلن امرأة العزيز عن كبريائها ، وينشرن فضيحتها ، فأتين بنقيضين ؛ لا يمكن أن يتعدى الموقف فيهما إلا خسيس المنهج .

فهى امرأة العزيز<sup>(٢)</sup> ، أى : أرفع شخصية نسائية فى المجتمع ، قد نزلت عن كبريائها كزوجة لرجل يُوصف بأنه الغالب الذى لا يُغلب ؛ لأن كلمة « العزيز » مأخوذة من المعانى الحسية .

(١) نكى العدو نكابة ، أصاب منه . وقد نكيت فى العدو أنكى نكابة أى هزمته وغلته ، فنكى ينكى نكئ . [لسان العرب - مادة : نكى ] .

(٢) تدور معانى العزيز حول من بيده السلطان والقوة ويبيده مقاليد الحكم لا يراجع أحد شيئا ، بل هو يملك سلطة الأمر والنهى . [ راجع : لسان العرب - مادة : عزز ] .

فَيُقَالُ : « الأرض العَزَاز » <sup>(١)</sup> أى : الأرض الصخرية التى يصعب المشى عليها ، ولا يقدر أحد أن يطأها ؛ ومن هذا المعنى جاءت كلمة « العزيز » .

فكيف بامرأة العزيز حين تصوير مُضَفَّة <sup>(٢)</sup> فى الأفواه ؛ لأنها راودت فتاها وخادمها عن نفسه ؛ وهو بالنسبة لها فى أدنى منزلة ، وتلك فضيحة مزرية <sup>(٣)</sup> مشينة <sup>(٤)</sup> .

وقالت النسوة أيضاً :

[يوسف]

﴿ قَدْ شَفَّهَآ حُبًّا ۚ ﴾ (٢٥)

والحب منازل ؛ وأول هذه المنازل « الهوى » مثل : شغشقة <sup>(٥)</sup> النبات ، ويُقال : « رأى شيئاً فهو به » .

(١) قال ابن منظور فى [ لسان العرب - مادة : عزز ] : « العَزَز والعزاز : المكان الصلب السريع السيل . وقال ابن شميل : العزاز ما غلظ من الأرض . وإنما يكون فى أطرافها ، وفى الحديث أنه ﷺ نهى عن البول فى العزاز لئلا يترشش عليه » .

(٢) مضغ يمضغ : لاله . ومضغ الطعام يمضغه مضغاً . والمضغفة : القطعة من اللحم . ومضغ التمر : حان أن يُمضغ . وتمر ذو سَخَفَةٍ : صلب متين يُمضغ كثيراً . ومُضَغُ الأمور : صفارها [ لسان العرب : مادة - مضغ ] والمقصود تشبيهها بقطعة اللحم التى يلوكها الناس فى أفواههم .

(٣) الإزراء : التهاون بالشئ . وإزدريته أى حقارته ، والإزراء : الاحتقار والانتقاص والعيب ، وهو اقترال من زريت عليه زراية إذا عبته . [ لسان العرب - مادة : زرى ] .

(٤) الشين : العيب . وهو خلاف الزين . قال الفراء : العين والشين والشنار أى : العيب ، والمشايين : المعاييب والمقايح . [ لسان العرب - مادة : شين ] .

(٥) شق النبات يشق شقوقاً . وذلك فى أول ما تظفر عنه الأرض . وشق نابُ الصبى يشق شقوقاً : فى أول ما يظهر . [ لسان العرب - مادة : شقق ] .

وقد ينتهى هذا الهوى بلحظة الرؤية ، فإذا تعلّق الإنسان بما رأى ؛ انتقل من الهوى إلى العلاقة<sup>(١)</sup> .

وبعد ذلك يأتى الكلف<sup>(٢)</sup> ؛ أى : تكلف أن يصل إلى ما يطلبه من هذه العلاقة . ثم ينتقل بعد ذلك إلى مرتبة فيها التقاء وهى العشق<sup>(٣)</sup> ، ويحدث فيها تبادل للمشاعر ، ويعلم كل طرف كلفه ؛ ولذلك يسمونه « عاشق ومعشوق » .

ثم ينتقل إلى مرحلة اسمها « التدليه »<sup>(٤)</sup> ؛ أى : يكاد أن يفقد عقله . ثم يصير الجسم إلى هزال ويقال « تبلت<sup>(٥)</sup> الفؤاد » أى : تاه الإنسان فى الامر .

ثم تاتى بعد ذلك مرحلة الهيام<sup>(٦)</sup> ، أى : يهيم الإنسان على

(١) علق الشيء علماً وعَلِقَ به علاقة وعُلُوقاً : لزمه . والعلاقة : الهوى والحب اللازم للقلب . وقد علقها علماً وعلاقة وعلق بها علوقاً وتعلّق بها : أحبها . وقال الحياضى : العلق الهوى يكون للرجل فى المرأة . [ لسان العرب - مادة : علق ] .

(٢) الكلف : الولوع بالشيء مع شغل قلب ومشقة . وكلف بالشيء كلفاً وكُلفَ : لهج به . وكلف بها أشد الكلف : أحبها . ورجل مكلاف : محب للنساء . [ لسان العرب - مادة : كلف ] .

(٣) المشق : شدة الحب . وسمى العاشق عاشقاً لأنه يتبدل من شدة الهوى كما تبدل العنقة إذا قطعت . والعنقة : شجرة تخضر ثم تدبّق وتصفّر . عن الزجاج . [ لسان العرب - مادة : عشق ] .

(٤) قال ابن القيم فى روضة المحبين ( ص ٥٩ ) : « وأما التدليه ففى الصحاح : التدليه ذهب العقل من الهوى ، يقال : دلّه الحب ، أى : حيرته وأذهبه » .

(٥) قال فى روضة المحبين ( ص ٤٩ ) : « أما التبلّة فهى فعالة من تبلّه إذا أفناه . قال الجوهري : تبلهم الدهر وأتبلهم إذا أفناهم . وتبله الحب وأتبله ، أى أسقمه وأفسده » .

(٦) الهيام : كالجنون . وقد هيمه الحب . والاسم الهيام . ورجل هيمان : محب شديد الوجد . قال ابن السكيت : الهيم : مصدر هام يهيم هيماً وهيماناً إذا أحب المرأة . والهيام : المُشاق . والهيوم : أن يذهب على وجهه . [ لسان العرب - مادة : هيم ] .

وجهه : فلا يعرف له هدفاً ، فإن تبع ذلك جرم صار اسمه  
« جوى »<sup>(١)</sup> .

تلك هي مراحل الحب التي تمر بالقلب<sup>(٢)</sup> ، والقلب - كما نعلم -  
هو الجهاز الصنوبري ، ويُسمونه مَقَرَّ العقائد المنتهية ، والتي بحثها  
الإنسان واعتقدها بالفعل .

فالإنسان منا يدرك الأشياء بحواسه الظاهرة ، يرى ويشم ويسمع  
ويذوق ويلمس ، فإذا أدرك بعضاً من الأمور : فهو يعرضها على  
العقل ليوازن بينها : ويختار الأكثر قبولاً منه ، وبعد ذلك تذهب تلك  
الأمور المقبولة إلى القلب : لتستقر عقيدة فيه لا يحيد عنها .

أما المسائل العقلية : فقد تأتي مسائل أخرى تزحزحها : ولذلك  
يُقال للأمور التي استقرت في القلب « عقائد » ، أي : شيء معقود  
لا ينحل أبداً .

وما يصل إلى هذه المرتبة يظهر أثره في إخضاع سلوك حركة  
الحياة عليه ، وإذا ما استقر المبدأ في نفس الإنسان : فهو يجعل كل  
حركته في ظل هذا المبدأ الذي اعتقده .

وهكذا نعرف : كيف تمر العقيدة بعدة مراحل قبل أن تستقر في  
النفس . فالإدراك<sup>(٣)</sup> يحدث أولاً : ثم التعقل ثانياً : وبعد ذلك يعتقد

(١) الجوى . الحرقه وشدة الوجد من عشق أو حزن . [ لسان العرب - مادة : جوى ] .

(٢) ذكر ابن القيم في روضة المحبين ( ص ٢٥ ) نحواً من ستين اسماً للمحبة ، لكل اسم  
مقام أو درجة في الحب .

(٣) ويتفق مراد الإمام مع ما ذهب إليه علماء النفس عند اختيار الأشياء . فلا بد من الإدراك ،  
ثم الانفعال ، ثم النزوع . أي : الاختيار .

الإنسان الامر، ويصبح كل سلوك من بعد ذلك وفقاً لما اعتقده الإنسان .

وكلمة : ﴿ شَقَقَهَا حَبًّا ٣٠ ﴾ [يوسف]

تعني أن المشاعر انتقلت من إدراكها إلى عقلها إلى قلبها ،  
والشغاف هو الغشاء الرقيق الذي يستر القلب : أى : أن الحب تمكّن  
تماماً من قلبها .

وقولهن :

﴿ إِنَّا نَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٣١ ﴾ [يوسف]  
هو قول حق أريد به باطل .

ولذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك ما يوضح مقصدهن :

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَعًا <sup>(١)</sup>  
وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ  
أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا <sup>(٢)</sup>  
إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ٣٦ ﴾

(١) تكىء يتكىء : جلس متمكناً ، أصله اوتكا ، قال تعالى : ﴿ وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ٣٥ ﴾ [الزخرف] وقال أيضاً : ﴿ مُتَكَبِّرِينَ لَهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ٣٥ ﴾ [الكهف] . والمتكا : اسم مكان .  
قال تعالى : ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَعًا ٣٥ ﴾ [يوسف] أى : مكاناً مريحاً يجلسن فيه متمككات  
متمككات . والمتكا : ما يتكىء عليه الإنسان من مخدة أو أريكة . [ القاموس القويم ٢/٣٥٢ ] .  
(٢) أكبر الشيء : عده كبيراً ، أو عظم شأنه به فركه كبيراً ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ رَأَيْنَاهُ أَكْبَرَنَهُ ٣٦ ﴾ [يوسف] [ القاموس القويم ٢/١٥٠ ] .

(٣) حاشى هـ ، أى : براءة هـ ومعللاً هـ ، قال ابن الأنبارى : معنى حاشى فى كلام العرب  
اعزل فلاناً من وصف القوم بالعشى وأعزله بتأخيه ، ولا أدخله فى جملةهم . [ لسان  
العرب - مادة : حشا ] .

ولسائل أن يقول : وكيف انتقل لهنَّ الكلام عن الذي حدث بينها وبين يوسف ؟

لا بدُّ أن هناك مرحلة بين ما حدث في القصر : وكان أبطاله أربعة هم : العزيز ، وامراته ، ويوسف ، والشاهد ، ولا بد أن يكون مَنْ نقل الكلام إلى خارج القصر : إنسان له علاقة بالـقصر فسمع ورأى وأدرك : ونقل ما علم إلى مَنْ له به علاقة خارج القصر.

وبحث العلماء عن علاقة النسوة اللاتي ثرثن بالأمر ، وقال العلماء<sup>(١)</sup> : هنَّ خمسة نساء : امرأة الساقى ، وامرأة الخباز ، وامرأة الحاجب ، وامرأة صاحب الدواب ( أى : سائس الخيل ) ، وامرأة السجن .

وهؤلاء النسوة يَعِشْنَ داخل بيوتهن : فمن الذي نقل لهنَّ أسرار القصر ؟

لا بدُّ أن أحداً من أزواجهن قد أراد أن يُسَلِّي أهله ، فنقل خبر امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام : ثم نقلت زوجته الخبر إلى غيرها من النسوة .

وحين وصل إلى امرأة العزيز الخبر : وكيف يمكن بها : أرسلت إليهن :

﴿ وَأَعَدَّتْ لهنَّ مَكَاً وَأَنْتَ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا .. ﴾ (٢٦) [يوسف]

والمتكا هو الشيء الذي يستند إليه الإنسان حتى لا يطول به مكلٌّ

(١) انظر : تفسير القرطبي (٢٤٩٨/٤) ، نكوه عن لبن عباس وغيره .

من كيفية جلسته ، والمقصود بالقول هو أن الجلسة سيطول وقتها ، وقد خططت لتكشف وَقَعَ رؤية يوسف عليهن ، فقدمت لكل منهن سكيناً ؛ وهو ما يوحى بأن هناك طعاماً سوف يؤكل .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ .. (٣١) ﴾ [يوسف]

ويقال : أكبرت الشيء ، كأنك قد تخيلته قبل أن تراه على حقيقته ؛ وقد يكون خيالك قد رسم له صورة جميلة ، إلا أنك حين ترى الشيء واقعاً : تكبر المرائي عن التخيل .

والمثل أن إنساناً قد يحدثك بخير عن آخر ؛ ولكنك حين ترى هذا الآخر تفاجأ بأنه أفضل مما سمعت عنه .

والشاعر يقول :

كَادَتْ مُسَاءِلَةُ الرُّكْبَانِ تُخْبِرُنِي      عَنْ جَعْفَرِ بْنِ حَبِيبٍ أَصْدَقَ الْقِيَمِ  
حَتَّى التَّقِينَا فَلَا وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ      أَدْنَى بَاطِيْبٍ مِمَّا قَدْ رَأَى بَصَرِي  
ويقولون لي المقابل : سماعك بالمعبدى خير من أن تراه<sup>(١)</sup> . أى :  
يا ليتك قد ظللت تسمع عنه دون أن تراه ؛ لأن رؤيتك له ستُنْقِصُ من قدر ما سمعت .

(١) هذا مثل يضروب لمن خبره خير من مرآته ، يضرب للرجل الذى له صيت ونكر ، فإذا رآته أذريت مرآته . ومعنى : حَى أو اسم للقبيلة . فاما قولهم فى المثل : تسمع بالمعبدى لا أن تراه ، فمخفف عن القياس اللازم لى هذا الضرب . [ لسان العرب - مادة : معد ] .



وَهُنَّ حِينَ آذَيْنَ امْرَأَةَ الْعَزِيزِ بِتَدَاوُلِ خَبَرِ مُرَاوَدَتِهَا لَهُ عَنْ نَفْسِهِ ،  
تَخِيلَنَّ لَهُ صُورَةٌ مَا مِنَ الْحُسْنِ ، لَكِنَّهُنَّ حِينَ رَأَيْنَهُ فَاقَتْ حَقِيقَتَهُ  
الْمَرْتِيَةِ كُلَّ صُورَةٍ تَخِيلُنَّهَا عَنْهُ ؛ فَحَدَّثَ لَهُنَّ انْبِهَارَ .

وأول مراحل الانبهار هي الذهول الذي يجعل الشيء الذي طرأ  
عليك يذهلك عما تكون بصدده ؛ فإن كان في يدك شيء قد يقع منك .

وقد قطعت كل منهن يدها بالسكين التي أعطتها لها امرأة العزيز  
لتقطيع الفاكهة ، أو الطعام المقدم لهن .

وقال الحق سبحانه في ذلك :

﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْتَهُ فَقَطَعْنَ<sup>(١)</sup> أَيْدِيَهُنَّ .. (٣١) ﴾ [يوسف]

وهل هناك تصوير يوضح ما حدث لهن من ذهول أدق من هذا  
القول<sup>(٢)</sup> ؟

ويتابع سبحانه :

﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣٢) ﴾ [يوسف]

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (٢/٤٠٢) : « قال مجاهد : قطعنها حتى ألقينها . وقيل :  
خدشنها . وروى ابن أبي نجيع قال : حَزَّ بالسكين . قال النحاس : يريد مجاهد أنه ليس  
قطعا تبين منه اليد . إنما هو خدش وحز . وذلك معروف في اللغة أن يقال إنا خدش  
الإنسان يد صاحبه قطع يده » .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٢/٤٧٦) : « ذكر نجر واحد أنها قالت لهن - بعد أن كنت كل  
واحدة منهن سكيناً - : هل لَكُنَّ في النظر إلى يوسف ؟ قُلْنَ : نعم . فبعثت إليه نامره أن  
أخرج إليهن . فلما رأينه جعلن يقطعن أيديهن . ثم أمرته أن يرجع . فرجع وهن يحزنن في  
أيديهن . فلما لمسسن بالالم جعلن يولولن . فقالت : أنتن من نظرة واحدة فطعنن هذا ،  
فكيف ألام أنا ؟ » .

وكلمة : ﴿ حَاشَ .. ﴾ (٣١)

[يوسف]

هى تنزيه لله سبحانه عن العجز عن خلق هذا الجمال المثالى ،  
أو : أنهم قد نَزَّهُنَّ صاحب تلك الصورة عن حدوث منكر أو فاحشة  
بينه وبين امرأة العزيز ، أو : أن يوسف عليه السلام لا بد أن يكون  
قد خرج عن صورة أرقى من صورة الإنس التى يعرفونها<sup>(١)</sup> : فَقُلْنَ :  
لا بد أنه ملك كريم .

وصورة الملك كما نعلم هى صورة مُتَخَيِّلَة ، والإنسان يحكم على  
الاشياء المُتَخَيِّلَة بما يناسب صورتها فى خياله ، مثلما نتخيل الشيطان  
كأبشع ما تكون الصورة .

والبشاعة نفسها تختلف من واحد إلى آخر : فما تراه بشعاً قد  
لا يراه غيرك كذلك : لأن مقاييس القبح أو الجمال تختلف من أمة إلى  
أخرى .

فالمرأة الجميلة فى أواسط إفريقيا فى نظر الرجل هى ذات الشفاه  
الغليظة جداً : أو صاحبة الشعر المُجَعَّد والمُتَمَوِّج .

وأكدت الحضارة الحديثة أن هذا لونٌ من الجمال يجذب إليه  
الرجل فى بعض الحالات : بدليل أن بعضاً من السيدات ذوات الشعر  
الناعم للغاية يذهبن إلى مُصَفِّفَة الشعر ، ويطلبن منها تجديد  
شعورهن .

(١) قال القشبرى أبو نصر وذكرنا النسوة أن صورة يوسف أحسن من صورة البشر . بل  
هو فى صورة ملك . وقال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين]  
والجمع بين الآيتين أن قولهن ( حاش لله ) تبرئة ليوسف عما رمته به امرأة العزيز من  
المرادة . ذكره القرطبي فى تفسيره (٢٥٠٥/٤) .

إذن : فالجمال يُقاس بالأنواق ؛ هذا يرى جمالاً قد يراه غيره غير هذا ؛ وذاك يرى جمالاً لا يراه غيره كذلك .

والحق سبحانه يقذف معايير الجمال في النفس الإنسانية على قَدَرِ مَقَوِّمَاتِ الالتقاء في الانسجام .

ولذلك يُقال في الريف المصري هذا المثل «كل قولة ولها كَيْال» .

ونجد شاباً يتقدم لفتاة يرغب في الزواج منها ؛ وما أن يراها حتى ينفر منها ، ويتقدم لها شاب آخر فيقع في هواها ، ويتعجل الزواج منها ، وهذا يعني أن مقاييس الأول تختلف عن مقاييس الثاني.

وحين يشاء الحق سبحانه أن يجمع بين اثنين فلا أخذَ بقادر على أن يمنع القبول من كل طرف للطرف الآخر ؛ وهذه مسألة لها من الأسرار ما لا نعرفه نحن ؛ لأنه سبحانه الذي يكتب القبول ؛ ويظهر في المرأة جمالاً قد يجذب رجلاً ولا يجذب رجلاً آخر ، ونفس المسألة تحدث في نفسية المرأة .

إذن : فحين رأت النسوة يوسف عليه السلام ؛ قُلْنَ :

﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (٢١)

وهذا يعني أن يوسف هو الصورة العليا في الجمال التي لا يوجد لها مثيل في البشر<sup>(١)</sup> .

(١) عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أعطى يوسف وأمه شطر الحسن » أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٦/٣) والحاكم في مستدركه (٥٧٠/٣) .

وأورد السيوطي في كتابه ( الدر المنثور ) ( ٥٢٢/٤ ) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كان وجه يوسف مثل البرق ، وكانت المرأة إذا نكت لحاجة ستر وجهه مخافة أن تفستن به . وعزاه للحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والطبراني .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان امرأة العزيز رداً

عليهن :

﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رُودَتْهُ عَنْ  
نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لَيَسْجَنَنَّ  
وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ (٣٢)

وكانها وجدت الفرصة لتثبت لنفسها العذر في مراودتها له ،  
فيوسف باعترافهن قد بلغ من الجمال ما لا يوجد مثله في البشر .

وقولها : ﴿ فَذَلِكُنَّ .. ﴾ (٣٢)

مكون من « ذا » إشارة ليوسف ، و « ذالكُنَّ » خطاب للنسوة ،  
والإشارة تختلف عن الخطاب .

(١) لامة يلومه لوماً . مثله على عمل لا ينبغي ولا يليق فهو لائم . وتلاوم الرجلان : لام كل  
منهما الآخر : ﴿ فَالَّذِينَ يَعْصُونَ عَلَى يَدَيْهِمْ يَتْلَاوَمُونَ ﴾ (٣٥) [القلم] ، والام . جر على نفسه اللوم  
يفعل ما لا ينبغي فهو ملیم : مستحق للوم . قال تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا الْفُرُوتَ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ (٤٤)  
[الصافات] أى : مذنب مستحق للوم . [ القاموس القويم ٢٠٨/٢ ] يتصرف .

(٢) عصمه يعصمه : منه ووقاه ، قال تعالى . ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (٦٧) [المائدة] يحفظك  
ويقيك . وقوله : ﴿ مَاوَى إِلَى جِبَلٍ يَهِيمُونَ مِنَ الْمَاءِ ﴾ (٤٢) [هود] يحفظنى . واعتصم : تمسك  
بقوة . قال تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا .. ﴾ (٢٤٠) [آل عمران] أى : تمسكوا بدينه .  
واستعصم : طلب لنفسه العصمة وتمسك بها ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَاودَنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاَسْتَعْصَمَ  
(٣٢) ﴾ [يوسف] أى : فامتنع متمسكاً بعصمته وعفة نفسه وبحفظها من السوء . [ القاموس  
القويم ٢٢٣/٢ ، ٢٤ ] .

(٣) الصَّغِيرُ يكون مادياً في الحجم . ويكون معنوياً في القدر والمنزلة وهو ضد الكبير .  
وصغير : في حجمه أو في قدره ومنزلته ، فمن المادى قوله : ﴿ وَلَا تَسْأَلُوهُنَّ عَنْ تَكْفِيرٍ صَغِيرٍ  
أَوْ كَبِيرٍ ﴾ (٦٨) [البقرة] ، ومن المعنوى قوله : ﴿ إِنَّهُ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ (٦٧) [الاعراف]  
[ القاموس القويم ٣٧٧/١ ] .

وهنا موقف أسلوبى : لأن الكلام حين يُنطق به ، أو حين يُكتب ليقرأ : له ألوان متعددة ، فمرة يكون نثراً لا يجمعه وزن أو قافية<sup>(١)</sup> ؛ وقد يكون نثراً مسجوعاً<sup>(٢)</sup> أو مُرسلاً ، ومرة يكون الكلام شعراً محكوماً بوزن وقافية .

والمثل على النثر المسجوع هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَالطُّورِ <sup>(١)</sup> ﴾ وَكِتَابٍ مُّسْتَوٍ <sup>(٢)</sup> فِي رَقٍّ <sup>(٣)</sup> مُّثَشَّرٍ <sup>(٤)</sup> وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ <sup>(٥)</sup> ﴿ [الطور]

وهذا نثر مسجوع بلا تكلف ، وأنت إذا سمعت أو قرأت كلاماً ؛ فاذنك تأخذ منه على قدر سُمُو أسلوبه ، لكنك إن انتقلت من أسلوب إلى أسلوب ، فاذنك تلتقط الفارق بين الأسلوبين .

والمثل تجده فى الرسالة التى كتبها ابن زيدون<sup>(٥)</sup> مُستعظفاً ابن جهور:

(١) القافية من الشعر : سميت قافية لأنها تقف البيت . وقال الأخفش : القافية آخر كلمة فى البيت .  
(٢) المسجع : الكلام المتقضى . وسجع يسجع سججاً تسجيماً : تكلم بكلام له فواصل كلواصل الشعر من غير وزن . وصاحبه سجعاًة وهو من الاستواء والاستقامة والاشتباه كان كل كلمة تشبه صاحبها . قال ابن جنى : سمي سججاً لاشتباه أواخره وتناسب فواصله . [ لسان العرب - مادة : سجع ] .

(٣) الطور : جبل بسيفاء نزل عنده موسى عليه السلام بعد خروجه مع قومه من مصر ، قال تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ <sup>(٤)</sup> ﴾ [النساء] . ويُسمى أيضاً : ﴿ طُورِ سِيفَاء <sup>(٥)</sup> ﴾ [المؤمنون] و ﴿ وَطُورِ مِيبِينَ <sup>(٦)</sup> ﴾ [التين] . [ القاموس القويم ٤٠٨/١ ] .

(٤) الرق : الجلد الرقيق يكتب عليه . وأطلق على الصحيفة البيضاء يكتب عليها . [ القاموس القويم ٢٧٢/١ ] .

(٥) هو : أحمد بن عبد الله بن زيدون المضرىمى الأندلسى ، أبو الوليد . وزير كاتب شاعر . من أهل قرطبة . ولد ٢٩٤ هـ . انقطع إلى ابن جهور ( من ملوك الطوائف بالأندلس ) فكان لسفير بينه وبين الأندلس . توفى بإشبيلية عام (٤٦٣هـ) فى أيام الممتمد على الله ابن المعتضد . [ الاعلام للزركلى ١٥٨/١ ] . يتصرف .

« هذا العتب محمود عواقبه ، وهذه الغمرة نبوة ثم تنجلي ، ولن يريبنى من سيدى إن أبطأ سببه أو تأخر ، غير ضنين ضناه ، فابطأ الدلاء قبضاً أملؤها ، وأثقل السحاب مشياً أعقلها ، ومع اليوم غد . ولكل أجل كتاب ، له الحمد على اهتباله ، ولا عتب عليه فى اغتفاله . فإن يكن الفعل الذى ساء واحداً فافعله اللاتى سررن ألفوف وهكذا تشعر انتقال ابن زيدون من النثر إلى الشعر ، ولكنك وأنت تقرأ القرآن ، تنتقل من النثر المرسل إلى النثر المسجوع إلى النظم الشعري على وزن بحور الشعر ، فلا تكاد تفرق فى الأسلوب بين شعر أو نثر .

والمثل نجده فى الآية التى نحن بصدد خواتمنا عنها :

﴿ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ (٣٧) ﴾ [يوسف]

فهى موزونة من بحر البسيط ، ولكنك لا تشعر أنك انتقلت من نثر إلى شعر .

وكذلك قوله الحق :

﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦) ﴾ [النور]

وايضاً قوله الحق :

﴿ نَبِيٍّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) ﴾ [الحجر]

(١) قال الأزهري : قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم والكسائي : اهنا الصراط المستقيم . بالصاد . وقرأ يعقوب بالسين . قال : وأصل صاده سجن فلبث مع طاء صاداً لقرب مغلجها . قال الجوهري : الصراط والسرط : الطريق - [ لسان العرب - مادة : صراط ] .

وتأتى تلك الآيات فى مواقع قد يكون ما قبلها نشرًا ، مما يدل على أن النغم الذى قاله الله نَظْمًا أو شعرًا أو نشرًا لا نشاز<sup>(١)</sup> فيه ، ويكاد أن يكون سَيِّلاً واحداً .

وهذا لا يتأتى إلا من كلام الحق تبارك وتعالى ، وأنت لن تشعر بهذا الامر لو لم يُنبِّهك أحد لما فى بعض الآيات من وزن شعري .

أما كلام البشير : فانت إن قرأت الموزون : ثم انتقلت إلى المنثور : أحسست أذنك بهذا الانتقال : ونفس المسألة تشعر بها حين تقرأ المنثور ، ثم تنتقل إلى الموزون : وستشعر أذنك بهذا الانتقال .

﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعَصَمَ ۖ ۝ (٣٧) ﴾ [يوسف]

قالت ذلك بجرأة مَنْ رأت تأثير رؤيتهن ليوسف ، وأعلنت أنه استعصم ، وهذا يعنى أنه قد تكلف المشقة فى حجز نفسه عن الفعل ، وهو قول يثبت أن رجولة يوسف غير ناقصة ، فقد جاهد نفسه ليكبتها عن الفعل .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان امرأة العزيز :

﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٨) ﴾ [يوسف]

قالت ذلك وكأنها هى التى تُصدر الأحكام ، والسامعات لها من أكبرن يوسف لحظة رؤيته : تعلن له أن إن لم يطعها فيما

(١) نشر الشيء : ينشره نفوساً : ارتفع . مثل نأشز : مرتفع . ونشز فى مجلسه ينشز : ارتفع قليلاً . وأنشز الشيء : رفعه عن مكانه . [ لسان العرب - مادة : نشز ] .

تريد : فلسوف تسجنه وتُصَفِّرُ من شأنه لإذلاله وإهانته .

أما النُّسُوءُ اللاتى سَمِعْنَهَا : فقد طمعت كل منهن أن تطرد امرأة العزيز يوسف من القصر : حتى تنفرد أى منهن به .

ولذلك يُورد لنا الحق سبحانه قول يوسف عليه السلام :

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ<sup>(١)</sup>  
عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصَبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ<sup>(٢)</sup> ﴾

ولسائل أن يقول : ولماذا جاء قول يوسف بالجمع ، وقال :

﴿ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ .. ﴾ (٣٢) [يوسف]

على الرغم من أن امرأة العزيز هى التى قالت :

﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُصْجِنَنَّ<sup>(٣)</sup> .. ﴾ (٣٢) [يوسف]

(١) الصرف : ردُّ الشيء من حال إلى حال . وصرف السجين : أخلى سبيله ، وصرف القلوب يصرفها : حوّلها من الهدى إلى الضلال : ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ..﴾ (١٧) [التوبة] أى : حوّلها . [ القاموس القويم ٢٧٤/١ ] .

(٢) صبا يصبو : مال وأحب ، قال تعالى : ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصَبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ<sup>(٤)</sup>﴾ [يوسف] أى : أمل إليهن وأفعل ما يفريننى به . وصبا إلى اللهو : حنّ واشتاق إليه . [ القاموس القويم ٣٦٨/١ ] .

(٣) الجهل : الطيش والسفاهة والتعدي بغير حق ، والجهل : ضد العلم وهو الخلو من المعرفة . واسم الفاعل : جاهل ، وصيغة المبالغة : جهول ، ويتحدد معنى الجهل بما يناسب المقام ، قال تعالى : ﴿وَلَنُبَكِّرُنَّ أَكْثَرَهُمْ يَبْهَلُونَ<sup>(٥)</sup>﴾ [الأنعام] . [ القاموس القويم ١٢٥/١ ] .  
بتصرف .



ونقول : لا بُدَّ أن يوسف عليه السلام قد رأى منهن إشارات أو غمزات توحى له بالأمر يعرض نفسه لتلك الورطة التي ستؤدي به إلى السجن ؛ لذلك أدخل يوسف عليه السلام في قوله المفرد - امرأة العزيز - في جمع النسوة اللاتي جمعتهن امرأة العزيز ، وهن اللاتي طلبن منه غمزا أو إشارة أن يخرج نفسه من هذا الموقف .

ولعل أكثر من واحدة منهن قد نظرت إليه في محاولة لاستمالته<sup>(١)</sup> ، وللعيون والانفعالات وقسمات الوجه تعبير أبلغ من تعبير العبارات ، وقد تكون إشارات عيونهن قد دلت يوسف على المراد الذي تطلبه كل واحدة منهن ، وفي مثل هذه الاجتماعات تلعب لغة العيون دوراً هاماً .

وها هو ذا أبو دلامة الشاعر وقد جلس في مجلس الخليفة ، وكان أبو دلامة مشهوراً بقدرة كبيرة على الهجاء<sup>(٢)</sup> . وأراد الخليفة أن يداعبه فقال له : عزمت عليك إلا هجوت واحداً منا .

ودارت عيون في المجلس ، وأشار له كل من حضر المجلس خفية بأنه سيُجزل<sup>(٣)</sup> له العطاء إن ابتعد أبو دلامة عن هجائه ؛ ولأن أبا دلامة معروف بالطمع ، وخشى أن يضيع منه أي شيء من العطايا ؛ لذلك قام بهجاء نفسه ؛ وقال :

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (٣٥٠٧/٤) : أن كل واحدة طلبت أن تخلو به للنصيحة في امرأة العزيز ، والقصد بذلك أن تعذله ( تلومه ) في حقها ، وتأمره بمساعدتها . فقلعه يهيب ، فصارت كل واحدة تخلو به على حدة فتقول له : يا يوسف اقض لي حاجتي فإنا خير لك من سيدتك ، تدعوه كل واحدة لنفسها وتراوده ، فقال : يا رب كانت واحدة فصرن جماعة .

(٢) هجاء يهجو هجاء . شتمه بالشعر . وهو خلاف المدح . قال الليث : هو الوقحة في الأشعار . [ لسان العرب - مادة : هجر ] .

(٣) الجزل . العظيم . وأجزلت له من العطاء أي أكثر . وعطاء جزل وجزيل إذا كان كثيراً . وقد أجزل له العطاء إذا عظم . [ لسان العرب - مادة : جزل ] .

ألا أبلغُ لَدَيْكَ أبا دَلامة      فليسَ مِنَ الْكِرَامِ وَلَا كِرامه  
إِذَا لَبِسَ الْعِمَامَةَ كَانَ قِرْدًا      وَخِزِيرًا إِذَا خَلَعَ الْعِمَامَه  
وهكذا خرج من قسم الأمير : وكسب العطايا التي وعده بها من  
حضرُوا المجلس .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواتمنا عنها نجد يوسف عليه  
السلام قد جمع امرأة العزيز مع النسوة : فقال :

﴿ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ .. ﴾ (٣٣) [يوسف]

أي : أن السجن أفضل لديه من أن يوافق امرأة العزيز على فعل  
الفحشاء ، أو يوافق النسوة على دعوتهن له أن يُحرّر نفسه من  
السجن بأن يستجيب لها ، ثم يخرج إليهن من القصر من بعد ذلك .

ولكن يوسف عليه السلام دعا ربه ، فقال :

﴿ وَالْأَنْصَرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنْ أَصَبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣٤) [يوسف]

ولسائل أن يقول : ولماذا لم يقل يوسف « يا إلهي ، وهو يعلم  
أن مناط التكليف في الألوهية بـ « افعل » و « لا تفعل » ؟

نقول : أراد يوسف أن يدعو ربه باسم الربوبية اعترافاً بفضله  
سبحانه : لأنه هو جلّ وعلا مَنْ رَبَّاهُ وتعهّده : وهو هنا يدعو باسم  
الربوبية ألا يتخلّى عنه في هذا الموقف .

فيوسف عليه السلام يعرف أنه من البشر : وإن لم يصرف الله  
عنه كيدَهُنْ : لاستجاب لغوايتهن ، ولاصبح من الجاهلين الذين  
لا يلتفتون إلى عواقب الأمور .

وعلى الرغم من أن السجن أمر كروه ؛ إلا أنه قد فضله على معصية خالقه . ولأنه لجأ إلى المربي الأول . لتأتي الاستجابة منه سبحانه .  
يقول الحق :

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٢٤ ﴾

وهكذا تفضل عليه الله الذي خلقه وتولى تربيته وحمايته ، فصرف عنه كيدهن ؛ الذي تمثل في دعوتهن له أن يستسلم لهما دعته إليه امرأة العزيز ، ثم غوايتهن له بالتلميح دون التصريح .  
تلك الغواية التي تمثلت في قول الملك من بعد ذلك :

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكَ ۚ إِذْ رَاوَدْتُهُ يُوسُفُ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ۖ ٥١ ﴾

[يوسف]

وهكذا أنجاه الله من مكر النسوة ؛ وهو جلٌ وعلا له مطلق السمع ومطلق العلم ، ولا يخفى عليه شيء ، ويستجيب لأهل الصدق في الدعاء .  
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ بَدَأَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ ۚ لَيْسَ جُنْدُهُمْ فِيْهِمْ حَتَّىٰ يَخِيزُوا ۚ ٣٥ ﴾

(١) الخطب : الشأن الذي تقع فيه المخاطبة والمساءلة . قال تعالى : ﴿ قَالَ لَمَّا خُطِبَ إِلَيْهَا الْمَرْسُوفُونَ

(٥٧) ﴾ [الحجر] أي . ما شأنكم الهام . [ القاموس القويم ١/١٩٨ ] وقال في اللسان : « الخطب :

الشأن أو الأمر ، صغُر أو عظم . ومنه قولهم : جُلُّ الخطب أي . عظم الأمر والشأن » .

(٢) قال ابن عباس : « القميص من الآيات ، وشهادة الشاهد من الآيات ، وقطع الأيدي من

الآيات . وإعظام النساء إياه من الآيات » . ذكره القرطبي في تفسيره (٤/٣٥٠٨) .

وبعد أن ظهرتُ العلامات الشاهدة على براءة يوسف عليه السلام أمام العزيز وأهل مشورته ، وانكشف لهم انحرافُ امرأة العزيز وإصرارها على أن تُوقع بيوسف في الفعل الفاضح معها ، دون خجل أو خوف من الفضيحة .

لذلك رأى العزيز وأهل مشورته أن يُوضَعَ يوسف عليه السلام في السجن ؛ ليكون في ذلك فَصْلٌ بينه وبينها ؛ حتى تهدأ ضجة الفضيحة ؛ وليظهر للناس أنه مسئول عن كل هذا السوء الذي ظهر في بيت العزيز .

كما أن كلمة : ﴿ لَسَجْنَةٌ ۖ ۝٣٥ ﴾ [يوسف]

فيها نوع من استبقاء الحب الذي يَكُنُّه العزيز ليوسف ، فهو لم يأمر بقتله أو تَفْيِهِ بعيداً ؛ بل احتفظ به بعيداً عن الزوجة المُصِرَّة على الخيانة ، وعن المجتمع الذي يَلُوكُ تلك الوقائع .

والسجن - كما نعلم - هو حَبْسُ المسجون لتقييد حركته في الوجود ؛ وهو إجراء يتخذه القاضي أو الحاكم كعقوبة يُراد بها إزلال المسجون ، أو وقاية المجتمع من شره .

ونعلم أن الإنسان لا يجترئ على الأحكام إلا حين يظن أو يعلم أن له قدرة ؛ وله غلبة ؛ فيعلن له القاضي أو الحاكم نهاية تلك الغلبة والقدرة ، ويأمر بدخوله إلى السجن ويحرس تقييد حريته سَجَانٌ ؛ وقد يتعرض للضرب أو الإهانة .

هذا هو السجن المتعارف عليه في العصور القديمة والحديثة ، حين تعزل المسجون عن المجتمع ، وقد يعطف عليه بعض من أبناء

المجتمع ، ويزوره بعض من أقاربه ؛ ومعهم المأكولات ؛ والمطلوبات .  
ولكن هناك سجن ديني أسسه رسول الله ﷺ ؛ حين عزل المجتمع  
الإيماني عن السجين ، وقد أمر رسول الله ﷺ ألا يكلم أحد الثلاثة<sup>(١)</sup>  
الذين تخلفوا عن الخروج معه للقتال بحجج واهية ؛ بل وتسامى هذا  
العزل إلى أن صار عزلاً عن الأهل ، إلى أن أمر ﷺ بإنهاء هذا العزل  
بعد أن تحقق الغرض منه .

وماذا عن حال يوسف في السجن ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي  
أَرِنِي أَحْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرِنِي أَحْمِلُ فَوْقَ  
رَأْسِي خُبْزَاتِنَا كُلُّ الطَّيْرِ مِنْهُ نَبْتَنَاءٌ وَإِلَيْهِ إِنَّا نَرْجِعُ ۝٣٧﴾

مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

(١) هؤلاء الثلاثة هم : كعب بن مالك ، ومراة بن الربيع العامري ، وهلال بن أمية الواقفي .  
أخرج مسلم في صحيحه (٢٧٦٩) حديث كعب وفيه قصتهم كاملة في التخلف عن الخروج مع  
رسول الله ﷺ في غزوة تبوك .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٢٥١١/٤) . . قال « فتیان » لأنهما كانا عبيدين ، والعبد يُسمى  
فتى . صغيراً كان أو كبيراً . ذكره الماوردي . وقال القشيري : ولعل الفتى كان اسماً للعبد  
في عرفهم ، ولهذا قال : ﴿ تَرَاوَعَا فَمَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ [يوسف] . .

(٣) الخمر : الشراب المسكر الذي يغطي العقل ويذهب به ، وهي إما مأخوذة من خمرت  
الشيء ، سترته لأنها تستر العقل ، أو من خمرت العجين : وضعت فيه الخمير فتفاعل معه  
فاختمر . والخمر في صنفها يوضع الخمير على العسير ويترك حتى يخمّر فتؤخذ منه  
الخمر . قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ۝٣٨﴾ [البقرة] وقوله  
تعالى : ﴿ إِنِّي أَرَأَيْتُ أَصْعَبُ خَمْراً ۝٣٩﴾ [يوسف] أي : أعصر عبثاً ليصير خمراً فهو مجاز  
موسل علاقته ما سينزل إليه . [ القاموس القويم ٢٠٩/١ ] بتصرف .

(٤) قال القرطبي في تفسيره (٢٥١٢/٤) : « إحصانه ما كان يعود المرضي ويدأويهم ، ويعزى  
الحراني . قال الضحاك : كان إذا مرض الرجل من أهل السجن قام به ، وإذا ضاق وسع  
عليه ، وإذا احتاج جمع له ، وسأل له . .

المعية التي دخل فيها اثنان من الفتية معه السجن هي معية ذات ، وقيل : إنهما الخباز والساقى ، وقيل : إن سبب دخولهما هو رغبة بطانة عزيز مصر فى التشويش على ما حدث من فضيحة كبرى ؛ هي فضيحة مراودة امرأة العزيز ليوسف : ورفض يوسف لذلك .

وكان التشويش هو إذاعة خبر مؤامرة على العزيز ؛ وأن الساقى والخباز قد تم ضبطهما بمحاولة وضع السم للعزيز<sup>(١)</sup> .

وبعد فترة من حياة الاثنین مع يوسف داخل السجن ، وبعد معايشة يومية له تكشف لهما سلوك يوسف كواحد من المحسنين .

وحدث أن رأى كل منهما حلمًا ، فقررا أن يطلبوا منه تأويل هذين الحلمين ، والسجين غالباً ما يكون كثير الوسواس ، غير آمن على غده ؛ ولذلك اتجها إليه فى الامر الذى يهمهم :

﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣٦) [يوسف]

ومن سياق الكلام نعرف أننا أمام حلمين ؛ فواحد منهما رأى فى منامه أنه يعصر خمراً ، ورأى الثانى أنه يحمل خُبْرًا فوق رأسه تاكل منه الطير ، واتجه كلاهما - أو كُلُّ منهما على حدة - يطلبان - تأويل الرؤييين المناميتين ، أو أنهما قد طلبا نبأ تأويل هذا الامر الذى رأياه .

(١) مما ذكر فى هذا ما قيل من أن الملك غضب على خبازه وصاحب شرابه ، وذلك أن الملك غمر فيهم فعلوه فندسوا إلى خبازه وصاحب شرابه أن يسمّاه جميعاً ، فاجلب الخباز وأبى صاحب الشراب ، فانطلق صاحب الشراب فأخبر الملك بذلك ، فأمر الملك بحبسهما .

فاستأنسا بيوسف . [ تفسير القرطبي ٢٠١١/٤ ] باختصار .

وحيثية لجوئهما إليه هو قولهما :

﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣٦)

[يوسف]

وهذا يدل على أن الإحسان أمر معلوم لكل البشر ، حتى أصحاب النفوس المنحرفة ، فلا أحد يمكن أن يحكم على آخر أنه محسن إلا إذا وافق عمله مقاييس الإحسان في ذهن من يصدر هذا الحكم .

فكل نفس تعرف السوء ، وكل نفس تعرف الإحسان ، ولكن الناس ينظرون إلى الإحسان وإلى السوء بذاتية أنفسهم ، ولكنهم لو نظروا إلى مجموع حركة المتحركين في الكون ، ونظروا إلى أي أمر يتعلق بالغير كما يتعلق بهم ؛ لعرفوا أن الإحسان قدر مشترك بين الجميع .

ونجد اللص - على سبيل المثال - لا يسيئه أن يسرق أحداً ، لكن يسيئه لو أن أحداً قام بسرقة ، وهكذا نرى الإحسان وقد انتقض في أعماقه حين يتوجه السوء إليه ، ويعرف حينئذ مقام الإحسان ، ولكنه حين يمارس السرقة ؛ ويكون السوء متوجهاً منه إلى الغير ؛ فهو يغفل عن مقام الإحسان .

إن : إن أردت أن تعرف مقام الإحسان في مقاييس الفضائل والأخلاق ؛ فافهم الأمر بالنسبة لك إيجاباً وسلباً .

والمثال الذي أضربه دائماً هو : قبل أن تمد عينيك إلى محارم غيرك ، وتعتبر أن هذا ليس سوءاً ، هنا عليك أن تعرف مقياسه من الحسن إن نقلت الأمر إلى الصورة العكسية ؛ حين تتجه عيون الغير إلى محارمك .

هنا ستجد الميزان - ميزانك للأمور - وقد اعتدل . وإذا أردت اعتدال الميزان في كل فعل ؛ فانظر إلى الفعل يقع منك على غيرك ؛ وانظر إلى الفعل يقع من الغير عليك ؛ وانظر إلى الراجح في نفسك من الأمرين ستجد قب الميزان منضبطاً .

واقول دائماً : إن الحق سبحانه حين حرم عليك أن تسرق غيرك ، لم يضيق حريتك ؛ بل ضيق حرية الملايين كي لا يسرقوك ، وهذا مكسب لك .

إنن : فالذى يعرف مقام الإحسان ؛ لا ينسب الفعل الصادر منه على الغير ؛ والفعل الصادر من الغير عليه ؛ بل ينظر إليهما معاً ؛ فما استتبعه من الغير عليه ؛ فليستتبعه منه على الغير .

وقد حكم السجينان على يوسف أنه من المحسنين ، وعلم يوسف عليه السلام من حكمهما عليه أن مقاييس الإحسان موجودة عندهما ؛ ولذلك نظر إلى الأمر الذى جاءه من أجله ، واستغل هذه المسألة ؛ لا لقضاء حاجتهما منه ؛ ولكن لقضاء حاجته منهما .

فقد رأى فيهما شبهة الإيمان بالإحسان ؛ والإيمان بالمحسنين ، فلماذا لا ينتهز الفرصة فيأخذ حاجته منهما ؛ قبل أن يعطيتهما حاجتهما منه ؟

وكانه قال لهما : ماذا رأيتما من إحسانى ؟ هل رأيتم حسن معاملتى لكم ؟ أم أن كلاً منكما قد رأى دقة اختياري للحسن من القول ؟ وأنتما قد لا تعرفان أن عندى - بفضل الله - ما هو أكثر ، وهو ما يقوله الحق سبحانه بعد ذلك فى الآية التالية :



﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا  
بِتَأْوِيلِهِ ۚ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي  
إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ  
هُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٣٧)

وبذلك أوضح لهما أنهما لا يريان منه إلا الظاهر من السلوك .  
ولكن هناك أمور مخفية ، وكأنه يُنمى فيهما شعورهما بمنزلته  
وبإحسانه وبقدرته على أن يخبرهما بأوصاف ونوع أى طعام يُرْزَقَانِهِ  
قبل أن يأتى هذا الطعام<sup>(١)</sup> .

وهذه ليست خصوصية فى يوسف أو من عندياته ، ولكنها من  
علم تلقاه عن الله ، وهو أمر يُعلِّمه الله لعباده المحسنين ؛ فيكشف الله  
لهم بعضاً من الأسرار .

وهما - السجينان - يستطيعان أن يكونا مثله إن أحسنّا الإيمان بالله .  
ولذلك يتابع الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ  
بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٣٧) [يوسف]

(١) الملة - الدين ، حقاً كان أو باطلاً ، فمن الحق قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ ﴾ [البقرة] . (٣٦) . وهو الدين الحق . ومن الباطل قوله : ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعْدِلُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ ۚ ﴾ [الكهف] . (٣٦) . وهو ملة باطلة . [ القاموس القويم ٢٣٦/٢ ] .

(٢) ذكر القرطبي فى تفسيره (٣٥١٢/١) قوله : ﴿ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ ۚ ﴾ (٣٧) [يوسف]  
يعنى : لا يجيئكما غذا طعام من منزلكما : ﴿ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ۚ ﴾ (٣٧) [يوسف] لتعلمنا انى  
اعلم تاويل رؤياكم . وكان هذا من علم الغيب خص به يوسف ، وبين أن الله خصه بهذا  
العلم ؛ لانه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله . يعنى : دين الملك .

وكانه بذلك يهديهما إلى الطريق الذي يجعلهما من المحسنين الذين يعطيهم الله بعضاً من هبات الخير ، فيعلمون أشياء تخفى على غيرهم .

وهذا يدلنا على أن المؤمن إذا رأى في إنسان ما مخيلة<sup>(١)</sup> خير فليُنمى هذه المخيلة فيه ليصل إلى خير أكبر ؛ وبذلك لا يحتجز الخصوصية لنفسه حتى لا يقطع الأسوة الحسنة ؛ ولكي يُطمع العباد في تجليات الله عليهم وإشراقاته .

ولذلك أوضح يوسف عليه السلام للسجينين أنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله بما يليق الإيمان به سبحانه ، ولا يؤمنون بالبعث والحساب ثواباً بالجنة ، أو عقاباً في النار .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف عليه السلام :

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ<sup>(٢)</sup> مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ<sup>(٣)</sup> ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٢٨)

(١) إنه لمخيل للخير أي : خليق له ، وأخال فيه خالاً من الخير وتخيّل عليه تخيلاً ، كلاهما : اختاره وتفرّس فيه الخير . وتخيّل فيه خالاً من الخير وأخلت فيه خالاً من الخير أي : رايت مخيلته . وتخيّل الشيء له : تشبّه . وتخيّل له أنه كذا أي تشبّه وتغافل ، يقال : تخيلته فتخيّل لي ، كما تقول تصوّره فتصور . وتبينته فتبين . وتحققت فتعلق . [ لسان العرب - مادة : خيل ] .

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام » أخرجه الترمذي في سننه (٢١١٦) ، وأحمد في مسنده (٢/٣٢٢ ، ٤١٦) ، والحاكم في مستدركه (٢/٢٤٦) .

وبذلك أوضح يوسف عليه السلام أنه ترك ملة القوم الذين لا يعبدون الله حقَّ عبادته ، ولا يؤمنون بالآخرة ، واتبع ملة آبائه إبراهيم ثم إسحق ثم يعقوب ، وهم مَنْ أرسلهم الله لهداية الخلق إلى التوحيد ، وإلى الإيمان بالآخرة ثواباً بالجنة وعذاباً بالنار .

وذلك من فضل الله بإنزاله المنهج الهادى ، وفضله سبحانه قد شمل آباء يوسف بشرف التبليغ عنه سبحانه ؛ ولذلك ما كان لمنْ يعرف ذلك أنْ يشرك بالله ، فالشرك بالله يعنى اللجوء إلى آلهة متعددة .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لُذِبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (٩١)

[المؤمنون]

فلو أن هناك آلهة غير الله سبحانه لصنع كلُّ إله شيئاً لا يقدر على صنعه الإله الآخر ؛ ولأصبح الامر صراعاً بين آلهة متنافرة .

ومن فضل الله - هكذا أوضح يوسف عليه السلام - أن أنزل منهجه على الأنبياء ؛ ومنهم آباؤه إبراهيم وإسحق ويعقوب ؛ ليبلغوا منهجه إلى خلقه ، وهم لم يحبسوا هذا الفضل القادم من الله ، بل أبلغوه للناس .

﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٢٨)

[يوسف]

وساعة تقرا أو تسمع كلمة : ﴿ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٢٨)

[يوسف]

اعلم أن الامر الذى أنت بصددده هو فى مقاييس العقل والفطرة

السليمة يستحق الشكر ، ولا شُكْرُ إلا على النعمة .

ولو فَطَنَ الناسَ لَشَكَرُوا الانبياء والرسل على المنهج الذى بلغوه  
عن الله ؛ لأنه يهديهم إلى حُسْنِ إدارة الدنيا ، وفوق ذلك يهديهم إلى  
الجنة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما واصله يوسف من حديثه  
للسجينين :

يَصْحَبِ السَّجْنِ أَرْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ<sup>(١)</sup>  
خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ<sup>(٢)</sup>

وكلمة « صاحب » معناها ملازم<sup>(٣)</sup> : والجامع بين يوسف  
والسجينين هو السجن ، ونحن نقول « فلان صاحب الدراسة » أو  
« صاحب حج » ، الشيء الذى يربط بين اثنين أو أكثر ، إما أن تنسبه  
للمكان ، أو تنسبه إلى الظرف الذى جمع بين تلك المجموعة من  
الصحبة .

(١) الرب : هو الله عز وجل ، وهو رب كل شيء أى مالكه ، وله الربوبية على جميع الخلق ،  
لا شريك له ، وهو ربُّ الأرباب . ورب كل شيء : مالكه ومستحقه . والرب يطلق فى اللغة  
على المالك والسيد والمدبّر والمربّى والصاحب والقيّم والمنعم . [ لسان العرب - مادة :  
رب ] بتصرف .

(٢) قهره يقهره قهراً : غلبه واذله . قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْيَهُودُ فَلَا قَهْرَ ﴾ [الضحى] .  
والقاهر اسم فاعل . قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الانعام] أى : المسيطر  
عليهم . [ القاموس القويم ١٢٦/٢ ] بتصرف .

(٣) الصاحب : يُقال لمن كثرت ملازمته . صحبه يصحبه وصاحبه : عاشره . والصاحب  
المعاشر . [ لسان العرب - مادة : صحب ] .

وطرح يوسف السؤال :

﴿أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٣٩) [يوسف]

وحين طرح سؤالاً عبر مقابل لك ، فانت تعلم مقدماً أنه يفهم أن أرباباً متفرقون ليسوا خيراً من إله واحد ، وكان يوسف قد وثق من أن إجابتهما لن تكون إلا بقولهم « بل عبادة إله واحد خير » .

وهو لم يكن ليسأل إلا إذا عرف أنهما سيديران كل الأجوبة ؛ فلا يجدان جواباً إلا الجواب الذي أراه .

فهما قد عبدا آلهة متعددة ؛ وكان المفروض في مقاييس الأشياء أن تُغنيكم تلك الآلهة عن اللجوء لمن يعبد الإله الواحد .

إذن : في قوى البشر نجد التعدد يُثري ويُضخم العمل ، لكن في الألوهية نجد الشرك يُضعف العمل .

ولذلك نجد الصوفى يقول : اعمل لوجه واحد يكفيك كل الأوجه .

ولذلك قال يوسف عليه السلام لصاحبيه السجن :

﴿أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ ..﴾ (٣٩) [يوسف]

ولو كان تفرقهم تفرق ذوات لكانوا بلا كمال يستحقون من أجله العبادة ، ولو كان تفرقهم تفرق تكرار لما كان لهذا التكرار لزوم ، ولو كان تفرقهم تفرق اختصاصات ، فهذا يعنى أن لكل منهم نقطة قوة ونقاط ضعف ؛ وتفرقهم هذا دليل نقص .

ولذلك رحمتنا الحق نحن المؤمنين به لنعبد إلهاً واحداً ، فقال :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ <sup>(١)</sup> وَرَجُلًا سَلَمًا <sup>(٢)</sup> لِرَجُلٍ  
هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ <sup>(٣)</sup> ﴾ [الزمر]

وقد حاول يوسف عليه السلام أن يهديهم إلى عبادة الإله الواحد ،  
وقال لهم من بعد ذلك ما جاء به الحق سبحانه :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ  
وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ  
أَمْرًا لَا تَعْبُدُوا إِلَّا آيَاتُهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ  
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ <sup>(٤)</sup> ﴾

ونلاحظ أن يوسف - عليه السلام - لم يتكلم حتى الآن مع  
السجينين عن مطلوبيهما منه ، وهو تاويل الرؤيتين ، وهو لو تكلم في  
المطلوب منه أولاً : لانصرف ذهن وانتباه كل من السجينين إلى قضاء

(١) شكس: ساء خلفه وغلط عليه حب النزاع . وتشاكس القوم . تنازعوا واشتد اختلافهم . قال  
تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ .. <sup>(٢٩)</sup> ﴾ [ الزمر ] ذلك مثل العبد المشترك  
له آلهة متعددة يتنازعون فيه . [القاموس القويم ٢٥٤/١] .

(٢) السَّلَمُ والسَّلَامُ : الأمان وعدم الحرب . ﴿ ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً <sup>(٣٠)</sup> ﴾ [ البقرة ] في الصلح  
والمهادنة والاستسلام : ﴿ رَأَوْا إِلَهُكُمُ السَّلَامَ .. <sup>(٣١)</sup> ﴾ [ النساء ] سالموكم وخضعوا لكم  
واستسلموا لكم . وقوله تعالى : ﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ .. <sup>(٣٢)</sup> ﴾ [ الزمر ] أى : ملكاً خاضعاً له  
لا ينازعه فيه أحد . [القاموس القويم ٢٢٤/١] .

(٣) الْقَيِّمُ : الثابت المستقيم الذى لا عوج فيه . أو المقوم المعدل للأمور أو المهيمن المشرف  
عليها . ومن ذلك قوله : ﴿ دِينًا قِيَمًا .. <sup>(٣٣)</sup> ﴾ [ الأنعام ] أى : مستقيماً أو مقوماً لغيره من  
الآيات السابقة . [القاموس القويم ١٤٣/٢]

حاجتهما منه ؛ ولن يلتفتا بعد ذلك إلى ما يدعو إليه ؛ ولأن الذي يدعو إليه هو الأمر الأبقى ، وهو الأمر العام الذي يتعلق بكل حركة من حركات الحياة .

وبذلك كان يوسف عليه السلام يؤثر السجينين ؛ فقد أراد أن يلفتها إلى الأمر الجوهري قبل أن يتحدث عن الجزئية الصغيرة التي يسألان فيها ؛ وأراد أن يُصَحِّحَ نظرة الاثنين إلى المنهج العام الذي يدير به الإنسان كل تفاصيل الحياة وجزئياتها ؛ وفي هذا إشار لا أثره<sup>(١)</sup> .

وهنا قال الحق سبحانه على لسان يوسف عليه السلام :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ .. ﴾ (٤٠) [يوسف]

أى : أن ما تعبدونه من آلهة متعددة هو مجرد عبادة لأسماء بلا معنى ولا وجود ؛ أسماء ورثتموها عن آبائكم أو أنشأتموها أنتم ، فكفرتم بإنشاء أسماء لآلهة غير موجودة ، كما كفر آباؤكم كفر نسيان التكليف أو إنكار التكليف .

وتوضيح الاسماء عادة للدلالة على المسمى ؛ فإذا نطقنا الاسم تجيء صورة المسمى إلى الذهن ؛ ولذلك نسمى المولود بعد ولادته باسم يميزه عن بقية إخوته ؛ بحيث إذا أطلق الاسم انصرف إلى الذات المشخصة .

(١) أثره عليه . فضله . وآثرت فلانا على نفسي من الإيثار . ويقال قد أخذه بلا أثره وبلا

إثرة وبلا استئثار . أى . لم يستأثر على غيره ولم يأخذ الأجود . [ لسان العرب - مادة .

أثر ] .

وإذا أطلق اسم واحد على متعددين : فلا بد أن يوضح واضع الاسم ما يميز كل ذات عن الأخرى .

والمثل من الريف المصرى : حين يتفاهل أب باسم « محمد » : فيسمي كل أولاده بهذا الاسم ، ولكنه يميز بينهم بأن يقول : « محمد الكبير » و « محمد الأوسط » و « محمد الصغير » .

أما إذا وُضِعَ اسم لمسمى غير موجود : فهذا امر غير مقبول أو معقول ، وهم قد وضعوا أسماء لآلهة غير موجودة : فصارت هناك أسماء على غير مسمى .

ويأتى هؤلاء يوم القيامة : ليُسألوا لحظة الحساب :

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ تَشْرِكُونَ ﴾ (٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّْا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ [غافر]

وهكذا يعترف هؤلاء بأنه لم تكن هناك آلهة : بل كان هنا أسماء بلا مسميات .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ .. ﴾ (٤٠) [يوسف]

وكان يوسف يتساءل : « إذا كانت لكم حاجة تطلبونها من السماء ، هل ستسألون الاسم الذى لا مسمى له ؟

وهل يسعفكم الاسم بدون مسمى ؟

ويوسف عليه السلام يعلم أن المعبود لا يمكن أن يكون اسماً بلا



مُسَمًى ، وهو يعلم أن المعبود الحق له اسم يبلغه لرسله ، ويُنزل معهم المنهج الذي يوجز في « افعل » و « لا تفعل » .

وهم قد سموا أسماء لا مُسَمًى لها ، ولا يستطيع غير الموجود أن يُنزل منهاجاً ، أو يُجيب مضطراً .

ولذلك يتابع القرآن ما جاء على لسان يوسف عليه السلام في وَصَفَ تلك الأسماء التي بلا مُسَمَّيات ، فيقول :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ .. (٤٠) ﴾ [يوسف]

أى : ما أنزل الله بها من حجة .

وتتابع الآية الكريمة ما جاء على لسان يوسف :

﴿ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ .. (٤٠) ﴾ [يوسف]

أى : إننى - والكلام ليوسف - إن قلتُ شيئاً فلأننى ناقلٌ للحكم عن الله ، لا عن ذاتى ؛ ولا من عندى ؛ ولا عن هواى ؛ لانه هو سبحانه الذى أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، أى : لا تطيعوا أمراً أو نهياً إلا ما أنزله الله فى منهجه الهادى للحق والخير .

ويُذِيلُ الحق سبحانه الآية الكريمة :

﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠) ﴾ [يوسف]

أى : أن هذا هو الدين المستقيم دون سواه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، بمعنى : أن الرسل قد بلغتهم بالمنهج ،

ولكنهم لم يُوظَّفوا هذا العلم في أعمالهم .

ثم بدأ يوسف عليه السلام في تاويل المطلوب لهما .

يقول الحق سبحانه :

﴿يَصْحَبِي السَّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَيسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا  
وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلَّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ  
فَقُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾<sup>(١)</sup>

وهكذا رجع يوسف عليه السلام إلى مطلب السجينين ، وفسَّر رؤيا مَنْ يسقى الخمر بأنه سيخرج من السجن ويعود ليسقى سيده ، وأما الآخر فلن سوف يُصَلَّبُ وتأكل الطير من رأسه ، لأن رمزية الرؤيا تقول : إن الطير سيأكل من رأسه ؛ وهذا يعنى أن رأسه ستكون طعاماً للطير .

وتاويل الرؤيا علم يقذفه الله في قلوب مَنْ علَّمهم تاويل الاحاديث ، وهى قدرة على فكِّ شفرة الحُلم ، ويعطيها الله لمن يشاء من عباده .

وقد قال يوسف لمن قال :

﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ..﴾ (٣٦) [يوسف]

أنه سوف ينال العفو حسب ما أظهرته الرؤيا التى قالها ، وأما

(١) استفتاه : طلب منه الفتوى وسأله رايه فى مسألة لافته ، فاجابه . قال تعالى . ﴿فاسْتَفْتِهِمْ

أَكْرَمَكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُيُوتُ﴾ [المساكنات] . وقال . ﴿وَيَسْأَلُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفَعِّمُ لِهِنَّ

﴿[النساء]﴾ .

الآخر فسياكل من رأسه الطير . أى : سيُصلب كما أوحى بذلك رموز الرؤيا .

ونلاحظ أن يوسف عليه السلام قد انشغل بالحكم الذى أوضحته الرؤيان عن الاثنين صاحبي الرؤيتين .

وهذا دليل على أن القاضى يجب أن يكون ذهنه مُنصباً على الحكم ؛ لا على المحكوم عليه ، فقد سمع يوسف منهما : وهو لا يعرف مَنْ سينال البراءة ، وَمَنْ الذى سوف يُعاقب .

فنزح يوسف ذاته من الأمر ، ولم يسمح لنفسه بدخول الهوى إلى قلبه ؛ لأن الهوى يُلوّن الحكم ، ولا أحد بقادر على أن يسيطر على عاطفته ، ولا بد للقاضى لحظة أن يصدر حكماً أن يتجرد تماماً من الهوى والذاتيات .

ويعلمنا الحق سبحانه ذلك حين أنزل لنا فى قرآنه قصة سيدنا داود عليه السلام :

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخُسْفِ إِذْ تُسَوِّرُوا<sup>(١)</sup> الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ ففَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ فِى بَعْضِنَا عَلَى بَعْضٍ فَاَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ<sup>(٢)</sup> وَأَهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِى نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا<sup>(٣)</sup> وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسْؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِى

(١) تسور السور : تسلف وعلاه . قال تعالى : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخُسْفِ إِذْ تُسَوِّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١)﴾ [من] [القاموس القويم ٢٣٥/١]

(٢) الشطط : الجور وتجاوز الحد فى كل شيء . قال تعالى : ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذْ شَطَطًا (١١)﴾ [الكهف] أى : قولاً جائزاً مجاوزاً للحد . [القاموس القويم ٢٤٩/١] .

(٣) اكفلنيها : أى اجعلنى ككافلها راعياً شئونها مالكا لها . عزنى فى الخطاب : غلبنى وقهرنى . [القاموس القويم ١٨/٢ ، ١٦٧] .

بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ  
دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ [ص]

وكان من ذكر عدد نعاج أخيه أنه إنما أراد أن يستميل داود عليه السلام لصقته ؛ وكان يريد أن يُصوِّرَ الظلم الذي وقع عليه ، وحكم داود بأن مَنْ أخذ النعجة ليضمها لنعاجه هو الذي ظلم ؛ وشعر داود أنه لم يُوفَّق في الحكم ؛ لأنه ذكر في حيثية الحكم نعاج الذي أراد أن يأخذ نعجة أخيه .

فالأخذ وحده كان هو المبرر عند داود لإدانة الذي أراد الاستيلاء على ما ليس من حقه ؛ ولذلك اعتبر أن هذا الأمر كله فتنة لم يُوفَّق فيها ، واستغفر الله بالركوع والتوبة .

وقد كان يوسف عليه السلام حكيماً حين قال تأويل الرؤيا متجرداً من الذاتية ، وأنهى التأويل بالقول :

﴿ قَضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ ﴿٤١﴾ [يوسف]

أى : أنه لا مجال للرجوع أو العدول عن حدوث ذلك الذي وصل إليه من تأويل ؛ فقد جاء التأويل وفقاً لما علّمه الله له .

وهناك الكثير من الروايات عما تحمّله يوسف من صعاب قبل الجُبِّ وقبل السجن ، وقيل : إن عمته ابنة إسحق ، وهى أكبر أولاده ؛ قد استقبلته بعد أن ماتت أمه لترعاه فتعلقت به ؛ ولم تحب أحداً قَدَّرَ محبتها له .

(١) خر راكمأ . أسرع إلى الركوع والخضوع لله كأنه سقط من علو . [القاموس القويم

وتأقت نفس يعقوب إلى ولده : فذهب إليها وقال لها : سلمى إلى يوسف . لكنها قالت : والله ما أقدر أن يغيب عني ساعة ، ولن أتركه .

فلما خرج يعقوب عليه السلام من عندها ، عمدت إلى شيء<sup>(١)</sup> من ميراث إبراهيم عليه السلام يتوارثه أكبر الأبناء ، ووضعت تحت ملابس يوسف .

وكان العُرفُ الجارى أنه إذا سرق أحدٌ شيئاً وتمَّ ضبطه : تحول من حرٍّ إلى عبد ، وحين كاد يعقوب أن يخرج مع ابنه يوسف عائداً إلى بيته : أعلّنت العمّة فقدان الشيء الذى أعطاه لها والدها إسحاق : وفتشوا يوسف فوجدوا الشيء المفقود .

فقالت عمته : والله إنه لَسَلَمٌ - أى عبد - وكان العرف أن مَنْ يسرق شيئاً يتحول إلى عبد عند صاحب الشيء .

وهكذا بقى يوسف مع عمته محروماً من أبيه لفترة ، ولم يستطع الأب استرداده إلا بعد أن ماتت العمّة .

ثم جاءت حادثة الحبِّ ، ومن بعدها محاولة امرأة العزيز لفوائته ، ورغم تيقُّن العزيز من براءته إلا أنه أودع السجن : ويقول الرواة :

« إن يوسف عليه السلام قد عُرف فى السجن بالجود ، والأمانة ، وصدق الحديث ، وحُسْنُ السمْتِ<sup>(٢)</sup> ، وكثرة العبادة ، ومعرفة التعبير - أى تأويل الرؤيا - والإحسان إلى أهل السجن .

(١) هذا الشيء هو مِنطَقَة إسحاق فيما ذكره ابن كثير فى تفسيره [٤٨٦/٢] والمنطقة : هى كل ما شد به الإنسان على وسطه . وقد انتطق : أى شد النطاق على وسطه . [ لسان العرب - مادة : نطق ] .

(٢) السمْت حسن القصد والمذهب فى أمور الدين والدنيا . قال خالد بن جَنْبَة : السمْت اتباع الحق والهدى وحسن الجوار وقلة الاثْمِية . [ لسان العرب - مادة : سمْت ] .

ولما دخل هذان الفتيان معه السجن : تكلفا به وأحبّاه حباً شديداً  
وقالا له : والله لقد أحببناك حباً زائداً . قال : بارك الله فيكما ؛ إنه  
ما من أحد أحببني إلا دخل على من محبته ضرراً ، أحببتني عمى فدخل  
الضرر بسببها ، وأحببني أبى فاوديت بسببه ، وأحببتني امرأة العزيز  
فكذلك .

أى : أنه دخل السجن وصار معهما دون نيب جنّاه .

قال السجينان : إنا لا نستطيع غير ذلك <sup>(١)</sup> .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما قاله يوسف لمن ظن أنه سينجو  
من السجن :

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ

رَبِّكَ <sup>(٢)</sup> فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي

السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿١٢﴾

والمقصود هنا هو السجين الذى رأى حلمًا يعصر فيه العنب ،  
فهو الذى فسر له يوسف رؤياه بأنه سينجو ؛ ويواصل مهمته فى  
صناعة الخمر لسيده .

(١) قال القرطبي فى تفسيره [٢٥١١/٤] أن صاحب السجن أحب يوسف ، فوسع عليه فيه ، ثم

قال : يا يوسف لقد أحببتك حباً لم أحب شيئاً حبك . فقال : أعوذ بالله من حبك . قال : ولم

ذلك ؟ فقال : أحببت أبى ففعل بى إخوانى ما فعلوه ، وأحببتنى سيدتى فنزل بى ما ترى .

(٢) الرب : يُطلق على المالك وعلى السيد وعلى صاحب وعلى راعى الامرة ورئيسها .

[القاموس القويم ٢٥١/١] بتصريف

وقوله سبحانه :

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ .. (٤٢) ﴾ [يوسف]

يعنى أن الامر بالنجاة لم يتيقن بعد ، ولم يصبح علماً .

وقد أوصاه يوسف عليه السلام :

﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ .. (٤٢) ﴾ [يوسف]

والذكر هو حضور شيء بالبال ؛ وكان له بالبال صلة استقبال ، مثل أى قضية عرفتّها من قبل ثم تركتها ، ونسيتهَا لفترة ، ثم تذكرتها من جديد .

وهكذا نعلم أن للإنسان استقبالات للإدراكات ، وهى لا تظل فى بؤرة الشعور كل الوقت ؛ لأنّ الذهن لا يستطيع أن يكون مشغولاً إلا بشيء واحد ، فإن جاء شيء آخر فهو يزحزح الامر الأول إلى حافة الشعور ، ليستقر الامر الجديد فى بؤرة الشعور .

والمثل الذى أضربه دائماً هو إلقاء حجر فى الماء ، فيصنع الحجر دوائر تكبر ويتتابع اتساع أقطارها ، وهكذا بؤرة الشعور ، حين تستقبل أمراً أو خاطراً جديداً .

فالخاطر الجديد يُبعد كل الخواطر الأخرى من المركز إلى الحاشية ، ثم يأتى ما يُذكرك بما فى حاشية الشعور ؛ ليعود لك الخاطر أو الامر الذى كنت قد نسيته وتذكره بكل تفاصيله ؛ لأن ذاكرة الإنسان تعمل على مُستويين : فهى تحفظ المعلومات ؛ وتسترجع المعلومات أيضاً .

وقد قال يوسف لمن ظن أنه ناج :

﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ .. ﴾ (٤٢)

[يوسف]

أى : اذكر ما وجدته عندي من خير أمام سيدك .

وقال بعض المفسرين : إن يوسف عليه السلام حين نطق هذا القول : شاء له الله أن يمكث في السجن بضع سنين : فما كان ينبغي له كرسول أن يُوسَّطَ الغير في مسألة ذكره بالخير عند سيد ذلك السجين .

فيوسف كرسول إنما يتلقى عن الله بواسطة الوحي : وهو قد قال لذلك السجين وزميله :

﴿ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي .. ﴾ (٢٧)

[يوسف]

وهذا يعنى أنه يستقبل عن الله مباشرة ، وكان عليه أن يظل موصولاً بالمصدر الذى يفيض عليه .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ (٤٢)

[يوسف]

ونسيان ذكر الله فيه نوع من العقوبة ، أو يحمل شيئاً من التأديب ليوسف ، وهكذا نرى أن الشيطان نفسه إنما يُعين الحق على مُراداته من خلقه .



وهذا ما يشرح لنا بقاء يوسف في السجن بضع سنين ؛ ونعرف  
أن البضع من السنين يعنى من ثلاث سنوات إلى عشر سنوات ،  
وبعض العلماء حدّده بسبع سنين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ  
يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ <sup>(١)</sup> وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ  
وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ <sup>(٢)</sup> يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٍ فِي رُءْيَايَ إِنْ  
كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ ٤٢

والأرض التى وقعت عليها ، وجرت فوقها تلك القصة هى مصر ،  
وسبق أن عرفنا ذلك حين قال الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ .. (٢١) ﴾ [يوسف]

وهكذا نعرف أن هناك « ملك » ، وهناك « عزيز » .

ونحن نعلم أن حكام مصر القديمة كانوا يُسمَّونَ الفراعنة ، وبعد  
أن اكتشف « حجر رشيد » ، وتم فكُّ ألغاز اللغة الهيروغليفية ؛ عرفنا

(١) عِجَافٌ هــل فهو عِجَافٌ وهى عِجَافٌ . وقوله تعالى : ﴿ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ .. (٢١) ﴾

[يوسف] هى الهزلى التى لا لحم عليها ولا شحم ضربت مثلاً لسبع سنين لا قطر فيها ولا  
خشب [ لسان العرب - مادة : عِجَاف ] .

(٢) المقصود بالملأ هنا هم أهل العلم والبصر بالكهانة والنجامة والعرافة والسحر وأشراف

قومه . [راجع : تفسير القرطبي ٢٥٢٠/٤] .

أن حكم الفراعنة قد اختفى لفترة ؛ حين استعمر مصر ملوك الرعاة ،  
وهم الذين يُسمون الهكسوس .

وكانت هذه هي الفترة التي ظهر فيها يوسف ، وعمل يوسف  
وأخوه معهم ، فلما استرجع الفراعنة حكم مصر طردوا الهكسوس ،  
وقتلوا مَنْ كانوا يُوالونهم .

وحديث القرآن عن وجود ملك في مصر أثناء قصة يوسف عليه  
السلام هو من إعجاز التنبؤ في القرآن .

وساعة نقرأ :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ۖ ۝٤٤ ﴾  
[يوسف]

ثم يطلب تأويل رؤياه ؛ فهذا يعنى أنها رؤيا منامية .

وكلمة : ﴿ سِمَانٍ ۝٤٢ ﴾

أى : مُمتلئة اللحم والعافية . وكلمة ( عِجَاف ) أى : الهزيلة ؛ كما  
يُقال عند العامة ، جلدها على عظمها ، ؛ فكيف تاكل العجاف  
السمان ؛ مع أن العكس قد يكون مقبولا ؟

وأضاف الملك :

﴿ وَسَبْعٌ سُتَبَلَاتٍ خُضَرٍ وَأَخْضَرٍ يَابِسَاتٍ ۖ ۝٤٣ ﴾

ولم يَصِفِ الملك أى فعل يصدر عن السنابل ، ثم سأل مَنْ حوله  
من أعيان القوم الذين يتصدرون صدور المجالس ، ويملاون العيون :



﴿ أَتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ (٤٢) [يوسف]

وكلمة ( تعبرون ) مأخوذة من « عبر النهر » أى : انتقل من شاطئ إلى شاطئ ، وكأنه يطلب منهم المراد المطوى فى الرؤيا .

ومن هذا المعنى أخذنا كلمة « العبرة » ، وهى التجربة التى نستفيد منها ، ومنه أيضاً « العبارة » وهو أن يكون هناك شيء مكتوم فى النفس ، ونؤدبه ، ونظهره بالعبارة .

ومنه « العبرة » ، وهو الدمعة التى تسقط من العين تعبيراً عن مشاعر ما ؛ سواء كانت مشاعر حزن أو فرح ، والمادة كلها تدور حول تعريف مجهول بمعلوم .

وهكذا يفعل مُفسِّرُ الرؤيا حين يعبر - من خلال رموزها - من الخيال إلى الحقيقة .

ولم يعرف الملا الذين حول الملك تفسيراً للرؤيا التى رآها فى منامه .

ويقول الحق سبحانه ما جاء على لسانهم :

﴿ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامُهُمْ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴾ (٤٣)

وهكذا أعلن الملا أن رؤيا الملك ليست سوى أخلاط أحلام بلا معنى .

(١) الضغت : قبضة من قضبان مختلفة من النبات . وقوله تعالى : ﴿ احْمِلْ أَحْلَامَهُ .. ﴾ (٤٣)

[يوسف] أى : أحلام مختلفة مختلفة ملتبسة غير مميزة على سبيل الاستعارة ، كالاشياء

المختلفة . [ القاموس القويم ٢٩٤/١ ] .

و « الضُّعْفُ » هو حُرْمَةٌ من الحشائش مختلفة الاجناس ؛ فكان رُؤْيَا الملك لا تاويل لها عندهم ؛ لانهم ليسوا من اهل التمييز في التاويل .

وهذا صِدْق من البطالة في الا يخبر احدهم بشيء ، إلا إذا كان على علم به ؛ ولا يضير احدهم أن يعلن جهله بأمر ما لا يعلمه .

والذى يعلن جهله بأمر لسانه - ويكون قد علمه - يجعله يسأل غيره ، اما إن أجاب بجواب ؛ فربما جعله يَنْبُتُ على هذا الجواب .

ولذلك قال العلماء ليفسحوا مجال الصَّدْق في الفتيا : « مَنْ قَالَ لا أدري فقد أفتى » ؛ لانه حين يقول « لا أدري » ؛ سيضطرك إلى أن تسأل غيره .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ <sup>(١)</sup>

أَنَا أَنْبَأُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ <sup>(٢)</sup> ٤٥ ﴾

وكان الذى نجا من السجينين يسمع مقالة الملك وردّ الملا ؛ فاسترجع بذاكرته ما مرّ عليه فى السجن ، وكيف رأى الرؤيا ، وكيف قام يوسف بتاويلها .

(١) انكر : اصلها انكر على وزن افعل ، قلبت تاء الافتعال دالا وذلك الفعل دالا وادغمت

الدالان . ﴿ وَتَلَقَّاهُمَا الْقُرْآنُ لَلَّذِكْرُ لَهُمْ مِنْ مُذَكَّرٍ <sup>(١٧)</sup> ﴾ [ القمر ] [ القاموس القويم ٢٤٤/١ ] .

(٢) الامّة : المدة والحين والوقت . وفُسِّرَ به قوله تعالى : ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ .. <sup>(٤٥)</sup> ﴾ [ يوسف ] .

وقرأ ابن عباس « وادكر بعد أمة » بالهاء . والامة : النسيان والفظة أى تذكر بعد نسيان .

[ القاموس القويم ٢٤/١ ] .

وقوله : ﴿ وَادْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ ۖ ۝٤٥ ﴾ [يوسف]

يعنى : أنه أجهد عقله وذهنه ؛ وافعل التذكُّر لان فترة لا بأس بها من الزمن قد مرَّت ، وكلمة « أمة » تعنى فترة من الزمن ؛ كما فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٤٨ ﴾ [هود]

و « الأمة » قد يُراد بها الجماعة من الناس ، ويُراد بها أيضاً الرجل الجامع لكل صفات الخير ، كما قال الحق سبحانه فى وصف إبراهيم عليه السلام :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا ۖ ۝١٢٠ ﴾ [النحل]

أى : أن كل خصال الخير مجموعة فى إبراهيم عليه وعلى نبينا السلام ، وبعد أن افعل ساقى الملك واجتهد ليتذكر ما حدث له منذ فترة هى بضع سنين ؛ أيام أن كان سجيناً ورأى رؤيا منامية أولها له يوسف ، قال الساقى للملا وللملك عن تلك الرؤيا :

﴿ أَنَا أَنْبَتُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ۝٤٥ ﴾ [يوسف]

وبذلك استأنن ليذهب إلى مَنْ يُؤوِّل له رؤيا الملك .

وقوله : ﴿ فَأَرْسِلُونِ ۝٤٥ ﴾ [يوسف]

(١) القنوت . الطاعة والدعاء . وقتت المؤمن بالله : أطاعه وأقرَّ له بالعبودية . وقتت فى صلاته : خضع واطمان . وقتت : دعا وأطال الدعاء . [القاموس القويم ١٢٤/٢].

يعنى أن التاويل ليس من عنده ؛ بل هو يعرف من يستطيع تاويل  
الرؤى .

ونلاحظ أن القرآن لم يحمل على لسان هذا الرجل : إلى من سوف  
يذهب ؛ لأن ذلك معلوم بالنسبة له ولنا ، نحن الذين نقرأ السورة .

وانتقل القرآن من طلب الإرسال إلى لقاء يوسف عليه السلام ؛  
فيقول الحق سبحانه ما جاء على لسان ساقى الملك :

يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ  
سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ  
خُضِرٍ وَأُخْرَى يَأْتِيَنَّ لَنَا أَمْ يَكُنَّ مِنَ الْغَايِبِ  
يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾

وقوله : ﴿ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ .. ﴾ (٤٦)

[يوسف]

يدل على أنه قد جُرب في مسائل متعددة ، وثبت صدقه .

و « صِدِّيق » لا يقتصر معناها على أنه صادق في كل أقواله ؛  
وصادق في كل أفعاله ، وصادق في كل أحواله ، ولكن معناها يتسع  
ليدلنا على أن الصدق ملازم له دائماً في القول وفي الفعل .

(١) الصِّدِّيق : بكسر الصاد وتشديد الدال . صيغة مبالغة من الصدق . ﴿ أَوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ  
.. ﴾ [الحديد] ، وهي صنيعة : ﴿ وَأَمَّا صُنِيعَةٌ .. ﴾ (٧٥) [المائدة] هي مريم عليها

أما في الأقوال فصدقه واضح ؛ لأنه يقول القضية الكلامية ولها واقع من الخارج يدل عليها .

وأما صدق الأفعال فهو ألا تُجرب عليه كلاماً ، ثم يأتي فعله مخالفاً لهذا الكلام ؛ وهذا هو مَنْ تطلق عليه « صديق » .

ونحن نعلم أن حركات الإنسان في الحياة تنقسم قسمين ؛ إما قول وإما فعل ؛ والقول أدواته اللسان ، والفعل أدواته كل الجوارح .

إذن ؛ فهناك قول ، وهناك فعل ؛ وكلاهما عمل ؛ فالقول عمل ؛ والرؤية بالعين عمل ؛ والسمع بالأذن عمل ، والمس باليد عمل .

لكن القول اختص باللسان ، وأخذت بقية الجوارح الفعل ؛ لأن الفعل هو الوسيلة الإعلامية بين متكلم وبين مخاطب ، وأخذ شق الفعل .

وهكذا نعلم أن الفعل قسمان ؛ إما قول ؛ وإما فعل .

والصديق هو الذي يصدق في قوله ، بأن تطابق النسبة الكلامية الواقع ، وصادق في فعله بالأقوال ما لا يفعل .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ كَبُرَ مَقْتًا <sup>(١)</sup> عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) ﴾ [الصف]

ونعلم أن ساقى الملك كانت له مع يوسف تجربتان :

(١) المقت : أشد الإبهاس . مقت يمقت : أبغضه . ويقول تعالى ﴿ لَمَقْتُ اللَّهَ أَكْبَرَ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ .. (٣) ﴾ [غافر] قال : لمقت الله إياكم حين نصبتكم إلى الإيمان فلم تؤمنوا أكبر من مقتكم أنفسكم حين رأيتم العذاب . [لسان العرب - مادة : مقت ] .

التجربة الأولى : تجربة مُعَايشَتِهِ فِي السَّجْنِ هُوَ وَزَمِيلُهُ الْخَبَازُ ،  
وقولهما له :

﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣٦) [يوسف]

وكان قولهما هذا هو حيثية سؤالهم له أن يُؤوِّلَ لهما الرؤييين :  
﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ  
رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣٦) [يوسف]  
والتجربة الثانية : هي مجيء واقع حركة الحياة بعد ذلك مطابقاً  
لتأويله للرؤييين . ولذلك يقول له هنا :

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ  
وَسَبْعِ سُتَبَلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ  
يَعْلَمُونَ ﴾ (٤٦) [يوسف]

أى : أفتنّا في رؤيا سبع بقرات سِمَانٍ ؛ يأكلهن سبع عِجَافٍ  
شديدة الهزال ، وسبع سُتَبَلَاتٍ خُضْرٍ ، وسبع أُخَرَ يَابِسَاتٍ ، لَعَلِّي  
أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون .

وقوله : ﴿ أَفْتِنَا .. ﴾ (٤٦) [يوسف]

يوضح أنه لا يسأل عن رؤيا تخصّه ؛ بل هي تخص رائيها لم  
يُحدده ، وإن كنا قد عرفنا أنها رؤيا الملك .

وقوله : ﴿ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ .. ﴾ (٤٦) [يوسف]

هو تحرُّز واحتياط في قضية لا يجزم بها ؛ وهو احتياط في واقع



قدر الله مع الإنسان ، والسائل قد أخذ أسلوب الاحتياط ؛ ليخرجه من أن يكون كاذباً ، فهو يعلم أن أمر عودته ليس في يده ؛ ولذلك يُعلمنا الله :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ (٢٤) [الكهف]

وساعة تقول : « إن شاء الله » تكون قد أخرجت نفسك من دائرة الكذب ؛ وما دُمْتَ قد ذكرتَ الله فهو سبحانه قادر على أن يهديك إلى الاختيار المناسب في كل أمر تواجه فيه الاختيار .

فكان الله يُعلم عباده أن يحافظوا على أنفسهم ، بأن يكونوا صادقين في أقوالهم وأفعالهم ؛ لأنك مهما خططتْ فأنت تخطط بعقل موهوب لك من الله ؛ وحين تُقدم على أي فعل ؛ فأي فعل مهما صَغُر يحتاج إلى عوامل متعددة وكثيرة ، لا تملك منها شيئاً ؛ لذلك فعليك أن تردَّ كل شيء إلى مَنْ يملكه .

وهنا قال الساقى :

﴿ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ .. ﴾ (٤٦) [يوسف]

وبذلك يُعلمنا الحق سبحانه الاحتياط .

وأضاف الحق سبحانه على لسان الرجل :

﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٤٦) [يوسف]

وكان الرجل قد عرف أنه حين يأخذ التأويل من يوسف عليه

السلام ؛ ويعود به إلى الناس ؛ فهو لا يعلم كيف يستقبلون هذا التأويل ؟

أيستقبلونه بالقبول ، أم بالمُحاجة<sup>(١)</sup> فيه ؟ أو يستقبلون التأويل بتصديق ، ويعلمون قَدْرَكَ ومنزلتك يا يوسف ؛ فيُخلصوك مما أنت فيه من بلاء السجن .

وقوله تعالى : ﴿ لَعَلِّي أَرْجِعَ إِلَى النَّاسِ .. ﴾ (٤٦) [يوسف]

قد يدفع سائلاً إلى أن يقول : مَنْ الذي كُلَّفَ الساقى بالذهاب إلى يوسف ؛ أهو الملك أم الحاشية ؟

ونقول : لقد نسبها الساقى إلى الكل ؛ للاحتياط الادائى .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ ﴾ (٤٧)

وهذه بداية تأويل رؤيا الملك .

والدَّابُّ معناه : المُواظبة ؛ فكان يوسف عليه السلام قد طلب أن يزرع أهل مصر بدَّابٍ وبدون كسل .

(١) تحاجاً . تخاصماً وتنازعا الحجة . كل منهما يحاول أن يثبت أنه الحق . قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَصْحَجُونَ إِلَى النَّارِ .. ﴾ (٤٦) [ غافر ] أى : يتخاصمون . [ القاموس القويم ١/ ١٤٢ ] .

(٢) دَابُّ على الامر: لمتادته . والدَّابُّ والدَّابُّ : العلة والشأن . قال تعالى : ﴿ مَثَلُ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ

.. ﴾ (٣٧) [ غافر ] أى : عادتهم وشأنهم . وقال تعالى : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا .. ﴾ (٤٧)

[ يوسف ] [ القاموس القويم ١/ ٢١٩ ] .

ويتابع : ﴿ فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ (٤٧)

[يوسف]

أى : ما تحصدونه نتيجة الزرع بجد واجتهاد ؛ فلكم أن تأكلوا القليل منه ، وتتركوا بقيته محفوظاً في سنبله .

والحفظ في السنابل يُعلمنا قَدْرُ القرآن ، وقدره مَنْ أنزل القرآن سبحانه ، وما آتاه الله جل علاه ليوسف عليه السلام من علم فى كل نواحي الحياة ، من اقتصاد ومقومات التخزين ، وغير ذلك من عطاءات الله ، فقد أثبت العلم الحديث أن القمح إذا خُزِنَ فى سنبله ؛ فتلك حماية ووقاية له من السوس .

وبعض العلماء قال فى تفسير هذه الآية : إن المقصود هو تخزين القمح فى سنبله وعيدانه .

وأقول : إن المقصود هو تَرْكُ القمح فى سنبله فقط ؛ لأن العيدان هى طعام الحيوانات .

ونحن نعلم أن حبة القمح لها وعاءان : وعاء يحميها ؛ وهو ينفصل عن القمحة أثناء عملية « الدُّرس » ؛ ثم يطير أثناء عملية « التذرية » مُنفصلاً عن حبوب القمح .

ولحبة القمح وعاء ملازم لها ، وهو القشرة التى تنفصل عن الحبة حين نطحن القمح ، ونسميها « الردة » وهى نوعان : « ردة خشنة » و « ردة ناعمة » .

ومن عادة البعض أن يَفْصِلُوا الدقيق النقى عن « الردة » .

وهؤلاء يتجاهلون - أو لا يعرفون - الحقيقة العلمية التي أكدت أن تناول الخبز المصنوع من الدقيق الأبيض الخالي من « الردة » يصيب المعدة بالتلبك .

فهذه القشرة الملازمة لحبة القمح ليست لحماية الحبة فقط ؛ بل تحتوي على قيمة غذائية كبيرة .

وكان أغنياء الريف في مصر يقومون بتنقية الدقيق المطحون من « الردة » ويسمونه « الدقيق العلامة » ؛ الذي إن وضعت ملعقة منه في فمك ؛ تشعر بالتلبك ؛ أما إذا وضعت ملعقة من الدقيق الطبيعي الممتزج بما تحتويه الحبة من « ردة » ؛ فلن تشعر بهذا التلبك .

ويمتنُّ الله على عباده بذلك في قوله الحق :

﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ <sup>(١)</sup> وَالرِّيحَانُ <sup>(٢)</sup> ﴾ [الرحمن]

وقد اهتمدى علماء هذا العصر إلى القيمة الفاعلة في طحن القمح، مع الحفاظ على ما فيه من قشر القمح ، وثبت لهم أن مَنْ يتناول الخبز المصنوع من الدقيق النقي للغاية ؛ يعاني من ارتباك غذائي يُلجئه إلى تناول خبز مصنوع من قشر القمح فقط ، وهو ما يسمى « الخبز السن » ؛ ليعوض في غذائه ما فقدته من قيمة غذائية .

وهنا يقول الحق سبحانه :

(١) الحب ذو العصف : أي ذو الثمن أو ذو الورق الذي يلفه . والعصف والمصيفة : ورق السنبل . قال ابن كثير في تفسير هذه الآية (٢٧١/٤) . « معنى هذا والله أعلم أن الحب كالقمح والشعير ونحوهما له في حال نباته عصف وهو ما على السنبل ، وريحان وهو الورق الملتف على ساقها » .

﴿ لَمَّا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سَبِيلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ (٤٧) [يوسف]

وهكذا أخبر يوسف الساقى الذى جاء يطلب منه تاويل رؤيا الملك : بما يجب ان يفعلوه تحسباً للسنوات السبع العجاف التى تلى السبع سنوات المزدهرة بالخضرة والعطاء ، فلا ياكلوا ملء البطون : بل يتناولوا من القمح على قدر الكفاف :

﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ (٤٧) [يوسف]

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف عليه السلام من بقية التاويل لحلم الملك :

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ  
لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴾ (٤٨)

وهكذا أوضح يوسف عليه السلام ما سوف يحدث فى مصر من جذب يستمر سبع سنوات عجاف بعد سبع سنوات من الزرع الذى يتطلب همه لا تفتر .

وقوله سبحانه فى وصف السبع « سنوات » بأنها :

﴿ شِدَادٌ ﴾ (٤٨) [يوسف]

يعنى : ان الجذب فيها سوف يجهد الناس ؛ فلن لم تكن هناك

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٣٥٢٦/٤) . . أى : مما تحبسون لتزروها ، لان فى استبقاء البذر تحصين الاقوات . قال ابو عبيدة : تمزجون . وقال قتادة : تحصنون : تدخرون ، والمعنى واحد . .

حصيلة تَمَّ تخزينها من محصول السبع السنوات السابقة ، فقد تحدث المجاعة ، وليعصم الناس بطونهم في السنوات السبع الأولى ، وليأكلوا على قَدَرِ الضرورة ؛ ليضمنوا مواجهة سنوات الجَدْب .

ونحن نعلم أن الإنسان يستبقى حياته بالتنفس والطعام والشراب؛ والطعام إنما يَمُرُّ على الإنسان ، ويعطيه قوة يواجه بها الحياة .

ولكن أغلب طعامنا لا نهدف منه القوة فقط ؛ بل نبغى منه المتعة أيضاً ، ولو كان الإنسان يبغي سَدَّ غائلة<sup>(١)</sup> الجوع فقط ، لاكتفى بالطعام المسلوق ، أو بالخبز والإدام فقط ، لكننا ناكل للاستمتاع .

ويتكلم الحق سبحانه عن ذلك فيقول :

﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئًا<sup>(٢)</sup> مَرِيئًا<sup>(٣)</sup> ۝٤٤ ﴾ [النساء]

أى : بدون أن يضررك . ودون أن يُلْجِئَكَ هذا الطعام إلى المَهْضَمَات من العقاقير .

وهذا هو المقصود من قول الحق سبحانه : ﴿ هَنِيئًا .. ۝٤٤ ﴾ [النساء]

أما المقصود بقوله : ﴿ مَرِيئًا ۝٤٤ ﴾ [النساء]

(١) الفَوَائِل : المهالك ، والقَوْل : المشقة . [ لسان العرب - مادة : قول ] .

(٢) هَنِيئًا يَهْنَأُ هِنَاءً : تيسر بلا مشقة ، وسهل أمره ، وسعد به صاحبه وهو طعام هنيء : أى سائغ نافع يسعد به آكله . قال تعالى : ﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ۝٤٤ ﴾ [ النساء ] أى : حلالاً طيباً لا حرمة فيه ولا حرج عليكم فى آكله . [ القاموس القويم ٢/ ٢٠٩ ] .

(٣) مَرِيئًا الطعام : سهل فى الطلق وحُبِدَتْ عاقبته وخلا من التنفيس . [ القاموس القويم

فهو الطعام الذى يفيد ويمد الجسم بالطاقة فقط ؛ وقد لا يُستساغ  
طعمه .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعَ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا  
تُحْصِنُونَ ﴾ (٤٨)

[يوسف]

وبطبيعة الحال نفهم أن السنوات ليست هى التى تاكل ؛ بل البشر  
الذين يعيشون فى تلك السنوات هم الذين ياكلون .

ونحن نفهم ذلك ؛ لأننا نعلم أن أى حدث يحتاج لزمان ومكان ؛  
ومرة يُنسب الحدث للزمان ؛ ومرة يُنسب الحدث للمكان .

والمثل على نسبة الحدث للمكان هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِمِيرَ <sup>(١)</sup> .. ﴾ (٨٧)

[يوسف]

وطبعاً نفهم أن المقصود هو سؤال أهل القرية التى كانوا فيها ،  
وأصحاب القوافل التى كانت معهم .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواتمنا عنها ؛ نجد الحدث  
منسوباً للزمان ؛ وهم سيأكلون مما أحصنوا (لا قليلاً ؛ لأنهم بعد أن  
يأكلوا لا بد لهم من الاحتفاظ بكمية من الحبوب والبذور لاستخدامها  
كتقاوى فى العام القالى لسبع سنوات موصوفة بالجذب .

(١) وهنا الأسلوب يسمى فى البلاغة المجاز بالحذف - دلائل الإعجاز للرجاني .

(٢) العير : القافلة . والعير : القوم معهم دوابهم وأحمالهم من الطعام . قال تعالى : ﴿ أَتَيْتُهَا

الْعِيرَ أَنْتُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ (٧) [يوسف] أى : أيها القوم الراحلون . [ القاموس القويم ٤٤/٢ ] .

وقوله تعالى :

[يوسف]

﴿ مِمَّا تُحْصِنُونَ ٤٨ ﴾

نجده من مادة « حصن » وتفيد الامتناع ؛ ويقال : « أقاموا في داخل الحصن » أى : أنهم إن هاجمهم الأعداء ؛ يمتنعون عليهم ؛ ولا يستطيعون الوصول إليهم .

ويقول الحق سبحانه :

[النساء]

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ .. ٢٤ ﴾

أى : الْمُحْصَنَاتُ عن عملية الفجور ؛ وهُنَّ الحرائر .

وأيضاً يقول الحق سبحانه :

[الانبياء]

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا .. ٩١ ﴾

أى : التى أحكمت صيانة عِفَّتِهَا ، وهى السيدة مريم البتول<sup>(١)</sup> عليها السلام ، وهكذا نجد مادة « حصن » تفيد الامتناع .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ  
وَفِيهِ يَعْصِرُونَ<sup>(٢)</sup> ٩١ ﴾

(١) البتول من النساء: العفراء المنقطعة عن الأزواج . ويقال : هى المنقطعة إلى الله عز وجل

عن الدنيا . [ لسان العرب .. مادة : بقل ] .

(٢) قال ابن عباس : يعصرون الأعناب والنخيل . وقال ابن جرير : يعصرون العنب خمرًا ،

والسمسم دهنًا ، والزيتون زيتًا . وقيل : أراد حلب الألبان لكثرةها ، ويدل ذلك على كثرة

النبات . [ تفسير القرطبي ٢٥٢٧/٤ ] .



ونلاحظ أن هذا الأمر الذي تحدث عنه يوسف عليه السلام خارج عن تأويل الرؤيا ؛ لأن ما احتوته رؤيا الملك هو سبع بقرات عجاف<sup>(١)</sup> يأكلن سبع بقرات سمان ؛ وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات .

وانهى يوسف عليه السلام تأويل الرؤيا ، وبعد ذلك جاء بحكم العقل على الأمور ؛ حيث يعود الخصب العادي ليعطيهم مثلما كان يعطيهم من قبل ذلك .

وهذا يمكن أن يطلق عليه « غوث » ؛ لاننا نقول « أغث فلانا » أى : أعن فلانا ؛ لانه فى حاجة للعون ، والغيث<sup>(٢)</sup> ينزل من السماء لينهى الجذب .

وقوله : ﴿ يَغَاثُ النَّاسُ ۖ ﴾ (٤٩) [يوسف]

أى : يُعانون بما يأتهم من فضل الله بالضرورى من قوت يمسك عليهم الحياة .

ويُذيل الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ وَلِيهِ يَغْصِرُونَ ﴾ (٤٩) [يوسف]

أى : ما يمكن عَصْره من حبوب أو ثمار ؛ مثل : السمسم ، والزيتون ، والعنب ، والقصب ، أو البلح ، وأنت لن تعصر تلك الحبوب أو الثمار إلا إذا كان عندك ما يفيض عن قوت ذاتك وقوت من تعمل .

(١) عجف : هزل فهو أعجف . وهى عجفاء . أى . هزيلة . والتعصيف : سوء الغذاء والهزال .

وقوله تعالى : ﴿ يَأْكُلْنَ سَبْعَ عَجَافٍ ۖ ﴾ [يوسف] (٤٧) هى : الهزلى التى لا لحم عليها ولا

شحم ، ضربت مثلاً لسبع سنين لا قطر فيها ولا خصب . [ لسان العرب - مادة : عجف ] .

(٢) الغيث : المطر . والغيث : الكلا ينبت من ماء السماء . والأصل المطر ، ثم سُمى ما ينبت

به غيثاً . [ لسان العرب - مادة : غيث ] .

ومكنا أوضح لنا الحق سبحانه أنهم سوف يُرزقون بخير يفيض  
عن الإغاة ؛ ولهم أن يدخروه ، وما سبق في آيات الرؤيا وتاويلها هو  
حوار بين يوسف الصديق - عليه السلام - وبين ساقى الملك .

ولاحظنا كيف انتقل القرآن من لقطة عجز الحاشية عن الإفتاء في  
امر الرؤيا ، وتقديم الساقى طلباً لأن يرسلوه كي يُحضر لهم تاويل  
الرؤيا ، ثم جاء مباشرة بالحوار بين يوسف والساقى .

هنا ينتقل القرآن إلى ما حدث ، بعد أن علم الملك بتاويل الرؤيا ،  
فيقول سبحانه :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهِ ؟ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ  
إِلَى رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ  
إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾

ومعنى ذلك أن الساقى ذهب إلى مجلس الملك مباشرة ، ونقل له  
تاويل الرؤيا ، وأصر الملك أن يأتوا له بهذا الرجل ؛ فقد اقتنع بأنه يجب  
الاستفادة منه ؛ وعاد الساقى ليُخرج يوسف من السجن الذي هو فيه .

لكنه فُوجيء برفض يوسف للخروج من السجن ، وقوله لمن جاء  
يصحبه إلى مجلس الملك :

﴿ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي  
بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف]

ومكنا حرص يوسف على ألا يستجيب لمن جاء يُخلصه من عذاب  
السجن الذي هو فيه ؛ إلا إذا برئت ساحته براءة يعرفها الملك ؛ فقد

يكون من المحتمل أنهم ستروها عن أذن الملك .

وأراد يوسف عليه السلام بذلك أن يُحقق الملك في ذلك الأمر مع هؤلاء النسوة اللاتي قَطَعْنَ أيديهن ؛ ودَعَوْنَهُ إلى الفحشاء .

واكتفى يوسف بالإشارة إلى ذلك بقوله :

﴿ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝٥٠ ﴾ [يوسف]

ويُخفى هذا القول في طياته ما قالته النسوة من قبل ليوسف بضرورة طاعة امرأة العزيز في طلبها للفحشاء .

وهكذا نجد القصص القرآني وهو يعطينا العبرة التي تخدمنا في واقع الحياة ؛ فليست تلك القصص للتسلية ، بل هي للعبرة التي تخدمنا في قضايا الحياة .

وبراءة ساحة أي إنسان هو أمر مُهِمٌ ؛ كي تزول أي ريبة من الإنسان قبل أن يُسند إليه أي عمل .

وهكذا طلب يوسف عليه السلام إبراء ساحته ، حتى لا يَقُولُنْ قائل في وشاية أو إشاعة « همزاً أو لَمَزاً »<sup>(١)</sup> : اليس هذا يوسف صاحب الحكاية مع امرأة العزيز ، وهو مَنْ راودته عن نفسه ؟  
وها هو رسولنا ﷺ يقول :

«عجبت لصبر أخى يوسف وكرمه - والله يغفر له - حيث أُرْسِلَ إليه لِيُسْتَفْتَى في الرؤيا ، وإن كنت أنا لم أفعل حتى أخرج ، وعجبت من

(١) اللمز : العيب في الوجه . وأصله الإشارة بالعين والراس والشفة مع كلام خفى . والهمز : الغيبة والوقيعة في الناس وذكر محبوبهم . [ لسان العرب - مائتي : لمز ، همز ] .

صبره وكرمه - والله يغفر له - أتى ليخرج فلم يخرج حتى أخبرهم بعذره ، ولو كنت أنا لبادرت الباب ، ولكنه أحب أن يكون له العذر<sup>(١)</sup> .

وشاء نبينا ﷺ أن يوضح لنا مكانة يوسف من الصبر وعزة النفس والنزاهة والكرامة فقال ﷺ :

« إن الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم . قال - لو لبثت في السجن ما لبثت ، ثم جاءني الرسول أجبت ثم قرأ ﷺ :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ ﴾<sup>(٢)</sup> . [يوسف]

وهكذا بين لنا الرسول ﷺ مكانة يوسف من الصبر والنزاهة ، وخشيته أن يخرج من السجن فيشار إليه : هذا من راود امرأة سيده . وفي قول الرسول ﷺ إشارة إلى مبالغة يوسف في ذلك الأمر ، وكان من الاحوط أن يخرج من السجن، ثم يعمل على كشف براءته .

ومعنى ذلك أن الكريم لا يستغل المواقف استغلالاً أحق ، بل يأخذ كل موقف بقدره ويرتب له : وكان يوسف واثقاً من براءته ، ولكنه أراد ألا يكون الملك آخر من يعلم .

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١٦١٠) ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٧) : « فيه إبراهيم بن يزيد القرشي المكي وهر مخرؤك » ، وقد أورده السيوطي في الدر المنثور (٥١٨/٤) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طرق عن ابن عباس .  
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٢/٢) ، والترمذي في سننه (٢١١٦) وقال : « حديث حسن » ، وكذا أخرجه الحاكم في مستدركه (٢٤٦/٢) كلهم من حديث أبي هريرة . قال الحاكم : « هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه بهذه السياقة » ، وسكت عنه الذهبي .

وصدق رسولنا ﷺ حين قال : « دَعُ ما يَرِيكَ إلى ما لا يَرِيكَ ، فإن الصدقَ طُمأنينة ، وإن الكذبَ رِيبة » <sup>(١)</sup> .

وكان ﷺ يرى أن الإيمان بالله يقتضى ألا يقف المؤمن موقفَ الرِيبة ؛ لأن بعض الناس حين يَرَوْنَ نَابِهاً ، قد تثير الغيرةَ من نِباته البعضُ ؛ فيتقولون عليه .

لذلك فعليك أن تحتاطَ لنفسك ؛ بالأُ تقف موقفَ الرِيبة ، والامر الذى تاتيك منه الرِيبة ؛ عليك أن تبتعد عنه .

ولنا فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، فقد جاءت زَوْجُه صفية بن حُيي تزوره وهو معتكف فى العشر الاواخر من رمضان ، فتحدثت عنده ساعة من العشاء ، ثم قامتُ تنقلب - أى : تعود إلى حجرتها - فقام معها رسول الله ﷺ ، حتى إذا بلغت باب المسجد الذى عند مسكن أم سلمة زوج رسول الله ﷺ ، مرَّ بهما رجلان من الانصار فسَلَّما على رسول الله ﷺ ثم نفذاً <sup>(٢)</sup> ، فقال لهما رسول الله ﷺ : « على رِسْلُكما ، إنما هى صفية بنت حُيي . قالا : سبحان الله يا رسول الله ، وكبر عليهما ما قال . قال : إن الشيطان يجرى من ابن آدم مبلغ الدم ، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما » <sup>(٣)</sup> .

(١) أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده (١١٧٨) . وكذا الإمام أحمد فى مسنده (٢٠٠/١) .

والترمذى فى سننه (٢٥١٨) وقال : « حديث حسن صحيح » من حديث الحسن بن على .

(٢) النفاذ : الجواز . وفى المحكم : جواز الشيء والغلو من منه . نقول : نفذت أى جُزّت .

[ لسان العرب - مادة : نفذ ] . أى : مرّاً وجاوزهما .

(٣) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٢١٩) . ومسلم فى صحيحه (٢١٧٥) من

حديث صفية بنت حُيي .

وهنا في الموقف الذي نتناوله بالخواطر ، نجد الملك وهو يستدعى النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، وراودن يوسف عن نفسه ، وهو ما يذكره الحق سبحانه :

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنْ إِذْ رَاودْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ۖ قُلْنَ خَشِ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ۚ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ النَّاسُ ضَالَّوْنَ ۚ أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ فَاكًا ۚ أَن تَعْلَمُوا أَنَّهُ سُبْحَنَ الَّذِي فِي يَدَيْهِ الْمَصِيرُ ۚ ﴾

لِمَنِ الصَّدِيقِ ﴿٥١﴾

ونعلم أن المراكودة الاولى ليوسف كانت من امرأة العزيز : واستعصم يوسف ، ثم دَعَتْ هِيَ النسوة إلى مجلسها : وقطعن أيديهن حين فوجئن بجمال يوسف عليه السلام ، وصدرت منهن إشارات ، ودعوات إثارة وانفعال .

قال عنها يوسف ما أورده الحق سبحانه :

﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ<sup>(١)</sup> إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣٢)

[يوسف]

واستدعاهن الملك ، وسألهن : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ ۖ ﴾ (٥١) [يوسف]

والخَطْبُ : هو الحَدَثُ الجَلَلُ ، فهو حدث غير عادي يتكلم به الناس ؛ فهو ليس حديثاً بينهم وبين أنفسهم ؛ بل يتكلمون عنه بحديث

(١) حصص الحق : وضح وتبين بعد خلفائه . والمحصصة : بيان الحق بعد كتمانته أي : ظهر وبرز . [ لسان العرب - مادة : حصص ] .

(٢) صبا يصبو . مال وأحب . ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ۖ ﴾ (٣٢) [يوسف] أي : أبل إليهن وأفعل ما يفرينني به . وصبا إلى الله . حن واشتاق إليه . [ القاموس القويم ١/٢٦٨ ] .

يصل إلى درجة تهتز لها المدينة : لأن مثل هذا الحادث قد وقع .

ولذلك نجد إبراهيم عليه السلام ، وقد قال لجماعة من الملائكة :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ (٢١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٢٢﴾ [الأنبياء]

أى : ان الملائكة طمأننت إبراهيم عليه السلام : فهى فى مهمة لعقاب قوم مجرمين .

وموسى عليه السلام حين عاد إلى قومه ، ووجد السامري قد صنع لهم عجلاً من الذهب الذى أخذوه من قوم فرعون نجده يقول للسامري :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾ (٩٥) [طه]

وقول الملك هنا فى الآية التى نحن بصدد خواتمنا عنها :

﴿ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَأَوْتَنِي يُوسُفُ عَنْ نَفْسِهِ .. ﴾ (٥١) [يوسف]

يدل على أنه قد سمع الحكاية بتفاصيلها فاهتز لها : واعتبرها خطباً : مما يوضح لنا أن القيم هى القيم فى كل زمان أو مكان .

وبدا النسوة الكلام ، فقلن :

﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ .. ﴾ (٥١) [يوسف]

ولم يذكرن مسألة مُراودتهن له ، وكان الامر المهم هو إبراء ساحة يوسف عند الملك .

وقولهن : ﴿ حَاشَ لِلَّهِ .. ﴾ (٥١) [يوسف]

أى : نُنْزِهُ يوسُفَ عن هذا ، وتنزيهنا ليوسف أمر من الله .

وهنا تدخلت امرأة العزيز :

﴿ قَالَتْ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ۖ ٥١ ﴾ [يوسف]

اى : انها اقرت بانه لم يعد هناك مجال للستر ، ووضح الحق بعد خفاء ، وظهرت حصّة الحق من حصّة الباطل ، ولا بُدّ من الاعتراف بما حدث :

﴿ أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصّٰدِقِیْنَ ٥٢ ﴾ [يوسف]

وواصلت امرأة العزيز الاعتراف فى الآية التالية :

﴿ ذٰلِكَ لِيَعْلَمَ اَنِّیْ لَمْ اُخْنَهُ بِالْغِیْبِ وَاَنَّ اللّٰهَ

لَا يَهْدِیْ كِیْدَ الْخٰیضِیْنَ ٥٣ ﴾

قالت ذلك حتى تُعلن براءة يوسف عليه السلام ، وانها لم تنتهز فرصة غيابه فى السجن وتنتقم منه ؛ لانه لم يستجب لمرآودتها له ، ولم تنسج له اثناء غيابه المؤامرات ، والدسائس ، والمكائد .

وهذا يدلنا على أن شرّة الإنسان قد تتوهج لغرض خاص . وحين يهدأ الغرض ويذهب ، يعود الإنسان إلى توازنه الكمالى فى نفسه ، وقد يجعل من الزّلة الاولى فى خاطره وسيلة إلى الإحسان فيما ليس له فيه ضعف ، كى تستر الحسنّة السيئة ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ اِنَّ الْحَسَنٰتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئٰتِ ذٰلِكَ ذِكْرٌ لِّلَّذِیْنَ اٰمَنُوْا ۚ ١١٤ ﴾ [مرد]

ولو أن إنساناً عمل سيئة وفضحه آخر عليها ؛ فالفاضح لتلك





السيئة إنما يحرم المجتمع من حسنات صاحب السيئة .

ولذلك أقول : استتروا سيئات المسيء ؛ لأنها قد تلهمه أن يقدم من الخير ما يحو به سيئاته .

ولذلك قالوا : إذا استقرأت تاريخ الناس ، أصحاب الانفس القوية فى الاخلاق والقيم ؛ قد تجد لهم من الضعف هنات وسقطات ؛ ويحاولون أن يعملوا الحسنات كي تذهب عنهم السيئات ؛ لان بالواحد منهم مشغول بضعفه الذى يليه ؛ فيندفع لفعل الخيرات .

وبعد أن اعترفت امرأة العزيز بما فعلت ؛ قالت :

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢)﴾ [يوسف]

أى : انها أقرت بأنه سبحانه وتعالى لا يُنفذ كيد الخائنين ، ولا يوصله إلى غايته .

وتواصل امرأة العزيز فتقول :

﴿وَمَا أَتَّبِعُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ

رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣)﴾

هذا القول من تمام كلام امرأة العزيز ؛ وكأنها توضح سبب حضورها لهذا المجلس ؛ فهي لم تحضر لتبريء نفسها :

﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ .. (٥٣)﴾ [يوسف]

ومجىء قول الحق سبحانه المؤكد أن النفس على إطلاقها أمارة

بالسوء ؛ يجعلنا نقول : إن يوسف أيضاً نفس بشرية .

وقد قال بعض العلماء<sup>(١)</sup> : إن هذا القول من كلام يوسف ، كردٌ عليها حين قالت :

﴿أَنَا رَاوِدُتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢)﴾ [يوسف]

وكان من المناسب أن يرد يوسف عليه السلام بالقول :

﴿وَمَا أَهْرَيْتُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي . (٥٤)﴾ [يوسف]

ويمكن أن يُنسب هذا القول إلى يوسف كَلَوْنٍ من الحرص على ألاّ يلُمسه غرور الإيمان ، فهو كرسول من الله يعلم أن الله سبحانه هو الذي صرف كيدهنَّ عنه .

وهذا لَوْنٌ من رحمة الله به ؛ فهو كبشر مُجَرَّد عن العصمة والمنهج من الممكن أن تحدث له الغواية ؛ لكن الحق سبحانه عصمه من الزَّلَل .

ومن لُطْفِ الله أن قال عن النفس : إنها أمَّارة بالسوء ؛ وفي هذا توضيح كافٍ لطبيعة عمل النفس ؛ فهي ليستُ أمرَّةً بالسوء ، بمعنى أنها تأمر الإنسان لتقع منه المعصية مرة واحدة وينتهي الأمر .

لا ، بل انتبه أيها الإنسان إلى حقيقة عمل النفس ، فهي دائماً أمَّارة بالسوء ، وأنت تعلم أن التكليفات الإلهية كلها إمَّا أوامر أو نَوَاهٍ .

(١) قاله ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم . والقول الأشهر والاثيق بسياق القصة ومعاني الكلام أنه من قول امرأة العزيز ، لأن سياق الكلام كله من كلامها بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم . بل بعد ذلك أحضره الملك . [ انظر : تفسير ابن كثير ٤٨١/٢ بتصرف ] .

وقد تستقبل الأوامر كتكليف يشقُّ على نفسك ، وانت تعلم أن النواهي تمنعك من أفعال قد تكون مرغوبة لك ، لأنها في ظاهرها ممتعة ، وتلبى نداء فرائز الإنسان .

ولذلك يقول المصطفى ﷺ :

« حَفَّتُ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ ، وَحَفَّتُ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ » <sup>(١)</sup> .

أى : أن المعاصي قد تُغريك ، ولكن العاقل هو من يملك زمام نفسه ، ويُقدِّر العواقب البعيدة ، ولا ينظر إلى اللذة العارضة الوقتية ؛ إلا إذا نظر معها إلى الغاية التي تُوصِّلُه إليها تلك اللذة ؛ لأن شيئاً قد تستلذُّ به لحظة قد تشقى به زمناً طويلاً .

ولذلك قلنا : إن الذى يُسرف على نفسه غافل عن ثواب الطاعة وعن عذاب العقوبة ، ولو استحضر الثواب على الطاعة ، والعذاب على المعصية ؛ لامتنع عن الإسراف على نفسه .

ولذلك يقول النبى ﷺ :

« لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » <sup>(٢)</sup> .

إنن : فلحظة ارتكاب المعصية نجد الإنسان وهو يستر إيمانه ؛ ولا يضع فى باله أنه قد يموت قبل أن يتوبَ عن معصيته ، أو قبل أن يُكفِّرَ عنها .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١٥٢/٢ ، ٢٥٤) ، ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٢) ، والترمذى فى سننه (٢٥٥٩) من حديث أنس رضى الله عنه .  
(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٧٥) ، ومسلم فى صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

ويخطيء الإنسان في حساب عمره ؛ لأن أحداً لا يعلم ميعاد أجله ؛  
أو الوقت الذي يفصل بينه وبين حساب المولى - عز وجل - له على  
المعاصي .

وكل منّا مُطالب بأن يضع في حُسبانهِ حديث الرسول ﷺ :  
« الموت القيامة ، فمن مات فقد قامت قيامته » <sup>(١)</sup> .

ولنا أسوة طيبة في عثمان بن عفان - رضى الله عنه - وهو  
الخليفة الثالث لرسول الله ﷺ ، الذي كان إذا وقف على قبر بكى حتى  
تبتل لحيته ، فسئل عن ذلك ؛ وقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكى ،  
وتبكي إذا وقفت على قبر ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إن القبر أول منازل الآخرة ، فإن نجا منه صاحبه فما بعده  
أيسر منه ، وإن لم يتج منه ، فما بعده أشد » <sup>(٢)</sup> .

لذلك فلا يستبعد أحد ميعاد لقائه بالموت .

وتستمر الآية : ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [يوسف]  
ونعلم أن هناك ما يشفى من الداء ، وهناك ما يُحصن الإنسان ،  
ويعطيه مناعة أن يصيبه الداء ، والحق سبحانه غفور ، بمعنى أنه  
يغفر الذنوب ، ويمحوها ، والحق سبحانه رحيم ، بمعنى أنه يمنح  
الإنسان مناعة ، فلا يصيبه الداء ، فلا يقع في زلة أخرى .

(١) ذكره المجلوس في كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن انس بن مالك رضى الله عنه .  
وتعامة . . أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه في غنى كثره عليكم ، وإن ذكرتموه في  
ضيق وسعه عليكم ، الحديث .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦٢/١) ، وابن ماجه في سننه (٤٢٦٧) ، والترمذي في سننه  
(٢٣٠٨) وقال : « حديث حسن غريب » من حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ . . (٨٧) ﴾ [الإسراء]

فساعة تسمع القرآن فهو يشفيك من الداء الذي تعاني منه نفسياً ويقوى قدرتك على مقاومة الداء ؛ ويفجر طاقات الشفاء الكامنة في أعماقك . وهو رحمة لك حين تتخذ منهجاً ، وتطبقه في حياتك ؛ فيمنحك مناعة تحميك من المرض ، فهو طبٌ علاجي وطبٌ وقائي في آن واحد .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهَذَا اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٩١) ﴾

ونلاحظ أن الملك قد قال : ﴿ أَتُؤْتِي بِهَذَا (٩١) ﴾ [يوسف]

مرتين<sup>(١)</sup> ، مرة : بعد أن سمع تاويل الرؤيا ؛ لكن يوسف رفض الخروج من السجن إلا بعد أن تثبت براءته ؛ أو : أنه خرج وحضر المواجهة مع النسوة بما فيهن امرأة العزيز .

ورأى الملك في يوسف أخلاقاً رفيعة ؛ وسعة علم .

وانتهى اللقاء الأول ليتدبر الملك ، ويفكر في صفات هذا الرجل :

(١) مكّن مكانة فهو مكين : ثبت واستقر فهو ثابت مستقر . قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ

(٩١) ﴾ [يوسف] أي : عظيم عندنا ثابت المنزلة . [ القاموس القويم ٢/ ٢٢٢ ] .

(٢) المرة الاولى في قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهَذَا لَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ لَأَسْأَلَهُ

مَا بِالْنِسْوَةِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَذِبِينَ عَلِيمٌ (٩٣) ﴾ [يوسف] والمرة الثانية في قوله

تعالى هنا . ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهَذَا اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٩١) ﴾

[يوسف]

والراحة النفسية التي ملأت نفس الملك ؛ وكيف دخل هذا الرجل قلبه .  
والمرة الثانية عندما أراد الملك أن يستخلصه لنفسه ويجعله  
مستشاراً له .

ويورد الحق سبحانه هذا المعنى في قوله :  
﴿ ائْتُونِي بِهِ اَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ  
أَمِينٌ ٥٤ ﴾ [يوسف]

وهذا الاستخلاص قد جاء بعد أن تكلم الملك مع يوسف ، وبعد  
أن استشف خفة يوسف على نفسه ؛ وتيقن الملك من بعد الحوار مع  
يوسف أنه رجل قد حفظ نفسه من أعنف الغرائز ؛ غريزة الجنس .  
وتيقن من أن يوسف تقبل السجن ، وعاش فيه لفترة طالت ؛ وهو  
صاحب علم ، وقد ثبت ذلك بتأويل الرؤيا ؛ وقد فعل ذلك وهو  
سجين ، ولم يقبل الخروج من السجن إلا لإثبات براءته ، أو بعد إثبات  
البراءة .

ولكل ذلك صار من أهل الثقة عند الملك ، الذي أعلن الأمر بقوله :  
﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ٥٤ ﴾ [يوسف]  
وذلك ليسد باب الوشاية به ، أو التآمر عليه . ومكانة « المكين »  
هي المكانة التي لا ينال منها أي أحد .

ولذلك نجد الحق - سبحانه وتعالى - حينما تكلم عن الوحي من  
جبريل عليه السلام قال :

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ١٦ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ١٧ ﴾  
[التكوير]

فالمعنى : أن يوسف عليه السلام أهلٌ للثقة عند الحاكم ؛ وهو  
الذي سيفُذ الأمور ، وله صلةٌ بالمحكومين ، وإذا كان هو المُمكن من  
عند الحاكم ؛ فهو أيضاً أمينٌ مع المحكومين .

والمشكلة في مجتمعاتنا المعاصرة إنما تحدث عندما يُرجَّح الحاكم مَنْ يراهم أهل الثقة على أهل الخبرة والأمانة ، فتختل موازين العدل .

وعلى الحاكم الذكي أن يختار الذين يتمتعون بالأميرين معاً : أمانة على المحكوم ؛ وثقة عند الحاكم . وبهذا تعادل الحياة على منهج الله .

وحين سمع يوسف عليه السلام هذا الكلام من الحاكم :

﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ٥٤ ﴾ [يوسف]

قرر أن يطلب منه شيئاً يتعلق بتعبيره لرؤياه ، التي سبق أن أولها يوسف :

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا<sup>(١)</sup> فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سَبَلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ٥٧ ﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ٥٨ ﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِشُونَ ٥٩ ﴾ [يوسف]

وهذه عملية اقتصادية تحتاج إلى تخطيط وتطبيق ومتابعة وحسن تدبير وحزم وعلم .

لذلك كان مطلب يوسف عليه السلام فيه تأكيد على أن الواقع القادم سيأتي وفقاً لتأويله للرؤيا ، فتقول الآيات :

﴿ قَالَ اجْعَلْ لِيَ خُزَّائِنًا<sup>(٢)</sup> عَلَى الْأَرْضِ ط

إِنِّي خَافُطٌ عَلَيْهِ ٥٥ ﴾

(١) دأب في عمله دأباً ودأباً : جَدَّ فيه ولازمه من غير فتور . أي : مداومين مجتهدين ذوي دأب . [ القاموس القويم ٢١٩/١ ] بتصريف .

(٢) الخزائن . جمع خزانة ، وهي المكان الذي تحفظ فيه الأشياء النفيسة . قال ابن كثير في تفسيره ( ٤٨٢/٢ ) : « هي الأهرام التي يجمع فيها الغلات لما يستقبلونه من السفن التي أخبرهم بشأنها فيتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد . »

وهذا القول تأكيد لثقة يوسف أن القادم في هذا البلد يحتاج لحكمة إدارة ، لا تبعثر ما سوف يأتي في سنين الخصب ؛ لتضمن الاطمئنان في سنين الشدة ، وتلك مهمة تتطلب الحفظ والعلم .

وقد تقدم ما يثبت أن هاتين الصفتين يتحلّى بهما يوسف عليه السلام .  
وقد يقول قائل : أليس في قول يوسف شبهة طلب الولاية ؟  
والقاعدة<sup>(١)</sup> تقول : إن طالب الولاية لا يؤلى .

فيوسف عليه السلام لم يطلب ولاية ، وإنما طلب الإصلاح ليتخذ من إصلاحه سبيلاً لدعوته وتحقيقاً لرسالته ، حيث أنه كان أمراً فيستجاب ، ولم يكن مأموراً للإيجاب حيث أنه كان واثقاً بالإيمان ومؤمناً بوثوق .

وقد تاتي ظروف لا تحتمل التجربة مع الناس ، فمن يثق بنفسه أنه قادر على القيام بالمهمة فله أن يعرض نفسه .

ومثال ذلك : لنفترض أن قوماً قد ركبوا سفينة ؛ ثم هاجت الرياح وهبت العاصفة ؛ وتعقدت الأمور ؛ وارتبك القبطان ، وجاءه من يخبره أنه قادر على أن يحل له هذا الأمر ، ويحسن إدارة قيادة المركب ، وسبق للقبطان أن علم عنه ذلك .

هنا يجب على القبطان أن يسمح لهذا الخبير بقيادة السفينة ؛ وبعد أن ينتهي الموقف الصعب ؛ على القبطان أن يوجه الشكر لهذا الخبير ؛ ويعود لقيادة سفينته .

إذن : فمن حق الإنسان أن يطلب الولاية إذا تعين عليه ذلك ، بأن يرى أمراً يتعرض له غير ذي خبرة يفسد هذا الأمر ، وهو يعلم وجهه الصلاح فيه . وهنا يكون التدخل فرض عين من أجل إنقاذ المجتمع .

(١) دليل هذه القاعدة ما أخرجه مسلم في صحيحه ( ١٧٢٢ ) عن أبي موسى الأشعري أن

رسول الله ﷺ قال : « إنا والله لا نؤلى على هذا العمل أحداً سواه ، ولا أحداً حرص عليه » .



وفى مثل هذه الحالة نجد مَنْ طلب الولاية وهو يملك شجاعتين :  
الشجاعة الأولى : أنه طلب الولاية لنفسه ؛ لثقته فى إنجاح المهمة.

والشجاعة الثانية : أنه حجب من ليس له خبرة أن يتولى منصباً لا يعلم إدارته ، وبهذا يصير الباطل متصرفاً .

وبذلك يُظهر وَجْه الحق ؛ ويُزيل سيطرة الباطل .

ولذلك نجد يوسف عليه السلام يقول للملك :

﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ (٥٥)

[يوسف]

والخزائن يوجد فيها ما يُمكن المسيطر عليها من قيادة الاقتصاد.

وقالوا : إن يوسف طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض ،  
لوضع سياسة اقتصادية يواجهون بها سبع سنين من الجَدْب ، وتلك  
مسألة تتطلب حكمة وحفظاً وعِلْماً .

وكان يوسف عليه السلام يأخذ من كل راغب فى الميْرة الاثمان  
من ذهب وفضة ، وَمَنْ لا يملك ذهباً وفضة كان يُحضر الجواهر من  
الاحجار الكريمة ؛ أو يأتى بالدواب ليأخذ مقابلها طعاماً .

وَمَنْ لا يملك كان يُحضر بعضاً من أبنائه للاسترقاق ، أى : يقول  
رَبُّ الأسرة الفقير : خُذْ هذا الولد ليكون عبداً لقاء أن آخذ طعاماً لبقية  
أفراد الأسرة .

وكان يوسف عليه السلام يُحسن إدارة الامر فى سنوات الجَدْب  
ليشُد كل إنسان الحزام على البطن ، فلا يأكل الواحد فى سبعة أمعاء  
بل يأكل فى معى واحد ، كما يقول رسولنا ﷺ فى الحديث الشريف :  
« المؤمن يأكل فى معى واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء »<sup>(١)</sup> .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه ( ٢٠٦٠ ) ( ١٨٤ ) كتاب الاشربة . من حديث جابر وابن عمر

رضى الله عنهما .

وكان التموين في سنوات الجَدْب يقتضى دَقَّة التخطيط ،  
ولا يحتمل أى إسراف .

وما دام لكل شيء ثمن يجب أن يُدفع ، فكل إنسان سيأخذ على  
قَدْر ما معه ، وبعد أن انتهت سنوات الجَدْب ، وجاءت سنوات الرخاء :  
أعاد يوسف لكل إنسان ما أخذه منه .

وحين سُئِل : ولماذا أخذت منهم ما دُمْتَ قد قررت أن تردَّ لهم  
ما أخذته ؟

أجاب : كى يأخذ كل إنسان فى أقلَّ الحدود التى تكفيه فى  
سنوات الجَدْب .

ومثل هذا يحدث عندنا حين نجد البعض ، وهو يشتري الخبز  
المُدْعَم لِيطْعَم به الماشية ، وحين يرتفع ثمن الخبز نجد كل إنسان  
يشترى فى حدود ما معه من نقود ، ويحرص على ألا يُلْقَى مما  
اشترى شيئاً .

وكانت قدرة الدولة أيام الجفاف محدودة : لذلك وجب على كل  
فرد أن يعمل لنفسه .

ونحن نرى ذلك الأمر ، وهو يتكرر فى حياتنا : فحين لا يجد أحد  
ثمن اللحم فقد لا تهفو نفسه إلى اللحم ، وقد يعلن فى كبرياء : « إن  
معدتى لم تُعَدِّ تتحمل اللحم » .

وقد يعلن الفقير حُبَّهُ للسّمك الصغير : لأن لحمه طيّب ، عكس  
السّمك الكبير الذى يكون لحمه « متَفَلاً » ، أو يعلن إعجابه بالفجل  
الطازج ، لأنه لذيذ الطعم .

وقديماً فى بدايات العمر كنا حين ندخل إلى المنزل ، ونحن نعيش  
بعيداً عن بيوت الأهل فى سنوات الدراسة ، ولا نجد إلا قرصاً واحداً  
من « الطعمية » ، كنا نقسم هذا القرص ليكفى آخر لقمة فى الرغيف ،

أما إذا دخلنا ووجدنا خمسة أقراص من الطعمية ، فكان الواحد منا يأكل نصف قرص من الطعمية مع لقمة واحدة .

وهكذا يتحمل كل واحد على قدر حركته وقدرته .

والشاعر يقول :

والنفس رغبة إذا رغبتهَا وإذا تُردُّ إلى قليلٍ تَقْنَعُ

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا<sup>(١)</sup>  
حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ

أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

وهكذا كان تمكين الله ليوسف عليه السلام في الأرض ، بحيث أدار شئون مصر بصورة حازمة : عادلة : فلما جاء الجذب : لم يأتها وحدها : بل عمَّ البلاد التي حولها .

بدليل أن هناك أناساً من بلاد أخرى لجئوا يطلبون رزقهم منها : والمثل : إخوة يوسف الذين جاءوا من الشام يطلبون طعاماً لهم ولعن ينتظرهم في بلادهم ، فهذا دليل على أن رُقعة الشدة كانت شاسعة .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ .. (٥٦)﴾

[يوسف]

(١) يتبعوا منها حيث يشاء . أى ينزل فى أى مكان يريد من أرض مصر . وهذا كناية عن اتساع جاهه . [ القاموس القويم ٨٨/١ ] .

نفهم منه أنه جعل لنفسه بيتاً في أكثر من مكان : ولا يَظُنُّ ظَنَّ  
أن هذا لَوْنٌ من اتساع أماكن التَّرف .

لكن : لماذا لا ننظر إليها بعيون تكشف حقيقة رجال الإدارة في  
بعض البلاد : فما أن يعلموا بوجود بيت للحاكم في منطقة ما : وقد  
يزوره : فهم يعتنون بكل المنطقة التي يقع فيها هذا البيت .

وهذا ما نراه في حياتنا المعاصرة ، فحين يزور الحاكم منطقة  
ما فهم يُعيدون رَصْفَ الشوارع : ويصلحون المرافق : وقد يُحضرون  
أصص الزرع ليُجملوا المكان .

فما بالك إن علموا بوجود بيت للحاكم في مكان ما ؟ لا بُدَّ أنهم  
سيوالون العناية بكل التفاصيل المتعلقة بالمرافق في هذا الموقع .

إذن : فقول الحق سبحانه هنا عن يوسف عليه السلام :

﴿ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ .. (٥٦) ﴾ [يوسف]

يعنى : شُيُوع العناية بالخدمات لكل الذين يسكنون في هذا  
البلد : فلا تأخذ الأمر على أنه تَرْفٌ وشَرَفٌ ، بل خُذْ هذا القول على  
أنه تكليف سيتتبع به المُحيطون ، سواء كانوا مقصودين به أو غير  
مقصودين .

وتلك لقطة توضح أن التَّبَوءَ حيث يشاء ليس رحمةً به فقط :  
ولكنه رحمةً بالناس أيضاً .

ولذلك يقول الحق سبحانه في نفس الآية :

﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ .. (٥٦) ﴾ [يوسف]

فَمَنْ كان يحيا بلا مياه صالحة للشرب ستصله المياه النقية : وَمَنْ  
كان يشقى من أجل أن يعيش في مكان مُربح ستتحول المنطقة التي

يسكن فيها إلى مكان مُريح به كل مُستلزمات العصر الذى يحيا فيه .  
فيوسف المُمكن فى الارض له مسكن مجاور له ؛ وسيجد العناية  
من قبل الجهاز الإدارى حيثما ذهب ، وتغمر العناية الجميع ، رحمة  
من الله له ، وللناس من حوله .

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٥٦)

[يوسف]

والمُحسن هو الذى يصنع شيئاً فوق ما طُلب منه .

وهنا سنجد الإحسان يُنسب ليوسف ؛ لأنه حين أقام لنفسه بيتاً  
فى أكثر من مكان ؛ فقد أحسن إلى اهل الامكنة التى له فيها بيوت ؛  
بارتفاع مستوى الخدمة فى المرافق وغيرها .

وسبحانه يجازى المحسنين بكمال وتعام الأجر ، وقد كافأ يوسف  
عليه السلام بالتمكين مع محبة من تولى أمرهم .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا

وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (٥٧)

ويوضح - هنا - سبحانه أنه لا يجزى المحسنين فى الدنيا فقط ؛  
ولكن يجازيهم بخير أبقى فى الآخرة . وكلمة « خير » تستعمل  
استعمالين :

الأول : هو أن شيئاً خير من شىء آخر ؛ أى : أنهما شركاء فى  
الخير ، وهو المعنى المقصود هنا ، والمثال : هو قول الرسول ﷺ :

« المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير . احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان »<sup>(١)</sup> .

والاستعمال الثاني لكلمة « خير » : هو خير مقابل شر ، والمثال : هو قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴿ [الزلزلة]

والحق سبحانه يريد أن يعتدل ميزان حركة الحياة ، لن يعتدل ميزان حركة الحياة بأن نقول للإنسان على إطلاقه : سوف تأخذ أجر عملك الطيب في الآخرة ؛ لأن المؤمن وحده هو الذي سيصدق ذلك . أما الكافر فقد يظلم ويسفك الدماء ، ويسرق ويستشري الفساد في الأرض .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يجعل الجزاء نوعين : جزاء في الدنيا لمن يحسن ، سواء أكان مؤمناً أو كافراً ؛ وجزاء في الآخرة يختص به الحق سبحانه المؤمنين به .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ وَلَا أُجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (٥٧) [يوسف]

أي : أنه أكثر خيراً من جزاء الدنيا ؛ لأن جزاء الآخرة يدوم أبداً ،

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده ( ٢ / ٢٦٦ ، ٢٧٠ ) ، ومسلم في صحيحه ( ٢٦٦٤ )

وابن ماجه في سننه ( ٧٩ ) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) المِثْقَال : وزن معلوم قدره . ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ (٥٥) [النساء] .

أي : مقدار وزن ذرة لا يظلم شيئاً صغيراً أو كبيراً . [ القاموس القويم ١/١٠٩ ] .



على عكس خير الدنيا الذى قد تفوتهُ أو يفوتُكَ ، بحُكم أن الدنيا موقوتة بالنسبة لك بعمرِكَ فيها ؛ ولكن الآخرة لها الدِّيمومة التى شاءها الله سبحانه .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك عن إخوة يوسف :

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ

وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ ٥٨

وقد عرفهم يوسف ؛ لكنهم لم يعرفوه ، فقد أَلْقَوْهُ فى الجُبِّ صغيراً؛ ومَرَّتْ رحلته فى الحياة بعد أن عثر عليه بعض السَّيَّارة ؛ وباعوه لعزیز مصر ، لتمر به الأحداث المتتابعة بما فيها من نُضْجِ جسدی وحُسن فائق ، ومُرَاوَدَةٍ من امرأة العزيز ، ثم سنوات السجن السبع .

ولكل حدث من تلك الأحداث أثر على ملامح الإنسان ؛ فضلاً عن أنهم جاءوه وهو فى منصبه العالى ، بما يفرضه عليه من وجاهة فى الهيئة والملبس .

أما هو فقد عرفهم ؛ لأنه قد تركهم وهم كبار ، قد تحدثت ملامحهم ، ونعلم أن الإنسان حين يمرُّ عليه عَقْدٌ من الزمان ؛ فهذا الزمن قد يزيد من تحديد ملامحه ، إذا ما كان كبيراً ناضجاً ، لكنه لا يغيرها مثلما يُغَيِّرُ الزمنُ ملامحَ الطفل حين يكبر ويصل إلى النضج . والذى دفعهم إلى المسجىء هو القسحط الذى لم يُؤَثِّرْ على مصر وحدها ؛ بل أثّر أيضاً على المناطق المجاورة لها .

وذاع أمر يوسف عليه السلام الذى اختزن الأقوات تحسباً لذلك القسحط ؛ وقد أرسلهم أبوهم ليطالبوا منه المِيرة<sup>(١)</sup> والطعام ، ولم يتخيّلوا

(١) الميرة - الطعام بمقتاره الإنسان أى يجلبه - مار أهله - جلب إليهم الطعام . قال تعالى :

﴿وَتَمِيرُ أَهْلًا وَتَحْفَظُ أَخَانًا..﴾ [يوسف] . [ القاموس القويم : ٢٤٦/٢ ] .

بأي حال أن يكون مَنْ أمامهم هو أخوهم الذي القوه في الجُب .  
ويقول الحق سبحانه :

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتَتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ  
أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُولَى الْكِيلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾

ولا بُدَّ أنه قد تكلم معهم عن أحوالهم ، وتركهم يحْكُون له عن  
أبيهم وأخيه ، وأنهم قد طلبوا الميِّرة ؛ وأمر بتجهيزها لهم <sup>(١)</sup> .  
وكلمة « الجهاز » تُطلق هنا على ما تسبَّب في انتقالهم من  
موطنهم إلى لقاء يوسف طلباً للميِّرة .  
وطلب منهم - من بعد ذلك - أن يأتوا بأخيه « بنيامين » معهم ،  
وقال لهم :

﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُولَى الْكِيلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [يوسف]

(١) جهاز العروس والمسافر والجيش : هو ما يحتاجون إليه وما يلزمهم في قصدهم والمضي  
هنا أنه أُولَى لهم الكيل وأعطاهم الطعام الذي جاءوا من أجله . [ راجع تفسير ابن كثير  
٤٨٣/٢ ، والفاموس القويم ١٢٤/١ ] .

(٢) ذكر السدي وغيره أن يوسف عليه السلام شرع يخاطبهم فقال لهم كالمنكر عليهم .  
ما أقدمكم بلادى ؟ فقالوا : أيها العزيز إنا قدما للميِّرة . قال : فلكم عيون ؟ قالوا : معاذ  
الله . قال : فمن أين أنتم ؟ قالوا : من بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبي الله . قال : وله أولاد  
غيركم ؟ قالوا : نعم كنا اثني عشر فذهب أصغرنا هلك في البرية ، وكان أحبنا إلى أبينا ،  
وبقى شقيقه ، فاحتبس أبوه ليتسلى به عنه ، فامر بإنزالهم وإكرامهم . [ تفسير ابن كثير  
٤٨٣/٢ ] .

(٣) النزول : الحلول بالمكان . والنُّزْل والنُّزْل : ما مُنِيَ للضيف إذا نزل عليه . [ لسان العرب -  
مادة : نزل ] .



وفى هذا تذكير لهم بأنه يُوفى الكيل تماماً ، وفيما يبدو أنهم طلبوا منه زيادة فى المِيرة ؛ بدعوى أن لهم أخاً تركوه مع أبيهم الشيخ العجوز ، فطلب منهم يوسف أن يحضروا أخاهم كي يزيد لهم كيلاً إضافياً ؛ لأنه لا يحب أن يعطى أحداً دون دليل واضح ؛ التزاماً منه بالعدل .

وكان كل منهم قد أتى على بعير ، عليه بضائع يدفعونها كاثمان لماً يأخذونه ، وحين يحضرون معهم أخوهم سيأخذون كَيْلَ بعير فوق ما أخذوه هذه المرة .

وهم قد قالوا لأبيهم هذا القول ، حينما سألوه عن إرسال أخيهام معهم لمصاحبتهم فى الرحلة حسب طلب يوسف عليه السلام ؛ لذلك تقول الآية :

﴿ وَتَزِدُّهُمُ كَيْلَ بَعِيرٍ .. (٦٥) ﴾ [يوسف]

وقوله :

﴿ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) ﴾ [يوسف]

يعنى : أنه يرحب بالضيوف ؛ وقد لمسوا ذلك بحُسن المكان الذى نزلوا فيه . بما فيه من راحة وطيب الاستقبال ، ووجود كل ما يحتاجه الضيف فى إقامته .

وكلمة « مُنْزِل » فى ظاهر الامر أنها ضدُّ مُعْلَى ، وحقيقة المعنى هو : مُنْزِلٌ مِنَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالْمَكَانِ الموجود به كل مطلوبات حياته .

والحق سبحانه يقول عن الجنة :

﴿ نَزَّلْنَا<sup>(١)</sup> مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢) ﴾ [فصلت]

(١) النزل - المنزل . وما يُعدُّ لينزل فيه الضيف . قال تعالى : ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ

فِيهَا نَزَّلْنَا مِنْ عِندِ اللَّهِ .. (٣٢٨) ﴾ [آل عمران] [ القاموس القويم ٢ / ٢٦٠ ] .

أى : أنه سبحانه قد أعدّ الجنة بما يفوق خيال البشر ؛ وبمُطلق صفات المغفرة والرحمة ، وإذا كان المولى عزّ وجلّ هو الذى يعدّ ؛ فلا بدّ أن يكون ما أعدّه فوق خيال البشر .

وقلت لإخوانى الذين بهروا بفندق راق فى سان فرانسيسكو : إن الإنسان حين يرى امرأ طيباً ، أو شيئاً راقياً ، أو جميلاً عند إنسان آخر سيستقبلها بواحد من استقباليين ؛ تظهر نفسه فيه ؛ فإن كان حقّوداً فسينظر للأشياء بكراهية وبحقد ، وإن كان مؤمناً يفرح ويقول :

هذه النعمة التى أراها تزيد من عشقى فى الجنة ؛ لأن تلك النعمة التى أراها قد صنعها بشر لبشر ؛ فماذا عن صنّع الله للجنة ؟ وهو مَنْ خلق الكون كله بما فيه من بشر ؟

ودائماً أقول : ما رأيتُ نعيماً عند أحد إلا ازداد إيمانى ، بأن الذى أراه من نعمة قد أعدّه البشر للبشر ؛ فما بالنا بما أعدّه خالق البشر للمؤمنين من البشر ؟

أما مَنْ ينظر نظرة حقّد إلى النعمة عند الغير ؛ فهو يحرم نفسه من صِباية<sup>(١)</sup> النعمة عند الغير ؛ لأن النعمة لها صِباية عند صاحبها ، وتتعلق به ، وإن فرحت بالنعمة عند إنسان ؛ فثقّ أن النعمة ستطرق بابك ، وإن كرهتها عند غيرك ؛ كرهت النعمة أن تأتى إليك .

فإن أردتَ الخير الذى عند غيرك ؛ عليك أن تحب النعمة التى عند هذا الغير ؛ لتسعى النعمة إليك ؛ دون أن تتكلف عبء إدارة هذه النعمة أو صيانتها ؛ لأنها ستأتى إليك بقدرة الحق سبحانه .

وقول يوسف عليه السلام فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنّا عنها :

(١) الصِباية : الشوق . صِبتُ إلى الشيء صِبايةً ، فإنا صِبتُ . أى : عاشق مشتاق . [ لسان العرب - مادة : صِيب ] .

﴿ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ (٥٩) [يوسف]

هو إخبار منه يؤكد ما استقبلهم به من عدل ، وتوفية للكيل ، وحسن الضيافة ، ولا شك أنهم حين يحضرون أخاهم سيجدون نفس الاستقبال .

ويواصل الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف :

﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي

وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ (٦٠)

ويوسف يعلم مقدماً صعوبة أن يأمنهم أبوه على أخيه ؛ لذلك وجه إليهم هذا الإنذار :

﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي .. ﴾ (٦٠) [يوسف]

قال لهم ذلك ، وهو يعلم أن المعاد معاد<sup>(١)</sup> قحط وجذب ومجاعة .  
وأضاف يوسف :

﴿ وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ (٦١) [يوسف]

أي : لا تأتوا ناحية هذا البلد الذي أحكمه ؛ ولذلك سنجدهم يقولون لأبيهم من بعد ذلك :

﴿ يَسْأَلَانَا مِمَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٦٢)

[يوسف]

وتلقوا الإنذار من يوسف ، وقالوا ما أورده القرآن هنا :

(١) المعاد : المرجع والمصير. أي : أن مرجعهم إلى بلاد ذات جذب وقحط وهي الموطن الذي جاءوا منه . والمعاد والمعاداة : الماتم يُعاد إليه . [ لسان العرب - مادة : עוד ] .

﴿قَالُوا سُرُودٌ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ (٦١)

وقولهم : ﴿سُرُودٌ<sup>(١)</sup> عَنْهُ أَبَاهُ..﴾ (٦١) [يوسف]

يعنى : أن الامر ليس سهلاً : وهم يعرفون ماذا فعلوا من قبل مع يوسف ، والمُرَاوِدَةُ تعنى أَخَذَ وَرَدًا ، وتحتاج إلى احتيال : وسبق المعنى في قول الحق سبحانه :

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ لِي بَيِّتُهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ (٢٣) [يوسف]

وأكدوا قولهم :

﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ (٦١) [يوسف]

أى : أنهم سيبدلون كُلَّ جهودهم : كى يقبل والدهم إرسال أخيه معهم ، وهم يعلمون أن هذا مطلبٌ صَعْبُ الْمَنَالِ ، عسير التحقيق .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾ (٦٢)

إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٦٢)

(١) أى : سنحرص على مجيئك إليك بكل ممكن ولا نهفى مجهوداً لتعلم صدقنا فيما قلنا .

[ ذكره ابن كثير في تفسيره ٤٨٢/٢ ] .

(٢) الرحال : جمع رَحْلٍ . وهو ما يُوضَع على البعير للركوب عليه ، ويطلق على ما يحمله المسافر من أمتعة . [ القاموس القويم ٢٥٩/١ ] .

(٣) انقلب : رجع وتحول إلى وضعه الأول ، أو إلى وضع آخر . قال تعالى ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا

مُنْقَلِبُونَ﴾ (١٢٥) [الاعراف] . أى : راجعون إليه . [ القاموس القويم ١٢٩/٢ ] . بتصرف .

أى : أن يوسف عليه السلام أمر مساعديه أن يُعيدوا البضائع التى أحضرها هؤلاء معهم ليقايضوا<sup>(١)</sup> بها ما أخذوه من قمح وطعام ، وكان على مساعدى يوسف عليه السلام أن يُنقذوا أمره بوضع هذه البضائع بشكل مُستتر فى الرِّحال التى أتوا عليها ، وفى هذا تشجيع لهم كي يعودوا مرة أخرى<sup>(٢)</sup> .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أٰبِيَهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعْ مِنَّا الْكَيْلَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَ نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾

وكان قولهم هذا هو أول خبر قالوه لأبيهم ، فور عودتهم ومعهم الميرة ، وكانهم أرادوا أن يوضحوا للآب أنهم مُنعوا مستقبلاً من أن يذهبوا إلى مصر ، ما لم يكن معهم أخوهم .

وحكوا لأبيهم قصتهم مع عزيز مصر ، وإن وافق الآب على إرسال أخيه « بنيامين » معهم : فلسوف يكتالون ، وسوف يحفظون أخاهم الصغير .

(١) قايضه مقايضة إذا أعطاه سلعاً وأخذ عوضها سلعاً . والقَيْض : العوض . [ لسان العرب - مادة : قَيْض ] .

(٢) ذكر ابن كثير فى هذا اقوالاً منها أن يوسف خفى أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها . وقيل : ندّم أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضاً عن الطعام . [ راجع تفسير ابن كثير ١٨٣/٢ ] .

وهم فى قولهم هذا يحاولون أن يُعِدُوا رِيَّةَ الْآبِ عَمَّا حَدَّثَ  
ليوسف من قبل .

وهنا يأتى الحق سبحانه بما قاله أبوهم يعقوب عليه السلام :

﴿ قَالَ هَلْ أَمْنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْنُكُمْ  
عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَأَلَّهْ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ  
أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٦٤)

وهنا يُذَكِّرهم أبوهم بأنهم لم يُقَدِّمُوا من قبل ما يُطمِئِنُّه على  
ذلك ؛ فقد أضاعوا أخاهم يوسف وقالوا : إن الذئب قد أكله .

وأضاف : ﴿ فَأَلَّهْ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٦٤) [يوسف]  
وهو قول نتنسم فيه أنه قد وافق على ذهاب بنيامين معهم ، وأنه  
يدعو الحق ليحفظ ابنه .

وبدأ أبناء يعقوب فى فتح متاعهم بعد الرحلة ، وبعد الحوار مع أبيهم .  
ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ  
إِلَيْهِمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضْعَةٌ نَّارَدَّتْ إِلَيْنَا  
وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ  
كَيْلُ يَسِيرٍ ﴾ (٦٥)

(١) بغي : كذب وظلم . وبغى الشيء : طلبه . قال القرطبي فى تفسيره ( ٢٥٥٩/٥ ) : « المعنى : أى

شيء نطلب وراء هذا ؟ وفى لنا الكيل ، وردَّ علينا الثمن ، أراموا بذلك أن يطيبوا نفس أبيهم » .

وهكذا اكتشفوا أن بضائعهم التي حملوها معهم في رحلتهم إلى مصر ليقايضوا بها ويدفعوها ثمنًا لما أرادوا الحصول عليه من طعام وميرة قد رُدَّتْ إليهم ؛ وأعلنوا لأبيهم أنهم لا يرغبون أكثر من ذلك ؛ فهم قد حصلوا على الميرة التي يتغذون بها هم وأهاليهم .

ولا بد أن يصحبوا أخاهم في المرة القادمة ، وسوف يحفظونه ، وسوف يعودون ومعهم كيل زائد فوق بعير ، وهذا أمر هين على عزيز مصر .

ولكن والدهم يعقوب عليه السلام قال ما أورده الحق سبحانه

هنا :

﴿ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا <sup>(١)</sup>  
مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ  
مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ <sup>(٢)</sup> ﴾

ونلاحظ هنا رقة قلب يعقوب وقرب موافقته على إرسال ابنه « بنيامين » معهم إلى مصر ، هذه الرقة التي بدت من قبل في قوله :

﴿ قَالَ لَهُ خَيْرَ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ <sup>(٣)</sup> ﴾ [يوسف]

وطلب منهم أن يحلفوا بيمين موثقة أن يعودوا من رحلتهم إلى

(١) الميثاق والموثق : العهد المؤكد . قال تعالى : ﴿ وَمِثْقَالُ الذِّبْنِ وَالتَّكْوِينِ بِهِ .. ﴾ (٧) [المائدة] .

أى : عهده الذي عاهدكم عليه ، والزمكم الوفاء به . [ القاموس القويم ٢ / ٢١٩ ] .

(٢) الإحاطة بالشئ : الإحاط به من جميع جوانبه . وقوله : ﴿ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ .. ﴾ (٦٦) [يوسف]

[ يوسف ] . أى : إلا أن تُحصروا أو تمنعوا سبيل النجاة . [ القاموس القويم ١ / ١٧٨ ] .

مصر ، ومعهم أخوهم « بنيامين » ، إذا ما ذهب معهم ؛ ما لم يُحْطَ بهم  
أمر خارج عن الإرادة البشرية ، كان يحاصروهم أعداء يُضَيِّعونهم  
ويُضَيِّعون بنيامين معهم ؛ وهذا من احتياط النبوة ؛ لذلك قال :

﴿ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ .. (٦٦) ﴾ [يوسف]

واقسم أبناء يعقوب على ذلك ، وأعطوا أباهم اليمين والعهد على  
رَدِّ بنيامين ، وليكون الله شهيدا عليهم .

قال يعقوب :

﴿ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) ﴾ [يوسف]

أى : أنه سبحانه مطلع ورقيب ، فإن خُتِمَ فسبحانه المنتقم .

ويُوصى يعقوب أولاده الأسباط :

﴿ وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ  
مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا  
لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) ﴾

وقد قال يعقوب عليه السلام ذلك الكلام فى المرة الثانية لذهابهم  
إلى مصر ، بعد أن علم بحُسن استقبال يوسف لهم ، وأن بضاعتهم  
رُدَّتْ إليهم ، وعلم بذلك أنهم صاروا أصحاب حظوة عند عزيز  
مصر .



وساعة ترى إنساناً له شأن : فترقب أن يُعادي ، لذلك توجس يعقوب خيفة أن يدبر لهم أحد مكيدة : لأنهم أغراب .

ومن هنا أمرهم أن يدخلوا مصر من أبواب متفرقة ، وكانت المدن قديماً لها أبواب : تُفتح وتُغلق في مواعيد محددة ، وحين يدخلون فرادى فلن ينتبه أحد أنهم جماعة .

وقد خاف يعقوب على أبنائه من الحسد ، ونعلم أن الحسد موجود .

وقد علمنا سبحانه أن نستعين به سبحانه من الحسد : لأنه سبحانه قد علم أن الحسد أمر فوق طاقة دفع البشر له ، وهو القاتل :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) ﴾ [الفلق]

وفي أمر الحسد أنت لا تستطيع أن تستعين بواحد مُساوٍ لك ؛ لأن الحسد يأتي من مجهول غير مُدرك ، فالشعاع الخارج من العين قد يتاجع بالحق على كل ذي نعمة ، وإذا كان عصرنا ، وهو عصر الارتقاعات العادية قد توصل إلى استخدام الإشعاع في تفتيت الأشياء .

إذن : فمن الممكن أن يكون الحسدُ مثل تلك الإشعاعات ؛ والتي

قد يجعلها الله في عيون بعض خلقه ، وتكون النظرة مثل السهم النافذ ، أو الرصاصة الفتاكة.

والحق سبحانه هو القائل : .

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾ (٣١) [المعثر]

وإن قال قائل : ولماذا يُعطى الحق سبحانه بعضاً من خلقه تلك الخواص ؟

أقول : إنه سبحانه يعطى من الإمكانيات لبعض من خلقه ، فيستخدمونها في غير موضعها ، وكل إنسان بشكل ما عنده إمكانية النظرة ، ولكن الحق هو الذى يولد الشرارة المؤذية ، ويمكنك أن تنظر دون حسد إن قلتَ : ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله ، اللهم بارك<sup>(١)</sup> .

بذلك لا تتحقق الإثارة اللازمة لتأجج الشرارة المؤذية ، ويمكنك أن تستعيز بالله خالق البشر وخالق الأسرار ، وتقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) ﴾ [الفلق]

وإن تقول كلمات رسول الله ﷺ حين كان يُعوذ الحسن والحسين رضي الله عنهما ، ويقول :

(١) يقول تعالى : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتْ قُلْتُ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ ﴾ [الكهف]

« أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة<sup>(١)</sup> ، ومن كل عين لامة<sup>(٢)</sup> »<sup>(٣)</sup> .

وقال ﷺ : « كان أبوكما - إبراهيم - يُعوذُ بها إسماعيل وإسحق عليهم السلام » .

كما أنه ﷺ : « كان إذا حَزَبَهُ أمر قام وصلى »<sup>(٤)</sup> ، لأن معنى حَزَبَ أمر للرسول ﷺ ، أو لواحد من أتباع الرسول ﷺ أن هذا الأمر يخرج عن قدرة البشر .

وهنا على الإنسان أن يَأْوِي إلى المُسَبِّب ، فهو الركن الشديد ، بعد أن أخذت أنت بالأسباب الممدودة لك من يد الله ، وبذلك يكون ذهابك إلى الحق هو ذهاب المُضْطَر ؛ لا ذهاب الكسول عن الأخذ بالأسباب .

والحق سبحانه يقول :

﴿ أَمِنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرُّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ .. ﴾ (٦٢) [النمل]

والمضطَر هو من استنفد كل أسبابه ، ولم يَدْعُ ربه إلا بعد أن

(١) الهامة : مفرد هوام . وهي الحيات والعقارب . وكل ذى سم يقتل سمه ، وأما ما لا يقتل ويُسَمُّ فهو السَّوَام . [ لسان العرب - مادة : هوم ] .

(٢) اللامة : ما تخافه من منٍّ أو فزع . واللامة : العين التي تصيب الإنسان . [ لسان العرب - مادة لام ] .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ( ٢٧٠/١ ) . والترمذي في سننه ( ٢٠٦٠ ) . وأبو داود في سننه ( ٤٧٣٧ ) عن ابن عباس رضي الله عنهما . قال الترمذي « حديث حسن صحيح » .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ( ٣٨٨/٥ ) ، وأبو داود في سننه ( ١٢١٩ ) من حديث حذيفة ابن اليمان .

أخذ بكل الأسباب الممدودة ، فلا تطلب من ذات الله قبل أن تأخذ ما قدمه لك بيده سبحانه من أسباب .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواتمنا عنها : نجد يعقوب عليه السلام وقد أوصى أبناءه ألا يدخلوا مصر من باب واحد : بل من أبواب متفرقة خشية الحسد ، وتنبهت قضية الإيمان بما يقتضيه من تسليم لمشيئة الله ، فقال :

﴿ وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۖ ۝٦٧ ﴾ [يوسف]

أى : لست أغنى عنكم بحذرى هذا من قدر الله ، فهو مجرد حرص ، أما النفع من ذلك الحرص والتدبير فهو من أمر الله ، ولذلك قال :

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ۝٦٨ ﴾

[يوسف]

فكل الخلق أمرهم راجع إلى الله ، وعليه يعتمد يعقوب ، وعليه يعتمد كل مؤمن .

ونفذ أبناء يعقوب ما أمرهم به أبوه ، يقول سبحانه :

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ

يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ

قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ

النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦٨﴾

أى : ما كان دخولهم من حيث أمرهم أبوهم يردُّ عنهم أمراً أرادَه سبحانه ، فلا شيء يردُّ قضاء الله ، ولعل أباهم قد أراد أن يردُّ عنهم حسد الحاسدين ، أو : أن يُدسَّ لهم أو يتشككوا فيهم ، ولكن أى شيء لن يمنع قضاء الله .

ولذلك قال سبحانه :

﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ .. (٦٨)

[يوسف]

ويعقوب يعلم أن أى شيء لن يردُّ قدر الله ، وسبحانه لم يُعطِ الاحتياطات الولائية ليمنع الناس بها قدر الله .

ويقول سبحانه هنا عن يعقوب :

﴿وَأَنَّهُ لَدُوْهُ عِلْمٌ لِّمَا عَلَّمَاهُ﴾ .. (٦٨)

[يوسف]

أى : أنه يعرف موقع المُسبِّب وموقع الاسباب ، ويعلم أن الاخذ بالاسباب لا ينافي التوكل على الله ؛ لأنه سبحانه قد خلق الاسباب رحمةً لعباده :

﴿وَلَنَكُنَّ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦٨)

[يوسف]

أى : يعزلون الاسباب عن المُسبِّب ، وهذا ما يُتعب الدنيا .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

(١) نفس حاجته . أدركها ونالها . قال تعالى ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ .. (٦٨)

[يوسف] ، أى : أدركها وحصلها . [القاموس القويم : ١٢٢/٢] .

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰٓ إِلَيْهِ  
أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا  
كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٦٩)

أى : أنهم حين دخلوا على يوسف أحسن استقبالهم : وأكرم وفادتهم<sup>(١)</sup> : بعد أن وُفُوا بوعدهم معه ، وأحضروا أخاهم وشقيقه بنيامين معهم ، وكان يوسف عليه السلام مُشتاقاً لشقيقه بنيامين .  
وقد عرفنا من قبل أنه الشقيق الوحيد ليوسف : فهما من أم واحدة : أما بقية الإخوة فهم من أمهات أخريات .

وقول الحق سبحانه عن يوسف :

﴿ آوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ ۞ (٦٩) ﴾ [يوسف]

يدلُّ على أن يوسف كان مُتَشَوِّقاً لرؤية شقيقه .

وقوله :

﴿ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٦٩) [يوسف]

يوضح لنا أن إخوة يوسف قد استقردوا<sup>(٤)</sup> لفترة بينيامين ، ولم

(١) أوله . ضمه إليه وأسكنه عنده أو أنزله في بيت . والماوى : اسم مكان . قال تعالى : ﴿فَإِنْ أُلْحَقَ بِهِ الْغَائِي (٦٦)﴾ [النازعات] . هى : المنزل والملجأ . [ القاموس القويم ٤٥/١ ] .

(٢) ابتأس الرجل : اكتأب وحزن . [ القاموس القويم ٥٢/١ ] .

(٣) الوفد : : الرُكبان المكرمون . قال الاصمعي : وفد فلان يفد وفادة إذا خرج إلى ملك أو أمير . [ لسان العرب - مادة وفد ] .

(٤) استقرد فلاناً : انفرد به . واستقرد الشيء : أخرجه من بين أصحابه . وانفرد : جعله فرداً . [ لسان العرب - مادة : فرد ] .

يُحْسِنُوا معاملته ، وحاول يوسف أن يُسْرِى عن أخيه ، وأن يُزيل عنه الكُتْرَ بسبب ما كان إخوته يفعلونه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ <sup>(١)</sup> فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

أى : أن يوسف عليه السلام قد قام بصرف المِيرة لهم ، كما سبق أن وعدهم ، وكما سبق أن جهَّزهم فى المرة السابقة ؛ وأراد أن يُبقى أخاه معه فى مصر ؛ ولكن كيف يأخذه من إخوته ليُبقِيه معه ؛ وقد أخذ أبوهم ميثاقاً عليهم ألا يضيعوه ، وألا يُفِرُّوا فيه ، كما فعلوا مع أخيه من قبل ؟

إنن : لا بُدَّ من حيلة يستطيع بها أن يستبقى بها أخاه معه ، وقد جُنِّدَ الله له فيها إخوته الذين كانوا يُعَادُونه ، وكانوا يحقدون عليه وعلى أخيه .

وجاءت هنا حكاية صُوع الملك ، التى يشرب فيها الملك ، وتُستخدم كمكيال ، وجعلها فى رَحْلِ أخيه .

(١) تطلق السقاية على الوعاء الذى يُسْتَقَى به . وقد كان إناء من الفضة كانوا يكيلون به الطعام . [ لسان العرب - مادة : سقى ] .

وكلمة « السقاية » تُطلق إطلاقاً متعددة من مادة « سقى » أى :  
« السين » و « القاف » و « الياء » ، فتُطلق على إسقاء الناس  
والحجيج الماء .

والقرآن الكريم يقول :

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ  
الْآخِرِ .. ﴾ (٧٩)

[التوبة]

فكان معنى السقاية أيضاً هو المكان الذى يُوضَع فيه الماء  
ليشرب منه الناس .

أو : تُطلق « السقاية » على الآلة التى يُخرج بها الماء للشاربين .

وهنا تُطلق كلمة « السقاية » على الإناء الذى كان يشرب به  
الملك ، ويُستخدم كمكيال ، وهذا دليلٌ على نفاسة المكيال .

وتُطلق أيضاً كلمة « صواع » على مثل هذه الاداة التى يُشرب  
منها ، أو يُرفع بها الماء من المكان إلى فَمِ الشارب ؛ وأيضاً يُقال  
بها ؛ ومفردُها « صاع » .

ويقول الحق سبحانه هنا عن حيلة يوسف لاستبقاء أخيه معه :

﴿ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ .. ﴾ (٧٥)

[يوسف]

أى : أمر بعضاً من أعوانه أن يَضَعُوا « السقاية » فى رَحْلِ



أخيه ، و « الرَّحْلُ » : هو ما يوضع على البعير ، وفيه متاع المسافرين كله .

وبعد أن ركب إخوة يوسف جمالهم استعداداً للعودة إلى الشام : وقعت المفاجأة لهم : والتي يقول عنها الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَذُنٌ مُّؤَذِّنٌ <sup>(١)</sup> آتِيهَا الْغَيْرُ إِنكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) ﴾ [يوسف]

أى : يا أصحاب تلك العير أنتم سارقون . والسرقه فعل قبيح حينما يترتبُ عليها جزاء يُوقَّع على السارق ، والمسرّوق هو شيء ثمين .

وفيما يبدو أن هذه الحيلة تمتُ بموافقة من « بنيامين » ليتمكث مع أخيه يوسف حتى يحضر أبواه <sup>(٢)</sup> إلى مصر .

ولسائل أن يقول : وكيف رَضِيَ بنيامين بذلك ، وهو أمر يُزيد من حُزْنِ يعقوب ؟ وكيف يتهم يوسف إخوته بسرقة لم يرتكبوها ؟

أقول : انظروا إلى دَقَّةِ القرآن ، ولنُحَسِّنَ الفهم عنه : لنرى أن حزن يعقوب على فَقْدِ يوسف قد غلبه : فلنْ يُؤَثِّرَ فيه كثيراً فَقْدُ بنيامين .

ودليل ذلك أن يعقوب عليه السلام حين عاد أبناؤه وأخبروه

(١) أَذُنٌ تَانِيَةً وَأَنَا . أعلم بالشئ . والتضعيف يدل على الكثرة والتكرار . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَذُنٌ مُّؤَذِّنٌ آتِيهَا الْغَيْرُ إِنكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) ﴾ [يوسف] . أى : نادى وأعلم وأكثر النداء والإعلام . [ القاموس القويم ١٦/١ ] .

(٢) المقصود بابويه . أبوه يعقوب ، وخالته زوجة أبيه . لأن . رحيل . أم يوسف وبنيامين ماتت في نفاس بنيامين . [ انظر : تفسير القرطبي ٢٥٩٨/٥ ] .

بحكاية السرقة : واستبقاء بنيامين في مصر قال :

﴿ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ .. (٨٤) ﴾ [يوسف]

ولم يذكر يعقوب بنيامين .

وأما عن اتهامهم بالسرقة : فالآية هنا لا تُحدّد ماذا سرقوا بالضبط ، وهم في نظر يوسف قد سَرَقَوْه من أبيه ، والقوّه في الجُبِّ .

وهنا يأتي الحق سبحانه بموقف إخوة يوسف عليه السلام :

﴿ قَالُوا أَاقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) ﴾

أى : أن إخوة يوسف أقبلوا على مَنْ يتهمونهم بالسرقة مُتَسَائِلِينَ : ماذا فقدتم ؟ ولماذا تتهموننا ؟

وهنا يقول الحق سبحانه ما قاله من اتهامهم :

﴿ قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ  
حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَّا بِهِ زَعِيمٌ <sup>(١)</sup> (٧٢) ﴾

أى : أن الذين أعلنوهم بالسرقة قالوا لهم : لقد ضاعت سقاية

(١) الزعيم : الكفيل والضمين والرئيس . زعم بالأمر . تكفل به فهو زعيم أى كفيل .

[ القاموس القويم ٢٨٦/١ ] .

الملك ؛ وَيُقَالُ لَهَا « صَوَاع » ، وَمَنْ سَيُخْرِجُهَا مِنَ الْمَكَانِ الْمَخْتْفِيَةِ بِهِ  
سَوْفَ يَنَالُ مَكَافَاةَ قَدْرِهَا وَزَنْنَ حِمْلٍ بَعِيرٍ ؛ فَلَعَلَّ صَوَاعَ الْمَلِكِ قَدْ  
خُبِثَتْ فِي حِمْلٍ أَحَدِكُمْ دُونَ قَصْدٍ .

وَأَكَّدَ رَثِيسَ الْعِنَادِينَ أَنَّهُ الضَّامِنُ لِمَنْ يُخْرِجُ صَوَاعَ الْمَلِكِ ،  
وَيَحْضُرُهَا دُونَ تَفْتِيشٍ أَنْ يَنَالُ جَائِزَتَهُ ، وَهِيَ حِمْلٌ بَعِيرٌ مِنَ الْمَيِّرَةِ  
وَالْغَدَاءِ .

وَهُنَا قَالَ إِخْوَةُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ

فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَرِقِينَ ﴾ (٧٢)

وَقَوْلُهُمْ ﴿ تَاللَّهِ ﴾ هُوَ قَسَمٌ ، وَعَادَةٌ تَدْخُلُ « التَّاء » عَلَى لَفْظِ  
الْجَلَالَةِ عِنْدَ الْقَسَمِ الْمَقْصُودِ بِهِ التَّعَجُّبُ ، أَيْ : أَنْ إِخْوَةَ يُوسُفَ  
أَقْسَمُوا مُنْذَهَشِينَ لِاتِّهَامِهِمْ بِأَنَّهُمْ لَمْ يَسْرِقُوا ؛ وَأَنَّ الْكُلَّ قَدْ عَلِمَ عَنْهُمْ  
أَنَّهُمْ لَمْ يَأْتُوا بِغَرَضِ الْإِفْسَادِ بِسَرِقَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ ، لَمْ يَسْبِقْ أَنْ  
اتِّهَمَهُمْ أَحَدٌ بِمِثْلِ هَذَا الْإِتِّهَامِ .

وَهُنَا يَأْتِي الْحَقُّ سُبْحَانَهُ بِمَا جَاءَ عَلَى السَّنَةِ مَنْ أَعْلَفُوا عَنْ وَجُودِ  
سَرِقَةٍ ، وَأَنَّ الْمَسْرُوقَ هُوَ صَوَاعُ الْمَلِكِ .

وَيَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ مَا جَاءَ عَلَى السَّنَةِ :

﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ (٧٤)

وهذا سؤال من مُسَاعِدِي يوسف لإخوة يوسف عن العقوبة المقررة في شريعتهم لمن يسرق ؟ وماذا يفعل بمن نجد في رَحْلِهِ صُواع الملك ، وثبت كذبكم بأنكم لم تسرقوه ؟

وكان المعروف أن مَنْ يُضْبَطُ بسرقة في شريعة آل يعقوب أن يُسْتَرْقَ أو يظل في خدمة مَنْ سرقهم ، كما فعلت عمّة يوسف التي أحبته وعاش معها بعد وفاة أمه ؛ وحين أراد والده أن يسترده أخفّت في ثياب يوسف شيئاً<sup>(١)</sup> عزيزاً ورثته عن أبيها إسحاق ، وبذلك استبقت يوسف معها ، ولم يأخذه أبوه إلا بعد أن ماتت عمّته .

وكان هدف يوسف عليه السلام إذن أن يستبقى أخاه معه ؛ وهو قد علم من قبل هذا الحكم ، وهكذا تركهم يوسف عليه السلام يحكمون بأنفسهم الحكم الذي يَصْبِرُ إليه ، وهو بقاء أخيه معه .

ويُورِدُ الحق سبحانه قولهم :

﴿ قَالُوا جَزَاءُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاءُ<sup>ع</sup> ۖ

كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ ۖ

وهكذا نطقوا بالحكم هم أنفسهم ، وأكّدوه بقولهم :

﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ ۖ ﴾

[يوسف]

(١) هو منطقة إسحاق كان ينتلق بها ، أي . يشدها على وسطه . وكانت عمّته هي أكبر ولد إسحاق ، فعمدت إلى منطقة إسحاق فعزمتها على يوسف من تحت ثيابه . لتستبقيه عندها ولا تسلمه لأبيه يعقوب . وقد كان هذا حتى ماتت . [ راجع : تفسير ابن كثير ١٨٦/٢ ] .

وهكذا اعانوا هم يوسف لتحقيق مآربه ببقاء شقيقه معه ، وأمر  
يوسف بتفتيش العير .

ويقول الحق سبحانه :

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ  
وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ  
فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ  
وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾

وكان الهدف من البدء بتفتيش أوعيتهم ! وهم عشرة ! قبل وعاء  
شقيقه ، كي ينفي احتمال ظنهم بأنه طلب منهم أن يأتوا بأخيهم معهم  
ليدبر هو هذا الأمر ، وفتش وعاء شقيقه من بعد ذلك ! ليستخرج منه  
صواع الملك ! وليطبق عليه قانون شريعة آل يعقوب ! فيستبقى  
شقيقه معه . وهذا دليل على الذكاء الحكيم .

وهكذا جعل الحق سبحانه الكيد مُحْكَمًا لصالح يوسف ، وهو  
الحق القائل :

﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ .. (٧٦)﴾ [يوسف]

أى : كان الكيد لصالحه .

ويتابع سبحانه :

﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ .. (٧٦)﴾

[يوسف]

أى : ما كان يوسف لياخذ أخاه فى دين الملك الذى يحكم مصر :  
لولا فتوى الإخوة بأن شريعتهم تحكم بذلك .

ويتابع سبحانه :

﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نُّشَاءٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (٧٦) [يوسف]

وهكذا رفع الله من شأن يوسف ، وكأد له ، وحقق له أمله ، وهو يستحق كل ذلك ؛ ورفع سبحانه درجات عالية من العلم والحكمة .

ولم يكن الكيد بسبب أن يُنزل بشقيقه عذاباً أو ضياعاً ، بل نريد ليوسف ولاخيه الرُّفعة ، فكان كثيراً من المصائب تحدث للناس ، وهم لا يدرون ما فى المحنة من المنع .

وعلى المؤمن أن يعلم أن أى أمر صعب يقع عليه من غير رأى منه ؛ لا بد وأن يشعر أن فيه من الله نفعاً للإنسان .

وإخوة يوسف سبق أن كانوا له ، فماذا كانت نتيجة كَيْدهم ؟

لقد شاء الحق سبحانه أن يجعل الكيد كله لصالح يوسف ، وجعله سبحانه ذاك علم ، فقال :

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (٧٦) [يوسف]

و ( ذى علم ) أى : صاحب علم . وكلاهما مُتَّفَعِل ، أى : هناك « صاحب » ، وهناك « علم » ، والصاحب يوجد أولاً ؛ وبعد ذلك يطرأ عليه العلم ؛ فيصير صاحب علم ، ولكن فَوْقَه :

﴿ عَلِيمٌ ﴾ (٧٦) [يوسف]

أى : أن العلم ذاتى فيه ، وهو الحق سبحانه وتعالى .

فماذا كان موقف إخوة يوسف ؟

بطبيعة الحال لا بد أنهم قد بهتوا ، أول تصرف منهم كان لا بد أن ينصرف إلى الاخ الذى وجدت السقاية فى رَحْلَه ؛ واخذوا يُؤْبِخُونَه ؛ لانه اخرجهم وفضحهم ، وبحثوا عن أسباب عتدهم للحفيظة عليه ؛ لا للرفق به .

وموقفهم المُسَبِّق منه معروف فى قولهم :

﴿ يَٰٓيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غَضَبٌ ۖ ﴾ (٨) [يوسف]

وهم يعلمون أن يوسف وأخاه من امرأة أخرى هى « راحيل » ، ولو كان شقيقاً لهم لَتَلَطَّفُوا به<sup>(١)</sup> . وأوضح لهم : إن مَنْ جعل البضاعة فى رِحَالِي هو مَنْ جعل البضاعة فى رِحَالِكُمْ .

وهنا قال أحد الإخوة : تالله ، يا أبناء راحيل ، ما أكثر ما نزل علينا من البلاء منكم . فَرَدَّ بنيامين : بنو راحيل نزل عليهم من البلاء منكم فوق ما نزل عليكم من البلاء منهم .

ويُورِد الحق سبحانه هنا قولهم :

(١) العصبه : الجماعة المترابطة . والعصبه والعصابة . جماعة ما بين العشرة إلى الأربعين [ لسان العرب : مادة : عصب ] .

(٢) ذكر القرطبي فى تفسيره ( ٣٥٦٩/٥ ) أن إخوته « لما رأوا ذلك تكسروا رؤوسهم ، وأقبلوا عليه قائلين : ويلك يا بنيامين . ما رأينا كالسيوم قط . ولدت أمك » راحيل « أخوين لصين . قال لهم أخوهم : والله ما سرقته ، ولا علم لى بمن وضعه فى متاعى » .

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ  
فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ  
شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (٧٧)

وهكذا ادَّعَوْا أن داء السرقة في بنيامين قد سبقه إليه شقيق له  
من قبل ، وقالوا ذلك في مجال تبرئة أنفسهم ، وهكذا وَضَحَتْ ملامح  
العداوة منهم تجاه يوسف وأخيه .

وقولهم :

﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ..﴾ (٧٧) [يوسف]

يُسَمَّى في اللغة قضية شرطية . ومعنى القضية الشرطية : أن  
حدثاً يقع بسبب حَدَث وقع قبله ، فهناك حَدَث يحدث وحده ، وهناك  
حَدَث يحدث بشرط أن يحدث قبله حدث آخر .

مثال هذا هو قولك لتلميذ : إن تذاكر دروسك تنجح ، وهنا  
حَدَثان ، المذاكرة والنجاح ، فكان حدوث النجاح الشرط فيه حدوث  
المذاكرة ، ولا بُدَّ أن يحدث الشرط أولاً : ثم يحدث الحدث الثاني ،  
وهو هنا قولهم :

﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ..﴾ (٧٧) [يوسف]

كتعليل لسرقة بنيامين .

والمثل من القرآن أيضاً :



﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ .. ﴾ (١٨٤) [آل عمران]

فكان الله يوضح للرسل ﷺ : إن كذبوك الآن فيما تنقل لهم من أخبار السماء ؛ فلا تحزن ولا تبتئس ؛ فهذا التكذيب ظاهرة عانى منها كل الرسل السابقين لك ؛ لأنهم يجيئون بما ينكره المرسل إليهم أولاً ، فلا بد أن يكذبوا ، وهكذا يستقيم الشرط ، لأن الحق سبحانه هنا قد عدل بالشئ عن سببه ، فكان جواب الشرط بعد الزمان الذى حدث فيه الشرط .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ .. ﴾ (٧٧) [يوسف]

أى : لا تعجب يا عزيز مصر ؛ لأن هذه خصلة فى أولاد راحيل ، قالوا ذلك وهم يجهلون أنهم يتحدثون إلى يوسف ابن راحيل !!

وكل حدث يحدث للملكات المستقيمة ؛ لا بد أن يخرج تلك الملكات عن وضعها ، ونرى ذلك لحظة أن يتفوه واحد بكلمة تخرج إنساناً مستقيماً عن حاله وتنفصه ، ويدرك بها الإنسان المستقيم ما يؤلمه ؛ وينفعل انفعالاً يجعله ينزع للرد .

ولذلك يوصينا ﷺ : « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ؛ فإن ذهب عنه الغضب ؛ وإلا فليضطجع »<sup>(١)</sup> .

(١) أخرجه أحمد فى مسنده ( ١٥٢/٥ ) ، وأبو داود فى سننه ( ٤٧٨٢ ) ، وابن حبان ( ١٩٧٢ - موارد الزمآن ) من حديث أبى زر رضى الله عنه . قال الهيثمى فى المجمع ( ٧١/٨ ) : « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح » .

كى يساعد نفسه على كَظْم ضيقه و غضبه ، وَلْيُسْرِبْ جزءً من الطاقة التى تشحنه بالانفعال .

ولكن يوسف عليه السلام لم ينزع إلى الرد ، لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ .. (٧٧) ﴾ [يوسف]

وكان يستطيع أن يقول لهم ما حدث له من عَمَتِهِ التى اتهمته بالباطل أنه سرق ؛ لتحفظ به فى حضانتها من فَرُط حُبِّها له ، لكن يوسف عليه السلام أراد أن يظل مجهولاً بالنسبة لهم ، لتأخذ الأمور مجراها :

﴿ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُدْهِمَ لَهُمْ .. (٧٧) ﴾ [يوسف]

حدث ذلك رغم أن قولهم قد أثر فيه ، ولكنه قال رايه فيهم لنفسه :

﴿ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) ﴾ [يوسف]

لانكم انتم مَنْ اخذتمونى طفلاً لالعب ؛ ثم القيتمونى فى الجُبِّ ؛ وتركتم أبى بلا موانسة .. وانا لم أسرق بل سُرِقت ، وهكذا سرقتم ابناً من أبية .

وهو إن قال هذا فى نفسه فلا بُدَّ أن انفعاله بهذا القول قد ظهر على ملامحه ، وقد يظهر المعنى على الملامح ، ليصل إليهم المعنى ، والقول ليس إلا الفاظاً يصل به مدلول الكلام إلى مُسْتَمِع .

وقد وصل المعنى من خلال انفعال يوسف .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ (٧٧) [يوسف]

أى : أنه سبحانه أعلم بما تفتنون ، وتظهرون العلامات  
والسمات ، وغلبت كلمة « تصفون » على الكلام .

ومثال هذا هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ .. ﴾ (١١٦) [النحل]

أى : أن ما تقولونه يُوحى من تلقاء نفسه أنه كذب ، وهكذا  
نعرف أن كلمة « تصف » وكلمة « تصفون » غلب في استعمالهما  
للكلام الذى يحمل معه دليل كذبه .

وبأتى الحق سبحانه بما جاء على ألسنتهم بعد ذلك :

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا  
مَكَانَهُ ۚ إِنَّا نَنزِعُكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٧٨)

وهكذا دخلوا مع يوسف فى نقاش ، وبدأوا فى الاستعطاف :  
بقولهم :

﴿ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا .. ﴾ (٧٨) [يوسف]

ونلاحظ أن كلمة « كبير » تُطلق إطلاقاً متعددة ، إن أردت الكبير  
فى السن تكون من « كَبِرَ يَكْبَرُ » ، وإن أردت الكبير فى المقام تقول :  
« كَبِرَ يَكْبَرُ » .

والحق سبحانه يقول :

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) ﴾ [الكهف]

والكِبَرُ واحد من معانى العظمة ، أما الكِبَرُ فى السِّنِّ فهو مختلف ؛  
وهنا قالوا :

﴿ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا .. (٧٨) ﴾ [يوسف]

قد تكون ترقيقاً بالعزة ، أو ترقيقاً بالضعف .

أى : إن له أباً شيخاً كبيراً عظيماً فى قومه ؛ وحين يُبلغه أن ابنه  
قد احتُجِرَ من أجل سرقة ، فهذا أمر مؤلم ؛ ولك أن تُقدِّرَ ذلك وأنت  
عزيز مصر ؛ ونرجو أن تحفظ للأب شرفه ومَجْدَه وعظمتَه ، واسترَّ  
ذلك الامر من أجل خاطر ومكانة والده .

أو : أن يكون قولهم مقصوداً به ، أن الاب شيخ مُهْدَمٌ ، لا يحتمل  
الصدمة ، وخصوصاً أن له ابناً قد فُقد .

ثم يعرضون عَرَضاً آخر ، فيقولون :

﴿ فَخَذَّ أَحَدُنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) ﴾ [يوسف]

أى : أنهم سألوه أن يُتَمَّ إحسانه عليهم ، فقد أحسن استقبالهم ؛  
وسبق أن أنزلهم منزلاً كريماً ، وأعطاهم المِيزَةَ ، ولم يأخذ بضائعهم  
ثمناً لها .

وَمَنْ يفعل ذلك ؛ لا يضمنُ عليهم بأن يستجيب لرجائهم ، بأن  
يأخذ واحداً منهم بدلاً من أخيهما الصغير .

كل هذه ترفيقات منهم لقلبه ، ولكن القاعدة هي ألا يؤاخذ بالذنب  
إلا صاحبه ؛ ولذلك لم يَقُتْ هذا الأمر على يوسف ، فجاء الحق  
سبحانه بما يوضح ذلك :

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا  
مَتَاعًا عِنْدَهُ إِنْ أَذَّا لَظَلِمُوا ﴾ (٧٩)

ويستعيز يوسف عليه السلام بالله أن يأخذ أحداً بدلاً ممن وُجد  
في متاعه صُواع الملك ، فما ذنبه في هذا الأمر ؟ ولا أحد يمكن أن  
ينال عقاباً على ذنب ارتكبه غيره .

وساعةً تقرأ « إذا » مُنَوَّنة ؛ فاعرف أن هناك جملة محذوفة ،  
أي : أن يوسف قال : إِنْ أَخَذْنَا غَيْرَ مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعًا عِنْدَهُ نَكُونُ مِنَ  
الظالمين .

وجاء « التنوين » بدلاً من الجملة المحذوفة التي ذكرناها .

ومثال آخر من القرآن هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنْتُمْ حِينَذَا تَنْظُرُونَ ﴾ (٨٤) [الواقعة]

ويحدث ذلك حين تبلغ الروح الحلقوم ، وجاء « التنوين » عوضاً  
عن الجملة كلها .

وهكذا أراد يوسف أن يُذكّرهم أنه لا يحقُّ له أن يأخذ أحداً  
منهم بدلاً من بنيامين ؛ لأنه هو مَنْ وُجد في متاعه صُواع الملك ؛

ولا يصح له أن يظلم أحداً ، أو يأخذ أحداً بجريرة<sup>(١)</sup> أحد آخر .

وهنا علم أبناء يعقوب أن المسألة لا يُبْت فيها بسهولة ؛ لأنها تتعلق بأمر خطير .

ويعصور الحق سبحانه حالته هذه فيقول :

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوَثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَقٍّ يَأْذَنَ لِي أَيْ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ٨٠

ويقال : « يئس » أى : قطع الأمل من الشيء ، وهم لم يقطعوا الأمل فقط ، بل استياسوا ، وهو أمر فوق اليأس .

فهم قد أخذوا يُرَقِّقُونَ كل ألوان المُرَقَّقات ؛ ولا فائدة ؛ وكلما أوردوا مُرَقَّقًا ؛ يجدون الباب أمامهم مُوصَدًا .

وكانهم بذلك يَلْحُون على اليأس أن يأتيتهم ؛ لأن الظروف المحيطة والجو المحيط لا يحمل أى بارقة أمل ، وكلما تبعدو بارقة أمل

(١) الجريرة : الجناية والذنب يجنيه الرجل . [ لسان العرب - مادة : جرد ] .

(٢) استياس : يئس منه بعد جهد ومشقة . [ القاموس القويم ٢/ ٢٦٦ ] .

(٣) الميثاق والموتق : العهد المؤكَّد . قال تعالى : ﴿ وَمِثَاقَهُ الَّذِي وَالَّذِينَ بِهِ .. ﴾ (٧) [ المائدة ] .

أى : عهده الذى عاهدكم عليه ، والزمكم الوفاء به . [ القاموس القويم ٢/ ٢٦٦ ] .

(٤) بريح الأرض : زال عنها وفارقها . وقول كبير إخوة يوسف هنا ، أى : لن أفارق أرض

مصر . [ القاموس القويم ١/ ٦١ ] بتصريف .

ويطلبونها يجدون الطريق مُوصداً ؛ فكانهم يطلبون اليأس من أن يَأْذَنَ يوسف بسفر أخيه بنيامين معهم في رحلة العودة إلى أبيهم .

وهنا : ﴿ خَلَّصُوا نَجِيًّا <sup>(١)</sup> ۝٨٠ ﴾ [يوسف]

أى : أنهم انفردوا عنه ، وعن أعين الحاضرين ؛ العزيز يوسف ، وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْمُعَاوِنِينَ لَهُ ، وأخيهام موضع الخلاف ، وانفردوا بأنفسهم .

والانفراد هو المناجاة ؛ والمناجاة مَسْرَةٌ ؛ والمَسْرَةُ لا تكون إلا في أمر لا تحب لغيرك أن يطلع عليه .

ونلاحظ أن ﴿ خَلَّصُوا ۝٨٠ ﴾ [يوسف] هي جمع ، و ﴿ نَجِيًّا ۝٨٠ ﴾ [يوسف] مفرد ، وهذا من ضمن المواقع التي يتساءل فيها مَنْ لا يملكون ملكة عربية : كيف يأتى القرآن بمفرد بعد الجمع ؟

ونقول دائماً : لو أنهم امتلكوا اللغة كملكة لَعَرَفُوا أن ذلك جائز جداً . ومثال هذا هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ <sup>(٢)</sup> ۝٤ ﴾ [التهميم]

وهم لا يفهمون أن اللغة فيها ألفاظ يستوى فيها المفرد والجمع ، كأن الملائكة يجمعون قوة كل واحد منهم لتكون قوة واحدة .

ومثال آخر : هو قول إبراهيم خليل الرحمن :

(١) نجاه ينهوه نَجَوْا : كَلَّمَهُ سِرًّا وَخَصَّهُ بِالْحَدِيثِ . فخلصوا نجياً أى : متناجين . تناجى الرجلان : أفضى كل منهما إلى الآخر بحديث سِرًّا . [ القاموس القويم ٢/٢٥٥ ] بتصريف .

(٢) الظهير : المسعين المساعد كأنه يسند ظهر من يعاونه . [ القاموس القويم ١/٤١٨ ] بتصريف .

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧)﴾  
[الشعراء]

أى : أن إبراهيم عليه السلام جمع الآلهة المتعددة التى يعبدونها وجعلها عدواً واحداً له .

وكذلك يمكن أن نفعل مع كلمة « صديق » . وكذلك كلمة « عدل » ، فحين ينظر القضاء فى أمر قضية ما ؛ فالقاضى لا يُصدر الحكم وحده ؛ بل يُصدره بعد التشاور مع المُستشارين ؛ ويصدر الحكم من الثلاثة : رئيس المحكمة ، وعضو اليمين ، وعضو اليسار وكلاهما بدرجة مستشار .

ويُقال : « حكم القضاة عدلاً » . ولا يقال : إن كل مستشار أو قاض له عدل .

وكذلك : ﴿نَجِيًّا.. (٨٠)﴾ [يوسف]

فى الآية التى نحن بصدد خواتمنا عنها ، فهم حين استياسوا من يوسف انفردوا بأنفسهم ليتناجوا .

وعادة يكون الرأى الاول للأخ الأكبر ، الذى عادة ما يكون له من الخبرة والحكمة ما يتيح له أن يُبدى الرأى الصواب .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمَنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨١)﴾  
[يوسف]



وقد يكون كبيرهم هو أكبرهم عمراً ؛ أو هو رئيس الرحلة ، وحين  
رأهم قد قَبِلُوا فكرة العودة دون أخيهم الذي احتجزه عزيز مصر ؛  
قال لهم رأيهِ الذي حذرهم فيه أَنْ يغفلوا عن أن أباهم قد أخذ منهم  
موثقاً من الله إلا أَنْ يُحَاطَ بهم ؛ كما يجب ألا ينسوا أن لهم سابقة  
حين أخذوا يوسف وضيّعوه .

وبناءً على ذلك استقر قراره ألا يبرح المكان ، ولن يعود إلى أبيه  
إلا إنْ أذنَ له بذلك ؛ أو أن يحكمَ الله له بأن يُسلِّمه عزيزُ مصر أخاه ،  
أو أن يموت هنا في نفس البلد .

وهذا القول في ظاهره دفاع عن النفس ؛ وخجل من أن يعود إلى  
أبيه بدون بنيامين ؛ ولذلك ترك إخوته يتحملون تلك المواجهة مع  
الأب .

وتبدو هذه المسألة أكثر قسوة على الأب ؛ لأنه فقد في الرحلة  
الأولى يوسف ، وفي الرحلة الثانية يفقد ابنه بنيامين ، وكذلك الابن  
الكبير الذي يرأس الرحلة .

وفي هذا تصعيد للقسوة على الأب ، وكان المفروض أن تدور  
مُداوَلة بين الإخوة في تلك المُناجاة ، ولكن الأخ الكبير أو رئيس  
الرحلة حسم الأمر .

وحين سأله : ماذا نفعل يا كبيرنا ؟ جاء قوله الذي أورده الآية  
التالية :

﴿ أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا إِنَّا بَنَاءُكُمْ  
ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا  
لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ (٨١)

وهكذا أمر الأخ الأكبر أو رئيس الرحلة إخوته أن يرجعوا إلى  
أبيهم ، ويقولوا له ما حدث بالضبط ، فقد اتهم ابنه بالسرقة ، ونحن  
لا نقول هذا الكلام إلا بعد أن وجد فتيان العزيز صُواع الملك في  
رَحْلِهِ ، ولا نعلم هل دَسَّهَا أحد له ؟ وهل هي حيلة<sup>(١)</sup> ومكيدة ؟

ونحن لا نقول لك يا أبانا إلا ما وصل إلينا من معلومات ، وقد  
أخذ العزيز طبقاً لشريعتنا ، ونحن بخبرتنا بأخينا لا نشهد عليه  
بالسرقة ، إلا أن ثبوت وجود صُواع الملك في رَحْلِهِ هو السبب في  
كل ذلك .

ويعلم الأخ الأكبر أن يعقوب عليه السلام قد يُكذِّب أولاده ؛ لأن  
هناك سوابق لهم ؛ لذلك أوصاهم الأخ الأكبر أو رئيس الرحلة أن  
يقولوا لأبيهم - إن كُذِّبهم - ما جاء به الحق على ألسنتهم :

﴿ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ  
الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴾ (٨٢)

(١) الحيلة : الحنق في تدبير الأمور وهو تقلب الفكر حتى يهتدى إلى المقصود وأصلها الواو  
واحتال : طلب الحيلة ( المصباح المنير ص ٨٥ ، ٨٦ ) .

(٢) قال القرطبي في تفسيره ( ٢٥٨٠/٥ ) : « يريدون بالقرية مصر . وقيل : قرية من قرأها  
نزلوا بها وامتاروا منها » . وهنا مجاز بالحذف وتقديره : واسأل أهل القرية .

أى : أنك يا أبانا إن كنت تشك فى أقوالنا ؛ يمكنك أن تطلب أدلة أخرى من المكان الذى كنا فيه ؛ لأن هذا الموضوع قد أحدث ضجة ، وحديث أمام جمع كبير من الناس ، والقوافل التى كانت معنا شهدت الواقعة ؛ فقد أذن مؤذن بالحادث ، وتم تفتيش العير علناً .

فإذا أردت أن تتأكد من صدق أقوالنا ، فاسأل العير التى كانت تسير معنا فى الطريق ، وهم يعرفون هذه القضية كما نعرفها ، أو اسأل أهل القرية التى جئنا منها .

ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه أورد كلام إخوة يوسف لأبيهم يعقوب :

﴿وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ (٨٢) [يوسف]

ونحن نعلم أن كل حَدَثٍ من الأحداث لا بدُّ له من فاعل ، ومن مفعول يقع عليه ، ومن مكان يقع فيه ، ومن زمان يقع فيه ؛ ومن سبب يُوجِبُه ، ومن قوة تنهض به .

وفى بعض الحالات نجد أن المكان هو الأمر الظاهر والقوى فى الحدث ، فننسبه إليه ، فيقال :

﴿وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ ..﴾ (٨٢) [يوسف]

والمراد بطبيعة الحال أن يسأل أهل القرية ، أو : أن المسألة كانت واضحة تماماً لدرجة أن الجماد يعرف تفاصيلها ، أو : أنك نبيٌ ويوحى لك الله فسأله أن يجعل الأرض تخبرك بما وقع عليها .

وكذلك قولهم :

﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ .. (٨٢)﴾ [يوسف]

ونعلم أن العير هي المَطَايا ؛ سواء أكانت نياقاً أو كانت من الجمال أو الحمير أو البغال التي تحمل البضائع .

وحين يُقال :

﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ .. (٨٢)﴾ [يوسف]

أى : أن العير كان لها فى الأمر شىء فوق المَلَابِسَات كلها .

ومثال هذا ما كان فى موقعة بدر : فقد خرج رسول الله ﷺ ليلقى العير القادمة من الشام وهى مُحَمَّلة بالبضائع ؛ ليصادرهما إيفاء ما استولى عليه الكافرون من أموال المهاجرين التى كانت بمكة . ولم يكن مع هذه العير إلا قليل من الحرس والرعاة .

ولكن حين تكلم عن المقاتلين الذين قَدِمُوا من مكة ؛ وصفهم بالنفير ، أى : الجماعة الذين نفروا لمواجهة معسكر الإيمان .

إنن : فكل حَدَّث يأخذ الأمر البارز فيه .

وهنا يورد الحق سبحانه ما جاء على السنة إخوة يوسف حينما عادوا ليلقوا أباهم ، وليس معهم أخوهم بنيامين ؛ وكذلك تَخَلَّف أخيهما الكبير أو رئيس الرحلة .

يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢)﴾ [يوسف]

ويجوز أن تفتيشهم قد تم فى مكان بعيد قليلاً عن العُمران ؛

وفحص جنود أو مساعدو يوسف أمتعتهم التي عثروا فيها على صواع الملك .

وسُمي المكان « قرية » ، مثلما نفعل نحن حالياً حين نخصص مكاناً للجمارك : نفحص فيه البضائع الخارجة أو الداخلة إلى البلد ، فنقولهم :

﴿وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢)﴾ [يوسف]

أى : اسأل أهل الموقع الذى حدث فيه التفتيش . وكذلك قولهم :

﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢)﴾ [يوسف]

أى : اسأل مَنْ كانوا معنا ، وجئنا بصحبتهم من أصحاب القوافل الأخرى .

وكررنا قولهم :

﴿وَأِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢)﴾ [يوسف]

لأنهم علموا سابق كذبهم من قبل ذلك : لذلك أرادوا هنا أن يُثبتوا صدقهم : وحين يسأل أبوهم يعقوب : سيجد أنهم صادقون فعلاً ، وهم لم يطلبوا شهادة الغير إلا لأنهم واثقون من صدقهم هذه المرة .

وجاء الحق سبحانه بهذه الجملة الإسمية :

﴿وَأِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢)﴾ [يوسف]

لأنهم قد فهموا أن والدم قد شكَّ فيهم من قبل ، حين جاءوا بدم كذب ، وأدعوا أنه قميص يوسف ، وأن الذئب قد أكله .

ويأتى الحق سبحانه بما جاء على لسان يعقوب :

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ  
جَمِيلٌ <sup>(١)</sup> عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ  
الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (٨٢)

الامور التى تخالف الضمير : ويُستحى منها : ويُخشى مغبَّتها <sup>(٢)</sup> :  
هى امور تستعصى على النفس : وتحتاج النفس إلى علاج حتى  
تبرزها ، وتحتاج إلى مَنْ يُيسر لها ، ما أن تُقدم على فعل الامر  
المستهجن ، وهذا ما يُقال له : « سَوَّلَ » .

وقول الحق سبحانه على لسان يعقوب :

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا .. ﴾ (٨٢) [يوسف]

أى : يَسَّرَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا يصعب أن تقبله النفوس  
المستقيمة ، وسبق أن قال يعقوب لحظة أن جاءوا له بقميص يوسف  
وعليه الدم الكاذب :

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا  
تَصِفُونَ ﴾ (٧٨) [يوسف]

(١) الجمال : البهاء والخصن يوصف به الحسن والمعنوى . قال تعالى : ﴿ فَصَبِرْ جَمِيلٌ .. ﴾ (٧٨) [يوسف] ، وهو جمال معنوى . وقوله : ﴿ فَاصْبِرْ الصَّبْرَ الْجَمِيلَ ﴾ (٨٥) [الحجر] الذى لا لوم معه ولا عتاب . [ القاموس القويم ١/ ١٢٨ ] . والمراد هنا بالصبر الجميل هو الصبر المؤمن الذى يعطى أملاً .

(٢) المغبة : العاقبة . غب الامر ومغبته : عاقبته وأخره . [ لسان العرب - مادة : غيب ] .

وهنا طلب يعقوب عليه السلام العون مما يدل على أن ما قالوه ، وكذلك أحداث القصة لن تقف عند هذا الحد ، بل ستأتي من بعد ما قالوه أحداث تتطلب تجنيد قوى الصبر في النفس ، وتتطلب معونة الله .

ويختلف الأمر هنا في الآية التي نحن بصدد خراطنا عنها ما جاء بعد الحديث عن تسويل النفس ، واستلهاام الصبر من الله ، فهَبَات الفرج قد اقتربت ، فقال :

﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (٨٢) [يوسف]

في هذه الآية طلب الأمل الذي يوحى بالفرج ، وقد كان .

وبعض من الذين تأخذهم الغفلة يتساءلون :

لماذا قال يعقوب :

﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا .. ﴾ (٨٢) [يوسف]

والغائب عنه هما يوسف وأخوه ؟

ونقول : ولماذا تنسونَ كبير الإخوة الذي رفض أن يبرحَ مصر ، إلا بعد أن يأنن له يعقوب ، أو يفرج عنه الله ؟

لقد غاب عن يعقوب ثلاثة من أولاده : يوسف وبنيامسين وشمعون ؛ لذلك قال :

﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا .. ﴾ (٨٢) [يوسف]

ولم يقل : يأتيني بهما .

وَيُذِيلُ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ بِقَوْلِهِ :

﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (٨٣)

[يوسف]

فإنه سبحانه يعلم أين هم ؛ لأنه العليم بكل شيء ، وهو سبحانه حكيم فيما يُجْزِيهِ عَلَيْنَا مِنْ تَصَرُّفَاتٍ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْيَضْتُ  
عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (٨٤)

وأعرض يعقوب عليه السلام عنهم ؛ فما جاءوا به هو خبر أحزنه ، وخلاً بنفسه ؛ لأنه ببشريته تحسّر على يوسف ، فقد كانت قاعدة المصائب هي افتقاده يوسف .

وساعةً تسمع نداءً لشيءٍ محزن ، مثل : « وا حُزْنَاهُ » أو « وا أسفاه » أو « وا مُصِيبَتَاهُ » ؛ فهذا يعني أن النفس تضيق بالأحداث وتقول « يا هم ، هذا أوانك ، فاحضر » . أو أنه قال :

﴿ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ .. ﴾ (٨٤)

[يوسف]

لأن أخاه بنيامين كان أشبه الناس به ؛ فكان حُزْنُهُ على يوسف

(١) كظيم : أي سكت وصبر على ما في نفسه من الغيظ ، ويجوز أن يكون كظيم بمعنى مكثوم من كظمه الغيظ أي . كربه وأحزنه واسكته وشنق عليه . [ القاموس القويم ١٦٣/٢ ] .



طاقة من الهمّ نزلت به ، وتبعتها طاقة همّ أخرى ، هي افتقار بنيامين .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَأَبْيَضُ عَيْنَاهُ .. (٨٤)﴾

[يوسف]

أى : أن دموع يعقوب كثرت حتى بدأ الجزء الأسود فى العين وكأنه أبيض . أو : ابيضت عيناه من فَرْط حُزنه ، الذى لا يبيته لأحد ويكظمه .

وهو قد يكظم غيظه من كل ما حدث ، أما الانفعالات فلا أحد يقاوم على أن يتحكم فيها .

ونجد رسولنا ﷺ يبكى : وتذرف<sup>(١)</sup> عيناه حُزنًا على موت ابنه إبراهيم ، فقال له عبد الرحمن بن عوف - رضى الله عنه - : أتبكي ؟ أو لم تكن نهيتَ عن البكاء ؟ قال : « لا ، ولكن نهيتُ عن صوتين أحْمَقَيْنِ فاجرَيْنِ : صوت عند مصيبة ، خمش<sup>(٢)</sup> وجوه ، وشق جيوب<sup>(٣)</sup> ، ورنه<sup>(٤)</sup> شيطان » .

وقد قال رسول الله ﷺ :

(١) الذرف : صبّ الدمع . ذرفت العين الدمع . أسأله . [ لسان العرب - مادة : ذرف ] .  
(٢) الخموش : الخدوش . وقد خمش وجهه : خدشه . [ مختار الصحاح ] .  
(٢) الجيوب : جمع جيب . والجيب : إنما يكون فى الثوب موضع الصدر . [ تفسير القرطبي . ٤٧٦٧/٦ ] .

(٤) الرنة : الصيحة المزينة . والرنين : الصياح عند البكاء . قال ابن سيده . هي الصيحة الشديدة والصوت المزين عند الفناء أو البكاء . [ لسان العرب - مادة : رن ] يتصرف .

(٥) أخرجه الترمذى فى سننه ( ١٠٠٥ ) عن جابر بن عبدالله . قال الترمذى : « هذا حديث حسن » . هكذا ورد الحديث فى الترمذى . ولكن فى فتح البارى ( ١٧٤/١٠ ) زيادة : « صوت عند نفخة ، لهو ولعب ، ومزامير الشيطان » .

« إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ،  
وأنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون »<sup>(١)</sup> .

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه لا يريد من الإنسان أن يكون  
جلموداً<sup>(٢)</sup> أو يكون صخراً لا ينفع للأحداث ، بل يريده مُنفعلاً  
للأحداث ؛ لأن هذا لَوْنٌ يجب أن يكون في إنسانيته ، وهذه عاطفة  
يريد الله أن يبقيا ، وعلى المؤمن أن يعليها .

فسبحانه هو الذى خلق العاطفة ، والغريزة فى الإنسان ، ولو أراد  
الله الإنسان بلا عاطفة أو غريزة لَفَعَلَ ما شاء ، لكنه أراد العاطفة  
والغريزة فى الإنسان لمهمة .

ولحظة أن تخرج العاطفة أو الغريزة عن مهمتها ، يقول لك  
المنهج : لا . لأن مهمة المنهج أن يَهْدُبَ لك الانفعال .

والمثل الذى أضربه هنا هو حُبُّ الإنسان للاستمتاع بالطعام ،  
يقول له المنهج : كُلْ ما يفيدك ولا تَكُنْ شَرِهاً<sup>(٣)</sup> .

والمثل الآخر : غريزة حب الاستطلاع ، يقول لك المنهج : اعرف  
ما يفيدك ؛ ولا تستخدم هذه الغريزة فى التجسس على الناس .

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه ( ١٢٠٢ ) . وكذا مسلم فى صحيحه ( ٢٢١٥ )  
من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) الجلمد والجلمود : الصخر . وهى الصخرة التى تكون فى الماء القليل . [ لسان العرب -  
مادة : جلمد ]

(٣) الشَرُّه : أسوأ الحرص . وهو غلبة الحرص . والشَرِّه : السريخ الطعام الشديد الحرص  
عليه . [ لسان العرب - مادة : شره ] .

وغريزة الجنس أرادها الله لإبقاء النوع ، ولتأتي بالاولاد والذرية ، لكن لا تستعملها كانهلاقات وحشية . وهكذا يحرس المنهج الغرائز والعواطف لتبقى في إطار مهمتها .

والعاطفة - على سبيل المثال - هي التي تجعل الاب يحنو على ابنه الصغير ويرعاه ، وعلى ذلك فالمؤمن عليه ان يعلى غرائزه وعواطفه .

وقول الحق سبحانه عن يعقوب :

﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (٨٤)

[يوسف]

أى : أنه اخذ النزوع على قدره . وكلمة « كظيم » مأخوذة من « كظمت القرية » أى : أحكمتا غلق فوهة القرية ، بما يمنع تسرب الماء منها .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذَكَّرْ يُونُسُ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾ (٨٥)

ولقائل أن يسأل : ومن الذين قالوا ليعقوب ذلك ، وقد ذكرت الآية السابقة أنه تولى عنهم ؟

(١) فتأ وفتى . زال وتحول . والمضارع تفتؤا . أى : ما زلت . وإنما قلوا له ذلك ، لانهم

علموا باليقين أنه يداوم على ذلك . [ تفسير القرطبي ٢٥٨٤ / ٥ ] .

(٢) الحرض : الذى انابه الحزن أو العشق ، الذى لا يقدر على النهوض . والحرض ايضاً :

الذى اشرف على الهلاك . [ لسان العرب - مادة . حرض ] بتصريف كثير . قال القرطبي

فى تفسيره ( ٢٥٨٥ / ٥ ) : « أصل الحرض الفساد فى الجسم أو العقل من الحزن أو

العشق أو الهرم » .

نقول : لقد عاش يعقوب مع أبنائه وأحفاده ، ويُقال في الأثر : إن يعقوب دخل عليه بعض الناس ، فقالوا له « تالله انهضمت يا يعقوب ، ولم تبلغ سن أبيك إسحاق » .

والمعنى : أنك صرّت عجوزاً عاجزاً ، مهشماً . قال : إنما هشمتني يوسف . فعتب عليه الله في هذه القولة ، وأوضح له : أتشكو ربك لخلقه ؟ فرفع يده وقال : خطيئة أخطأتها يا رب فاغفرها لي . قال : غفرتها لك <sup>(١)</sup> .

وقد نبّه بعض أبنائه أو أحفاده فقالوا :

﴿ تَاللّٰهِ نَفْسًا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾

[يوسف]

﴿ (٨٥) ﴾

أى : لا تزال تذكر يوسف وما حدث له ، حتى تُشرف على الهلاك . و « الحرَض » كما نعلم هو المُشْرِف على الهلاك ، أو يهلك بالفعل .

وجاء الرد من يعقوب عليه السلام ، وأورده الحق سبحانه :

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور ( ١ / ٥٧٦ ) من قول طلحة بن مصرف الأيامي وعزاه لابن جرير الطبري . قال طلحة . أنهت أن يعقوب دخل عليه جاز له فقال : يا يعقوب ، ما لي أراك قد انهضمت وفنيت ، ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك ؟ قال : هشمتني وأهنتني ما ابتلاني الله به من هم يوسف ، وذكره ، فأوحى الله إليه : يا يعقوب ، أتشكوني إلى خلقي ؟ فقال : يا رب ، خطيئة أخطأتها فاغفرها لي . قال : لاني قد غفرت لك . فكان بعد ذلك إذا سئل قال : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ .. ﴾ (٨٦) [يوسف] .

## ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِيَّ وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَاعْلَمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨٦)

وشكاية الأمر إلى الله لَوْن من العبادة لله ، والبَث : هي المصيبة التي لا قُدرة لاحد على كتمانها ؛ فينشرها ، وإذا أصاب الأعلى الأدنى بما يراه الأدنى سوءً ، يتفرع الأدنى إلى نوعين : نوع يتوود إلى الأقوى ، و يتعطفه ويلين له ، ويستغفره ويستميحه ، ونوع آخر يتأبى على المُبتلى . ويتمرد ، ولسان حاله يقول : « فليفعل ما يريد » .

والحق تبارك وتعالى يقول في كتابه :

﴿قُلُوبًا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسًا تَضُرُّعُوا﴾ (٤٣) [الأنعام]

فساعةً يأتى البأسُ ونتضرع إلى الله : يكون البأس قد غسلنا من الذنوب ونسيان الذُكْر ؛ وأعادنا إلى الله الذى لن يزيل البأس إلا هو .

أما الذى يتمرد ويستعلى على الأحداث ، فويل له من ذلك التمرد . والحق سبحانه حين يصيب إنساناً بمصيبة ، فهو يلفظ بمن يدعو .

وتساءل بعضهم : ولماذا لم يَقُل يعقوب ما علمنا إياه رسولنا ﷺ :

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (١٥٦) [البقرة]

(١) حقيقة البَث في اللغة ما يرد على الإنسان من الأشياء المهلكة التي لا يتبها له أن يخفها . قال الحسن : بشى : حاجتى . وقيل : أشد العزن . [ راجع : تفسير القرطبي ٣٥٨٦/٥ ] .

ونقول : إن هذا من النعم التي اختص بها الحق سبحانه أمة محمد ﷺ ؛ وحين دخل بعضهم على علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه وأرضاه - وكان يعاني من وعكة ، وكان يتأوه ، فقالوا له : يا أبا الحسن أنتوجع ؟ قال : أنا لا أشجع على الله .

وهنا في الآية - التي نحن بصدد خواتمها - يعلن يعقوب عليه السلام أنه لا يشكو حزنه وممه إلا إلى الله ، فهو القادر على كشف الضر : لأن يعقوب عليه السلام يعلم من الله ما لا يعلم أبناؤه أو أحفاده .

فقد كان يشعر بوجدانه ، وبما كان لديه من شكوك لحظة إبلاغهم له بحكاية الذئب المكنوبة أن يوسف ما زال حياً ، وأن الرؤيا التي حكى يوسف عنها لأبيه ، سوف يأذن الحق بتحقيقها .

ويذكر الحق سبحانه ما جاء على لسان يعقوب فيقول :

﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسُّوْا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ  
وَلَا تَأْتِسْوَ مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَّوْحِ  
اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٧)

ونلاحظ أن الذين غابوا هم ثلاثة : يوسف ، وبنيامين ، والآخر

(١) تحسس الشيء وتحسس منه : طلب معرفته بالبحث الدقيق عنه . قال تعالى : ﴿يَبْنِي

أَذْهَبُوا فَتَحَسُّوْا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ .. (٨٧)﴾ [يوسف] . أي : تتبعوا أخبارهما وابحثوا عنهما

بغناية شديدة . [ القاموس القويم ١/ ١٥٤ ] .

الأكبر الذي أصرَّ على ألاَّ يبرح مصر إلا بعد أن يأذن أبوه ، أو يأتى فرج من الله .

وهنا فى هذه الآية جاء ذكر يوسف وأخيه ، ولم يأت ذكر الأخ الكبير أو رئيس الرحلة . ونقول : إن يوسف وأخاه هما المعسكر الضعيف الذى عانى من مناهضة بقية الإخوة ، وهما قد فارقا الأب صفاراً ، أما الأخ الأكبر فيستطيع أن يحتال ، وإن يعود فى الوقت الذى يريد .

وقول يعقوب :

﴿ اذْهَبُوا فَتَحَسَّوْا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ .. ﴾ (٨٧)

[يوسف]

نجد فيه كلمة ﴿ تحسسوا ﴾ ، وهى من الحس ، والحس يُجمع على « حواس » ، والحواس هى منافذ إدراك المعلومات للنفس البشرية ، فالمعلومات تنشأ عندنا من الأمور المحسَّنة ، وتتركها حواسنا لتصير قضايا عقلية .

وهكذا نعلم أن الحواس هى قنوات المعرفة ، وهى غير مقصورة على الحواس الخمس الظاهرة ؛ بل اكتشف العلماء أن هناك حواس أخرى غير ظاهرة ، وسبق أن تعرضنا لهذا الأمر فى مرات كثيرة سابقة .

وقوله :

﴿ فَتَحَسَّوْا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ .. ﴾ (٨٧)

[يوسف]

يعنى أعملوا حواسكم ، بكل ما فيها من طاقة ، كي تصلوا إلى الحقيقة .

ونعلم أن كلمة « الجاسوس » قد أطلقت على مَنْ يتنصّت ويرى ويشم رائحة الاخبار والتحركات عند معسكر الأعداء ؛ ويقال له « عين » أيضاً .

وقى عُرْفنا العام نقول لمن يحترف التقاط الاخبار « شم شم لنا على حكاية الامر الفلانى » .

وتابع يعقوب القول :

﴿ لَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحٍ <sup>(١)</sup> اللَّهُ إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾ [يوسف]

أى : إياكم أن تقولوا أننا ذهبنا وتعبنا وتحايِلنا ؛ ولم نجد حلاً ، لأن الله موجود ، ولا يزال الله رحمة .

والآثر يقول : « لَا كَرْبَ وَأَنْتَ رَبُّهُ » .

وما يَعِزُّ عليك بقانونك الجأ فيه إلى الله .

وقد علمنا رسول الله ﷺ « أنه كلما حَزَبَه أمر قام وصلى » <sup>(٢)</sup> .

وبهذا لجأ إلى ربِّ الأسباب ، وسبحانه فوق كل الأسباب ، وجَرَّبوا ذلك فى أى أمر يُعضلكم ، ولن ينتهى الواحد منكم إلى نهاية الصلاة إلا ويجد حلاً لما أعضكه .

(١) الرُّوح : الرحمة . سماها روحاً لأن الرُّوح والراحة بها . وقوله : ﴿ لَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ ..

(٨٧) ﴾ [يوسف] أى . لا تقنطوا من فرج الله . قاله ابن زيد . يريد أن المؤمن يرجو فرج

الله . [ راجع : القرطبي فى تفسيره ٢٥٨٧/٥ ] و [ لسان العرب - مادة : روح ] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده ( ٢٨٨/٥ ) ، وأبو داود فى سننه ( ١٢١٩ ) من حديث حذيفة

ابن اليمان .



وكلمة « رُوح » نجدُها تُنطَقُ على طريقتين « رُوح » و « رُوح » ،  
و « الرُّوح » هي الرائحة التي تهبُّ على الإنسان فيستروح بها ، مثلاً  
يجلس إنسان في يوم قَيْظٍ<sup>(١)</sup> ؛ ثم تهبُّ نسمة رقيقة ينتعش بها.

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ ﴾ (٨٩)

[الواقعة]

ونأخذ لهذه الروح مثلاً من المُحسَّات حين يشتد القيظ ، ونجلس  
في بستان ، وتهبُّ نسمة هواء ؛ فيتعطر الجو بما في البستان من  
زهور .

والرُّوح<sup>(٢)</sup> هي التي ينفخها الحقُّ سبحانه في الجماد فيتحرك .

ويأتى هنا يعقوب عليه السلام بالقضية والمبدأ الذي يسير عليه  
كل مؤمن ، فيقول :

﴿ إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٨٧)

[يوسف]

لأن الذي ليس له ربٌّ هو مَنْ ييأس ، ولذلك نجد نسبة المنتحرين  
بين الملاحدة كبيرة ، لكن المؤمن لا يفعل ذلك ؛ لأنه يعلم أن له رباً  
يساعد عباده .

وما دام المؤمن قد أخذ بالأسباب ؛ فسبحانه يهبُّ ممَّا فوق  
الأسباب .

(١) القيظ . صميم الصيف . واليوم القلظ : شديد الحر . [ لسان العرب - مادة : قيظ ] .  
(٢) الروح بالضم : ما به حياة النفس ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ نَسَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ﴾ (٢١)  
[ السجدة ] أى : من سر الحياة التي لا يخلقها إلا الله ، أى : بروح من الله لا من غيره ،  
بروح لا يملك نفخها في الإنسان إلا الله . [ القاموس القويم ٢٨٠ / ١ ] .

وسبحانه يقول :

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) ﴾ [الطلاق]

وهذه مسألة تحدث لمن يتقى الله . أتحدى أن يوجد مؤمن ليس في حياته مثل هذه الأمور ، ما دام يأخذ بالاسباب ويتقى الله ، وسوف يجد في لحظة من لحظات الكرب أن الفرج قد جاء من حيث لا يحتسب ؛ لأن الله هو الرصيد النهائي للمؤمن .

وهب أنك سائر في الطريق ، وفي جيبك جنيه واحد ، وليس عندك غيره وضاع منك ؛ هل تحزن ؟ نعم سوف تحزن ، ولكن إن كان في بيتك عشرة جنيهات فحزرك يكون خفيفاً لضياح الجنيه ، ولو كان رصيدك في البنك ألف من الجنيهات ، فلن تحزن على الجنيه الذي ضاع .

وَمَنْ لَهُ رَبٌّ ، يبذل الجهد في الأخذ بالاسباب ؛ سيجد الحل والفرج من أي كرب مما هو فوق الاسباب .

ولماذا ييأس الإنسان ؟

إن الملحد هو الذي ييأس ؛ لأنه لا يؤمن بإله ، ولو كان يؤمن بإله ، وهذا الإله لا يعلم بما فيه هذا الكافر من كرب ، أو هو إله يعلم ولا يساعد من يعبده ؛ إما عجزاً أو بخلاً ، فهو في كل هذه الحالات ليس إلهاً ، ولا يستحق أن يؤمن به .

أما المؤمن الحق فهو يعلم أنه يعبد إلهاً قادراً ، يعطى بالاسباب ،  
وبما فوق الاسباب ؛ وهو حين يمنع ؛ فهذا المنع هو عينُ العطاء ؛  
لأنه قد يأخذ ما يضره ولا ينفعه .

وينقلنا الحق سبحانه إلى نفلة أخرى ؛ وهي لحظة أن دخلوا على  
يوسف عليه السلام في مقره بمصر ؛ ونقرأ قوله الحق :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا  
الضَّرُّ وَجِئْنَا بِيَضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ  
عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ بِجَزَى الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ (٨٨)

ولم يذكر الحق سبحانه اسم من دخلوا عليه ، لأنه بطل القصة ،  
والضمير في « عليه » لا بُدَّ أن يعود إلى معلوم ، ونادوه بالتفخيم  
قائلين :

﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضَّرُّ .. ﴾ (٨٨) [يوسف]

أى : أن الجوع صَيَّرنا إلى هُزَال ، وبدأوا بترقيق قلب من  
يسمعهم ؛ بعد تفخيمهم له ؛ فهو الأعلى وهم الأدنى .

ويستمر قولهم :

(١) أى : ومعنا ثمن الطعام الذى نمتاره وهو ثمن قليل ، قاله مجاهد والحسن وغير واحد .  
[ ابن كثير ٤٨٨/٢ ] . وقال القرطبي ( ٢٥٨٨/٥ ) . « الإجزاء : السَّوْقُ بَدَلِجٍ وَالْمَعْنَى .  
أنها بضاعة تُنْفَعُ ، ولا يقبلها كل أحد » .

﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةِ مُرْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ (٨٨)

[يوسف]

ونعلم أنهم قد جاءوا ليتحسسوا أمر يوسف وأخيه ، وقد اختاروا مدخل الترقيق والتفخيم ككُون من المكر ، فالتفخيم بنداؤه بلقب العزيز ؛ أى : المالك المُتَمَكِّن ؛ ويعنى هذا النداء أن ما سوف يطلبونه منه هو أمر فى متناول سلطته .

والترقيق بشكوى الحال من جوع صار بهم إلى هُزال ، وأعلنوا قدومهم ومعهم بضائع مُرْجَاة ، أى : بضاعة تُستخدم كاثمان لما سوف يأخذونه من سلع .

وكلمة : ﴿ مُرْجَاة .. ﴾ (٨٨)

[يوسف]

أى : مدفوعة من الذى يشتري أو يبيع .

والحق سبحانه يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ﴾ (١٦)

[النور]

وكلمة « يزجى » بمعنى : يدفع .

إذن : فما معنى قول الحق سبحانه :

﴿ بِبِضَاعَةِ مُرْجَاةٍ .. ﴾ (٨٨)

[يوسف]

(١) الرُّكْم : جمعك شيئاً فوق شيء حتى تجعله رُكاماً مركباً كركام الرمل والسحاب ونحو ذلك من الأشياء المرتكبة على بعضها . وارتكمت الشيء وتراكمت [ إذا اجتمع . ] لسان العرب - مادة : ركم ] .

ولكى تعرف المعنى بإحساسك ؛ جَرِّبْ هذا الأمر فى نفسك ،  
وراقب كيف تدفع ثمن أى شىء تشتريه ؛ فإن كان معك نقود قديمة  
ونقود جديدة ؛ ستجد أنك تدفع قيمة ما تشتريه من النقود القديمة ؛  
وسوف تجد نفسك مرتاحاً لاحتفاظك بالنقود الجديدة لنفسك .

وقد يقول لك مَنْ تشتري منه : « خذ هذه الورقة النقدية القديمة  
التي تدفعها لى ، واستبدلها لى بورقة جديدة » .

فما دامت النقود سوف تُدفع ؛ فأنت تريد أن تتخلص من النقود  
القديمة ؛ وتُفعل ذلك وأنت مُرتاح ، وبذلك يمكننا أن نفهم معنى :

﴿ بِضَاعَةٌ مُّزْجَاةٌ .. (٨٨) ﴾ [يوسف]

على أنها بضاعة رديئة .

فكان الضرُّ الذى أصابهم جعلهم عاجزين عن دفع الأثمان للميرة  
التي سوف يأخذونها ، مثل الأثمان السابقة التي تميزت بالجودة .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على سنتهم :

﴿ فَأَرْوِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) ﴾

[يوسف]

أى : أنهم يرجونه أن يُوفى لهم الكيل ولا ينقصه ؛ إن كان ما  
جاءوا به من أثمان لا يُوفى ما تساويه الميرة ، وطالبوه أن يعتبر تلك  
التوفية فى الكيل صدقة .

وبذلك ردّوه إلى ثمن أعلى مما حملوه من أثمان ، وفوق قدرة  
البشر على الدُّفع ؛ لأن الصدقة إنما يُثيب عليها الحق سبحانه وتعالى .

ولقائل أن يسأل : اليسوا أبناء نبوة ، ولا تجوز عليهم الصدقة ؟  
 نقول : إن عدم جواز الصدقة هو أمر اختص به الحق سبحانه آل  
 محمد ﷺ ، وهو أمر خاص بأمة محمد ﷺ ، فقد قال ﷺ : « إن  
 الصدقة لا تنبغي لآل محمد ، إنما هي أوساخ الناس »<sup>(١)</sup> .  
 وانظر إلى ما فعلته الترفيقات التي قالوها : نظر إليهم يوسف  
 عليه السلام وتبسم ، ولما تبسم ظهرت ثناياه<sup>(٢)</sup> ، وهي ثنايا مميزة  
 عن ثنايا جميع من رآوه .  
 وجاء الحق سبحانه بما قاله :

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ  
 إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾

ومجىء هذا القول في صيغة السؤال ؛ يدفعهم إلى التأمل  
 والتدقيق ؛ لمعرفة شخصية المتحدث .

ثم يأتى التلطف الجميل منه حين يضيف :

﴿ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ (٨٩)

[يوسف]

وفى هذا القول ما يلتبس لهم به العذر بالجهل ، ولم يتحدث

(١) أخرجه أحمد في مسنده ( ١٦٦/٤ ) ، ومسلم في صحيحه ( ١٠٧٢ ) كتاب الزكاة من  
 حديث عبدالمطلب بن ربيعة بلغظ . « ألا إن الصدقة لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد ، إنما  
 هي أوساخ الناس » .

(٢) ثنايا الإنسان في فمه هي : الأسنان الأربع التي في مقدم فمه . ثنتان من فوق ، وثنان  
 من أسفل . [ لسان العرب - مادة : ثنى ] .

إليهم بعزة الكبرياء ، وغرور المكانة التي وصل إليها ، وهدفه أن يخفف عنهم صدمة المفاجأة ، فذكر لهم أنهم فعلوا ذلك أيام جهلهم .

وهذا مثلما يكون أحدهم قد أخطأ في حقك قديماً بسلوك غير مقبول ، ولكن الأيام أزالَتْ مرارتك من سلوكه ، فتذكَّره بما فعله قديماً وأنت تقول له : إن فعلك هذا قد صدر منك أيام طيشك ، لكنك الآن قد وصلت إلى درجة التعقل وفهم الأمور .

وقول يوسف عليه السلام لهم هذا الأمر بهذه الصيغة من التلطُّف ، إنما يعبر أيضاً عن تأثره بشكواهم ، ثم تبسُّمه لهم ، وظهور ثناياه دفعهم إلى تذكُّره<sup>(١)</sup> ، ودار بينهم وبينه الحوار الذي جاء في الآية التالية :

﴿ قَالُوا أَيْ تَنْكَ لَا أَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ  
وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ  
فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾<sup>(٢)</sup>

وهكذا انتبهوا إلى شخصية يوسف وتعرفوا عليه ، وقالوا :

﴿ أَنْتَ لَا أَنْتَ يُوسُفُ .. ﴾<sup>(٣)</sup> [يوسف]

(١) كان يوسف عليه السلام إذا تبسَّم كان ثناياه اللؤلؤ المنظوم ، قال ابن عباس : تبسَّم

يوسف ، فشبَّهوه بيوسف فقللوا له على جهة الاستفهام . ﴿ أَنْتَ لَا أَنْتَ يُوسُفُ .. ﴾<sup>(٣)</sup>

[يوسف] . وفي هذا روايات أخرى ذكرها القرطبي في تفسيره ( ٢٥٩١/٥ ) .

(٢) مَنْ عَلَيْهِ : أنعم عليه وأحسن إليه . قال القرطبي في تفسيره ( ٢٥٩١/٥ ) . د أي : قد

مَنَّ الله علينا بالإنجاز والملك . بتصريف .

وجاء قولهم بأسلوب الاستفهام التقريرى الذى أكدوه بـ « إن » و  
« اللام » ، وقد قالوا ذلك بلهجة مُمتلئة بالفرح والتعجب بنجاحهم فى  
التحسس الذى أوصاهم به أبوه .

فَرَدُّ عَلَيْهِمْ :

﴿ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي .. ﴾ (٩٠)

[يوسف]

وبطبيعة الحال هم يعرفون أخ يوسف « بنيامين » ، وجاء ذكر  
يوسف له هنا دليلاً على أن بنيامين قد دخل معه فى النعمة ، وأن  
الحق سبحانه قد أعزَّ الاثنين .

ويجىء شكر يوسف لله على نعمته فى قوله :

﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ

(٩٠) ﴾

[يوسف]

وجاء يوسف بهذا القول الذى يعرض القضية العامة التى تنفعهم  
كإخوة له ، وتنفع أى سامع لها وكل مَنْ يتلوها ، وقد قالها يوسف  
عليه السلام بعد بينة من واقع أحداث مرَّتْ به بدءً من الرؤيا إلى هذا  
الموقف .

فهو كلام عليه دليل من واقع مُعاش ، فقد مَنَّ الله على يوسف  
وأخيه مما ابتليَا به واجتمعا من بعد الفُرقة ، وعُلَّ يوسف ذلك  
بالقول :

﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ .. ﴾ (٩١)

[يوسف]

أى : مَنْ يجعل بينه وبين معصية الله وقاية ، ويخشى صفات



الجلال ، ويتبع منهجه سبحانه ، ويصبر على ما أصابه ، ولا تقتر همته عن عبادة الله طاعة ، ويتجنب كل المعاصي مهما زينت له .

فسبحانه وتعالى لا يضيع أجر المحسنين الذين يتقونه ، وصاروا بتقواهم مُستحقين لرحمته ، وإحسانه في الدنيا والآخرة .

ويأتى قول الحق سبحانه بعد ذلك ليحمل لنا ما قاله إخوة يوسف فى هذا الموقف :

﴿ قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللّٰهُ عَلَيْنَا  
وَإِنْ كُنَّا لَخٰطِئِينَ ﴾

و . تالله ، قَسَم بالله .

و ﴿ آثَرَكَ اللّٰهُ عَلَيْنَا .. ﴾ (٩١)

[يوسف]

أى : خصلك بشيء فوق ما خص به الآخرين ، وهو لم يؤثر بظلم لغيرك ، ولكنك كنت تستحق ما آثرك به من الملك وعلو الشأن والمكانة .

وهكذا صدق إخوة يوسف على ما قاله يوسف ، واعترفوا بخطيئتهم ، حين حاولوا أن يكونوا مُقربين مثله عند أبيهم ، ولكنك يا يوسف وصلت إلى أن تصير مُقرباً مُقدماً عند رب أبينا ورب العالمين.

والشأن والحال التى كنا فيها تؤكد أننا كنا خاطئين ، ولا بد أن ننتبه إلى الفرق بين « خاطئين » و « مخطئين » .

والعريز قد قال لزوجته :

﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ (٢٩) [يوسف]

ولم يَقُلْ لها « كنت من المخطئين » فالمادة واحدة هي : « الخاء » و « الطاء » و « الهمزة » ، ولكن المعنى يختلف ، فالخاطئ هو مَنْ يعلم منطقة الصواب ويتعداها ، أما المخطئ فهو مَنْ لم يذهب إلى الصواب ؛ لأنه لا يعرف مكانه أو طريقه إليه .

ويقول الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف عليه السلام لإخوته بعد أن أقرُّوا بالخطأ :

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٩٢)

والتثريب هو اللوم العنيف ، وهو مأخوذ من الثَّرْب ؛ فحين يذبحون ذبيحة ، ويُخرجون أمعاءها يجدون حول الأمعاء دُهْنًا كثيفًا ؛ هذا الدُهْن يُسَمَّى ثَرْبًا .

أما إن كانت هزيلة ، ولم تتغذَّ جيدًا ، فأمعاؤها تخرج وقد ذاب من عليه هذا الثَّرْب .

والتثريب يعنى : أن اللوم العنيف قد أذاب الشحم من لحمه ، وجعل دمه ينز ، ويكاد أن يصل بالإنسان إلى أن ينزل به ويسله .

وفى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« إذا زنت أمةً أحدكم فتبين<sup>(١)</sup> زناها فليجلدها الحد ، ولا يُثْرَبَ عليها ، ثم إن زنت فليجلدها الحد ، ولا يُثْرَبَ عليها ، ثم إن زنت الثالثة فتبين زناها فليبيعها ، ولو بحبل من شعر »<sup>(٢)</sup> .

أى : لا يقولن لها : يا مَنْ فعلت كذا وكذا ، بل فليعاقبها بالعقاب الذى أنزله الله لمثل هذه الجريمة : فإن لم ترتدع عن الفعل فليبيعها ، وهكذا نفهم أن التثريب أو اللوم العنيف قد يؤد العناد .

وقال يوسف عليه السلام :

﴿ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٩٢)

[يوسف]

ولقائل أن يتساءل : ولماذا قال يوسف ذلك : وقد يكونون قد استغفروا الله من قبل ؟

ونقول : إن دعوة يوسف بالمغفرة لهم جاءت فى حدود معرفته، ولتصفية النفوس مما شابها بهذا اللقاء .

وقوله :

﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٩٢)

[يوسف]

هو قهَمٌ لحقيقة أن أى رحمة فى العالم ، أو من أى أحد إنما هى مُستَمَدّة من رحمته سبحانه .

(١) قال النووي فى شرحه لمسلم ( ٢٢٣/١١ ) : « معنى تبين زناها تحققه ، إما بالبينة ، وإما برؤية ، أو علم منه من يؤمّ القضاء بالعلم فى الحدود » .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه ( ١٧٠٣ ) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وقد قال يوسف ذلك وهو واثق من إجابة دعوته ، لأنه قد غفر لهم خطاهم القديم وعَفَا عنهم ؛ والله أَوْلَىٰ منه بالعفو عنهم .

ثم يعود الحديث بينه وبينهم إلى والدهم ، فيقول الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف لإخوته ، وهو الذي عَلم ما حدث لأبيه بعد فراقه له :

﴿ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ  
بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١٣)

وكان يوسف عليه السلام ، قد عَلم أن أباه يربط عينيه من الحزن ، وكاد أن يفقد بصره ، فامر إخوته أن يذهبوا بقميصه الذي كان يلبسه إلى أبيه .

وتقول كتب السِّير أن أخاه الأكبر الذي رفض أن يبرح مصر ، وقال :

﴿ فَلَنْ أْبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ  
الْحَاكِمِينَ ﴾ (٨٠)

[يوسف]

قد قال ليوسف :

« يا أيها العزيز إنني أنا الذي حملتُ القميص بدم كذب إلى أبي ، فدعني أحمل هذا القميص لأبي ، كي تمحو هذه تلك »<sup>(١)</sup> .

(١) قال القرطبي في تفسيره ( ٥ / ٢٥٩٢ ) . « حكى السدي أن الذي حمل قميصه يهوذا .

قال ليوسف : أنا الذي حملتُ إليه قميصك بدم كذب فأحزنته ، وأنا الذي أحمله الآن

لأسره ، وليعود إليه بصره ، فعمله » .

وقال يوسف عن فعل القميص مع الأب :

﴿ فَأَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ۖ ۝٩٣ ﴾ [يوسف]

و نلاحظ أنه لم يَقُلْ : « وجه أبيكم » .

وفى قوله :

﴿ وَجْهِ أَبِي ۖ ۝٩٣ ﴾ [يوسف]

إشارة إلى الحنان الأبوى الذى فقدوه منذ أن غاب يوسف ، فغرق والده فى الحزن .

و .

﴿ يَأْتِ بَصِيرًا ۖ ۝٩٣ ﴾ [يوسف]

أى : يرتد إليه بصره ، أو يراه أمامه سليماً .

ويضيف يوسف :

﴿ وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ۖ ۝٩٤ ﴾ [يوسف]

هذا تعبير قرأتى دقيق ، أن يُحْضِرُوا معهم كل مَنْ يَمُتُ بصلته قرابة لهم أو يعمل معهم <sup>(١)</sup> ، ولم يَقُلْ يوسف « بآلكم » حتى لا يأتوا بالاعيان فقط .

ونلاحظ أنه لم يذكر والده فى أمر يوسف لإخوته أن يأتوه بكل مَنْ يَمُتُ لهم بصلته قُرْبَى : لأن فى مثل هذا الأمر - من موقع عزيز مصر - إجباراً للأب على المجيء ، وهو يُجِلُّ أباه عن ذلك .

(١) قال مسروق كانوا ثلاثة وتسمين ، ما بين رجل وامرأة . القرطبي فى تفسيره ( ٢٥٩٣/٥ ) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ  
رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾<sup>(١)</sup>

و ، فصلت ، تدل على شيء كان مُلتصقا بشيء آخر وانفصل عنه ، وفصلت العيرُ . أى : خرجت من المدينة وتجاوزتها ؛ لتسير فى رحلتها ، والمقصود خروج القافلة من حدود مصر قاصدة مكان يعقوب عليه السلام .

وهنا قال يعقوب لمن كانوا حاضرين معه من الأحفاد وأبناء الأبناء :

﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ..﴾<sup>(٢)</sup> [يوسف]

والمعروف أن القميص الذى أرسله مع أخيه الأكبر يحمل رائحة يوسف ، لكن الذين حول يعقوب من أقربائه لم يُصدِّقوا قوله ، فاضاف :

﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾<sup>(٣)</sup> [يوسف]

أى : لولا اتهامكم لى بالخرف ، لأن التفنيد هو الخرف<sup>(٤)</sup> .

(١) ريح يوسف : أى ريحا تحمل رائحته . أو الريح بمعنى الرائحة أى رائحته . [ القاموس القويم ٢٨٠/١ ] .

(٢) فَنَدَ : ضعف رأيه من الهرم ، أو كذب عامداً ، واتى بالباطل . وفَنَدَ رأيه : لضعفه وأبطله . أو بَيَّنَّ ما فيه من الخطأ . [ القاموس القويم ٨٩/٢ ] .

(٣) الخرف : فساد العقل من الكِبَرِ . [ لسان العرب - مادة : خرف ] .

ومن العجيب أننا في أيامنا هذه نجد العلم وقد أثبت أن صورَ المرائي والأصوات ، توجد لها آثار في الجو ، رغم ما يُخيل للإنسان أنها تلاشت .

ويحاول العلم بوسائل من الأشعة أن يكشف صورة أي جماعة كانت تجلس في مكان ما ، ثم رحلت عنه منذ ساعة أو ساعتين ، مما يدل على أن الصور لها نضح من شعاع وظلال يظل بالمكان لفترة قبل أن يضيع .

وكذلك الأصوات ؛ فالعلماء يحاولون استرداد أصوات من رحلوا ؛ ويقولون : لا شيء يضيع في الكون ، بل كل ما وجد فيه محفوظ بشكل أو بآخر .

والرائحة أيضاً لا تضيع ، بدليل أن الكلب يشمّ الريح من على مسافات بعيدة ، ويميز الآن المخدرات من رائحتها ؛ ولذلك تنتشر الكلاب المدربة في المطارات وعلى الحدود ؛ لتكشف أي محاولة لتهرب المخدرات .

وإذا كان الحيوان المخلوق بقدره الله قادراً على التقاط الرائحة من بين آلاف الروائح ، وإذا كان العلم الموهوب من الله للبشر ؛ يبحث الآن في كيفية استحضار الصورة واسترداد الصوت من الفضاء المحيط بالإنسان ؛ فعلياً أن ندرك أن العبر عندما خرجت من أسوار المدينة ؛ وأخذت طريقها إلى الموقع الذي يعيش فيه يعقوب عليه السلام ؛ استطاع يعقوب بقدره الله أن يشمّ رائحة يوسف ؛ تلك التي يحملها قميصه القادم مع القافلة .

ولسائل أن يقول : ولماذا ارتبط تنسّم يعقوب لرائحة يوسف  
بمخرج العير من مصر ، وتواجدها على الطريق إلى موطن يعقوب ؟

نقول : لأن العير لحظة تواجدها في المدينة تكون رائحة قميص  
يوسف مُختلطة بغيرها من الروائح ؛ فهناك الكثير من الروائح الأخرى  
داخل أي مدينة ، ويصعب نفاذ رائحة بعينها لتغلب على كل الروائح ؛  
ويختلف الأمر في الخلاء ؛ حيث يمكن أن تمشي هبة الرائحة دون أن  
يعترضها شيء .

وبذلك نؤمن أن كل شيء في الكون محفوظ ولا يضيع ؛ مصداقاً  
لقوله تعالى :

﴿ وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) ﴾ [الأنفطار]

وكل ما يصدر منك مُسجّل عليك ؛ ولذلك يأتيك كتابك يوم القيامة  
لنقرأه ، وتكون على نفسك حسيباً ؛

ويرد من بقي من أهل يعقوب معه على قوله بأنه يجد ريح يوسف :

﴿ قَالُوا تَاللّٰهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١٥) ﴾

وكانهم قد ملّوا حديثه عن يوسف ؛ وأعرضوا عن كلامه قائلين  
له : إلى متى ستظل على ضلالك ، وهم لا يعنون الضلال<sup>(١)</sup> بمعنى  
الخروج عن المنهج ، ولكنهم يعنون الضلال بمعنى الجزئيات التي  
لا علاقة لها بالتدين من محبة شديدة ليوسف ، وتعلق به ، والتمنى  
لعودته ، وكثرة الحديث عنه ، وتوقع لقائه ، وهم الذين ظنّوا أن  
يوسف قد مات .

(١) الضلال هنا يعني شدة الانشغال بالمحسوب وكثرة السؤال عنه والبحث المتلاحق  
مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهْدًى (٧) ﴾ [الضحى].



ويأتى البشير ليعقوب ، يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ  
فَارْتَدَّ بِصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ  
اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ١٦

وحين حضر البشير<sup>(١)</sup> ، وهو كما تقول الروايات كبير الإخوة ؛  
ويقال أيضاً : إنه يهوذا ؛ وهو مَنْ رفض أن يغادر مصر إلا بعد أن  
يأذن له والده ، أو يأتى حلٌّ من السماء لمشكلة بقاء بنيامين فى  
مصر ، بعد اتهام أعوان العزيز له بالسرقة ، طبقاً لما أراد يوسف  
ليستبقى شقيقه معه .

ولما جاء هذا البشير ومعه قميص يوسف ؛ فآلقاه على وجه الأب  
تنفيذاً لأمر يوسف عليه السلام .

وبذلك زال سبب بكاء يعقوب ، وفرح يعقوب فرحاً شديداً ؛ لأنه  
فى أيام حزنه على يوسف ، وابيضاض عينيه من كثرة البكاء حدثه  
قلبه بالإلهام من الله أن يوسف ما زال حياً ؛ وكان البكاء عليه من بعد  
ذلك هو بكاء من فرط الشوق لرؤية ابنه .

(١) البشير : الذي يُبشِّرُ القوم بالخبر السار . قيل : هو شمعون . وقيل : يهوذا . قال : أنا  
أذهب بالقميص اليوم كما ذهبتُ به مُلَطَّخاً بالدم . قاله ابن عباس . وعن السدى أنه قال  
لإخوته : قد علمتم أني ذهبتُ إليه بقميص التُّرَّة (الحزن) فدعوني أذهب إليه بقميص  
الفرحة . [ تفسير القرطبي ٢٥٩٦/٥ ] .

وكذلك قد يكون يوسف قد علم بالوحي من الله أن إلقاء القميص على وجه أبيه يرد إليه بصره ، بإذن من الحق سبحانه وتعالى ، فضلاً عن أن الفرع له آثار نفسية تنعكس على الحالة الصحية ، وهكذا تجلّت انتصارات الحق والنبوة .

وقال يعقوب عليه السلام :

﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٩٦) [يوسف]

ولم يقل ذلك إذلالاً لهم ، بل ليعطى الثقة والتوثيق لأخبار كل نبي ، وأن الواقع قد أيد الكلام الذي قاله لهم :

﴿ يَا بَنِي إِدْهَبُوا فَتَحَسُّوْا<sup>(١)</sup> مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٨٧) [يوسف]

فإذا جاءكم خبر من معصوم ؛ إياكم أن تقفوا بعقولكم فيه ؛ لأن العقول تأخذ مُدركات الأشياء على قدرها ، وهناك أشياء فوق مُدركات العقول .

وحين يُحدثكم معصوم عن ما فوق مُدركات عقولكم إياكم أن تُكذّبوه ؛ سواء فهمتم ما حدثكم عنه ، أو لم تستوعبوا حديثه عما فوق مُدركات العقول .

(١) تحسس الشيء وتحسس منه : طلب معرفته بالبحث الدقيق عنه . قال تعالى : ﴿ يَنْبَغِي اذْهَبُوا فَتَحَسُّوْا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ [يوسف] (٨٧) . أي : تتبعوا أخبارهما و ابحثوا عنهما بعناية شديدة . [ القاموس القويم ١/ ١٥٤ ] .

راجعته على الأصل وخرج أحاديثه فضيلة الشيخ محمد المنراوى المستشار بالأزهر والاستاذ عادل أبو المعاطي .